الأب بولس الياس اليسوعي

يسوع المسيح

شخصيته - تعاليمه

الطبعة الثانية
منقحة ومزيد عليها

منشورات المطبعة الكاثوليكية - بيروت
توزيع المكتبة الشرقية - ساحة النجمة - بيروت

الأب بولس الياس اليسوعي

يسوع المسيح

شخصيّته - تعاليمه

الطبعة الثانية
منقحة ومزيد عليها

منشورات المطبعة الكاثوليكيّة - بيروت
توزيع المكتبة الشرقيّة - ساحة النجمة - بيروت

الاب بولس الياس اليسوعي

يسوع المسيح

شخصيّته - تعاليمه

الطبعة الثانية

منشورات المطبعة الكاثوليكية - بيروت

Reimprimi potest

Beryti, 21 septembris 1963
EUSTACHIUS J. SMITH, O.F.M.
Vicarius Apostolicus Berytensis

المقدمة

لما كثرت الدراسات العلمية في العصر الحاضر حول شخصية المسيح وتعاليمه السامية في مختلف اقطار العالم ، واخذ الكثيرون من ادباء وفلاسفة ولاهوتيين يتسابقون الى تحليل تلك الشخصية الفريدة في تاريخ الوجود واستيعاب تعاليمه الخالدة وقد فاه بها منذ الفي سنة ، لعلّهم يجدون عنده الحل المنشود لمشاكل حياتهم المتشابكة التي تزداد يوماً فيوماً تعدداً وتعقداً ، رأيت من الضروري ان اقدم الى اهل هذا الشرق العزيز تحليلاً عن شخصية السيد المسيح مواطنهم ، مردداً عليهم قول يوحنا المعمدان لجموع الشعب : « في وسطكم من لستم تعرفونه » (يوحنا ١ /٢٦).ان تعاليمه كانت وما برحت هدًى للامم في مسيرها الى الله ، وستبقى على الدهر اجمل واسمى ما وصل الينا من التراث الفكري حتى الآن . فانجزت الطبعة الاولى من هذا الكتاب بعد ان تلطف حضرة العلامة الاب نصرالله صفير (سيادة المطران نصرالله صفير الحالي النائب البطريركي الماروني السامي الاحترام) ونقحها واعاد النظر فيها، ودفعت الكتاب الى القراء ، فطفقوا يطالعونه بجد وتدقيق . وقد ابدى لي الكثيرون منهم آراءهم في بعض القضايا التي كنت قد غفلت عنها او ذكرتها بايجاز ، فاخذت ملاحظاتهم بعين الاعتبار وشرعت أعدّ الطبعة الثانية لهذا الكتاب . وقد أضيفت اليها ابحاث جديدة ، منها بحث في انجيل برنابا ، مُشكلة المسيح في التاريخ ، سر الفداء على انوار العقل والفلسفة ، المسيح سيد التاريخ وقطبه . المسيح وشهوده في الزمن وغيرها من الابحاث . وها هي الطبعة الثانية تظهر بحلة جديدة لكل من يتلمس طريق الحقيقة والحقيقة عند المسيح القائل « انا الطريق والحق والحياة . لا احد يأتي الى الآب الاّ بي » (يوحنا ١٤ /٦) . « انا نور العالم من تبعني فلا يمشي في الظلام بل يكون له نور الحياة » . » (يوحنا ٨ /١٢) .

فهيّا بنا ندرس شخصية ذاك الذي عاش تحت سماء شرقنا ردحاً من الزمن ومشى على حدود طرقنا الضيقة ليقودنا الى الله ابيه ، وارسل الى العالم من اعالي جبالنا شعلة النور التي ما انفكت شعوب الارض تتناقلها عبر الزمن حتى يومنا هذا .

المؤلف

الاب بولس الياس اليسوعي

اصطلاحات الكتاب المقدس

١ /٣ اي فصل واحد وعدد ٣

من العهد العتيق

تك	:	سفر التكوين
رحيل او خروج	:	سفر الرحيل او الخروج
احبار	:	سفر الأحبار
ملوك ١	:	سفر الملوك الاول
ملوك ٢	:	سفر الملوك الثاني
ملوك ٣ او ٤	:	سفر الملوك الثالث او الرابع
اخبار ١	:	سفر اخبار الايام الأولى
اخبار ٢	:	سفر اخبار الايام الثاني
مز	:	مزمور من سفر المزامير
أشعيا	:	نبوءة اشعيا
إرميا	:	نبوءة إرميا

من العهد الجديد

متى	:	انجيل متى
مر	:	انجيل مرقس
لو	:	انجيل لوقا
يو	:	انجيل يوحنا
اعمال	:	سفر اعمال الرسل
روما	:	رسالة القديس بولس الى الرومانيين
كور ١	:	رسالة القديس بولس الاولى الى اهل كورنتس او الى الكورنثيين
كور ٢	:	رسالة القديس بولس الثانية الى اهل كورنتس او الى الكورنثيين
تسا ١	:	رسالة القديس بولس الاولى الى اهل تسالونيكي
تسا ٢	:	رسالة القديس بولس الثانية الى اهل تسالونيكي
تيم ١	:	رسالة القديس بولس الاولى الى تلميذه تيموتاوس
تيم ٢	:	رسالة القديس بولس الثانية الى تلميذه تيموتاوس
عبر	:	رسالة القديس بولس الى العبرانيين
يوحنا ١	:	رسالة القديس يوحنا الاولى
يوحنا ٢ او ٢ يو	:	رسالة القديس يوحنا الثانية
رؤيا	:	اي سفر رؤيا يوحنا الانجيلي
بطرس ١	:	رسالة القديس بطرس الا ولى
بطرس ٢	:	رسالة القديس بطرس الثانية

الجزء الأول

شخصية يسوع المسيح

توطئة
في صحّة الأناجيل وصدقها

١ – المصادر التاريخية غير المسيحية

ا – التلمود
ب – يوسيفوس المؤرخ
ج – تاكيتوس
د – بلينوس الاصغر

٢ – المصادر التاريخية المسيحية

ا – الانجيل الشفهي وخطوطه الكبرى
ب – رسائل بولس
ج – شهادة الكنائس في الاناجيل الاربعة
د – انجيل متى وميزاته
ه – انجيل مرقس وميزاته
و – انجيل لوقا وميزاته
ز – انجيل يوحنا وميزاته
ح – في سلامة الاناجيل من التحريف
ط – في صدق مقال الانجيل

٣ – ملحق ١

الاناجيل المزيفة
انجيل برنابا

لما كانت بغيتنا من هذا الكتاب النظر في رسالة يسوع المسيح واستقراء تعاليمه وتحليل شخصيته ، كان لا بدّ لنا بداءة ذي بدء من ان نبحث في تلك المصادر التي نستقي منها معلوماتنا عنه بحثاً دقيقاً يستند الى التاريخ والمنطق ويتيح لنا ان نقيم الدليل على صحتها وصدقها .

لهذا بعد ان نلمع الى المصادر التاريخية غير المسيحية نتوقف على المصادر التاريخية المسيحية التي تنحصر في شهادة الرسل حتى اذا ثبت لدينا صدقها قبلناها قاعدة للايمان ؛ واذا بان لنا خطأها نبذناها .

١ – المصادر التاريخية غير المسيحية

لقد ذكر بعض المؤرخين اليهود والرومان الوثنيين شيئاً عن حياة السيد المسيح جاء مصداقاً لما قاله الرسل عنه في الاناجيل المقدسة :

ا – التلمود (مجموعة تقاليد اسرائيلية وشروح للشريعة)

ذكر التلمود ان الاسرائيليين أقرّوا بعجائب يسوع الناصري لكنهم نسبوها تارة الى الشيطان وطوراً الى « يهوه » إله اسرائيل الذي استخدم المسيح اسمه (فصل ١٢ : ١ — ٢٧) .

ب – يوسيفوس المؤرخ (٣٧–١٩٥)[١]

أتى هذا المؤرخ على ذكر قداسة يوحنا المعمدان واستشهاد يعقوب نسيب يسوع المسيح (عاديات اليهود ١٨ : ٥/٢ و ٢٠ : ٩/١) وأدّى في المسيح ، في معرض كلامه عن عصيان اليهود على بيلاطس ، هذه الشهادة . قال :

« كان في ذلك العهد (اي عهد هيرودوس انتيباس) انسان حكيم — لو صحّ ان نسميه انساناً — اسمه يسوع . وكان يأتي العجائب ويعلّم من يرغبون في الوقوف على

---

١) فلافيوس يوسيفوس مؤرخ يهودي عاش في فلسطين وتقلب في ارفع مناصب الدولة فيها . اشتهر بسعة اطلاعه وترك مؤلفين قيمين هما : « عاديات اليهود » و « الحرب اليهودية » . لم يعتنق المسيحية رغم اعجابه بالمسيح .

الحقيقة فاجتذب اليه عدداً وفيراً من اليهود واليونانيين . وهذا كان المسيح . وقد سعى به زعماء طائفتنا لدى بيلاطس فأماته على الصليب . لكن اشياعه ما انفكّوا عن حبّهم له ، وقد ظهر لهم حياً في اليوم الثالث بعد موته كما تنبأ الانبياء بذلك وبما سواه من الأمور بشأنه . وهناك جماعة من الناس ما تزال باقية حتى اليوم تدعى نسبة اليه باسم « مسيحيين » (عاديات اليهود ١٨ : ٣/٣) .

وقد اثبت النقد العلمي صحة هذه الشهادة التي تناقلتها المخطوطات العبرية واليونانية والتي اوردها اوسابيوس المؤرّخ المسيحي الشهير في اوائل القرن الرابع في كتابه المعروف « اثبات الانجيل » (قسم ٣ فصل ٥) . (راجع : مشرق، ١٩١١ الانجيل الشريف للاب رباط اليسوعي . ومين ، الاباء اليونان ٢٢/٢٢٢) .

ج – تاكيتوس (٥٥–١٢٠)[١]

واليك ما قاله هذا المؤرّخ عن المسيحيين في معرض وصفه حريق روما : « وقد دُعوا مسيحيين نسبة الى المسيح الذي حكم عليه بيلاطس البنطي بالموت على عهد طيباريوس . وقد انتشرت هذه الشيعة الخبيثة انتشارًا غريباً ليس في اليهودية منشإها وحسب ، انما في روما عينها . فجعل الحكام يعاقبون من يجاهر بمسيحيته وهكذا قد حكموا على عدد غفير منهم ليس لأنهم أحرقوا روما ، بل لأنهم يبغضون الجنس البشري » . وقد اراد بذلك ان المسيحيين يترفعون عن الملاذ الحسية التي كان ينغمس فيها الرومان على ما ألمع اليه بولس الرسول في الفصل الأول من رسالته الى أهل روما (راجع « كتاب الحوليّات » الثالث : ١٥، ٤٤ Annales) .

د – بلينوس الاصغر (٦١–١١٥)

لقد كان حاكماً من قبل روما على بيثينيا. فبعث ، قياماً بواجب وظيفته ، بتقرير الى الامبراطور تراجانوس سنة ١١١ يطلعه فيه على انتشار الدين المسيحي قال فيه : « انك لا تجد مدينة او قصبة او قرية حقيرة لم يدخلها هذا المذهب . لقد أقفرت هياكل آلهتنا وليس بعدُ من يقدم الذبائح على مذابحها ... ولقد أمرت بالقاء القبض على بعض الخادمات المدعوات شماسات» « وبتعذيبهنّ فلم اجد فيهنّ سوى مغالاة في العبادة . ويجتمع هؤلاء المسيحيون في يوم معيّن . قبيل الفجر ، فينشدون الاناشيد للمسيح إلههم ويتعاهدون بالايمان على مجانبة السرقة والكذب والزنى» (رسالة ٩٧) .

١) مؤرخ روماني وثني عاصر الرسل ووصف اضطهاد نيرون للمسيحيين سنة ٦٤

٢ – المصادر التاريخية المسيحية

تقتصر هذه المصادر على رسائل القديس بولس والاناجيل الاربعة ، وهي تبحث في سيرة حياة المسيح منذ مولده العجيب في بيت لحم ، وما زخرت به حياته القصيرة من احداث ، حتى موته على الجلجلة وقيامته من القبر وصعوده الى السماء .

ا – الانجيل الشفهي وخطوطه الكبرى

تعني كلمة انجيل اليونانية « الحلوان » وهو ما تعطيه من أتاك ببشرى ، ثم اريد بها البشرى عينها . أمَّا السيد المسيح فقد استعملها بمعنى « بشرى الخلاص » التي حملها الى البشر . واستعملها الرسل من بعده بالمعنى عينه ، ولربما استعملوها ايضاً بمعنى ملخص تعليم المسيح او سيرة حياته وموته (راجع متى ٢٦/١٣ ، افسس ١٢/١ وغلاطية ٧/٢) .

وما لبثت هذه الكلمة ان استعملت بمعنى الكتاب الذي يتضمن هذه البشرى . وقد غلب استعمالها بهذا المعنى منذ اواخر القرن الأول حتى اليوم . وهكذا نقول انجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا .

ولا مشاحة في ان الانجيل انتشر اولا شفاهاً ثم كتب بعد سنين . ذلك لأن المسيح لم يثبت كتابةً هذه البشرى التي طلع بها على العالم ، ولا سيما لأنه هو البشرى مع كنيسته التي ما أسَّسها على الاناجيل المكتوبة انما على شخصه الحيّ وعلى شخص رأس رسله ونائبه المنظور بطرس وخلفائه حين قال : « انت الصخرة ... » (متى ١٦/١٨—١٩) . لهذا ، راح ينثر تعاليمه امثالاً واقوالاً تنبض بالحياة ولم تدوّن الاّ وحوض البحر المتوسط آهل بالمسيحيين . لقد جعل نفسه موضوع تعاليمه فسلَّم اتباعه شخصاً يتفجـرّ حياة لا كتاباً جافاً بارداً . واذا بنا نسمعه يقول لا كموسى وسائر الانبياء : « لقد اتيتكم بتعليم جديد يرشدكم الى طريق الحياة » . انما « انا نور العالم (يو ٨/١٥) . انا الطريق والحق والحياة (يو ١٤/٦) ... انا القيامة والحياة ، من آمن بي وان مات فسيحيا» (يو ١١/٢٥) . ونصب نفسه مثالاً أعلى اثار اعجاب سامعيه فنظروا اليه على غير ما تعوّدوا النظر الى علمائهم (مر ١/٢٧ ولو ٢٤/٢١) .

فمن البديهي ، والحالة هذه ، ان يعود أمر النظر في صحة ما يقال ويكتب عنه الى كنيسته التي خوَّلها سلطان نشر رسالته والحفاظ عليها سالمة من كل شائبة . وقد قال لتلاميذه : « اذهبوا الآن وتلمذوا كل الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس . وعلموهم ان يحفظوا جميع ما اوصيتكم به » (متى ٢٨/١٩) .

وقامت الكنيسة بهذه المهمة خير قيام فقابلت ما كتبه بعضٌ من الرسل عن مؤسسها بما نلقته شفاهاً عنه فأقرّت ما كتبه الانجيليون الاربعة ورذلت ما سواه من الاناجيل المزيّفة (راجع ملحق ١) .

ومن حسنات هذه الطريقة التي اتّبعها الرسل في نشر تعاليم سيدهم شفاهاً اولاً ثم كتابة، انها اتاحت لهم ان ينتهجوا اسلوباً اسقطوا منه ما لا فائدة فيه للتبشير وضمّنوه ما عاينوه من مشاهد خبروا جدواها في اذهان « الموعوظين » سامعيهم (اعمال ٢٨/٢٥؛ غلاطية ٦/٦) . وقد دعا بولس الرسول هذا التعليم الشفهي « تقليداً » (تسا ٢ ١٢/٦؛ ١ كور ١٥/٣) (ووديعة تيم ١: ٦/٢٠). ويفترض لوقا ان صديقه تيوفيلوس الذي يكتب له انجيله قد ألمّ به منذ زمن شأن غيره من المسيحيين لما وصله منه شفاهاً .

امّا خطوط هذا الانجيل الشفهي الكبرى فتتناول : استعداد المسيح للتبشير وقيامه برسالته في الجليل ، وانتقاله من الجليل الى اليهودية ولا سيما الى اورشليم ، وأخيراً أيامه الاخيرة وما رافقها من مآسٍ وما عقبها من امجاد .

وقد اتّبع بطرس هذه الخطوط الرئيسية من حياة المسيح يوم شرح الانجيل لقائد المئة كورنيليوس فأعدّه لقبول سر المعمودية (اعمال ١٠/٣٧ ...) . وقد سار الرسل على غراره في تبشيرهم فتوقّفوا على الكثير من العجائب التي أتاها معلمهم امامهم وألّبت عليه الجماهير (يو: ٢) ، دونما نظر الى مواقعها وما رافقها في اغلب الاحيان من ظروف . وهل من حاجة الى القول ان الانجيل الشفهي يبقى أغزر مادة وأفعل في الاذهان لأنه روح يحيي ويُلهم انجع الوسائل لخلاص الناس ؟

ولا يخفى ان معظم ما وصل الينا من روائع الادب القديم سواء أكان يونانياً أم رومانياً أم عربياً انما نحن مدينون به لحافظة جمهرة من الرواة . وان تعليم المسيح وما يشيع فيه من بساطة اتخذت اطاراً لها حياة الفلاح والصياد والراعي والكرام في فلسطين لأهون على الحفظ من تلك الآثار الادبية القديمة .

وممّا يسهل هذا الانجيل الشفهي على الحفظ انه يعتمد اسلوباً شرقياً بحتاً تكثر فيه التشابيه والاستعارات والامثال وما يرافقها من مغالاة مستحبة لدى الشعوب السامية (راجع مثل البيت المبني على الرمل والبيت المبني على الصخر . متى ٧/٢٤ ، وما أنذر به المسيح كورزين وبيت صيدا من ويلات ، متى ١١/١٢ . ونصحه بعدم مقاومة الشر بالشر ، متى ٥/٣٩ . وصعوبة دخول الغني ملكوت الله ، مر ١٠/٢٥) . وهو كثيراً ما يستعمل التكرار والتضاد (راجع التطويبات ، متى ٥ : قالوا لكم ... أمّا انا فأقول

لكم) . ان هذه اللهجة الخطابية وما فيها من صور بارزة وما يرافقها من وعود ووعيد لما يسهّل على السامع الحفظ ، لا سيما في تلك الأيام التي كانت الذاكرة فيها اقوى على الحفظ من ذاكرتنا نحن ابناء عصر الورق ، على نحو ما قال « جان ويس » .

ب — رسائل بولس الرسول

كان بولس (المدعو اولاً شاول) يحارب المسيح في صفوف اعدائه الفريسيين ، وقد استخدم في هذه الحرب ما أوتيه من ذكاء وقّاد وحماس لاهب وما وفّرته له ثقافته العبرانية اليونانية من علوم ومعارف . لكنه ما ان تراءى له المسيح ، بعد مضيّ ثلاث سنوات على قيامته . على طريق دمشق — وكان بولس ذاهباً اليها ليتعقب المسيحيين فيها — حتى بدّل بولس موقفه من الدين الجديد . فذهب وزار بطرس ويعقوب ويوحنا وهم عمدة الرسل (غلاطية ١/١٨) وأتمّ ما أوحى به اليه السيد المسيح من العقائد بما اقتبسه منها عنهم (اعمال ٢٢/١٤) . وانبرى اذ ذاك يبشر بما عرف به من حماسة ويطوف في انحاء آسيا الصغرى وبلاد اليونان وايطاليا ويعظ شعوبها على اختلاف طبقاتهم ويبعث اليهم بالرسائل[١] وقد ضمّنها مجمل العقيدة المسيحية بعد ان عمق عليها وأوضحها — وهذا ما لم يفعله احد من الانجيليين — بما أثر عنه من نفاذ بصيرة وعمق تفكير . وقد اصبح الاناء المصطفى « يحمل اسم الرب أمام الامم والملوك وبني اسرائيل (اعمال ٩/١—٢٧) .

لقد ترك لنا بولس الرسول عن المسيح رسماً واضح القسمات وان اختلف ظاهراً عن رسم مسيح الاناجيل . فمسيح بولس هو مسيح الإيمان اكثر منه مسيح التاريخ . ولا عجب فبولس الفيلسوف واللاهوتي لم يرَ المسيح في الجسد ولا رافقه كباقي الرسل . فمسيحه هو ابن الله (روما ٣/٨ و ٢٣ ؛ غلاطية ٤/٤) ؛ له طبيعتان إلهية وانسانية ؛ تجسد واتخذ صورة عبد (فيلبي ٢/٧) ؛ وتحدّر من ذرية ابراهيم حسب الجسد (غلاطية ٣/١٦) ومن نسل داود (روما : ١/٣) ، وولد من المرأة تحت الناموس الاسرائيلي (غلاطية ٤/٤) وتألم ومات مصلوباً وقبر وقام من بين الاموات كور ١ : ١/٢٤—٢٧ وف ١٥) . وتبسّط بولس كذلك في وصف رسم سر الافخارستيا (كور ١ : ١١/٢٣—٣٠) .

---

١) اليك لائحة رسائل بولس وفقاً لتواريخ كتابتها : رسالتان الى أهل تسالونيكي سنة ٥٤ — رسالته الاولى الى اهل كورنتس سنة ٥٥ — رسالته الى أهل روما ٥٦ أو ٥٧ ؟ — رسائله من السجن الى أهل افسس وفيلبي وكولسي سنة ٦١ و٦٣ . ثم له رسالة الى أهل غلاطية ورسالتان الى تلميذه تيموتاوس ورسالة الى تيطس ، ورسالة الى فيليمون ورسالة الى العبرانيين ورسالته الثانية الى أهل كورنتس .

وهو في كل ما اورده يتفق تمام الاتفاق وما اورده الانجيليون الاربعة . ولربما حرص – مبالغة منه في الحيطة والحذر – على التمييز بين ما يقوله نقلاً عن المسيح وما ينصح به من عندياته (راجع قوله في البتولية كور ١ : ١٢/٧ ...) .

اما من الوجهة التاريخية فلهذه الرسائل قيمة كبرى لأنه كتب معظمها بين سنة ٥٥ وسنة ٦٣ م ، بيد ان الانجيليين لم يبدؤوا بكتابة اناجيلهم الاّ في سنة ٦٣م ، وهذا ما يحدونا على القول ان بولس استقى مضمون رسائله من الانجيل الشفهي الذي استقى منه الانجيليون ما ضمّنوه اناجيلهم ، وهذا ما يجعل لهذه الرسائل قيمتها القانونية بحيث انها تشكل جزءًا من العهد الجديد .

ج – شهادة الكنائس في الأناجيل الأربعة

لا تقرّ الكنيسة المقدسة الاّ اربعة اناجيل قانونية تعتبرها مصدرًا موثوقاً به لحياة المسيح واقواله واعماله ، لكونها ترقى جميعها الى عصر المعلّم الالهي . وقد كتب الانجيليَين الاولَين منها متى ويوحنا الرسولان اللذان عرفا المسيح ورافقاه في تجواله في فلسطين زهاء ثلاث سنوات وشهدا عجائبه وسمعا تعاليمه الالهية . وكتب الانجيليَين الباقيين التلميذان مرقس ولوقا وقد أخذا معلوماتهما عمّن عايشوا المسيح من رسل وتلاميذ ومؤمنين . وسرعان ما شاعت هذه الاناجيل الاربعة في الاوساط المسيحية في بدء الكنيسة وقد اطلع عليها جمهور من الرسل والتلاميذ الذين عرفوا المسيح عن كثب ، ولم يقم بينهم من اعترض على صحة ما جاء فيها . وهذا شاهد على صدقها وسلامتها من التحريف .

وتعتمد الكنيسة في اقرارها صدق هذه الاناجيل على درس المخطوطات والوثائق التاريخية درساً علمياً لا مجال معه الى الشك ؛ وتستند كذلك الى شهادات الكنائس المختلفة وقد اعترفت جميعها بصحة نسبة هذه الاناجيل الى اصحابها . واليك بعضاً من هذه الشهادات القيّمة :

١ – شهادة الكنيسة المصرية

ان خير شهادة في هذه الكنيسة عن الاناجيل نجدها لدى اكليمنضوس الاسكندري وتلميذه اوريجانوس .

واليك ما قاله اكليمنضوس[1] في انجيل مرقس : « هذا ما وصل اليّ من الاقدمين

١) اكليمنضوس او اقليموس الاسكندري (١٥٠–٢١٧ م) عالم كبير نشأ وثنياً ثم اعتنق المسيحية .

عن انجيل المسيح حسب مرقس : فيما كان بطرس يبشر جهرًا بالكلمة في مدينة روما بالهام الروح وينشر الانجيل رغب كثير من السامعين الى مرقس الذي رافق بطرس مدة طويلة وحفظ ما سمعه منه ان يكتب لهم ذلك ففعل واعطاهم سفره ولمّا علم بطرس بالأمر لم ينشطه ولم يمنعه » (راجع الآباء اليونان : الثامن ٨٩٠، ١١٩٤ وعشرين ٥٥١)

وقال ايضاً عن انجيل يوحنا : « ان يوحنا كتب بعد المبشرين الآخرين لأنه لاحظ ان الاناجيل السابقة لم تدوّن عن ترجمة المسيح الاّ الأمور الحسية ، فتلبيةً لدعوة بطانته وبعد استلهام الروح القدس عقد العزم على كتابة «انجيل روحي» .

امّا اوريجانوس[1] فقد أدّى في هذه الاناجيل الاربعة وكتبتها اكثر من شهادة . قال : « لقد عرفنا من الاقدمين ان الاناجيل اربعة وهي وحدها جديرة بالقبول دونما نزاع في جميع انحاء كنيسة الله المنتشرة تحت السماء . فالانجيل الاول كتبه متى الذي كان اولاً عشّارًا ثم صار رسولاً ليسوع المسيح ، باللغة العبرية لفائدة اليهود الداخلين في الايمان . وقد نمي الينا ان الثاني كتبه مرقس كما سمعه من بطرس ؛ وان الثالث كتبه لوقا لفائدة غير اليهود وقد اوصى به بولس . أما الاخير فهو انجيل يوحنا » (الاباء اليونان : الثالث عشر ٨٢٩ وعشرون ٥٨١) .

ولمّا قام الفيلسوف الوثني قلسوس بحملاته العنيفة على المسيحية انبرى له العلامة اوريجانوس فدحض مزاعمه بعد ان قابل مخطوطات الاناجيل الاربعة واثبت جانباً كبيرًا منها في مؤلفاته فشرحها وعلّق عليها .

٢ – شهادة الكنيسة الأفريقية

نشأ في هذه الكنيسة في اواخر القرنين الثاني والثالث ، في شمالي افريقيا ، عالمان كبيران هما القديس قبريانوس والعلامة ترتليانوس[2] . لقد دافع الاول منهما عن الكتاب

درس في مدرسة الا سكندرية وترك مقالات قيمة في حقيقة الدين المسيحي منها : «الوضعيات» و«المنتخبات» و«المعلم» وهذا المؤلف الاخير هو خير ما وصل الينا من ذلك العهد .

١) أوريجانوس (١٨٥–٢٥٤) تلميذ اكليمنضوس ونابغة الاسكندرية ، وشيخ فلاسفة عصره .

٢) القديس قبريانوس (١٨٠–٢٥٨ م) اسقف قرطاجة . ترك مؤلفات عدة اورد فيها كثيراً من آيات العهد الجديد . اما ترتليانوس (١٦٠–٢٤٠) فكاتب وفقيه شهير . كان اولاً وثنياً ثم اعتنق الدين المسيحي لاعجابه بالشهداء الذين كانوا يذهبون الى الموت والفرح باد على وجوههم . انحاز في اواخر حياته الى بدعة « المونتانيست » القائلة بان المسيح لا يغفر الكبائر . كتب باللاتينية .

المقدس ولا سيّما عن الاناجيل الاربعة ، وحضّ ابناء رعاياه في مواعظه الكثيرة على ايثار الموت على ان يسلمّوا هذا الكتاب الى الوثنيين ؛ وقد استشهد هو في سبيل الدفاع عن عقيدته المقدسة .

اما ترتليانوس فلشهادته اهمية كبرى لكونه ، رغم خروجه عن العقيدة الكاثوليكية ، يعترف بوجود الاناجيل الاربعة ويذكر اسماء كتبتها وصحة نسبتها اليهم استناداً الى التقليد الشفهي المتناقَل ، ويشرح نصوصها بكاملها تقريباً ،في كتبه ممّا حدا العالم الالماني Reuss على وضع كتاب فيه دعاه « العهد الجديد في اعمال ترتليانوس » . وممّا قاله في هذا الصدد ما جاء في كتابه « ضد مرقيون الهرطوقي» : « اربعة يثبتون لنا الايمان في اسفارهم : اثنان من الرسل وهما متى ويوحنا واثنان من التلاميذ وهما لوقا ومرقس » . وأردف في موضع آخر قوله ؛ « ان السلطة التي تثبت حقيقة انجيل لوقا الذي كان يقرّه مرقيون هي عينها تثبت حقيقة اناجيل متى ويوحنا ومرقس واذا نُسب انجيل هذا الأخير الى بطرس فما ذلك الاّ لأن مرقس كان ترجماناً لبطرس كما ان انجيل لوقا يُنسب الى بولس » (راجع الاباء اليونان : الثاني ٣٦٣، ٣٦٥) .

٣ – شهادة الكنيسة الاسيوية والغالية

ولنا في هذه الكنيسة شاهد جليل القدر على صدق الاناجيل الاربعة هو القديس ايريناوس[١] . وان ما يجعل لشهادته قيمة خاصة هو انها ترقى في تسلسل تاريخي محكم حتى المسيح . فالقديس ايريناوس كان تلميذاً لبوليكربوس مطران ازمير وهذا الاخير كان تلميذاً ليوحنا الرسول صاحب الانجيل الرابع وتلميذ المسيح الحبيب . وممّا قاله القديس ايريناوس في هذا الموضوع ما يلي : « ان الاناجيل الموحى بها اربعة ليس الاّ . وقد جمع هذا العدد الروح القدس فلا سبيل الى الزيادة عليه . وقد كتب الانجيليون هذه الاسفار المقدسة ودفعوها الينا لتكون اساس معتقدنا وعموده في المستقبل . وهكذا نشر متى انجيله للعبرانيين في لغتهم بينما كان بطرس وبولس يبشران في روما ويؤسسان الكنيسة . وبعد ان خرجا من روما نقل الينا مرقس تلميذ بطرس وترجمانه في انجيله الحقائق التي بشر بطرس بها. وكتب لوقا رفيق بولس في انجيله ما كان يبشر به معلمه . وأخيراً نشر يوحنا بدوره انجيله اذ كان في افسس من اعمال آسيا ، ويوحنا

١) ايريناوس (١٤٠–٢٢٢) عالم قديس ومؤرخ شهير ولد في اسيا الصغرى (تركيا) وانتقل الى غاليا (فرنسا) وصار اسقفاً لعاصمتها ليون . مات شهيداً . له عدة مؤلفات دحض فيها بدع زمانه وأثبت الايمان الحق لا سيما في كتابه الشهير « ضد الهرطقات » وفيه خمسة اقسام .

هو التلميذ الحبيب الذي استحق ان يسند رأسه الى صدر الرب » (راجع الآباء اليونان: السابع ٨٤٤ ، ٨٨٤ ، وعشرين ٤٥٠ ، من مجموعة ميغن : Migne) .

٤ – شهادة الكنيسة الفلسطينية

ويشهد على صحة الاناجيل في الكنيسة الفلسطينية القديس يوستينوس الشهيد[١] الذي وقف حياته وعلومه على الدفاع عن الدين المسيحي . لقد طاف في هذا السبيل الاصقاع الشرقية ونقب في مصر وبلاد اليونان وايطاليا عن مخطوطات الانجيل وبحث عن مصادره وحلّلها تحليلاً منطقياً نفى معه كل ريب في صحتها بحيث دعاها « مفكرات الرسل » (راجع الآباء اليونان، السادس ٤٢٩، ٦٨٨، ٧١٧، ٧٢١ من مجموعة ميغن) .

٥ – شهادة الكنيسة الانطاكية

ونجد في هذه الكنيسة القديس اغناطيوس[٢] مطران انطاكية الذي اورد في رسائله شذرات من انجيل يوحنا ، وكذلك طاطيانوس[٣] الذي كتب سيرة حياة المسيح طبقاً للاناجيل الاربعة باسلوب قصصي جذاب وقد دعاها « القلادة » . فترجمت الى السريانية وانتشرت انتشاراً واسعاً لا سيا في الرها .

٦ – شهادة كنائس فريجية

وأبرز شاهد في هذه الكنائس على صحة الاناجيل الأربعة هو پاپياس (٩٥ – ١٦٥ م) المؤرّخ الكبير واسقف هيربوليس الذي عرف بعضاً من تلاميذ الرسل وصادق منهم بوليكربوس تلميذ يوحنا الرسول . واليك ما اورده في هذا المجال . «كان يوحنا الرسول الشيخ يقول ان مرقس دوّن اقوال المسيح واعماله بكل دقة رغم انه لم يعرف الرب ولم يرافقه ، لكنه رافق بطرس الذي كان يبشر وفقاً لحاجة السامعين دونما ترتيب في نقل الاخبار .... » وأردف قوله عن متى : « لقد كتب متى اعمال الرب في اللغة العبرانية ، وكان كلّ يترجمها على قدر استطاعته » .

---

١) ولد يوستينوس في نابلس من اعمال السامرة. اكبّ على تحصيل الفلسفة . تعمد سنة ١٣٠ وترك كتباً قيمة دافع فيها عن الدين وعرضها على القياصرة . استشهد سنة ١٦٥ .

٢) استشهد القديس اغناطيوس في روما على عهد تراجانوس سنة ١٠٧ فقضمته الوحوش .

٣) ولد طاطيانوس سنة ١٣٠ في بلاد ما بين النهرين وتتلمذ للقديس يوستينوس .

٧ – شهادة الكنيسة الرومانية

لقد عثر العالم موراتوري في مكتبة ميلانو في ايطاليا على مخطوطة من رقّ عرفت باسمه وهي تتضمّن لائحة بالاسفار القانونية التي كانت تقرّها الكنيسة الرومانية في منتصف القرن الثاني للمسيح . ولا يخفى ما لهذه الشهادة من قيمة ؛ وقد جاء فيها ما هذا ترتيبه : « سفر الانجيل الثالث حسب لوقا . ولوقا هذا كان طبيباً اصطحبه بولس في اسفاره . لقد كتب سفره باسمه بدقة وترتيب على انه لم يشاهد المسيح بالجسد. امّا السفر الرابع من الاناجيل فهو ليوحنا احد التلاميذ » .

وان كان لنا ما نستنتجه من هذه الشهادات المتوافقة في الاناجيل الاربعة يؤدّيها قديسون وفلاسفة ومؤرخون في سبع كنائس مختلفة ، وقد صدّق البعض منهم بدمائه هذة الشهادة التي قبلها الشعب المسيحي لمطابقتها الانجيل الشفهي المتناقل في ذاك العهد ، فهو ان هذه الاناجيل هي مختصر بشارة المسيح ولا سبيل الى ان يرقى الشك اليها والى صدق مقالها .

د – انجيل متى وميزاته

كتب متى انجيله بالآرامية حوالى سنة ٤٤ ، لقوم من اليهود المتنصّرين حديثاً . فأثبت ما شاع على ألسن الرسل والتلاميذ وما عرفه بنفسه من الانجيل الشفهي. لكن النسخ الآرامية فقدت ولم يبقَ منها سوى ترجمتها اليونانية .

ولمّا كان متى يكتب لقومه بني اسرائيل ، حاول ان يظهر ان هذا المسيح الذي اصغى الى تعاليمه وعاين عجائبه وخبر قداسته انما هو من تحدّثت عنه انبياء اسرائيل في العهد القديم . لذلك نراه يلمح دوماً الى ما جاء عن المسيح من نبوءات . فهو يبدأ انجيله بايراد لائحة باسماء اجداد المسيح الذي يرقى الى داود بن يسّى من سبط يهوذا ، ويتوقف عند تسميته « بابن داود » على ما كان يهتف به المرضى عندما يلمحونه (تك ٤٩/٨–١١ ؛ ملوك ٢: ٢٣/١–٦ ؛ اشعيا ١١/١–١١ ؛ مز ١٣١/١ ؛ متى ١٥/٢٢) ؛ ويشير عند ذكر مولده بالجسد من عذراء الى ما اوضح اشعيا (١٤/٧) في بيت لحم (متى ٢/٥ ؛ ميخا ٥/٢) والى عوده من مصر ونشر رسالته أولا في الجليل (متى ٤/١٥؛ اشعيا ٩/١–٢) ؛ والى دخوله اورشليم دخول ملوك اسرائيل (اشعيا ٦٢ ؛ ذكر ٩/٩ ؛ متى ٢١/٥) واخيراً توقّف على نبوءة آلامه لدى اشعيا وقد رآها حقيقة ملموسة (متى ٢٦ و ٢٧ ؛ اشعيا ٥٣) .

ويعنى متى عناية خاصة في انجيله بشعبه الاسرائيلي فكأنه لا يرى المسيح الاّ من خلال بني قومه – اذا صحّ التعبير – ففلسطين ، في نظره ، « ارض اسرائيل » وسكانها « آل اسرائيل » ومدنها « مدن اسرائيل » والله تعالى « إله إسرائيل » وعاصمتها المدينة المقدسة اورشليم « قبلة اسرائيل » . والرب اختار اسرائيل من دون الامم (متى ١٥/ ٢٤) والمسيح بدأ رسالته فيما بينهم وجدّ في طلب من ضلّ منهم (متى ١٠/٥–٦) .

وذكر من اقوال المسيح ما قارب من اقوال الانبياء فكأن عباراته عباراتهم ولهجته لهجتهم ، واذا بنا نسمعه يقول: « ان الجيل الشرير الفاسق ... » (متى ١٢/٣٩) ، « والويل لك يا كورزين ، الويل لك يا بيت صيدا لأنه لو صُنع في صور وصيدا ما صُنع فيكما من القوّات لتابتا من قديم بالمسوح والرماد » (متى ١١/ ٢١) . وقد قرّع الفريسيين ومتّى منهم تقريع الانبياء من خرج على نواميس الله (متى ٢٣) . وما فاته أن يذكّرهم بأن ناموس موسى لا يقوى على تبريرهم ما داموا هم لا يؤمنون بالمسيح ، كما ألمع بولس الرسول الى ذلك في رسالته الى الرومانيين والغلاطيين ؛ وان الزناة ليسبقونهم الى ملكوت الله ان هم أصرّوا على ضلالهم .

وقد اشار بنوع خاص الى ما يحتلّه الرسل الاثنا عشر من مقام في العهد الجديد وهم آباؤه الذين يجلسون على اثني عشر كرسياً ليدينوا اسباط اسرائيل الاثني عشر (متى ١٩/ ٢٨) ، والى ما خوّل المسيح بطرس من سلطان على الكنيسة جمعاء التي بناها عليه والتي ستقوم مقام الهيكل في اسرائيل.

ولم يخشَ بعد هذا ان يذكّر قومه بأن المسيح ، وان كان منهم ، فهو ليس لهم وحدهم . فهو مخلّص العالم وكنيسته جامعة كاثوليكية . فأورد في هذا السبيل قصة المجوس ودعوة الوثنيين الى الايمان ، هؤلاء الوثنيين الذين ربما سبقوا ابناء الملكوت الى التنعم في احضان الله : « ويأتون من المشارق والمغارب ويتّكئون في احضان ابراهيم واسحق ويعقوب في ملكوت السماوات وامّا ابناء الملكوت فيلقون في الظلمة البرانية » (متى ٨/ ١١) . ودعاهم الى التسامي عن المادة والصفح عن الاساءة في خطابه على الجبل متى ٥ ، ٦ ، ٧) الذي انما هو شرعة العهد الجديد .

هـ – انجيل مرقس

لقد أتى كتاب الاعمال على ذكر مرقس فدعاه تارة يوحنا الملقّب بمرقس وطوراً مرقس فقط (اعمال ١٥/ ٣٩) . ويستدلّ من هذا الكتاب على ان قوم مرقس كانوا

في اورشليم من ذوي اليسار وقد اعتنقوا الدين المسيحي على يد بطرس فتوثقت بينهم وبينه عرى الصداقة بحيث انه عندما أخرجه الملاك من سجن هيرودوس اغريبا الاول « توجه الى مريم أم يوحنا الملقّب بمرقس حيث كان كثيرون مجتمعين يصلّون » (اعمال ١٢/١٢) . ومرقس كان تلميذاً لبطرس وقد رافقه في معظم اسفاره .

وكذلك يقول بولس الرسول ان مرقس كان نسيباً لبرنابا وانه رافقه وبرنابا المذكور الى جزيرة قبرس لبغية التبشير (كولسي ٤/١٠) .

ويؤكّد اكليمنضوس الاسكندري ان مرقس كتب انجيله في حياة بطرس خلافاً لما زعمه القديس ايريناوس من انه كتبه بعد موته . فاذا صحّ ما جاء عن بطرس من انه استشهد سنة ٦٤ اي في بدء اضطهاد نيرون للمسيحيين وعن بولس انه استشهد سنة ٦٧ يكون مرقس قد كتب انجيله بين سنة ٦٠ وسنة ٧٠ . ومن المؤكّد انه كتبه قبيل سنة ٧٠ اي قبل خراب اورشليم في عهد طيطس لأنه لو كان كتبه بعد هذا التاريخ لكان اوضح بنوع اجلى وميّز بين ما يقصده المسيح في نبوءته عن خراب اورشليم وعن نهاية العالم والدينونة الاخيرة . ومن المعلوم ان المسيح كان يشير بتحذيره هذا الى خراب اورشليم اولا ثم الى الزمن الاخير لنهاية العالم ، حتى ولكل انسان ، داعياً الجميع للتيقظ والاستعداد الحسن لتأدية الحساب الاخير امام الله .

ميزاته

يمتاز انجيل مرقس عن انجيلي متى ولوقا بأنه تفرّد بذكره اعجوبة شفاء اخرس (مر ٧/٣) وشفاء اعمى بيت صيدا (مر ٨/٢٢—٢٦) ، وبايراده مثل الزرع الذي ينمو وزارعه لا يشعر به (مر ٤/٢٦—٢٩) ، وباشارته الى محاولة اقارب يسوع اختطافه (مر ٣/٢١) ، وبالماعه الى هرب الشاب الذي كان يتبع المسيح الى بستان الزيتون وعليه ازار على عريه ، حين القى الشرط القبض على المسيح . ويرجّح شرّاح الانجيل ان هذا الشاب هو مرقس عينه . وامّا ما تبقى مما اورده من حوادث فنجده لدى متى ولوقا .

ويدعو الأب دي غران ميزون اليسوعي انجيل مرقس « مفكّرة » لكونه يعين الواعظ على استذكار خطوط الانجيل الشفهي الكبرى . فقد اهمل مثلاً ذكر طفولة يسوع وخطابه على الجبل وارساله التلاميذ الى التبشير خلافاً لزميليه متى ولوقا .

وقد اعرض الوعاظ وشرّاح الكتاب المقدس فترة من الزمن عن انجيل مرقس

لاهتمامهم بالاناجيل الثلاثة الباقية . اما اليوم فقد اقبلوا عليه بكثير من العناية لما لمسوه فيه من صراحة هي نتيجة السذاجة .

وتجلّت هذه السذاجة في حرص مرقس على ابراز شخصية المسيح كما رآها معلمه بطرس . فكأنه تلميذ يعيد ما لقّنه استاذه . فرأى في المسيح ابن الله ومخلّص البشر . لمح الوهته من خلال ما اتاه من عجائب توقّف طويلاً على ذكرها في انجيله . ولمس ما فيه من سمو ورفعة جعلا بطرس – فجر الصيد العجيب وقد رأى السمك يمزّق شباكه بعد ليلة بيضاء خانه الحظ فيها – يهتف به ! « تباعد عني يا رب . اني رجل خاطئ » (مر ٥ /٨) ؛ وأكبر فيه هذا السلطان على شفاء الاجساد يوم زار بطرس فوجد حماته محمومة فشفاها وقامت تخدمهم (مر ١ /٣٠–٣٢) ؛ وعرف فيه مخلّص البشر بالصليب فأشار الى ضرورة الصليب للخلاص بحيث ان انجيله دُعي انجيل الصليب . وهذه فكرة اصبحت نقطة الدائرة من تعليم بطرس الرسول بعد ان انكرها اولا لكنه عاد فسلّم بها حين افهمه المسيح وجوب التسليم بها .

أمّا من الناحية التاريخية فقد حاول كثير من النقاد الملاحدة ان ينالوا من انجيل مرقس لكنهم اخفقوا في ما سعوا اليه . وهذا ما حدا المؤرّخ الشهير تين على القول : « مرقس ! يا له من عامل طيب القلب ساذج بسيط صادق في كل ما يقول ! » (راجع مراسلات تين مجلد ٤ صفحة ٣٢٣) . وما ذلك الاّ لأنه يعرض ما يعرض من مشاهد في دقة وتفصيل مع حرص باد على اللون المحلي ، وهنا لا سبيل الى الاختلاق. ولا غروَ فهو ، كما قلنا ، يورد ما سمعه مراراً وتكراراً من معلمه بطرس الذي عودته مهنة صيد السمك دقة النظر وشدة الملاحظة وسرعة المراقبة ، على حد تعبير الأب هوبي في كتابه « الانجيل والاناجيل » . فهو عندما يذكر ما ذكره زميلاه من مشاهد كشفاء المخلّع ، واحيائه ابنة يائيروس من الموت ، وتهدئته العاصفة ، وتكثيره الخبز ، يورد من التفاصيل ما لم يورده لا متى ولا لوقا . وهو لا يتبع في ما يقول نظاماً او ترتيباً ، مما يدلّ على جهل واضح لفن الكتابة والتزويق وبالتالي على جهله الخداع (راجع وصفه قيامته ابنة يائيروس من القبر فهو ينهي كلامه بقوله انها كانت ابنة اثنتي عشرة سنة ، وقابله بما جاء في هذا الصدد في انجيل متى ٩ /١٨ ولو ٨ /٤٠ ومرقس ٥ /١٢–٤٣).

و – انجيل لوقا

ذكر المؤرّخ اوسابيوس ان لوقا يعود بأصله الى انطاكيا وبثقافته الى اليونانية التي كان يتقنها وهذا ما مكّنه من ان يمتهن الطب على ما ذكر بولس الرسول (كولسي ٤).

اعتنق المسيحية في اول عهدها وتتلمذ لبولس ورافقه في معظم أسفاره وأخذ عنه وعن برنابا وبطرس ويعقوب وغيرهم بعض ما سمعه وعرفه عن المسيح (اعمال ٢١/٨–١٨) . وضع انجيله وكتاب اعمال الرسل . ومن الثابت الراهن انه كتب إنجيله قبل سنة ٧٠ اي قبل خراب اورشليم ، وذلك للاسباب ذاتها التي ذكرناها بخصوص القديس مرقس الانجيلي .

ولا بدّ من ان يكون لوقا قد رأى العذراء مريم وتلقّى عنها ما اورده في انجيله عن بشارة الملاك لها وعن مولد يسوع ابنها في مذود زري في بيت لحم ووقف على ما اختلج به قلبها من عواطف حين قال : « وكانت مريم تحفظ هذا الكلام وتفكّر فيه في قلبها » (لو ٢/١٩) . وان ما يثبت ما قدمناه ، هذا الاختلاف في الاسلوب بين الفصلين الاولين من انجيله وما تبقّى من الفصول . فاسلوب الفصلين الاولين ارامي بحت ، وهذا دليل على ان لوقا اورد تعابير العذراء بحذافيرها كما روتها له ؛ بيد ان اسلوب الفصول الباقية يوناني لا غبار عليه . وهذا زعم يقرّه معظم شرّاح الانجيل من كاثوليك وبروتستان من امثال Laudaz, Godet, Farrar .

ميزاته

يمتاز انجيل لوقا بتمهيد، ان دلّ على شيء، فعلى ثقافة صاحبه وتضلّعه من التاريخ ووقوفه على ما وضعه من سبقه في هذا المضمار عن سيرة حياة المسيح ولا سيما متى ومرقس.

ويمتاز كذلك بتأثره الى حد بعيد في مرويّاته لبولس الرسول ، وهذا ما انتبه له آباء الكنيسة القدامى كالقديس ايريناوس واكليمنضوس الاسكندري واوريجانوس وترتليانوس واوسابيوس .

وممّا لا ريب فيه ان الفكرة الاساسية التي ملكت على بولس مشاعره فعبّر عنها في رسائله بأساليب مختلفة هي فكرة رفق الله بالبشر (فيلنتروپيا) وهذا الرفق بهم هو ما حمله على اقالتهم من عثارهم فأرسل اليهم ابنه الوحيد ليفتديهم على الصليب وينتقل بهم من عهد الناموس الموسوي الى عهد النعمة. وهذه الفكرة عينها هي التي هيمنت على انجيل لوقا .

لقد توقّف متى الاسرائيلي في تعداده اجداد المسيح عند ابراهيم ، وغاية همّه ان يثبت لبني قومه ان هذا المسيح المنتظر هو يسوع الذي يحدّثهم عنه ؛ امّا لوقا اليوناني فيرقى في تعداده الى آدم ليثبت للملأ ان المسيح انما اتخذ طبيعتنا البشرية وما يرافقها

من عاهات ــ ما عدا الخطيئة ــ ليحرّرنا جميعاً من عبودية الخطيئة الاصلية دون ما نظر الى الاجناس والاعراق . وقد تمثّل بقول يوحنا المعمدان في هذا المجال فقال : « ويعاين كل ذي جسد خلاص الله) (لو ٣ /٦) ؛ وذكر ان مولد المسيح ما كان سوى عربون سلام سماوي يمنحه الله ذوي الارادة الصالحة (لو ٢ /٣٢) . والى هذا اشار بولس الرسول عندما تكلّم عن جسد المسيح السرّي حيث قال : « ليس يهودي ولا يوناني ولا عبد ولا حر وليس ذكر ولا انثى بل الجميع واحد في المسيح يسوع » (غلاطية ٣ /٢٧) .

لوقا طبيب ويمتاز انجيله بايراده كلّ ما من شأنه ان يصوّر المسيح طبيباً روحياً نزل من السماء ليضمّد جراح النفوس ويغفر الخطايا ويشدّد العزائم . فذكر مثل الخروف الضال الذي يجدّ راعيه في طلبه ، ومثل الابن الشاطر وعوده الى ابيه (لو ١٥) . وقد كنّى بهذين المثلين عن الخاطئ . وأشار الى الزانية التي ظفرت من المسيح بالغفران برغم الفريسيين (لو ٧ /٣٧ــ٥٠)، والى زكّا العشّار الذي حوّلته رأفة المسيح به من شقيّ الى بارّ (لو ١٩ /١ــ١٠) . وانهى اخيرًا بذكر مغفرة المسيح لصالبيه ولا سيما للص الايمن (لو ٢٣ /٣٤ــ٤٣) ، بحيث يمكننا ان نجمل مضمون انجيله بهذه الكلمة التي اوردها فيه وهي ان يسوع الطبيب الروحي اتى « ليطلب ويخلص ما قد هلك » (لو ١٩ /١٠).

ولوقا طبيب متفائل ، فهو ، ككل طبيب ، يبغي اعادة الصحة الى مريضه فاظهر في المسيح ما اتّصف به من تفاؤل تجاه الخطيئة فعُرف انجيله بانجيل التفاؤل. واذا بنا نراه يعدّد اناشيد الغبطة والأمل . فذكر انشودة التهليل للعذراء . « تعظّم نفسي الرب » (لو ١ /٤٦ــ٥٥) ، وانشودة اليصابات (لو ١ /٤٦) ، وترنيمة زكريا (لو ١ /٦٨ ــ٨٠) ، وزغردة الملائكة عشية الميلاد (لو ٢ /١٣) ونشيد سمعان الشيخ[١] ، واخيرًا هتاف السرور يترنّح به التلاميذ بعد الصعود في طريق العودة الى اورشليم (لو ٢٤ ٥٥) .

وامتاز ايضاً انجيل لوقا بكونه نوّه بدور المرأة فذكر اليصابات (لو ١) ، وحنة ابنة فنوئيل (لو ٢) ، وارملة نائين (لوقا ٧) ، والزانية التائبة (لو ٧) والمرأة الحدباء منذ ثماني عشرة سنة (لو ١٣) ، ومرتا ومريم (لو ١٠) ، والنساء اللواتي كنّ يخدمن

١) « الآن تطلق عبدك يا رب على حسب قولك بسلام. فان عينيّ قد ابصرتا خلاصك الذي اعددته امام « وجوه الشعب كلها ، نوراً ينجلي للامم ومجداً لشعبك اسرائيل » (لو ٢ /٢٩) .

يسوع وتلاميذه ويتصدّقن عليهم (لو ٨) ، وبنات اورشليم اللواتي بكين عليه (لو ٢٣) .

وما نوّه بدور المرأة تدليلاً على قسطها في المساهمة في التبشير انما كان إثآرًا — اذا جاز التعبير — لكرامتها التي امتهنها العالم القديم .

وامتاز اخيرًا بالماعه الى حدب المسيح على الفقراء (راجع مثل الغني ولعازر (لو ٦ و ١٦) ، وتحدثه بالصلاة حملاً لرسله على التمرّس بها (لو ٢١/٣ و ١٦/٥ و ١٢/٦ و ٢٩/٩ و ١/١١ و ٢٢—٣٢ و ٣٤/١٣—٣٦) . وقد أبى لوقا الاّ ان يوسّع آفاق اسرائيل الضيقة فيحمل نور الانجيل الى العالمين اليوناني والروماني لا بل الى الناس اجمعين ليبشرهم بفجر عهد جديد ؛ فعرف انجيله بأنه انجيل الآداب المسيحية كما دعاه الأب هوبي (الانجيل والاناجيل ص ٢٠٦—٢٠٠) ، وهذا ما حمل شاتوبريان على ان يدعو القديس لوقا « اول اديب مسيحي جمع في شخصه ثقافة الاغارقة والرومان الى ثقافة الانجيل » .

ز — انجيل يوحنا

كان يوحنا ، لما فُطر عليه من طيب سريرة ، محبّباً الى السيد المسيح وقد اتّبعه مع اخيه يعقوب بعد ان تركا اباهما زبدى والسفينة (متى ١١/٤ ومر ١٩/١) . وصحب يوحنا المسيح طوال الحياة حتى يوم الصلب وحاول نشر رسالته ، بعد الصعود ، في فلسطين ولا سيما في افسس حيث كان يقبل عليه طُلاب المعرفة من امثال بوليكربوس وايريناوس ، وقد اشرنا الى ذلك سابقاً . ومن المؤرّخين من قال انه ذهب الى روما واضطُهد فيها . لكن الثابت انه نُفي الى جزيرة بطمس ثمّ عاد الى افسس حيث توفي في شيخوخة موقّرة في اواخر القرن الأول .

وكتب يوحنا انجيله خلال سنة ٨٥ و ٩٥ بناء على طلب المؤمنين الذين التفّوا حوله ، ووقّعه باسم « التلميذ الذي كان يسوع يحبه » اقتداء بالمسيح الذي لقّب نفسه « ابن البشر » . وقد اقرّ له الآباء الاقدمون من تلامذته بهذا الانجيل مثل بوليكربوس وايريناوس وبابياس وغيرهم واقرّه كذلك « سفر موراتوري » . ولو قابلنا بين اسلوب هذا الانجيل واسلوب رسائل يوحنا لوجدنا ان الاسلوب هو عينه وان نَفَس الرسائل هو نَفَس الانجيل وان يوحنا الذي وصف في رسالته الاولى المسيحَ بقوله : « الذي كان من البدء ، والذي سمعناه ورأيناه بعيوننا وتأملناه ولمسته ايدينا من جهة

كلمة الحياة لأن الحياة قد ظهرت ورأيناها ونشهد ونبشركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب فظهرت لنا ... » (يو ١) ، هو يوحنا عينه الذي استهلّ انجيله بقوله : « في البدء كان الكلمة والكلمة عند الله . وكان الكلمة الله هذا كان في البدء عند الله .. والكلمة صار جسداً وحلّ فينا وقد ابصرنا مجده ... » (يو ١) .

ميزاته

رأينا ان اكليمنضوس الاسكندري وصف انجيل يوحنا بأنه « روحي » . لكن هذا القول لا يعني انه غير واقعي . انما يعني ان يوحنا ، وقد عاش مشاهد الانجيل مع المسيح فحضر عرس قانا (يو ٢) وشهد تهافت المرضى على بركة بيت حسدا في اورشليم (يو ٥) وخدّش اذنيه صراخ الباعة في الهيكل (يو ٢) واطربهما حديث الظهيرة على بئر يعقوب يدور بين المسيح والسامرية عن الماء الحي (يو ٤) وأعجبته مصارحته نيقوديموس بوجوب الولادة الثانية بالماء والروح للخلاص (يو ٣) ؛ ان يوحنا كان ما يزال يستذكر ذلك ويتأمّله ويحياه بحيث اصبح قطعة منه . فلا عجب اذا ما رأيناه يدوّنه ويطبعه بهذا الطابع « الروحي » الخاص الذي يمتاز به انجيله . فهو لم يكتب تأملات عن المسيح كالقديس اغوسطينوس وبوسويت انما انجيلاً على حد قول دي غران ميزون في كتابه « يسوع المسيح » (راجع معجم داليس عمود ١٣٠٨) . وما تسميته المسيح « الكلمة » سوى نتيجة لتبحّره في كنه المسيح وإعمال بصيرته في اقواله ، وقد اراد بهذه العبارة ان يوضح ان المسيح الاقنوم الثاني الكائن منذ الأزل في حضن الله هو « صورة الله » على ما ذكر بولس الرسول (فيلبي ٢) ، وحكمته الازلية التي يتم بها عمل الخلق على ما اشار اليه يشوع بن سيراخ في الفصل الرابع والعشرين .

وبغية يوحنا في انجيله اظهار ألوهية يسوع الذي عرفه ورآه ولمسه والذي يريد ان يرسّخ في الاذهان انه هو الله وابن الله والوريث الشرعي للعهد القديم . لذلك عُني بجمع ما يثبت هذه الحقيقة من خطب المسيح وعجائبه واقوال بعض اليهود فيه سواء اكانت معه ام عليه . ولكن هذا لا يعني ان انجيله يقل قيمة تاريخية عن الاناجيل الثلاثة الباقية فهو يدقّق في وصف ما ذكره الانجيليون الثلاثة من المواقع الجغرافية التي اتخذها المسيح مسرحاً لعمله . فقد وصف هيكل اورشليم واروقة سليمان فيه وصف شاهد عيان (يو ١٠/٢٣) ، وتحدث عن اورشليم وبركتيها سلوام وبيت حسدا حديث خبير (يو ٩/٧ و ٥/٢) ، واجلس بيلاطس على عرش القضاء امام قصره لدى محاكمة يسوع في مكان يدعى « ليتستروتس » وبالعبرية « جَبعـْتَا » فعل الراوي المدقّق ؛

واذا بجميع اوصافه لما جاور اورشليم من اماكن ولمن شهد مأساة الفداء من اشخاص مطابقة اشدّ المطابقة للواقع التاريخي . وقد أشار الى بستان الزيتون الممتدّ عبر وادي قدرون (يو ١٨/٨) ، وبيت عنيا القائمة على خمس عشرة غلوة من اورشليم (يو ١١/ ١٨) ، والجلجلة على مقربة منها (يو ١٩/١٧ و ٢٠) ، وقبر المسيح (يو ١٩/٤١) وبئر يعقوب قرب قرية سوكار في السامرة (يو ٤/٥ و ٢١) ، والناصرة وقانا الجاثمتين في سفح الجليل تنحدر منها طريق تصلها بكفرناحوم وبحيرة الجليل (يو ٢/١٢ و ٤/٤٧—٥١) ؛ وهو في كل ذلك يتفق تمام الاتفاق والانجيليين الثلاثة وقد فاقهم دقة ملاحظة وصدق فراسة .

ويجلو انجيل يوحنا كذلك ما غمض في الا ناجيل الثلاثة من حيث تتابع الحوادث في الزمن . فيذكر انه مرّ على المسيح ثلاثة اعياد « فصح » منذ شروعه في التبشير حتى موته ؛ وهذا دليل على انه قضى ثلاث سنوات او اقله سنتين ونصف سنة في التبشير ؛ بيد أن من قرأ الاناجيل الباقية يظن انه لم يقض في ذلك سوى سنة واحدة (يو ٢/٢٣ و ٦/٤ و ١١/٥٥ و ١٢/١ و ١٣/١ و١٨/٢٨) . وهو يبقي لأوصافه صبغتها المكانية ؛ وليس لنا لنتحقق ذلك الاّ ان نراجع وصفه تكثير الارغفة الخمس في البرية (يو ٦) ، وشفاء الاعمى (يو ٩) وقيامة لعازر (يو ١١) ، واثباته وجود العذراء ويوحنا عند اقدام الصليب ، وذكره الجنود الذين كسروا ساقي اللصين المصلوبين مع المسيح والطعنة التي فجّرت من جنبه الماء والدماء ، وتدخّل نيقوديمس ويوسف الرامي في دفنه (يو ١٨ و١٩) ، واخيراً الماعه الى نبوءة المسيح عن آلامه وقيامته (يو ٦/٦٢ و ١٢/٢٣ و ١٣/٣١) .

وقد اضاف الى ذلك ذكر الاسرار « الحسيّة » التي ارادها المسيح في كنيسته اقنية تجري فيها النعمة الى النفوس لتقدّسها كسرّ المعمودية (يو ٣) والقربان المقدس (يو ٦) والتوبة (يو ٢٠) . وما أغفل ذكر الكنيسة وقد شاءها المسيح دعوة صريحة موجّهة الى جميع الناس بغية الخلاص (يو ١/٩) سامريين كانوا ام يونانيين (يو ٤/٢٢ و ١٢/٢٠) ، وأرادها رعية واحدة لها راع واحد هو المسيح ومن بعده بطرس وخلفاؤه الاحبار الأعظمون (يو ٢١/١٦—١٨) .

ان يوحنا رأى وسمع ووعى ثم استذكر وأطال التأمل والتبحّر فدوّن ما دوّن في انجيله شهادة للحق والمحبة[1] .

١) غير ما ذكرنا من المصادر التاريخية المسيحية رسائل القديس بطرس و يعقوب ويوحنا ويهوذا واعمال الرسل وقد وجهت بعض الكنائس توضيحاً لبعض نقاط من تعاليم الانجيل ؛ وقد اثبت النقد العلمي التاريخي صحتها .

ح – في سلامة الاناجيل من التحريف

بعد ان اثبتنا صحة نسبة الاناجيل الى اصحابها لا بدّ لنا الآن من ان نثبت سلامتها من التحريف ، ولسنا نعتمد ، في اثبات هذه الحقيقة ، على عصمة الكنيسة—وعصمة الكنيسة برهان مقنع يولي اليقين التام — بل على درس المخطوطات درساً تاريخياً علمياً ينتفي معه مجال الريب .

التحريف نوعان : اولها يقوم بأن يُنسب كتاب لارسطو الى افلاطون : وثانيهما بأن يُدسّ في احد الكتب — سهواً او عمداً — فكرة غريبة عنه او بأن يحذف منه فكرة هي من صلب موضوعه ؛ وبيّنٌ ان استبدال كلمة بمرادفها ليس من التحريف بشيء .

امّا النوع الاول فقد نفيناه عن الاناجيل في ما تقدّم البحث فيه ؛ وامّا النوع الثاني فستتأكد لك استحالة وقوعه مما يلي[1] :

اذا سلّمنا جدلاً بانه قد وقع تحريف في الأناجيل فلا بدّ من ان يكون قد وقع امّا في القرنين الثاني والثالث اي حالاً بعد وفاة القديس يوحنا الانجيلي سنة ١٠٠ ، وامّا في ما بعد هذا التاريخ من القرون التالية .

والحال ان هذا الافتراض محال ، لأننا لو تصفحنا ما تركه لنا القرنان الثاني والثالث من المؤلفات في هذا الموضوع لوجدنا انها اثبتت جميعها نصّ الاناجيل التي نتداولها حالياً . وقد المعنا فيما سبق الى ان ايريناوس واوريجانوس وترتليانوس وغيرهم قد اوردوا في كتبهم نصوص هذه الاناجيل كما نعرفها اليوم ؛ وذلك بعد ان شرحوها دحضاً لمزاعم المبتدعين الذين اساؤوا فهمها . ولسنا بحاجة الى القول ان هؤلاء المؤلفين عاشوا في القرنين الثاني والثالث.في بلدان مختلفة متباعدة . واذا عرفنا ان الانجيل انتشر آنذاك ، برغم انعدام الطباعة ، انتشاراً غريباً في اقطار متباينة بحيث من اراد التحريف وجب عليه ان يجمع من مناحٍ مختلفة جميع ما انتشر من نسخ ليصحّفها ، بان لنا انه ما كان من سبيل الى التحريف في ذينك القرنين . وان ما يولينا الثقة في عدم وقوع الدس او الحذف في الاناجيل هو ترجمتها منذ القرنين الاول والثاني الى اليونانية (اقله انجيل متى) واللاتينية ؛ وترجمتها في القرن الثالث الى السريانية والقبطية ، وفي القرن

١) إن هذا النوع من التحريف هو اكثر شيوعاً من النوع الأول . تجده في نص المزامير العربي اذا ما قابلتها بالنص العبراني وفي انجيل برنابا المزيف الذي وضع لمحاربة المسيحية ويتضح لك ذلك اذا قابلته بنصوص الأناجيل الأربعة القانونية .

الرابع والخامس الى الارمنية والحبشية والغوطية . هذا وكانت كل كنيسة تحرص على حفظ ما تسلّمته من نسخ سالماً من التشويه فتنشره بين المؤمنين وهي تجهل احياناً – لبُعد الشقة وصعوبة المواصلات – ما يجري لدى من يجاورها من الكنائس . فأين السبيل الى التحريف بعد هذا ؟

لم يقع تحريف في القرنين الثاني والثالث وكذلك لم يقع تحريف في القرن الرابع وما اليه لأن لدينا مخطوطات قديمة عن الأناجيل الاربعة ترقى الى القرن الرابع وما يليه حتى القرن الحادي عشر ، وقد اثبت البحث العلمي تاريخها وانطباقها على النص الذي نتداوله اليوم ؛ وهي محفوظة في مختلف مكتبات اوربا واليك اهم النسخ عنها :

١ – **النسخة الفاتيكانية** : يونانية ترقى الى القرن الرابع . قيل عنها انها احدى النسخ التي أمر قسطنطين الاول بنسخها على نفقته سنة **٣٢٨** تحت اشراف المؤرخ اوسابيوس واهدائها الى الكنائس . وهي ما تزال محفوظة في المكتبة الفاتيكاتية .

٢ – **النسخة السيناوية** : اكتشفها العالم تيشندورف سنة **١٨٥٩** في دير طورسينا وهي كالفاتيكانية لغة وعصراً . تجدهـــا في المتحف البريطاني بلندن (Britch Museum) .

٣ – **النسخة الاسكندرية** : يونانية ترقى الى القرن الخامس . اهداها كيرللس لوكاريس الى كارلوس الاول ملك بريطانيا سنة ١٦٢٨ . وهي الآن في مكتبة لندن .

٤ – **النسخة الملوكية او الافرامية** : هي من نوع پالمبسيت وهي كتابة عن رق كُتب عليه اولاً نص الانجيل ثمّ حفّ وكتب فوقه قصائد لمار افرام السرياني الذي عاش في القرن الخامس . وقد استطاع العلماء بما لديهم من الوسائل الحديثة استجلاء الرق وقراءة نص الانجيل فيه . وهذه النسخة ترقى الى القرن الخامس وهي محفوظة في مكتبة باريس .

٥ – **النسخة البيزية** : وقد اكتشفها بيزا Beza في احد ديورة ليون في فرنسا اثناء الحرب الدينيّة عندهم واهداها سنة ١٥٨١ الى مكتبة كمبريدج في بريطانيا . وهي باللغتين اليونانية واللاتينية وترقى الى القرن السادس .

واذا عرفنا ان البدع التي ظهرت في القرن الخامس كالنسطورية وغيرها كانت تستعمل نصوص هذه المخطوطات التي نستعملها اليوم ولم يقم منها من عـــاب على الكنيسة الكاثوليكية التحريف ، تيقنّا اليقين كله ان اناجيلنا لا تشوبها شائبة دس او حذف او تصحيف .

ولدينا الآن ما يربو على ثمانية آلاف مخطوطة تثبت كلها نصوص الاناجيل الاربعة في حالتها الحاضرة وهي مكتوبة في مختلف اللغات . ومضمون جميع هذه النسخ هو هو دونما اختلاف جوهري ، مما يدل على ان الكنيسة احترمت تعاليم المسيح وصانتها منزهةً عن التحريف وما تزال بعد الفي سنة تسلـّمها كما تسلـّمتها من الانجيليين الاربعة

٦ — **النسخة البودميرانية او نسخة بودمير** (Bodmer) . هي اقدم النسخ عهداً لأنها ترقى الى القرن الثاني ، ولكنها اقلها حجماً ومحتوى إذ انها لا تنطوي الاّ على قسم من انجيل يوحنا فقط اي من الفصل الاول الى الفصل الرابع عشر . نسخها دون ماريب احد مبشري اواخر القرن الثاني ، زمن اضطهاد سبتيموس ساويرس ومكسميانوس ، بحروف كبيرة خصيصة بذاك العهد ، على بردَيْ صغير ، لكي تُدرج وتحمل في الجيب كمفكرة تذكره باهم ما جاء من تعاليم السيد المسيح في انجيل يوحنا . وهي لا تختلف عن النسخة الڤاتيكانية المتداولة في ايدينا التي ترقى الى القرن الرابع سوى ان كاتبها لم يذكر حادث المرأة الزانية التي ابى السيد المسيح ان تُرجَم (يو ٨) ولا حادث تمويج الملاك مياه بركة بيت حسدا لاجل شفاء المرضى (يو ٥) . ولعله لم يذكر حادث المرأة الزانية عمداً لأنه كان يعلم من ناحية اخرى قصة توبة الامرأة الخاطئة الخصيصة بانجيل لوقا ... اكتشف السيد مارتان بودمير احد اساتذة المعهد اللاهوتي في جنيف ، هذا المخطوط سنة ١٩٥٦ واضافه الى مكتبته برقم : البردى الثاني لبودمير Papyrus Bodmer II (المكتبة البودميرانية Bibliotheca Bodmeriana — Cologny — près Genève 1956) .

ط — في صدق مقال الانجيل

والآن بعد ان تأكـّدت لنا صحة نسبة الاناجيل الى اصحابها وسلامتها من التحريف يبقى علينا ان نرى اذا كانت صادقة في ما ترويه بحيث يتوجّب علينا الايمان بتعاليمها .

ومما لا شك فيه ان الاناجيل صادقة :

اولاً — **لنوع الشهادة** التي أداها اصحابها في المسيح ، وشهادتهم لا ترتكز على جدل منطقي وبراهين عقلية بل على ما رأوه بأم العين وسمعوه بالآذان ولمسوه بالأيدي . فهم شهود وحسبُ ، عملاً بقول المسيح لهم : « فتكونون لي شهوداً في اورشليم... » لو ٢٤/٢٨، اعمال ١/٨) . وقد عرفوا ذواتهم بهذا اللقب فقالوا « نحن شهود بذلك »

(اعمال ٢/٢ ٣٢ و٣/١٥) وانتخبوا « شاهداً » يقوم مقام يهوذا الاسخريوطي على ما عبّر عنه بطرس . (اعمال ١/٢١–٢٢) . وشهادة الانجيليين هذه ليست شهادة افراد مستقلّين انما هي شهادة جماعة هي الكنيسة التي تتألف من اناس كثيرين تبعوا المسيح وأصغوا الى اقواله وعاينوا معجزاته ونشروها في انحاء الامبراطورية الرومانية كلها وقد أربى عددهم قبيل صعود المسيح على المئة والعشرين شخصاً (اعمال ١/١٥) . وكان الانجيليون منهم وقد نطقوا باسمهم فلو حرّفوا شهادتهم لكانوا كذّبوهم ولم يحدث شيء من هذا .

ثانياً – لموضوع الشهادة . وموضوعها المسيح الذي عايشوه وتلقوا تعاليمه ورأوه معلقاً على الصليب بين السماء والأرض ويتجوّل فيما بينهم بعد قيامته من بين الأموات . وهذا المسيح يستحيل ان يكون من نتاج مخيلتهم وهم سذج بسطاء وأنّى لهم ان يتخيّلوا قديساً يجالس الخطأة ويؤاكل العشارين ويصفح عن الزانية في حين يهمّ رجال الشريعة برجمها ! وكيف بهم يتمثّلون مسيحاً يأمر بمحبة الأعداء ويغفر لصالبيه ويسمو بالعقول الى الله في صلاة لا تبتغي سوى مرضاته وتعلّم الكفران بالذات (راجع الأبانا) !

ويستحيل هذا المسيح ان يكون من وحي اليهود واليهود انتظروه مسيحاً يبسط سلطان اسرائيل على العالم اجمع وقد خابت آمالهم فيه . ويستحيل اخيراً ان يكون من وحي اليونان ، وأساطيرهم مشحونة باخبار ابطال ونوابغ رفعوهم الى مصاف الآلهة لشغف الشعب بهم وما كان ليراود خيال شعرائهم رسم إله ينحدر من السماء ليتأنس ويذلّ ويُصلب رأفة بالبشر على حد قول كارل آدم (راجع كتاب يسوع المسيح ص ١٠٦ – ١٠٧) . فلو لم يقض المسيح حياته في الامكنة والظروف التي وصفه فيها الانجيليون لتعذّر على أي عقل بشري ان يتصوّره على ما وصفوه .

ثالثاً – لصفة الشهود . ويتّصف هؤلاء الشهود بالبساطة . لقد رووا ما عاينوا وأثبتوا المشاهد في اماكنها وظروفها بلا تزويق ولا تنميق . واذا بنا نراهم يردّدون : قال يسوع ... اجاب يسوع ... خرج يسوع ... » راجع وصف شفاء المسيح لعليل بركة بيت حسدا (يو ٥) ، وتهدئته البحر (متى ٨) ، واقامته ابن الارملة من الموت (لو ٧) . وقد رووا ما رووه لليهود والوثنيين ممّن عاصروا المسيح ولم يفكّر احد في تكذيبهم انما هناك من اقرّهم على أقوالهم كيوسيفوس المؤرّخ الشهير . واذا سلّمنا جدلاً بان الرسل حرّفوا الانجيل ، فيكون السيد المسيح قد اخفق في مهمّته . والله عينه هو المسؤول عن هذا الاخفاق ؛ لأنه من جهة يرسل ابنه الوحيد ويعهد اليه برسالة

روحية قوامها خلاص البشر، ومن جهة ثانية يترك هذه الرسالة عرضة لتزييفٍ هو مسؤول عنه نزّه الله عن مثل هذا الشطط .

ولا سبيل الى القول ان بين الانجيليين تواطؤًا لأن كلاً منهم كتب لفئة معلومة من الناس . وقد عرفنا ان متى كتب لليهود الذين اعتنقوا المسيحية حديثاً فأظهر لهم ان يسوع هو المسيح المنتظر ؛ وكتب مرقس للرومان فأثبت لهم سلطان المسيح وافتداءه البشر اجمعين ؛ وكتب لوقا لليونان والرومان فوصف يسوع طبيباً روحياً يبغي شفاء النفوس وحاول يوحنا اثبات الوهته . فهم وان اختلفوا غاية واسلوباً — وليس في هذا تواطؤ — فقد اتّفقوا رواية معنى وجوهراً .

فهبهم نافقوا وكذبوا — وما من كاذب عفوًا — ما الذي تراه يجرّ عليهم كذبهم من مغانم ؟

هل تراه يجرّ عليهم المال ؟ وقد كفروا بالمال بلسان بطرس القائل : « قد تركنا كل شيء وتبعناك » (متى ١٩/٢٧) ، وعاشوا عيشة مشتركة (اعمال ٤/٥) من كدّ ايديهم (اعمال ٢٠/٣٥) في الفقر والشظف .

هل تراه يجرّ عليهم الجاه ؟ لقد طلّقوا الجاه والعظمة والأهل والأوطان وارتضوا الجوع والعطش والعري والامتهان (كور ١ : ٤/١٠) .

هل تراه يجرّ لهم المجد العالمي ؟ لقد كفروا بالأمجاد العالمية ! ما انكروا صفة اصلهم واقرّوا انهم صيّادو سمك وما خجلوا من الاعتراف بغلظة عقولهم (متى ٨/٢٦ ، لو ٨/٩ ، متى ١٦/٢٣ ، لو ٢٤/٢٥—٢٧) . وباحوا بخوفهم وهربهم في بستان الزيتون ، وما انف مرقس من ذكر خيانة معلمه بطرس (متى ٢٦ و٢٧ . مر ١٤ و١٥ ، لو ٢٢ و٢٣ ، يو ١٨ و١٩) . وهذه كلها مثالب ومعايب يأنف من ذكرها مبتغو الامجاد العالمية .

وما حاولوا رفعة معلمهم لكنهم ذكروا ضعة نشأته ومولده في مذود حقير واحترافه النجارة . وما استحوا من خوفه وذله وما ناله من احتقار يوم الصلب . ورغم كل ذلك فقد جاهروا به ربّاً عبدوه وبذلوا في سبيله المهج والأرواح موثرين سماع كلام الله لا الناس (اعمال ٤/١٩) .

ملحق ١

الاناجيل المزيفة

وضعها بعض المبتدعين ونسبوها الى بعض من الرسل او التلاميذ او المؤمنين الذين عرفوا المسيح ؛ وأوردوا فيها مشاهد دارت حول المسيح وأمه العذراء ويوسف مربيه ورسله . ومعظمها ظهر ما بين القرن الثاني والخامس للمسيح . وقد رذلت الكنيسة الكاثوليكية هذه الاناجيل وحرّمت استعمالها منذ القرون الاولى. وقد عدّد قانون الكنيسة الرومانية الذي اصدره البابا جلاسيوس القديس (٤٩٢–٤٩٦) اثني عشر انجيلاً مزيّفاً تحمل ثمانية منها اسم احد الرسل[١] . وتقسم هذه الاناجيل المزيفة الى ثلاثة اقسام :

القسم الاول

ويشتمل على ستة اناجيل تامة النصوص ظهرت ما بين القرن الثالث والخامس منها :

١ – انجيل يعقوب ويبحث في حداثة العذراء في الهيكل قبيل البشارة .

٢ – تاريخ يوسف النجار ويبحث في ما تخلّل حداثة يسوع من خوارق من سن الخامسة الى الثانية عشرة .

٣ – الانجيل العربي او انجيل الطفولة وهو يعدّد ما صنعه يسوع وأمه من عجائب ابان هربهما الى مصر ويزعم ان الوحوش الضارية سارت في خفارتهما حتى مصر وان الاصنام التي مرّا بها كانت تتساقط امامها وتتحطّم .

٤ – انجيل نيقوديموس ويصف مثول يسوع امام بيلاطس البنطي للمحاكمة وصلبه وموته .

٥ – انتقال العذراء الى السماء ويصفها ابان انتقالها .

القسم الثاني

وهو اربعة عشر انجيلاً ضاع قسم من نصوصها . ترقى اناجيل هذا القسم في معظمها الى القرن الثاني وهي في مجملها من وضع المبتدعة ولا سيما « الدوسيت » القائلة بأن المسيح تمثّل للناس بشرًا وشبّه لهم انه ولد وصُلب ومات وقام، بيد انه لم يحدث فعلاً شيء من هذا . ومنها :

اربعة اناجيل نسبت الى اربعة فلاسفة يقولون بمذهب «العرفان » Gnose وهم سيرنتوس وسيليديس وابولوس وفلنتينوس .

---

١) راجع : « منسي » مجموعة المجامع المقدسة الجديدة والمطوّلة مجلد ٨ ص ١٥٠ .

وستة منها باسم احد التلاميذ وهي انجيل اندراوس وانجيل برتلماوس وانجيل ثداوس وانجيل يهوذا الاسخريوطي وانجيل متياس وانجيل برنابا[١] .

والاربعة الباقية ، وقد ضاع جانب من نصوصها ، هي انجيل مرقيون (الهرطوقي) وانجيل التلاميذ الاثني عشر وانجيل فيلبّس وانجيل بطرس .

القسم الثالث

وهو يتّسم بطابع خاص دفع النقّاد الى التساؤل عمّا اذا كانت لا تجوز نسبته الى القرن الاول . وهو يحتوي على عدة اناجيل منها اثنان هامان يرقيان الى القرن الثالث والرابع ؛ تهيمن عليهما فكرة الصابئة القائلة بوجود اقنوم واحد في الله .

انجيل برنابا : ما هو انجيل برنابا ؟

عُثر لاول مرة في مستهل القرن الثامن عشر في هولندا على مخطوط ايطالي يحمل هذا العنوان : « الانجيل الصحيح ليسوع المدعو المسيح[٢] ، نبيّ جديد مرسل من الله الى العالم ، حسب وصف برنابا تلميذه . »

اقتناه مستشار ملك بروسيا كرمير (J. E. Gramer) ، وكان يقطن وقتئذ مدينة امستردام ، ودفعه الى احد اصدقائه جون تولاند (John Toland) سنة ١٧٠٩ فكان اول من تكلم على هذا الانجيل المزعوم وعلق عليه . طُبع لاول مرة في اكسفورد ببريطانيا سنة ١٩٠٧ ، وتناولته جريدة المنار في القاهرة بشغف لاول وهلة سنة ١٩٠٨ وعلق عليه رشيد رضا واعوانه بحيث وجدوا فيه دعامة جديدة للاسلام ولكنهم ما لبثوا ان نبذوه بعد ان تبيّنوا ما فيه من الاساطير والخرافات والاخطاء التاريخية الفظيعة المنافية للاسلام .

١ — موضوع انجيل برنابا

هذا المخطوط مكتوب على ورق من الحجم الطويل ؛ وهو يتضمن ٢٣١ صفحة مزدوجة ويقسم الى ٢٢٢ فصلاً . وقد كُتب ما بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر وذلك لأن ذهنية مؤلفه ونوع الورق المكتوب عليه لا يتجاوز هذين القرنين . فموضوعه العام هو هذا : ان يسوع المدعو المسيح أرسِل من الله ليهيئ مجيء محمد فقط وانه ليس بالمسيح لكن المسيح الحقيقي هو محمد مؤسس دين الاسلام .

اما مؤلفه فقد تضاربت حوله الآراء . فقال بعضهم انه اندلسي اسباني الاصل من اولئك المسلمين الذين ارغموا على اعتناق المسيحية بعد سقوط غرناطة في ايدي الاسبانيين المسيحيين فأراد ان ينتقم

١) ذكر اسم انجيل برنابا عرضاً في القرن السادس ولكن بالواقع لم يعرف عنه شيء البتة ما خلا الرسالة المزيفة التي تدعى برسالة برنابا .

٢) اننا نلفت نظر القارئ إلى كلمة « المدعو المسيح » لأن المؤلف يحاول في سياق كتابه ان ينفي عن يسوع لقب المسيح .

من المسيحيين فألّف هذا الكتاب . وقال غيره : بل انه من وضع راهب مسيحي يدعى الاخ مارينو شرد على الحياة الرهبانية واعتنق الاسلام في القرن السادس عشر وقد ألّف هذا الكتاب غيرةً منه على الدين الجديد . ولكن مهما يكن من امر هذا الكتاب ، فالمخطوط الاسباني لم يُعثر عليه . والمخطوط الايطالي الذي وصل الينا لا يحمل طابع الترجمة ، بل هناك دلائل جمّة تدل على انه وُضع رأساً بالايطالية . فنحن لذلك ندرس المخطوط الايطالي كما فعل حضرة الأب جوميه الدومينيكي[١] الذي استوعبه درساً وتمحيصاً وعلّله تعليلاً قيّماً ، ونأخذ عنه بعض الخطوط الكبرى .

٢ – شخص برنابا

اما شخص برنابا فيبدو لنا من خلال هذا المخطوط أنه اكبر واعظم الرسل والتلاميذ مكانةً ووجاهةً عند السيد المسيح وإليه وحده عهد بكتابة الانجيل على حين ان الانجيليين المعروفين متى ومرقس ولوقا ويوحنا الذين كتبوا سيرة السيد المسيح وكرازته لم يأتوا على ذكر برنابا ، بل جُلّ ما هنالك ان كتاب اعمال الرسل يذكر عنه انه كان لاوياً اي شماساً مساعداً للرسل في خدمة الشعب وكرازة الانجيل .

٣ – اقسام انجيل برنابا

ا – خطاب التوطئة : « برنابا ، تلميذ يسوع الناصري المدعو المسيح ، الى جميع الساكنين على « وجه الارض ، السلام والتعزية ايها الاعزاء ، إن الله العظيم والمتسامي قد زارنا في هذه الايام « الاخيرة بواسطة نبيه يسوع المسيح بعطفه الكبير ، بالتعلم والعجائب . ان الكثيرين قد خُدعو « بابليس بداعي التقوى ، وكرزوا بتعليم الكفر مدّعين ان يسوع هو ابن الله ، وقد نبذوا « الختان العهد المبرم مع الله الى الابد ومن اولئك الضالين بولس الذي لا اذكره الاّ باسف الخ..

ب– قصة حداثة يسوع (فصل١–١٠) روى ما جاءَ عند متى ولوقا بهذا المضمار واضاف على ذلك تاريخ الولادة فقال : « لما اصدر اغسطوس قيصر امره باحصاء المسكونة مع ما فيها فلسطين كان ذلك على عهد هيرودس ملك اليهودية وولاية بيلاطس البنطي وحبرية حنان وقيافا رئيسَي الكهنة» (فصل ٣) .

ومن الملحوظ ههنا ان بيلاطس البنطي لم يكن حاكماً على اليهودية في زمن ميلاد يسوع بل بالاحرى في نهاية رسالته ووقت صلبه اي اكثر من ثلاثين سنة بعد ميلاده وكذا قل عن حنان وقيافا رئيسَي الكهنة .

ت– ابتداء كرازة يسوع ومعجزاته (١٠–٤٦) .

ث– ازمة نفسية احدثها جنود روما بعبادتهم المسيح خطأً (٤٧–٩٨) .

ج– بقية تعاليم يسوع الكثيرة – الشعب يريد ان ينصّبه ملكاً (٩٩–١٩٢) . هربه الى دمشق .

---

١) R. P. Jacques Jomier, *L'Evangile selon Barnabé*, Mélanges nº 6.

ذهاب يسوع الى مدينة صور الواقعة على ضفاف الاردن ... تثقيف يسوع لتلاميذه .وتعليمه عن التوبة والصوم والصلاة والبخل – رسالة التلاميذ (٩٩–١٢٦) .

كان الفريسيون رهباناً يبلغ عددهم في اورشليم نحو مئة الف (١٤٦–١٤٧) .

دخول جنود روما الهيكل وتعليم يسوع لهم عن الخطيئة والحرية والشر والاختيار المسبق (١٥٣–١٩١) .

ح– ايام يسوع الأخيرة على الأرض ، مهزلة موته وصعوده الى السماء (١٩٢–٢٢٢) .
تقريع برنابا لبولس الرسول ...

٤ – نقد انجيل برنابا

للنقد نوعان ، الخارجي والداخلي .

فمن جهة النقد الخارجي ليس لدينا مخطوطات او تراجم كثيرة لانجيل برنابا حتى نقابل ما بينها ونبيّن الغث من السمين . فنحن امام مخطوط واحد كُتب باللغة الايطالية في القرن السادس عشر ووُجد في اوائل القرن الثامن عشر . لكننا نستطيع القول ان سكوت العلماء والمؤرخين المسلمين المطلق خلال تلك القرون الطوال وسكوت العلماء المسيحيين والكنيسة عن هذا الانجيل لدليل قاطع على عدم وجوده قبل القرن السادس عشر . اجل ، هل من المعقول ان يكون علماء الاسلام قد تداولوه في القرون الخوالي وسكتوا عنه لا سيما وانه سلاح ماض بايديهم لدعم معتقدهم . زد على ذلك ان المسلمين يعتقدون بالاسناد والاسناد لم يذكر شيئاً عن برنابا . وهل يعقل ان تكون الكنيسة قد تداولته وسكتت عنه ولم تعلق عليه وتحرم استعماله ؟

يبقى اذن امامنا النقد الداخلي فقط لنص هذا المخطوط . وهنا نجده بعيداً جداً عن الحقيقة .

لقد تكلم عن خلق العالم والاسلام ولا ندري من اين اتخذ تلك المصادر التي لا تمت بشيء الى تعاليم القرآن ولا الى الحديث ولا الى السُنّة . ولا نعثر البتة على مصدر جاء فيه ما جاء في انجيل برنابا ان الشهادة الاسلامية « لا اله الاّ الله ومحمد رسول الله » مكتوبة على باب الجنة وقد كُتبت ايضاً على اظافر آدم الانسان الاول . ولا نجد ايضاً مصدراً ما قيل فيه ان الانسان جُبل من بصاق ابليس على التراب وان صُرّة الانسان الموجودة في بطنه من اثر بصاق ابليس على التراب واوساخ الخيول على باب الجنة (فصل ٣٩) . تلك لعمري اساطير خليقة باساطير كتاب سندباد البحري وقصص الف ليلة وليلة .

واذا انعمنا النظر في اطروحة انجيل برنابا ، وهو مبني على اطروحة واحدة تهدف الى هذا الغرض: «ان المسيح سيولد من ذرية اسماعيل وان يسوع الناصري ليس بالمسيح انما أرسِل ليُعدّ سبل المسيح « الحقيقي الذي سيكون محمداً . »، رأيناها لا تتفق والمعتقد الاسلامي الاّ من ناحية واحدة فقط اي ان المسيح بشّر بقدوم محمد ، وما تبقى فهي تنحرف عنه كل الانحراف ولا تؤدي له الدعامة المنشودة ذلك لأن القرآن أقر ليسوع (عيسى بن مريم) بلقب المسيح .

« اذا قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين» (سورة آل عمران عدد ٤٤).

وزد على ذلك ان لا القرآن ولا الحديث ينسبان الى محمد لقب المسيح . ومن المعلوم ان لفظة « المسيح » لها معنى واضح ومعين في المعتقد الاسرائيلي . فهو ليس بنبي ورسول كباقي الانبياء الذين ارسلهم الله ليهيئوا الشعب ويبشروا بقدوم المسيح ، انما هو ذاك الشخص الذي يرسله الله في ملء الزمان لكي ينقذ شعبه ويخلصهم . وفي ايام يسوع كان الكثيرون من اليهود يعيشون بانتظار المسيح . وعندما القرآن يُقرّ ليسوع بلقب المسيح انما يعلن حقيقة راهنة لا لقباً شرفياً فقط . فيتضح مما تقدم ان اطروحة انجيل برنابا خاطئة لانها لا تنطبق على الواقع التاريخي . ومن المضحك بامر مؤلف انجيل برنابا انه ، لما اراد ان ينفي لقب المسيح عن يسوع الناصري ويخصّه بمحمد ويجعله رسولا فقط امام وجه محمد يمهد له سبل رسالته ، بات شخص يوحنا المعمدان ابن زكريا مزعجاً له وحجر عثرة امامه . كيف لا ويوحنا أرسل من الله ليُعدّ البشر لقبول كرازة المسيح ؛ ولهذا عمد الى حذفه من التاريخ ووضع على لسان يسوع بعضِ الفقرات التي فاه بها يوحنا المعمدان نفسه ، معرضاً ذاته لسخرية التاريخ ولسخط القرآن نفسه الذي أقرّ بوجود يوحنا المعمدان وقد دعاه يحيى بن زكريا : « هنالك دعا « زكريّا ربّه ، قال ربِّ هب لي من لدنك ذرية طيّبة انك سميع الدعاء فنادته الملائكة وهو قائم « يصلي في المحراب أن الله يبشّرك بيحيى مُصدّقاً بكلمة من الله وسيّداً وحَصُوراً ونبيّاً من الصالحين. قال ربِّ أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبَر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما شاء. قال ربِّ « اجعل لي آيةً قال آيتُك ألاّ تكلّم الناس ثلاثة أيام الاّ رمزًا واذكر ربّك كثيرًا وسبّح بالعشيّ « والإبكار » (سورة آل عمران عدد ٣٧—٤١) .

ثم ان مؤلف انجيل برنابا على ما يبدو لنا يجهل جغرافية فلسطين وتاريخها وعادات اليهود في ذاك الزمن . وكيف يجهل ذلك وهو يدعي انه رافق السيد االسيح كباقي التلاميذ وانه امره بتصحيح اخطائهم عندما يشطون ويضلون وانه عهد اليه وحده في كتابة الانجيل الصحيح الخالي من كل شائبة . وهل كان الانجيليون الاربعة متى ومرقس ولوقا ويوحنا يجهلون جغرافية فلسطين وتاريخها وعادات اليهود وغيرهم ؟ ألم تأتِ أناجيلهم صورة ناطقة للبيئة التي عاش فيها يسوع المسيح.؟ هكذا نرى مؤلف انجيل برنابا يجعل مدينةَ الناصرة على شاطئ بحيرة طبرية (فصل ٢٠ وفصل ١٤٧—١٥١) بينما تبعد الناصرة عن البحيرة المذكورة نحو عشرين كيلومترًا وهي ترتفع عنها اكثر من ستمائة متر . ويجعل كفرناحوم مدينة جبلية بينما هي ، عكس الناصرة ، على شاطئ بحيرة طبرية (ف ٢١) . ويجعل مدينة صور « وجاءَ يسوع الى تخوم صور» على ضفاف نهر الاردن بينما مدينة صور مرفأ على ساحل فينيقية (لبنان الحالي) تبعد نحو مئتي كيلومتر عن نهر الاردن . وكثيرًا ما تراه يقول : « وركب يسوع السفينة ومضى الى اورشليم» فهل تكون اورشليم مرفأ على البحيرة ام على البحر ، كباقي اخطائه الجغرافية الفظيعة؟...

اما اخطاؤه التاريخية فلا تقل جسامةً عن الجغرافية . فالفريسيون في عرفه رهبان متوحدون يسكنون اورشليم ويربو عددهم على مئة الف راهب . بينما كانوا في الواقع ، متزوجين يسكنون المدينة كباقي الناس ، وقد دُعوا بالفريسيين « المنعزلين الاحرار » لشدة تمسكهم بالتقاليد الموروثة عن الجدود وميلهم الى طلب القداسة من الطقوس الخارجية فقط كالصوم والصلاة والغسل وما الى

ذلك . ووصفه للنظام السياسي والعسكري القائم وقتئذ بفلسطين مليء بالاغلاط . فاراد ان يحذو «حذو القديس لوقا الانجيلي القائل في الفصل الثالث في السنة الخامسة عشرة من ملك طيباريوس «قيصر حين كان بيلاطس البنطي والياً على اليهودية... الخ... «كانت كلمة الله الى يوحنا بن زكريا في البرية .. » فوضع هذه الفترة من التاريخ — وهي بدء كرازة المسيح — في وقت ميلاده وقال : « وصدر امر من اغسطوس قيصر باحصاء المسكونة وذهب كل من يوسف ومريم تسجيل اسمهما في بيت لحم وولدت يسوع » ... وهكذا خلط ما بين هيرودس الكبير وابنه هيرودس انتيپاس . فهيرودس الكبير كان ملكاً على اليهودية ايام ميلاد يسوع المسيح ، يحكم البلاد تحت حماية روما ؛ وقد توفي في السنة الرابعة للميلاد . وبعد وفاته بسنين ، اي في السنة السادسة للميلاد ، ألغت روما الحكم الوطني وضمت اليهودية الى السامرة وجعلتها ولاية رومانية يحكمها حاكم روماني مباشرةً .

وبيلاطس البنطي لم يكن حاكماً على اورشليم يوم ميلاد يسوع كما زعم انجيل برنابا ، بل وُلّي على اليهودية مع ما فيها اورشليم حاضرتها في السنة السادسة والعشرين ميلادية الى السنة السادسة والثلاثين . وفي مدة ولايته جرت محاكمة يسوع المسيح وحُكِمَ عليه بالموت صلباً من قبل السنهدريم (المجلس اليهودي الاعلى) وامر بيلاطس بتنفيذ الحكم بعد تردد طويل . والكاهن حنان كان عظيم الكهنة في اورشليم من السنة السادسة ميلادية الى السنة الخامسة عشرة فعزلته السلطة الرومانية ولكنه بقي من ذوي النفوذ بسبب تمرده على السلطة الحاكمة . اما صهره قيافا فكان عظيم الكهنة من السنة الثامنة عشرة ميلادية الى السنة السادسة والثلاثين وهو الذي ترأس المحكمة العليا الاسرائيلية وحكم على يسوع بالموت.

اما هيرودس انتيباس بن هيرودس الكبير فلم يملك مكان ابيه بل أقيم رئيس ربع على الجليل من السنة الرابعة ميلادية الى السنة التاسعة والثلاثين ؛ ووجوده في اورشليم يوم محاكمة يسوع كان صدفة بسبب زيارته بيت الله (الهيكل) في فصح اليهود . والمؤلف يعتبره وثنياً كالرومانيين بينما هو في الواقع يهودي يدين بدين اليهود وان كان ادومي الاصل (فصل ٢١٧) . ويعتبره ملكاً على اورشليم ، يضع فرقة من الجنود تحت تصرف رئيس الكهنة بالاتفاق مع بيلاطس الحاكم الروماني لالقاء القبض على يسوع ؛ وهو في الواقع لا سلطة له البتة في اورشليم . ثم ان انجيل برنابا يتكلم ايضاً عن قرارين صدرا عن مجلس الشيوخ الروماني بصدد يسوع الناصري الملقب بالمسيح . فمن اين استقى تلك المعلومات ؟ والمؤرخون لم يذكروا مطلقاً هذين القرارين لمجلس الشيوخ الروماني . ويوسيفوس المؤرخ اليهودي الذي ذكر بدقة كل ما عملته روما بفلسطين واصدرته من الأحكام والذي تكلم باعجاب عن المسيح لم يأتِ على ذكر هذين القرارين غير المعقولين لأن روما ما تدخلت يوماً مباشرة في معتقدات البلدان الخاضعة لسلطانها.

ثم ان المؤلف كثيراً ما تكلم على خطب يسوع ومواعظه في فترة الصوم (ف ٩١—٩٨) . وهذا خطأ جسيم لأن مدة الصوم الأربعيني الاستعدادية لعيد الفصح هي من تنظيم الكنيسة لم تكن متبعة في ايام المسيح . واما الارقام التي يذكرها انجيل برنابا فهي غير معقولة . هكذا قال « وصعد رئيس الكهنة وهيرودس وبيلاطس وكل منهم على رأس مئتي الف مقاتل واجتمعوا في المصفاة . وهناك بحثوا في مشكلة يسوع وتساءلوا هل يجب الايمان به ام لا . ولما جاء يسوع تقدم منه رئيس الكهنة واراد ان يسجد له ويقبّل قدميه فمانعه يسوع وقال له : انتم مجانين . لماذا تسجدون لي وانا بشر مثلكم انما انا نبيّ فقط » (ف ٩٢—٩٣) . ذلك لأن روما كانت تتحرّز من كل اجتماع للشعب . وحاميتها في اليهودية لم تتجاوز ثلاثة آلاف جندي وجيشها لم يبلغ ستة آلاف جندي في فلسطين الاّ بعد ثورة

سنة ٧٠ م على عهد تيطس . ولو كان لكل من رئيس الكهنة وهيرودس مئتا الف مقاتل فهل كانا يخضعان لحكم روما ؟..

واما سجود رئيس الكهنة ليسوع فهذا بعيد عن المعقول ايضاً لأن الكهنة والشيوخ والفريسيين ناصبوه العداء منذ بداءة كرازته نظرًا الى المكانة العالية التي كان قد أحرزها عند جماهير الشعب . ثم كلمة يسوع لهم : « انتم مجانين ! » فهذه غير معقولة لأنه كان قد حرّم على الانسان ان ينعت اخاه « براقا » اي باحمق (متى ٥/٢٢) . ويقول المؤلف ان الشياطين الذين اخرجهم يسوع من مجنون كفرناحوم كان عددهم ٦٦٦٦ فمن اين اخترع هذا الرقم المصطنع ؟ ..

وذكر ليسوع خطاباً عن الخطايا الرئيسية السبع : الكبرياء والحسد والدعارة والبخل والكسل والشراهة والغضب (فصل ١٣٥) . ومن الملحوظ ان تقسيم الخطايا الى هذا النوع هو حديث العهد يرتقي الى فلاسفة ولاهوتيي القرون الوسطى المعروفين بالفلاسفة المدرسيين (السكولاستيك) .

ثم روى عن يسوع – وهنا الشطط الاكبر – انه كان يعلم الجموع من جناح الهيكل (فصل ١٢٧ – ١٢٩) . فهو يفترض دون ما ريب ان جناح الهيكل شبيه بمحراب الجوامع عند المسلمين او بمنبر الوعظ في الكنائس عند المسيحيين ، بينما جناح الهيكل هو اعلى سور الهيكل المشرف على وادي قدرون . فكيف يتسنى للشعب ان ينزل الى اعماق وادي قدرون ، الى منحدر مائتي متر ونيف ، ليرى يسوع واقفاً من اعالي سور الهيكل ويسمع تعاليمه من هذا العلو الشاهق ، بينما كان بمقدوره ان يسمعه في داخل الهيكل او في اروقته ورحابه . فلو كان مؤلف انجيل برنابا شهد حقيقة السيد المسيح يلقي تعاليمه في انحاء فلسطين وصحبه الى الهيكل لما كان قد اقترف مثل هذا الخطأ الجسيم غير المعقول .

ولما تكلم عن ارسال يسوع تلاميذه للتبشير بانجيل الملكوت اثنين اثنين (فصل ١٠٠) قال : « وأرسلهم اثنين اثنين ليكرزوا بالانجيل في اسرائيل واليهودية » ؛ واستأنف كلامه قائلاً : « وكرزوا في جميع بلاد السامرة واليهودية واسرائيل » . تلك هي لعمري اوصاف مبهمة تدل على جهل المؤلف جغرافية وتاريخ فلسطين . فماذا يعني بالسامرة وماذا يعني باسرائيل ؟ في عهد ملوك اسرائيل (ما بين القرن العاشر والسادس ق. م) كانت مملكة اسرائيل مؤلفة من السامرة والجليل فقط ، ولكن في عهد السيد المسيح كان هذا الوضع السياسي قد تبدل وكان يقال « في الجليل » « وفي السامرة » لأن الجليل كانت مستقلة عن السامرة بداعي ان روما كانت قد ضمت السامرة الى اليهودية وجعلت منهما مستعمرة رومانية واطلقت عليها لقب : « مقاطعة رومانية » .

وفي الفصل ١٢٦ قال : « وارسل يسوع تلاميذه ليكرزوا في اسرائيل فذهبوا وكرزوا في كل اليهودية » . فما هذا التناقض السافر ؟

ثم ان مؤلف انجيل برنابا وصف صلاة يسوع على الطريقة الاسلامية بينما هي تختلف عنها كل الاختلاف . كان يسوع حرًا باوقات صلاته ، لم يتقيد بناموس ما لكي يبيّن للانسان انه يستطيع ان يرفع عقله الى الله ابيه متى شاء وانّى شاء . وكثيرًا ما كان يتردد الى الهيكل والمجمع ليصلي هو وتلاميذه مع اليهود ويستفيد من السوانح المقدمة له للتبشير بانجيله . وكثيرًا ما كان يصلي

بعد منتصف الليل واحياناً كان يحيي لياليه كلها بالصلاة مع الله ابيه (مر ١/٣٥ لو ٦/١٢) وآونة قبل تناول الطعام وبعده وقبل اقدامه على عمل هام وصُنع معجزة وما الى ذلك ...

واما ذهنية موءلف انجيل برنابا فهي لامراء غربية اوريية تشيع عادات اواخر القرون الوسطى واوائل عصر النهضة (القرنين الخامس والسادس عشر) . انه يجعل من مريم المجدلية ومريم اخت لعازر شخصاً واحداً كما فهم وفسّر ذلك آباء الكنيسة الغربية بخلاف آباء الكنيسة الشرقية الذين رأوا فيهما شخصين مختلفين ؛ ذلك لأن نصوص الاناجيل الاربعة القانونية المعروفة تحتمل التأويلين. وتقريع يسوع للفريسيين وعلماء الكتاب يذكرنا بتقريع القديسة كاترينا السيانية (Ste. Catherine de Sienne) للرهبان وبقية الاكليريكيين في القرن الرابع عشر (١٣٨٠) كما لحظ ذلك بكل جدارة حضرة العلامة الاب جومييه الدومينيكي المذكور اعلاه . اجل انه وضع على لسان السيد المسيح الخطاب التالي : « ايها العلماء ، ايها الكتبة ، ايها الفريسيون ، ايها الكهنة ، انكم تطلبون الخيول كالفرسان وتأبون الذهاب الى الحرب . تطلبون الالبسة المزخرفة كالسيدات وتتهربون من حياكة خيوطها واطعام الاولاد الفقراء . تطلبون غلات الحقول ولكنكم تأبون حراثتها. تطلبون الاسماك ولا تذهبون لاصطيادها. تطلبون المجد والكرامة كباقي المواطنين غير انكم تتنصلون من خدمة الجمهورية . تطلبون العشور كالكهنة ولا تريدون ان تخدموا الله خدمة صادقة . الخ.. وهل من المعقول ان يحث السيد المسيح الشعب على القتال ؟ لا شك ان الموءلف يفترض الفريسيين والكتبة (علماء الكتاب) والكهنة رهباناً انحرفوا عن دعوتهم وأخلّوا بواجباتهم كما حدث لبعض الرهبانيات في اواخر القرن الرابع عشر ولا سيا في القرنين الخامس والسادس عشر (زمن الانحطاط) . وقد ذكر اهم اعمال الرهبان في ذاك الزمن الذي كان قائماً على اطعام الفقراء وحراثة الحقول وحياكة بعض الملابس وباقي الاعمال اليدوية والاعتكاف على الصوم والصلاة .

وهذا التقريع هو تقريع القديسة كاترينا السيانية لاكليروس عصرها كما قلنا : « انهم ينفقون « غلاّت ممتلكات الكنيسة على شراء الملابس المزخرفة ويتأنقون بلبسها كالسيدات لا كاكليريكيين « او رهبان زهدوا في الدنيا. يرغبون في ركوب الخيول واقتناء الآنية الذهبية لتزيين بيوتهم بها. لا يحلمون « الاّ بالولائم وقد جعلوا من بطونهم آلهتهم الخ ... » (حوار ٢/٥٥) .

اما الرثاء القائم بسرقة مجد الله فهذه فكرة تعود الى القديس البابا غريغوريوس الكبير (اوائل القرن السابع) وهو اول من شبه الرثاء بذلك ، كما لحظ ذلك ايضاً حضرة الاب جومييه .

وخلاصة القول ان موءلف انجيل برنابا كتب انجيلاً يشبه قصة خرافية خليقة بقصص الف ليلة وليلة جمع اليها بعض الحقائق التاريخية والتعاليم المأخوذة حرفياً عن الترجمة اللاتينية للاناجيل القانونية الاربعة المعروفة بالترجمة العامية (La Vulgate) الى جانب الأساطير والخرافات التي ابتدعتها مخيلته الخصبة . فلم يخدم الاسلام بذلك الكتاب كما كان يزعم لأنه عزا اليه ما كان يخالف تعاليم القرآن والحديث والسُنّة كما ذكرنا ونسب اليه من الاساطير والخرافات ما يشجبه المسلمون ويأباه الذوق السليم . ولم يسئ الى المسيحية بشيء ؛ فقد طالما لاقت على كرور الزمن من تلك الاسهم الطائشة التي لم تجرحها بشيء وقد ارتدت دوماً الى نحور راشقيها من حيث لا يعلمون . فالحقيقة لاتخشى اسهم الكذب . فموءلف انجيل برنابا انما اساءَ الى نفسه فقط بحيث جاء بعمل كله كذب وزور وبهتان.

الفصل الأول

طبيعة يسوع المسيح وفضائله

– سلامة بنيته

٢ – رجاحة عقله

– نظراته الواقعية الى الحياة
– تفاؤله
– اتزانه
– نفاذ بصيرته وسداد رأيه
– وضوح هدفه

٣ – فضائله

– تواضع في عظمة
– وداعة في جرأة
– عفاف في مرونة
– تقدمية في محافظة على التقاليد

قبل ان نحاول الاطلاع على اوراق اعتماد المسيح رسول السماء الى الارض ، واوراق اعتماده قداسته ومعجزاته ونبوءاته ، لا بد لنا من ان نقف اولاً على شخصيته فنرى ما تمتّع به من سلامة بنية ورجاحة عقل وما ازدان به من فضائل نادرة .

١ – سلامة بنيته

ما ذكر الانجيل ان المسيح مرض يوماً أو ألمّت به وعكة صحية ، رغم ما حمّل نفسه ، في نشر رسالته ، من مشاقّ ؛ ولا شكا ألماً رغم ما صادفه لدى بني قومه – ونخصّ الفريسيين منهم والكتبة – من كيد واعنات .

لقد قضى ثلاث سنوات يتجوّل في انحاء فلسطين ينفحه قرّها القارس ويلفحه حرها اللاهب ؛ وكثيراً ما قضى ليله في العراء – وقد عاش ولا مأوى يسند اليه رأسه – لحافه السماء وفراشه العشب او التراب ، يسابق الفجر الى الصلاة في القفر (مر ١ /٣٥) ؛ ويساهر الليل على الجبل في مناجاة الله ابيه من خلال النجوم الزواهر (لو ٦ /١٢) : وهو في كل ذلك لا يخشى انحراف مزاج او اعتلال صحة .

لقد آثر الجليل على سواه من بقاع فلسطين في تجواله ، لكونه استهل رسالته فيه ؛ فتعرّف الى مدنه وقراه وعايش سكانه ؛ زار انحاءه سيراً على الاقدام وسقى تربته عرق الجبين . تسلّق جباله وكحّل عينيه بزرقة بحيرته وقد شهد الصيادين يلقون فيها الشباك ، واخذ بمجامع فؤاده بياض الزنابق فيه فقارب بينه وبين صفاء السرائر لدى اطفال الجليل (متى ١٨) فنصبهم مثالا يحتذى[١] . وشاقه منظر القطيع يعود بين الكروم في العشي ، وخالط الفلاحين فشاطرهم احزانهم وبارك أفراحهم (متى ٧ و ١٠) . أدلج في سهول الجليل فقاده المسرى حتى الى نائين على سفح حرمون حيث أقام ابن الارملة من الموت (لو ٨) ؛ ولامست قدماه ساحل صور وصيدا حيث شفى ابنة الكنعانية (متى ١٥) ؛ واجتاز السامرة في طريقه من اليهودية الى الجليل وبحث في حرّ الهاجرة عمّا يستظلّ به في بلدة سوكار على بئر يعقوب بعد ان اعياه الجوع والمسير (يو ٤) . وكثيراً ما قضى الساعات الطوال في التعليم والتبشير على جبلٍ او من على سفينة قرب شاطئ حالم ، فراود عينيه النعاس ، فنام ، لشدة الاعياء ،

١) « الحق اقول لكم ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الاطفال فلن تدخلوا ملكوت السماوات » (متى ١٨ /٣) .

ملء عينيه ، والعاصفة تهدد السفينة بالابتلاع وتنشر الذعر والهلع في قلوب التلاميذ (متى ٨ ، مر ٤) . امّا هو فلم يبالِ ولم يجزع .؟

وشاكسه الفريسيون في اليهودية وحاربوه سرًا وجهرًا وحاولوا النيل منه فصبر على الكيد وتابع الرسالة رابط الجأش راسخ الايمان بالظفر . تمتع بسلامة البنية فصبر على المشقات وتذوق سحر الطبيعة وتمتع كذلك برجاحة العقل .

٢ – رجاحة عقله

وقد ظهرت رجاحة عقل المسيح في نظرته الواقعية الى الحياة وتفاؤله واتزانه ونفاذ بصيرته وسداد رأيه ومضاء عزمه ووضوح هدفه .

نظرته الواقعية الى الحياة

ما كان المسيح شاعرًا خيالياً، انما كان واقعياً أخذ عن الطبيعة التي عاش ضمن اطارها لحمة تعاليمه وسداها وارتفع بالخليقة الى خالقها وحمل الانسان على ان يتلمّس وجه الخالق في خلائقه وهكذا جعل تعاليمه السامية في متناول سامعيه البسطاء . رأى الجليليين يلقون الشباك في بحيرة طبريا فشبّه ملكوت السماوات بشبكة « القيت في البحر فجمعت من كل جنس فلما امتلأت اطلعوها الى الشاطئ وجلسوا فجمعوا الاخيار في الأوعية وامّا الارديا‌ء فطرحوهم خارجاً . هكذا يكون في منتهى الدهر يخرج الملائكة ويميّزون الاشرار من الاخيار ويلقونهم في اتون النار » (متى ١٣/٤٧) ؛ ورأى الفلاحين ينثرون بذارهم في الحقول التي تعطي وفقاً لخصب التربة فيها ، فشبه كلام الله بالزرع ينثر في قلوب الناس فتعطي وفقاً لاستعدادها (لو ٨) ؛ ولمح نساء الجليل يعددن الخبز فشبّه ملكوت الله في النفوس بالخمير في العجين (متى ١٣) ؛ وفطن للفقيرات منهن يقمن البيت ويقعدنه بحثاً عن درهم اضعنه هنّ جدّ حريصات عليه، فشبّه حرص الله على النفوس بحرصهنّ على الدرهم (لو ١٥) ؛ وآلمه مرأى قاضي الظلم لا ينصف الضعيف الاّ اذا ملّ من الحاحه فقال : « اترى الله لا ينتقم لمختاريه الذين يصرخون اليه ليل نهار » (لو ١٨) . وانفت نفسه صلَف الفريسيين والعلماء فجلد كبرياءهم واساءهم جلدًا موجعاً (متى ٢٣) .

تفاؤله

نظر الى الحياة نظرة واقعية فتحقق بين الناس وجود الشر والاشرار . ونفذ بثاقب بصيرته الى القلوب فرأى ما يعصف فيها من شهوات تراب ولمح ما فيها من ميل رجراج الى الخير . فلم ييئسه طغيان الفساد على نزعة الخير في القلوب ولم يقنط من أمر خلاص الناس ، فصارحهم بحقيقة رسالته التي تهدف الى اقالتهم من عثارهم ، وتفاءل بنجاح هذه الرسالة ومناهم بانتصار الخير فيهم على الشرّ وأعاد اليهم الثقة بالنفس فأقبلوا عليه يسمعون تعاليمه بلهفة وشوق بعد ان أطمعهم بالكمال حين قال : « كونوا كاملين كما ان أباكم السماوي كامل هو » (متى ٥/٤٨) .

ونلمس تفاؤله هذا في عطفه على الخطأة . أصمّ السامريون الآذان عن سماع تعاليمه فلم يصبّ عليهم جام غضبه ولا استرسل الى شهوة الانتقام يستثيرها في صدره ابنا زبدى تلميذاه ، ولا تمنّى على الله مثلهما ان يمطر هؤلاء المكابرين نارًا وكبريتاً لكنه قال : « ان ابن البشر لم يأت ليهلك نفوس الناس بل ليخلّصها » (لو ٩/٥٥) . ما قسا في احكامه على معتوه ولا اساء الظن بمن اصابته عاهة فنسبها الى تهلكة ؛ لكنه اجاب تلاميذه يوم سألوه عن سبب عمى اعمى بقوله : « لا هذا اخطأ ولا ابوه لكن لتظهر اعمال الله فيه » (يو ٩/١) .

ونلمس تفاؤله في رفقه بالضعفاء . فما خاطبهم من علُ ولا فرض ارادته عليهم فعل القساة المستبدين ؛ لكنه احترم ما حباهم من حرية احتراماً عميقاً ؛ فما نفّرهم بالوعيد ولا ايأسهم بالتهديد لكنه استمالهم باللطف والايناس فخيّرهم باتّباع ما سنّه من شرائع فقال بصيغة الشرط لا الأمر : « من اراد ان يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني » (متى ١٦/٢٤) .

« ان عطش احدٌ فليأت اليّ ويشرب » (يو ٧/٣٧) .

« من يسمع كلامي ويؤمن بمن ارسلني فله الحياة الابدية ولا يصير الى دينونة لكنه قد انتقل من الموت الى الحياة » (يو ٥/١٤) .

« من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الابدية وانا اقيمه في اليوم الاخير » (يو ٦/٥٥) .

« ان اردت ان تكون كاملاً فاذهب وبع كل شيء لك واعطه للمساكين فيكون لك كنز في السماء وتعال فاتبعني » (متى ١٩/٢١) .

« ان احبني احد يحفظ كلمتي وابي يحبه واليه نأتي وعنده نجعل مقامنا » (يو ١٤ /٢٣) .

« تعالو الي ّ يا جميع التعبين والمثقلين وأنا أريحكم . احملوا نيري عليكم وتعلّموا مني اني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لأنفسكم لأن نيري لين وحملي خفيف » (متى ١١ /٢٨) .

نعم لقد انذر المصرّين على الغواية والضلال بالعقاب الابدي لا انتقاماً بل رجاء ان يوقظهم من سباتهم ويقبل بهم الى التوبة .

امّا نقطة الدائرة من تعاليمه الالهية فهي ابوة الله ورفقه بالشقاء والاشقياء ؛ ابوّة الله يسخو بها على طيور السماء وزنابق الحقول ، افتراه يبخل بها على اولاده الناس؟ (متى ٦ /٢٦ ؛ لو ٧ و ١٥)[١] .

تفاءل بمصير البشر فحاول اسعافهم على تحقيق هذا المصير بما عُرف به من اتزان .

اتزانه

ما كان المسيح زاهداً حقر الناس ولا زمّيتاً مبالغاً في التزمّت بحيث نفّرهم منه ، ولا متصوفاً خُطف في الله عن الدنيا ومشاغلها كـالقديس يوحنا الصليبي وتريزيا الآبيليّة ؛ لكنه خالط البشر على اختلاف طبقاتهم فأنس بالاصدقاء ورفع الكلفة بينه وبينهم ، فأتاهم على حين غفلة وعلى غير استعداد فأكل من زادهم ما تيسّر ، فعله مع لعازار وشقيقته (لو ١٠ /٣٨) . وآكل العشارين والخطأة رجاء ان ينتشلهم من هوّة الفساد ولم يبال بدمدمة الفريسيين . صام وفرض على الناس الصوم كبتاً للشهوات لكنه جلد العبوسة والرياء والتبجّح بالتقوى فقال : « اذا صمتم فلا تكونوا معبّسين كالمرائين» (متى ٦ /١٦).وامتنع ونصح تلاميذه بالامتناع عن الزواج المشروع لكنه ما استنكف عن مشاطرة عروسي قانا الافراح فأهدى اليهما اولى عجائبه خمراً طيباً استخرجه من ماء زلال .

١) « انظروا الى طيور السماء فانها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن في الاهراء وابوكم السماوي يقوتها أفلستم
« انتم افضل منها ... اعتبروا زنابق الحقل كيف تنمو . انها لا تتعب ولا تغزل . وانا اقول لكم ان
« سليمان في كل مجده لم يلبس كواحدة منها . فان كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم وفي غد يطرح
« في التنور يلبسه الله هكذا افلا يلبسكم بالأحرى انتم يا قليلي الايمان... فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل
« او ماذا نشرب او ماذا نلبس ، لأن هذا كله تطلبه الأمم وابوكم السماوي يعلم انكم تحتاجون الى هذا
« كله . فاطلبوا اولاً ملكوت الله وبره وهذا كله يزاد لكم » . (متى ٦ /٢٦–٣٣) .

نفاذ بصيرته وسداد رأيه

كان نافذ البصيرة فمزّق القناع عن رياء الفرّيسيّين يوم سألوه مجرّبين هل يجوز اداء الجزية لقيصر فقال رابط الجأش بقوله : « لا تجرّبوني ؟ عليَّ بدينار انظره » . فأتوه به فقال لهم : « لمن الصورة والكتابة ؟ فقالوا لقيصر . فأجاب يسوع وقال لهم : أوفوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . فتعجّبوا منه (مر ١٢/١٤) . وافحمهم يوم استفتوه مكرًا في حال امرأة مات زوجها فتزوّجت من بعده اخوته السبعة على التوالي ، فسألوه عن أيهم يكون زوجها يوم القيامة فقال : « ألستم لهذا تضلّون لأنكم لم تعرفوا الكتب ولا قوّة الله . لأنــه حين يقومون من بين الاموات لا يزوّجون ولا يتزوّجون ولكن يكونون كالملائكة في السماوات » (مر ١٢/١٨) .

وعرف ما يجول في قلوب تلاميذه من افكار فأنّبهم برفق على قلة إيمانهم (متى ٨/٢٦ و ١٤/٣١ و ١٦/٨٨ ، لو ٢٤/٢٥ ، يو ٢٠/٢٨) . وعاب عليهم نزوعهم الى السيطرة (متى ٢٠/٢٠—٢٨) لكنه لم يجرحهم بعبارة نابية تمجّها الاسماع فتثبط عزائمهم .

وضوح هدفه

وأخيرًا كانت فكرة البعثة نيّرة لديه .

لقد حدّد الهدف الذي يرمي اليه ألا وهو خلاص البشر ؛ وأعدّ ما يجب له من الوسائل ألا وهو الصليب . فما كان انتهازياً يغتنم السوانح قياماً برسالته ولا وصولياً يساوم على الحق بغية الظفر بشعبية رخيصة ؛ لكنــه أوضح منذ البدء رسالته الشريفة في خطوطها الكبرى في خطابه على الجبل ، فكان خطابه دستور تعاليمه يعود اليه في كل سانحة . أعلن في سنّ الثانية عشرة يوم اضاعوه فوجدوه في الهيكل ، « انه ينبغي له ان يكون في ما هو لأبيه » (لو ٢/٤٩) . وما فتئ يقول منذ ذلك الحين : اني جئت لأعمل هكذا ... ما جئت لأعمل كذا ...

« اني لم آت لأدعو الصدّيقين بل الخطأة » (متى ٩/١٣) .

« لأن ابن البشر لم يأت ليُخدَم بل ليَخدُم ويبذل نفسه عن الكثيرين » (مر ١٠/٤٥ ، متى ٢٠/٢٨) .

« لا تظنوا اني اتيت لاحل الناموس والانبياء اني لم آت لأحل لكن لأتمّم » (متى ٢٠/٢٨) .

« اما انا فانما اتيت لكيما تكون لهم الحياة وتكون لهم اوفر » (يو ١٠/١٠) .

وعرف ما سيقاسيه من آلام في سبيل تحقيق رسالته فلم يتراجع ، لكنه لم يحتقر الآلام شأن الرواقيين فقال : « يا ابتاه لتكن مشيئتك لا مشيئتي » (متى ٣٩/٢٦) .

وقامت في وجهه التجارب والصعوبات فنبذ التجارب وذلّل الصعوبات . جرّبه الشيطان ثلاثاً ، ليصدّه عن عزمه على خلاص البشر ؛ وجرّبه تلاميذه اقرب الناس اليه ؛ حتى الشعب الذي نادى به ملكاً . لكنه تغلّب على جميع التجارب ومشى راسخ القدم سديد الرأي الى تحقيق رسالته الكبرى .

١ – اما الشيطان فقد جرّبه

مرّة اولى– يوم اشار عليه ، أن يحوّل الحجارة الى خبز بعد ان صام اربعين يوماً (متى ٣/٤ وقد اراده بذلك على استخدام سلطانه الالهي سدّاً لجوعه وبالتالي اراده على الخروج عمّا ارتضاه ، ضمن نطاق رسالته ، من عذاب وآلام . فلو تراه عمل اليوم بمشورة الشيطان فجنّب نفسه ألم الجوع بتحويل الحجارة الى خبز فما الذي يمنعه في الغد من ان ينزل عن الصليب فيجنّب نفسه آلامه الفادحة ؟ لكن المسيح انتصر على التجربة بقوله : « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » .

ومرة ثانية – أشار عليه بأن يلقي بنفسه من على جناح الهيكل – وعلو الهيكل شاهق ؛ وكان الشيطان قد حمله اليه بالروح – فيحمله الملائكة فلا تصدم بحجر رجله.

وقد اراده بذلك على اثارة اعجاب الشعب به – فعل من يقف مثلاً في الفضاء فينقاد له مكرهاً ولا عذاب ولا آلام ؛ لكن المسيح عرف ان فعلاً كهذا فيه ضغط على الحريات ؛ وردع الناس عن الفساد لا يكون بالاكراه والضغط على الحريات انما بالاقناع ، ولا يقتنع الناس الا اذا شاهدوه على الصليب . لذلك اجاب : « لا تجرّب الرب إلهك » .

ومرّة ثالثة – سأله ان يخضع له فيعطيه ممالك العالم اجمع وقد اراه اياها فوق احدى قمم الجبال . وقد اراده بذلك على تأسيس مملكته الروحية على الأرض بالعنف والبطش والدهاء السياسي والمساومة على المبادئ الاخلاقية ؛ لا بالعذاب والآلام . لكن المسيح اجاب : « اذهب يا شيطان فانه قد كتب : للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد » .

٢ – وجرّبه تلاميذه

فحذا بطرس حذو الشيطان يوم كاشفه المسيح قرب قيصريّة فيلبّس بعزمه على خلاص البشر بالصليب. فصاح بطرس بسيّده وقال: « حاشى يا رب لا يكون هذا ». لكن المسيح أنّبه على قوله ووصفه بشيطان لاقتدائه به في هذا المجال وقال له: « اذهب خلفي يا شيطان فقد صرت لي شكاً لانك لا تفطن لما لله لكن لما للناس » (متى ١٦/٢٢).

٣ – وجرّبه الشعب:

يوم كثّر الخبز على عبر الجليل، فاشبع الجماهير من خمسة ارغفة وسمكتين فأثارت هذه الأعجوبة هوس الناس فحاولوا اختطافه والمناداة به ملكاً، وكأنهم يقولون لقد آمنّا بك وعنونا لك فما حاجتك بعد الى الصليب والعذاب؟ وكانت هذه التجربة من اشد التجارب عنفاً، لكن المسيح انتصر عليها بالهرب الى الجبل وحده وجنّب نفسه الوقوع في التناقض بين اقواله واعماله. واقواله نداء ملحّ للاقلاع عن الدنيا؛ بيد ان اعماله فيما لو حصلت ولم يرفض التجربة لكانت اقبالاً على الدنيا وعلى ما فيها من امجاد برّاقة. لكنه لم يفعل.

وهذه التجارب تدلّ دلالة واضحة على ان المسيح اتى برسالة حدّدها له ابوه السماوي وما حاد عنها رغم ما اعترضه من صعاب في سبيل تحقيقها.

٣ – فضائله

لقد ازدان المسيح بفضائل نادرة تدلّ على عظم شخصيته وغنى نفسيته. وسرعان ما يتجلّى لك عظم شخصيته وغنى نفسيته اذا ما قارنته بعباقرة الاجيال واعاظم التاريخ حتى لتتساءل أهو حقاً انسان؟. اعاظم الرجال مزيج من فضائل ونقائص؛ وكثيراً ما تصبح محاسنهم مساوئ واذا بالتواضع عندهم فيه شيء من الخنوع ربما انقلب زحفاً على البطون، وفي التسامح شيء من الجبن ربما انقلب تخنثا؛ واذا اعجبتك مرونتهم ادركك من شهوانيتهم غشيان. فهم في شخصيتهم اغنياء فقراء فاتهم الاتزان واعوزهم الاعتدال. امّا المسيح فلم يكن عظيما من اعاظم التاريخ وحسب، لكنه فاقهم بمراحل فهو من ايّ ناحية اتيته كامل ولا سيما بفضائله وما اكثر ما هي؛ واذا فيه: تواضع في عظمة، وداعة في جرأة، عفاف في مرونة، تقدمية في محافظة على التقليد.

تواضع في عظمة

يخال من يقتصر من مشاهد الانجيل على الآلام ان المسيح استكان دوماً الى المذلة والمهانة ، فحنى ظهره للسياط ومد صفحة خده للصفعات ، فلا انفة ولا عظمة . لكن من ينعم النظر في الاناجيل يبدو له ان المسيح جمع الى التواضع العظمة . فهو عظيم لكونه يمتّ بوالدته العذراء الى سلالة الملوك بصلة ؛ ورضى بمظاهر العظمة يحوطه بها الشعب يوم الشعانين فاستقبلوه بالهتاف : « اوشعنا لابن داود (يو ١٢/١٢) ؛ وأوحى المهابة والوقار فيما اشتهر عنه من نبل في الاخلاق ونضج في التفكير . فبهت سامعوه من تعليمه لأنه كان « يعلمهم كمن له سلطان لا كالكتبة » (مر ١/٢٢، لو ٤/٣٢) . فهابه العلماء الشيوخ على حداثة سنه ونالهم منه اللوم والتوبيخ ، وأتاه نيقوديموس احد علماء اسرائيل ليلاً فبايعه سرًّا السيادة بقوله : « يا معلّم نحن نعلم انك أتيت من الله معلماً لأنه لا يقدر أحد أن يعمل هذه الآيات التي انت تعملها ما لم يكن الله معه » (يو ٣) .

وما كان ما قام بينه وبين تلاميذه من إلفة ليذهب بما يستشعرون امامه من رهبة . لقد سبروا اغوارًا بفضل قداسته عن خطتهم فتهيّبوه (لو ٥/٨ ومر ٨/٣٣) ودعوه أباً ومعلّماً فأمّن على اقوالهم بقوله : « حسناً تقولون لأني كذلك » (يو ١٣/١٣)[١] .

ودلّت تعاليمه على عظمته . فهو عظيم حين يقول : انا نور العالم ... انا الطريق والحق والحياة ... لا تخافوا من يقتل الجسد ... كل ما سمعتموه في المخادع اكرزوا به على السطوح (يو ٨ و ١٤ ، متى ١٠) .

لكنه عظيم متواضع . قد رذل عظمة العظماء المزيّفة تدفعهم الى التشامخ امام الضعفاء والى انزال القسوة بهم ، وقلب مفاهيم العظمة باقواله واعماله ؛ فقال : « من وضع نفسه ارتفع » وتصاغر امام تلاميذه فوطّد سلطانه على قلوبهم فازداد في عيونهم مكانة ومهابة . غسل ارجلهم قبيل موته (يو ١٣/٤ و١٣) فألقى عليهم امثولة خالدة في العظمة المتواضعة .

وداعة في جرأة

كان المسيح وديعاً فضبط هواه وساد طباعه وقمع نزواتها فيه ؛ فنشر الحنان والرفق حوله وأحيا ميّت الآمال في النفوس بوداعته . ولا غرو فهو القائل : « تعلّموا مني

١) فلما رأى ذلك سمعان بطرس خرّ عند ركبتي يسوع قائلاً اخرج عني يا رب فاني رجل خاطئ (لو ٥/٨) . « وانتم تدعوني معلماً وربًّا وحسناً تقولون لأني كذلك . » (يو ١٣/١٣) .

اني وديع ومتواضع القلب » (متى ١١ /٢٩) . لكن وداعته لم تكن خنوعاً واستماتة امام الاقوياء ؛ لكونه عرف كيف يؤلف بين الوداعة والجرأة . لقد غضب حيث يكون الغضب مقدساً فطرد الباعة من الهيكل وألهب ظهورهم بالسياط قائلاً : « بيتي بيت الصلاة يدعى وانتم جعلتموه مغارة للصوص » (متى ٢١ /١٢ ، مر ١١ /٥ ، لو ١٩ / ٤٥ ، يو ٢ /١٣) . ووبخ الفريسيين على ريائهم ومصانعتهم ولم يخشَ كيدهم (متى ٢٣) . وظلّ على تقلّب الاحوال وتبدّل الظروف يسيطر على اعصابه فما نفخ اوداجه استعلاء ولا حقّرت خدّه كبرياء .

عفاف في مرونة

كان عفيفاً فزهد بملاذ الدنيا الحسية وتسامى عن بهارجها الزائفة ، فدعا الى الفقر الاختياري وقال باحتقار المادة وعمل بما قال . فصفا قلبه ممّا يعكّر القلوب من شهوات وطفح وجهه نوراً مشعاً . هو صفاء القلوب كأمواه الينابيع يفيض على الوجوه انساً وبشراً .

لكنه على عفافه وزهده ما تجهّم الناس وأفراحهم . ودفعته مرونته الى العيش في ما بينهم فأخذ بقسط مشروع من افراحهم ودافع عن حق المرأة بالاحترام واستعان بخدماتها له ولتلاميذه (لو ٨) . فجمع العفاف الى المرونة .

تقدمية في محافظة على التقاليد

وكان تقدّمياً فقلب الحواجز العنصرية التي كانت تفصل اسرائيل عن الامم واعلن المساواة بين الناس (راجع مثل السامري ، لو ١٠ /٣٠) . فبث في المجتمع البشري روحاً جديدة تولّت كنيسته نشرها من بعده فكانت خمرة جديدة في زق جديد (متى ٩ /١٧) . وغزا قلب الانسان فأحدث اكبر ثورة اخلاقية عرفها التاريخ دون اراقة دماء .

لكنه ما نسخ الشريعة القديمة بكاملها فحافظ على ما صالح منها يوم قال : « لا تظنّوا اني اتيت لأحلّ الناموس والانبياء اني لم آتِ لأحلّ بل لأكمّل (متى ٥ /١٧) . ودفع الجزية لتلاميذه يوم صعد الى الهيكل وأكملَ الفصح الذي تأمر به الشريعة القديمة وتلا المزامير (لو ٢٢ /٧) . وابتدر احد العلماء يوم سأله عن اكبر الوصايا بقوله : « ما تقرأ في الناموس » (لو ١٠ /٢٥) اعترافاً منه بصلاح الوصايا القديمة .

وهكذا كان تقدمياً ومحافظاً لما في شخصيته من عظمة وفي نفسيته من غنى .

الفصل الثاني

صحة رسالة يسوع المسيح

رسول السماء

اوراق اعتماده

١ — قداسته :

— مقوّمات قداسته
— شهود قداسته

٢ — معجزاته :

— ماهية المعجزة
— امكانيتها وغايتها
— هنا اصبع الله

٣ — نبوءاته :

— ماهية النبوءة
— امكانية النبوءة
— هنا سر الله

بعد ان ألممنا بشخصية يسوع المسيح ننتقل الآن الى البحث في صحة رسالته فنطّلع على ما قدّمه للبشر من اوراق اعتماد اثباتاً لها .

لا بدّ لكل رسالة من مرسِل ورسول ومرسَل اليه . والمرسل يزوّد عادة رسوله بكتاب خطّي يحمل توقيعه واختامه وينطوي على الغاية من رسالته فيقدّمه الرسول لدى الحاجة الى المرسل اليه اثباتاً لصدق اعتماده ؛ وهذا ما يعرف في الاصطلاحات المدنية باوراق الاعتماد .

لكن الله – وهو روح محض – لم يزوّد رسوله بكتاب خطي ، انما زوّده برسالة شفهية تنطوي على ما سمعه ورآه لدى الآب السماوي وتلزم الناس بالايمان بها . ورسول الله ، ان لم تدعم اقواله اعمال ، ظلت رسالته مظنة للريبة لدى الناس وذلك لسببين :

١ً – لأنه اتى ليقوّم اعوجاج الناس ويصلح عاداتهم ، ويهذّب أخلاقهم ، ويقدّس نفوسهم ، وهذا لا يتمّ الاّ اذا كان هو عينه مثالاً حيًّا لنبل الاخلاق وقداسة السيرة .

٢ً – لأنه اتى ينشر بين الناس معتقداً جديداً يطلب اليهم ان يؤمنوا به . وهم لا يؤمنون الاّ استناداً الى شهادته ، ولا يجرؤون على ان يربطوا مصيرهم بمصيره ويجازفوا بنفوسهم في سبيله ما لم تتوفّر لهم ضمانة قويّة يتخذونها من اعمال هذا الرسول وقداسته . فيؤمنون دون ان يكون هناك ضغط على حريتهم ، وانتفاء الضغط والاكراه في فعل الايمان هو ما يرتكز عليه فضل كل مؤمن . لذلك ينبغي له ان يشهد باعماله على صدق اقواله فيكون رسولاً وشاهداً معاً ، فيسمع الناس اذ ذاك اقواله ويحتذون مثاله . وهذا ما اشار اليه السيد المسيح في مستهل رسالته عندما قال : « اننا ننطق بما نعلم ونشهد بما رأينا » (يو ٣/ ١١) . وقبيل اختتامها امام بيلاطس : « انما اتيت لأشهد للحق وكل من كان من الحق يسمع صوتي » . (يو ١٨/ ٣٧) .

يشهد الرسول باعماله على صدق اقواله ويشهد الله بدوره لرسوله فيمدّه بنوره العلوي ويعصمه من الخطأ ويقيه الضلال ، فينبذ الناس حياله ما اعتادوا ان يستقبلوا به الرسل من الحيطة والحذر فيصدقونه ليقينهم انه انما يتكلّم باسم الله ، وكلام الله منزّه عن الخطأ على ما قال المسيح : والذي ارسلني هو حق والذي سمعته منه به اتكلّم في العالم » (يو ٨/ ٢٦) «فانا اشهد لنفسي ، وابي الذي ارسلني يشهد لي» (يو ٨/ ١٨) .

فكل رسالة من الله يقتضي لها اذن شهادة مزدوجة تؤدّى في وقت واحد: شهادة الرسول لله وشهادة الله للرسول . ولما كان المسيح رسول الله كان لا بدّ لنا من ان نقف على شهادته لله وشهادة الله له ونطّلع على اوراق اعتماده .

اوراق اعتماده

تقوم اوراق اعتماد المسيح على قداسته ومعجزاته ونبوءاته وهي اختام الله على رسالته . ان قداسة المسيح تشهد بان الله قد أحلّ فيه برّه وصلاحه ، ومعجزاته بأنه خوّله سلطانه ، ونبوءاته بأنه اوقفه على اسراره الالهية .

١ — قداسته

ان اوضح علامات رسول الله هي القداسة . فهو يستوحيها افكاره واقواله ويستلهمها مآتيه وأعماله، وهكذا يتسنّى له ان يكون للناس معلماً وقدوة لهم في الصلاح.

وكلمة « قداسة » تطلق اولا على الله وحده لتنزّهه عن الاثم والخطيئة ، وثانياً على الانسان الذي يحاول الاقتداء بالله في تنزيهه نفسه عن الخطيئة . لكن الانسان — وقد عصفت به بعد الخطيئة الاصلية اميال منحرفة واهواء اصبح معها ينزع الى عبادة المال والانغماس في الملاذ الحسية وحب السيطرة — باتت تتعذر عليه القداسة ان لم يؤته الله مدداً للحصول عليها .

وهذه القداسة تقطع على الرسول الكاذب مجال التمادي في كذبه ونفاقه على الحق. فهو وان خدع الناس حيناً من الزمن لا يلبث ان ينكشف لهم امره بما يرشح اليهم من سوء دخائله فتأتي أعماله ولو بالغ في اخفائها نقيض اقواله . اما القداسة الحقة فهي دعوة مثمرة الى الصلاح على حد قول برغسون : « حسب القديسين ان يكونوا ليكونوا دعوة الى الصلاح » . وقداسة الرسول تتوطّد على قدر ما يجتنب روح العالم ويقتدي بالله ويحيا فيه .

مقومات قداسته

لقد اجتنب المسيح روح العالم فكان قديساً قديساً قديساً على حد تعبير باسكال. ما دنّس نقاء كفّه مال ، ولا لطّخ نصاعة روحه شهوات ، ولا عكّر صفاء نزاهته رغبة في مجد عالمي زائف ، لكنه قضى الحياة في خدمة الناس اخوانه .

وقد اقتدى بقداسة الله على غير ما تعوّد القديسون الاقتداء ؛ ودون قداسة القديسين كفاح مرير شاق حدّه حد الحياة ، وقد خبره كبار المتصوّفين فحاولوا تطهير النفس بالندامة وطلب الغفران لأن الانسان ، كلما اقترب من الله ، شعر بحقارته ، فهو لا يقترب منه ولا سيّما ساعة الموت الاّ وشعر بالهيبة ترعده .

اما المسيح فما شعر يوماً بحاجة الى طلب المغفرة لنفسه ولا ندم في حياته على سيئة اتاها ولا اضطرب لدنوّه من الله : لكنه عالج سكرات الموت على الصليب وقاسى ما قاساه من آلام فادحة ثم اسلم الروح مطمئن الضمير الى قيامه برسالته خير قيام فقال : « يا ابتاه بين يديك استودعك روحي » (لو ٢٣/٤٦) .

وقد اقتدى المسيح بقداسة الله فأتمّ ارادته وجعل غاية حياته وعلّم الناس ان قوام الشريعة انما هي عبادته تعالى يوم قال : « احب الرب الهك بكل قلبك وكل نفسك وكل ذهنك ؛ هذه هي الوصية الكبرى والعظمى ... » (متى ٢٢/١٤) . وقد جعل اتمام ارادة ابيه غذاءه الروحي فقال : « ان طعامي هو ان اعمل مشيئة من ارسلني » (يو ٤/٢٤) . ولقّن تلاميذه ضرورة اتمامها .

وقد حيي المسيح في الله فناجاه بالصلاة مناجاة دائمة مستمرّة . لقد استهلّ حياته الرسولية برياضة روحية دامت اربعين يوماً قضاها في صوم وصلاة (متى ٤ ولو ٤) . وكثيراً ما قضى ليله في صلاة الله (لو ٦/١٢ ومر ١/٣٥). وصلّى قبيل تكثيره الخبز وبعيده (متى ١٤/٢٢) وقبيل انتخابه رسله . ووجد في الصلاة عزاءه يوم كان يجرّع كاس النزع في بستان الزيتون قبيل آلامه (يو ١٦/٣٢ ولو ٢٢/٤) . وقصارى القول انه ما قدم على أمر خطير الاّ استعدّ له بالصلاة .

واذا قارنا صلاة المسيح بصلاة الآباء والانبياء والقديسين وجدناها تفوق صلاتهم سمواً وبهاءً . ان صلاتهم صلاة خاطئ يستصرخ الله ليتناسى آثامه فيقول مع داود النبي : « ارحمني يا الله حسب رحمتك وكثل كثرة رأفتك امحُ مآثمي» (مز ٥٠) وصلاة بائس يتلمّس التعزية . وصلاة المسيح انشودة تهليل وهتاف شكر يصعدها باسم البشر ابيه السماوي : « اشكرك يا ابتِ ، رب السماء والارض ، لأنك اخفيت ذلك عن الحكماء وكشفته للاطفال » (متى ١١/٢٥) . وهي حديث الابن لأبيه يدور في جوّ من الحبّ والثقة المتبادلة (راجع الصلاه الكهنوتية : يو ١٧) .[١] وهكذا اجتنب المسيح روح العالم واقتدى بقداسة الله وحيي فيه .

١) صلاة يسوع الكهنوتية : « يا ابت قد أتت الساعة مجد ابنك ليمجدك ابنك . كما اعطيته السلطان

شهود قداسته

وقد شهد للمسيح بالقداسة قوم ما ربطته بهم لا صداقة ولا عداوة . شهد له بها مندوب روما في فلسطين بيلاطس البنطي فصارح اليهود بقوله ، بعد ان استنطقه انه لم يجد عليه ما يستوجب العقاب . وشهدت له كذلك امرأة بيلاطس يوم انفذت الى زوجها رسولاً تطلب اليه الاّ يقاضي يسوع المسيح لأنه رجل بار صديق (متى ١٩/٢٧) .

وشهد له اللص الأيمن الذي شاطره ذلّ الصلب وبهجة الملكوت بقوله لرفيقه اللص الايسر : « ألا تخشى الله وانت مشترك في الحكم نفسه ؟ امّا نحن فانّا نعاقب بما قدمت ايدينا اما هو فلم يفعل شيئاً من السوء » (لو ٢٣/٤٠) . وشهد له يهوذا الاسخريوطي عندما نهشه الندم على الخيانة فقال لليهود : « خذوا مالكم لقد خطئت اذ اسلمت الدم الذكي» (متى ٢٧/٤) .

وشهد له كذلك رجال بطانته ، وكثيرًا ما يتكشف لرجال البطانة ما في اسيادهم من عيوب تجرّئهم عليهم فيستبذلونهم ويجعلونهم في ايديهم آلة مطواعاً . أمّا المسيح فكان اهل بطانته يزدادون اجلالاً له واعجاباً به كلما نفذوا الى دخائله وتوثّقت بينه وبينهم اواصر الألفة . فشهد له بطرس رسوله بقداسته فقال عنه انه « لم يقترف خطيئة ولا وُجد في فمه مكر » (بطرس ١ : ٢/٢١) . واكّد بولس شهادة بطرس يوم قال : « ان الحبر الذي لنا ليس عاجزًا عن الرثاء لاسقامنا ، بل هو مجرّب في كل شيء على مثالنا ما عدا الخطيئة » . (عبر ٤/١٥) .

وارغم اخيرًا ابليس على الشهادة له بالقداسة عندما كان يخرجه من المجانين (مر ١/٢٣) .

على كل بشر ليعطي الحياة الأبدية لكل من اعطيته له . وهذه هي الحياة الأبدية ان يعرفوك انت الاله الحقيقي وحدك والذي ارسلته يسوع المسيح . انا قد مجدتك على الأرض واتممت العمل الذي اعطيتني لاعمله. والآن مجدني انت يا ابت عندك بالمجد الذي كان لي عندك من قبل كون العالم ... ايها الآب القدوس احفظ باسمك الذين اعطيتهم لي ليكونوا واحداً كما نحن واحد ... قدّسهم بحقك ان كلمتك هي الحق. كما ارسلتني الى العالم ارسلتهم انا الى العالم . ولأجلهم اقدس ذاتي ليكونوا هم ايضاً مقدسين بالحق . ولست أسأل من اجل هؤلاء فقط بل ايضاً من اجل الذين يؤمنون بي عن كلامهم . ليكونوا باجمعهم واحداً كما انك انت ايها الآب فيّ وانا فيك ليكونوا هم ايضاً واحداً فينا حتى يؤمن العالم انك انت ارسلتني. وانا قد اعطيت لهم المجد الذي اعطيته لي ليكونوا واحداً كما نحن واحد . انا فيهم وانت فيّ ليكونوا مكملين في الوحدة حتى يعلم العالم انك انت ارسلتني وانك احببتهم كما احببتني . يا ابت ان الذين اعطيتني أريد ان يكونوا معي حيث انا ليروا مجدي الذي اعطيتني لانك احببتني قبل انشاء العالم ... (يو ١٧) .

وقد تجلت قداسته في غيرته على مجد ابيه السماوي واحترامه حرية الناس في نشر رسالته واعراضه عن الاغراء والدهاء السياسي لحملهم على اتباعه .

٢ – معجزاته :

وان ما يشهد على صدق رسالة المسيح بعد قداسته معجزاته . ومعجزات المسيح خير دليل على ان الله خوّله سلطانه ، وخير ضمانة تقطع على الناس مجال الشك في ما أتى به من حقائق . وهذا السلطان على فعل العجائب هو اول ما يحرص على الحصول عليه كل رسول . لقد ورد في الكتاب المقدس ان موسى لم يلبّ طلب الله في اخراج الشعب الاسرائيلي من مصر الآ بعد ان ظفر منه بهذا السلطان ، فرأى الله يحيل عصاه الى حية ثم يعيدها عصا وسمعه تعالى يقول له : «خذ بيدك هذه العصا تصنع بها الآيات » (خروج ٤ /١ – ٥ و١٢ و١٧) .

ولكن قبل ان نبحث في عجائب المسيح علينا ان نرى ماهية الاعجوبة او المعجزة وامكانية وقوعها وغايتها .

ماهية المعجزة

المعجزة فعل محسوس يحدثه الله خلافاً لنظام الطبيعة المعتاد حملاً لخلائقه على تمجيده .

قلنا « فعل محسوس » لكون الانسان لا يتأثر الا بما يقع تحت الحواس ، وقلنا « خلافاً لنظام الطبيعة المعتاد » لكون الله يوقف ، لدى صنعه المعجزة ، نظام الطبيعة بصورة عارضة وقتية لا بصورة عامة مستمرة وذلك في حادث خاص ولأسباب خاصة .

والمعجزة تخالف نظام الطبيعة اما بطريقة جوهرية كاحياء ميت ، واحياء الميت حدث يفوق قوى الطبيعة ولا يرجى وقوعه الا باعجوبة ؛ واما من حيث كيفية حدوثها فقط كشفاء مريض من حمّى بغتة دون واسطة طبيعية ، وشفاء مريض من الحمّى حدث يرجى وقوعه بالوسائط الطبيعية انما ليس بغتة (راجع الياس الجميل : اللاهوت النظري مجلد ١ ص ٤٤) .

وللتأكد من حدوث المعجزة يجب التأكد :

اولاً – من انتفاء الوهم والخطأ في رؤية الحادث ومن عدم التناسق بين نتيجة المعجزة الفائقة الطبيعة والوسائل المستخدمة لاحداثها .

ثانياً — من الظروف التي اكتنفت الحدث العجائبي : هل كانت الغاية من هذه الاعجوبة حمل الناس على تقوى الله ام على الاعجاب بصانعها ابتغاء الشهرة والسيطرة على عقول السذّج ؟

ثالثاً — من ارتباط الحادث العجائبي بشخص رسول الله وتعليمه فالمعجزة التي لاتتم عن قداسة صانعها ليست بمعجزة .

امكانيتها وغايتها

زعم العقليون ان المعجزة مستحيلة لكونها تخرق نظاماً طبيعياً ثابتاً لا سبيل الى خرقه. وانكرها غيرهم لكونها في ظنّهم تفترض في الله تغييراً وتبديلاً وبالتالي تنافي كمالاته تعالى ولا سيا حكمته الألهية .

ولكنّ الزعمَين باطلان تمام البطلان . وذلك لان نظام الطبيعة ليس ثابتاً بقدر ما يتوهّمون ولأنه على كل حال يبقى خاضعاً لله وليس الله خاضعاً له . والله بامكانه ان يوقف هذا النظام بطريقة موقتة في حادث خاص دون ان يكون هناك اي تناقض ودون ان يطرأ اي تغيير على الله ، لأنه تعالى خارج عن الزمن وغير خاضع له . فهو لا يقرّر ثم يعود عن قراره فيبدّله ، لأنه في حاضر ابديّ دائم . ان الله قد قرّر منذ الأزل ما سيحدثه في مجرى الزمن . ولذلك لا سبيل الى القول ان فيه تغييراً . ولا تنافي المعجزة كمالات الله وحكمته لأنه لا يقصد منها اصلاح في النظام الطبيعي على ما يزعم الزاعمون انما يقصد منها فائدة روحية للبشر كتوطيد ايمانهم بالله او ما سوى ذلك من المنافع . (راجع الياس الجميل مجلد ١ ص ٤٦—٤٧) . وهذه هي غاية المعجزة التي تدلّ على محبة الله للانسان وتفضيله اياه على ما سواه من الخلائق لكونه صوّره على صورته ومثاله .

هنا اصبع الله

لقد حصل المسيح على سلطان صنع العجائب وصنع معظمها تأييداً لرسالته . فما شفى المخلّع مثلاً من شلله الاّ بعد ان شفاه من خطاياه اثباتاً لسلطانه على مغفرة الخطايا وقال اذ ذاك : « ما الايسر ان يقال : مغفورة لك خطاياك ام ان يقال : قم وامشِ . لكن لتعلموا ان لابن البشر سلطاناً علىَ الارض على مغفرة الخطايا » . ووجّه كلامه الى المخلّع قائلاً : « قم احمل سريرك وامشِ . فنهض ومضى الى بيته.

ولدى هذا المنظر استولى على الجميع الخوف ومجّدوا الله الذي اتى الناس سلطاناً كهذا» (متى ٩/١ـــ٩). وقد اجاب رسولي يوحنا المعمدان يوم سألاه عما اذا كان هو المسيح ام لا ، بقوله: « اذهبا واعلما يوحنا بما سمعتما ورأيتما ، العميان يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون وطوبى لمن لا لا يشك فيَّ » . (متى ١١/٢ــ٧) . ومعنى جوابه للرسولين ان من يصنع هذه العجائب لا بدّ من ان يكون المسيح المنتظر .

وهكذا رأى رسله وتلاميذه ومعاصروه الذين آمنوا به اصبع الله في معجزاته ، فأحاطوه بمظاهر الاعظام والاكبار وراحوا ، بعد شفائه المخلّع ، يمجّدون الله الذي اعطى الناس سلطاناً كهذا . وامتلأوا خوفاً وقالوا « لقد رأينا اليوم عجائب » (لو ٥/٢٦ متى ٩ ، مر ٢) ، واعترفوا به ابناً لله بعد تهدئته العاصفة (متى ١٦/٧) ونبياً عظيماً بعد احيائه ابن الارملة فقالوا : « لقد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه » (لو ١٦/٧) . وآمن به تلاميذه بعد تحويله الماء خمرًا في قانا الجليل (يو ٢) . وكانوا دائماً على اشد الدهش عندما « جعل الصم يسمعون والبكم ينطقون » (مر ٣٣/٧) ، حتى ان هيرودس كان يودّ رؤيته لما سمع من اخبار عجائبه (متى ١/١٤) والشعب تألّب حوله طلباً للشفاء « لأن قوة كانت تخرج منه وتبرئ الجميع » (لو ١٩/٦) . ومن آمن به كان يقول : « اذا جاء المسيح أفلعلّه يعمل آياتٍ اكثر ممّا عمل هذا ؟ » (يو ٣١/٧) .

لقد رأوا في عجائبه اصبع الله لأنه ابى كل الإباء ان يأتي ولو باعجوبة واحدة ، اثارة لاعجاب الناس به وبالتالي اغراءً لهم على اتباعه . لقد أحبط مساعي الشيطان يوم جرّبه ثلاثاً بغية حمله على طلب الشهرة واثارة الاعجاب به وحذّر من انعم عليهم بشفاء عجيب من اذاعة خبر هذا الشفاء ، مجانبة للشهرة الباطلة واعتقاداً منه ان نفع الاعجوبة الروحي انما يعود لفائدة من صنعت الاعجوبة في سبيله فقط . وبخل بعجائبه على الذين لا يستحقونها لعدم استعدادهم لقبولها وقلة ايمانهم بجدواها وثقتهم به (متى ٥٨/١٣ ، مر ٥/٦ و١١/٨) . بيد انه جاد بها عن سخاء على الذين آمنوا به مكافأة لهم على ايمانهم . فكافأ قائد المئة الوثني على ايمانه فشفى فتاه (متى ٨/٨) والكنعانية على ثقتها العمياء به فشفى ابنتها (متى ٢١/١٥) . وقد افحم حسّاده يوم نسبوا الى الشيطان ما كان يصنعه من عجائب بقوله لهم : « كل مملكة تنقسم على نفسها تخرب وكل مدينة أو بيت ينقسم على نفسه لا يثبت . فان كان الشيطان يخرج الشيطان فقد انقسم على نفسه فكيف تثبت مملكته ؛ وان كنت انا اخرج الشياطين ببعل زبوب فابناؤكم بمن يخرجونهم ؟ فمن اجل هذا هم يحكمون عليكم . وان كنت انا

بروح الله اخرج الشياطين فقد اقترب منكم ملكوت الله » (متى ١٢ /٢٤–٢٨) . لكنه ما استطاع ان ينتزع من قلوب الفريسيين ما تأتكل به من بغضاء دفعتهم الى التآمر عليه للايقاع به (متى ٩/٢٦؛ ٤/٢٣؛ ١٢/٢٢؛ ٥/٣٠ ويو ١١/٣٤) . وان كل ما خاضه من جدل معهم كان موضوعه سلطانه الالهي وبالتالي مقدرته على صنع العجائب حتى ايام السبت (لو ٦/٧ ويو ٩) .

وهكذا ابتعد السيد المسيح كل البعد عمّا يلجأ اليه عادة اشياع الشيطان من احابيل وخزعبلات حباً للسيطرة واكتساباً للشعبية الرخيصة ؛ ورفع العقول بمعجزاته الى الله لكونه وسمها بسمة التقوى والقداسة الحقة ؛ واثبت بواسطتها سلطانه الالهي ورسالته الالهية فكانت له شهادة قاطعة . « اما انا فلي شهادة اعظم من شهادة يوحنا لأن الاعمال التي اعطى لي الآب ان اتمّها ، هذه الأعمال بعينها التي انا اعملها هي تشهد لي بأن الآب قد ارسلني » (يو ٥/٣٦) . وكانت هذا المعجزات عينها شهادة لتلاميذه من بعده يأتونها تأييداً لرسالتهم التي هي رسالته (متى ١٠) .

ولسنا بحاجة الى اثبات حقيقة معجزات المسيح ، وليس ادلّ على صدق رواتها واخلاصهم من هذه البساطة في السرد ، والدقة في ايراد التفاصيل ؛ وهذا ما لا يقدر عليه الاّ شاهد عيان. وليس لنا ليتأكد لنا ذلك سوى ان نراجع ما اثبته لوقا في انجيله عن صيد السمك العجيب وشفاء الابرص والمشلول اليد (لو ٥/١–١٦ و ٦/٦–١٢ .

ولا يعادل بساطة السرد الا بساطة الطريقة في صنع العجائب . فالمسيح يسخو بها دون حساب ، وربما اكتفى باشارة ليشفي مريضاً او بعبارة ليطهّر أبرص : « لقد شئت فاطهر » . ولربما شفى مريضاً وهو منه على بعد مسافات فلا اشارة ولا عبارة انما قوة الله تشفي ابن قائد المئة وابنة الكنعانية وتهزأ بالابعاد (متى ٨ و ١٥) . وفي شفائه المرضى ، وهو منهم على مسافات ، دحض صريح لزعم البرهانيين الذين يدّعون ان تلاميذ المسيح ومعاصريه الذين كانوا يجهلون مدى قوى الطبيعة وتأثير شخصية المسيح على مخيلة مرضى الاعصاب ، حسبوا عجائب ومعجزات ما ليس من العجائب والمعجزات في شيء . نعم ان للوهم دورًا هاماً في شفاء مرضى الاعصاب ولكن اي سبيل الى تسرّب الوهم الى مخيلة مريض ما دامت تفصله عمّن شفاه أبعاد شاسعة . وهل للوهم من اثر على مخيلة ميت ؟ وهل أقام المسيح الموتى من القبور بفعل الوهم يسلّطه على مخيلاتهم ام بقوّة الله الحي ؟

اثبت المسيح سلطانه الالهي بمعجزاته واثبت علمه الالهي بنبوءاته .

٣ - نبوءاته

قبل ان ننظر في نبوءات المسيح الدالة على ان الله افضى اليه بعلمه الالهي علينا ان نرى ماهية النبوءة وامكانية وقوعها .

ماهية النبوءة

النبوءة هي اعجوبة عقلية لا تقع تحت الحواس ، تقوم على معرفة المستقبلات الناشئة عن حرية الانسان وعلى كشف النقاب عنها قبل وقوعها . ان معرفة الفلكي للكسوف او الخسوف وانذاره بالمطر وتبشيره بالصحو ، كل هذا ليس من النبوءة في شيء ؛ لأن هذه كلها حوادث تتبع نظاماً طبيعياً لا تأثير لحرية الانسان فيه . اما النبوءة فتتناول معرفة ما سيحدثه الانسان بملء حريته . وهذه المعرفة لا يملكها الاّ الله ومن يمنحه الله اياها من عباده .

وقد منح الله تعالى هذه المعرفة انبياءه ؛ فتنبأوا عن المسيح ورسموا مراحل حياته وموته قبل مجيئه . فعيّن ميخا مولده في بيت لحم (ميخا ٥ / ٢) قبل مولده بثمانية قرون ، واعلن اشعيا عنه انه سيولد من عذراء قبل وقوع هذا الحدث بستة قرون (اشعيا ٧ / ١٤) وقال انه سيبشر بالاخاء والمحبة ، ويستقرّ عليه روح الرب روح الحكمة والفهم روح المشورة والقوة روح العلم وتقوى الرب ويتنعّم بمخافة الرب ولا يقضي بحسب رؤية عينيه ولا يحكم بجسب سماع اذنيه بل يقضي للمساكين بعدل ويحكم لبائسي الارض بانصاف ... (اشعيا ١١ / ٢) . ورسم مراحل آلامه فصوّره مزدرى ومخذولاً من الناس رجل اوجاع ومتمرّساً بالعاهات ومثل ساتر وجهه عنا ... (اشعيا ٥٣ / ٣) . وتحدّث زكريا النبي عن دخوله اورشليم ظافراً (زكريا ٩ / ٩) وعن خيانة تلميذه له وبيعه اياه بثلاثين من الفضة (زكريا ١١ / ١٢)[١] .

---

١) « وانت يا بيت لحم أفراتـة انك صغيرة في الوف يهوذا ولكن منك يخرج لي من يكون متسلطاً على « اسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ ايام الأزل » (ميخا ٥ / ٢) .
« فلذلك يؤتيكم السيد نفسه آية ها ان عذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل » (اشعيا ٧ / ١٤) .
« انه لقد اخذ عاهاتنا وحمل اوجاعنا فحسبناه ذا برص مضروباً من الله ومذللاً . جرح لاجل معاصينا « وسحق لاجل آثامنا فتأديب سلامنا عليه وبشدخه شفينا . كلنا ضللنا كالغنم كل واحد مال الى طريقه « فالقى الرب عليه إثم كلنا .... والرب رضي ان يسحقه بالعاهات فانه اذ جعل نفسه ذبيحة إثم يرى « ذرية وتطول ايامه ومرضاة الرب تنجح على يده . لأجل عناء نفسه يرى ويشبع وبعلمه يبرر الصديق « عبدي كثيرين وهو يحمل آثامهم . فلذلك اجعل الكثيرين نصيباً له والأعزاء غنيمته لأنه افاض للموت « نفسه وأحصي مع العصاة وهو حمل خطايا كثيرين وشفع في العصاة » (اشعيا ٥٣ / ٤-١٢) .

امكانية النبوءة

النبوءة كالاعجوبة ممكنة وليست بمستحيلة لا من قبل الله لكونه ، وهو فوق الزمان ، يعلم ما سيصدر عن ارادة الانسان الحرة منذ الازل : والاّ لأتاه الزمن بعلم جديد يجهله وكان ذلك نقصاً فيه نُزّه الله عن النقص. ولا من قبل الانسان لأن معرفته المستقبلات وكشفها لا يحدّ من حريته ، لكون الله سبق فعرفها وكشفها لنبيّه بوصفها مستقبلة .

ويُرجع في التمييز بين النبوّة الصحيحة والنبوّة الكاذبة :

اولاً — الى صفتها من حيث الوضوح والابهام فيُرى اذا ما كانت تنبئ بوقائع صادرة عن ارادة حرة لا سبيل الى الشك فيها .

ثانياً — الى صفات النبي الادبية من حيث اتصافه بالورع والتدين والتقوى وبعده عن الافك والخداع والشعوذة .

ثالثاً — الى غاية النبوة من حيث هي ترمي الى توطيد عقيدة مقدسة لا الى دعم دين كاذب ينافي الآداب السليمة .

هنا سر الله

لقد اتى المسيح في حياته بنبوءات تحقق بعضها وما يزال البعض الآخر قيد التحقيق ، ودلّت جميعها على انه مطّلع على اسرار ابيه السماوي .

لقد تنبأ بصلبه وموته وقيامته ، بعد ان اعترف بطرس بألوهته في قيصارية فيلبّس. فوصف لتلاميذه ما سيقاسيه من عذاب كاو ليهيّئهم لليوم العصيب فتحدّث عما سينزله به المشايخ ورؤساء الكهنة والكتبة من آلآم قبل ان يقتل ويقوم في اليوم الثالث (متى ١٦ /٢١) . وأسرّ الى تلاميذه قبيل صعوده الى اورشليم واستسلامه لليهود بما سيناله من هزء وجلد وصلب (متى ٢٠ /١٧)[1] .

« ابتهجي جداً يا بنت صهيون واهتفي يا بنت اورشليم هوذا ملكك يأتيك صدّيقاً ومخلصاً ووديعاً راكباً
« على أتان وجحش ابن أتان » ، زكريا ٩ /٩) .
« فوزنوا أجرتي ثلاثين من الفضة . فقال لي الرب القها الى الخزّاف ثمناً كريماً ثمنوني به . فاخذت
« الثلاثين من الفضة والقيتها في بيت الرب الى الخزّاف » (زكريا ١١ /١٢).

١) « ها نحن صاعدون الى اورشليم ، وابن البشر سيسلم الى رؤساء الكهنة ، والكتبة ، فيحكمون عليه « بالموت ، ويدفعونه الى الامم ليسخروا بــه ، ويجلدوه ويصلبوه ، وفي اليوم الثالث يقوم » (متى ٢٠ /١٧) .

وتنبّأ عن خيانة اعزّ الناس لديه رسوله بطرس بعد ان تبجّح أمام اخوانه بانّه يفضّل الموت على الخيانة ، فقال له يسوع : « الحق اقول لك انك في هذه الليلة قبل ان يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات (متى ٢٦/٣٣) .

ونبّه تلاميذه الى ما سيعانونه من مصاعب والى ما سينزل بهم من اضطهاد بقوله : « احذروا الناس فانهم سيسلمونكم الى المحافل وفي مجامعهم يجلدونكم ويقودونكم الى الولاة والملوك من اجلي شهادة لهم وللامم ... » (متى ١٠/١٧) .

وتنبّأ أخيراً عن خراب اورشليم وهيكل سليمان (متى ٥٤/١ ومر ١٣/١ ولو ٢١/٥).

وقد تمّت نبوءاته هذه فقاسى الجلد والصلب والموت وقام في اليوم الثالث كما قال ، واضطُهد تلاميذه وقاسوا من الاضطهاد ألواناً واشكالا ، وقد هدم طيطس سنة ٧٠ اورشليم ولم يبقَ من هيكل سليمان حجراً على حجر .

وهكذا أبان المسيح بنبوءاته انه يملك اسرار الله فأثبت بذلك انه رسوله الحق وابنه الأوحد .

الفصل الثالث

ألوهة يسوع المسيح

١ – تصرفه تصرف إله

– عدل الشريعة
– غفر الخطايا
– احيا الموتى
– فاق الانبياء
– استأثر بالقلوب

٢ – مجاهرته بالالوهية

– هو ابن الله
– هو المسيح المنتظر
– هو الديان العادل

٣ – الوهية المسيح والتثليث

– ولادة الابن من الآب
– انبثاق الروح القدس
– سر الثالوث سر المحبة

ولرب معترض يقول : كثيرون هم الانبياء والقديسون الذين اثبتوا صحة رسالتهم بقداسة سيرتهم وعجائبهم ونبوءاتهم . أفيكونون والمسيح سواء ؟ واي فرق بينه وبينهم ؟

ان الفرق بين المسيح ومن سبقه من الانبياء وتبعه من القديسين لبعيد بعد الانسان عن الله . نعم لقد ماثل المسيحَ بعضٌ من الانبياء بما اتوه من خوارق ، وحاول ويحاول التشبّه به كثير من القديسين من حيث قداسة السيرة وصنع العجائب وكشف حجب الغيب ، لكنهم فصلوا تعاليمهم عن شخصيتهم بحيث نسبوا ما قاموا به من معجزات الى الله لا الى ذواتهم . أمّا المسيح فلم يفصل بين تعاليمه وشخصيته ولا نسب الى سواه ما اتاه من معجزات لكنه جعل نفسه موضوع تعليمه لأنه إله وابن الله . فما قال مثلاً اني آتيكم بتعليم جديد من لدن الله او اني مرشدكم الى طريق تؤدي اليه او اني حامل اليكم وسائل تضمن لكم الحياة الأبدية ؛ لكنه قال : « انا نور العالم من تبعني فلا يمشي في الظلام » (يو ٨/١٢) . « انا الطريق والحق والحياة » (يو ١٤/١٦) . « انا القيامة والحياة من آمن بي وان مات فسيحيا » (يو ١١/٢٥) .

ولا يخفى ما في اقوال كهذه من جرأة تحمل الناس على الاعتقاد بأن من قالها ، إلّم يكن صادقاً ، كان حتماً مطبق الجنون . والحال ان المسيح برهن بقداسة حياته وثباته على التبشير مدة ثلاث سنوات متتالية انه لم يكن مطبق الجنون ، فيبقى ، انه صادق وبالتالي انه حقاً إله ، وقد صارح الناس بالوهته بعد ان اثبتها بأعماله .

١ – تصرفه تصرف إله

لو كانت الادلة القائمة عليها الوهية المسيح مقصورة على بعض كلمات فاه بها او قيلت عنه هنا او هناك لكنا نقول انها انتحلت وأضيفت الى نصوص الأناجيل عبر السنين . لكن شريط حياته اليومي الشامل ، ومجمل تصرفاته اليومية والمتواصلة من تعاليم واحكام وتدابير واعمال ، ولا سيما محاكمته والحكم عليه بالموت صلباً ، لا يفهم ولن يفهم الاّ لكونه ادعى الالوهية . فقد جعل مستمعيه امام امرين لا مخرج لهم منهما : إمّا أن يُقرّوا له بمدّعاه بالالوهية ، كما فعل الرسل والتلاميذ وغيرهم وإمّا ان ينسبوا اليه الكفر والزندقة ويطالبوا بصلبه كما فعل علماء الكتاب والفريسيون والكهنة والشيوخ . وان كان الرسل والتلاميذ قد آمنوا بالوهيته فانما كان ذلك اقرارًا وتسليماً بالواقع ، ذلك لأنهم كانوا يهوداً واليهود لا يميلون بالسليقة الى تأليه الانسان مهما سما وعلا — وهل

ألّـهوا موسى ؟ سيّما ولهم سبق الله تعالى وقال ناهياً ومحذرًا : « انا الرب الهك لا يكن لك آلهة اخرى تجاهي (خروج ٢٠/٢) . فالمسيح ادعى دون ما ريب الالوهية وذلك يوم ادعى السيادة المطلقة على الشريعة ، ويوم ادّعى حق غفران الخطايا وحق المقدرة على الحياة والموت وحق الصدارة على الأنبياء وحق العبادة .

عدل الشريعة

لقد استباح السيد المسيح حق تعديل الشريعة وتكميلها . ففي العظة الاولى التي القاها على الجبل حيث وضع الخطوط الكبرى لشرعة الانجيل والعهد الجديد صارح سامعيه بقوله لهم : « قد سمعتم انه قيل للاولين : لا تقتل فان من قتل يستوجب الدينونة.
« أما انا فاقول لكم ان كل من غضب على اخيه يستوجب الدينونة .. قد سمعتم انه
« قيل للاولين لا تزنِ . اما انا فاقول لكم ان كل من نظر الى امرأة لكي يشتهيها فقد
« زنى بها في قلبه . قد سمعتم ايضاً انه قيل للاولين لا تحنث بل اوفِ للرب باقسامك .
« اما انا فاقول لكم لا تحلفوا ألبتة لا بالسماء فانها عرش الله ولا بالأرض فانها موطئ
« قدميه ، ولا باورشليم فانها مدينة الملك الأعظم . ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر
« ان تجعل شعرةً منه بيضاء او سوداء . ولكن ليكن كلامكم نعم نعم ولا لا ، وما زاد
« على ذلك فهو من الشرير. قد سمعتم انه قيل العين بالعين والسن بالسن . اما انا
« فاقول لكم لا تقاوموا الشرير بل من لطمك على خدك الايمن فحوّل له الآخر ...
« قد سمعتم انه قيل احبب قريبك وابغض عدوك. اما انا فاقول لكم احبوا اعداءكم
«وأحسنوا الى من يبغضكم وصلوا لاجل من يُعْنتكم ويضطهدكم لتكونوا بني ابيكم
« الذي في السماوات لأنه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين ويُمطر على الأبرار
« والظالمين . فكونوا كاملين كما ان اباكم السماوي هو كامل « (متى ٥/٢١-٤٨) .

وقد كرّر هذه العبارة (قد قيل للاولين » مقابلاً بين ما قيل للاولين (والله هو من قال للاولين) وبين ما يقوله هو ؛ وقد وضع نفسه في تصرفه هذا تجاه الشريعة موضع الله الذي سنها وانزلها على شعبه بواسطة موسى كليمه . وقد ألغى سُنَّة الطلاق الذي كان موسى قد اباحه للاسرائيليين لقساوة قلوبهم واعاد الشريعة الى سابق مضائها (متى ١٩/٨) .

واظهر ايضاً سلطانه على تعديل الشريعة الموسوية بتغييره سُنّة السبت ، مما اثار غضب الفرّيسيين المحافظين على السُنَّة وجعلهم ينتهرون تلاميذه قائلين : « لماذا معلمكم يأكل سنبلاً يوم السبت . فسمع يسوع كلامهم واجابهم . ان ابن الانسان (يسوع)

هو رب السبت ، (متى ١٢/٨) . ومرة اخرى شفى مقعداً امام بركة بيت حسدا باورشليم يوم السبت وامره بان يحمل سريره ويمضي . فاحتج الفريسيون بعنف واوقفوا الرجل المعافى ومنعوه عن حمل سريره بداعي ان كل حركة ممنوعة يوم السبت . ولما حاجّوا يسوع المسيح في تصرفه هذا ، قال : « ان ابي حتى الآن يعمل وانا ايضاً « اعمل . فازداد اليهود لاجل هذا طلباً لقتله ، يقول يوحنا الانجيلي ، ليس لأنه كان « ينقض السبت فقط بل ايضاً لأنه كان يقول ان الله ابوه مساوياً نفسه بالله (يو ٥/٢—١٩) .

ويقول الاب جان دانيالو اليسوعي بهذا الصدد: «نحن هنا في صلب معضلة الوهية « المسيح اذ ان خطيئة الانسان الاول بعرف اليهود ، حسب نصوص التوراة في سفر « التكوين ، قامت على كونه حاول يوماً ان يساوي الله في الوهيته ، وهذا ما سبب « سقوطه وجرّ عليه وعلى الجنس البشري وخيم العواقب، ورسالة اسرائيل كانت تقوم « حتى ذاك الوقت بالمجاهرة بوحدانية الله وتعاليه ما بين الشعوب الوثنية المجاورة له ، « ولهذا فتصرف المسيح ازاء الشريعة المنزلة من الله على هذا النحو وادعاؤه مساواة « الله جعلا اليهود امام امرين: إمّا ان يسلّموا له بمدعاه ويقرّوا له بالوهيته طائعين « ويسجدوا له ثمت ويعبدوه وإمّا ان يرفضوه ويصلبوه . وما صلبوه الا احتجاجاً على « ادعائه الألوهية[١] .

وغني عن التنبيه انه بخرقه حرمة السبت لم يرم الى نقضه بل الى تكميله بالمعنى الذي كان يقصده لا كما كان يفهمه اليهود ، وهو القائل : « لا تظنوا اني جئت لاحل الناموس والانبياء لم آتِ لأحلّ بل لأكمّل . الحق اقول لكم انه الى ان تزول « السماء والارض لا تزول ياء او نقطة واحدة من الناموس » (متى ٥/١٧) .

وكان ينبغي خاصة ان يرسخ في اذهانهم هذه الحقيقة، ان الغايَة من الشريعة كانت اعداد البشرية الى مجيء المسيح. اما الآن وقد جاء فلا لزوم لها . وبمجاهرته هذه اعلن انه يهب البشر شريعة جديدة وان هذه الشر يعة هي شخصه بنوع خاص اذ انه كلمة الله لا المنزلة على الانبياء بل المتجسمة وهو نفسه سبت العهد الجديد وراحة النفوس : « تعالوا اليّ يا جميع المتعبين والمثقلين وانا أريحكم » (متى ١١/٢٨) .

ثم تأتي قضية الهيكل التي تؤلف مع قضية الشريعة اقدس شيء في عيون بني

١) Jean Daniélou, s.j., *Approches du Christ*, p. 47.

اسرائيل . فالهيكل هو في معتقدهم سكنى الله . وقد امر الله تعالى داود الملك وابنه سليمان ان يبنيا له ذلك الهيكل ليقيم في وسط شعبه . فالمسيح اتخذ تجاه الهيكل الموقف عينه الذي اتخذه تجاه الشريعة إذ اعلن ذاته رب السبت واعظم من الهيكل (متى ١٢/٦) . ولسوف يتخذ اليهود يوماً تصريحه هذا عن الهيكل ذريعة لهم للقضاء عليه (متى ٢٦/٦١) . وكان في مواقفه هذه يثير الدهشة عند اليهود لأنه « كان يعلم كمن له سلطان لا كعلماء الكتاب والفريسيين (متى ٧/٢٨ مر ١/٢٢) .

غفر الخطايا

واستحل غفران الخطايا . واثبت حقه في ذلك يوم اتوه بمخلع ليشفيه من مرضه الجسدي فابتدره بقوله : « مغفورة لك خطاياك » . فدمدم الفريسيون قائلين : « من يغفر الخطايا الاّ الله وحده » . وعرف ما يجول في اذهانهم فالتفت اليهم وقال : « ما الأيسر ان يقال مغفورة لك خطاياك ام ان يقال قم وامش . ولكن لتعلموا ان ابن البشر له سلطان على الأرض ان يغفر الخطايا ، حينئذ قال للمخلع قم احمل سريرك وامش » (متى ٩/٢ ، مر ٢/٣، لو ٥/١٨) .

وهنا نرى ايضاً الشكوى عينها المقامة بحق السيد المسيح « انه يجدف » ! « ما بال هذا يتكلم هكذا انه يجدف . من يقدر ان يغفر الخطايا الاّ الله وحده » (مر ٢/٧) .

اجل ان غفران الخطايا وترك الذنوب لقدرة خصيصة بالله وحده ، وقد جاء في الكتاب المقدس ما نصه : « انا انا الرب ولا مخلص غيري » (اشعيا ٤٣/١١). فالخطيئة او الذنب بمفهومها اللاهوتي هي حال انفصال النفس عن الله، وبالتالي هي موت روحي للنفس ، لا مقدرة للانسان عليه اذ انه يفترض موته الروحي ، وقد طُرد آدم الانسان الاول بسبب تلك الخطيئة من نعم الله وفقَدَ توازن حياته . ولهذا فالقدرة الالهية وحدها تستطيع ان تشفي هذا المرض من اصله . هو الله وحده يستطيع ان يشفي آدم من جراحه وان يفتح باب النعيم للص التائب . ولهذا لما اقدم السيد المسيح وغفر خطايا المخلع ، انما مارس عملاً خصيصاً بالله وحده .

وقد وهب تلاميذه هذا السلطان. وامرهم ان ينشروا باسمه انجيل التوبة لمغفرة الخطايا عندما قال لهم بعيد القيامة : « هكذا كُتب وهكذا كان ينبغي للمسيح ان يتألم وان « يقوم في اليوم الثالث من بين الاموات وان يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا في « جميع الأمم ابتداء من اورشليم » (لو ٢٤/٤٦) .

احيا الموتى

الا ان قدرته الالهية على الحياة والموت تجلت بنوع خاص في مشهد قيامة لعازر من القبر حيث انهى حياته الرسولية العلنية ومنه تدفعت الاحداث التي افضت الى مأساة صلبه. فهذا الحدث افضى بنا دون ما ريب الى قمة الانجيل بحيث احرج المسيح الشعب اليهودي إما على قبوله مسيحاً وإما على رفضه وصلبه ، اجل ، كان حتى ذاك الوقت يكرز بالانجيل ويجري الآيات بتحفظ واحياناً بكتمان لا سيما في بداية كرازته ، تجنباً منه اثارة مشكلة المسيح عند الشعب واثارة فتنة وطنية حوله وارغامه على تقديم ساعته وعودته الى ابيه السماوي قبل الاوان ، وكثيراً ما كان يوصي المرضى الذين شفاهم ويأمر الأرواح النجسة التي تخرج من الممسوسين ، الآ يشهروه[1] اما الآن وقد أتمَّ شوطه وانهى رسالته وقد اتت الساعة التي سيعود فيها الى الله ابيه، فلا حرج من اقدامه على صنع اكبر واعظم معجزاته جميعاً. فجاء الى قرية بيت عنيا القريبة من اورشليم واقام لعازر اخا مرتا ومريم من القبر بعد دفنه باربعة ايام. والجدير بالذكر انه قبل ان يبعثه حياً اعلن سلطانه على الحياة والموت. فقال مطمئناً مرتا اخت الميت « انا القيامة والحياة ان من آمن بي وان مات فسيحيا » وطلب اليها ان تؤمن بذلك. ولهذا اجابت قائلة : « نعم يا رب انا موءمنة انك انت المسيح ابن الله الحي الآتي الى هذا العالم » (يو ١١/٢٥). فشاع الخبر في كل اورشليم وبدأ رؤساء الكهنة والشيوخ والفريسيون يحبكون على الفور مؤامرتهم للقضاء عليه.

فاق الانبياء

وقد ادَّعى ايضاً أنه فوق يونان وسائر الانبياء (متى ١٢/٣١)، وانه كائن قبل ابراهيم ابي الشعب الاسرائيلي وعنوان مجده وانه اعظم منه. فقال مخاطباً اليهود : «ابراهيم ابوكم ابتهج حتى يرى يومي فرأى وفرح. فقال له اليهود لم يأت لك بعد خمسون سنة وقد رأيت ابراهيم. فقال لهم يسوع الحق الحق اقول لكم قبل ان يكون ابراهيم انا كائن. فأخذوا حجارة ليرجموه ، فتوارى يسوع وخرج من الهيكل» (يو ٨/٥٦–٥٩).

ثم ان طريقة تعليمه وسوق الحقائق الى جمهور الشعب كانت تختلف كل الاختلاف عن طريقة الانبياء. فهؤلاء كانوا يبدؤون دوماً كرازتهم على الشكل الآتي او ما يوازيه : « وكانت اليَّ كلمة الله قائلاً : انطلق واصرخ على مسامع اورشليم قائلاً : هكذا قال السيد الرب » (ارميا ٢/١).

١) متى ٨/٤ ، ٩/٣٠ ، ١٢/١٦ مر ١/٤٤ ، ٣/١١ لو ٤/٤١ ، ٥/١٤).

كانت كلمة الرب الى حزقيال ابن بوزي الكاهن في ارض الكلدانيين... كلمهم بكلامي لعلهم يسمعون » (حزقيال ١/٣ ، ٢/٣) ينقلون كلامه تعالى ويحملون اوامره الى الشعب ويتكلون على سلطانه الالهي . اما يسوع المسيح فكان يتكلم بسلطانه الخاص كمن له حق بان يفرض ارادته على البشر . كان الانبياء يقولون : « اسمع يا اسرائيل ما يقول الرب الخ..)

ولم يجرؤوا يوماً على القول كالمسيح : « اما انا فاقول لكم ! » متى ٥) .

واذا ما قابلنا بين طريقة الله تعالى في مخاطبته شعبه في العهد القديم بواسطة موسى والانبياء وطريقة السيد المسيح في مخاطبته الناس ، رأينا ان الطريقة هي عينها في كلا الحالين سواء اكان من وجهة اللهجة الخطابية ام من وجهة السلطان .

فكلمة « انا » التي استعملها الله تعالى في العهد القديم هي عينها التي استعملها السيد المسيح في العهد الجديد ، واليك مقابلة ما بين النصّين :

« هكذا قال الرب خالق السماوات وجابل الارض وصانعها : اني انا الرب وليس « آخر . اني لم اتكلم في الخفية في موضع مظلم من الارض ولم اقل لذرية يعقوب التمسوني عبثاً . انا الرب المتكلم بالصدق والمخبر بالاستقامة » (اشعيا ٤٥/١٨) . والسيد المسيح سوف يتخذ يوماً هذا الاسلوب عينه ويطبقه على نفسه في محاكمته امام السنهدريم (المجلس الاعلى اليهود) لما سئل عن صبغة تعاليمه !« انا كلمت العالم علانيةً وعلمت في كل حين في المجمع وفي الهيكل حيث يجتمع « كل اليهود ولم اتكلم بشيءٍ خفيةً » (يو ١٨/ ٤٠) .

كذلك قال الله في العهد القديم : « انا الرب الهك آخذ بيمينك قائلاً : لا تخف فاني قد نصرتك » (اشعيا ٤١/١٣) . هذا ما يذكرنا كلام السيد المسيح الى تلاميذه في العهد الجديد : « انا هو لا تخافوا ! » (مر ٦/٥٠) . وكلمة الله لموسى في العليقة : « انا هو من هو » (اي الكائن) (خروج ٣/١٤) قد استعملها ايضاً السيد المسيح لنفسه اكثر من مرة . « عندما ترفعون ابن الانسان تعلمون اني انا هو » (يو ٨/٢٨) . وللسامرية لما كشف لها عن سره بانه المسيح استعمل العبارة عينها : « اني انا المتكلم معك هو » (يو ٤/٢٦) . ولما وعد بتأسيس الافخارستيا قال : « انا هو الخبز الذي نزل من السماء ان اكل احد من هذا الخبز يحيا الى الابد ، والخبز الذي ساعطيه انا هو جسدي لحياة العالم » (يو ٦/٥١) . وفي خطابه الوداعي في العشاء السري قال : « انا الطريق والحق والحياة لا أحد يأتي الى الآب الاّ بي » (يو ١٤/٦) . وفي صنع

المعجزات تكلم باسمه وبسلطانه الخاص ، هكذا امر الروح النجس ان يخرج من الولد المصروع : « ايها الروح الابكم الاصم اني آمرك اخرج منه ولا تعد اليه من بعد » (مر ٩ / ٢٥) . وفي موضع آخر لمسته امرأة بغية ان تشفى من مرضها ثم توارت لكي لا يراها احد ، اما هو فقال : « من لمسني لأني شعرت بقوة تخرج مني » (لو ٨ / ٤٦) وقال في تقريعه علماء الكتاب والفريسيين حفدة قتلة الانبياء : « من اجل ذلك ها انا «ارسل اليكم انبياء وحكماء وكتبة فمنهم من تقتلون وتصلبون ومنهم من تجلدون في مجامعكم « وتطردون من مدينة الى مدينة لكي يأتي عليكم كل دم زكي سفك على الأرض » (متى ٢٣ / ٣٤) .

وهنا ساوى السيد المسيح نفسه بالله صراحةً واعلن انه هو الذي ارسل الانبياء والمرسلين من قبل مجيئه الى العالم كي يمهّدوا له السبيل .

ولرب معترض يقول : « ولكن المسيح نسب ايضاً قدرته وتعليمه الى الله الذي دعاه اباه السماوي . » اجل انه نسب قدرته وتعليمه الى الله ابيه السماوي ولكنه ساوى نفسه به ايضاً وهذا ما سنراه عما قليل في سر الثالوث الاقدس .

استأثر بالقلوب

ونصب نفسه معبوداً للناس يؤمنون به وبتعاليمه ويحبسون على حبه المهج ان هم طمعوا بالخلود . وما الشقاء في هذه الدنيا الاّ مدعاة افراح في الآخرة : « طوبى لكم اذا عيّروكم واضطهدوكم وقالوا عليكم كل كلمة سوء من اجلي كاذبين ، افرحوا وابتهجوا فان اجركم عظيم في السماوات » (متى ٥ / ١١) . وما الكفر به في هذه الدنيا سوى مجلبة شقاء في الآخرة : « ومن ينكرني قدام الناس انكره قــدام ابي الذي في السماوات » (متى ١٠ / ٣٣) . وهو فوق هذا يأبى الشرك في الحب . فمن آثر في الحب عليه اباً او اماً او اختاً او ابناً او ابنة او زوجاً او حبيباً وحتى من آثر نفسه عليه فقد اضاعه . فالقلوب يجب ان تكون وقفاً عليه وعليه وحده دون سواه . وكم من مآسٍ داميــة لا يعلمها الا الله ، تستتبع حب الانسان المسيح حباً تكون القلوب وقيده . « لا تظنوا اني جئت لألقي على الارض سلاماً لم آت لألقي سلاماً لكن سيفاً» (متى ١٠ / ٣٤) . وهكذا لم يكتفِ المسيح بأن نصب نفسه مثالاً اعلى يحتذى لكنــه اراد ان يستأثر بعواطف الناس ، وهذا مطلب لا يجرؤ على التقدم به من انسان الاّ الله .

٢ – مجاهرته بالألوهية

بعد ان هيّأ المسيح العقول بتعاليمه واعماله لاقتبال حقيقة الوهيته ، جاهر فاعلن نفسه ابناً لله ، والمسيح المنتظر ، والديان العادل .

هو ابن الله

لقد سمعته الجماهير يدعو الله اباه ويقول في صلاة خاشعة : « اشكرك يا ابت رب السماوات والارض لأنك اخفيتَ هذه عن الحكماء والعقلاء وكشفتها للاطفال . « نعم يا ابتاه لأنه هكذا حسن لديك . كل شيء قد دُفعَ اليّ من ابي وليس احد « يعرف الابن الاّ الآب ولا احد يعرف الآب الاّ الابن » (متى ١١/٢٥) .

ففي هذا التصريح كشف عن سر دخلته واعلن انه من الله وان له وشائج طبيعية تربطه به عزّ وجلّ ، اذ ان ليس بمقدور احد ان يعرفه كما هو الاّ الله وان ليس بمقدور احد ان يعرف الله كما يعرفه هو لأنه ابنه بالطبيعة . وقد اكد انه يستطيع ان يعمل اعمال ابيه ، يقيم الموتى ويحييهم وان له حقاً مشروعاً بما يُقدّم لله من اكرام : « لأنه كما ان الآب يقيم الموتى ويحييهم كذلك الابن يحيي من يشاء . لأن الآب لا يدين أحداً بل اعطى الحكم كلّه للابن ليكرم الابن جميع الناس كما يكرمون الآب ومن لا يُكرم الابن لا يُكرم الآب الذي ارسله ». (يو ٥/٢١—٢٣) .

والقديس يوحنا الانجيلي الذي ذكر هذا النص الاخير عن السيد المسيح هو اجدر من سواه بتأدية هذه الشهادة له لأنه كان اقرب المقرّبين اليه واول من آمن به ، وقد سبق واعلن في بدء انجيله مصدره الالهي لما قال: « في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله .... والكلمة صار بشراً وحلّ فينا » (يو ١) . وذكر اقوالاً كثيرة اخرى عن معلمه تبين بكل جلاء مصدره الالهي : « لأن الذي جاء من العلاء هو اعلى من الكل والذي من الارض هو ارضي وبالارضيات ينطق والذي اتى من السماء هو فوق الكل » (يو ٣/٣١) . نزل من السماء ليقوم برسالة عهد فيها اليه الآب السماوي وهي « الاّ يدع احد يهلك ممن أُعطوا له بل تكون لهم الحياة الابدية « لأني نزلت من السماء لا لأعمل مشيئتي بل مشيئة الآب الذي ارسلني وهـذه هي « مشيئة الآب الذي ارسلني ان لا اتلف من كل ما اعطاني شيئاً لكني اقيمه في اليوم الاخير » (يو ٦/٣٨) . وسيترك العالم بعد انهاء تلك الرسالة ويعود الى الآب : « لقد خرجت من الآب وجئت الى العالم والآن اترك العالم وامضي الى الآب» (يو١٦/٢٨).

والجدير بالذكر انه ببيانه هذا قد أعلن ايضاً جوهر الدين المسيحي القائم على تلك البادرة الصادرة عن محبة الآب التي خطا بموجبها خطوته الجبارة نحو الانسان وارسل ابنه الوحيد الى ارض شقائه ليحدب عليه ويقيله من عثاره ويرفعه اليه . اجل ليس الايمان بالله من خاصية الدين المسيحي ، وكل دين قائم بسعي الانسان المتواصل بطلب الله ، حتى اذا ما وجده وعرفه اقام معه تعالى علاقات ودّية تربطه به . الاّ ان جميع المحاولات التي قام بها الانسان من هذا النوع على توالي العصور باءت بالفشل لما بين الله الخالق المتعالي، اللامحدود وغير المتناهي ، وبين الانسان المخلوق والمحدود والمتناهي ، من البون الشاسع والهوة السحيقة التي بمقدور الله وحده ان يعبرها. «الله لم يره احد قط الابن الذي في حضن الآب هو نفسه اخبر » (يو ١/١٨) .

والمعتقد المسيحي يرتكز على هذه الحقيقة بان تلك الهوة السحيقة الفاصلة ما بين الله والانسان قد عبِرت واجتيزت مرة واحدة في الزمن فكان يسوع المسيح ، ذاك الجسر الحي القائم ما بين الله والانسان. فالمسيح هو اذن ذاك السعي المتواصل المتجسم الذي قام به وانتهى اليه الله عبر الزمن ليظفر بحب الانسان ويرفعه اليه . هو الله احب الانسان اولاً قبل ان يحبه وانحنى على بؤسه وشقائه ليتيح له ان يدنو منه . فعلى هذه الاضواء يجب ان نقرأ خطابه الاخير قبيل صلبه لا سيما تلك الفقرات :

« انا الطريق والحق والحياة لا أحد يأتي الى الآب الاّ بي ... لقـــد خرجت
« من الآب وجئت الى العالم والآن اترك العالم وامضي الى الآب » (يو ١٤/٦،
« ١٦/٢٨) .

وذهب الى ابعد من ذلك فقال : ان من رآه فقد رأى الآب لأنه في الآب والآب فيه : « فقال له فيلبس (احد تلاميذه) يا رب أرنا الآب وحسبنا . فقال له يسوع
« انا معكم كل هذا الزمان ولم تعرفوني . يا فيلبس من رآني فقد رأى الآب فكيف
« تقول أنت أرنا الآب . اما تؤمن اني انا في الآب وان الآب فيَّ . الكلام الذي اكلمكم
« به لا اتكلم به من عندي بل الآب الذي هو مقيم فيَّ هو يعمل الاعمال . آمنوا اني
« انا في الآب وان الآب فيَّ . » (يو ١٤/٨–١١) . واخيراً ساوى نفسه بالله علانيةً :
« انا والآب واحد » (يو ١٠/٣٠) .

اما بشأن ما جاء في الانجيل من آيات تشعر ظاهراً ان الابن هو دون الآب فراجع ملحق عدد ٢ .

وليس المسيح ابن الله بالتبني كالابرار والصديقين انما هو ابنه بالطبيعة وهذا ما

اولاه هذه الجرأة عليه . فخاطبه خطاب واقف على دخائله ، واثق بحنانه ، فكأنه يفرض ارادته عليه بدالة الابن الحقيقي عندما يقول : « يا ابت ان الذي اعطيتني اريد ان يكونوا معي حيث انا ليروا مجدي الذي اعطيتني » (يو ١٧/١–٣٦) .

وكان من الطبيعي ان تثير هذه الاقوال حفائظ اليهود عليه . « فازدادوا طلباً لقتله ليس لأنه كان ينقض السبت فقط ، بل لأنه كان يقول ان الله ابوه مساوياً نفسه بالله » (يو ١٠/٣٠–٣٣) .

هو المسيح المنتظر

وادّعى لنفسه بلقب « المسيح » الذي انتظره اليهود ابناً لله الازلي ، وقد أتم في شخصه اقوال الانبياء في المسيح ، فتحدّر من صلب يهوذا (تك ٤٩/٨) وولد من عذراء (اشعيا ٧/١٤) في بيت لحم (ميخا ٥/٢) .

وجاهر بأنه المسيح الاله المنتظر اول ما جاهر ، امام السامرية في قرية سوكار عندما قالت له : « قد علمت ان ماشيح الذي هو المسيح آت فمتى جاء ذاك فهو يخبرنا بكل شيء . فقال لها يسوع انا المتكلّم معك هو» (يو ٤/٢٥). وأثنى اطيب ثناء على بطرس يوم اعترف به هذا بقوله له : « انت المسيح ابن الله الحي » (متى ١٦/١٦) . ولو انه لم يكن المسيح لكان زجر بطرس واصلح له خطأه ولكنه لم يفعل .

واخيرًا اقرّ في حضرة المحفل الديني اليهودي الذي التأم برياسة قيافا بأنه « المسيح ابن الله الحيّ » (متى ٢٦/٦٣) وعرف ان قراره هذا سيكون عليه وخيم العاقبة ، لكونه سيستجلب عليه سخط القضاة ويكلّفه الحياة ، لكنه لم يحجم ولم يتراجع وثبت على اقراره رغم ما يحيق به من اخطار . واتّهموه بالتجديف وحكمواعليه بالموت ونفذوا الحكم فيه ؛ فاقتبل كل ذلك نيّر البصيرة ثبت الجنان ولم يرتدع . وكان في تلك الدقائق الحاسمة من حياته لا يني عن التأكيد انه ابن الله وان الله ابوه . قالها وهو يعالج سكرات الموت عندما التمس الغفران لصالبيه : « اغفر لهم يا ابتاه لأنهم لا يدرون ما يفعلون » (لو ٢٣/٣٤) . وقالها عندما وعد اللص الايمن بالسعادة الابدية ! « ستكون معي في الفردوس » (لو ٢٣/٤٣) . وقالها وهو يلفظ انفاسه الاخيرة في شبه لهاث : « يا ابتِ بين يديك استودع روحي » (لو ٢٣/٤٦) ، واسلم الروح بين يدي ابيه هادئ البال مطمئن الضمير .

هو الديان العادل

هو المسيح وهو الديان الذي يجلس متى جاء في مجده ، على العرش فتجتمع لديه كل الامم فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن شماله ويجري فيهم القضاء العدل ، و « يناقشهم الحساب على المحبة » (متى ٢٥/٣١-٤٦) . وقد صرّح في العشاء السري بأنه سيمنح من آمن به الغلبة والحياة الابدية (يو ١٣/١٣) لأن الله اباه اعطاه السلطان على كل بشر (يو ١٧/٢) .

فتبيّن مما تقدّم ان المسيح يختلف عن الانبياء لكونه لم يقصر رسالته على شعب خاص في حقبة محدودة من الزمن كأنبياء اسرائيل ، لكنه هو نفسه رسالة تحدّت الزمن وما وقفت عند حدود مكان . وما هو كالأنبياء قناة تجري فيها المياه انما هو ينبوع يفيضها على الناس ؛ وما هو بضال مضلّ ولا بمهووس مغترّ ، على ما زعم بعض الملاحدة من امثال رينان (راجع ملحق عدد ٣) لكنه كان صادقاً في كل ما قاله . وقد اشتهر بقداسته وتواضعه ونفاذ بصيرته ؛ وقد أيّده الله بالمعجزات . وما كانت اقواله من نتاج خيال رسله وتلاميذه ، وقد سبق لنا ان اشرنا في توطئة هذا الكتاب الى صدق الرسل وسلامة عقولهم من المسّ واقوالهم من التحريف . وهكذا تمكن المسيح من ان يغيّر مجرى التاريخ .

٣ – الوهية المسيح والتثليث

يعلّم المسيح عينه في انجيله المقدس ان الله مثلّث الاقانيم وقد أمر رسلــه بأن يعمّدوا المؤمنين باسم هؤلاء الاقانيم الثلاثة الاب والابن والروح القدس (متى ٢٨/١٩) وكل منهم هو اله . فالآب هو المبدأ الاول خالق السماء والارض ؛ والابن هو كلمة الله ، على ما يقول يوحنا في بدء انجيله ، وقد صار جسداً وحلّ فينا ؛ والروح القدس هو من اشار الانجيل الى انه حلّ على العذراء لدى البشارة (لو ١/٣٥) وعلى المسيح في العماد وعلى الرسل بعد صعود المسيح الى السماء ليشهد للابن كما شهد الابن للآب امام البشر. « ومتى جاء المعزّي الذي ارسله اليكم من عند الآب روح الحق الذي ينبثق من الآب فهو يشهد لي » (يو ١٥/٢٦) . فأفهم التلاميذ ما أغلق عليهم من اقوال المسيح « وهو يمجّدني لأنه يأخذ ممّا لي ويخبركم » (يو ١٦/١٤) .

ولادة الابن من الآب

لا حاجة بنا الى القول ان ولادة الابن من الآب تختلف عما نفهمه عادة بهذه اللفظة . فولادة الابن من الآب معناها انه صدر عنه كما يصدر النور من الشمس ، وهو صدور باطني . ونعني بالصدور الباطني ان المعلول يبقى داخل علته كالفكرة تبقى داخل العقل المفكّر ، بخلاف الصدور الخارجي الذي ينفصل فيه المعلول عن علته شأن الولد الذي ينفصل عن والده وعلّة كيانه .

لقد صدرت الخلائق عن الله الآب صدورًا خارجياً ، لكنه ما يزال يحفظها في الوجود بقوته بحيث اذا ما اهملها عادت الى العدم الذي اخرجها منه ؛ اما الابن فقد صدر عنه صدورًا داخلياً وهو مستمرّ فيه ومعه ضمن الذات الالهية (راجع : الجميّل ، اللاهوت النظري ، مجلد ٢ : الثالوث الاقدس) .

وبعبارة اخرى ان ولادة الابن من الآب قائمة بفعل ثابت داخلي مستمرّ في الذات الالهية يشترك به الاقنومُ الاول الآب ، الاقنومَ الثاني الابن الصادر عنه ؛ بالطبيعة الالهية .

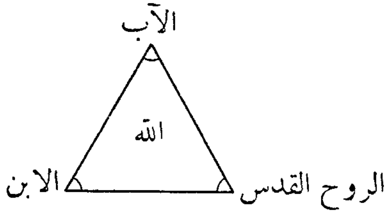
ولكن كيف القول انه صدر عنه وظلّ فيه من جهة ، وتجسّد وسار في ما بيننا فرأته عيوننا ولمسته ايدينا من جهة ثابتة ؟ (يوحنا ١ / ١) .

لنأخذ مثلاً لعلّنا نفلح في تقريب هذه الحقيقة في الافهام . اذا جادت قريحة شاعر بقصيدة عصماء فاثبتها على القرطاس وانتشرت بين الناس فراحوا يتناشدونها ؛ افيمنع اثباته اياها على القرطاس من ان يُبقيها في الوقت عينه مطبوعة في حافظته ؟ وليس في ذلك اي غرابة . وهكذا القول عن الله . لقد عرف ذاته منذ الازل بفعل عقلي داخلي ، فكان ابنه الكلمة الالهي الذي ثبت فيه وحلّ فينا بالجسد في الوقت عينه .

ولما كان عقل الله وذاته الالهية شيئاً واحدًا لبساطته ، كانت معرفته ذاته اقنوماً قائماً بنفسه مثل الآب ؛ لأن كل ما في الله هو الله ولا سبيل الى التمييز فيه ما بين جوهر وعرض ، لأنه جوهر محض ولا عرض فيه . وهكذا يمكننا القول ان ابن الله الذي هو كلمته الازلي كان يكلّم الناس ، عندما اتخذ جسماً ترابياً ، يكشف لهم حنان الآب السماوي ويشفي اسقامهم ويغفر لهم خطاياهم ويشق لهم الطريق المؤدية الى الآب وكان ما يزال في الوقت عينه قائماً في الله ابيه متحدًا به اتحادًا تاماً .

انبثاق الروح القدس

اما الروح القدس فمنبثق منذ الأزل بفعل داخلي ، من الآب والابن معاً كمن مبدأ واحد . وهذا ما اشار اليه السيد المسيح عندما وعد تلاميذه باحلال الروح القدس عليهم فقال : « هو (الروح القدس) يمجّدني لأنه يأخذ ممّا لي ويخبركم . جميع ما للاب هو لي ؛ من اجل هذا قلت لكم انه يأخذ ممّا لي ويخبركم » (يو ١٦ / ١٤) . والروح القدس لا يستطيع ان يأخذ من الابن الاّ الذات الالهية المشتركة ما بينه وبين الآب . وهذا ما يجعل الاقانيم الثلاثة متساوين بذات واحدة ولاهوت واحد . وقد شبّه بعض اللاهوتيين ، تقريباً من الافهام ، الاقانيم الثلاثة بمسطح مثلث الزوايا تحتوي فيه كل زاوية ما بين ضلعيها مساحة المثلث بكامله كما ترى في الرسم .



ولهذا نؤكد ان الله واحد في ثلاثة اقانيم يملك كل من هؤلاء الاقانيم الطبيعة الالهية بكاملها . ومعلوم ان بين الاقنوم والطبيعة لفرقاً . فالاقنوم او الشخص مالك والطبيعة مملوك(١) وهذا الفرق هو ما يتيح لنا القول : ان الطبائع لا تتعدّد حتى عندما تتعدّد الاقانيم . ولو تعدّدت الطبائع في الثالوث الاقدس لكان لنا ثلاثة آلهة يستقلّ احدهم عن الآخر وهذا منتهى السخافة .

اما اذا تساءلنا لماذا تتعدّد الاقانيم في الثالوث الاقدس ولا تتعدّد الطبيعة فهذا هو سر الثالوث .

---

١) عندما اقول : انا رجل ، هو ملاك ، اعني بعبارة انا وهو ، اقنوماً او شخصاً ، وبعبارة رجل وملاك طبيعة ؛ دلالة على اني املك طبيعة بشرية وهو يملك طبيعة ملائكية . فالشخص مالك والطبيعة مملوك وهكذا ينجلي الفرق بين الاقنوم والطبيعة .

ويتضح ، هذا الفرق ايضاً ، اذا ما نظرنا الى الأعمال التي يأتيها الشخص بواسطة الطبيعة . لنأخذ مثلاً فاقول : انا ذاهب وانت متألم فالذهاب والألم من خصائص الطبيعة البشرية لكنهما عملان ينسبان الى الشخص الذي يملك الطبيعة .

واخيراً نرى ان القوى الطبيعية وبالتالي الطبيعة تتطور في اعراضها لدى الانسان بين طفولة وكهولة وشيخوخة لكن شخصه يبقى هو هو رغم ما يطرأ على طبيعته من تغيير .

اما اذا سألت كيف السبيل في هذه الحال الى التمييز بين اقنوم واقنوم فجوابنا ان النسبة الاضافية بين الاقانيم هي التي تميزهم . ان نسبة الاب الى الابن او الابوّية ونسبة الابن الى الآب او البنوة ونسبة كليهما الى الروح القدس ونسبة الروح القدس الى كليهما هو ما يميّز بينهم . وهذه النسبة ، ولو اضافية ، هي جوهرية لان ليس في الله ما هو غير جوهري .

سرّ الثالوث سرّ المحبة

من الناس من يقولون : لمَ يا ترى اله واحد في ثلاثة اقانيم ؟ أوليس في تعدد الاقانيم انتقاص لقدر الله ؟ أوليس من الافضل ان يقال : الله أحد وحسب ؟ .

لكننا اذا اطلعنا على كنه الله لا يسعنا الاّ القول بالتثليث ، وكنه الله محبة (يوحنا ١ ٤/١٦) ولا يمكن الاّ ان يكون محبة ، ليكون سعيداً . فالمحبة هي مصدر سعادة الله . ومن طبع المحبة ان تفيض وتنتشر على شخص آخر فيضان الماء وانتشار النور . فهي اذن تفترض شخصين على الاقل يتحابّان ، وتفترض مع ذلك وحدة تامة بينهما بحيث يندفع الحب الى هبة الذات لمن يحب ، هبة تكون فيها سعادتهما . فليكون الله سعيداً — ولا معنى لإله غير سعيد والاّ انتفت عنه الالوهة — كان عليه ان يهب ذاته شخصاً آخر يجد فيه سعادته ومنتهى رغباته ويكون بالتالي صورة ناطقة له . ولهذا ولد الله الابن منذ الازل نتيجة لحبه اياه ، ووهبه ذاته ، ووجد فيه سعادته ومنتهى رغباته . وبادل الابن الآب هذه المحبة ، ووجد فيه هو ايضاً سعادته ومنتهى رغباته . وثمرة هذه المحبة المتبادلة بين الآب والابن كانت الروح القدس . هو الحب اذن ما يجعل الله ثالوثاً وواحداً معاً .

ولا يصحّ ان يكون هذا الكائن الذي حبس الله الآب محبته عليه الاّ الابن . ولو كان غير الابن ، ولو كان خليقة محدودة ، بشراً او ملاكاً ، لكان الله بحاجة الى من دونه كمالاً ؛ وعدّ ذلك نقصاً في الله . نزّه الله عن النقص . فتحتّم اذن على الله ، والحالة هذه ، ان يحبس محبته على ذاته فيجد فيها سعادته . لهذا يقول بولس الرسول ان الابن هو صورة الله الغير المنظور (كولسي ١/١٥) ، ويسمّيه يوحنا الانجيلي « الكلمة » او الابن ، ثمرة محبة الله لذاته منذ الازل . وقد احب الله ابنه واحبنا نحن كذلك قبل ان نفكّر بمحبته وهذا ما اشار اليه يوحنا حيث قال : « وقد عرفتهم اسمك ، يقول السيد المسيح ، وسأعرّفهم لتكون فيهم المحبة التي احببتني واكون انا فيهم » (يو

١٧/٢٥) ، وقال ايضاً : « لم نكن نحن احببنا الله ، بل هو احبنا ، فأرسل ابنه ليكون كفارة عنا » (يوحنا ١ ٤/١٠) .

ليس الله اذن كائناً تائهاً في الفضاء ، منعزلاً في السماء ، لكنه اسرة مؤلفة من ثلاثة تسودها المحبة ويفيض منها على الكون برّه ، وهكذا يمكننا ان نقول ان كنه الله يفرض فيه التثليث .

ملحق ٢

اعتراضات حول الوهية المسيح

١ — تقدّم يوماً شاب من المسيح وقال له : « ايها المعلّم ماذا اعمل من الصلاح لأرث الحياة الابدية . فأجابه المسيح بقوله : لماذا تسألني عن الصلاح انما الصالح واحد وهو الله » (متى ١٩/١٦) . فهل هذا القول يشعر بأن المسيح ليس الهاً ؟

نجيب ان المسيح ما نفى عن ذاته الالوهة في جوابه هذا . لكنه رغب في ان يفهم سائله انــه يستحيل عليه الجمع بين « صلاح » الناس الذي هو ، في زعمهم ، المال ، و « صلاح » الله الذي هو الله . فجواب المسيح الى الشاب معناه اذن : « عليك ان تتخلّى عن كل شيءٍ ما خلا الله حينئذ يمكنك ان ترث الحياة الأبدية » . وليس في ذلك اي انكار لألوهته . وقد فهم الشاب فحوى الجوابَ فذهب حزيناً لأنه لم يستطع التوفيق ما بين الله والمال .

٢ — وقال المسيح يوماً لتلاميذه فيما يحدّثهم عن الدينونة : « اما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلمها أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن الاّ الآب » (مر ١٣/٣٢) . فهل يكون الابن دون الآب معرفة ومقاماً وبالتالي اليس هو بإله ؟

نجيب ان المسيح تسلّم رسالة من ابيه أخذ على عاتقه نشرها . ولكن هذه الرسالة تقتصر على ما فيه فائدة روحية للبشر وتتجاهل كل ما من شأنه ارضاء الفضول . ومعرفة ساعة موته من باب ارضاء الفضول . والله الآب لا يرغب في كشف ذلك للناس ارضاء لفضولهم . فالابن اذن يعرف ذلك معرفة لا يريد لها النشر . وليس في موقفه هذا اي انتقاص لألوهته .

٣ — صرّح المسيح مراراً ان ما يقوله انما هو من لدن الآب وان الآب اعظم منه (يو ١٤/٢٨) وقد استعطفه وتذلّل امامه في بستان الزيتون حين خاطبه بقوله : « يا ابتاه ، ان كان يستطاع ، فلتعبر عني هذه الكأس ، ولكن لتكن مشيئتك لا مشيئتي » (متى ٢٦/٣٩) . فهل هذا يعني ان الابن هو دون الله ؟

نجيب ان الابن عندما يستعطف اباه ويتذلل امامه ويطيعه انما يتكلّم بوصفه انساناً يريد ان يلقي علينا امثولة في الطاعة لله ، وليس بوصفه الهاً . وهو كانسان احطّ مقاماً من الله . وليس في هذا اي غضاضة على الوهته .

الفصل الرابع

غاية تجسد ابن الله

١ – التمهيدات لمجيء المسيح

– المسيح المهيأ
– اعداد البشرية بتطور روحي تقدمي
– توق البشرية الى المخلص
– تحضير تطوري رجعي
– التحضير الأخير
– بواعث التجسد الالهي

٢ – أظهر أبوة الله

– رفق بالاطفال
– اشفق على البائسين
– حنا على مرضى الأجساد ومرضى النفوس
– جلا في الانسان صورة الله

٣ – علم البشر الأخوة

٤ – المثال الحي

٥ – الفادي

١ – التمهيدات لمجيء المسيح

لا نريد ان نثبت حقيقة تجسد ابن الله وهي حقيقة بيّنة لا تحتاج الى برهان ، ويوحنا الانجيلي يستهل رسالته الاولى بالالماع اليها فيقول : « الذي كان من البدء ، الذي سمعناه ، الذي رأيناه بعيوننا ، الذي تأملناه ولمسته ايدينا من جهة كلمة الحياة ، لأن الحياة قد ظهرت ورأيناها ونشهد ونبشركم بالحياة الابدية التي كانت عند الآب فظهرت لنا » . فالمسيح لم يشبّه لنا بشرًا انما كان بشرًا سوياً من عظم ولحم ودم . لكننا نريد ان نبحث في البواعث التي حدت ابن الله على ان يتجسد فيصبح كأحدنا وقبل ان نبحث في تلك البواعث يجدر بنا ان نتوقف قليلاً على التحضيرات والتدابير اللازمة التي اتخذها الله تعالى ليعد مجيء ابنه على ارض البشر .

المسيح المهيأ

جاء في كتاب اعمال الرسل في الفصل السادس عشر ان الروح القدس اعترض يوماً القديس بولس الرسول في جولته الرسولية الثانية بآسيا واضطره الى تغيير خطة سيره فوجد ذاته لاول مرة امام الغرب الذي كان يجهله ، فيمّم ترواس اقرب مرفأ محاذ للشرق واول منفذ على الغرب . وهناك بينما كان نائماً رأى رؤيا : رجل مكدوني تقدمّ منه وقال مسترحماً : اعْبُرْ الى مكدونيا وأغثْنا ! » (اعمال ١٦/٩)

اغثنا ! فما صراخ ذاك المكدوني الاّ صراخ البشرية الخاطئة المكبلة آنئذ بقيود عبوديتها ومذلّتها ، تستنجد عن وعي او بغير وعي منها ذاك المخلص المجهول ليحطم قيودها ويعتقها . اسقطتها خطيئة الانسان الاول عن عرش مجدها وهوت بها الى حضيض الهوان بحيث افقدتها توازنها واخضعتها لسلطان الشهوة وسلطان الألم والموت ولا سيما لسلطان الشر . فالشهوة تركت لابليس مدخلاً الى قلب البشر يجرّبهم ويجرّهم الى الحيوانية كيفما شاء . الاّ ان الله تعالى نظرًا الى كثرة مراحمه الازلية كان اول من سارع لانهاض البشرية من عثارها ومذلتها فوعدها بمنقذ مخلص سيأتي يوماً في الزمن ليحررها من عبودية ابليس ويعتقها من أسر الخطيئة . ولهذا ، حالاً بعد سقطة الانسان الاول ، فتح امامها باباً الى الرجاء والخلاص بقوله للحية المجرّبة : « «اني اضع عداوة ما بينك وبين المرأة وما بين نسلك ونسلها وهي تسحق رأسك وانت ترصدين عقبها » (تك ٣/١٥) .

ومعلوم ان نسل المرأة هنا مفاده المسيح المخلص وجميع المتحدين معه والمُخلَّصين به في العهدين القديم والجديد .

ومفهوم تلك النبوءة ينجلي بنوع خاص عندما نقابلها بتصريح القديس بولس الرسول في رسالته الى الغلاطيين : « ولما بلغ ملء الزمن ، ارسل الله ابنه مولوداً من امرأة ، مولوداً تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس وننال التبني » (غلاطية ٤/٤).

ثم عاد الله وجدد وعده هذا بنوع اوضح في عهد رسمي قطعه مع ابراهيم واسحق ويعقوب (تك ٢/١٢ ، ١٣/٢٦ ، ١٥/٥ ، ١٧/٤—٧ ، ٢٢/١٦—١٨) .

الاّ ان البشرية كانت وقتئذ غير مُهيَّأة لقبول المسيح المخلص ولهذا كان لا بدّ لها من عبور مرحلة استعدادية طويلة الامد تمر خلالها بتطور روحي مزدوج تقدمي ورجعي كما يدعوه الاب مسابكي في كتابه المأثور « المسيح ملتقى الحبين »[١]

اعداد البشرية بتطور روحي تقدمي

ان سقطة الانسان الاول كانت جسيمة افقدته توازن قواه الروحية فأصيب بجراح بليغة وبنوع خاص في عاقلته وارادته . فعاقلته اصبحت محدودة القدرة تعجز عن ادراك الله كما في اول عهدها وشلّت ارادته واصبحت عاجزة عن صنع الخير وحتى عن السعي اليه ، وقد المع الى ذلك القديس بولس الرسول في رسالته الى الغلاطيين حين قال : « فاذا كنا اطفالاً كنا مستعبدين لاركان هذا العالم . » (غلاطية ٤/٣) .

ويزعم بعض اللاهوتيين ومنهم الاب هنري رونده اليسوعي « ان اوائل البشرية ، بعد سقطة الانسان الاول ، كانت بدائية جداً وان آدم الانسان الاول كان بعيداً من ان يضاهي الانسان العادي ، يعقل كولد مراهق خرج من طور الطفولة منذ حين . »[٢] .

وبما ان البشرية كانت طفلة غير قادرة على قبول المسيح ، كان لا بدّ لها من الخضوع لناموس الطفولة اي لناموس التطور والنمو . والطفل . كما يقول القديس بولس ، طالما هو بحال الطفولة يتحتم عليه ان يخضع للاوصياء والوكلاء والمربين الذين يعملون على تثقيفه وتلقينه المبادئ الاولية للمعرفة قبل ان يصبح قادراً على استيعاب العلوم العالية ثم على تدريبه في استخدام حريته تدريجياً قبل بلوغه سن الرشد وتحريره النهائي من حكم الأوصياء (غلاطية ٤/٢) .

---

١) Dom Charles Massabki, *Le Christ rencontre de deux amours*, p. 300-335.

٢) H. Rondet, *Le mystère du péché originel*, dans *Cité nouvelle*, 10 fév. 1943, p. 248.

اما الوسائل التي استخدمها الله لاعداد البشرية فهي نظام الطبيعة وناموس الضمير ثم الشريعة الموسوية . فالطبيعة بسحرها ونظامها تذيع جمال مبدعها كما جاء في سفر الحكمة .

« لكنهم حسبوا النار او الريح أو الهواء اللطيف او مدار النجوم أو لجّة المياه « أو نيّري السماء ، آلهة تسود العالم . فان كانوا انما اعتقدوا هذه آلهة لانهم خلبوا « بجمالها ، فليتعرّفوا كم ربها أحسن منها ، إذ الذي خلقها هو مبدأ كل جمال . او « لأنـهم دَهشوا من قوتها وفعلها فليتفهـّموا بها كم منشئها اقوى منها . فانه بعظم جمال « المبروءات يُبْصَر فاطرها على طريق المقايسة » (الحكمة ١٣/٣–٦) .

والى ذلك المع القديس بولس الرسول في رسالته الى الرومانيين حيث قال : « ان المبروءات انبأت عن البارئ » (روما ١/١٩) . واكثر من جمال الطبيعة الفاتن ونظامها الساحر ، طبع الله في داخل الانسان ناموس الضمير ، ذلك النور الذي انار به عقله وتلك القدرة التي قلـّد بها ارادته ليمنحه قوة وسهولة على التمييز ما بين الخير والشر وعلى التماسه تعالى في كل اعماله الخيـّرة .

غير ان هاتين الوسيلتين لم تكونا اجدى الطرق لبلوغ الخلائق معرفة الخالق . وذلك بسبب ذاك الجهل الذي غشت به الخطيئة الآدمية عاقلة الانسان ومنعته عن ادراك الله ادراكاً كافياً . فبعد ان اجتازت البشرية مرحلة الطفولة او كادت تنتهي منها ، وقبل بلوغها سن الرشد ، ارتأى الله سبحانه وتعالى ان يختار من البشر شعباً يوحي اليه بشريعة خطية يلقنها باسمه للبشر ويبيـّن لهم ما يجب عليهم ان يتجنبوا من الشر ويصنعوا من الخير ويكتسبوا من الفضائل ، فكانت الشريعة الموسوية التي انزلها الله على شعب اسرائيل في طور سيناء على يد موسى كليمه .

« انا هو الرب إلهك لا يكن لك آلهة اخرى غيري . لا تصنع لك منحوتاً ولا صورة « شيء ممّا في السماء من فوق ولا ممّا في الارض من اسفل ولا ممّا في المياه من تحت « الارض .. لا تحلف باسم الرب الهك باطلاً ... اذكر يوم السبت لتقدسه . اكرم « اباك وامك .. لا تقتل . لا تزن . لا تسرق . لا تشهد على قريبك شهادة زور . « لا تشته بيت قريبك ، لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا امته ولا ثوره ولا حماره « ولا شيئاً ممّا لقريبك » (خروج ٢٠/١–١٧) .

فهذه الشريعة قامت مقام المربي والمثقف لاسرائيل ومنه الى الشعوب كافة فهيأتهم جميعهم لمجيء المسيح كما قال بحق القديس بولس الرسول بهذا الصدد : « فالناموس

كان مؤدبنا يرشدنا الى المسيح » (غلاطية ٣/٢٤) . شرحت لهم معنى الخليقة وصانتهم من عبادة القوى الطبيعية وبقية المخلوقات وهذّبت فيهم الضمير الانساني لانها كانت تفسيرًا واضحاً وحقيقياً للناموس الطبيعي وتعبيرًا محسوساً عن الحقيقة والمعرفة وقاعدة حية يتمشون عليها ويهتدون بها الى معرفة ارادة الله ومرشدًا حكيماً لاختيار الصالح والمفيد (روما ٢/١٤—١٦) .

غير ان الشريعة الموسوية التي صقلت عقول البشر وخطت بهم خطوات واسعة في الطريق المؤدية الى الله كانت عاجزة عن مساندتهم في مسيرهم اليه عزّ وجلّ . كانت مَعْلماً ونورًا جامدًا يهدي السبيل ولكنها لم تكن دليلاً حياً يسدّد الخطى المرتجفة ويشدد العزائم المتثبطة ويبث القوة والزخم والحياة فيهم حتى النهاية . زادت البشر معرفة للخطيئة ولكنها زادتهم مسؤولية تجاهها . كانت الخطيئة قبل نزول الشريعة فعلاً مادياً (خطيئة فلسفية) ؛ أما بعد نزولها فأمست فعلاً ادبياً ، إثماً وذنباً . وبدلاً من ان تساند الانسان على ترك الخطيئة جاءت شاهداً عليه.وهكذا كانت البشرية ترزح تحت قيودها مكبلة بسلاسل ميولها وشهواتها وخطاياها ، منتظرة بفارغ الصبر ذاك المخلص الموعود الذي يأتي يوماً ليحرّرها ويفتديها .

توق البشرية الى المخلص

كان المسيح قبلة انظار الشعب الاسرائيلي ، يتجه نحوه دوماً في عبادته ، ان قام في الصلاة او وقف في الهيكل ليقدم ذبيحته ويقرّب قربانه . ذلك لأن ديانته ، كما يقول الاب ساليه اليسوعي[١] ، « كانت رجاءً وضعفاً معاً ، استغاثةً وانتظارًا ، « واتجاهاً مستمرًا نحو المستقبل . فعلى الصخرة العالية المبنية عليها مدينة اورشليم ، « ينتصب الهيكل الذي يرمز بوحدته الى ذبيحة الصليب الواحدة .. بينما الذبائح « المتعددة والمحرقات المتجددة كل يوم تذيع عجز المجهود الانساني وتدعو الى الذبيحة « الكاملة وترمز الى القوة التي ستنبثق يوماً من ذبيحة الاله المتجسد والى نفاذها المترامي « على الاجيال قاطبةً . كل شيء يرمز الى المستقبل وكل شيء يُعدّه . »

اما الامم الوثنية فلم يكن توقها الى المنقذ المحرر (المخلص) المجهول اقل من اسرائيل . ففي كل شعب وكل عصر نعثر على ذاك الرجاء الذي كان يهزّهم وعلى ذاك الأمل الذي كان يقودهم سواء أكان في الصلاة ام في الشعر والغناء ، من شعوب الدرويد

١) Gaston Salet, *Le Christ notre vie* (éd. Casterman), p. 63.

في غالية (فرنسا) الذين كانوا يقيمون تمثالاً ومذبحاً للعذراء المزمعة ان تبهم ذاك المولود، الى المكسيكيين الذين ، تعليلاً لآمالهم ، كانوا ينحتون في الصخر وعلى الابنية العامة تمثالاً للاله الذي سوف يسحق التنين . وكذا قل عن الصينيين والهندوس والمصريين والفرس واليونان والرومان . ويقول السيد « جون هو » Mr John. C.H. Wu بهذا الصدد : « ما من بلد في العالم اجمع الاّ اقام الله له فيه مسبقاً منادين يبشرون مواطنيه « بقدومه . لم يتلقوا وحياً خاصاً لهذا الغرض غير انهم كانوا ممتلئين حكمة خاصة وجرأة « غريبة تجعلانهم يهيئون العقول عفواً لقبول الكلمة الالهي الأزلي المزمع ان يتجسد « ليهدي العالم الى الخلاص ويفتديه »[١] .

ويعلل « إخيل » العالم اليوناني بان سليلاً من نسل ابولون سيأتي ويقيم العدل في الكون ثم يدعوهم ليضعوا آمالهم فيه لانه إله سوف يقدم ذاته ليقوم مقام برومتيه Prométhée ويأخذ عنه عذابه ، رمز الجنس البشري المعاقب من الغضب الالهي . ويدعوه «الابن العزيز والمحب لوالد خصم »[٢] .

ويؤكد افلاطون الفيلسوف صحة هذا الرجاء ، حين قال : « يجب ان ننتظر شخصاً يعلمنا كيف ينبغي لنا ان نتصرف مع الآلهة ومع البشر . » ويضيف «ألسيبياد» Alcibiade الى هذا القول : « متى يأتي هذا الشخص الذي يعلمنا كل شيء . انني بغاية الشوق الى معرفته »[٣] .

ويتهلل الشاعر الروماني العبقري فيرجيلوس لذكرى مجيء ذاك المنقذ ويتغنّى به قائلاً[٤] :

« لقد حانت الايام الموعودة ، ونظام الكون اللامحدود ها هو ذا قيد التجدد ، « طفل صغير مرسَل من السماء الينا . وعلى عهده ستُمحى آثار جريمتنا. والارض لن « تعرف الخوف فيما بعد ، ولسوف يتخذ له مقرًا مع الآلهة ويحكم العالم الهادئ بقوة فضائل ابيه . فهلمّ ايها الابن العزيز ، يا ابن « جوبيتر » انظر الى المسكونة فهي « خاشعة باحترام امامك، تسلّم عليك . وانظر فكل انسان قد سُرّ وابتهج بقدوم « هذا العهد الجديد . »

---

١) John C. H. Wu, *Le christianisme, seule synthèse possible entre l'Orient et l'Occident*, in *Le monde attend l'Eglise*, p. 99-100.

٢) Eschyle, *Promothée enchaîné*, *Promothée délivré*, 3e partie de la trilogie d'Eschyle cité par Plutarque: vie de Pompée.

٣) Platon, *Alcibiade II.*

٤) Virgile, *Eglogue IV ad Pollionem.*

فالعالم القديم ، على مختلف شعوبه واديانه جميعاً ، بالرغم من شططهم واخطائهم كانوا ينتظرون ، وان بشكل مبهم ، ذاك الرسول المنقذ والمحرر الذي سترسله السماء يوماً الى ارض شقائهم ليحررهم من مضايقهم .

تحضير تطوري رجعي

كانت البشرية تتقدم ثقافة وتفهماً لواجبها تبعاً لناموس عقلي تطوري تقدمي . ولكنها كانت في الوقت نفسه تتأخر أخلاقياً ، تبعاً لناموس آخر معاكس ، ان صحّ لنا القول بذلك. ناموسان متناقضان كانا يجريان عليها معاً ليُعدّاها لمجيء المسيح . فالناموس الأول كان يزيل غشاء الجهل عن عينيها ويفتح امامها آفاقاً نحو الله بينما الناموس الثاني كان يريها انحطاطها الاخلاقي ويشعرها بمرارة حقارتها ومذلتها ، بخضوعها لنير الجسد وشهواته ، فتلمس عجزها عن التحرر من مضايقها بدون الله . وكانت الكبرياء خطيئتها الاولى حين ارادت ان تستغني عن الله وترتقي الى الالوهة بمجرد قواها . وها هي بانحطاطها الخلقي وتسفلها تكفّر عن تلك الكبرياء وتشعر بعوزها الى الله وتستنجده تعالى ليرسل اليها مسيحه فيقيلها من عثارها ويحررها ويرفعها اليه .

التحضير الاخير

لما تجسد الكلمة ابن الله وصار انساناً كان السلام الروماني سائداً على العالم . فكانت آثينا قد سبقت وفرضت لغتها الهلّينية على حوض البحر المتوسط ، العالم المتحضر وقتئذ فوحّدته . ثم عقبتها روما وسيّرت جيوشها وبسطت سلطانها وسلامها الروماني على ذاك العالم فمهدت بذلك السبيل للرسل المبشرين ليحملوا بشرى الخلاص الى جميع شعوبه .

وقال الفيلسوف باسكال بهذا الصدد : « كم يسرنا ان نعاين بعين الايمان ان داريوس وكسرى والاسكندر وقيصر وبومبيوس وهيرودس كانوا يعملون عن غير علم منهم لمجد الانجيل[١] .

وقال الخطيب بوصويه ، في خطابه المأثور عن تاريخ العالم في المعنى نفسه ، ومن بعده الشاعر الفرنسي شارل بيغي في ملحمته عن حواء الجديدة : « كانت الجيوش تمشي لأجله والسفن في البحار تدفعها الرياح نحوه وشمس الخريف تلقي انوارها لتنير السبل اليه »[٢] .

(١ Pascal, *Pensée*, nº 701 (éd. Bruschvig).

(٢ Charles Péguy, *Nouvelle Eve*.

ولما استعدت الدنيا كل الاستعداد انتهت الحلقة الأخيرة بشخص مريم العذراء، ابنة داوود وابراهيم وحواء ، منتهى المحاولات التثقيفية التي قام بها الله على توالي العصور ليُعدَّ البشرية لمجيء المسيح. فحققت احلام الآباء والانبياء الذين عاشوا وماتوا على رجاء المسيح المنتظر . اعدّها الله لتكون حواء جديدة ازاء آدم الجديد مصلح البشرية ومجددها يسوع المسيح ، فكانت بريئة من العيوب مزدانة بجميع الفضائل صورة حية ومسبقة للخليقة المتجددة بالمسيح المخلص .

بواعث التجسد الالهي

اما البواعث التي حدت الكلمة ، ابن الله على التجسد فيمكننا ان نجملها بكلمة واحدة هي المحبة . فالمحبة هي التي حملته على التجسد ليظهر في شخصه ابوة الله واخوّة البشر ، فيعطيهم مثالاً اعلى يحتذونه . وليفتديهم من عبودية الخطيئة .

٢ – اظهار أبوة الله للبشر

تقوم سعادة الانسان على معرفة الله وحبه . وهذا ما اشار اليه يسوع المسيح عندما قال : « وهذه هي الحياة الابدية ان يعرفوك انت ايها الآب وحدك والذي ارسلته الى العالم » (يو ١٧ / ٣) . لكن الله لم يشأ بحكمته الازلية ان يعرّف الناس كنهه دفعة واحدة بل تدريجياً وعلى مراحل ؛ فراح يعدّهم شيئاً فشيئاً لاقتبال حقيقة ابوّته ، فأشعرهم اولاً بحضوره في داخلهم فاسمعهم في قرارة نفوسهم صوت الضمير الذي هو صوته الالهي ؛ ولكنهم قلّما اصغوا الى صوت الضمير ، فعاد يخاطبهم على لسان من اوفدهم الى بني اسرائيل من الآباء والانبياء الذين سلّموهم شرائعه ونقلوا اليهم رغباته ، ولكنهم كثيراً ما اصمّوا الآذان عن سماع صوت الانبياء، فصاغوا لنفوسهم آلهة من حجارة ومعادن شأن الوثنيين ؛ آلهة تواطئهم على ارضاء اهوائهم وشهواتهم ، فاذا بالله يرسل اليهم اخيراً ابنه الوحيد ليحدّثهم عنه ويكشف لهم حقيقة جوهره ويريهم في وجهه البشري وجه الله السماوي . والى هذه المراحل المح بولس الرسول في مستهل رسالته الى العبرانيين فقال: « ان الله الذي كلّم الآباء قديماً في الانبياء كلاماً مُتفرّق الاجزاء مختلف الانواع . كلّمنا اخيراً في هذه الايام في الابن الذي جعله وارثاً لكل الاشياء وبه انشأ الدهور . وهو ضياء مجده وصورة جوهره وضابط الجميع بكلمة قوته » . وقد اظهر المسيح في شخصه « صورة جوهر الله » ولا سيّما ابوّته فرفق بالاطفال واشفق على البائسين وحنا على المرضى ، مرضى الاجساد والنفوس ، وجلا في الانسان صورة الله .

رفق بالاطفال

رفق المسيح بالاطفال في زمن قسا اهله عليهم فاعتدّوهم سلعاً تباع وتشرى، وادّعوا أنّ لهم عليهم حق الموت والحياة . اما هو فاحترمهم وباركهم لأن « ملائكتهم يرون وجه ابيه كل حين » متى ١٨/١٠) . وزجر رسله حين حاولوا صدّهم عنه قائلاً لهم : « دعوا الصغار يأتون اليّ » (لو ١٨/١٦) . واقامهم مثلاً اعلى للبالغين لما يزينهم من طيب سريرة وصفاء ضمير «ثم أخذ صبياً وأقامه في وسطهم واحتضنه وقال لهم : من قبل واحداً من هؤلاء الصبيان باسمي فاياي يقبل ومن قبلني فليس يقبلني بل الذي ارسلني » (مر ٩/٣٦) . وأنذر بالعقاب الرهيب من فتّح عيون الصغار على الشرّ الذي سيبقى مطبوعاً في خيالهم حتى ينزلوا القبر : « ومن شكّك احد هؤلاء الصغار المؤمنين بي فأجدر له لو علّق في عنقه حجر الرحى وزج في لج البحر » (متى ١٨/٦) .

اشفق على البائسين

ما تبرّم بالجماهير تتألب عليه لتتلقّف بشهوة خبزاً يغذو النفوس متناثراً من فمه، لكنه شعر بالحنان يغمر حنايا قلبه لدن رأى الناس يحوطونه معذّبين منطرحين كالخراف التي لاراعي لها (متى ٩/٣٦) . ولا زجر الجموع تتبعه طوال ثلاثة ايام وأبى عليه قلبه الزاخر بالشعور ان يراهم يتلمّسون طريق العودة ، والبطون منهم خاوية ، خوفاً من ان « يخوروا في الطريق » ، فرقّ لهم واشبع خمسة آلاف رجل من خمسة ارغفة وسمكتين (متى ١٤/١٦). ومدّ يده الى وجوه خدّدتها الدموع برفق ولين واعاد اليها ما فارقها من بسمات وهكذا حوّل النواح في جنازة فتى نائين الى زغردات عرس، وعويل امه الثكلى الارملة الى اغانٍ تطفح بشراً وبهجة (لو ٧/١١) .

حنا على مرضى الأجساد

ما أنفت عيناه من مرأى أبرص مشوّه الجسد يقول له : « ان شئت يا رب فانت قادر على ان تطهّرني » فيجيبه على الفور : « قد شئت يا بنيّ فاطهر » (متى ٨/٣) ؛ وما تأفّف من الاعمى يخدّش صوته الآذان حتى راح الناس يزجرونه لعلّه يسكت وما كان الاّ ليزداد صراخاً ويقول : « يا ابن داود ارحمني » فرحمه وردّ عليه البصر (مر ١٠/٤٦) . ولمس يد حماة بطرس ففارقتها الحمّى (متى ٨/١٤) . وأعاد الصواب على من افقدهم الشيطان الصواب (متى ٨/٢٨–٣٤) . وكثيرون هم المقعدون والمصابون

بمختلف الامراض الذين شفاهم ، فاستمتعوا ببهجة الحياة . ولهذا قال عنه اشعيا النبي « أخذ امراضنا وحمل اوجاعنا » (متى ٨/١٧) .

ومرضى النفوس

ومرض النفس في نظره هو المرض ، يلاحقها مدى الأبد . ومرض الجسد حدّه التراب أيام معدودات وتنقضي . لهذا يقول « انه ما اتى ليدعو الصديقين بل الخطأة » (متى ٩/١٣) ؛ فدعاهم وحدب عليهم وآكلهم وجاذبهم الحديث لا لينزلق في مهاو انزلقوا فيها ، على ما يفعل فرّيسيّو كل عصر ، « ورياؤهم شرّ من رياء الفرّيسيين » يقول فرنسوا مورياك ، لأنه يقوم على التخفّي وراء مثل المسيح للجري وراء الشهوة والبحث عن مصاحبة الخلعاء ، لكنه جالسهم ليحلّق بهم في اجواء تفيض بالنور ، بعث في نفوسهم شوقاً لاهباً اليها فجدّوا وراءه خفافاً . وهكذا سمح للزانية بأن تغسل قدميه بالدموع وبالطيب وتمسحهما بشعر رأسها ، بينما يحاول مضيفه سمعان خنق ثورة تأججت في صدره وكادت تندلع من فمه حمماً كاوية : « لو كان هذا نبياً لعلم من هي هذه المرأة التي لمسته » وأطفأ المسيح نيران الثورة في صدر سمعان فضرب لـــه وللفرّيسيين مثل المديونين اللذين ترك دائنهما للاول منهما خمسمائة وللثاني خمسين ديناراً . ثم سأله : من منهما تراه يا سمعان يكون اشد حباً لدائنه ؟ فاجاب سمعان : من ترك له اكثر . حكم سمعان بالصواب في قضية المديونين وفاته ان يحكم بالصواب في قضية الزانية التي ترك لها كثيراً فأحبت كثيراً (لو ٧/٣٦) .

هي امرأة ناشز ضلت سبيل السعادة فطلبتها في اللذة المحرمة واتباع الشهوة الحيوانية فانتهكت مقدسات الحب ، لكنها ما لبثت ان انتبهت لنفسهـــا ، فاذا هي « امرأة خاطئة في المدينة » امام الله والناس . وشعرت بالخيبة وتبكيت الضمير ، وبكت عهد طهارة مضى وصفاء قلب عشش فيه الاثم ، وحرية مفقودة ، وعرفت ان المسيح يرفق بالخطأة امثالها ولربما سمعته يوماً يقول : « اني اريد رحمة لا ذبيحة ؛ اني لم آت لادعو الصديقين بل الخطأة الى التوبة » . فعزمت على الذهاب اليه لتكشف له مـــا يثقل نفسها من اوزار ، فقامت يحدوها الرجاء ، وحملت اليه قارورة طيب وراحت تجد في اثره ، وهي تتشوق الى ان تريق على قدميه ما حملته من طيب ، وما في قلبها من ندامة ، وان تحطم امامه ما عبدته من اصنام . ودخلت بيت سمعان الفريسي وكان يسوع متكئاً عنده ، فانطرحت على قدميه وراحت تبللهما بدموعها وتمسحهما بشعر رأسها ، بعد ان افرغت عليهما طيبها وهي تبكي ضلالها ونشوزها . وعرف المسيح ما في قلبها من

انسحاق فسارع فغفر لها خطاياها وقال : « مغفورة لك خطاياك » . ولكن سمعان مضيف المسيح انكر عليه شفقته عليها وقد كان يرغب في ان تطبق عليها احكام القانون فتموت رجماً بالحجارة وفكر في نفسه قائلاً : « لو كان هذا نبياً لعلم من هي المرأة التي تلمسه وما تمرغت به من اوحال . وادرك يسوع ما يجول في خاطر مضيفه فقال له : « يا سمعان ، عندي شيء اقوله لك . فقال : قل يا معلم . قال : « كان لمداين « غريمان على احدهما خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون . واذ لم يكن لهما ما يوفيان « به سامحهما كليهما . فأيهما يكون اوفر حباً له ؟ فأجاب سمعان وقال : هو في ما ارى « الذي سامحه بالاكثر . فقال له بالصواب حكمت . والتفت الى المرأة وقال لسمعان : « أترى هذه المرأة ؟ انا دخلت بيتك ولم تقدم لي ماء لرجلي ، اما هي فقد غسلت « رجلي بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها . أنت لم تقبلني ، اما هي فمذ دخلت لم « تكف عن تقبيل قدمي . أنت لم تدهن رأسي بزيت واما هي فقد ضمخت رجلي « بالطيب . فمن اجل ذلك اقول لك ان خطاياها الكثيرة مغفورة لها بما انها احبت « كثيراً. واما من يغفر له قليل فانه يحب قليلاً . ثم قال للمرأة : مغفورة لك خطاياك. « فأخذ المتكئون يقولون في انفسهم : من هو هذا الذي يغفر الخطايا ايضاً ؟ اما هو « فقال للمرأة : ايمانك خلصك ، اذهبي بسلام » لو ٧/١١) .

غفر المسيح لهذه الزانية خطاياها واعاد اليها النور والعافية . جاءته متعبة وتركته نشيطة . جاءته والغصة تعصر قلبها وتركته والأمل يستطيرها . افرغت قارورة الطيب وما في قلبها من آثام على قدميه وتركته وقد ملأت قلبها تعزية سماوية وحياة ومحبة . لقد احبت كثيراً فغفر لها كثيراً . وهكذا اصبحت مناراً يستهدي به كل خاطئ ، فيقبل على المسيح ليحطم على قدميه ما عبده من اصنام الشهوة والمال والامجاد العالمية ، وليذرف دمعة سخية على حياة بددها في المآثم ، فيعود والقلب فرح ، بعد ان يسمع كلاماً سمعته الخاطئة وهو : « مغفورة لك خطاياك » .

جلا في الانسان صورة الله

أحب المسيح الناس حباً ما عرف السأم ولا تداخله ملل ، وأحبهم رغم ما ناله منهم من اذى واعنات ، فغفر لصالبيه وبارك اعداءه ودعا المرهقين والمتعبين الى اتّباعه ، وآلى على نفسه ألاّ يكون الاّ الخادم الامين للصغار والضعفاء ، فاذا به يغسل اقدام التلاميذ ويشوي لهم السمك بعد القيامة ويصلح لهم الطعام ؛ واذا به تخنق حلقه الغصّات حين رأى اهل الغواية يصرّون على غواياتهم فذرف على اورشليم دموعاً حرّى .

وأحبهم حباً فوّاحاً بالنقاء ضوّاعاً بالقداسة ؛ لا اثرة فيه ولا ميعَ ولا مساومة على الآداب والاخلاق انما حب فيه رجولة لا تخشى الانذار ساعة يكون الانذار فرضاً واجباً لا حيدَ عنه ، واذا بنا نسمعه يتوعّد أهل النفاق فيردّد عليهم مثل التينة العقيمة (متى ٧/١٧) والزؤان (متى ١٣/٢٤) والغني الشرير (متى ٦/١٩) والوزنات متى ٢٥/٣٢) ، وما سوى ذلك من الامثال التي تهدّد الاشرار بشرّ المصير .

واحبهم على اختلاف الطبقات والنزعات ، من بني جلدته كانوا أم من الخوارج ، حباً لا تفرقة فيه ولا تشيّع ولا محاباة ممّا انطق بولس الرسول العبراني الفريسيّ بقوله : « أحبني وبذل نفسه لأجلي » (غلاطية ٢/٢٠) . فكان في حبه للناس صورة ابيه السماوي التي عمل على جلائها في نفوسهم. فذكّرهم بأنهم على مثال الله تتعدّى قيمتهم قيمة السلع والعجماوات ؛ فما كان الانسان يوماً ملك الدولة ولا ملك اسياده ولا ملك الحكومة ولا ملك الامة . وهو فوق دولاب في عربة الدولة . هو يشارك ابن الله التجسد والحياة الالهية . هو ملك الله خالقه وصورته . وهذا ما علّمه السيد المسيح الذي جدّد ، على حد تعبير القديس ايريناوس ، الطبيعة البشرية ، لا بل الكون اجمع بتجسده . فكان آدم الجديد الذي اعاد تكوين الخلائق على مثاله .

٣ – علم البشر الأخوة

وتجسد ابن الله يسوع المسيح ليظهر في شخصه اخوّة البشر ، فافهمهم ان اباهم واحد هو الله وأنهم جميعهم اخوة ، افضلهم عنده اتقاهم ؛ وجرّأهم على الوقوف امامه وقفة البنين في ثقة واخلاص ، يدعونه في صلاة هي اجمل ما فاهت به شفتا بشر : « ابانا الذي في السماوات » . ولو حاولنا تفتيق معاني هذه العبارات التي لم يذهب بجدّتها التكرار لأخذنا الدهش واستولى علينا العجب . خلائق من تراب تدعو اباها ذاك الذي ترتجف بين يديه قوات السماء والارض ! وعلّم المسيح الناس ان يقولوا «ابانا» بصيغة الجمع تذكيراً لهم انهم جميعاً ، على اختلاف المقام والاجناس ، اخوة . وباح للمسيحيين بسرّ ما كان يراود خيالهم وهو انهم جميعاً عائلة واحدة رأسها هو ابن الله . « انا الكرمة وانتم والاغصان » (يو ١٥/٥) . وهذا هو جسد المسيح السرّي الذي انتشر اعضاؤه في السماء والمطهر وعلى الارض ، والذي طالما تحدّث عنه بولس الرسول بعبارات لا تترك مجالاً للريب . وأنف المسيح من ان يسمّى تلاميذه عبيداً لكنه سمّاهم اصدقاء ، دلالة على ما يربطه بهم وباخوانهم من روابط مودّة . « لا اسميكم عبيداً بعد لأن العبد لا علم له بما يصنع سيده ، بل سميتكم اصدقاء لأني اطلعتكم

على كل ما سمعت من ابي » (يو ١٥/١٥) . واطلعهم على كنه الرسالة التي طلع بها على العالم والتي لا تهدف الاّ الى جمع الشمل وتوثيق عرى الاخوّة بواسطة دمه المسفوح على الصليب ؛ ونادى بوجوب الصفح عن الاساءة والاغضاء على القذى عملاً بشريعة المحبة التي هي علامة المسيحيين الفارقة . «بهذا يعرف الناس انكم تلاميذي اذا كنتم تحبّون بعضكم بعضاً » (يو ١٣/٣٤) . ولكم شدّد على الحفاظ على هذه الوصية ، المحبة التي نعتها بالجديدة نظراً للاخلاقية الجديدة التي كانت تحملها اليهم وللذهنية الجديدة التي تبغي ان تبثهـــا فيهم . « هذه وصيتي ان يحب بعضكم بعضاً كما أنا احببتكم » (يو ١٥/٩) . وقد توقّف الرسل على هذه الوصية طويلاً فاذا بالقديس يوحنا الرسول يقول : ليُحب بعضنا بعضاً فان المحبة من الله . وكل من يحب فهو مولود من الله ويعرف الله، ومن لا يحب لم يعرف الله ، لأن الله محبة » (يوحنا ١ ٤/٧) . ويلقي القديس بولس درساً في الاخوّة المسيحية مستقىً من المسيح ومثاله فيقول : « لأنكم جميعاً ابناء الله بالايمان بالمسيح يسوع ، لأنكم انتم جميع الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح . فليس بعد يهودي ولا يوناني ؛ ليس عبد ولا حر ؛ ليس ذكر ولا انثى ، لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع » (غلاطية ٣/١٦) .

٤ – المثال الحي

وتجسد ابن الله يسوع المسيح ليكون للبشر مثالاً حياً ينهجون نهجه في الحياة . وقد سهّل عليهم سبل اللحاق به . فما كلّف الناس التزام شريعة الاّ لزم نفسه بها من قبلهم ولا ارشدهم الى فريضة الاّ أتمّها بدوره . تمرّس بما يتمرّسون به من اتعاب وشقاء وآلام . فجسّد في شخصه تعاليمه الالهية وحمل اعباء الحياة مع من حملوها ويحملونها . هو يسير امامهم فما عليهم الاّ ان يقفوا خطاه ولا خوف من عثار . وهو وهو لم يسلّمهم عقائد جافة باردة لكنه نصب ذاته إماماً لهم : « انا الطريق » (يو ١٤/٦) . وكثيراً ما يستطار الناس هوساً في سبيل شخص يستنهض منهم الهمم اكثر منهم في سبيل عقيدة وان زخرت بالغنى الروحي . لهذا يقول باسكال : « اني أحب الفقر لأن يسوع المسيح احبه ، واحب العفاف لأن يسوع المسيح احبه ، واحب التواضع لأن يسوع المسيح احبه » . ولا غرو فما كان الحب يوماً الاّ خير حافز للانسان على العمل مهما قام في وجهه من صعوبات . مشى المسيح امام الناس وحمل معهم وفيهم اتعابهم ؛ وهذا ما اشار اليه بيغي الشاعر الافرنسي الذائع الصيت على طريقته فقال : « لقد اخترعوا لحمل الاعباء الثقيلة انواعاً بديعة من الاكياس والحقائب

ولكنهم نسوا شيئاً واحداً : ان يضعوا فيها الرغبة في حملها ؛ فمتى كانت الشريعة شخصاً نحبه تغيّر كل شيء ، وتحرّر كل ما فينا من القوى العجيبة للنهوض بالواجب وأصبح اخشن الوصايا عذباً ككلمة « احبك » . (راجع كتاب ايماننا المسيحي وجه ٣٣) .

فما اهون العمل على العامل عندما يعرف ان المسيح عمل قبله ويعمل الآن معه . وما أيسر احتمال الآلام على من سمّرهم المرض على فراش الآلام عندما يوقنون ان المسيح تألم قبلهم وهو يتألم الآن معهم . وما اسهل الكفاح على الشباب للثبات على القمم عندما يعرفون ان المسيح كافح قبلهم وهو يكافح معهم الآن . وهكذا يطيب العيش وتحلو الحياة عندما يكون المسيح قبلة الانظار .

كان المسيح مثالاً اعلى في جميع ما اتاه من اعمال وما مارسه من فضائل وكان خير مثال في فضيلة الطاعة وهي فضيلة احوج ما نكون اليها في هذه الايام . لقد اطاع المسيح اباه في جميع مراحل حياته من مولده في بيت لحم ونشأته الخفية في الناصرة حتى معالجته سكرات الموت بين لصين على خشبة الصليب ، وقد لفظ انفاسه الاخيرة وهو يردّد : « يا ابتاه في يديك استودع روحي » (لوقا ٢٣/٤٦) . وكان قد سبق فصرّح ان مهمته تقوم على اطاعة ابيه ، وما انحدر من علو سمائه الاّ في هذا السبيل : « لاني نزلت من السماء لا لأعمل مشيئتي بل مشيئة الآب الذي ارسلني » (يو ٦/٣٨) . وما غذاؤه سوى اتمام ارادة ابيه : « انما طعامي ان اعمل مشيئة من ارسلني واتم عمله » (يو ٤/٣٤) . وما اروعها امثولة في الطاعة في هذه الايام التي هبّت فيها على العالم ريح الثورة والتمرّد على التقاليد والانظمة والقوانين . فاذا الأولاد يكابرون آباءهم والرعايا يخلعون أنيار الطاعة على حكّامهم ولهذا نشهد ما نشهده من فتن تندلع نيرانها فلا تبقي ولا تذر . ومردّها روح الثورة الخافق في الهواء تغذيه مادية إلحادية تجنح بالناس عن روح المسيح المثال الحي .

٥ – الفادي

وتجسد ابن في يسوع المسيح قبل كل ليفتدي البشر من عبودية الخطيئة وليزيل عنهم لطخةً تسلسلت اليهم عن ابيهم الأول . ولقد تحدّث الانبياء عن مهمة المسيح هذه فاشار اليها اشعيا بعبارات واضحة فذكر ما سيقاسيه المسيح من آلام في سبيل الفداء (اشعيا ٥٣) ؛ والمع الملاك جبرائيل اليها عندما بشّر العذراء بالحبل الالهي فقال لها : « ها انت تحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع . انه يكون عظيماً وابن العليّ يدعى »

(لو ١/ ٣١) ، ومعنى لفظة يسوع المخلّص ، المنقذ . وكذلك اوحى الله تعالى الى يوسف في الحلم بان رسالة المسيح انما هي افتداء البشر ، بعد ان جلا ما علق في ذهنه من شكوك حول نقاء خطيبته مريم فقال متى الانجيلي : « وفيما هو (يوسف) مفكّر بذلك ، اذا بملاك الرب تراءى له في الحلم قائلاً : يا يوسف ابن داود لا تخف ان تأخذ امرأتك مريم فان المولود فيها انما هو من الروح القدس . وستلد ابناً فتسميه يسوع لأنه هو الذي يخلّص شعبه من خطاياهم » (متى ١/ ٢٠) . وقد صرح المسيح عينه بأنه أتى ليفتدي البشر فقال : « لأن ابن البشر انما أتى ليطلب ويخلّص ما قد هلك » (لو ١٩/ ١٠) . فغاية التجسد الأولية اذن هي الفداء . اما كيف تمّ الفداء فهذا ما سنتحدث عنه في الفصل الآتي .

خلاصة : المسيح ملتقى الحبين

قال الأب شارل مسابكي البندكيتي في كتابه المأثور : « المسيح ملتقى الحُبين او المحبتين » : « المسيح هو قيثارة حية ينشد عليها الله حبه للانسان »[١] . ولكن يجب ان نضيف الى ذلك : « وبواسطته يتغنى الانسان بحبه لله » فهو ملتقى الحبين . حب الله للانسان وحب الانسان لله . اجل ليس من حافز يحدو الله على ان يتجسد ويصير انساناً ويعايش البشر الاّ حافز الحب لا غير . هو الحب الذي حدا الآب على ارسال ابنه الوحيد الى ارض البشر ليفتديهم ويخلصهم والسيد المسيح كشف لنا ذلك لما قال : « هكذا احب الله العالم حتى انه بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الابدية » (يو ٣/ ١٦) . وهو الحب الذي حدا الابن على ان يتطوع ويقدم ذاته ذبيحة خلاصية لاجل البشر ، وقد رآه داود في الرؤيا قبل الف سنة من تجسده يقدم ذاته طوعاً واختياراً ويقول : « تقدمةً وذبيحةً لم « تشأ لكنك ثقبت أذنيَّ ولم تطلب المحرقات ولا ذبائح الخطيئة . حينئذ قلت هاءنذا « آت فقد كُتبَ عني في درج الكتاب لاعمل بمشيئتك يا الله . اني في هذا راغب وشريعّتك في صميم احشائي » (مز ٣٩/ ٧ — ٩) .

وحبه لنا ليس حباً شفيقاً فحسب ، اظهره لنا لما كنا خطأة (روما ٥/ ٧) ، بل هو ايضاً حبٌ عطوفٌ سميحٌ معطاء ، حب والد لوليده وقرين لقرينته وصديق لصديقه . وهو يحبنا هكذا حباً لابنه المتأنس الذي اتخذ جبلتنا البشرية واصبح واحداً منا . انه تعالى لا يستطيع ان يحب على هذا المنوال الاّ ابنه بالطبيعة لأنه مساوٍ له

١) Dom Charles Massabki, *Le Christ rencontre de deux amours*, p. 438.

بالجوهر . غير انه بعد تجسد ابنه ، اصبح يحبنا نحن ايضاً حباً له لأنه أحبنا . نحن نُولَد بالخطيئة الاصلية لكنَّ المسيح يلدنا ولادة روحية ثانيةً بالمعمودية فنصبح ابناء لله بالتبني واخوة له . وهكذا نكون كالمطعوم البرّي الموصول على جذع الشجرة الصالحة – خلافاً لعادة التطعيم المألوفة – يغتذي من مائيتها ويأتي بأثمار من ثمارها (يو ٣/٣–٦ وروما ١١/١٧) . وهكذا نصبح اعضاء من اعضائه (كور ١ ١٢/٢٧) .

والحب ينادي الحب. وبما ان الله احبنا اولا قبل ان نحبه وارسل ابنه كفارة عنا (يو ١ ٤/١٩) وقد احبنا حتى المغالاة (افسس ٢/٤) ، فموضوع محبتنا لا يقدر ان يكون اذاً الاّ ذاك الحب السامي الازلي اللامتناهي الكائن جوهرياً بالله الذي وحده يستطيع ان يسد جوعنا وعوزنا ويشبع رغبتنا في الحب وطاقتنا غير المحدودة على الحب والذي تجسد وصار انساناً وهو ابداً « واقف على الباب يقرع » (رؤيا ٣/٢٠) ليجعل مقره في قلوبنا . ولكن كيف يتهيأ لقلبنا الضعيف ان يجاوب الله على حبه ويذهب لملاقاته بالمسيح يسوع ؟ من يستطيع ان يحرره من ضعفه وميوله والشريعة والناموس والضمير تعجز عن ذلك ؟ هو المسيح ايضاً الذي لا تقوم مهمته بان يُنزل حب الله الى الانسان فحسب بل ان يصعد ايضاً حب الانسان الى الله . ذلك لأن المسيح كله محبة ابيه لنا وكلّه محبة لابيه ، يأذن لنا ان نتحد به ونحب معه وفيه وعلى مثاله ذاك الآب المحبة :

« انا الطريق والحق والحياة لا احد يأتي الى الآب الاّ بي » (يو ١٤/٦) .

هو ملتقى الحبين، حب الله للانسان وحب الانسان لله . فيه تأنسن حب الله ليظهر بأرقّ واحنّ مظاهره ، وفيه تسامى حب الانسان « وتروحن » وارتقى الى الله بأجلّ واسمى مظاهره . فيه اعارت الانسانية الله قلباً من لحم ودم ليُحبها به وفيه اعار الله الانسانية قدرته الالهية لتستطيع ان تحبه حباً يليق به وتقول مع بولس الرسول : « لست انا احيا انما المسيح يحيا بي» (غلاطية ٢/٦) .

المسيح هو قبلة السماء الى الارض وقبلة الارض الى السماء !

الفصل الخامس

يسوع المسيح فادي البشر

– تمهيد

١ – سر الفداء

– لولا الخطيئة
– وساطة المسيح
– موت المسيح حدث تاريخي
– فكرة الفداء
– الفداء في العهد القديم
– الفداء في العهد الجديد
– فكرة الذبيحة
– الذبائح عند الاشوريين والكلدانيين والفينيقيين
– الذبائح عند العرب
– الذبائح في اسرائيل
– المسيح ذبيحة حب خلاصية
– موت الاله
– سر الفداء على انوار العقل

٢ – لم الصليب

– امثولة خالدة
– مظهر قيمة النفس
– ملخص الانجيل
– منهل قوة
– ملحق ٣
– موعد الفداء
– ملحق ٤
– مشكلة المسيح في التاريخ

تمهيـــد

ان غاية التجسد الرئيسية هي افتداء البشر . وقد أتمّ المسيح سرّ الفداء حتى بموته على الصليب. لكننا ما ان نذكر موت المسيح حتى تزدحم الاسئلة على الشفاه : لِمَ الفداء؟ وما هي وساطة المسيح ؟ وهل كان موته حدثاً تاريخياً ؟ وهل يموت الاله ؟ ولِمَ الصليب وما رافقه من آلام مبرّحة ؟ هذه اسئلة سنحاول الاجابة عنها في ما يلي .

١ – سر الفداء

لن نتمكّن من الالمام بسرّ الفداء ما لم ندرك قبل كل شيء فظاعة الخطيئة ولا سيّما الاصلية التي استوجبت تجسد ابن الله بشخص المسيح وموته على الصليب ليقوم بدور الوسيط بين الله والناس ليجري بينه وبينهم المصالحة .

لولا الخطيئة

عصى الانسان الاول ربّه فاستنزل عليه سخطه تعالى نتيجة عصيانه ؛ وشعر باختلال في توازنه الداخلي ، وأحسّ بثورة الجسد على الروح فأصبح مقسّماً على ذاته ، على ما يقول بولس الرسول ، يصنع الشرّ الذي لا يريد ويهمل الخير الذي يريد ، وهكذا حرم حال البرارة وفقد النعيم وفقده بنوه من بعده . ذلك ان الانسان الاول مسؤول عن كل الذين تحدّروا منه مسؤولية رب العائلة عن افراد عائلته . فما أصاب رب العائلة من اكرام واعظام اصاب افراد عائلته ، وما استهدف له من اذلال واحتقار استهدفوا له ، لأنه وآل بيته يؤلفون شخصاً معنوياً واحداً وهكذا حال آدم ونسله .

عصى آدم فحصلت القطيعة بينه وبين ربه وبات يحنّ الى نعيم فقده ولا سبيل له الى العودة اليه ، وهو لا يملك وسيلة للتكفير وأنّى له ان يكفّر وهو خليقة حقيرة والمهان اله قدير والاهانة تكون على قدر المهان ؟ ولكن الله شاء ان يتدارك الانسان البائس فأرسل ابنه الوحيد الى نجدته فانبرى يسوع المسيح يقدّم نفسه وسيطاً بين الله والناس . ولهذا تجسّد وتألم ومات . ولولا المعصية والخطيئة لما كان من موجب لموته .

وساطة المسيح

عندما تجسد ابن الله يسوع المسيح جمع في شخصه الالهي الطبيعتين الالهيـة والبشرية . فكان الهاً وانساناً معاً . فتسنّى له ان يقوم بدور الوسيط بين الله والناس . وهكذا اصبح بتجسده بكر اخوة كثيرين (روما ٨/٢٩) وهبهم نعمة التبنّي على ما يوضح بولس الرسول . فلما بلغ ملء الزمن ارسل الله ابنه مولوداً من امرأة ، مولوداً تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبنّي (غلاطية ٤/٤) . وقد اشار في خطابه ليلة العشاء السرّي الى هذا الرباط الوثيق الذي اصبح بعد التجسد يشدّ الانسان اليه فشبّه نفسه بالكرمة واتباعه بالاغصان (يو ١٥/١)، فكما ان المائية لا تجري الى الاغصان الاّ بواسطة الكرمة ، هكذا لا تجري الحياة الالهية في الانسان الاّ بواسطة المسيح . والحياة الالهية عنصر جديد ادخله المسيح على طبيعة الانسان بتجسده . لهذا يقول الاباء الاولون : تجسد ابن الله وصار انساناً ليؤله الانسان .

ليست وساطة المسيح اذن كوساطة موسى وغيره من الانبياء ، خارجية قانونية اذا صح التعبير ، لكنها وساطة منبثقة من صميم طبيعتي المسيح الالهيـة والبشرية . وبفضل هذه الوساطة تمكن بموته على الصليب من مصالحة الناس مع الله ابيه . « لأنا اذا كنا صولحنا مع الله بموت ابنه ونحن اعداء فبالأحرى كثيراً ان نخلص بحياته ونحن مصالحون ... لأنه ان يكن بسبب زلّة واحد قد مات الكثيرون فبالأحرى كثيراً ان تغزر نعمة الله التي لانسان واحد هو يسوع المسيح » . (روما ٥/١٠—١٦) . ولا غروَ فبولس الرسول يجعل المسيح بالنسبة الى الناس في مقام الرأس بالنسبة الى الجسد . وقد صلب الرأس ، فصلب الجسد معـه ومزّق صكّ الخطيئة . وهكذا تمّ مفعول الوساطة بموت المسيح وسفكه دمه الذي به كفّر عن خطايانا وارضى الله اباه (كولوسي ١/١٢—٢٠). وما من احد يمكنه ان يقوم بهذه الوساطة غير المسيح لأن له من الوهته وبشريته ما يمكنه من الجمع بين الفريقين المتخاصمين وهو إله وانسان معاً . غير ان من اراد ان يفيد من هذه الوساطة عليه ان يعمل اعمالاً تؤهّله للافادة منهـا . فالايمان والعماد واقتبال الاسرار والتمرّس باعمال التقوى ، كل هذا ضروري لمن يبغي الافادة من وساطة المسيح . فجّر المسيح ينابيع الخلاص ، فيبقى على الناس الورود . كفّر عن خطاياهم لكنه لم يعفهم من التكفير الشخصي .

موت المسيح حدث تاريخي

صار المسيح وسيطاً بموته ، وموته حدث تاريخي لا سبيل الى انكاره . وقد سجّله الرسل في اناجيلهم وهم الذين ما كان ليدور في خلدهم ان هذه النهاية المشؤومة تنتظر معلمهم ، ونشر خبره التلاميذ في تبشيرهم وفضلوا المجازفة بالنفس على ألاّ ينكروا هذه الحقيقة ؛ وقد ألمع المؤرخون من غير المسيحيين الى موت المسيح امثال تاكيتوس ويوسيفوس اللذين اتينا على ذكرهما في توطئة هذا الكتاب .

ولو لم يكن موت المسيح حدثاً تاريخياً وقع في مكان معيّن وفي زمن محدّد خلافاً لما زعم الظاهريون الذين يقولون بأنه شبّه لنا انه صلب ، لكان ايماننا باطلاً ولكنا ما نزال نرسف في قيود الخطيئة . ولكن موت المسيح وبالتالي سرّ الفداء يحتل نقطة الدائرة من الدين المسيحي .

فكرة الفداء[١]

ليست فكرة الموت يقاسيه المسيح افتداء للبشر بخاطر عارض ، لكنهــا فكرة مسلطنة هينمت على حياته وسيّرتها منذ بدء تبشيره حتى نزوله القبر . فما فكرة الفداء

---

١) الفداء ، الانقاذ ، التكفير ، التطهير
الكتاب المقدس استعمل لفظتين للدلالة على عمل الله الانقاذي والخلاصي نحو البشر « پداح = الله يفدي » و « چعال = الله ينقذ » فاللفظة الاولى استعملت باديء ذي بدء للدلالة على الحل من العبودية والتحرير . ولكن هذا العمل التحريري كان يتم لقاء دفع دية « الفداء » ؛ ثم استعملت هذه العبارة للدلالة على الدية التي كان الشعب يقدمها للهيكل ليفتدي بها كل مولود بكر ، فاتح رحم ، وهي مؤلفة من حمل صحيح من الغنم او فرخ حمام او يمامة وفي حال الفقر من يمامتين او فرخي حمام احدهما محرقة والآخر ذبيحة خطأ (احبار ١٢ /٧ و٨) .
واستعملت اخيراً هذه اللفظة لما انقذ الله شعبه من عبودية الفراعنة من مصر بيد من حديد (تثنية الاشتراع ٧ /٨ و ٩ /٢٦ و ١٣ /٦) .
واستعملت لفظة « چعال »، افتداء، للدلالة على انقاذ القيم الروحية المقدسة، هكذا استعملها ارميا واشعيا الثاني بمناسبة انقاذ وافتداء اسرائيل من أسر وجلاء بابل (ارميا ٣١ /٧–١١ ، اشعيا ٤٣ /١ و١٤).
التكفير ، التطهير
واستعملت ايضاً لفظة « كيپر» التكفير ، بشأن اسرائيل لما كان في المنفى والأسر والاستعباد في بابل (حزقيال ٣٦ /٦٣) . ثم استعملت بطقوس العبادة (اللتورجية) . فالخطيئة دنس على الانسان مضاد لقداسة الله ؛ تجعله غير مقبول لتقدمة شعائر العبادة ؛ ولهذا يجب عليه ان يتطهر ويتنقى من خطيئته وادناسه قبل مثوله في حضرة الله . وهكذا انتقلت لفظة فداء وافتداء وانقاذ وعتق من معنى العبودية والأسر الى معنى التحرر والعتق والتطهير من الخطيئة (حزقيال ٤٣ /٢ و٢٦ – ٤٥ /١٥ و ٢٠) . واخيراً عمت لفظة « العبودية » واطلقت على الخطيئة وضرورة الافتداء والانعتاق من قيودها إذ ليس ثمت من عبودية ارق منها للانسان .

اذن اغريقية ولا رومانية ولكنها من صميم العقيدة المسيحية ترتكز على الوحي الالهي في العهدين القديم والجديد . بشر الانبياء بالمسيح فادياً ومخلصاً واعلن هو نفسه في بدء كرازته بالانجيل عن عزمه وتصميمه على افتداء البشر بالموت على الصليب .

الفداء في العهد القديم

يستفاد من تعليم الكتاب المقدس ان البشر جميعهم اخطأوا بآدم ، والفصول الاولى من سفر التكوين ليست سوى ملحمة الخطيئة وأثرها السيئ في البشر الذين دعوا الى حياة نعيم وخلود مع الله وقد ابعدتهم الخطيئة عنه واحالت نعيمهم الى شقاء : تلك قصة سقوط الانسان الاول في الفردوس الارضي ، قايين وهابيل ، الطوفان ، برج بابل الخ ...

غير أن الله الكثير المراحم لم يقسُ طويلاً على البشر ، بل عمـــد الى انقاذهم وافتدائهم من عبودية الخطيئة . وعمله الانقاذي الخلاصي سيبدأ اولا بالانتصار على الخطيئة في داخل شعبه . وما افتداء اسرائيل من الأسر والعبودية في بابل حيث كفّر طويلاً عن خياناته ، سوى رمز لذاك الفداء الشامل الذي سيتناول جميع الشعوب . ولهذا دُعي سفر اشعيا الثاني (اشعيا ٤٠—٥٥) بسفر « تعزية اسرائيل » لأنه تكلّم عن افتداء اسرائيل القريب وبه وبواسطته عن افتداء العالم . لقد خان اسرائيل ربه ونقض عهده ، فعاقبه الرب واعلن له ذاك العقاب ، بواسطة إرميا وحزقيال : خراب اورشليم ودمارها . ومن سنة ٥٩٨ ق. م. الى سنة ٥٨١ ق. م . المدينة خربة والهيكل مدمّر والشعب اسير ومنفي ومُشرّد ومستعبد . ولكن ها هوذا الله يشفق ويعطف ويقول بلسان اشعيا نبيه : « عزّوا عزّوا شعبي يقول الرب» (اشعيا ٤٠ /١—٥) ويضيف مشجعاً ويقول ايضاً : « لا تخف لأني افتديتك » (اشعيا ٤٣ /١—٤) .

لكن بادرة الفداء ومشروع الفداء الذي قام به يهوه إله اسرائيل سيتم على يد عبده وصفيه « عبد يهوه » . عبد يهوه هو شخص مختار من الله ، كموسى ثان بنوع ما لاسرائيل ، سيتضامن كموسى مع شعب الله ، واكثر من موسى ، سيأخذ اوجاع الشعب وامراضهم ويلقى بدلاً منهم الضربات الاليمة ويحمل عارهم وارجاسهم ويغسل خطاياهم بدمه . وليس عبد يهوه هذا الذي رآه اشعيا النبي بالرؤيا ستة قرون قبل مجيئه سوى المسيح المنتظر نفسه الذي سيفتدي اسرائيل .

لقد بشّر به ارميا النبي منقذاً ومجدداً : « ها انها ستأتي ايام يقول الرب أقيم

فيها لداود نبتاً صدّيـقاً (والمسيح من نسل داود حسب الجسد) ويملك ملك يكون
« حكيماً يجري الحكم والعدل في الارض . في ايامه يُخلّص يهوذا ويسكن اسرائيل
« في الدعة . وهذا اسمه الذي يدعى به الرب برُّنا » (ارميا ٢٣/٥).

ونادى به حزقيال النبي راعياً مختاراً من الله يرعى شعبه بدلاً من الرعاة الفاسدين .
« فاخلص غنمي ولا تكون من بعد نهباً (يقول الرب) وأقيم عليها راعياً واحداً ليرعاها
« عبدي داود فهو يرعاها وهو يكون راعيها » (حزقيال ٣٤/٢٢).

وثمة مجموعة مزامير ألفت في تلك الحقبة بجلاء بابل ، تنبئ وتبشر بقدوم المسيح الفادي العتيد (مز ٢، ٧١، ١٠١، ٤٥، ٢١، ١٨).

« ويسجد له جميع الملوك وتتعبد له كل الامم لأنه ينقذ المسكين المستغيث والبائس
« الذي لا ناصر له . يرثي للكسير والمسكين ويخلّص نفوس المساكين . من الظلم
« والغَصْب يفتدي نفوسهم ويكون دمهم في عينيه ثميناً » (مز ٧١). واخيراً قام اشعيا الثاني وجاء بكتابه ، كتاب التعزية وبشّر بخلاص اسرائيل على يد المسيح المنتظر ، وكتب نشيد « عبد يهوه » الخالد الذي هو دون ما ريب اروع ما كتب عن المسيح الفادي في العهد القديم (اشعيا ٤٠—٥٥).

واليك بعض المقاطع الكبرى لهذا النشيد :

(اشعيا ٤٢/١—٧) نبوءة تنصيب عبد يهوه وتقليده السلطة من الله .

« هوذا عبدي الذي اعضده مختاري الذي سُرَّت به نفسي قد جعلت روحي
« عليه فهو يبدي الحكم للامم ، لا يصيح ولا يُجلب ولا يسمع صوته في الشوارع
« قصبة مرضوضة لا يكسر وكتاناً مدخناً لا يُطفئ . يبرز الحكم بحسب الحق . »

ومن الملحوظ ان الانجيليين سيطبقون يوماً هذه النبوءة على السيد المسيح (متى ١٢/١٧).

(اشعيا ٥٠/٤—٩) عبد يهوه يصف مهمته ورسالته والعذاب الذي سوف يلقاه لاجل تحقيقها :

« السيد الرب قـد فتح اذني فلم اعاص ولا رجعت الى الوراء . بذلت ظهري
« للضاربين وخدي للناتفين . ولم استر وجهي عن التعييرات والبصق . السيد الرب
« ينصرني ، لذلك لم اخجل ولذلك جعلت وجهي كالصوان وانا عالم باني لا اخزى ».

(٢/٥٢ــ١٣/٥٣ــ١٢) آلام عبد يهوه وموته ذبيحةً للتكفير عن خطايا الشعب.

« انه لقد اخذ عاهاتنا وحمل اوجاعنا فحسبناه ذا برص مضروباً من الله ومذلّلاً .
« جُرح لاجل معاصينا وسُحق لاجل آثامنا ، فتأديب سلامنا عليه وبشدخه شُفينا .
« كلنا ضللنا كالغنم ، كل واحد مال الى طريقه فالقى الرب عليه إثم كلنا . قُدم
« وهو خاضع ولم يفتح فاه . كشاة سيق الى الذبح وكحمل صامت امام الذين يجزّونه
« لم يفتح فاه . من الضيق والقضاءً أخذ ومن يصف مولده . انه قد انقطع من ارض
« الاحياء ولاجل معصية شعبي اصابته الضربة فمُنح المنافقين بقبره والاغنياء بموته لانه
« لم يصنع جوراً ولم يُوجد في فمه مكر . والرب رضي ان يسحقه بالعاهات فانه إذا
« جعل نفسه ذبيحة إثم يرى ذريةً وتطول ايامه ومرضاة الرب تنجح على يده . لاجل
« عناء نفسه يرى ويشبع وبعلمه يبرّر الصدّيق عبدي كثيرين وهو يحمل آثامهم
« فلذلك اجعل الكثيرين نصيباً له والاعزّاء غنيمةً لأنه افاض للموت نفسه وأحصي
« مع العصاة وهو حمل خطايا كثيرين وشفع في العصاة . »

الفداء في العهد الجديد

عند الانجيليين الثلاثة الاولين (متى ومرقس ولوقا) رسالـــة يسوع المسيح تقوم بالمناداة بحلول ملكوت الله ما بين البشر وانقاذهم من براثن ابليس والخطيئة . حمل لهم الانجيل بشرى الخلاص التي وعدهم الله بها : « توبوا فقد اقترب منكم ملكوت الله » (مر ١ /١٤). وقد اعلن حلول ملكوت الله بتقويضه سلطان ابليس : « اذا كنت اطرد الشياطين باصبع الله « فهذا دليل على ان ملكوت الله حل ما بينكم » (متى ١٢ /٢٨) .

وبعرفه جميع البشر اخطأوا وقد جاء ليخلصهم : « ابن الانسان (المسيح) جاء ليطلب ما قد هلك » (لو ١٩ /١٠) .

غير ان الخلاص الذي جاء ليحمله الى العالم لن يتم الاّ بموتـــه على الصليب فديةً عن البشر . وقد أتمّ ما كُتب في نبوءة اشعيا عن « عبد يهوه » : « فان ابن الانسان لم يأت ليُخدَم بل ليخدم ويبذل نفسه فداء عن كثيرين » (متى ٢٠ /٢٦ مر ١٠ /٤٥) .

وما كتب عنه الانبياء جملةً بهذا المضمار : « وابن الانسان ماضٍ كما هو مكتوبٌ عنه » (مر ١٤ /٢١) .

وكثيرًا ما كاشف تلاميذه واخصّاءه باعتزامه مقاساة الآلام افتداء لبني البشر ، راسماً مسبقاً امام عيونهم خطوط مأساة الجلجلة الكبرى : « هوذا نحن صاعدون الى اورشليم وابـــن الانسان سيُسلَّم الى رؤساء الكهنة والكتبة فيحكمون عليه بالموت « ويسلمونه الى الامم لكي يهزأوا به ويجلدوه ويصلبوه وفي اليوم الثالث يقوم » (متى ١٨/٢٠ مر ٣٢/١٠) . وقد اعتاص على الرسل اولاً فهم اهمية سر الفداء فاذا بنا نسمع بطرس يؤنب المسيح برفق لما كاشفه ورفاقه عند قيصرية فيلبس باعتزامه احتمال الآلام والصلب . لكنَّ السيد المسيح عاد فأبان له خطأه وانتهره بقوله : « اذهب خلفي يا شيطان ، انك لي معثرة ، لأن افكارك ليست افكار الله بل افكار الناس . » (متى ٢١/١٦) . وقد لقب المسيح بطرس بشيطان لكونه حاول كالشيطان يوم جرَّبه ثلاثاً ان يغريه بحياة سهلة لا مجال فيها للآلام .

واخيرًا شدَّد على توضيح فكرة موته صلباً تكفيرًا عن الخطايا ، ليلة رسم سر القربان المقدس حين اخذ الكأس وقال : « اشربوا من هذا كلكم ، هذا هو دمي العهد الجديد الذي يهراق عنكم وعن الكثيرين لمغفرة الخطايا » (متى ٢٧/٢٦ — مر ٢٢/١٤—لو ١٩/٢٢) .

وما كان لسرّ القربان المقدس مثيل على الدهر ، سوى ذبيحة الصليب تُجدَّد بشكل غير دموي على مذابح الكنيسة . وقد عاد السيد المسيح بعد القيامة الى فكرة الموت والفداء فقال لتلاميذه : « هكذا كُتبَ : انه ينبغي للمسيح ان يتألم وان ينهض من الاموات في اليوم الثالث وان يكرز باسمه بالتوبة لمغفرة الخطايا » (لو ٢٤/ ٢٧) .

اما عند القديس يوحنا، الانجيلي الرابع ، فالمسيح ، كلمة الله وابنه المتجسد ، انما جاء الى العالم بداعي الحب : « هكذا احب الله العالم حتى ارسل ابنه الوحيد كي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الابدية » (يو ١٦/٣) . وقد تكلف رعاية البشر واصبح راعياً لهم واصبحوا خرافه ورعيته وهو مستعد لبذل ذاته لتحريرهم وافتدائهم . انا الراعي الصالح ، الراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف .. انا الراعي « الصالح واعرف خاصتي وخاصتي تعرفني كما ان الآب يعرفني وانا اعرف الآب « وابذل نفسي عن الخراف . من اجل هذا يحبني ابي لأني ابذل نفسي لآخذها ايضاً « ليس احد يأخذها مني ولكني ابذلها باختياري ولي سلطان ان ابذلها ولي سلطان « ان آخذها ايضاً . هذه الوصية قبلتها من ابي ... ان خرافي تسمع صوتي وانا اعرفها « وهي تتبعني وانا اعطيها الحياة الابدية » (يو ١١/١٠—٢٧) .

لكن هذا الراعي سيكون في الوقت نفسه حمل الذبيحة ، كاهناً وذبيحة ، قرباناً ومُقرّباً . قد اظهره يوحنا الانجيلي هكذا في بدء انجيله اذ ذكر كلمة يوحنا المعمدان عنه حينما اعلنه الى الجماهير : « هوذا حمل الله ! » (يو ١ /٣٦) .

وللمسيح ساعة للتضحية كانت دوماً نصب عينيه ، يعود الى ذكرها في كل سانحة كأنه لا يحيا الاّ لاجلها (يو ٧ /٦) . انها لساعة مؤلمة كساعة النزاع (يو ١٢ /٢٧)،غير انها ساعة مجده ايضاً الذي سيتمجد عند الله ابيه (يو ١٢ /٢٣،١٣ /١، ١٧ /١) قد اتت الساعة التي يتمجد فيها ابن الانسان .. . الآن نفسي قد اضطربت ماذا اقول . يا ابت نجني من هذه الساعة ولكن لاجل هذا بلغت هذه الساعة . يا ابت مجّد اسمك ... » (يو ١٢ /٢٣—٢٧) .

وفي صلاته الكهنوتية بعد العشاء السري حيث اسس الافخارسيتا ، قدّم ذاته ذبيحة لابيه عن البشر وقد استعمل كلمة « قرّب ، ضحى » ، « ولاجلهم اقرّب ذاتي ليكونوا هم ايضاً مُقدّسين بالحق » (يو ١٧ /١٩) . ويُستعاض بذبيحته عن ذبيحة الفصح السنوية حيث كان اسرائيل يعيّد ذكرى خروجه من دار العبودية بمصر ويكون هو نفسه الفصح الجديد الذي بخروجه من هذا العالم الى الله ابيه سيعتق ويحرر البشر من عبودية الخطيئة وينتقل بهم من عالم الموت الى عالم الحياة.

ثم يعود القديس يوحنا ويذكر المسيحيين الاولين برسائله ان المسيح افتداهم بدمه الثمين وانه يشفع بهم .

« ودم يسوع المسيح ابنه يُطهرنا من كل خطيئة » (يوحنا ١ ١ /٧) .

« وان خطِئ احدكم فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار وهو كفارة عن « خطايانا وليس عن خطايانا فقط بل عن خطايا العالم كله » (يوحنا ١ ٢ /١—٢) .

« وانما المحبة في هذا اننا لم نكن نحن احببنا الله بل هو احبنا فارسل ابنه كفارة « عنا » (يوحنا ١ : ٤ /١٠) .

وما سفر الرؤيا بمجمله سوى ليتورجية الحمل الالهي في اورشليم السماوية يصفها يوحنا وصفاً دقيقاً وشيّقاً .

« ورأيت فاذا في وسط العرش ... حمل قائم كأنه مذبوحٌ له سبعة قرون وسبع « اعين وهي ارواح الله السبعة المرسلة الى الارض كلها .. ولما اخذ الكتاب خرّت « الحيوانات الاربعة والاربعة والعشرون شيخاً امام الحمل وكان لكل منهم كنارة ..

« وهم يسبحون تسبحة جديدة قائلين مستحق انت ان تأخذ الكتاب وتفضّ ختومه
« لأنك ذُبحتَ وافتديتنا لله بدمك من بين كل قبيلة ولسان وشعب وأمـة . وجعلتنا
« لإلهنا ملكوتاً وكهنةً ... ورأيت فاذا انا اسمع اصوات ملائكة كثيرين حول العرش ..
« قائلين بصوت عظيم مستحق الحمل المذبوح ان يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة
« والكرامة والمجد والبركة » (رؤيا ٥/٦—١٢) .

واخيرًا القديس بولس الشاهد الاول لايمان الكنيسة في مهدها عبّـر برسائله عن ايمان المسيحيين آنئذٍ بالفداء وابان ضرورته بسبب سلطان الخطيئة في العالم .

الانجيل بمفهوم القديس بولس هو قوة الله لاجل خلاص كل انسان ، لليهودي اولاً ثم لليوناني (اي للوثني) (روما ١/١٦) . وليس ثمة خلاص الاّ بالايمان بالله الذي ارسل ابنه الى العالم مخلصاً وفادياً ، يسوع المسيح « الذي مات لاجل خطايانا وقام من الاموات لاجل برارتنا » (روما ٤/٢٥) .

وهذا الفداء والتحرير من عبودية الخطيئة هو هبة مجانية من قبل الله وهو عمل يسوع المسيح الوسيط ما بين الله والبشر « ليس سوى إله واحد ووسيط واحد يسوع المسيح المتأنس الذي بذل ذاته افتداء عنا » (تيم ١ : ٢/٥) وصلب المسيح هو اجمل وانصع شهادة على حب الله الآب السماوي إذ إنـه « لم يدّخر ابنه الوحيد بل اسلمه الى الموت لاجل خطايانا » (روما ٨/٣٢) .

وهو ايضاً اقوى شهادة على حب الابن لنا «الذي بذل ذاته طوعاً واختياراً لاجلنا.. الذي احبني وبذل نفسه لاجلي ... »(غلاطية ١/٤ و ٢/٢٠ — روما ٥/٦ افسس ٥/٢) .

فكرة الذبيحة

ولكن لِمَ الذبيحة في الفداء ؟ لكي نفهم اهمية الذبيحة وضرورتها في الفداء لا بُدَّ لنا من الالمام اولا بضرورتها للانسان عامةً ثم بفائدتها في الفداء واخيرًا بمكانتها في العهد القديم .

الذبيحة كما حددها اللاهوتيون ، هي عطية ، تقدمة ، وتقدمة الذات عملياً الى الله حيث يتخلى الانسان بنوع ما عن ذاتيته ليقرّبها لله قرباناً ويقرّ له بسلطانه المطلق على الخليقة وعليه هو الانسان بنوع اخص ، ويعترف لها بتبعيته تجاهه ، اجل ، لقد استقل الانسان عن الله بخطيئته الاولى فانكر عليه صنيعه وغمطه حقه وتنكر الى

حبه وجعل نفسه نقطة الدائرة في الكون ، فزاغ عن طريق الحق ، ولما عاد الى رشده واراد ان يرجع الحق الى نصابه كانت الذبيحة خير وسيلة لديه لما تنطوي عليه من عواطف السجود والخضوع (الاقرار بالتبعية) والشكر والانسحاق والندامة والاسترحام . قال القديس اغسطينوس ومن بعده القديس توما الاكويني محددَيْن الذبيحة: «كل عمل من دأبه ان يجمعنا بالله لنعيش بألفة معه ونكون ثمت سعداء من سعادته »[1] .

فجوهر الذبيحة قائم اذن بالتقدمة لا بالضحية ــ وان تلكُ هذه تشكل من ناحية اخرى عنصرًا اساسياً للذبيحة ــ وبتقدمة باطنية يُخضع الانسان فيها مشيئته البشرية للمشيئة الالهية خضوعاً تاماً . فان يقبل الانسان عطاء الله وحبه ويبادله بحب مماثل ممتثلاً اوامره وملبياً رغائبه فتلك لعمري ذبيحة القلب الحقيقية المرضية لديه تعالى . ولهذا فالطاعة تشكل هي ايضاً عنصرًا رئيسياً واساسياً للذبيحة لأنها اكمل تعبير واقوى برهان على حب الانسان لله وخضوعه له . وبما ان الانسان مركب من عنصرين روحي وجسدي فلن تقتصر طاعته الباطنية على النفس فقط بل تمتد الى الجسد ايضاً فتصبح ثمت تقدمته او ذبيحته باطنية وخارجية معاً . ولكن كيف وبم تقوم ذبيحة الجسد؟ هل بتلفه واحراقه والله ينهي عن القتل؟ فعند ذاك عمد الانسان الى الاستعاضة بالحيوانات العجم وببواكير الارض من زروع واثمار وبنوع خاص بالبخور والخمر والزيت وطفق يقربها قرابين ومحرقات امام الله بدلاً منه . ولهذا نرى الذبيحة في تاريخ كل الاديان تقريباً تحتل مركزًا هاماً في طقوس الصلاة والعبادة فردية كانت ام جماعية. اما العمل الديني الذي كان يؤلف جوهر الذبيحة وقتئذ فكان قائماً بان يفرز الانسان الحيوانات والاثمار والخمور والزيوت وغيرها ويعزلها عن الاستعمال العادي ليكرسها للاله فيذبحها ويريقها ويحرقها على مذبحه الخاص ترضية لعدله وتهدئة لسخطه واستدراراً لعطفه .

الذبائح عند الاشوريين والكلدانيين والفينيقيين

ان اللوحات الاثرية التي وصلت الينا عن طقوس العبادة في كل من حضارات نينوى وبابل عند الاشوريين والكلدانيين ورأس شمرا عند الفينيقيين[2] ، تبيّن دون ما ريب ان الذبيحة بدأت اولاً بالتقادم والهدايا لتهدئة خواطرهم واستدرار عطفهم ثم

---

١) St. AUGUSTIN, *Cité de Dieu*; Liv. X, ch. 16.
St. THOMAS, IIIa pars q. 48, a. 3.

٢) Cf. A. VINCENT, *La religion des Judéo-Araméens d'Eléphantine*, Paris 1937, p. 182.

مع التقادم الذبائح والولائم . وعند الكلدانيين هو الطعام اول ما يُقدَّم للالهة ، وقد عُثر على كتابة من هذا النوع تقول : « امام الاله قدّمْ هديتك » !

الذبائح عند العرب

اما عند العرب فالدم كان يحتل المركز الرئيسي في التقادم والذبائح . فليس من ذبيحة حقيقية دون اهراق الدم ونضحه ورشه على مذابح الآلهة . وعمل العبادة الطقسي يقوم اولاً بذبح الضحية . ولما كان دم الذبيحة يُراق على المذبح كان العربي يشعر بانه اتحد بالآلهة . وليس ذلك من الغرابة بشيء اذ ان الدم كان بعرف العرب رمز الاخوّة والاخاء ، فالاخوّة كانت تتوثق عراها فيما بينهم حتى القرابة عندما كانوا ينحرون الذبائح تكريماً لضيوفهم . ولهذا لما كان العرب يقرّبون الذبائح للآلهة ويريقون دماءها على مذابحهم كانوايقيمون روابط قربى بنوع ما بينهم وبين تلك الآلهة ويرغمونهم على استجابة طلباتهم بداعي تلك القرابة الدموية المكتسبة[١] .

الذبائح في اسرائيل

وكانت فكرة التكفير عن الإثم بواسطة الذبيحة مألوفة وسائدة عند جميع الساميين جميعاً ، ولا سيما عند الفينيقيين (راجع آثار رأس شمرا) . فتسربت هذه العقيدة الى الاسرائيليين وقد كرّستها الشريعة الموسوية (احبار ١—٧) حيث سنّ موسى اربعة انواع من الذبائح لبني اسرائيل : المحرقة والذبيحة غير الدموية وذبيحة المناولة او الوليمة واخيراً ذبائح التكفير[٢] .

١ – ذبيحة المحرقة (اولاه)

كانت ذبيحة المحرقة تحرق بكاملها على مذبح الرب دون ان يؤكل منها شيء ، وهي الذبيحة المثالية الاكثر قبولاً في عين الرب (تثنية الاشتراع ٣٣ / ١٠) .

ومن هذا النوع كان هابيل الصديق ونوح البار وبنوه يقربون قرابينهم وذبائحهم للرب(تك ٤ / ٤ و ٨ / ٢٠)

وعلى هذا النحو كان ايضاً ابراهيم الخليل مزمعاً ان يقرّب وحيده اسحق محرقة للرب وقد افتداه الرب بكبش من الغنم (تك ٢٢ / ٢) .

وعلى هذا الشكل ايضاً نذر يفتاح نذره للرب وضحى بابنته الوحيدة محرقة للرب (قضاة ١١ / ٣٠—٤٠) .

اما مادة المحرقة فهي الذكور من الحيوانات فقط ، العجل والثور والحمل والكبش وتيس المعز (احبار

---

١) Cf. A. MADEBIELLE, dans *Supplément au dict. de la Bible*, art. *Expiation*, t. III, col. 29.

٢) Cf. A. MADEBIELLE, art. cité, col. 55.

وان ما يسترعي النظر في هذه الطقوس التكفيرية هو الدور الخطير الذي يشغله الدم . فالدم بمعتقدهم هو شيء مقدس لأنه نفس (تثنية الاشتراع ١٢/٢٣) . ولهذا خير ما يصنع الاسرائيلي عندما يقترف ذنباً ما ان يريق دم الذبيحة على مذبح الله تكفيراً عن ذنبه ، بحيث يستبدل بحياته حياة اخرى . « لأن نفس الجسد هي في الدم ولذلك جعلته لكم على المذبح ليكفّر به عن نفوسكم لأن الدم يكفّر عن النفس » (أحبار ١٧/١١) .

وكان ايضاً مفروضاً على الشعب الاسرائيلي بكامله ان يقدم ذبيحة تكفيرية لله عن مآثمه في كل سنة (احبار ١٦) . فكان رئيس الكهنة يدخل قدس الاقداس وينضح بدم الذبيحة الصفيحة الذهبية الموضوعة فوق تابوت العهد طالباً من الله البرارة له وللشعب . اما الذبيحة الكبرى التي كان يقدمها الشعب الاسرائيلي لله باحتفال بالغ في الرابع عشر من نيسان في كل سنة ، فهي دون ما ريب ذبيحة الفصح ، تلك الذبيحة التي كانوا يقرّبونها احياءً لذكرى خروجهم من دار العبودية بمصر وارتباطهم بعهد ابدي مع الله خالقهم ومنقذهم (خروج ١٢) .

الا ان فكرة الذبيحة قد اخذت « تتروحن » (تصبح روحية) فيما بعد في اسرائيل

١٦ و ٢٣) . وكانت المحرقة تفرض على الشعب في أعياد الفصح والمظال والتكفير والهتاف (احبار ٢٣/٨، ٣٦- عدد ٢٩/٢) .
وكان الافراد يستطيعون ايضاً ان يقربوا ذبائح المحرقات بمناسبة رتبة نالوها كالكهنوت مثلاً (احبار٨/١٨) او وفاء نذر (عدد ٦/١٤) أو شكر على نعمة ما (خروج ٢٠/٢٤) .

ب – ذبائح السلام (شليم ، شلميم)
لا فرق فيها بين ان يكون الحيوان ذكراً او انثى . فقد كان دمه يرش على المذبح وكان الكهنة والشعب يأكلون لحمه .

ت – ذبائح الخطأ (حطاها)
كانت تقرب تكفيراً عي إثم ارتكبه الانسان وكانت تختلف باختلاف الخطأة . فاذا كان الخاطىء كاهناً ممسوحاً فالذبيحة تكون ثوراً من البقر . ينضح دمه على المذبح وتحرق احشاؤه على المذبح ويحرق ما تبقى منه خارج الهيكل .
واذ كان الخاطىء جماعة الشعب فالذبيحة تكون عجلاً من البقر . اما اذا كان رئيساً مدنياً فالذبيحة تكون عندئذ تيساً من المعز .

ث – ذبائح عن الجرائم (اسان)
والذبائح التي كانت تقرّب عن جرم اقترفه انسان (مثلاً اغتصاب شيء مختص بيهوه إله إسرائيل، او شهادة زور او سرقة وما الى ذلك) فهي مقتصرة على كبش من الغنم .
اما كيفية تقريبها فهي شبيهة بذبائح الخطأ .

لا سيما على عهد الانبياء . فاصبحت عاطفة روحية ، انسحاقاً وندامة في القلب ، اكثر منها اراقة دم الحيوانات على المذابح . هكذا شجب صموئيل النبي ذبائح شاول الملك لعدم تقيّده بمراسم اللوترجية فقال له : « ان الطاعة خيرٌ من الذبيحة والاصغاء افضل من شحم الكباش » (ملوك ١ : ١٥/٢٢) . وصاحب المزمور الخمسين يقول من جهته : « انما ذبائح الله روح منكسر» (مز ٥٠/١٩) .

ثم قام اشعيا النبي واعلن لاسرائيل استياء الله من تصرفاتهم واستنكافه من قبول ذبائح الحيوانات وايثاره عليها طهارة القلب وخلوص النية واعمال البر والاحسان .(اشعيا ١/١١—١٧) .

ولما لم يعد بمقدور اسرائيل ان يقدم ذبيحة تكفيرية مرضية عزم الله على انقاذ البشر بنفسه وتحريرهم من عبودية الخطيئة فعهد الى ابنه الوحيد ، الكلمة ، ليقوم بتلك المهمة ، فنزل الأبن عند رغبة الآب وقد رآه صاحب المزامير يقدم ذاته طوعاً واختياراً ذبيحة افتدائية خلاصية عن الآخرين قائلاً لأبيه : « ذبيحةً وتقدمةً لم تشأ لكنك ثقبتَ أذني ولم تطلب المحرقات ولا ذبائح الخطيئة ، حينئذ قلت هاءنذا آتٍ فقد كُتِبَ عني في درج الكتاب لاعمل بمشيئتك يا الله . اني في هذا راغب وشريعتك في صميم احشائي» (مز ٣٩/٧) .

المسيح ذبيحة حب خلاصية

لما كانت الغاية الاولى من تجسد ابن الله يسوع المسيح التكفير عن معاصي البشر ومصالحتهم مع الله عن طريق الطاعة والمحبة ، بات من المقرر ان يمضي بطريق طاعته ومحبته حتى ذبيحة حياته . وهل من طاعة اكمل ومحبة اسمى من تقدمة النفس وبذل الذات بحيث تردُّ الخليقة الى الخالق الحياة التي تسلمتها منه وتبادل حبه العظيم بحب مماثل مُقرّةً له بسلطانه المطلق عليها ولصنيعه نحوها . ألم يقل السيد المسيح نفسه : « ما من حب اعظم من هذا ان يبذل الانسان نفسه عن احبائه (يو ١٥/١٣) .

والقديس يوحنا اقرب المقربين الى يسوع المسيح ، التلميذ الحبيب ، الذي اطّلع اكثر من سواه على سره ودخلته واول من قابل ما بين الخلق الاول الذي جرى في الكون والذي وصفه موسى بسفر التكوين في التوراة في الفصل الاول حيث قال : « في البدء خلق الله السماوات والارض الخ ... » والخلق الثاني الذي تجدّد بواسطة الكلمة ، المسيح : فقال : « في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة

الله الخ .. » (يو ١/١) وانهى مقابلته بتلك الكلمات : « لان الناموس أُعطي بموسى واما النعمة والحق فبيسوع المسيح حصلا » (يو ١٧/١) ، هو نفسه اظهر في بدء انجيله ان المسيح جاء ليفتدي العالم ويخلصهم بذبيحة حياته . ولهذا ذكر كلمة ونبوءة يوحنا المعمدان عنه لما عرّف به تلاميذه : « هوذا حمل الله ! » (يو ٢٩/١) وما الحمل ان لم يكن ذبيحة وضحية ؟ وكشف في نهاية انجيله سر نجاح مؤامرة الكهنة والشيوخ على قتله وذكر نبوءة قيافا رئيس الكهنة آنئذ عن ضرورة صلبه . « فقال لهم واحد منهم اسمه قيافا وكان رئيس الكهنة في تلك السنةً انكم لا تعرفون شيئــاً . ولا تعقلون انه خير لكم ان يموت رجل واحد عن الشعب ولا تهلك الأمـة كلها.ولم يقل هذا من « تلقاء نفسه إذ كان رئيس الكهنة في تلك السنة تنبّأ ان يسوع كان مُزمعاً ان يموت « عن الأمـّة وليس عن الأمـّة فقط بل ليجمع ايضاً ابناء الله المتفرّقين الى واحد » (يو ١١/٤٩—٥٢) .

والقديس بولس علّم هو ايضاً من جهته ان ذبائح التكفير المفروضة من قبل الناموس قد بطلت لعدم فائدتها واستبدلت بها ذبيحة ابن الله يسوع المسيح : « اما المسيح الذي قد جاء حبرًا للخيرات المستقبلة فبمسكن اعظم واكمل لم يُصنَع بايد اي ليس من ذلك البناء وليس بدم تيوس وعجول بل بدم نفسه دخل الاقداس مرةً واحدةً فوجد فداءً ابدياً لأنه ان كان دم تيوس وثيران ورماد عجلة يُرَش على المنجسين فيقدسهم لتطهير الجسد فكم بالاحرى دم المسيح الذي بالروح الازلي قرّب نفسه لله بلا عيب يطهر ضمائركم من الاعمال الميتة لتخدموا الله الحي ولذلك هو وسيط لوصية جديدة حتى انه بواسطة الموت لفداء المعاصي التي جرت في عهد الوصية الاولى ينال المدعوون موعد الميراث الابدي ... وكل شيء تقريباً يُطهـّر بالدم على حسب الناموس ولا مغفرة الاّ بسفك الدم . اذن لا بدّ من ان يومئ الى السماويات يُطهـّر بهذه الاشياء اما السماويات نفسها فبذبائح افضل من تلك . لأن المسيح لم يدخل الى اقداس صنعتها الايدي رموزًا للحقيقة بل دخل الى السماء بعينها ليتراءى الآن امام وجه الله من اجلنا . ولا ليقرّب نفسه مرات كثيرة كما يدخل الحبر الى الاقداس كل سنة بدم غيره ... لكنه الآن برز مرة واحدة عند انقضاء الدهور ليبطل الخطيئة بذبيحة نفسه . وكما حـُتم على الناس ان يموتوا مرة واحدة وبعد ذلك الدينونة ، كذلك المسيح قـُرّبَ مرةً ليتحمل خطايا الكثيرين وسيظهر ثانيةً بلا خطيئة لخلاص الذين ينتظرونه » (عبر ٩/١١—٢٨) .

ولرب معترض يقول اننا لا نرى في محاكمة المسيح وصلبه حسب نصوص الاناجيل

تقدمةً وذبيحةً بل ثمة مجرماً سياسياً قُضي عليه حسدًا وانتقاماً . مسحوقاً سخرية من قبل البعض ومرذولاً من قبل الآخرين . اين طقوس الذبيحة وطابع قداستها ؟ اين جوّ الصلاة والبخور والعبادة الذي كان يكتنف ذبيحة الحمل الفصحي ؟ اين الكاهن الذي قرّبها وقدّمها ؟ ليس ثمة سوى جلادين قاموا بتنفيذ اوامر اسيادهم ، ومكان الشعب المتخشع وقت الذبيحة لا نرى سوى جمهرة من الرعاع والفضوليين الذين جاؤوا للتفرّج او للترنح بمرأى الألم .

على هذا الاعتراض نجيب ونقول ان وراء هذه المظاهر الدامية وتلك الميتة المفجعة طابع الذبيحة الحقيقية المقدسة بما سبقها وتقدمها من الاستعدادات البعيدة والقريبة في نفس يسوع المسيح . اما الاستعدادات البعيدة فلأن المسيح كان قد صارح تلاميذه اكثر من مرة عن عزمه على الموت لاجل افتداء البشر واكد لهم ان هذه هي الغاية الرئيسية من بعثته ورسالته (متى ١٦/٢١ و٢٠/١٨ مر ١٠/٣٢ يو ١٢/٢٧) . وكان يستعد دوماً لهذا الحدث ويقرّب نفسه مسبقاً ذبيحة طوعية لله ابيه. واما الاستعدادات القريبة فلانه في الليلة التي سبقت آلامه بقليل ، تناول عشاء الفصح مع تلاميذه لآخر مرة بجو خاشع للغاية وفي اثناء ذاك العشاء أسس سر الأفخارستيا او ذبيحة الافخارستيا الرمزية حيث بادر فقدم ذبيحة حياته لابيه حينما ناول تلاميذه كأس الخمر قائلاً : « اشربوا من هذا كلكم هذا هو دمي العهد الجديد الذي يُهراق عنكم وعن كثيرين لمغفرة الخطايا » (متى ٢٦/٢٨ مر ١٤/٢٤ ، لو ٢٢/٢٠) .

فبهذه العبارة سبق فجعل ذبيحة الصليب التي كان مزمعاً ان يقاسيها ذبيحة مقدسة ، ذبيحة تكفير ورضى . ثم ان ذبيحة الافخارستيا التي احتفظ بها لهذه المناسبة لا معنى لها ولا قيمة لها الاّ بالنسبة الى ذبيحة الصليب الوشيكة التي تتخذ منها كامل استحقاقها. وكما يقول الأب دي لا تاي de la Taille اليسوعي[١] :

« في العشاء السرّي قدم يسوع المسيح تقدمة شكلية وتقدمة حقيقية ، تقدمة « شكلية من الخبز والخمر على شاكلة تقدمة ملكيصادق وتقدمة حقيقية من جسده ودمه . »

وفي صلاته الكهنوتية التي ختم بها العشاء السري والافخارستيا استعمل كلمة القربان والذبيحة حيث قال : « ولاجلهم اقرّب ذاتي ليكونوا هم ايضاً مُقدّسين بالحق » (يو ١٧/١٩) .

---

١) P. de la Taille, *Mysterium fidei: Elucidatio*, III, p. 36-37.

وقد ربط ذبيحة الافخارستيا بذبيحة الصليب الوشيكة وامر تلاميذه ان يجدّدوها الى ابد الدهور « اصنعوا ذلك لذكري حتى مجيئي » (لو ٢٢/١٩ — كور ١ : ١١/٢٥ لا ليمنحها استحقاقات الصليب ونفاذه فحسب بل ليجعلها تجديداً رمزياً لذبيحته الى منتهى الدهر فيتسنى لكل انسان ان يفيد منها ويقرّبها بدوره لله قربان تكفير ورضى لاجل خلاصه .

اما الكاهن والذبيحة في الصليب فهما السيد المسيح نفسه ، هو كاهن وذبيحة معاً ، كاهن لأنه تقلّد سلطان الكهنوت منذ اتحاد لاهوته بالطبيعة البشرية فأصبح وسيطاً ما بين الله والبشر اي كاهناً ؛ وذبيحة لأنه قدم ذاته طوعاً واختياراً ، وقد تأنس وجاء الى ارض البشر خصيصاً لاجل تلك الغاية (يو ١٠/١٧ — ١٩ و ١٢/٢٧).

واخيراً طابع الذبيحة يظهر بكل جلاء في تسليمه روحه بين يدي ابيه وبقبوله تلك الميتة المؤلمة بعد ان غفر لصالبيه حين قال : « يا ابت في يديك استودع روحي » (لو ٢٣/٤٦) .

موت الاله

المسيح الاله مات موت المجرمين على خشبة الصليب . لكن العقل البشري ليثور لمجرّد التفكّر في هذا الواقع المرير . اله يموت ! هذا ما شقّ على حكماء اثينا التسليم به ، وحسبه اليهود المنتشرون في جميع انحاء الامبراطورية الرومانية ضرباً من الجنون مما انطق بولس الرسول بقوله : « نحن نبشر بالمسيح مصلوباً عثرة لليهود وجهالة للامم » (كور ١ : ١/٢٣) . وان ما رافق موته من خوارق ، وقد اظلمت الشمس لدن اسلم الروح وانشق حجاب الهيكل وتفتحت القبور واستولى الرعب على الجنود فطفقوا يقرعون الصدور قائلين : « بالحقيقة ان هذا كان ابن الله » (متى ٢٧/٤٥) ، ان كل هذا ما كان الاّ ليزيد في الدهش والاستغراب .

لكننا نحن المسيحيين لا نستغرب هذه الحقيقة عندما نعرف ان المسيح لم يمت بوصفه الهاً — فالاله لا يموت — لكنه مات بوصفه انساناً وليس في موت الانسان ما يدعو الى الاستغراب . وقد ارتضى المسيح الموت طوعاً تمجيداً لأبيه السماوي وافتداء لبني البشر . وقد سبق فخاطب اباه بلسان داود النبي فقال : « ذبيحة وتقدمة لم تشأ لكنك ثقبت اذنيَّ ولم تطلب المحرقات ولا ذبائح الخطيئة . حينئذ قلت هأنذا آت فقد كتب عني في درج الكتاب ، لأعمل بمشيئتك يا الله. اني في هذا راغب وشريعتكَ في صميم احشائي » (مز ٣٩/٧) . وقد اورد بولس الرسول هذه الآية الاخيرة في رسالته الى

العبرانيين (٧/١٠) فألمع فيها الى تطوّع المسيح ليكون ذبيحة تكفيرًا عن خطايا الناس. واشار المسيح في انجيله الى ذلك فقال : « من اجل هذا يحبني الآب لأني ابذل نفسي لآخذها ايضاً . ليس احد يأخذها مني ولكني ابذلها باختياري ولي سلطان ان ابذلها ولي سلطان ان آخذها ايضاً . هذه الوصية قبلتها من ابي » (يو ١٠/١٧) .

لقد قرّب المسيح لله ابيه هذه الطبيعة البشرية التي اتخذها من احشاء امه العذراء تكفيرًا عن اخوانه البشر واسترضاءً لله ابيه السماوي لا يحدوه على ذلك الاّ حبه لهم .

سر الفداء على انوار العقل

هل كان ضرورياً ان يفتدي الله الانسان بنفسه ويتجشم كل هذه المتاعب التي تحملها المسيح على الصليب؟ اما كان بوسع الانسان ان يكفّر عن ذنبه ؟ هل من المعقول ان يتحمل الله تبعة جهالة الانسان ويقوم بمثل هذا الفداء الخطير على هذا النحو ؟

لقد حاول العلامة الافريقي الكبير القديس اغسطينوس[1] ومن بعده لاهوتيو القرون الوسطى وفلاسفتها كالقديسين انسلموس وبرنردوس وتوما الاكويني ان يعالجوا تلك المشكلة على انوار العقل ويعللوا معطيات الوحي بهذا المضمار تعليلاً فلسفياً فأجمعوا على ضرورة الفداء من قبل الله لا من قبل الانسان وذلك للاسباب التالية :

ان سقوط الانسان بالخطيئة مفاده الخروج على النظام الاول الذي سبق الخطيئة اي الانفصال عن الله ، خسران حياة النعمة ، (حياة الله في النفس) وبالتالي الانتحار الروحي . لقد خسر الانسان مبدأ الحياة الروحية (حياة النعمة) الذي تلقاه من غيره ، من الله ، وقتل نفسه فلا يستطيع ان يسترجعه لأنه فوق طاقته ، وهل يستطيع المنتحر ، مهما أسف وندم على غلطته ، ان يعود الى الحياة بمجرد قواه ؟ الخطيئة انتحار اي كارثة لا يستطيع الانسان ان يصلح او يعوّض اضرارها بنفسه . هو الله وحده مبدع الحياة يستطيع اذا شاء ان يعيد مبدأ الحياة الروحية الى الانسان ، لقد منحه اياه مجاناً وهو قادر ان يعيده اليه مجاناً . لهذا فبادرة الفداء لن تأتي الاّ من الله بطريقة مباشرة ومجانية . ولحسن طالع الانسان ، بما انه في دنيا الامتحان والتجربة ، يستطيع ان يستدر العطف الالهي وان يقبل منه نعمة الفداء المجانية ، خلافاً للملاك الذي انتحر هو ايضاً روحياً

١) القديس اغسطينوس اسقف ايپونه .

واصبح شيطاناً واستحال عليه اصلاح اضرار الكارثة التي حلّت به . اضف الى ذلك ان الانسان الاول لم يُسيءْ بخطيئته الى نفسه وحدها فحسب بل اساء الى الأسرة البشرية كلها التي كان يمثلها بشخصه ويحمل فيه بذور نعيمها وشقائها ، بل قل انه اضرّ الطبيعة البشرية نفسها التي وصمها بوصمته وجرحها مؤبداً بجراحه ، ولهذا ليس في وسع الانسان الفرد المخلوق ، مهما عظمت برارته وسمت قداسته ، ان ينال مغفرة الخطايا والمصالحة مع الله له ولجميع ابناء جنسه معاً ، تلك بادرة تعود الى الله وحده . هو وحده كان قادراً ان يفتدي البشر ويصالحهم معه كما فعل بواسطة ابنه الوحيد يسوع المسيح .

١ — ويشرح القديس انسلموس نظريته بهذا الصدد قائلاً :

على كل مخلوق ان يخضع لخالقه وان يُقرّ له بسلطانه المطلق عليه ويؤدي له الاكرام الواجب له . وعندما يتخلف الانسان عن اتمام واجبه يرتكب دَيْناً نحو العدل الالهي فيضطر الى معاقبته لكي يعود النظام الى مكانه والحق الى نصابه . والتعويض يقوم بان يعيد الانسان الى الله مجده السليب . غير ان الانسان وحده عاجز عن اداء هذا الواجب بسبب الخلل الجسيم الذي احدثته خطيئة آدم أبيه الاول في كامل الطبيعة البشرية فاصبح ثمت من المستحيل ان يبرر الخاطئ خاطئاً آخر . فلستَ قادراً بعدئذ على التعويض ما لم تأتِ بعمل اصلاحي يفوق بصلاحه الخلل الذي احدثته بخطيئتك. وهذا لما يفوق قدرتكَ ، قدرة المخلوق . وما من احد يستطيع ان يقيلك من عثرتك غير الله وحده . وبما انه تعالى قد خلق البشر تكرماً منه وجودةً ومحبةً مجانية ، كان من الضروري ان يتابع عمله هذا المجاني ويصلح ما افسده البشر ، فكان امر التجسد والفداء حيث صار ابن الله ، الكلمة ، بشراً ولبس الطبيعة البشرية ما خلا الخطيئة لكي يأتي باعمال استحقاقية واصلاحية تفوق قدرة البشر ويعوّض بذلك عما سببته الخطيئة في طبيعتهم من الخلل والضرر »[١] .

ب — اما القديس برنردوس الذي كان متشبعاً من الكتاب المقدس وآباء الكنيسة اكثر من القديس انسلموس فقد عمد الى تعليل طريقة الفداء من وحدة المسيح والبشر في الكنيسة (جسد المسيح السرّي) فقال :

---

١) St. ANSELME, *P.G.* 158, 359-432.
Mélanges Mandonnet, 1930, Vrin, t. 2, p. 66-78.
McIntyre, *St. Anselm and his criticis*, p. 117-120.

« الرأس والاعضاء هم مسيح واحد . فالرأس كفـّر عن الأعضاء فنلتُ نعمة
« البرارة من شخص آخر كما سرى اليّ داء الخطيئة من شخص آخر. هو شخص
« آخر جعلني خاطئاً وشخص آخر أعتقني وبررني من الخطيئة .

فكما ان جميع الذين وُلدوا بآدم يموتون فجميع الذين وُلدوا بالمسيح يحيون . اني لمرتبط بالاول وبالثاني ؛ اني مرتبط بآدم بحسب الجسد ومرتبط بالمسيح بحسب الايمان. كنت موبوءاً بميول الخطيئة الاصلية ولكني اصبحت مملوءاً من نعمة المسيح المبررة . اجل لماذا يُنسب اليّ فساد الطبيعة اللاحق بي من ابليس المُفسد ؟ بسبب الولادة وقد تبررت بالولادة الثانية (المعمودية) . فهي وان تكن ولادة روحية فالروح لهـا السيادة والغلبة على الجسد . والولادة الروحية الثانية أكثر فائدة من الاولى ضرورةً . ولكن لماذا كانت آلام المسيح فائضة هكذا ؟ ألم يكن لديه تعالى وسائل غير هذه لخلاص البشر ؟ نعم ، ولكن هذا لا يقلل من نفاذ هذه الوسيلة التي استعملها ووجدها اجدى فائدة لشفائنا من بؤسنا . ليست مسرّة الله في الموت بل في ارادة من يُقدّم ذاته عفواً الى الموت ، فالآب السماوي لم يطلب دم ابنه ولكنه قبله عندما قدّمه باختياره . لم يكن الله شديد الرغبة في سفك الدماء ولكن في خلاصنا ولأن خلاصنا سيتم بدم ابنه . ولكن ما هذا الشكل من العدل حيث البريئ يموت عن المجرم ؟ ليس ذلك من العدل ولكن من الرحمة والرأفة وهذه الرحمة والرأفة لا تتنافى والعدل[١] .

ت — يشرح القديس توما الاكويني نظريته بهذا المضمار على الشكل التالي :

« كانت الغاية الاولى من التجسد الالهي افتداء البشر وكان في وسع الله ان يخلص
« البشر بغير هذه الطريقة غير انه رآها انجع فائدة لشفائنا من بؤسنا ، كما سبق للقديس اغسطينوس أن قال ذلك أيضاً بهذا الصدد . .

« ولكن من جهة اخرى كان من الضروري ان يهيئ الله خير البشرية الحقيقي . والحال ان الايمان بالحقائق السماوية غير المنظورة والرجاء بالخيرات الابدية ومحبة الله ، كل ذلك اصبح راسخاً وموطداً في البشرية بعد التجسد الالهي ، لأن الله اصبح بشراً ليخاطب البشر بلغتهم ويظهر لهم حبه وعطفه ويتقبل منهم حبهم مقابل حبه لهم . ثم ان الجسد من دأبه ان يشرك البشر في الالوهية ، ولعل هذا هو خيرهم الاكبر وسعادتهم القصوى. وهذا ما عبر عنه القديس اغسطينوس لما قال: « صار الله انساناً لكي يصبح الانسان إلهاً » (عظة ١٢٨ عن الميلاد) . واخيراً لم يكن التجسد باقل اهمية منه كي

١) St. Bernard, *Tractatus de erroribus Abœlardi*, VI, 15-16.

يزيل الشر المسلّط على البشرية ويظهر سمو الطبيعة البشرية عندما تكون متحدة بالالوهية ويهيب بنا كي لا نسفّلها بالخطيئة بعد ان اتحدت بالمسيح ، وهو يلقي علينا درساً بالتواضع يحررنا من الكبرياء ، المانع الاكبر للاتحاد بالله . واضف الى ذلك ان الانسان الاعتيادي مهما كان قديساً لا يستطيع ان يقدّم لله تعويضاً مقابل الصلاح الذي اتلفته خطايا البشر . لأن الطبيعة البشرية قد فسدت كلها من جرّاء الخطيئة حتى اصبح يستحيل معها على شخص فرد وعلى مجموعة اشخاص ان يرجّحوا بصلاحهم كفة الخير على الشر الذي الحقته الخطيئة الاصلية بالجنس البشري ، ولأن في الخطيئة شناعةً لا حدّ لها بالنسبة الى الله غير المتناهي المهان بها ، ولذلك لكي تأتي البشرية بتكفير او تعويض يعادل الشر الناجم عن الخطيئة يجب ان يكون في فعل التعويض من الاستحقاق بحيث يجعله كافياً للتكفير والتمحيص عن خطايا البشرية برمتها وهذ لا يمكن وجوده الاّ بالانسان الاله يسوع المسيح .

اما سبب الدور الذي يشغله المسيح الفادي فهو « نعمة الرأس » . اجل ، بناءً على التجسد الالهي واتحاد اللاهوت بالناسوت ، صار المسيح يحمل في نفسه البشرية النعمة المبررة باسنى جمالها ويملكها باكمل كمالها ، وقد وُهبته كمبدأ عام لاجل تقديس الآخرين ، كي تنتقل منه وتفيض عليهم . وهذه النعمة هي شخصية بالنسبة اليه ، وفي الوقت نفسه « نعمة الرأس » بالنسبة الينا نحن الاعضاء . لقد دُعي المسيح رأس الكنيسة نسبةً الى الرأس في جسد الانسان . اما الرأس في الانسان فيُنظَر اليه من ثلاث نواحٍ او وجوه : من جهة النظام والكمال والقدرة .

اما من جهة النظام فالرأس هو أول الاعضاء الرئيسية في الانسان ، لان الجسم يبتدئ به . ولذلك دُعي كل عمل مبدئي رأساً .

ومن وجهة الكمال ففي الرأس جميع الحواس الداخلية والخارجية . أمّا بقية الاعضاء فليس فيها الاّ حاسّة اللمس لا غير .

من وجهة القدرة فالرأس هو الذي يبعث في بقية الاعضاء الحركة والقدرة على العمل والتدبير ، ولهذا يسمّى قائد الشعب رأساً او رئيساً .

فهذه الوظائف الثلاث موجودة روحياً في المسيح رأس البشرية المتجددة . فهو نظراً الى قربه من الله قد اعطي اسمى نعمة واولها ، وان لم يكن ذلك في الزمن فاقلّه بهذا النوع ان الجميع قبلوا النعم بالنسبة الى النعمة المعطاة له ، كما جاء في رسالة القديس بولس الى الرومانيين : « كل الذين سبق وعرفهم ، سبق واختارهم ليكونوا شبيهين بابنه لكي يكون البكر ما بين اخوته » (روما ٨ / ٢٩) .

ونظراً الى الكمال فالمسيح حاصل على ملء النعم كما قال يوحنا : « رأيناه مملوءًا نعمةً وحقاً » (يو ١ /١٤) . واخيراً نظراً الى القدرة فالمسيح يستطيع ان يوزّع النعمة على اعضاء الكنيسة كما جاء في يوحنا : « ومن فيضه امتلأنا جميعنا » (يو ١ /١٦) . هكذا استطاع المسيح ، بكونه إلهاً ، ان يمنح بقدرته الشخصية النعمة والروح القدس للبشر ، واستطاع ، كانسان ، ان يمنح النعمة كاداة بيد الله ، إذ ان طبيعته البشرية هي اداة بيد طبيعته الالهية وهكذا تهيّأ لاعماله ان تكون خلاصية للبشر بقدرته الالهية بحيث اوجدت فينا النعمة بعامل الاستحقاق وبعامل العلة والمعلول معاً ..[1] .

اما عن الآم المسيح التي افتدانا وخلّصنا بها عن طريق التكفير والتعويض فقال القديس توما : « انه ليعوض عن الإهانة كل من يقدّم للشخص المهان ما يبتغيه لمحو الاهانة اللاحقة به. والحال ان المسيح ، بتحمله الآلام بحافز محبة وطاعة اختيارية ، قدّم لله أكثر ممَّا تقتضيه من التعويض خطيئة العالم بأسره ، سواءٌ اكان بداعي عظمة المحبة التي حدته على احتمال الآلام ام بداعي مقامه الحياتي الذي كان يضحي به بتعويضه — ومن المعلوم انه كان يضحي بحياة الإله المتأنس — ام بداعي مدى اهمية آلامه . وان قال معترض ان التعويض تعود تبعته على الخاطئ وحده فنجيب ان الرأس والاعضاء تؤلف انساناً ادبياً واحداً ، ولهذا فانّ تعويض المسيح الرأس يشمل الاعضاء[2] .

٢ — لِمَ الصليب

ان اول ما يتبادر الى الذهن عندما نقف امام الصليب انما هو هذا السؤال : لِمَ الصليب ؟ أما كان بامكان المسيح ان يفتدي البشر دون ان يقاسي هذه الآلام الفادحة وتلك الاوجاع الكاوية ؟ لكن الصليب كان ضرورياً للاسباب الآتية :

امثولة خالدة

مما لا ريب فيه ان المسيح كان باستطاعته ان يفتدي البشر ويصالحهم مع ابيه بكلمة واحدة ، او بفعل سجود بسيط يؤديه باسم البشرية جمعاء لأبيه السماوي . لكنه أبى الّا ان يتألم ليس لأنه مريض يتعشّق الألم ولا لأن اباه ظالم يطرب لمرأى الدماء ، وأية دماء ، دماء ابنه الوحيد، وما كان الله بسفّاح ظلوم، لكن الله الابن شاء مع

---

١) St. Thomas, IIIa pars q. 24, a. 4 — IIIa pars q. 8, a. 5 — IIIa pars q. 8, a. 1 — IIIa pars q. 8, a. 6

٢) St. Thomas, IIIa pars q.48.a.2.

الله الآب ان يعطي الناس امثولة خالدة في المحبة ، تبقى على الدهر ، وتحرّكهم على الندامة على ما اقترفوه من اثام وتحملهم على مبادلة الله المحبة.

لو كان الناس ملائكة ارواحاً بلا اجساد ، لما تكلّف المسيح عذاب الصليب ولكن الناس ارواح واجساد لا يتأثرون الاّ بما يقع تحت الحواس. ولهذا بدا لهم مصلوباً على صليب تغسله الدماء الحمراء فينطبع رسمه في خيالهم ويمثل وان غاب عن النواظر امام البصائر ، فيفهمون اذ ذاك خطورة المعصية وشناعة الاثم .

مظهر قيمة النفس

لقد حاول السيد المسيح ان يفهم الناس قيمة النفس الخالدة ؛ فوازن بينها وبين العالم بأسره فاذا بها اثمن قيمة من العالم بأسره فقال : « ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ام ماذا يعطي الانسان فداء نفسه » (متى ١٦/٢٦) . ووصف لهم ما ينتظر البار من جزاء والاثيم من عذاب دودُه لا يموت ونارُه لا تطفأ يرافقه بكاء وصريف اسنان (متى ٨/١٢ و ١٣/٢٤ و ٢٢/١٣ و ٢٥/٣٠) . لكن هذه التعاليم ظلّت قصية عن مداركهم وقلّما اهتزّت لها مشاعرهم ، فأتاهم بالصليب يظهر لهم قيمة النفس التي كلّفته دمه الذكي ، ويحدّثهم عن عدل ابيه في قصاص الخطيئة . وهل من حاجة الى القول ان المسيح اتى ليفتدي جميع نفوس الناس على اختلاف الازمنة والعهود دونما تمييز بين نزعاتهم والوانهم ومشاربهم ؟

ملخص الانجيل

ويوجز الصليب تعاليم الانجيل . لقد رأى الناس ، منذ فجر التاريخ ، كثيراً من الفلاسفة يطلعون عليهم بالجديـــد من النظريات ، ورأوا كثيراً من المصلحين يحاولون قلب النظم القائمة لينهضوا بالمجتمع الى مستوى ارفع ، ولكنهم قلما رأوا احد هؤلاء يشدّد في تطبيق تعاليمه على حياته كالمسيح . لقد وضع المسيح شرعة المحبة في رأس تعاليمه : « احبب قريبك كنفسك ... أحبوا اعداءكم ... ان لم تغفروا للناس زلاتهم فلا يغفر ابوكم السماوي زلاتكم ... » (متى ٥/٤٤ ؛ لو ٦/٣٢ ، متى ١٨/٢١) . واذا به وهو على الصليب يضع تعليمه هذا موضع العمل فنصغي اليه في رهبة وخشوع يقول في شبه لهاث : « اغفر لهم يا ابتاه لأنهم لا يدرون ما يصنعون » (لو ٢٢/٤٤) . أحب قريبه وبذل نفسه دونه . « وهل من حب اعظم من هذا وهو ان يبذل الانسان نفسه عن احبائه » (يو ١٥/١٣) . وعلّم المسيح الناس الصبر على الشدائد والتمرّس بالتضحيات . فالتضحية خير وسيلة لكبح جماح النفس الامّارة بالسوء وآمن طريق

للخلاص . فقال : « من اراد ان يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني » (متى ١٦/٢٤) . وعلّمهم ان يؤثروا الموت على معصية الله والاّ يخافوا من يقتل الجسد ولا يستطيع ان يقتل النفس (متى ١٠/٢٨) ، فشرب كأس العذاب والموت على الصليب (يو ١٨/١١) . وهكذا ابان للناس في جسده شناعة الخطيئة ، وقد جعلته جرحاً واحداً من رأسه الى اخمص قدميه . واذا كان هذا مصير البار فما عساه يكون مصير المجرم . « يا بنات اورشليم لا تبكين عليّ . ابكين بالحري على انفسكن وعلى اولادكن ... فانهم ان كانوا قد فعلوا هذا بالعود الرطب فماذا يكون بالعود اليابس » (لو ٢٣/٣١) . فالصليب انجيل مصغّر يوجز تعاليم المسيح بحيث ان من نظر اليه ذكرها في خطوطها الاساسية .

منهل قوة

كان الصليب اداة عذاب ورمز ذلّة وهوان ، وقد أصبح ، بعد ان مات السيد المسيح عليه ، منهل قوّة وعنوان كرامة ومدعاة فخار . يرمقه المسيحي بعين الايمان فيرى ينابيع النعم تتدفّق عن جنباته ؛ يراه الشباب فينهلون منه القوة على تحطيم ما كبّلتهم به اهواؤهم الثائرة من قيود ؛ وتتأمله العذارى في الاديار ودور الاحسان ومقر الاعمال ، فينشقن منه ضوع الطهارة والعفاف ، ويستقين روح البذل والعطاء في خدمة المتألم والمنبوذ ؛ يرنو اليه المريض في زفرة وانكسار ، فيستلهمه الصبر على معاناة ما برّح به من آلام ، واذا أزفت ساعة الرحيل يطبع عليه قبلة حرّى يغمض معها عينيه عن دنيا الشقاء ليفتحها على فجر ابديّ رحيب ؛ يرفع اليه المجرم بصره في حياء بعد ان استبدّ به اليأس وخنقه القنوط ، فيرتدّ عن يأسه وقد عاوده الرجاء بالحياة ؛ ويعود اليه العامل في العشيّ فيلقي على اقدامه ثقل النهار وينهل منه قوّة جديدة ليوم جديد ؛ وتختلس ربة البيت نظرة اليه في غمرة اشغالها المنزلية ، فتجدّد عزمها على المضيّ في طريق الجهاد ؛ ويخفيه الجندي بين طيّات اثوابه فيستشعر الشجاعة والاقدام في خوض غمرات العراك والموت ، والقلب غريب عن الاحقاد والنفس خالية من البغضاء ؛ ويستصحبه المرسل في مجاهل الارض في حلّه وترحاله ، يبثّه شكواه وهمومه ، ويقاسمه اثقاله واتعابه ، فتهون عليه الاثقال وتنقلب الشكوى على شفتيه ترنيمة عرفان جميل عميق . وهكذا يصبح الصليب في جميع مراحل الحياة منهل قوّة يستهيم المسيحيون بحبه بحيث يصبح في مقدور كل منهم ان يردّد مع باسكال « انني احب الصليب بسبب يسوع المصلوب عليه ، واحب يسوع بسبب صليبه الذي احتمله لاجلي ! »

ملحق ٣

موعد الفداء

هناك من يتساءل ويقول : لماذا تأخر موعد الفداء ولم يتمّ الآ بعد ان قطعت البشرية اشواطاً بعيدة ؟

جوابنا :

١ ـ ان الله لاماضي ولا مستقبل لديه انما هو في حاضر ابدي . فهو يرى عمل الفداء وكأنه ماثل امامه ابدًا . لهذا كان منذ نشأة البشرية يبعث برسل هداة يرشدون الناس الى طريق الصلاح، بحيث اذا ما لبّوا الدعوة ، وخضعوا للسنة الطبيعيّة واجابوا الى صوت الضمير ، تمكنوا من الافادة من نِعَم الفداء المقبلة. وهكذا تمكنت العذراء من الافادة من استحقاقات آلام ابنها سيدنا يسوع المسيح ، فعُصمت من الخطيئة الاصلية فكانت سلطانة الحبل بلا دنس . وهكذا باستطاعة الوثنيين الافادة من الفداء اذا هم لبّوا صوت الضمير ورعوا السنة الطبيعية وهم يعتقدون عن حسن نية ان دينهم هو الدين الافضل .

٢ ـ لو حاولنا ان نشرح تأخر موعد الفداء وفقاً لمنطقنا البشري ، لقلنا ان كبرياء الناس واعتدادهم بنفوسهم واعتقادهم انهم يستغنون عن الله ، كل هذا قد حال دون الاسراع في عمل الفداء ؛ وهناك اعتبار آخر وهو ان الدول ، قبل مجيء المسيح ، كانت مجزأة مبعثرة فلما أتى « السلم الروماني » ضمّ العالم القديم في دولة مهيبة الجانب ، قوية الشوكة . فلو اتى المسيح قبل ذاك الحين لما كان لاقى رسله من التسهيلات في نشر الدعوة للدين الجديد ما لاقوه في عهد روما .

٣ ـ امّا اوجه الاسباب لتأخر موعد الفداء فهو ما عبّر عنه الأب دي لوباك اليسوعي في كتابه : « الكثلكة » وجه ١٦٥ ، حيث قال :

تأخر موعد مجيء المسيح «لتستعدّ له الارض خير استعداد فلا يكون فقط ذاك الندى الذي ستقطره السماء انما يكون ايضاً ثمرة من ثمار الارض ونبتاً من نباتها . ولهذا يُدعى « ابن البشر » . لم يُرسل الى الارض برقاً خاطفاً ، انما نبتةً تساهم الارض في انباتها على مهل وفي تؤدة . وكان فوق ذلك على البشرية المنغمسة في الحيوانية والوثنية ان تشعر بمرارة ابتعادها عن الله ، لتتمكن من تذوّق حلاوة افتقاده اياها بارساله إليها ابنه متجسدًا في شكل انسان . ان طريقة الله في تهذيب البشر تستغرق الوقت الطويل . لهذا تأخر مجيء المسيح وموعد الفدا» .

ملحق ٤

مشكلة المسيح في التاريخ

شغلت مشكلة المسيح منذ القدم عقول المفكرين من مسيحيين وغيرهم ، فكان المؤيد وكان المفنّد . فمن قلسس (Celse) في القرن الثاني (١٧٧–١٨١ ؟) الى بولتمان (Bultmann) في القرن العشرين وهي على ما كانت عليه ، تُثير نقمة البعض وتنتزع اعجاب الآخرين ، ولا غرو فالمسيح ليس بشخص تاريخي فحسب انما هو شخص حي دائم سيبقى ابداً موضوع ايمان وشك للكثيرين «جُعِلَ لسقوط وقيام كثيرين في اسرائيل وهدفاً للمخالفة» كما سبق وقال عنه سمعان الشيخ بنبوءته للعذراء مريم امه (لو ٢/٣٤) . وهاكم معظم المذاهب الفلسفية واللاهوتية التي أثيرت وتكونت حول هذه المشكلة على توالي الزمن :

١ – المسيح والوثنية

كانت الوثنية ناشرة اعلامها في الخافقين قبل مجيء المسيح وكانت الدولة الرومانية تدين رسمياً بها ورعاياها يحسبون الامبراطور من سلالة الآلهة ، يقدمون له العبادة والاكرام الخليقَين بالإله . فجاءت المسيحية تدعو الى عبادة الاله الواحد وتنكر على الامبراطور صفة الالوهية وحق العبادة . ولهذا كان من البديهي ان يضطهد اباطرة روما المسيحيين اتباع الدين الجديد وان يعملوا السيف برقابهم ويجنّدوا قوى الوثنية كافةً لمناهضة المسيحية وقتلها في مهدها قبل انتشارها في العالم . فهبَّ رجال الثقافة والعلم وجرّدوا اقلامهم للذود عن حياض الوثنية دين الآباء والجدود المهدد بالانهيار ولمهاجمة المسيحية ؛ وكان في مقدمتهم قلسس (Celse) الاديب والفيلسوف الشهير . كتب كتابه « الخطاب الحقيقي » ما بين سنة ١٧٧ وسنة ١٨١ في اواخر عهد الامبراطور مرقس اوريليوس الفيلسوف . لم يصل الينا من هذا الكتاب سوى بعض مقاطع وُجدت في مؤلفات اوريجانوس علامة الاسكندرية الكبير كان قد ذكرها ليفنّدها ويدحضها .

كان قلسس شديد الكراهية للمسيحية . عاب على المسيح تواضعه واصطدم بفكرة صلبه لأنها لا تليق بإله . ثم رأى ان فكرة تجسد الإله نفسها لبعيدة عن المعقول ، لأنه يستحيل ان يهتم الله بدقائق الامور ويعتني بالبشر الى مثل هذا الحد .

ايولونيوس دي تيان (٣١٠–٣١٥) Apolonius de Tyane

وظهر بعد كتاب « الخطاب الحقيقي » لقلسس ، كتاب آخر عن حياة ايولونيوس دي تيان، ذاك الرجل الحكيم الفيثاغوري النزعة الذي عاش في القرن الاول للميلاد على عهد الامبراطور نيرون والذي ارادت الامبراطورة جوليا دومنة والدة الامبراطور كركلاّ ان تجعل منه حكيماً مثالياً وبطلاً اسطورياً مقابل المسيح لتحارب به المسيحية . كانت هذه المرأة قد استنفدت كل الحيل لمكافحة المسيحية فلم تفلح ولمّا تعذّر عليها ان تقاومها بفلسفة اسمى منها عمدت عند ذاك الى خلق رجل حكيم

اسطوري لتضعه مقابل المسيح فاوعزت الى فيلوستراتوس الكاتب لينسج لاپولونيوس دي تيان سيرةً مثالية فكانت تلك الاسطورة المعروفة بهذا الاسم. بيد ان تلك المحاولة لم تلاقِ ذاك النجاح المتوقع فباءت بالفشل .

فلاسفة الافلاطونية المستحدثة (٢٣٣–٣٦٣)

ثم جاء فلاسفة الافلاطونية المستحدثة المتأنسنون بالتأنسن الهلاّني واخذوا يحاربون المسيحية باقلامهم واقوالهم ، وكان في طليعتهم الفيلسوف پورفيريوس والامبراطور جوليانوس . كانوا يعتبرون الانسان مقياس كل شيء ولا يُقرّون بوجود ما يفوق قوى العقل البشري ولهذا كان من البديهي ان ينكروا وحي الانجيل وتعاليمه السماوية . نهج بورفيريوس بتهجمه على المسيحية نهج قلسس وميّز ما بين المسيح واتباعه وبين الانجيليين والقديس بولس الرسول فاصطدم بعدم مطابقة الانجيليين بعضهم على بعض في رواية الحوادث عن المسيح وقد فاته ان عدم مطابقتهم دليل قاطع على عدم تواطئهم ومن ثمّ على صدق مقالهم .

اما الامبراطور جوليانوس فكان متأثرًا بالافلاطونية الحديثة الى حد جعله يجحد الدين المسيحي الذي كان قد نشأ عليه ويدعو ثانيةً الى الوثنية.قام بحركة وثنية رجعية استخدم خلالها سيف الحكم للتنكيل بالمسيحية . وخلّف مصنفات جمّة بهذا المضمار ، الاّ ان رسائله وتعاليمه واوامره الصادرة ضد المسيحيين تبقى اكثر طلاوة من كل ما كتب . واليك بعض الشيء من نصوصها :

«يجب ان تصطادوا اثناثيوس مطران الاسكندرية وتطردوا ألوزيوس السيزيكي وتضطهدوا المسيحيين « بكل قواكم واذا اضطركم الامر الى تدمير مدينة بكاملها كمدينة الرّها بالنار والدم فلا تتردّدوا ... « لا تحاموا عن مدينة نصيبين اذا ما هاجمها الفرس يوماً لأنها تدين بالمسيحية . اصلوها حرباً لا هوادة « فيها على المسيحيين ، على امواتهم ايضاً ، احرقوا واهدموا الكنائس وصروح الشهداء منهم وانبشوا « قبورهم وبددوا عظامهم التي يكرمونها ولا تأذنوا لهم منذ الآن وصاعدًا بدفن امواتهم جهرًا »(١) .

وكتب رسالة اخرى يقول : « ان يسوع المسيح لإله مستحدث زعم انه تجسد وهذا منتهى الحماقة « لأن التجسد تنازل والتنازل لا يليق بالإله ، وزد على ذلك انه غير منظور . اما سكان الاسكندرية « الذين بسببه يمتنعون عن عبادة الشمس والقمر اللذين يُغدقانِ عليهم خيرات الارض فانهم حقاً « أغبياء »(٢) .

ان خطأ فلاسفة الوثنية والافلاطونية المستحدثة الاكبر من قلسس الى الامبراطور جوليانوس هو انهم يجهلون طبيعة الله وأنه تعالى كمال ، محبة وجودة وعناية اي خلق متواصل . وتناول الله لا يحط من قدره بشيء ، وعنايته بخلائقه في دقائق الامور تكبره بدلا من ان تحط من مقامه . اجل انه لمن صفات العظيم ان يحدب على الصغير ويرقّ له وقد يحدب عليه على قدر ما فيه من عظمة وتسامٍ

١) J. Ridez, *L'empereur Julien,* Œuvres complètes, 1,2; Paris 1924, p. 174.

٢) J. Ridez, *Lettres de l'empereur Julien*: lettres 115, p. 196-197.

وكمال . ولهذا فتجسده وافتداؤه للبشر دليل ساطع على محبته وجودته وشفقته وبالتالي على كماله اللامتناهي .

٢ – المسيح واليهودية

لقد اساء معظم علماء الكتاب في اسرائيل فهم رسالة السيد المسيح مدة حياته ونسبوا آياته ومعجزاته الى بعل زبوب رئيس الشياطين (مر ٣/٢٢ ، متى ١٢/٢٤ ، لو ١١/٥ ، متى ٩/٣٤) . وقد ازداد هذا الاعتقاد رسوخاً في اذهان البعض منهم لا سيما وانهم رأوا الكثيرين من ملتهم وشعبهم ينضمون الى صفوف تلاميذه واتباعه بعد قيامته من الاموات ويدخلون في كنيسته . وقد حاول الحاخام الاكبر جملائيل الثاني مع فريق من العلماء ، بعد نكبة اليهود الكبرى سنة ٧٠ وتدمير اورشليم على يد تيطس وتبديد شملهم في سائر الأقطار ، ان يدخل على « صلوات التسبيح اليومية » لعنات موجهة ضد جميع المارقين عن اليهودية وبنوع اخص ضد الداخلين منهم في المسيحية . غير ان العلماء والفلاسفة منهم بدّلوا وجهة نظرهم حيال المسيح على توالي العصور وتكلموا عنه باعجاب وثناء ، منهم الفيلسوف باروك سپينوزا (Spinoza) ١٦٧٠ الذي عدّه في موءلفاته اللاهوتية والسياسية وفي رسائله ، اعظم الانبياء قاطبة . وكان يعتقد ان الله تعالى قد افاض روحه على البشر وكلّمهم بروح يسوع المسيح ومن جملة اقواله : « نقدر ان نقول ان صوت المسيح هو صوت الله ، مثل ذاك الصوت الذي سمعه « موسى سابقاً ، وان حكمة الله الفائقة القدرة قد تجسدت بالمسيح واتخذت هيئة بشرية وان المسيح « اصبح ثمت طريق الخلاص للبشر . وبالجملة ان المسيح قد وقف على اسرار الله ومكنوناته وسبر « غورها وعبّر عنها بطريقة سامية نستطيع عندها ان ندعوه لا نبياً بل فم الله نفسه »[١] .

واخيراً هنري برغسون ، ذاك الفيلسوف الكبير الذي كان معجباً كل الاعجاب بالمسيح . لقد عرفه واحبه عن طريق دراسته للصوفيين او « الميستكيين » المسيحيين ، والقديسين ، الذين قال عنهم كلمته الخالدة : « يكفي القديسين ان يكونوا فان وجودهم دعوة الى الصلاح » . كان يعتقد ان اولئك « الميستيكيين » القديسين انما بلغوا درجة القداسة بفضل اتصالهم بالمسيح الذي يشكل بعرفه « قمة الكمال الروحاني » . كان منتهى وغاية البشرية بوثباتها الروحية نحو الخير والصلاح في ماضيها السحيق ، وسيبقى مبعثاً حياً لكافة العصور الميستيكية المقبلة . » لم ينف عنه الالوهية وقد رأى فيه الطريق الأوحد الأمين الواجب اتباعه للوصول الى الغاية القصوى . « كانَ للالوهية مالكاً حين كان غيره لها مُقلّداً »[٢] .

لم يعتنق المسيحية رغم اعجابه بها . وقد تضاربت الآراء حول اعتناقه الكاثوليكية لكن زوجته نشرت وصيته التي كتبها في الثامن من شباط سنة ١٩٣٨ بعد وفاته في ٣ كانون الثاني سنة ١٩٤١ .

---

١) *Tractatus Theologico-Politici*, ch. I et IV, B. Spinoza Opera. Ed. Van Vloten et Land, Leyden, I, p. 362-363; II, p. 7. — Lettre à H. Oldenburg, Epist. 75, 78. Ed. II, p. 414-416.

٢) Henri Bergson, *Les deux sources de la religion et de la morale*, p. 256.

ومنها يستبين انه في الواقع لم يعتنق المسيحية رغم يقينه ان اليهودية تمهيدٌ ومدخلٌ اساسيٌ لها. جاء في وصيته ما يلي[١] :

«لقد ساقتني ابحاثي اكثر فاكثر الى الكثلكة التي تكمل اليهودية تكميلاً حقيقياً. لكنني اشعر بموجة « اضطهاد عنيفة ، ستطغي على العالم في سبيل محاربة السامية . وقد بدأت تتكون هذه الموجة منذ « سنين كثيرة . لهذا رفضت اعتناق الكثلكة لكي اظل بين الذين سيضطهدهم المستقبل . ولكن « ارغب في ان يصلي على جثماني كاهن كاثوليكي اذا سمح بذلك اسقف مدينة باريس . واذا احجم « فلا ارى مانعاً من الاتيان بحاخام ، دون ان يكتم عنه ولا عن اي شخص آخر ، انني انضممت « ادبياً الى الكثلكة ، وان رغبتي الاولى ان أحصل على صلاة كاهن كاثوليكي . »

٣ – المسيح والاسلام

ليس للمسلمين رأي خاص في المسيح سوى رأي القرآن فيه . فالقرآن كتابهم الديني والروحي يُقر للمسيح «عيسى بن مريم » با نه وُلِدَ من أم عذراء بتول من غير زرع بشري باعجوبة من الروح القدس (سورة آل عمران ٣/٤٢)[٢] ، وانه نبيٌّ مدعو من الله ليقوم برسالة روحية (سورة مريم ١٩/٣١) ، وهو رسوله تعالى (سورة النساء ٤/١٥٦) مُقلّدٌ منه برسالة هي علامة ورأفة وقد اظهرها بمعجزات وبيّنات ، وان الله اعطاه سلطاناً يجري الآيات وان يشفي المرضى ويحيي الموتى (سورة آل عمران ٣/٤٣–٤٤) سورة المائدة ٥/١١٠) .

اما معاصروه فلم يقبلوه وقد قيل انهم قتلوه ولكنه شُبِّه لهم انهم صلبوه وقتلوه وفي الواقع استُبدِل به انسان شبيه له (سورة النساء ٤/١٥٦ وسوره آل عمران ٣/٤٨) .

وان الله رفعه الى السماء ولسوف يرسله يوماً الى الارض في منتهى الازمنة ليضع نظاماً في العالم ويهدي جميع البشر الى الله وليموت عند ذاك حقيقةً فيظهر ساعتئذٍ حكم الله وقضاؤه على البشر (سورة الزخرف ٤٣/٦١–٦٦) .

اعترف القرآن للمسيح بصفاته الروحانية « وجيه في الدنيا وفي الآخرة من المقرّبين الى الله » (آل عمران ٣/٤٠) ؛ وانه مبارك حيثما كان (سورة مريم ١٩/٣٢) . غير انه لم يذكر « عن حدث مرور

---

١) Henri Bergson, *Essais et témoignages recueillis par Albert Béguin et Pierre Theveney*, p. 11.

٢) « اذا قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا وفي « الآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين . قالت ربي انى يكون لي ولد ولم « يمسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب « والحكمة والتوراة والانجيل ورسولاً الى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين « كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وابرئ الأكمه والأبرص واحي الموتى بإذن الله وانبئكم « بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين » (سورة آل عمران ٣/ ٤٥–٤٩) .

هذا الشخص الفريد بنوعه على ارض البشر ، الشبيه بآدم ثان ، كلمة الله ، ولم يشرح كيف كان آيةً ونعمةً و رأفةً ما بين البشر وكيف كان مثلاً صالحاً وعظة حية » كما يقول مكدونال [١] .

اما المؤلفون والفقهاء فمنهم من عظم شأنه ودعاه المهدي المنتظر ومنهم كالمتصوفين من قد اعده وليًّا اي قديساً وخاتمة اولياء الله كما كان محمد خاتمة الانبياء » ؛ كذا الترمذي (توفي سنة ٨٩٨) الذي نرى لاول مرة تأثير الثقافة الهلينية والمسيحية في مؤلفاته. وهو يعطي الاولوية للولي او القديس على النبي ويدعو المسيح « خاتمة الاولياء » . وعقبه الحسين بن منصور الحلاج « الصوفي الشهير » ، المتوفّى في ٢٦ اذار سنة ٩٣١. فهو يعتقد ان المسيح وُلِدَ من الروح القدس وهو ممتلئ منه ومثال اعلى لكل قداسة. «ومتى خلا المتصوف من التعلق بالجسد حل عليه روح الله الذي وُلِدَ منه عيسى بن مريم . فهو آدم الثاني الذي سوف يرئس الحكم يوم القارعة . فهو وحده لا نظير له بين الخلق صدقاً واتحاداً بالله »[٢] .

اما المعتقد المسيحي فهو ان المسيح قد تخطى حدود النبوّة وقال بالالوهية وقد وضع ذاته امام امرين لا مخرج له منهما : فإمّا ان يكون نبياً قد انحرف عن دعوته ورسالته واغترّ بنفسه واصبح ثمت كاذباً ومضلاً ، وإما ان يكون صادقاً وجديراً بما ادّعاه . ولكن كيف يستطيع ان ينحرف عن دعوته ويتخطى نطاق رسالته ان كان الله قد انفذه لغاية معينة وهو كفيل وضمين لما سيتكلم عنه ويعمل به ؟ وهل انحرف موسى عن دعوته وخرج عن نطاق نبوّته ؟ وان كان قد ادّعى الالوهية وهو كاذب وماكر فلماذا يؤيده الله ويجري الآيات والمعجزات على يده ؟

٤ — المسيح والعقلانية (Le Christ et le rationalisme)

وظهر في القرن الثامن عشر فلاسفة المدرسة العقلانية الذين انكروا وجود كل ما وراء الطبيعة ومن ثمّ رسالة السيد المسيح التي من دأبها ان تُسعِدَ البشرية الى سعادة ابدية فائقة الطبيعة. ولم يقفوا موقفاً سلبياً وحسب بل ناصبوا المسيحية العداء وكانوا يعملون بمؤلفاتهم وحركتهم الفكرية على ملاشاتها. وقد اتخذوا لهم هذا الشعار : « لنسحقنّ الرجاسة »! وقد عنوا بذلك المسيحية . وكان في طليعتهم ڤولتير وديدرو وجان جاك روسو ودالمبير وغيرهم[٣]. فالمسيح، بعرف ڤولتير ، رجل قروي من الجليل بفلسطين، متأخر حضارةً شأن معاصريه لكنه يفوقهم ذكاءً ونفاذ بصيرة ؛ اراد ان يؤسس بدعة دينية ازاء بدع الاسينيين والفريسيين ، فاتخذ له تلاميذ اصغوا له المودة ثم حُكِم عليه بالموت صلباً . ولكن الافلاطونية المستحدثة الشائعة اوانئذ في حوض البحر المتوسط جعلت تلاميذه يوقنون بانه قام من الاموات . لكن التناقض المضحك فيّ حياة فولتير هو انه ، بعد ان حارب المسيحية والكنيسة سحابة عمره ، لما دنت ساعة اجله توسل بالحاح الى تلاميذه وذويه ان يستقدموا له كاهناً ليمنحه سر التوبة الذي رسمه المسيح نفسه . اما زميله ديدرو فكان يرسل ابنته الى مدرسة الراهبات لتتلقن مبادئ

---

١) B. D. Macdonald, *Isa*, dans *EI*, II, p. 560 a.

٢) Louis Massignon, *Al-Hallaj*, II, ch. XII, p. 739, 752-753.

٣) Voltaire, Œuvres complètes, de Lequieu, Paris 1821, XXVII, 1-174.

التعليم المسيحي . فلما سُئِل عن هذا التناقض في حياته قال : « انني لا أؤمن بالمسيح وكنيسته ولكني شديد الاعجاب بطهارة اخلاق الراهبات واريد ان تكون ابنتي يوماً امرأة شريفة ولهذا لا أرى بدّاً من تثقيفها وتنشيئها طبقاً لمبادئ الانجيل . » ولكن لو كان لديدرو منطق ارسطو وتوما الاكويني لكان قد ادرك ان الخلق الرفيع ليس سوى ثمار المعتقد وفعله في قلب الانسان الفرد وفي المجتمع ، ودليل ساطع على طابعه الالهي . فالاخلاقية لن تكون بمعزل عن المعتقد واليقين بل تعقبه كما تعقب الثمرة الزهرة ؛ ولهذا سبق للسيد المسيح ان قال : « لا تستطيع الشجرة الصالحة ان تثمر ثمرًا رديئاً ولا الشجرة الفاسدة ان تثمر ثمرًا صالحاً » (متى ٧/١٧) .

أمّا تناقضات جان جاك روسو في هذا المضمار فحدث عنها ولا حرج؛ فهي اوفر عدداً من تناقضات زميليه ڤولتير وديدرو. انه يؤمن من جهة بالوهية المسيح ومن جهة اخرى لا يؤمن بها .. ومن جملة أقواله : « الاناجيل هي من صنع البشر ، لكن بطل الانجيل يسوع المسيح هو فوق البشر .. واذا كانت حياة سقراط وميتته هي حياة فيلسوف حكيم وميتته فحياة يسوع المسيح وميتته هما حياة إله وميتته »[١] وقس على ذلك .

وبالجملة كانت الفلسفة العقلانية سلبية اكثر منها ايجابية وانشائية. ولهذا لم يتخطَّ نفوذها الحلقات المقتصرة على البعض من رجال الثقافة والعلم بالرغم مما استخدمه قادتها من النفوذ السياسي لدى ارباب الحكم في بروسيا وفرنسا واسبانيا لترويج مذاهبهم ، وما انزلوا بالكنيسة من صنوف التنكيل والاضطهاد سواء أكان من جهة الجمعيات السرّية الماسونية التي كانوا قد أنشأوها او جدّدوها لهذا الغرض ام من ناحية الثورة الفرنسية التي استغلوها واستمالوها الى جانبهم . فلا يكفي ان ينكر المرء وجود الله بل عليه ان يأتي ببيّنات تفحم العقل وتقنعه بان الله غير موجود ، في حين ان كل شيء في الكون يدعوه الى الايمان بوجود الله : الحركة التي تستلزم وجود المحرك الاول ، والمعلول الذي يستلزم وجود العلة الاولى ، والنظام الكوني الذي يستلزم وجود المنظِّم الاكبر وما الى ذلك ... ولا يكفي ان ينكر الانسان على المسيح طابع رسالته الالهي بل عليه ان يشرح سر تعاليمه وحكمته الفائقة المقرونة بقداسة وآيات خارقة وان يفنّدها ويدحضها ان استطاع الى ذلك سبيلاً . اما نكران الفائدة من تأسيس الكنيسة وفائدة وجودها على الارض فمفاده نكران الفائدة من رسالة المسيح عينها اذ ان الكنيسة ليست سوى علامة وجوده ما بين البشر وبالأحرى هي امتداد له ما بينهم ، يواصل من خلالها رسالته الخلاصية وينشر تعاليمه السماوية « ويعمل على جمع ابناء الله المتفرقين الى واحد »[٢] في اسرة واحدة كبرى ، الجسد السري الكبير ، ريثما ينقلهم الى ملكوت ابيه السماوي ليؤلفوا معه الكنيسة الظافرة . فالتاريخ يشهد على الخدمات الجلّى التي اداها المسيح وكنيسته للبشرية على توالي العصور من تثقيف وتطوير خلقي وعمراني ويدحض دون ما ريب مزاعم الفلاسفة العقلانيين الواهية .

---

١) F. Maurice Masson, *Profession de foi de Jean- Jacques Rousseau*, t. 2, p. 29.
٢) يو ١١ /٥٢

٥ – المسيح والمدرنيسم (Le Christ et le modernisme) (المحدثة)

ثم عقب الفلسفة العقلانية المُدرنيسم (المحدثون)، او حركة التجدد العصرية؛ هي مجموعة من السفسطات العصرية ادّعى اصحابها ان المعتقدات الدينية ضربٌ من الاساطير والخرافات ، وكان في طليعتهم الفيلسوف الالماني شلايرماخر Schleïrmacher الذي اعلن في مؤلفه «المعتقد المسيحي» الصادر سنة ١٨٢١–١٨٢٢ ان المسيح هو من متطلبات العقل الروحاني ومن مقتضيات الاختبار الديني وان المعتقد ليس سوى تعبير رمزي عن ذاك الاختبار . الاّ انه من ناحية اخرى يحترم المسيح ويجلّه ويرى فيه اسمى طريق للوصول الى الله .

اما زميله هيچل (Hegel) الذي لا يُقرّ بفلسفته الاّ بسُنّة التطور الجدلي الدياليكتيكي ، فالمسيح ، في زعمه ، يمثل اكبر حلقة في سلسلة التطورات البشرية .

وقد حذا حذو هيچل بهذا المضمار — وان بشكل آخر — اوغست سباتييه بفرنسا ودولف هرناك بالمانيا[١] . فالاول كان مدير المعهد اللاهوتي البروتستانتي في باريس ، وقد خلّف عدة مؤلفات عن المسيح منها « شهادة المسيح عن شخصه » سنة ١٨٦٣ ، « ويسوع الناصري » سنة ١٨٦٧ ، حيث أقر مؤمناً بالوهيته ؛ ومن اقواله بهذا الصدد : « هل المسيح انسان فقط ؟ ان اعتقدنا انه انسان فقط — ومهما قلنا انه متفوق بالسمو الروحاني — أحلنا المسيحية عند ذاك الى فلسفة لا غير ، « وافقدناها طابعها الروحاني كحقيقة مطلقة . وان كان المسيح ابن الله ، تبقى المسيحية وحياً إلهياً ؛ « ولهذا بعد تفكير طويل وتبحر دقيق ملتُ نهائياً الى جانب الرسل واراني اعترف واقول للمسيح مع « رسوله بطرس : « انت هو ابن الله الحي ! » (متى ١٦/١٦)[٢] .

ولكن لسوء الحظ لم يثبت اوغست سباتييه على هذا المعتقد لكنه تأثر فيما بعد بمذهب العقلانية وفلسفة هيچل ، ولا سيما بالابحاث العلمية التجريبية التي ارادت ان تُخضع الدين نفسه لناموس التجارب العلمية ، فعاد وناقض نفسه بكتابه المعروف « فلسفة الدين حسب سكولوجية التاريخ ١٨٩٦ » . فاصبح المسيح بمفهومه « رائداً كبيراً من روّاد البشرية ونبياً عظيماً يقود البشر « الى الله ... ظهرت فيه اصفى صورة للانسان المثالي الذين تلألأت فيه روح الله ... وما الى ذلك . » فدعي اوغست سباتييه بحق شيخ المُدرنيسم (شيخ المحدثين) .

اما ادولف هرناك فاعترف في اول امره بان المسيح « كان الطريق والوسيط الاوحد المؤدي الى « الله واعلن ذاته المحامي والديّان العادل للبشرية ... لم يعرف احد قبله الله الآب مثلما عرفه وقد كشف « تلك المعرفة للبشر وادّى لهم بذلك اكبر خدمة . قادهم الى الله لا بالقول فقط بل بالمثل فيما كان « وفيما عمل وفيما تألم وعرف ان يستفيد من الألم »[٣] .

---

١) اوغست سباتييه (١٨٣٧–١٩٠٢) ؛ ادولف هرناك (١٨١٧–١٨٨٩) .

٢) Eugène Lachenman, *Auguste Sabatier*, dans la *REP*, XVII, 1906, p. 278.

٣) Adolphe Harnack, *L'essence du christianisme*, trad. française, 1907, p. 175-176.

غير ان هرناك عاد كزميله اوغست سباتييه وتأثر بفلسفة هيچل وحسب المسيح رائداً للبشرية واكبر حلقة في سلسلة الانبياء او قادة الفكر والروح لا غير .

اما جوابنا لهؤلاء فهو هذا : ان كان المسيح نبياً واعظم حلقة في سلسلة الأنبياء وقادة الفكر والروح فقط فليس من المنطق بشيء ان يتوقف عنده التاريخ بل قد يمكن ان يقوم من البشرية رُوّاد وانبياء كثيرون في كل عصر ومصر الى ما شاء الله ، يكونون اعظم منه . ولماذا لا يكون ذلك ان كنا لا نرى فيه الحقيقة المطلقة التي ينتهي عندها كل شيء ، الإله المتأنس ، العناية والجودة والمحبة والرفق المتجسد ؟

وثمة نزعتان وبالتالي مدرستان في مذهب المُدرنيسم (المحدثين) ، المدرسة النقدية التي ترفع قدر المسيح وتُقرّ له بالفضائل والصفات الخارقة التي تكلّم عنها الانجيل ولكنها تحط من قدر رسله وتلاميذه الذين ألـّهوه ، وتحسبهم سخيفي العقل ، كذا رينان (Renan) ، والمدرسة الاسطورية التي ، عكس الاولى ، تحط من قدر المسيح وتحسبه اسطورة من اساطير التاريخ وترفع شأن التلاميذ بحيث تجعلهم رجال تفكير وتصوف واحلام استطاعوا ان يخترعوا شخصاً كالمسيح كان محط تكفيرهم واحلامهم كذا غوغيل وستراوس (Goguel et Strauss) [١] .

لقد احدث كل من كتابي رينان وستراوس ضجة كبرى في بادئ الامر في فرنسا والمانيا ، الاّ ان هذه الضجة ما لبثت ان خفت وتلاشت لما في آرائهما من المتناقضات التي لا تحصى ولا تُعدّ ...

ومن انصار المدرسة الاسطورية ، ألفراد لوازي (Alfred Loisy) الفرنسي التبعة . فهو يزعم من جهته ايضاً ان المسيح لم يكن يوماً سوى شخص وهمي حيكت حوله الاساطير والخرافات . ووجـّه اليه كل ما كان يحلم به البشر من تحرر وافتداء وخلاص . ومن اقواله : « ولطالما حلم البشر بان يعاينوا يوماً شخصاً ينوب عن الله على الارض ويدخلهم ملكوته السماوي ، فكان المسيح ، محط تلك الآمال . لكن يسوع الناصري لم يلبّ ، في الواقع رغبات البشر وآمالهم ولم يحقق امانيهم . رأى في الموت فرصة للدخول الى ملكوت السماوات . ولم يكن الموت عنصراً اساسياً من رسالة المسيح . لكنه جابهه مجازفةً . لم يُعرف عن موته سوى انه حُكم عليه بالموت صلباً على ايام بيلاطس البنطي الحاكم الروماني وقتئذ على فلسطين. وما تبقى فديانته تسربت اليها الاساطير ولعبت بها الميتولوجيا اليونانية ولا سيما اساطيرُ الديانات السرية » [٢] .

اما مزاعم قادة حركة المدرسة النقدية من رينان ورفاقه فواهية ، لأنها لا ترتكز على الواقع التاريخي. فالتلاميذ لم يؤلهوا المسيح لو لم يدّعِ هو نفسه الالوهية. ولم يسبق لاسرائيليين من قبلهم ان ألـّهوا انساناً كبيراً منهم . فهل ألـّهوا موسى رغم ما جاءهم من الآيات والمعجزات الباهرة ؟ وكيف اتفق لاكثر من مئة شخص من رسل وتلاميذ واتباع ان يتفقوا على رأي واحد وتعليم واحد لو لم تكن رسالة المسيح تقتضي ذلك ؟ زد على ذلك ان رينان نفسه ناقض ذاته اكثر من مرة وفي اكثر من موضع في

(١ M. J. Lagrange, *Le sens du christianisme dans l'exégèse allemande*, Paris 1918, p. 128-163.

(٢ Alfred Loisy, *Jésus et la tradition évangélique*, 1910, p. 162-168.

كتابه المعروف « حياة يسوع » . نفى عن المسيح الالوهية نفياً باتاً ثم عاد واضطر الى الاعتراف له بالقداسة والصدق والاخلاص والالوهية نفسها ، لا سيما عندما شهده يحدّث السامرية عند بئر يعقوب فيبوح لها بالعبادة الحقة قائلاً : « ستأتي ساعة وهي الآن حاضرة اذ الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق ... لأن الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي ان يسجدوا» (يو ٢١/٤) . امام هذا التصريح لم يتمالك رينان عن القول : « حقاً بدا يسوع هنا ابن الله لأنه نطق « لأول مرة بالكلمة التي يرسخ عليها اسّ الدين الخالد . لقد وطد اساس العبادة النقية التي تتسامى « فوق الازمان والأوطان والتي سوف تتمرس بها النفوس الرفيعة الى منتهى الدهر ، وقد اصبح دينه منذ « ذاك ، لا دين البشرية وحسب بل الدين على الاطلاق وان يكن ثمة كواكب آهلة باناس ذوي عقول واخلاق ، ما عدا الارض ، فلا سبيل لهم ان « يدينوا بدين يفوق سموّاً ذاك الدين الذي اعلنه يسوع المسيح على بئر يعقوب (حياة يسوع . طبعة رابعة ص ٢٣٤—٢٣٥) . ثم اردف على ما قال : « ان الدين الحقيقي يبقى ابداً من صنع يسوع المسيح وليس للبشر فما بعد الآ ان يشرحوا ما فاه به من مبادئ وتعاليم » (صفحة ٤٤٥) .

واعترف للمسيح بالقداسة فاردف على قوله : « سوف يبقى يسوع المسيح مبعث يقظة اخلاقية للبشرية لا يخبو نورها ، لأن الفلسفة وحدها لا تكفي معظم البشر فانهم بحاجة الى القداسة » (ص ٤٥١) .

وقد رفع المسيح فوق موسى وسائر الانبياء فقال : « لم يبنِ يسوع المسيح الدين على العرق والدم بل على القلب ومنذ ذاك الحين فاق موسى » (ص ٢٢٣) .

وقد هتف هتاف الاعجاب امام المسيح معلقاً على الصليب يلفظ انفاسه الاخيرة فقال : « ألا « ارقد الآن هانئاً في مجدك يا دليلنا السامي الى الله ! امّا الآن وقد تحررت من قيود الضعف ستشهد « من اعالي مقرك الالهي نتائج اعمالك اللامتناهية . ان العالم سيبقى مديناً لك الى آلاف السنين . « فيا علم التناقض ، ستكون الراية التي ستدور حولها اشد المعارك عنفاً . سوف تبقى حياً محبوباً بعد موتك « اكثر مما كنت في حياتك على الارض . سوف تبقى حجر الزاوية من البشرية بحيث يستحيل محو « اسمك من العالم دون ان يتزعزع الكون وينهار. فيا قاهر الموت الا استلم زمام ملكوتك حيث سبقك « مذ الآن على الطريق الملوكي الذي شققته ، آلاف من عبّادك » (ص ٤٢٦) .

فهتافات مثل هذا النوع ومناقضات من هذا الشكل هي ذاتها تفنّد مزاعم رينان وتظهر بطلانها. وكذا قل عن مزاعم غوغيل وستراوس ولوازي واتباع المدرسة الاسطورية الذين ينسبون حياة المسيح واعماله الى الاساطير والخرافات .

اجل ، كيف يكون اتفاقاً ان يبتدع اليهود فكرة مسيح مصلوب او يقبلوا فكرة مسيح مصلوب وهم الذين حلموا طوال الاجيال بمسيح زمني يملك على الدنيا ، ويحطّم تشامخ الشعوب عند اقدام اسرائيل ويُعيد لهم مجدهم التليد ؟ وكيف يكون اتفاقاً موت هذا المسيح لافتداء البشر وتحريرهم من ربقة الخطيئة، في وقت الفصح ، ليقوم مقام الحمل الفصحي ، الذبيحة السنوية التذكارية لتحرير اسرائيل من دار العبودية بمصر ،وتأسيسه طقساً وعبادة مشابهة لذبيحة الفصح في سر الافخارستيا ؟

وكيف رتّب ان يموت في اورشليم ولم يُكسر له عظم حسب طقس ذبيحة الفصح بينما اللصان اللذان صُلبا معه قد كُسرت سوقُهما ؟ ثم ان اسفار العهد الجديد ، الاناجيل واعمال الرسل، تضع يسوع المسيح في بيئة معلومة وتعطيه سُلالة ومهنة ودورًا يقوم به في إطار جغرافي محدود ، وتُظهِر لنـــا اشخاصاً عديدين يتماوجون ويتحركون حوله ويعايشونه ، تارة يصغون الى تعاليمه ويقبلونها دون تردد وطورًا يصطدمون فيشقّ عليهم سماعها ولا يذعنون لها الاّ بعد جهد جهيد ، وتسرد احداثاً معقولة جرت في زمن المسيح في حقبة تاريخية محلية معروفة .. فلو لم يكن لدينا سوى رسائل القديس بولس. ولو كان انجيل القديس يوحنا مقتصرًا على بعض خطب للكلمة الالهي المتأنس ، لكان اتباع المدرسة الاسطورية يجدون مجالا لدعم نظريتهم وادّعاءاتهم ، لكن الانجيل الواقعي ، الانجيل البشري الذي تتماوج اشخاصه وتتعاقب احداثه وتتشابك في إطار محلي معلوم ، كيف نستطيع ان نشرحه بمسيح الاسطورة دون مسيح التاريخ ؟ ثم كيف استطاعت الاسطورة ان تجدّد وتراجع وتصف بدقة وتفصيل ذاك العالم اليهودي – الروماني المُخبر عنه قبل سنة ٧٠ م والذي يصعب جدّاً تصوره وتمثله دون الواقع ، نظرًا الى وجود سلطتين محلّيتين متنازعتين فيه السلطة اليهودية والسلطة الرومانية واحزاب سياسية ودينية متعددة وانظمة وسنن مختلفة كاليهودية التي يحكمها اولا اركيلاوس بن هيرودس والتي يحكمها بعده مباشرةً حاكم روماني مرتبط بالمفوض السامي المقيم بسوريا ، في حين ان مقاطعة الجليل تخضع لحكم هيرودس انتيپاس رئيس الربــع الخاضع هو نفسه لحماية روما كما جاء ذلك في زمن ميلاد يسوع المسيح (متى ٢ ، لو ٢) وفي بدء كرازته بالانجيل (لو ٣) ، ولا سيما في نهاية حياته ومحاكمته اولا امام المحكمة اليهودية العُليا (السنهدريم) ثم امام الحاكم الروماني العام بيلاطس (متى ٢٧، مر ١٥، لو ٢٣ يو ١٨ و ١٩) .

ثم ان الاسطورة تهمل المعقول التاريخي اذ ان مؤلف الاسطورة عندما يبتدع إطارًا مشابهاً للتاريخ يتصور عند ذاك الماضي كالحاضر ، ولهذا تراه يضخّم ويُصغّر ويحذف ويرتّب كل شيء تبعاً لناموس الاسطورة فيجعلنا نعيش ثمت خارجاً عن الزمن . والحال ان حقيقة الجغرافيا المحلية التي كانت مسرحاً لسيرة المسيح ، كما وصفها الانجيليون ، كانت مطابقة للواقع التاريخي . وزدْ على ذلك ان حدث خراب اورشليم على يد تيطس سنة ٧٠ واحراق هيكلها وتدميره ، والقضاء مؤبدًا على طقوس العبادة التقليدية فيه كذبائح الفصح وغيرها ، وتشتيت اليهود في العالم منذ ذاك الحين ، لممّا يزيد قضية الاسطورة تعقدًا ويجعلها مستحيلة . فكيف يستطيع ، والحال هذه ، انجيلي كالقديس يوحنا ، قد كتب انجيله بعد سنة ٧٠ ، ان يتصور عالماً قضى وغار في لجج التاريخ ويبتدع إطارًا تاريخياً وجغرافياً جديدًا لانجيله كوصف اروقة الهيكل مثلاً حيث كان يسوع يلقي تعاليمه احياناً ويجري معجزاته ، وبركتي بيت حسدا وسلوان (يو ٥) والليتوستروتس وغيرها من الاماكن المكتشفة مؤخرًا بفضل علماء الآثار فيما لو كان انجيله اسطورة ؟ واخيرًا ان الاسطورة ابتداع شاعر او كاتب فرد لا شهادة مؤرّخ يسجل شهادة جمهور وجماعة منظمة لها رؤساء روحيون كالكنيسة . ومن المعلوم ان الانجيليين جميعهم يسجلون شهادة جماعة وجمهور لا شهادة انسان فرد، فلو كانت اناجيلهم لا تتفق وايمان جماعة المسيحيين الاولين لكانوا قد كذّبوها واحرقوها ولم تصل الينا . هذا فضلاً عن ان صاحب الاسطورة يعظّم بطل اسطورته بنوع انه ينفي عنه كل ضعف ولا يأتي الاّ على ذكر الامور الخارقة ، التي ينسبها اليــه ويرويها عنه ويسوقها بشاعرية أخـّاذة ويسبكها بعبارة ساحرة وانشاء سلس . في حين ان الانجليين

قد ذكروا مولد المسيح في مذود (لو ٢) ووصفوا خوفه وحزنه في بستان الزيتون (مر ١٤) ورووا امثاله البسيطة التافهة ، المأخوذة من مختلف الوان الطبيعة والبيئة المحلية : شاب هجر اباه وترك منزله الوالدي واتلف ماله مع الزواني ثم تاب وعاد الى البيت وقبله ابوه فرحاً (لو ١٥) ؛ امرأة رفعت دعواها الى قاضٍ لم ينصفها الاّ بعد ان ملّ من تشكياتها (لو ١٦) ؛ رجل مسافر وقع بين لصوص فعرّوه وجرحوه وسلبوه ماله واثخنوه جراحاً وتركوه ما بين حي وميت (لو ١٠) ؛ راع أضاع خروفاً فترك التسعة والتسعين الباقية وذهب يبحث عن الخروف الضال حتى اذا ما وجده حمله على منكبيه وجاء به الى البيت فرحاً (لو ١٥) ، وغيرها من الامثال التي تخلو من طلاوة التعبير وتنميق الانشاء المألوف في الأساطير .

فتاريخ المسيحية وأصلها لا تفسرهما الأساطير. لكن هناك شخصاً وُلِد وعاش وقام برسالة روحية في فترة محدودة من الزمن وفي حقبة من التاريخ وموضع جغرافي يعرفها الجميع ، يُدعى يسوع المسيح . كان كاملاً من اي ناحية اتيته ؛ اجتمع فيه ، في آن واحد ، بتناسق وتناغم عجيبين : تواضع في عظمة ، وداعة في جرأة ، عفاف وطهارة في مرونة وروح مجتمعية سمحاء ، تقدمية في محافظة على التقليد ، جودة ورفق ومحبة لا حد لها في عدالة منقطعة النظير . لن نستطيع ان نعلل شخصيته ولا ان نتقصّى دخلته ونقف على سرّه الاّ بالاعتقاد به إلهاً متأنساً — كما صرّح هو نفسه بذلك (يو ٣/١٦ و ١٤/٦) — جاء يغزو تاريخ البشر ويعايشهم فترةً من الزمن ليعلمهم كيف يسلكون كأبناء الله وكإخوة فيما بينهم .

هل تأثرت المسيحية بالديانات الوثنية السرية ؟

ويدعي « الفراد لوازي » (Alfred Loisy) بان المسيحية تأثرت وتفاعلت بالديانات الوثنية السرّية المنتشرة اوانئذٍ في الامبراطورية الرومانية وبلدان الشرق الادني، لا سيما في مصر وسوريا وبلاد فارس وفريجية ، حيث كانت طقوس العبادة تمثل على المسرح موت الآلهة وبعثهم تشجيعاً للراغبين في الانتساب الى تلك الديانات والطامعين بالبقاء والخلود . فتكون الديانة المسيحية اذن حصيلة من الديانة « الأورفية » L'Orphisme ، والفيثاغورية المستحدثة (Néophythagorisme) ، كذا « ذاغروس » (Zagros) الذي اكلته التيتان (Titans) ، و « كوره » (Coré) المنتقل الى وادي الموت ، و « اتيس » (Attis) الخصيّ ، و « ميترا » (Mithra) قاتل الثور ، و « ادونيس » (Adonis) (تموز) القتيل ، و « ديونسيوس » الذبيح ، وما الى ذلك . وهكذا مسيح بولس المحكوم عليه بالموت لمحو خطايا البشر ليس سوى نوع من تلك الاساطير وما تأثر به بولس انتقل منه الى باقي التلاميذ[١] .

ان افتراءات كهذه لباطلة لأنها لا تمت الى الحقيقة بصلة . فصاحبها انما ينظر سطحياً الى الامور ، فيدّعي ان القديس بولس تأثر اولا بتلك الاديان الوثنية السرية ثم أثّر بدوره في باقي التلاميذ . فهذا عكس الواقع ، اذ ان القديس بولس ، وان كتب معظم رسائله قبل ان يكتب الانجيليون اناجيلهم ،

---

١) L. de Grandmaison, *Jésus-Christ*, t. 2, p. 519.
J. Lagrange, *Attis et le Christianisme*, R.B. 1919, p. 447-449.

فانه لم يعرف السيد المسيح ولم يعايشه في حين عرفه التلاميذ وعايشوه . وان كانوا قد تأخروا في كتابتهم الاناجيل فانما كان ذلك عرضاً ولأن السيد المسيح لم يرسلهم اولاً ليكتبوا بل ليكرزوا بالانجيل في الخليقة كلها (متى ٢٨/٢٠ مر ١٦/١٥) . والقديس بولس نفسه كان يتردد من وقت الى آخر الى اورشليم ليعرض كرازته بالانجيل على التلاميذ خشاة ان ينحرف بتعليمه عنهم (غلاطية ٢/١—٢) . اما ان تكون كرازته قد تأثرت بالديانات الوثنية السرية فهذا ضرب من المحال اذ انه كان يعتبر الطقوس الدينية التي يقوم بها الوثنيون عبادة للشيطان (كور٢ :٦/١٤—١٦ وكور ١ :١٠/١٤ وتسالو١ : ١/٩) . وهو الذي كتب الى الكورنثيين « ان المسيح مات من اجل خطايانا على ما في الكتب » (كور ١ :١٥/٣) . كان يعلم يقيناً ان ميتة المسيح كانت حدثاً تاريخياً . ومن الادلة التي تبطل مزاعم « لوازي » ان المسيحيين كانوا يكثرون ويزدادون بقبولهم المعمودية باسم المسيح ، لا بالكشف السرّي المألوف في الديانات الوثنية السرّية . وكلمة (μυστήριον) سرّ، مأخوذة من سفر دانيال النبي (٢/١٨ و٢٧—٣٠) ومعناها سر حكمة الله وسر تدبير الله ، والقديس بولس استعملها بهذا المعنى اي سر تدبير الله الذي اخفاه طويلاً والذي كان قصياً عن ادراك البشر، ثم كشفه لهم موءخرًا بموت المسيح وقيامته وقد اصبح الآن في متناول الجمع حتى يجذبهم الى الطاعة والايمان (روما ١٦/٢٥—٢٦) . ولم تُستَعمل كلمة « سرّ » بمعناها الحالي ، للدلالة على اسرار الكنيسة السبعة ، الا عند آباء الكنيسة ابتداء من القرن الثاني .

فحوى طقوس الديانات السرية الوثنية[١]

وان انعمنا النظر في جوهر تلك الديانات السرّية الوثنية وعللناها تعليلاً منطقياً فماذا نرى ؟ وما هي تلك الآلهة التي ماتت وقامت من الاموات حسب معتقدات الميتولوجيا وخرافاتها ؟ اوزيريس ، ديونيسيوس ،واتيس . فهوءلاء ليسوا باشخاص تاريخيين انما ابتدعتهم المخيلة ووُضعوا في مستودع الميتولوجيا . وكثيرًا ما تكون اخبارهم وقصصهم مدعاة للفساد بدلا من ان تكون مدعاة لتقويم الاخلاق . وطقوس العبادة التي تكونت في تلك الديانات جميعها مستوحاة من الطبيعة التي تتعرى من خضرتها في فصل الخريف وتموت في فصل الشتاء ثم تبعث وتتجدد في فصل الربيع ، وهي مرتكزة على خصب الارض ؛ ولهذا فالالوهية النسائية تلعب الدور الرئيسي فيها . والالاهة لا تتخذ قريناً لها الاّ شكلاً فيكون بمثابة مستشار او رفيق او خدين لها يبقى في درجة احط منها ؛ كذا اوزيريس « بالنسبة الى الالاهة « ايزيس » المصرية ، و « اتيس » الاله الخصيّ بالنسبة الى الالاهة « سيبال »، و«ادونيس بالنسبة الى الالاهة « پروسپرين » (ڤينوس) . فاوزيريس يمثل ارض مصر الخصبة ومياه النيل الخيّرة ، حُكِم عليه بالموت في ساعة لم تكن بالحسبان وقُطع إرْباً إرْباً بأمر أخيه تيفون (Typhon) ريح الخمسين ، فقامت الالاهة إيزيس وجمعت اعضاءه المقطّعة وحنّطتها فاتاحت له بذلك ان يملك على مصر دون ان يعتوره الفساد في عالم الاموات . اما « ذاغروس » الاله الصغير ، ابن زفْس ، فقُتل هو ايضاً وقُطع إرْباً إرْباً واكلته التيتان رغماً عن استحالاته ، لكن قلبه بقي سليماً فابتلعه ابوه

---

١) Cf. LÉONCE DE GRANDMAISON, *Jésus-Christ*, t. 2, p. 536-560, éd. Beauchesne 1928. L. RICHARD, *Mystère de la Rédemption*, éd. Desclée, p. 87-93.

زفس وولد إلهاً آخر يُدعى ديونيسيوس، وقد اعدّه ليشاطره مجده. وقد عُوقب التيتان على شر فعلتهم واصبحوا رماداً ومن رمادهم وُلد الجنس البشري.

وماذا نقول عن عبادة « سيبال » الالاهة الفريجية، ام الآلهة والبشر التي أدخلت طقوس عبادتها الى روما سنة ٢٠٤ ق. م. وقد كانت الدولة الرومانية تحتفي رسمياً بها في مطلع الربيع، وانها لعبادة دنسة وفاسدة. اجل، الى جانب « سيبال » كان « أتيس » إله الخصب، الذي كان قد احبها ولكنه خان حبها يوماً وهجرها. فتكفيراً عن خيانته لها واعراباً عن حبه لها، قطع اعضاءه التناسلية وقدمها لعشيقته الغضوب لكي يهدئ من حدة غضبها. وكان هذا الخصاء يُمارَس عند الذين يريدون ان ينتسبوا الى هذه الديانة السرية، فكانوا، بعد رقصة طويلة يفقدون عندها الاتزان، فيقدمون اداة الخصب فيهم الى الاهة الخصب لكي يزيدوها خصباً على خصب. ولكن مهما يكن من امر هذه الديانة، « فأتيس » ليس بإله مائت لاجل ذويه انما هو بطل مسكين خصيّ. واذا كان قد زيد فيما بعد على النصوص الاولية بانه مات وقام من الاموات فليس ذلك الاّ من تأثير المسيحية على عبادته لا غير.

هذا وان كانت « پروسپرين » (ڤينوس Vénus) تنزل الى الجحيم مع « پلوتون » (Pluton) فانما ذلك قسراً عنها. واذا كان زفس كبير الآلهة يتدخل ليرغم الخاطف على ترك فريسته فتدخّله هذا لا يحول دون عودتها الى الجحيم في كل سنة لتقضي فيه فصل الشتاء. واننا لا نرى اثراً لتفاعل المسيحية بالوثنية في اسطورة ادونيس رمز الشباب الجميل وقتل الخنزير البرّي له ومغامرة عشيقته « افروديت » (ڤينوس) الغرامية لدى جوبيتر كبير الآلهة وتحويله الى زهرة « الأنيمون » الربيعية. فاين ذلك من تضحية المسيح وتطوعه الاختياري لخلاص البشر ؟..

اما عبادة ميترا[١] (Mithra) فهي مجوسية الاصل، جاء بها اسكندر الابونتيكوسي (Alexandre d'Abontichos) من بلاد فارس الى روما على عهد الامبراطور مرقس اوريليوس في القرن الثاني للميلاد سنة ١٥٠؛ وكان الرومان يجهلون عبادتها الى ذاك الحين. وان هي الاّ عودة الى الطبيعة القذرة. لم تلاقِ نجاحاً في آثينا وقد نجحت في روما. وكان دعاتها واتباعها يقيمون شعائرها الدينية سرّاً في الكهوف والبيوت المخفية حيث كانوا يصورون ميترا فاتكاً بالثور. كان اتباعها ينقسمون الى فرق تحمل كل منها اسماً حربياً: كالغراب، الجندي، الاسد، الفارس، رسول الشمس، الاب الخ.. وملخص معتقدها هو هذا: كل الكائنات من آلهة وابالسة وبشر يتحدرون من اسرة الهية واحدة: السماء والارض. وهذه الأسرة هي نفسها مولودة في الزمان ولها ولد يدعى الاوقيانوس وتقف مقابلها أسرة اخرى « اهيمان وزوجته هيكات » (Ahiman et Hécate) وهي للهدم ولبذار الفوضى في كل مكان. والعالم الحالي وليد ذاك الصراع. اما ميترا إله الشمس والنور فهو الدليل الاوحد الذي يعلّم تلاميذه طريقة الانتصار للخير على الشر. وُلد من الحجر كما تُولد شرارة النار من الزناد وكما تشرق الشمس من قمة الجبل. انه لقوي جداً. اخذ الثور الفحل معطي الحياة ورمز الخصب بقرنيه واخرجه عنوةً من الكهف متراجعاً الى الوراء؛ وهناك بايعاز من الغراب، رسول الشمس،

---

١) L. de Grandmaison, *Jésus-Christ*, t. 1, p. 351; t. 2, p. 537, 550-552, 580-582, 591.

طعنه بسكين في صدره فتفجرت دماؤه فانبثقت منها الحياة النباتية بينما الحيوانات السفلية: الزحافات، العقارب والحيّات والنمل وغيرها تحاول ان تنفث سمومها على تلك النباتات. وكان يـُرش قليل من دم الثور على الراغبين في الانتساب الى تلك الديانة لكي يـُولدوا ولادة ثانية روحية. غير ان هذا التفصيل الاخير لم يوجد في طقوس ميترا كتابةً لاول مرة الا سنة ٣٧٦ للميلاد، وقد زيد على تلك الطقوس دون ما ريب بتفاعل مسيحي، لأن فكرة الولادة الروحية الثانية لم يكن لها يوماً ادنى أثر في تلك الاديان السرّية. وقد يتساءل المرء ما تأثير ديانة ميترا، والحال هذه، على الديانة المسيحية وهي لم تظهر في روما الا بعد ظهور المسيح وتأسيسه الكنيسة بقرن ونصف، وفي العالم الروماني الا في القرن الثالث للميلاد. ولكن الاحرى ان نقول ان ديانة ميترا هي نفسها قد تفاعلت وتكيفت بالمسيحية إذ إنها لم تبقَ على ما كانت عليه يوم جيء بها من بلاد فارس.

وجملة القول ان المسيحية لم تتفاعل بديانة من تلك الديانات الوثنية السرّية البتة اذ ان فكرة إله يموت طوعاً واختياراً للتكفير عن آثام البشر ويقوم من الاموات ليقود المؤمنين باسمه الى الحياة الابدية غير موجودة في ديانة من الديانات. فموت الاله بالميتولوجيا وتحويله الى كائن آخر لم يكن يوماً من أجل التكفير عن الخطايا وللرفق بالآخرين؛ وكلمة «سوتير σωτερ، المخلص، الفادي» لم تكن في الاديان الهلينية السرية الا بعد تفاعلها بالمسيحية. ومهما يكن التقارب ظاهراً ما بين نظريـات افلاطون والإفلاطونية المستحدثة من جهة وما بين المسيحية من جهة اخرى، ففكرة الحب الالهي المتسامي في «المائدة» عند افلاطون تبقى بعيدة كل البعد عن فكرة المحبة الالهيـة «الاغيپه»، المُعبّر عنها بالتنازل الالهي ورفقة بالبشر حتى التجسد والموت على الصليب لاجل افتدائهم، المرتكزة عليها الديانة المسيحية.

واخيراً ان جوهر الاديان السرّية الهلينية يبقى شهوانياً دنساً مُثيراً للذة الحسية وهو على طرفي نقيض والطهارة الانجيلية التي جاء بها المسيح الى ارض البشر، فهل يعقل ان تنبثق المسيحية من طقوس عبادة «سيبال وأتيس» و«إيزيس وازوريس» وڤينوس وادونيس» وغيرها؟ هذا اذا استثنينا ان ظاهرة المسيحية مرتكزة على حدث تاريخي لكون المسيح وُلد في بيت لحم اليهودية على عهد اغسطوس قيصر امبراطور روما وهيرودس ملك اليهودية وجرت محاكمته وحكم عليه بالموت صلباً على عهـد الامبراطور طيباريوس قيصر بينما كان بيلاطس البنطي حاكماً عاماً من قِبله على اليهودية وقيافا رئيساً لكهنة اسرائيل، في حين ان الاديان الهلينية الوثنية السرية ليست سوى مجموعة خرافات واساطير لا عهد لها ولا تاريخ.

٦ – المسيح والماركسية

وادعت الفلسفة الماركسية ان المسيح من صنع الخيال البشري. هي البشرية تحلم منذ القدَم بان تعكس صورتها على الشاشة لترى نفسها وتعبد ذاتها؛ وفكرة تأليه البشرية نفسها كامنة بشكل مبهم في عقل كل انسان وهي تنتظر أوّل سانحة للبروز الى الوجود. والوقت الذي به تتحسس الوهيتها ليس بوقت يمن ورخاء بل وقت شدة وضنك وألم، بحيث يرى «الانسان ـــ الجمهور» ذاته ذليلاً مهاناً معذباً

ومستعبداً بدون رجاء ؛ فيعمد عند ذاك الى تحطيم قيوده ، وبهذه الفترة يشعر بانه قادر على الوصول الى الالوهية .

ولكن ان كان الامر كذلك ، كما تدعي الماركسية ، فكيف لم يتفق للبشرية منذ بداية تاريخها وقلقها واشتغالها بالماورائية ، أن تجد مسيحها الا في عهدي اوغسطوس وطيباريوس قيصر فقط ؟ كيف لم يتوصل عبيد الفراعنة الى اختراع مسيحهم يوم كانوا يبنون الاهرام على سواعدهم وعبيد روما وآثينا يوم كانوا يُساقون الى السوق ليُباعوا بيع السلَع والبهائم ؟ لماذا لم تخترع البشرية مسيحاً في كل فترة من تاريخ مضايقها ليبدد مخاوفها ويسلّي همومها ويزيل احزانها ؟ ...

٧ - المسيح والاسطورية المستحدثة : بولتمان (Bultmann)

وجاء مؤخراً بولتمان اللاهوتي البروتستانتي الالماني الكبير بمذهب لاهوتي جديد في القسم الاول من هذا القرن . فطبع لاول مرة كتابه المعروف « بتاريخ التقليد عند الانجيليين الازائيين الثلاثة » سنة ١٩٢١ حيث اعلن رأيه الشخصي حول مشكلة التعبير الادبي واللغوي في الاناجيل فاثار اهتمام البعض واسترعى التفات الكثيرين .وقد تخرج بولتمان من المدرسة اللاهوتية البروتستانتية الالمانية الحرة التي كان يقود حركتها «ويلهلم هرمان» (Wilhelm Hermann) شأن زميله « كارل بارت » (Karl Barth) اللاهوتي السويسري البروتستانتي الشهير ، وانقاد مثله بادئ ذي بدء للتيار اللاهوتي الدياليكتيكي الجدلي . ثم تأثر بفلسفة هيدجير (Heidegger) الوجودية سنة ١٩٢٨ وحاول ان يشرح الكتاب المقدس تبعاً لمبادئها ومنذ ذاك الحين انفصل نهائياً عن « كارل بارت » . وطبع بعد ذاك عدة مصنفات منها « شرح انجيل يوحنا » و « لاهوت العهد الجديد » . أما فكرته الرئيسية فهي : ان الكرازة بالانجيل ، او اعلان الكلمة ، تبقى خالدة ويجب ان يتكيف بها العقل البشري ويعمل بموجبها في كل لحظة ؛ ولهذا لن يُفهَم الانجيل الا بالنسبة اليّ ولكونه موجهاً اليّ في هذه الآونة . وبما انه مكتوب باسلوب ميتولوجي ، اسطوري ، لا يتفق وذهنية القرن العشرين المبنية على القواعد العلمية التجريبية ، بات من الضروري ان نجرّده من قشوره الاسطورية ، الماورائية ونسبكه بانشاء عصري وجودي طبقاً للفلسفة الوجودية الجارية . واذا كانت تعاليم المسيح مدعوة لتعبر الاجيال – ولربما نحن لا نزال في فجرها – فيجب القول ان ديمومة المسيحية منوطة بذاك التجريد وبتنقية الجديد من البالي . فالانجيل يصوّر الكون تصويراً اسطورياً : السماء من فوق والجحيم من تحت ، والارض مسرح الاحداث الطبيعية وغير الطبيعية والمعجزات معاً ، والانسان والتاريخ يخضعان لناموس القوى الخارقة ، الفائقة الطبيعة والله وملائكته وابليس وجنوده ، وبلوغ ملء الزمن وارسال ابن الله المولود من الآب منذ الازل الى العالم ليخلص البشر وتجسده وموته وقيامته ، ومجيئه الثاني للدينونة الاخيرة ، وفصله الاخيار عن الاشرار وما الى ذلك . فكل ذلك مسبوك بانشاء اسطوري ، ميتولوجي ، لا يتفق وعقلية الانسان المعاصر المتثقف تثقيفاً علمياً على قاعدة المختبرات والتجريبات العلمية التي تأبى الاعتقاد بوجود الارواح والشياطين والمعجزات ، ثم نظرة الانسان المعاصر الى نفسه واعتقاده بذاته سيداً لكل ما يجري ويحدث في داخله من عواطف واحاسيس تجعله ينكر تاثير العالم الخارجي عليه . وكذا قل عن نفاذ الاسرار الكنسية ومفعولها في النفس وعن تبرير الانسان الخاطئ من خطيئته بواسطة المسيح البريء وضرورة التكفير عنه وهلمّ جرّاً ...

ولهذا يجب على اللاهوت المسيحي ان يتجرد اولا من قشور الميتولوجيا وتعابيرها ، ثم يجرّد بعد ذاك العهد الجديد من شكله الاسطوري ومن انشائه الرؤيوي والغنوستيكي (المعرفي) (gnostique). فتظهر ساعتئذ فكرة الوجود حسب العهد الجديد ، بشكلها الواضح ، قائمةً على ذاك التناقض الدائر ما بين العالم غير الحقيقي ، عالم الخطيئة ، والعالم الحقيقي ، عالم الايمان . فالاول يحيا من العالم المنظور والثاني من العالم غير المنظور ؛ والايمان يقوم بذاك الانفتاح على المستقبل ، بذاك الاستسلام الكامل الى الله وذاك التخلي عن الدنيا . حيث يعيش الانسان «كمن يملك ولا يملك شيئاً» على حد قول بولس الرسول (كور١ :٧/٢٩) ، خليقةً متجددة .

أما شكل الوجود على هذا النوع فغير ممكن بدون المسيح الذي كشف الله بواسطته للبشر عن غنى محبته . لكن المُهمّ ان نجرّد هذا الحدث من الظواهر الموضوعية والقالب الاسطوري كي لا يبقى منه سوى معناه كصورة وحدث للخلاص . هكذا الايمان بصلب المسيح لا يقوم بالتأمل في ذاك الحدث التاريخي الذي جرى في الزمن خارجاً عنّا وبعيداً عن عالمنا الحاضر — والذي رأى الله مع ذلك فيه خلاصنا — بل ان نحمل ذاك الصليب ونتسمر عليه بنوع ما اذا امكن . فالصليب ليس حدثاً من الماضي فقط بل حدثاً اسكتولوجياً [١] في الزمن وما بعد الزمن ، يبقى ابداً حاضراً في حياة الانسان على قدر ما ينظر اليه بعين الايمان . وكذا قل عن قيامة المسيح من بين الاموات ... وبعبارة اخرى ان عمل الله الخلاصي لا معنى له الاّ بالنسبة الى الانسان الخاطئ المراد شفاؤه ، ومفاده ان الله يدعوه ليتبرر من خطيئته في هذه اللحظة . ولهذا فعندما يكلمني الانجيل عن عمل الله انما يكلمني عن طريقة وجودي حالياً بالنسبة اليه . وهنا نرى تأثير فلسفة «هيدجير» Heidgger الوجودية وفلسفة «كيركيغارد» Kierkegaard على بولتمان .

قبل ان نبدي رأينا بمذهب بولتمان اللاهوتي يجب ان ننصفه اولا بانه سبق واعلن انه لا يستعمل كلمة «اسطورة» و «اسطوري» بمعنى الخرافات ، عندما يتكلم عن الانجيل ، بل للدلالة على كل ما لا يقع تحت ناموس التجربة العلمية . وفي عرفه ان كل تمثيل يظهر فيه غير المرئي مرئياً ، والالهي بشرياً ، والمتسامي والمتعالي حاضراً ، يُدعى اسطورياً . وكذلك كل تمثيل تُنسَب فيه الاحداث الدنيوية الى علل غير منظورة ، وكل تمثيل يتدخل فيه الله في العالم على طريقة البشر يُدعى ايضاً اسطورياً . ذلك لأن النظرة العلمية لا تستطيع ان تتصور الطبيعة الاّ خاضعةً لنواميس جبرية . ولهذا فالانسان العلمي لا يُقِرُّ بتأثير العلل غير المرئية عليه ، بل يريد ان يكون العلة الوحيدة لسائر اعماله .

لا نكير ان الكتاب المقدس في عهديه العتيق والجديد قد كُتِبَ وسيق بأسلوب اسطوري (ما ورائي) بالمعنى الذي يقصده بولتمان ، وان الوحي الالهي وصل الينا عن طريق اناس تأثروا ببيئتهم وألبسوا الأسفار الالهية لباساً مزخرفاً بالتعابير ، والمصطلحات والتشابيه والامثال والاستعارات المتداولة في مجتمعهم ليجعلوها في متناول الشعب البسيط . والسيد المسيح سلك في كرازته الطريقة عينها ليسهّل على مستمعيه فهم تعاليمه السماوية ويحرّك قلوبهم الى التوبة ، خاصة كقوله مثلاً عن الدينونة الاخيرة

١) لفظة اسكتولوجي مفادها مختص بالخلاص ، بالعالم الآتي ، الماورائي ، المصير الأخير ..

وعن مجيئه الثاني : « وتتزعزع قوات السماء وعندئذ تظهر علامة ابن البشر في السماء ... ويشاهدون « ابن البشر آتياً على سحاب السماء في كثير من القدرة والمجد ، ويُرسل ملائكته ببوق وصوت عظيم « فيجمعون مختاريه من مهاب الريح الاربعة ، من اقصى السماوات الى اقصاها » (متى ٢٤/٢٩–٣١) وقوله عن فصل الاخيار عن الاشرار : « فيفصل بعضهم عن بعض كما يفصل الراعي الخراف عن الجداء ويقيم الخراف عن يمينه والجداء عن يساره » (متى ٢٥/٣٢)، وعن مكافأة الصديقين وعقاب الهالكين : « ومات المسكين لعازر فنقلته الملائكة الى احضان ابراهيم (اي مقرّ السعادة) ومات الغني فدفن في جهنم (مقر الهلاك) (لو ١٦/٢٢)، وما الى ذلك من التعابير والاستعارات المتخذة من الانشاء الاسطوري المُعنى به ههنا . ولم يكن بوسع السيد المسيح ان يستخدم طريقة اخرى ليسوق تعاليمه توًا الى ألباب السذّج لأنه لم يُكتَب للسواد الاعظم من الناس ان يدركوا التعليم النظري دون الصورة المتخذة من التشبيه والاستعارة والمثل . ولو كان ثمة وسيلة اخرى أنجع لكان قد اتخذها . ولهذا نجيب على اعتراض بولتمان مع الفيلسوف الفرنسي « جان غيتون » ونقول : « هل من الممكن ان نعزل الروح عن الحرف ؟ هل من الممكن ان ننقل الروح ونلبسه قالباً على الشكل الذي نبتغيه من تلقاء نفوسنا وبمجرد سلطاننا الخاص ؟ وهل من الممكن ان نلجأ ا لى عملية جراحية بنوع ما على هذا الشكل ونفرز حصة الروح ونفصلها عن حصة التعبير دون ان ندخل عليها من الاعتباطية والتعسفية الشيء الكثير ؟ ان محاولة تجريد الروح من الحلة التي لبسها يوم بروز الانجيل لعمل خَطَرٌ؛ ذلك لأننا نوشك ان نقلع القمح مع الزؤان واكثر من ذلك – ونكاد نتعرض الى خطر اكبر – وهو ان نلبس الروح لباساً جديداً مغايرًا للانجيل ، وهنا منتهى التناقض . ولماذا الفلسفة الوجودية الالمانية المُعبَّر عنها « هيدجير » ، المحدودة بالمكان والزمان ، تكون اكثر قابلية من سواها لسبك وسوق الوحي الالهي غير المقيّد بالزمان والمكان ؟ »[١] .

وزد على ذلك ان نظرية بولتمان تقضي على القيمة التاريخية لحدث صلب المسيح وقيامته من الاموات اذ إنها تفصل مسيح التاريخ عن مسيح الايمان ، وتحصر الايمان المسيحي بالتأكيد الفردي والتلقائي الذي يتخذه الانسان من برارته بواسطة سر الفداء. ولهذا صدق« كارل بارت» Karl Barth بقوله : « ان بولتمان يفرّغ الايمان من محتواه . وهنا يجدر بنا القول : لقد اخذوا الرب ولست ادري اين وضعوه ؟ »

لاشك في ان محاولة بولتمان بتجريد الانجيل من انشائه الاسطوري لتقريبه من عقول علماء الطبيعيات والفيزياء والكيمياء لسعي كريم ، جدير بالثناء . ولكن ، مهما تكن النية حسنة ، فالمحاولة فاشلة لا محالة اذ ان حدث وجود المسيح نفسه في التاريخ واجتماع الالوهية والبشرية فيه يبقى ابدًا معثرةً للعقل البشري « شكاً لليهود وجهالةً للامم » كما سبق وقال القديس بولس (كور ١ ١/٢٣) . وهنا يبدو فضل المؤمن على من يأبى الايمان ، « إذ إن التناقض قائم ، كما يقول بكل صواب الاب رينه مارليه اليسوعي (René Marlé) ، على ان الرسول الاسكتولوجي الالهي هو انسان واقعي من التاريخ . تناقض اذن هو عمل الله الاسكتولوجي الذي تمّ في الزمن بمصير انسان والذي لا مبرر لشرحه وتفسيره تبعاً للمفهوم البشري ، ذاك التناقض المُعبّر عنه بمثل هذه العبارات :

---

١) JEAN GUITTON, *Jésus*, éd. Bernard Grasset, 1956, p. 52-53.

« اخلى ذاته (لاشى ذاته) آخذًا صورة عبد ، صائرًا شبيهاً بالبشر » (فيلبي ٢ /٧)؛

« هو الغني قد افتقر لاجلكم لكي تستغنوا انتم بفقره » (كور٢ :٨ /٩)؛

« قد ارسل الله ابنه من اجل الخطيئة في شبه جسد الخطيئة » (روما ٨ /٣)؛

« الذي تجلّى في الجسد وشهد له الروح (تيم ١ :٣ /١٦)؛

« الكلمة صار بشرًا وسكن في ما بيننا » (يو ١ /١٤)؛

والذي لا يزال على ما كان عليه إلهاً لأن الذي أصبح الله به حاضرًا ما بين البشر ، يعمل لاجل خلاصهم والذي بواسطته ايضاً تصالح معهم ، هو انسان تاريخي . وكلمة الله ليست بوحيٍ خفي سرّي انما هي كرازة يسوع الناصري بشكلها البسيط والواقعي بخصوص تاريخ الخلاص ، يستطيع الناس ان يفهموها كظهورات في تاريخ الفكر البشري ؛ وبسبب الافكار التي تحملها معها ، تصبح ثمت نظرة خاصة الى العالم .... فالواعظون والرسل هم كباقي الناس يُحاكمون كآخر انسان . والكنيسة بشكلها الحالي ليست سوى ظاهرة اجتماعية من ظاهرات التاريخ تعلل بتعاليمها كل المظاهر الانسانية . ومع ذلك في كل هذه الحقائق يبقى الايمان مدعوًا للاقرار بالظاهرة الاسكتولوجية ، ذاك الشك وتلك المعثرة العقلية التي لم يُعطَ للفلسفة الدياليكتيكية ان تتغلب عليها ، بل لطاعة الايمان وحدها »[١] .

فلا خوف اذن على الانجيل من شكله الحالي وعلى طريقة التعبير والانشاء التي بها سبك وسيق عبر التاريخ . لقد تُرجم الى لغات العالم اجمع فلم يخسر شيئاً من روعته وجدته ، في حين ان اجمل روائع الفكر البشري كمؤلفات هوميروس واشيل وافلاطون وڤيرجيليوس ودانتي وشكسبير وكورناي وراسين ولامرتين وهوغو وغوته وسلوڤستكي ودوستيڤسكي وتولستوي وپيڤي وكلوديل وپروست وڤاليري وغيرهم فقدت بنقلهـــا الى اللغات الاخرى بعض الشيء من رونقها . وان قابلنا فحوى مؤلفاتهم بتفكير الانجيل رأينا بوناً شاسعاً . فالانسان يقرأ في نفسه وينزل الى قرارة ضميره كلما قرأ الانجيل ويشعر بارتفاع عن الارض وبتوق الى الانفلات من قيود المادة كلما تأمل في تعاليمه . فمدرسته تفوق بسموها مدارس هؤلاء العباقرة ، اذ ان مدارسهم تجعل الانسان يؤوب دوماً الى ذاته بينما الانجيل يُخرِجه دوماً من ذاته ويرفعه الى الله .

اما فكرة تطبيق الانجيل على الانسان الفرد وفي كل عصر للافادة منه ، كما يدعو الى ذلك بولتمان ، فهي جديرة بالاعجاب والثناء وطالما دعا اليها جميع القديسين والواعظين في مؤلفاتهم ومواعظهم في العصور كافة . والدعوة الى تجديد التعابير اللاهوتية في شرح القضايا الايمانية واستبدال عبارات جديدة بها تتمشى وذهنية العصر الحاضر ؛ فهذا امر يُحمَد عليه ايضاً بولتمان وقد اخذ الكثيرون من اللاهوتيين وشرّاح الكتاب المقدس ينهجون هذا المنهج .

---

١) René Marlé, *Bultmann*, Aubier, 1956, p. 173.

٨ – المسيح والاسينية(١)

لقد ادّعى فردريك الثاني ملك پروسيا ان يسوع المسيح كان واحداً من الإسينيين ، وكتب الى صديقه دالمبير احد الفلاسفة الفرنسيين في ١٧ تشرين الاول سنة ١٧٧٠ رسالة في هذا المعنى يقول : « ليس يسوع سوى واحد من الإسينيين فهو مشبع من الروح الاخلاقية التي نجدها عند الإسينيين والتي تمتّ بصلة وثيقة الى اخلاقيات زينون (الايلي) . »

وفي القرن التالي سنة ١٨٦٣ أدلى «رينان» المؤرخ والناقد الفرنسي بتصريح من هذا النوع قال فيه : « ليست المسيحية سوى شكل من الإسينية قيّض لها النجاح على نطاق اوسع » بيد ان تصريحات من هذا النوع لم تسترعِ اهتمام اللاهوتيين المسيحيين ولم تكن موضوع دراسات واسعة النطاق نظراً الى قلة اهميتها في ذاك الزمن . اما الآن وقد اكتُشفت مخطوطات « قمران » قرب بحر الميت بفلسطين في آذار سنة ١٩٤٧ حيث ظهرت وثائق تاريخية قيّمة تختص بحياة الإسينيين ومعتقداتهم وتقاليدهم وتجدّدت المشكلة بنوع فلا بدّ اذن من التبسط فيها والبحث في هذه البدعة الدينية وفي علاقتها بالمسيحية .

لقد تكلم الانجيل عن الصدوقيين والهيرودسيين والفريسيين وذكر محاجاتهم الطويلة مع السيد المسيح غير انه لم يتكلم قط عن الإسينيين والإسينية وكل ما عُرِف عن الإسينية ان هناك بعض المؤرخين كپلينوس الشيخ (٢٣–٧٩م) وفيلون الاسكندري (٥٤م) وفلاڤيوس يوسيفوس المؤرخ اليهودي (٣٧–٩٥م) ذكروا في سياق كتاباتهم بعض الشيء عن هذه البدعة. لكن مخطوطات خربة «قمران» تبقى اهم الوثائق التاريخية التي وصلت الينا عنها. فهي بقايا آثارها الناطقة بلسانها. كان الاسينيون يؤلفون جماعات صغيرة–واحياناً كبيرة–في المدن والقرى ، يعيشون في إطار حياة مشتركة خاضعين لرئيس واحد كالرهبان. لم يكن الزواج محرّماً عليهم اذ أنه كان مفروضاً على الإسيني ، كما تنص بذلك مخطوطات قمران ، الاّ يتزوج الاّ بامرأة واحدة فقط ، غير أنهم ، في الواقع ، كانوا يعيشون متبتّلين كالرهبان(٣) . كان المريدون منهم او الراغبون في الانتظام في تلك المؤسسة يمرّون بمرحلة امتحان تستغرق سنتين يُسمح لهم خلالها بالاشتراك في بعض الفرائض والشعائر الدينية مع الاخوة الاعضاء ، ولكن دون ان يتناولوا الطعام معهم على المائدة المشتركة . وبعد مرور فترة الامتحان يقسمون اليمين المغلظة بالحفاظ على سنن المؤسسة والتقيد بمراسيمها وقوانينها فيصبحون اعضاء شرعيين فيها ويسمح لهم مذ ذاك الحين ان يتناولوا الطعام على مائدة الاخوة المشتركة . اما تعاليمها فمعظمه مستوحى من اليهودية كالتشديد مثلاً على حفظ مراسيم السبت والاهتمام الزائد بالحصول على الطهارة الشرعية الخارجية عن طريق التوضؤ ، ومن الفيثاغورية كالصلاة مثلاً عند شروق الشمس والامتناع عن الذبائح الدموية والقول

---

١) Jean Daniélou, s.j., *Les manuscrits de la mer morte et les origines du christianisme*, Paris, édition de l'Oronte 1957.

٢) امسيات الاحد – مطبعة حريصا عدد ٦٧ و ٦٨ : الآباء البولسيون .

٣) لقد عثر على الآثار في مقبرة دير قمران على رفات اجسام نسائية . وهذا مما يدل على ان الزواج كان مرخصاً به في اول تأسيس تلك المنظمة ثم حرّم تدريجياً مع تطور الحياة الرهبانية وتفهم الرهبان سمو البتولية وفائدتها للوصول الى الكمال .

بالثواب والعقاب في الآخرة دون الاعتقاد بحشر الاجساد وما الى ذلك. لقد ادّى اكتشاف مخطوطات كهف قمران والحفريات الاثرية التي عقبته في خربة قمران نفسها الى استجلاء اسرار تاريخ هذه المنظمة . فقد يرقى عهد تأسيسها — بالارجح — الى عهد الانتفاضة المكّابية ضد الاحتلال الهلّيني ما بين سنة ١٧٤ وسنة ١٣٥ قبل المسيح . فيكون موئسسها « معلم الحق » شخصية روحانية فذة ، قد نادى بالاصلاح الاخلاقي والاجتماعي عن طريق التزمّت والتشديد في أمور الشريعة خلال الفترة التي نُظِّم فيها جيش تمهيدي وطني ضد المستعمرين الهلّينيين . ولما فشلت تلك الحركة المسلحة، لجأ هو وجمهور رهبانه الى دير قمران ليحتموا فيه . فلحقهم اذى المستعمرين لاتصالهم بجيش التحرير فاعملوا بالدير واهله السيف والنار وقضوا على سكانه . فيكون بعض الرهبان قد استودع احد الكهوف المجاورة مخطوطات الدير حفاظاً عليها من التلف والضياع ومكثت طي النسيان الى ان اكتُشِفت في آذار سنة ١٩٤٧ .

لا نكير ان هنالك اوجه شبه كثيرة ما بين الإسينية وطلائع المسيحية لا سيما في ما يختص بشخص يوحنا المعمدان الذي كان قد اتخذ له مركزًا لرسالته الروحية على مقربة من قمران مركز الدير الاسيني والقديس لوقا الانجيلي يقول عنه : « وكانت كلمة الله الى يوحنا بن زكريّا في القفر » (لو ٣/٢) وكلمة « قفر » هي اللفظة التي يستعملها الاسينيون للدلالة على الخلوة الروحية . ونَهْج حياته « يأكل الجراد والعسل البريّ » ويمتنع عن الخمر والمسكر (مر ١/٦ ، لو ١/١٥)شبيه جدًا بنهج حياتهم . ثم ان مقتله في قلعة « ماخيرونت » المحاذية لخرائب قمران تحدونا على الظن أن تلاميذه لا بُدّ ان يكونوا قد دفنوه في مقبرة رهبان دير قمران لأنها اقرب ارض مقدسة تليق بجسمان النبي الشهيد[١] .

وكذا قل عن صلات السيد المسيح بهم . فثمة وجه شبه ظاهر وتقارب واضح ما بينه وبينهم . هكذا نراه مثلاً يقتبل المعمودية من يوحنا المعمدان في الاردن قبل مباشرته كرازته بالانجيل ، جرياً على خطة الاسينيين ، في حين انه لم يكن بحاجة الى ذاك التطهير . ثم ان خلوته في القفر وتجربته من ابليس وتغلّبه عليه تذكرنا بعقيدتهم في هذا المضمار بالحرب الداخلية ما بين الابالسة والملائكة في داخل قلب الانسان . واعتزال السيد المسيح جمهور الشعب وانفراده على الجبل لاحيائه الليل في الصلاة الى الله ابيه شبيه بانعكاف الاسينيين على الصلاة الليلية ؛ والنظم التي سنّها للكنيسة قريبة جدًا في بعضها من نظم الاسينية . فلفظة كنيسة « جماعة او اخوية ذات هدف روحي » هو مفهوم الاسينية عينه وطريقة تأسيس الكنيسة على النظام (المدرّج) هي نفس الطريقة الموئسسة عليها الإسينية .

كان يرئس المنظمة الاسينية لجنة ادارية موئلفة من اثني عشر عضوًا ، منهم ثلاثة كهنة . والسيد المسيح هو ايضاً القى بمقاليد السلطة الروحية في كنيسته الى اثني عشر عضوًا ، وقد خصّ ثلاثة منهم ، بطرس ويعقوب ويوحنا ببعض امتيازات عن الآخرين . ولما اطلق تلاميذه للكرازة بالانجيل واوصاهم الاّ « يحملوا كيساً ولا مزودًا في الطريق » (لو ١٠/٤) نراه يحذو حذو الاسينيين الذين كانوا يتوكلون في تجوالاتهم على إحسان المحسنين . ثم انّ كلامه عن الصراع ما بين الظلمة

---

١) راجع « امسيات الاحد » عدد ٦٧ و ٦٨ من منشورات حريصا للآباء البولسيين : المسيحية والاسينية .

والنور الذي وصفه القديس يوحنا في انجيله موجود ايضاً عند الاسينيين في مخطوطات قمران... وغيرها من المشابهات العديدة كاضطهاد مؤسسهم «معلم الحق» مثلاً من الكهنة ولا سيما من «الكاهن الكافر والاسد الثائر» كما تدعوه مخطوطات قمران، الشبيه باضطهاد كهنة اسرائيل للسيد المسيح غير ان وجود المشابهات ما بين الاسينية والمسيحية لا يعني انتساب هذه الى تلك ولا انبثاقها منها. فهناك فروق ومخالفات جذرية لا تقل عدداً عن المشابهات، ممّا يجعل انبثاق المسيحية من الاسينية مستحيلاً. فحياة التفرد والتنسك التي عاشها يوحنا المعمدان في مستهل شبابه غير الحياة المشتركة التي كان يألفها الاسينيون. ثم حياته التبشيرية لإعداد الشعب لمجيء المسيح غير حياة الاسينيين المنعكفين على الصلاة داخل اديرتهم. والقديس لوقا الانجيلي يقول بهذا الصدد: «وكانت كلمة الله على يوحنا بن زكريّا في البريّة فجاء الى بقعة كلّها الاردن يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا» (لو ٣/٢ـ٤)؛

اي كانت كلمة الله تدعوه للقيام برسالة روحية تبشيرية خاصة. ومن المعلوم ان بقعة الاردن واسعة جداً والكرازة فيها تفترض التجوال المتواصل. والمعمودية التي كرز بها يوحنا المعمدان تُعدّ النفوس للتوبة الداخلية وقبول الروح القدس غير التطهير الخارجي المألوف عند الاسينيين. ثم انه كان يؤكد للناس ان المسيح قد أتى ليمحو الخطايا وقد دلّ عليه بالاصبع يوماً ودعا الجموع لسماع اقواله والالتحاق به: «اجابهم يوحنا وقال انا اعمّد بالماء ولكن بينكم من لستم تعرفونه هو الذي يأتي «بعدي وقد جُعِلَ قبلي الذي انا لا استحق ان احلّ سير حذائه... وفي الغد رأى يوحنا يسوع «مُقبلاً اليه فقال هوذا حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم. هذا هو الذي قلت عنه انه يأتي بعدي «رجلُ قد جُعِلَ قبلي لأنه اقدم مني... وانا عاينت وشهدت ان هذا هو ابن الله» (يو ١/٢٦ ـ ٣٥).

وكذا قل عن الفروق والمباينات ما بين المسيح والاسينية. فهي ايضاً اعمق جذراً واوفر عدداً. فالاسينية ديانة قائمة على الشعائر الخارجية والنواهي القانونية فقط، بينما ديانة المسيح جوهر الروح و«الحق المحرر». فالاسينيون كالفريسيين يصرفون اهتمامهم الى التوضؤ والطهارة الخارجية، في حين أن المسيح يوجه الناس الى الاهتمام بطهارة النفس الداخلية المرتكزة اولا على تنقية الضمير والوجدان من الخبث والالتواء والشهوة الدنسة والحقد والحسد والظلم وشهادة الزور وضرر القريب، ثم على ممارسة العدالة والرحمة والايمان (متى ١٥ و ٢٣؛ مر ٧).

والاسينيون كانوا يغالون في المحافظة على مراسيم السبت الى حد كانوا يمتنعون عنده عن اغاثة الملهوف يوم السبت، بينما نرى المسيح يشفي المرضى يوم السبت ليبيّن لهم ان الشريعة خُلِقَت لاجل الانسان لا الانسان لاجل الشريعة (متى ١٢).

والاسينيون كانوا يترقبون مسيحاً «من هارون واسرائيل يملك على عرش الدنيا ويقتل اعداءه بالسيف»، مسيح الاوساط السياسية اليهودية غير مسيح النبوءات بينما مسيح الانجيل الذي وصفه لنا الانجيليون هو المسيح المتواضع والوديع. مسيح النبوءات الذي وصفه اشعيا النبي مسبقاً بقوله: «لا يماري ولا يصيح ولا يسمع احد صوته في الشوارع. قصبةً مرضوضة لا يكسر وكتّاناً مدخناً لا يُطفئُ» (اشعيا ٤٢/١ـ٨؛ متى ١٢/١٨ـ٢٠)؛

الذي جاء يكرز بالمحبة الشاملة التي لا تتوقف على اسرائيل بل تتناول شعوب الارض قاطبةً على السواء . وان قابلت مؤسس الاسينية « معلم الحق » بالمسيح رأيت البون شاسعاً ما بين هـذا وذاك. فالاول يعترف بضعفه وبخطيئته ويقر بانه خُذِلَ ورُذِلَ بسبب معاصيه في حين أن المسيح يقول لليهود : « من منكم يثبت عليّ خطيئة » (يو ٨/٤٦) .

والاول لم يقل يوماً انه المسيح وانه ابن الله المتجسد الذي جاء ليخلص العالم من خطيئته . اجل لقد اضطُهِدَ مؤسس الاسينية ونُفيَ ومات على يد الكهنة . لكن موته لم يحمل يوماً طابع الضحية والفداء الشامل « ولم يُهرَق دمه لمغفرة الخطايا » (متى ٢٦/٢٨) .

وان قابلنا ما بين قانون الاسينية كما وُجد في مخطوطات قمران ونصوص الانجيل رأينا ان ثمة بعض التقارب احياناً ولكن الفروق تبقى شاسعة جداً .

المحبة الاخوية

١ً — الاتفاق في التعليم

نص قانون قمران	نص الانجيل (العهد الجديد)
لا تكلّم اخاك بغضب وحقد او بوقاحة وشدة وشراسة ولا تبغضنّه بسبب جهالة قلبه. وليؤنّب عند الضرورة فيرعوي . يجب ألاّ يشكو احد قريبه الى الرؤساء قبل معاتبته اولاً امام شهود .	« اذا خطئ اليك اخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه على انفراد . فان سمع لك فقد ربحت اخاك . وان لم يسمع لك فخذ معك واحداً او اثنين لكي تقوم على فم شاهدين او ثلاثة كلُّ كلمة. فان ابى ان يسمع لهم. فقل للكنيسة » . (متى ١٨/١٥—١٧) .

٢ً — الفرق في التعليم

نص قانون قمران

لا تأكل ولا تشرب شيئاً ممّا يملك ابناء الظلمة .

احبب كل ما اختاره الرب وابغض كل ما نبذه واحبب جميع ابناء النور وابغض ابناء الظلمة .

ويلعن اللاّويون جميع ابناء بليعال قائلين : ملعون انت باعمالك الخاطئة الشريرة . ليجعل الله منك اداة خزي ، ولا ينظرنّ الى توسلاتك ، ولا يصفحنّ عن آثامك ليحوّل اليك وجهه للغضب .

نص الانجيل (العهد الجديد)

وفيما كان يسوع متكئاً في البيت اذا بعشارين كثيرين وخطأة جاؤوا واتكأوا مع يسوع وتلاميذه . فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه لماذا معلمكم يأكل مع العشارين والخطأة . فلما سمع يسوع قال لا يحتاج الاصحاء الى طبيب لكن ذوو الاسقام. فاذهبوا واعلموا ما هو إني أريد رحمةً لا ذبيحةً لأني لم آتِ لأدعوَ صدّيقين بل خطأة » (متى ٩/١٠—١٤) .

« سمعتم انه قيل : احبب قريبك وابغض عدوك . اما انا فأقول لكم : أحِبّوا اعداءكم وصلّوا لأجل الذين يضطهدونكم » (متى ٥/٤٣—٤٤) . « كونوا رحماء كما ان اباكم رحيم . لا تدينوا فلا تدانوا ... اغفروا يُغفر لكم » لو ٦/٣٦—٣٧) .

« لا تجاوزوا على شر بشر ، ولا على شتيمة بشتيمة ، بل بالعكس باركوا ، لأنكم لهذا دُعيتم » (بطرس ١ ٣/٩) .

« باركوا الذين يضطهدونكم ، باركوا ولا تلعنوا ... لا تنقلب للشر بل اغلب الشر بالخير » (روما ١٢/١٤ و٢١) .

فيخلص ممّا تقدم ان المسيحية لم تنبثق مطلقاً من الاسينية رغم ما بينها من وجوه الشبه والتقارب في المبادئ والعادات ، ذلك لأن المسيحية تقوم على حدث هام اكثر منها على مبادئ وتعاليم ، الا وهو تجسد ابن الله ودخوله الزمن والتاريخ وموته على الصليب لاجل افتداء البشر ، وهذا قد تمّ في شخص يسوع المسيح . كانت الاسينية مرحلة انتقالية ما بين اليهودية والمسيحية لا غير ، وبالاحرى مرحلة تحضيرية لمجيء المسيح الى العالم ، علامة انبلاج الفجر المقبل تنبئ بقدوم الشمس وبزوغ النور الحقيقي الآتي الى العالم الذي سوف يقول يوماً : « انا نور العالم من تبعني لا يمشي في الظلام بل يكون له نور الحياة » (يو ٨/١٢) ، ومعلّماً يدل على الطريق الحي المؤدي الى الله ذاك الذي سوف يقول ايضاً : « انا الطريق والحق والحياة لا احد يأتي ال الآب الا بي » (يو ١٤/٦) .

خلاصة : موقف الكنيسة الكاثوليكية

ان موقف الكنيسة الكاثوليكية ازاء هذه المشكلة لصريح جازم . فهي تُقِرّ ان في المسيح طبيعتين او مبدأين للعمل ، بشرية والهية ، ولكنه شخص واحد فقط ، شخص ابن الله الأزلي، الكائن قبل الدهور والذي تجسد وصار انساناً في فترة من الزمن رفقاً بالبشر كي يخلصهم . بيد انها لا تنكر وجود السر الفائق الادراك في هذه المشكلة وجُلّ ما في الأمر انها ترى ذاتها امام امر واقع وتحاول ان تعلله كاحدى معطيات التاريخ الواقعية. وقد شرح الأب دي غرانمزون اليسوعي موقف الكنيسة هذا . وها نحن نستعيد شرحه ختاماً لهذه المشكلة قال : « اننا نرى في اعمال المسيح ، اصبع « الله فقد جاء باعمال لا يستطيع الاّ الله وحده ان يعملها . ونرى فيه بالوقت ذاته اتزاناً فائقاً وصحة « ادبية وعقلية جيدة للغاية ونفساً شفافة صافية ، نقية ، لا تعرف الغش والالتواء ، وعقلاً نيّرًا « يصبو نحو هدف معلوم دون ايما انحراف . له فكرة نيّرة، راسخة ومسلطنة من بعثته ورسالته . ومن « ناحية اخرى نُقرّ انه كان انساناً تاريخياً من لحم وعظم يخضع لنواميس الطبيعة وعناصرها . شعر «بالجوع والعطش وبكى على موت صديقه لعازر في بيت عنيا. كان انسان بيئته وزمانه وعرقه، كان « له أم واقارب وأخصام يحاجونه على تعاليمه وقد عابوا عليه تعديله لشريعة موسى . كان له رسل « وأتباع أحبوه حتى العبادة ، وأخصام أبغضوه حتى الموت . قاضاه المجلس اليهودي الأعلى وحكم « عليه بالموت، وقد نفذ حكمه الوالي الروماني بيلاطس البنطي وأمر بصلبه . وُلِدَ بالجسد من ذرية « ابراهيم ومن سلالة داود الملك فهو إله وانسان معاً . ولكننا لا نقدر ان نبيّن اين تبدأ تماماً اللحمة « ما بين الالوهية والبشرية فيه ، اين تبدأ الالوهية واين تنتهي واين حدود البشرية . ان جرّدناه من « الالوهية ونسبنا اعماله الى الخرافات والاساطير افحمتنا اعماله الباهرة وهزأ منا التاريخ والكنيسة « العظيمة والمدنية الجبارة اللتان تمتان اليه . وان جرّدناه من البشرية ، كان الانجيليون والرسل « والمسيحيون الاولون ضدنا لأنهم آمنوا بتجسده الالهي وبطبيعته البشرية الكاملة واكّدوا لنا بلسان « القديس يوحنا الانجيلي ان « الذي كان من البدء الذي سمعناه ، الذي رأينـاه بعيوننا ، الذي « تأملناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة . لأن الحياة قد ظهرت ورأيناها ونشهد ونبشركم بالحياة « الابدية التي كانت عند الآب فظهرت لنا » (يو ١/١-٢) . ولهذا نكتفي بان نورد لجميع الذين « تردّدوا في الايمان به او داخلهم ريب وشك في ألوهيته او في بشريته بعض ما ورد من كلامه في « الانجيل او قيل عنه :

« كل شيء قد دُفِعَ اليّ من ابي.وليس احد يعرف الابن الاّ الآب ولا احد يعرف الآب « الاّ الابن ومن يريد الابن ان يكشف له. تعالوا اليّ يا جميع المتعبين والمثقلين وانا أريحكم» (متى ١١/٢٧-٢٨) .

« انا نور العالم من تبعني فلا يمشي في الظلام بل يكون له نور الحياة » (يو ١٢/٨) .

« انا القيامة والحياة . من آمن بي وان مات فسيحيا » (يو ١١/٢٥) .

« نعم يا رب انا مؤمنة انك انت المسيح ابن الله الآتي الى هذا العالم (مرتا اخت لعازر ليسوع) » (يو ١١/٢٧) .

« انت هو المسيح ابن الله الحي (بطرس ليسوع) » (متى ١٦/١٦) .

« انا هو الطريق والحق والحياة . لا احد يأتي الى الآب الاّ بي » (يو ١٤/٦) .

« اني انا في الآب وان الآب فيّ » (يو ١٤/١١) .

« ربي وإلهي (توما ليسوع) » (يو ٢٠/٢٠) .

« لقد أعطيت كلّ سلطان في السماء وعلى الأرض . اذهبوا وتلمذوا الامم وعمّدوهم باسم الآب « والابن والروح القدس وهأنذا معكم كل الأيام الى منتهى الدهر » (متى ٢٨/٢٠)[١] .

اما وجوه الشبه الموجودة بين المسيحية والاديان القديمة التي سبقتها فالكنيسة لا ترى فيها سوى سلسلة تحضيرات قامت بها العناية الالهية لتُعِد البشرية لقبول المسيح ورسالته . فطقوس العبادة المألوفة في هذه الأديان تطفح حنيناً، وان بشكلٍ مبهم ، الى ذاك المخلص الموعود؛ والابحاث العلمية والآثار الارخيولوجية المختصة بتلك الطقوس دلّلت على ان حركة التاريخ العميقة كانت تسير بخطى وئيدة لملاقاة المخلص الفادي ، منقذ البشرية ومحررها .

١) Léonce de Grandmaison, s.j., *Jésus-Christ*, éd. Beauchesme 1928, t. 2, p. 212.

الفصل السادس

قيامة يسوع المسيح

١ – قيامة يسوع المسيح واقع تاريخي

٢ – شهادة الرسل في القيامة

– طبعية وسذاجة

– نزاهة

– صحة الجسم والعقل

٣ – القبر الفارغ

٤ – تجديد البشرية بالمسيح

٥ – يسوع الكلي الخالد

٦ – ملحق ٥ : حول المسيح الكلي (نظرية الاب تايار دي شاردان)

« ان كان المسيح لم يقم فتبشيرنا اذن باطل وايمانكم باطل» (كور ١/١٥/١٤). يظهر القديس بولس بهذه العبارة أهمية القيامة بالنسبة الى الدين المسيحي. لو لم يقم المسيح من بين الاموات لكان ايمان المسيحيين باطلاً. لكنّ المسيح قام. وقيامته واقع تاريخي لا سبيل الى ان يرقى الشك اليه. فهو يرتكز على شهادة الانجيليين الذين اتّصفوا بالسذاجة والصدق والنزاهة وهو واقع جدّد البشرية جمعاء بعد ان حفر على وجهها سمات يسوع الخالد.

١ – قيامة يسوع المسيح واقع تاريخي

مات المسيح على الصليب ميتة المجرمين، لكنه قام ولمّا تنقضِ على موته ثلاثة ايام. اسلم الروح يوم الجمعة في الساعة الثالثة بعد الظهر، وانزل يوسف الرامي جسده عن الصليب بعد مضيّ ساعات قضاها في الاستئذان بدفنه من بيلاطس البنطي مندوب روما في فلسطين. ثم وضعه في قبر جديد على مشهد من بعض الاصدقاء: يوحنا ونيقوديموس وبعض من النساء اللواتي تطوّعن لخدمته يوم كان يطوف في نواحي فلسطين للتبشير.

وبعد دفنه تقدّم الفريسيون ورؤساء الكهنة من بيلاطس بطلب التمسوا فيه تشديد الرقابة في حراسة القبر خوفاً — على زعمهم — من ان يقدم التلاميذ على سرقة الجثة، ويروحوا يوهمون الناس بأنه قام من بين الأموات. فأجيبوا الى ملتمسهم وكان لهم ما ارادوا (متى ٢٧/٦٢).

وبكرت مريم المجدلية، فجر الأحد، في بضع نساء، الى القبر، يحملن حنوطاً واطياباً ليطيّبن جسد الميت عملاً بسنة اليهود. وما اشد ما كانت دهشتهن عندما وجدن القبر فارغاً والحجر مدحرجاً والاكفان مبعثرة، والمنديل الذي كان يعصب رأسه مطوياً وملقى الى ناحية. وتركت المجدلية رفيقاتها يرين عليهن الذعر، وخفت تنبئ بطرس ويوحنا بالحدث العظيم. وفيما هي في الطريق، تراءى للنساء الخائفات اللواتي بقين على القبر، ملاكان شدّدا ما تراخى من عزمهن وقالا لهن: « لمَ تطلبن بين الاموات من هو حيّ؟ انه ليس هنا، لكنه قد قام » (لو ٢٤/٥). وما ان نقلت مريم الخبر لبطرس ويوحنا حتى سارعا الى القبر فوقفا على ما كان وسمعا ما افضى به الملاكان الى النسوة. لكنهما لم يصدقا « وكان كلامهن عندهما بمنزلة الهذيان »

(لو ٢٤/١١) . وغادر الحضور القبر الاّ مريم . لقد أبت الاّ البقاء وحدها لتسترسل في البكاء . واذا بملاكين يقفان بها ويهدّئان من روعها ويبشّرانها بقيامة المسيح . وما تواريا عنها حتى تراءى لها يسوع عينه . فلم تعرفه وظنته البستاني ، وبدأت تستطلعه طلع الميت لشوقها الى معرفة ما آل اليه أمره . ولكن ما ان طرق مسمعها صوته وهو يقول لها : « مريم » حتى سقطت الغشاوة عن عينيها وعرفته وهتفت به : «سيّدي» وهمت بتقبيل قدميه . اما هو فابتدرها بقوله : « لا تلمسيني فاني لم اصعد بعد الى أبي . بل امضي الى اخوتي وقولي لهم اني صاعد الى ابي وابيكم والهي والهكم » (يو ٢٠/ ١١—١٨) .

وتراءى المسيح لاخصائه يوم الأحد اكثر من مرة . تراءى لسمعان بطرس رأس الرسل (لو ٢٤/٣٤) . ورافق في اصيل ذاك اليوم ، على طريق عمّاوص ، تلميذين من تلاميذه أعاد اليهما ما فقداه من الثقة به ، بعد ان شرح لهما اقوال الكتب المقدسة فيه . ولمّا عرفاه عند مقاسمته اياهما الخبز ، توارى عنهما (لو ٢٤/١٣) . وتوسّط حلقة التلاميذ في العشيّ وقد دخل عليهم والابواب موصدة فحيّاهم بقوله : « السلام معكم » (يو ٢٠/١٩) . وبكّت بعد ثمانية ايام توما على شكّه في صحة ما رواه له اخوانه الرسل عن قيامته (يو ٢٠/٢٦) . واخيراً ظهر للتلاميذ باجمعهم (اعمال ١/١٥) .

٢ – شهادة الرسل في القيامة

لقد اختلف الانجيليون الاربعة في ايراد التفاصيل حول القيامة ، وهذا دليل على بعدهم عن التواطؤ ؛ لكنهم أجمعوا على اثبات الواقع التاريخي ، وعلى التنويه بذهاب النساء . فجر الأحد ، الى القبر الذي وُجد فارغاً وأجمعوا ايضاً على ظهور المسيح للنساء وللتلاميذ ، وعلى تأسيسه الكنيسة . وقد سردوا هذه الوقائع بسذاجة ما بعدها سذاجة . فلم يجعلوا ، كالاناجيل المزيّفة ، من قيامة المسيح حدثاً عالمياً هز جنبات الامبراطورية الرومانية ، لكنهم وضعوها في نطاقها الطبيعي المحدود ، وما ادّعوا اثباتها بالطرق العلمية انما اكتفوا بتصوير حوادثها على ما وردت ، وتوقفوا اكثر ما توقفوا على شخص المسيح والمناداة به مخلّصاً قام من الموت وانتصر على قوات الجحيم (اعمال ٢/١٤ و٣٢؛ ٣/١٥) . وقد فقهوا ما للقيامة من اهمية . لهذا نرى الرسل والتلاميذ بعد صعود معلمهم الى السماء وحلول الروح القدس عليهم ، يعقدون اجتماعاً ينتخبون فيه احدهم ليقوم مقام يهوذا الاسخريوطي الذي خانه ، ويكون شاهداً مع الرسل الاثني عشر بقيامة المسيح من بين الاموات ، « فيصير شاهداً معنا بقيامته » (اعمال ١/٢١) .

والانجيليون هم خير من يؤدي هذه الشهادة ؛ لكونهم يروون ما يروون عن طبعية وسذاجة ونزاهة مردّها الى انهم بعيدون كل البعد عن الامراض النفسانية والجسدية .

طبعية وسذاجة

الانجيليون سذّج ، دوّنوا ما شاهدوا من حوادث دون تحريف او تزييف . وأبدوا كثيراً من الحذر والريبة حول ما نقل اليهم من اخبار قيامة المسيح (لو ٢٤/١١) . وذلك ان فكرة القيامة التي كثيراً ما حدّثهم عنها سيدنا يسوع المسيح كانت قد غربت عن بالهم (متى ٢٠/١٩ ؛ ١٢/٣٨؛١٦/١٤ ويو ١٠/١٧ ؛ ٢٠/١٨) ؛ فضلاً عن انهم كانوا يمنّون النفس ، شأن جميع الاسرائيليين ، بمسيح يؤسس مملكة عالمية يكونون فيها مسوّدين ومسلّطين ، وقد فجعوا بهذه الآمال العذاب يوم شهدوا مأساة الجلجلة الدامية . وما جواب تلميذي عمّاوص لمعلمهم الذي لم يعرفاه بعد القيامة، سوى دليل على خيبة هذه الآمال . وقد باحا له بسبب ما تملّكهما واخوانهما من كآبة قائلين : «كنا نأمل نحن انه هو الذي يفتدي اسرائيل ...» (لو ٢٤/١٣—٣٤) . «كنا نأمل » ! وكأنهما يقولان وامّا الآن فقد ضاع الأمل ، ومات المسيح ولا ترجى قيامته . وان ما يدل على ضيعة الأمل ايضاً ما استولى على الرسل من خوف دفعهم الى التستّر والتخفي (يو ٢٠/١٩) . فلو لم يقم المسيح حقاً لما داعب خيالهم أمل بقيامته ولما تجرأوا على التحدّث عنها .

نزاهة

والانجيليون نزهاء ، أبعد ما يكونون عن الكذب والخداع . ولِمَ تراهم يكذبون وقد حقروا الدنيا وكفروا بامجادها ليتفرغوا للتبشير بالانجيل ولنشر تعاليم المسيح. وهم يعلمون كل العلم ان التبشير بالمسيح الهاً وانساناً قام ممجداً من القبر بعد ان اماته الفريسيون والرؤساء والكهنة شرّ ميتة ، كيداً وحسداً ، انما هو مجازفة خطرة بالنفس ومدرجة الى الهلكة . ورغم علمهم بما يهدّدهم من اخطار فقد تابعوا التبشير في الهياكل والمحافل . ولم يبالوا بما أنزله بهم الفريسيون من عنت واضطهاد . وقد خرجوا من المحفل فرحين بأنهم « حسبوا مستأهلين ان يهانوا لأجل اسم يسوع المسيح » (اعمال ٥/٤١) . وجادوا بالارواح اثباتاً لما بشّروا به .

صحة الجسم والعقل

والانجيليون اصحاء الاجسام ، اصحاء العقل ، متمرّسون بالمشقات . وطالما احيوا الليالي سهرًا في بحيرة طبريا طلباً للرزق من صيد الأسماك . وهم ابعد الناس عن ان يؤخذوا بالاوهام ؛ وهل يؤخذ بالوهم ، دفعة واحدة ، جمهرة من الناس يتراوح عددهم بين اثنين وسبعين واحد عشر حتى يبلغ المئة والعشرين وربما الخمسمائة (كور ١ ١٥/٦) ؛ وهؤلاء شهدوا بانهم عاينوا المسيح بعد قيامته مجتمعين . هذا فضلاً عن ان الرسل ابدوا بعض الشك في اقوال النساء عن القيامة — كما سبق لنا والمعنا الى ذلك (لو ٢٤/١١) — وفي اقوال تلميذي عمّاوص (مر ١٦/١٢) ، فلم يصدقوا بسهولة ما نقلاه عن قيامته ، فاستأهلوا توبيخ المسيح لشكهم في مرويّتهما (مر ١٦/١٤) . وعلاوة على ذلك فقد عرفوا ان يميزوا بين الواقع والخيال ، بين ظهور المسيح وبين الرؤيا ؛ وقد خافوا لدن ظهر لهم المسيح بعينه فظنوا انهم يرون روحاً . وقد وصف لوقا حيرتهم واضطرابهم بقوله : « وفيما هم يتحدثون بهذا وقف هو نفسه (يسوع) وسطهم وقال لهم : السلام لكم ! فاخذهم الدهش والذعر وظنوا انهم يرون روحاً . فقال لهم : لمَ هذا الاضطراب ! ولمَ الهواجس تنبعث في قلوبكم ؟ انظروا يديّ ورجليّ فاني انا هو . جسّوني وانظروا فان الروح لا لحم له ولا عظم كما ترون لي » (لو ٢٤/ ٣٦—٤٩) . وكان بطرس اول من أوتي له ان يميّز بين الرؤيا وظهور المسيح الحقيقي . لقد رأى المسيح بعد قيامته وجلس اليه على شاطئ البحيرة يحدّثه ، كما انه رأى السماء مفتوحة وسمع صوتاً يحضّه على قبول الامم في الكنيسة (اعمال ١٠/١—٤٤) وقد ميّز بين الحادثتين. وكذلك عرف بولس ، رسول الأمم ، ان يميّز بين الرؤيا التي جاد بها عليه الله بعد ان خُطف الى السماء الثالثة كو ر ٢ : ١٢/١—١٥) وبين ظهور المسيح له (كورنتس ١ : ١٥) . وما القول في هذا المجال عن توما ، توما الذي لا يصدق الاّ ما تلمسه يداه ، وقد انكر على الرسل كل ما رووه له عن القيامة بقوله لهم : « ان لم أرَ أثر المسامير في يديه واضع اصبعي في موضعها ويدي في جنبه ، فلن اؤمن » . وبعد ثمانية ايام كان لتوما ما اراد . فناداه المسيح قائلاً له : « هات اصبعك الى هنا وانظر يدي ، وهات يدك وضعها في جنبي ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً » (يو ٢٠/٢٤—٢٦) .

ولو سلّمنا جدلاً ان الرسل كانوا مرضى العقول فاشاعوا خبر القيامة كذباً وتلفيقاً ، أما كان في مقدور الفريسيين ورؤساء الكهنة في هذه الحال ان يستخرجوا الجثة ويعرضوها للجماهير ليظهر لهم كذب الرسل وليصدّوا الناس عن اعتناق الدين الجديد — وقد اعتنقه دفعة واحدة خمسة آلاف نسمة من سكان اورشليم يوم خطب فيهم بطرس معلناً قيامة المسيح من بين الاموات (اعمال ٢ و ٣) ؟ لكن القبر كان فارغاً .

٣ – القبر الفارغ

ومما يدعم اثبات القيامة فراغ القبر . لقد وُجد القبر فارغاً وفراغه يحمل على افتراضين : اما ان يكون الرسل والتلاميذ سرقوا الجثة واما ان يكون المسيح قام من بين الاموات بقوته الذاتية . والافتراض الاول باطل لاسباب اهمها : انه لا سبيل الى سرقة الجثة وقد بولغ في حراسة القبر والرسل قوم ضعفاء شتتهم مأساة الجلجلة بعد ان طارت قلوبهم لها هلعاً ، وقد رأينا بطرس يخشى جارية ... ولا سبيل الى رشوة الحراس والرسل فقراء لا اموال لديهم ولا ارزاق ؛ والحراس من اخلص المخلصين لاسيادهم الفريسيين ورؤساء الكهنة ، يقبضون اموالهم ويعملون باوامرهم . وبعد فما نتيجة السرقة ؟ ان يخدع الرسل الناس ؟ ولكن اتراهم يخدعون انفسهم (ويصرون على المكابرة والخداع حتى الاستشهاد وبذل الروح ؟ ثم ان تبعة الخديعة تقع على المسيح عينه . أتراه يختار قوماً كذبة لنشر رسالته ، ويروح يؤيّد اقوالهم بما زوّدوهم به من قوّة على صنع العجائب . وقد وعدهم انه سيكون معهم الى منتهى الدهر؟ ان عملاً كهذا تأبى العقول التسليم به لأن فيه من التناقض ما لا يتّفق وقداسة المسيح ابن الله . وهكذا نرى ان الافتراض الاول باطل ، ولا بدّ من التسليم بالواقع الثاني وهو قيامة المسيح بقوته الالهية ، على ما ارشد اليه بولس الرسول في رسالته الى اهل كورنتس (١٥/١–٣٣) حيث قال : « اذكّركم ايها الاخوة ، الانجيل الذي بشرتكم به ... فاني قد سلّمت اليكم اولاً ، ما قد تسلمت انا نفسي : ان المسيح قد مات من اجل خطايانا على ما في الكتب ، وانه قبر وانه قام في اليوم الثالث على ما في الكتب وانه تراءى لكيفا (بطرس) ثم للاثني عشر ، ثم تراءى لأكثر من خمس مئة اخ معاً – اكثرهم باق حتى الآن وبعضهم رقدوا – ثم تراءى ليعقوب ، ثم لجميع الرسل ، وآخر الكل ، تراءى لي انا ايضاً كأنه للسقط ، لأني انا اصغر الرسل ... »

٤ – تجديد البشرية بالمسيح

قام المسيح وكان لقيامته بالغ الأثر في تقرير مصير البشرية . قام من القبر فأقام البشر معه من وهدة الاثم التي اسقطهم فيها آدم الاول بمعصيته ، وحقق حلماً قديماً طالما راود خيال الانسان فاطمعه بمقاسمة الاله مصيره . ولهذا دعا الآباء الاولون المسيح آدم الجديد لكونه اصلح ما أفسد آدم القديم ، وشقّ للانسان طريقه الى الالوهة والسعادة وكان هو الطريق على ما قال : « انا الطريق والحق والحياة ، لا احد يأتي الى الآب الاّ بي » (يو ١٤/٦) .

فالقيامة كالتكوين نقطة انطلاق جديدة في حياة البشرية . وهي مرحلة حاسمة ووجهة سير تؤدي الى الله ، وعربون لنعيم ابدي لا يزول . لهذا يسمـّي بولس الرسول السيد المسيح بكر الخليقة : « وهو رأس جسد الكنيسة ، وهو المبدأ البكر من بين الاموات لكي يكون هو الأول في كل شيء» (كولسي ١/١٥–١٨) .

ولكن كيف يجب ان نفهم هذا التجدّد الذي أحدثه المسيح في البشرية ؟ انه تجدّد يمكـّننا ان نشبـّهه بالتجدّد الطبيعي لدى الانسان . يخضع الانسان لسنة التطور فهو يولد طفلاً ثم يشب ويكهل ويشيخ . وفي كلٍ من مراحل حياته يطرأ عليه تغيـّر في شكله الخارجي وفي نفسيته . فينمو وتكتنز عضلاته ، وتنضج افكاره ، وتتزن اراؤه ويستقيم ما تأوّد من اخلاقه ، لكنه رغم هذا التطور يبقى في جوهره هو هو . وهكذا القول عن التجدد الروحي بفضل قيامة المسيح . يبقى الانسان في طبيعته على ما كان عليه . فهو لا يفتأ يعاني الآلام ويشعر بالتعب ويحسّ بثورة الاهواء لكنه رغم كل ذلك لا يمكنه الاّ ان يعترف بان تبديلاً طرأ عليه . وما ذلك الاّ لأن المسيح أنار حياته وما صغر من اعماله بنور روحي جديد . فتبدّل في نظره مفهوم الحياة فالآلام لم تعد آلاماً تدفعه الى اليأس والقنوط لكونه يشركها في آلام المسيح فتصبح علةً لمجد ابدي وتهون معاناتها ، والاتعاب لم تبق مضنية ساحقة لأنه يقاسيها مع المسيح في طريقه الى الجلجلة ، والشهوات ، وان استعرت في داخله ، فهو يقوى على كبتها وقمعها ، وطعم الدموع اصبح يمازجه بعض الحلاوة لأنها دموع تعقبها افراح اكيدة في عالم باقٍ لا يزول . حدث تغيـّر في حياة الانسان بعد قيامة المسيح مكـّنه من بعض الانتصار على حيوانيته .

لهذا يقول رومانو غوارديني : « ان القديسين كباقي الناس يقضون حياة عادية يقومون فيها بواجباتهم العائلية والتربوية والاجتماعية والشخصية دونما مباهاة او قرقعة ، واذا بهم يتجلون دفعة واحدة قديسين . ان قداستهم لم تقم على التخلي عن ذاتهم ولا على الاختطاف في الله ، لكنها قامت على انهم بعد ان تنكـّروا للانسان العتيق فيهم ، انسان الخطيئة ، في موضوع محدّد ، تابعوا المسير الى الأمام مواصلين جهادهم في وجهة معيـّنة وفقاً لخطة مرسومة هي خطة المسيح القائم من بين الاموات ... » (السيد ، مجلـّد ٢ صفحة ١٦٨) .

وخير مثل لهذا التجدد الذي يحدث في الانسان بفضل النعمة انما هو مثل بولس الرسول . لقد كان يضطهد الكنيسة ويتبجـّح بفعلته هذه (اعمال ٩ وكور ١ : ١٥/٩ وغلاطية ١/١٣) ؛ لكنه ما لبث ان تحوّل من مضطهد عنيف الى رسول يلتهب غيرة

على نشر الدين المسيحي (روما ٨/٣٥ وكور٢:٦/٤) . وهو يعزو هذا التغيّر فيه الى نعمة يسوع المسيح القائم من بين الاموات يوم تراءى له على مدخل دمشق (اعمال ١٩ ؛ كور ١:١٥)/١٠) . « ولست اهلاً لأن اسمّى رسولاً لأني اضطهدت كنيسة الله ، لكني بنعمة الله صرت على ما انا عليه ونعمته التي فيَّ لم تكن باطلة بل تعبت اكثر من جميعهم ولكن لا انا بل نعمة الله التي معي » .

ورغم ما حدث في القديس بولس من تغيّر فهو ما يزال يشعر بوخز الانسان العتيق ، وبهذا العراك الداخلي العنيف ، وبهذا الانقسام على النفس ، بحيث هو موقن ان قسماً منه يشدّ به الى التراب بيد ان القسم الثاني يسمو به نحو العلاء . ولهذا نسمعه يهتف في زفرة عميقة قائلاً : « ما اريده من الخير لا اعمله بل ما لا اريده من الشر اياه أعمل ... الويل لي انا الانسان الشقي : من ينقذني من جسد الموت هذا ؟ نعمة الله بيسوع المسيح ربنا » (روما ٧/١٩—٣٥) . ويحاول جهده أن يتعرى من الانسان القديم .

وما حدث في نفس بولس الرسول من تجدد انما يحدث في نفس كل من المسيحيين عندما يصطبغ بماء العماد المقدس ويقبل بذور النعمة الالهية التي تؤهله لحياة روحية جديدة . فهو يموت بالعماد عن العالم مع المسيح ليحيىَ فيه معه حياة جديدة . وهذا ما اوضحه بولس الرسول عندما قال : « اتجهلون ان كل من اصطبغ منا في يسوع المسيح (اي تعمّد بمعموديته) اصطبغ في موته . فدُفنّا معه في الموت حتى اننا كما اقيم المسيح من بين الاموات بمجد الآب كذلك نسلك نحن ايضاً في جدة الحياة » (روما ٦/٣—٥) .

ان نفس الانسان ميدان صراع لقوتين متعاديتين : الخير والشرّ ولن يتغلّب الخير تماماً على الشر في نفس الانسان الاّ عندما يغمض عينيه الاغماضة الاخيرة عن هذه الدنيا . لكن المسيح سلّحه بالنعمة لمحاولة التغلّب على الانسان القديم فيه . وكلّما احرز نصراً على نفسه وقمع سلطان الشهوة فيه توضّح في رسم المسيح الى ان يتكامل وسط العراك والجهاد في نهاية الطريق المؤدّي الى الله .

٥ – يسوع الكلي الخالد

وهذه النعمة هي الرابطة الوثقى بين المسيح والمسيحيين . وهي التي تخلّده فيهم . ولئن كان جميع تلاميذه على جبل الزيتون بعد قيامته وقال لهم وهو يقلّدهم سلطانه الروحي قبل ان يغادرهم الى ابيه : « لقد اعطيت كل سلطان في السماوات وعلى

الارض . اذهبوا وتلمذوا الامم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وهأنذا معكم كل الايام الى منتهى الدهر » (متى ٢٨/ ٢٠) ، فانما قال ذلك ليظهر لهم انه باق معهم الى الابد بنعمته الالهية . هذه النعمة تجعل من الانسان عضواً في عائلة الله الكبرى . فالناعمون بها انما هم من المسيح كالاعضاء من الجسم (كور ١ : ١٢) أو كالأغصان من الشجرة . لهذا نسمعه يقول : « انا الكرمة وانتم الاغصان » (يو ١٥) وهذا الجسد الذي تجري فية مائية واحدة ، هذا الجسد الذي انتشر اعضاؤه على الارض وفي المطهر وفي السماء انما هو جسد المسيح السرّي او يسوع الكلّي .

فالمسيح حيّ في اعضائه على اختلاف الاجناس والالوان والمشارب. تراه في عيني هذا الطفل تشعّان صفاء ونوراً عندما يضم يديه للصلاة ؛ وتستشفه في قسمات ذاك الشاب يكافح كفاح الابطال للثبات على القمم ، ولمجانبة الانزلاق في مهاوي المنكرات ، وتتبينّه في وجه هذه الفتاة يشرق نقاءً ويشع طهراً ملائكياً ، وتتحسّسه في تفاني هذه الراهبة تنذر نفسها وراحتها وكل ما اوتيته من قوى في سبيل التخفيف من بؤس البائسين وآلام المتألمين ؛ وتكاد تلمسه في عزيمة رب العائلة على العراك المستميت في سبيل اعالة افراد عائلته يطعمهم ثمار عرق الجبين ودم القلب ؛ وتتمثله في جلد ام البنين تنفق زهرة العمر في تنشئة رجال الغد ، وفي هذا العامل يكبّ على عمله اكباب فتى الناصرة عليه في ايمان وعناد ، وفي ذاك المريض يجرع غصص الأوجاع على مثال معلّمه الذي علّق على الصليب . هو المسيح حيّ في جميع اعضائه خالد في مؤمنيه خلود الناس على الارض وفي السماء .

فالمسيح اذن ليس مؤسس ديانة شأنه شأن غيره من مؤسسي الاديان ، وليس هو شخصاً تاريخياً فحسب عاش في فترة من الزمن محدودة ثم توارى عن الابصار والأذهان بعد ان ترك وراءه تعاليم جافة وشرائع جامدة . بل هو شخص حيّ خالد يقيم في قرارة كلٍ من اتباعه، يوحي اليهم باعمالهم ويلهمهم مآتيهم اذا هم عرفوا ان يستلهموه .

وقد أمّن المسيح بقاءه بين الناس بواسطة كنيسته التي خولها سلطانه الالهي في التعليم والارشاد وتوزيع الاسرار التي هي قنوات النعم في النفوس . واذا كان المسيح اعفى نفسه من سنّ الشرائع المدنية فما ذلك الاّ لأنه منح كنيسته من السلطان ما يمكّنها من مساعـــدة المشترعين على سنّ ما يلائم الافراد والمجتمعات من شرائع وقوانين تنسجم والثقافات والمدنيات على اختلاف الاطوار والعصور . هي روح الانجيل تتغلغل في نصوص القوانين وتسمو بها الى عالم اسمى .

وهذه الحقيقة هي ما يحملنا على القول ان الدين المسيحي ليس مجموعة حقائق ايمانية وشرائع ادبية وسنن اجتماعية كغيره من الاديان. بل هو حدث ـ لا بل الحدث ـ يقوم على تجسد ابن الله ، واقحامه نفسه في تاريخ البشر ، ومعايشته اياهم مدة من الزمن وموته وقيامته لأجل افتدائهم . وهو الحدث الذي مهّد له الله بما ضمّن العهد القديم من احداث ، كان اولها اختياره لابراهيم اباً لشعبه ، ثم عقبه ظهور موسى وانبياء اسرائيل من اشعيا الى ارميا وحزقيال وغيرهم ، فكان ظهورهم مراحل في سير التاريخ البشري الى تحقيق الخلاص . وكان اخيراً ظهور المسيح في الجسد المحجة التي سارت اليها البشرية ، والغاية التي هدف اليها التاريخ ، والأمل الأخير الذي داعبه خيال الانسان . ظهر المسيح ، فحصلت البشرية على تحقيق رغباتها وأصبح الناس ابناء لله وورثة لملكوته السماوي ، وهذا منتهى ما يستطيع ان يحلم به انسان .. وقد جدّد السيد المسيح البشرية في شخصه ، وجعلها اسرة واحدة ، حملها معه على صليبه ، وغسلها من ارجاسها بدمه ، واقامها معه بقيامته ، ونقّاها بنعمته ، وهو ما يزال يعمل في كل عضو من اعضائها الى ان يتّحد به نهائياً في السماء. وهكذا قد حصل الاصلاح الذي تاقت اليه البشرية طوال قرون بمجيء المسيح الذي اشتاق رؤيته ابراهيم على ما قال يوحنا الانجيلي بسلطان المسيح : « ابراهيم ابوكم قد أبتهج بان يرى يومي ، ورأى (بعين الأمل والايمان) وفرح » (يو ٨/٥٦) .

فالدين المسيحي اذن هو غاية الغايات ، والامنية القصوى التي راودت خيال الأولين الذين طمعوا بالالوهة ، وقد انالهم المسيح مطمعهم بالنعمة التي افاضها عليهم ، بعد ان جمع البشر اجمعين بشخصه في عائلة واحدة ، كما جمع بشخصه السماء والارض . وقد دللت الاكتشافات البلانتولوجية العلمية التي قام بها الاب تايار دي شاردان اليسوعي على حقيقة ذلك . كما ستراه في الملحق .

فباطلاً ينتظر الناس من ثم حدثاً جللاً يبدّل تاريخ حياتهم ، غير هذا الحدث . ان ما تعاقب ويتعاقب على مسرح الدنيا من احداث انما يبدّل اوضاعاً خارجية لا تفلح في النفاذ الى قرارة نفس الانسان ؛ اما الدين المسيحي فقد احدث ثورة داخلية في الانسان اسعفته على ترسيخ سنن الانجيل في ضميره ، وحوّل وجهه ابداً شطر الله ، لأنه اوجد فيه روحاً جديدة ، هيهات للمصلحين الاجتماعيين ان يهتدوا الى ايجادها . ولهذا باء بالفشل جميع الذين حاولوا اكمال شرائع الانجيل بادخالهم عليه شرائع جديدة من امثال مونتان وماني[1] وغيرهم من المجددين في كل عصر ومصر . واخطأ

١) مونتان : عاش في القرن الثاني بعد الميلاد . زعم انه مدعو لاكمال شرائع الدين المسيحي وادّعى انـــه

ويخطئ اولئك الذين ينتظرون حدثاً غير ظهور المسيح لأصلاح البشرية . فهم يرجعون بالتاريخ الى الوراء قسراً ، والتاريخ لا يرجع الى الوراء . لأن عمل المسيح هو ما انتظرته البشرية ولا سبيل الى اكماله بسواه ومن حاول ذلك مني حتماً بالفشل . لأن المسيح هو الاله المرتجى والانجيل هو الكلمة التي ما بعدها كلمة ، والقول الفصل في مصير الانسان .

ملحق ٥

حول المسيح الكلي (نظرية الاب تايار دي شاردان)

لا جرم ان الاب تاياردي شاردان اليسوعي (Le Père Teilhard de Chardin, s. j.) اصبح الآن عالم القرن العشرين دون منازع . لقد اقتطع له شخصية كبرى واحتل مكانة عالية في سائر الاوساط العلمية الدولية وصار مذهبه العلمي – الفلسفي – اللاهوتي ، موضوع الاحاديث الخاصة والعامة في الجامعات والندوات الثقافية برمتها وذلك لا لما وُهبه من عبقرية ونبوغ ، ولا لما قام به من ابحاث واكتشافات علمية وحسب ، بل لما تفرّد به ايضاً بنوع خاص ، بنظريته الكونية للخليقة التي وجدت تجاوباً لها في كل انسان تشغله مشكلة المصير .

وُلِدَ الأب تايار دي شاردان في اول ايار سنة ١٨٨١ في احد قصور اوڤرنية بفرنسا من اسرة شريفة . دخل احد معاهد الآباء اليسوعيين ونبغ نبوغاً فريداً في الرياضيات والطبيعيات والفلسفة ، ثم ما لبث ان انضم الى الرهبانية اليسوعية نفسها عند نهاية دروسه الثانوية . ولما كان ميّالا بالسليقة الى حب الطبيعة ودراسة علم الارض (الجيولوجيا) وفّرتْ له رهبانيته جميع الوسائل للاختصاص بهذا العلم فنهل منه وحصل على الشيء الكثير . وكان قد عثر ابان دراسته الجيولوجية على بعض الهياكل العظمية المتحجرة الغريبة الشكل ، مما ساقه وهداه الى التفرّغ لدراسة « الپلانتولوجيا » (علم الهياكل العظمية) حيث رأى فيها تكملةً لعلم الجيولوجيا وموضوعاً قابلاً لاكتشافات جديدة ممكنة كان يرجو الوصول اليها . فحوّل مجهوده الى هذه الناحية وراح ينبش الارض ويكتشف دفائنها ، فعثر على خواف كثيرة قيّمة ، ممّا أهّله لأن يكون من كبار علماء التاريخ . فركّز الپلانتولوجيا على اسس علميةً مكينة . وبجرأة عالم وضمير كاهن وشاعرية « ميستيكي » أقدم على التوفيق ما بين العلوم الطبيعية ومعطيات الوحي المسيحي واظهر علمياً صحة حقيقتها وواقعيتها .

الروح القدس الذي وعد به المسيح تلاميذه واطلق على عهده اسم الروح القدس . انتشرت ضلالته حيناً ثم ما لبثت ان تلاشت .

ماني : عاش في القرن الثالث بعد الميلاد في فارس والهند ... وادعى كمونتان انه مدعو لاكمال عمل المسيح وانه الروح القدس . تبعه بعض ملايين الناس وانتشر مذهبه في بلاد فارس والشرق الادنى ، وانتقل الى الغرب ، وظل حتى القرن الثالث عشر وما لبث ان تلاشى .

«احب الوجود بكل ما فيه، يقول عنه الاب اميل ريدو اليسوعي[١]، لأنه كان يرى الروح تتماوج « في كل صخرة ونبتة وفي كل موجة وجمجمة ، وعملُ الله الكوني الدائب يستجمع شتات الخلائق « ليضمها الى واحد . مشى على كل دروب الحياة ونزل الى مغاور الارض وكهوفها وفتت صخورها « وشم رائحة جميع نبتاتها وحلل بقايا كل ما دبَّ ومشى عليها . فكان سيداً من اسياد الوجود واقـــام « ذبيحة القداس الالهي على مسرح الوجود الفسيح الى الباري تعالى خالق الكون ومبدع الوجود.»

كان رحّالة لا يملّ وكانت حياته سلسلة رحلات علمية واستكشافية متعاقبة ابتدأت سنة ١٩٢٣ وانتهت بوفاته سنة ١٩٥٥ .

جدول رحلاته

سنة ١٩٢٣ : رحلة علمية استكشافية الى الصين في مقاطعة غوبي .

سنة ١٩٢٧ : رحلة علمية استكشافية الى الشرق الاقصى (الهند الصينية ، الفيلبين ، اليابان).

سنة ١٩٢٨ : رحلة علمية استكشافية الى الصومال .

سنة ١٩٢٩ : رحلة منظمة مع فريق من زملائه العلماء الى الصين حيث ابتدأ حفريات شوكوتيان العظيمة (Chou-Kou-Tien) التي أدَّت الى اكتشاف « الصينتروپ » (Sinanthrope) جمجمة اول نوع من البشر الشبيهين بالقرَدة يرقى عهدها الى مليون وسبعمائة سنة . فعند ذاك عرضت عليه حكومة الصين ان يدخل في جمعية علماء الجيولوجيا الصينية ويكون عضواً دائماً فيها . فقبل العرض برغبـــة واخلاص وكتب الى فرنسا يقول : « لقد بدأت منذ الآن اكون خادماً امينـــاً لحكومة الصين وشعبها . »

سنة ١٩٣٠ : رحلة علمية في الصحاري الممتدة في اواسط آسيا .

سنة ١٩٣١ : رحلة مع جماعة « سيتروون » (Citroën) الفرنسية في آسيا (التيبيت والهند) .

سنة ١٩٣٥ : رحلة علمية الى جبال حملايا في الهند .

سنة ١٩٣٧ : رحلة علمية الى جزيرة جاوا (Java) باندونيسيا لدراسة الهياكل العظميـــة للبيتاكنتروپ (Pithécantrope) الشبيه بالصينتروپ المكتشف في الصين والذي قال عنه انه قد يكون اخاً او ابن عم او جداً للصينتروپ .

سنة ١٩٣٩–١٩٤٥ : مكثَ في الصين سحابة الحرب الكونية الثانية .

سنة ١٩٥٠ : دخوله المجمع العلمي الفرنسي .

---

١) Emile Rideau, *Panorama chrétien*, mars 1962.

سنة ١٩٥١ : رحلة علمية الي اميركا الشمالية حيث اتخذ نيويورك مقراً لابحاثه العلمية وذهب منها مرتين الى جنوبي افريقيا (١٩٥١ و١٩٥٣) لدراسة الهياكل العظمية القديمة . وهناك تتوّجت ابحاثه باجمل اكتشافاته واستطاع ان يركّز نهائياً نظريته الفلسفية للكون والخليقة على اسس علمية صحيحة .

سنة ١٩٥٥ : وفاته فجأة في مدينة نيويورك ابّان ابحاثه العلمية في العاشر من نيسان ، في مساء الفصح ، مساء قيامة المسيح المجيدة من الاموات وتجديده للبشرية وبداية المسيح الكلّي (المسيح والبشر) الذي آمن بوجوده طوال حياته وقد برهن علمياً عن حقيقة تكوينه . كانت وفاته عودة الى حضن الآب السماوي الذي طالما عاين ولمس آثار اعماله في اعماق الارض وعلى صفحات اليم وقمم الجبال ولا سيما على جبين الانسان .

مؤلفاته :

خلّف الأب تايار دي شاردان مؤلفات كثيرة طُبِعَت جميعها بعد وفاته ، منها :

الظاهرة البشرية	(Ed. du Seuil)	*Le phénomène humain*
وهو باكورة مؤلفاته واعظمها .		
ظهور الانسان على البسيطة	(»)	*L'apparition de l'homme*
نظرة الى الماضي	(»)	*La vision du passé*
البيئة الالهية	(»)	*Le milieu divin*
مستقبل الانسان	(»)	*L'avenir de l'homme*
الطاقة البشرية	(»)	*L'énergie humaine*
توليد الطاقة البشرية	(»)	*L'activation de l'énergie humaine*
المجموع الحيواني البشري	(Ed. Albin Michel)	*Le groupe zoologique humain*
رسائل رحلاته من عام ١٩٢٣ الى عام ١٩٥٥	(Ed. Grasset)	*Lettres de voyage de 1923-1955*
تاريخ تكوين فكرة	(Ed. Grasset)	*La genèse d'une pensée*
رسائل من عام ١٩١٤ — الى عام ١٩١٨		*Lettres de 1914-1918*

مذهبه العلمي — الفلسفي — اللاهوتي

نظر الأب تايار دي شاردان برغبة ملحة ومتواصلة الى كل ما يحيط به نظرة علمية. تفرّس طويلاً في الواقع ، واصاخ الى كل حركة وكل وشوشة وكل دبيب من ذاك الواقع ، واستطلعه اسراره جميعها واستخلص منه مستندات جمّة ركّز عليها نظريته العلمية للكون التي كانت بمثابة تأليفية كبرى لجميع ابحاثه واكتشافاته. غير انه لحظ ان ثمة مجريَيْن او تيارَيْن مستقلين من تفكيره يلتقيان بنقطة واحدة ، الحقيقة المطلقة ، رغم تباينهما ، اولهما فلسفي وثانيهما لاهوتي ؛ الاول يقتصر على التبصر في الواقع والثاني يعلو ويرتقي الى مصدر الوحي الالهي . ولهذا تبدو لنا عناصر تأليفيته على الشكل الآتي :

١ – علم الطبيعيات يكشف ظاهرة التوحيد الكوني العالمي

ترتكز فلسفته قبل كل شيء على رؤيا خاصة للكون . نظر اليه نظرة واقعية علمية فقط ، بقطع النظر عن ايمانه المسيحي والاكليريكي ، فسحره الكون وأخذ بمجامع قلبه ، لأنه رأى فيه ولادة وطفولة وترعرعاً وبلوغاً فنضجاً وبالتالي تاريخاً حياً. رأى اول امره شيئاً يحدث ويدبّ ويتحرّك ثم نظر اليه ملياً واذا به يرى ذاته امام عالم كبير يتمخض عن ولادة كبرى . فالكون منذ نشأته وفي سائر اطواره كان وما انفكّ يخضع لناموس تطور كبير . يُخيَّل للمرء انه لا يتحرّك ، بينما هو ، في الواقع ، يتقلص ويتمدد ويتفتق وينتشر وينمو ويتسع ويبني ذاته فيبتدع ويخلق ويواصل ابداً تكميل نفسه . هي قوة « قوويّة »، داخلية ، تدفع تلك الشجرة الى النمو والارتفاع ثم الى بلوغ نضجها وعلوها النهائي وسط تطور مقصود ومحكّم ومُخطَّط في مراحل حياتية بعيدة عن كل تصنّع او اتفاق وجرياً على ناموس باطني يسوقها صُعُدّاً حتى الاكتمال . فما معنى هذا الحدث ؟ وما نفسيته وغايته ؟

لقد لحظ ، قبل الأب تاياردي شاروان ، الفيلسوف الالماني هيچل (Hegel) سنة ١٨٠٧ تلك القوة الروحية التي تعمل عملها بحركة منظمة في داخل المادة والكون وحاول ان يشرحها بمنطق جدلي لتاريخ البشرية « الديالكتيك الجدلية » ثم عقبه كارل ماركس ونظر النظرة عينها غير انه توقف على المادة فقط دون ان يتخطاها فكوّن فلسفته على المادة الجدلية المتطورة التي تصنع تاريخ الكون . ولكن لم يُكتَب لهما ان يحرزا الاكتشافات العلمية التي اكتشفها الأب تاياردي شاردان ليصححا نظريتهما للكون ويركزاها على اسس علمية مكينة نظيره . فاظهر في كتابه المأثور «الظاهرة البشرية » (le phénomène humain) تفهماً نادرًا لتاريخ الكون بحيث اكتشف طاقة إلهية تسيّر الكون بحركة منظمة وتقوده الى الله . اما نقطة الانطلاق في هــذه النظرة الحدسية فهي ان الحركة الدائبة في الكون تصبو وتهدف الى الوحدة العالمية ، فالتاريخ ليس سوى تاريخ خلــق كائنات تميل بالسليقة نحو الوحدة وتعمل بدافع الغريزة على وحدة حيوانية ثم على وحدة شخصانية حتى تنتهي الى وحدة شاملة تضم اليها جميع اشخاص المعمور . فالكون يميل الى الارتكاز ويُبنى عليه . الاّ ان هذا الارتكاز الشامل يستلزم وجود الروح او الطاقة الروحية ضرورةً في قلب الكون، وهذه الطاقة الروحية ليست سوى الله سبحانه وتعالى ، الروح المتعالي فوق الكائنات ، القائم بذاته بمعزل عن الكون . هو الذي اوجد في الكائنات وثوباً من الحرية والحركة يجعلها تهدف الى الوحدة الغائية في الحب . هنالك « كوسموچنيز » (ولادة عالم) « وانتروپوچنيز » (ولادة الانسان) ، والتاريخ قائم بذاك الانتقال الكبير من الكثرة الى الوحدة ومن التفرقة الى الاتحاد . وقد يكون تاريخ الكون قد جرى على الخطة التالية :

وضع الله الروح في المادة فاختبأ فيها وحبلت به بنوع ما وبدأ يعمل عمله البطيء والدائب معاً من داخلها الى ان قفز قفزةً انفرجت عن النبات ثم عقبتها قفزة اخرى انفرجت عن حيوان بسيط دون عمود فقري ؛ ثم حدث تطور في هذا الحيوان فكانت تشعبات مختلفة ومتعددة افضَت الى ظهور العمود الفقري وعقبتها تشعبات اخرى افضت الى ظهور الدماغ ثم الى الوعي فالوجدان . فكانت ثمت قفزة كبرى في عالم الحيوان وكان الانسان ودخوله فجأةً وجه البسيطة . ثم ان هــذا

الانسان أخذ يعمل بحافز الروح الكامن فيه الى الكثرة والتعدد فتشعب الى اجناس واعراق وألوان وشعوب وأمم . وبعد انتهاء مرحلة هذه التشعبات البشرية هو الروح الكامن في البشر يعمل فيهم ورغماً عنهم بواسطة عوامل مختلفة ، منها التزاحم والتنافس الاجتماعي ، (وهنا كان يجدر بالأب تاياردي شاردان ان يذكر ايضاً عامل الخطيئة والألم والشر والحروب) ليجمعهم الى واحد في الله. هو الروح خرج من الله وسيعود اليه بعد مروره بمراحل وتقلبات متعددة . وها هي تلك المراحل :

١ – **المرحلة الاولى** ؛ المادة تبدأ بحركة التوحيد

تبدو المادة ظاهرياً ثقيلة وجامدة ، تميل قواها الى الانحلال والانفكاك . تراجع الحركة ذاتها في ايام معلومة وتبعاً لناموس طبيعي يماثلها حركةً . ولكن من ينظر اليها ملياً ويسبر غورها يتبيـّن له انها تحمل في جوفها عقلاً وذكاءً وتناغماً كامناً في تلافيفها ، تلحظه النظرة العلمية وتكتشفه وتبرزه الى حيـّز الوجود . فالمادة تبني وتنظّم ذاتها بطرق متشعبة ومختلفة ، تجمع ذاتها وتعمل على وحدتها منتقلة من ذريرة الى ذرة ثم الى صخور بلّورية واخيراً الى جِرْم. ومهما بدت المادة مغشّاة فانها تحمل فيها نوعاً من الوجدان بشبه غيبوبة او لا شعورية .فالكون « الكوسموس » (Le cosmos) مغلـّف بغلاف روحي ، والمادة كجواد جموح يثور متلمساً حالاً ينفلت فيها من القيود ويجد مخرجاً لكل القوى المتعددة الكامنة فيه . فالمادة، حيثما وقعت ، سواءٌ اكان من الامام ام من فوق ، فانما تقع على الروح . ولهذا هتف الأب تايار دي شاردان ، لما عاين هذا المشهد لاول مرة ، مندهشاً قائلاً: «ايتها المادة المقدسة، يا حاملة الروح في رحمِك!»«Sainte matière matrice de l'esprit!»

٢ – **المرحلة الثانية** – الحياة توجد لها بنى اعقد واكثر توحداً وشعورية بشكل متزايد

ها هي ذي الحياة مُغلـّفة ومحضونة بالمادة تنظر اول سانحة لتبرز الى الوجود، فتظهر بشكل اجهزه متعددة حية ، ثم لا تلبث ان تتجسد بكائنات مزدانة بحساسية ووجدان وان تكن متأصلة وخاضعة لنواميس كونية جبرية . وهذه الحياة تنطوي على قوة جديدة قادرة على ابتداع الممكن وغير المنتظر ؛ وبدلاً من ان تنحدر الى مخلوقات متجانسة ترتفع صعداً شطر الروح وتدفع كل ما من شأنه ان يفككها ويُشتتها . ثم انها توجد وحدات ومجموعات بيولوجية اكثر تشعباً من الكائنات المادية . وهذه الوحدات البيولوجية تخضع جميعها افراداً واجناساً للناموس التالي : كلما نما فيها الجهاز العصبي والدماغي ازدادت فيها درجات الوعي و الوجدان والحساسية والشخصانية . فقيمة الجهاز العصبي وغناه تتفق وقيمة الشخصية اقله في بداءتها . وبعد طيات وليات تبرز قوة الحياة الصاعدة وتنفرج عن مخطط محدّد هو التطور التحويلي يحقق فكرة صنعها تدريجياً . وهناك نظام خُطّ ورُسم نحو التقدم المتواصل . ومحور ممتاز ارتفاعي يبدو في حين ان الحشرات وغيرها من الاجناس الحية تغوص وتنحط وتتلاشى وتلك قفزة تحدث في صفوف الفقريات والضرعيات من الحيوانات ثم تنتقل الى القرديات والقرديات البشرية . وهكذا كانت الحياة تتقدم باطرادٍ متواصل بعد ظهورها بمليارين من السنين نحو القفزة الثالثة الكبرى .

٣ – المرحلة الثالثة : الانسان يقدم على ترقيه البطيء

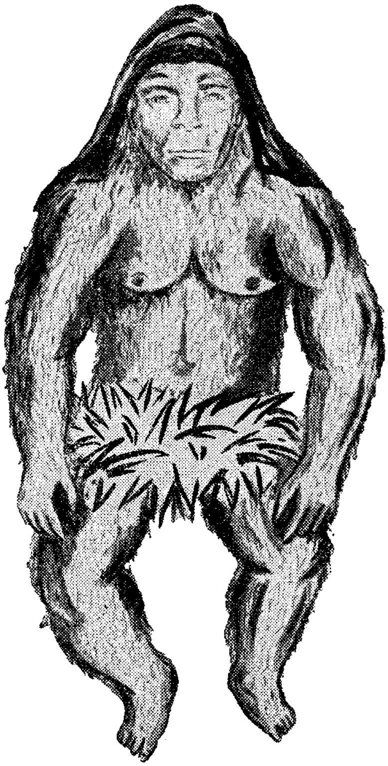
وبعد تهيوٴ مديد ها هو الانسان يدخل بغتة الوجود دون ضجة ، تحت ستار الصمت ، في آخر الطور الثالث لتكوين الارض ، وذلك منذ اكثر من مليون سنة على الاقل .. وقبل اكتماله البيولوجي والروحي ، بدأ يصعد صعوداً شاقاً ، ماراً باجناس مختلفة ، كما يظهر ذلك من الهياكل العظيمة المتحجرة في داخل طبقات الارض منهـا انسان النايندرتال[١] (Néanderthal) وانسان الكرومـانيون[٢] (Cromagnon) . والپيتاكنتروپ (Pithécantrope) والصينتروپ (Sinanthrope) ، ومن مقدرته عـلى اختراع ادوات العمل والنار وما الى ذلك من علائم الحضارة .

تلك هي الظاهرة البشرية المرتبطة كل الارتباط بالحيوانية والمختلفة عنها تماماً بالوقت نفسه ليس بالدرجات والمقاييس فحسب ولكن بالطبيعة ايضاً . فانسان ذاك العهد ليّن ومطواع ، مَرِن ، منفتح على السعي وراء طلب الاكمل ، قادر على الاختراع والابتداع التكنيكي ، وقابل خصوصـاً للتفلسف وصوغ الكلام وميّال الى الحرية والمثل العُليا : الحقيقة والجمال والعدل والحب. وهي ظاهرة فريدة من نوعها في تاريخ الوجود . فدخول الفكر البشري الكون ظاهرة غير اتفاقية بل مقصودة وكامنة في ناموس التطور ، تشكّل فيه حجر الغلق . فالانسان ليس سوى التطور عينه الذي «توجدن» ووعى ذاته بواسطة الفكر .

---

(١) Néanderthal : واد في بروسيا الرينانية بالمانية حيث وجد الدكتور فولهروت Fulhrott في كهف سنة ١٨٥٧ جمجمة انسان متحجرة ترقى الى اكثر من مليون سنة ، شبيهة بجمجمة الصينتروب التي وجدت في الصين .

(٢) Cromagnon مقاطعة قرب نهر الدوردون في جنوبي غربي فرنسا حيث عثر على جمجمة متحجرة ترقى الى الشعوب القوقاسية القديمة التي قطنت غربي اوربا ولا سيما غربي فرنسا منذ مئات الوف السنين وتشبه جمجمة الصينتروب ، وهي ايضاً تضيق من فوق وتعرض من تحت على شاكلة جماجم القردة .



صورة الانسان الاول في الهياكل العظمية المتحجرة لدى دخوله الحياة

منذ مليون وسبعمائة وخمسين الف سنة تقريباً دخل الانسان البسيطة تحت ستار الصمت في آخر الطور الثالث لتكوين الارض

٤ – المرحلة الرابعة : البشرية الحالية تسير نحو الوحدة

بعد مرور آلاف القرون توقف التطور الكوني على صعيد الفسلجة«physiologie» ، لكنه ما برح يتابع شوطه على صعيد آخر في صميم القرن العشرين ، اعني به الصعيد الاجتماعي ، ويحاول أن يبلغ اكتماله بارتكاز شامل للبشر . وهناك دلائل جمّة تبيـّن لنا ان البشرية تسير في هذه الآونة نحو مرحلة الرشد والبلوغ . لقد اوجدت شعبة من المواصلات تجعلها اكثر تضامناً ، فهي تتحد بالاستكشاف التكني العلمي وتهدف للوصول الى اكمل تنظيم اجتماعي سياسي يتسع اتساع الدول والعالم . ترى ذاتها محصورة ومتضايقة بسبب كثرة عدد المواليد ؛ ولهذا تضطر بحكم الواقع الى الاتحاد الاجتماعي لكي تزيل حدة التوتر العالمي من بين الشعوب . وفي وسط هذه الازمات والصراعات تظهر ثمة رغبة متزايدة في الاتحاد ما بين الدول والشعوب . هذا والطاقة الروحية الدائمة تعمل عملها في داخل النخبة من البشر وتحضهم على التفاهم والتحابّ . فالبشرية ما انفكت تخضع لناموس الاندفاع المتأتي من

روح الارض والكون نحو الوحدة، وحدة الآراء ووحدة القلوب، مع تعاون الحريات الفردية. انها لظاهرة رئيسية واولية من التضامن والتعاضد والوحدة الشاملة. فانسان هذا العصر يتطور تطوراً متواصلاً وهو في اوج تطوره.

المرحلة الخامسة والاخيرة: نهاية التاريخ: علامة الياء (الاوماغا)

لئن يكن المستقبل غامضاً فهذا لا يمنعنا عن الاستنتاج ان تيار التوحيد الكوني سيتابع جريه وينتهي يوماً دون ما ريب الى جمع البشر الى واحد، وإلى فوز الحقيقة على الضلال والمحبة على البغضاء. وبعد مضي الوقت اللازم ستحين ساعة يبلغ فيها عموم البشر نضجهم كما بلغت الحياة سابقاً ساعة نضجها، وتنتهي ساعتئذ خطوط السير والتقدم نحو القمة الواحدة. هي «عنصرة» واسعة نهائية[1] تفضي إلى انتصار الروح في الوحدة، تلك الوحدة التي لن يذوب فيها الاشخاص ولن تتلاشى الحريات. وشركة الضمائر البشرية هذه تفترض وجود كائن مطلق متسام، متعال منه تنحدر وتتخذ كيانها وانسجامها وكمالها والاّ كانت مبهمة دون أس ولا رأس. فوحدة الارواح العضوية حيث تنتهي وحدة الكون، تستلزم اذن وجود الله ضرورة. وهذا الأله هو نقطة الدائرة في تطور التاريخ، علامة الياء التي اليها يتجه وعليها يرتكز كل شيء. لا يستطيع ان يكون هذا الإله مثلاً اعلى فقط والاّ لخلا من القوة والدفء والمحبة. ولهذا يجب ان يكون شخصاً بل شخصاً متعالياً ومتسامياً والاّ لما كان للكون معنى ولا غاية. هو الله علة الكون. ألفه وياؤه، بداءته ونهايته هو الذي وضع قوة الروح في المادة وجعلها تتطور وتتحول وتتشعب وتتعدد ثم تعود وتتجمع وتتوحد لترجع اليه.

المسيح والكون: المسيح الكلي

وبينما تسير البشرية نحو مصيرها، اذا بحدث خطير وبالتالي قفزة روحية هائلة اشد خطورة من قفزة الانسان في طور الحيوانية الى البشرية، تحدث على وجه البسيطة، الا وهي ظهور المسيح في التاريخ. لقد اجتمع فيه الاله والانسان، الالوهية والبشرية، فتهيّأ للكون به أن يتحد بالله. وكان ظهوره اعظم حدث لتطور البشرية وتقدمها نحو مصيرها. والمسيح هو اولاً يسوع الناصري المحاط بالزمان والمكان. هو ابن مريم العذراء ومنها يرقى الى ابراهيم الذي ينغرس بواسطته بجنس البشر وبترتبهم، وهو مكوّن على شاكلته من تراب الارض، اي لاصق بالكون اجمع ومرتبط به.

واذا ما طالعنا رسالتي القديس بولس الى أهل كولوسّي وأهل أفسس بشأن المسيح، تبيّن لنا ان يسوع هو ايضاً المسيح الكلي، المسيح الشامل الذي يؤلف مع الكون وحدة فريدة من نوعها وعلى جانب خطير من الاهمية. «الذي (المسيح) لنا فيه الفداء بدمه مغفرة الخطايا، الذي هو

---

١) عنصرة: هو اليوم الذي حل فيه الروح القدس على تلاميذ المسيح وملأهم فهماً ومعرفة وقوة وجرأة. وهنا يلمح الاب تايار دي شاردان الى ذاك العيد نظراً الى ما سوف يحدث يوماً في نهاية العالم من التغيير في البشر، الشبيه بنوع ما بتغيير التلاميذ يوم العنصرة.

« صورة الله الغير المنظور وبكر كل خلق . لأنه به خُلِقَ جميع ما في السماوات وعلى الأرض ما
« يُرى وما لا يُرى عروشاً كان او سيادات او رئاسات أو سلاطين . به واليه خُلِقَ الجميع . وهو
« قبل الجميع وبه يثبت الجميع . وهو رأس جسد الكنيسة هو المبدأ البكر من بين الأموات لكي
« يكون هو الاول في كل شيء . لأنه فيه رضي الآب ان يحلّ الملء كُلّه وان يصالح به الجميع
« لنفسه مسالماً بدم صليبه ما على الارض وما في السماوات » (كولسي ١/١٤–٢٠) .

« مبارك الله ابو ربنا يسوع المسيح الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح .
« كما اختارنا فيه من قبل انشاء العالم لنكون قديسين وبغير عيب امامه بالمحبة . سابقاً فحدداً ايّانا
« للتبني له بيسوع المسيح على حسب رضى مشيئته ... الذي لنا فيه الفداء بدمه مغفرة الزلات على
« حسب غنى نعمته التي أفاضها علينا في كل حكمة وفطنة ، إذ أعلمنا سرّ مشيئته على حسب مرضاته
« التي سبق فقصدها فيه لتدبير ملء الازمنة ليجمع ويجدّد في المسيح كل شيء ما في السماوات
« وما على الارض في المسيح الذي فيه دُعينا ايضاً بالقرعة مُحدّدين سابقاً ، طبق قصد من يعمل
« كل شيء بحسب مشورة مشيئته ، لنكون لمدح مجده نحن الذين كنا اول الراجين للمسيح .....
« الذي عَمِلَهُ في المسيح حين اقامه من بين الاموات واجلسه عن يمينه في السماويّات فوق كل
« رئاسة وسلطان وقوة وسيادة وكل اسم يسمّى ليس في هـذا الدهر فقط بل في المستقبل ايضاً .
« واخضع كل شيء تحت قدميه وجعله رأساً فوق الجميع للكنيسة التي هي جسده وملء الذي يملأ
« الجميع في كل شيء » (أفسس ١/٣–٢٣) .

« فانكم جسد واحد وروح واحد كما دُعيتم الى رجاء دعوتكم الواحد . وللجميع رب واحد
« وايمان واحد ومعمودية واحدة ... ولكل واحد منا أعطيت النعمة على مقدار موهبة المسيح ...
« فذاك الذي نزل هو الذي صعد ايضاً فوق السماوات كلها ليملأ كل شيء . وهو الذي جعل بعضاً
« رسلاً وبعضاً انبياء و بعضاً مبشرين وبعضاً رعاةً ومعلّمين لأجل تكميل القديسين ولعمل الخدمة
« وبنيان جسد المسيح ، الى ان ننتهي جميعنا الى وحدة الايمان ومعرفة ابن الله ، الى انسان كامل ،
« الى مقدار قامة ملء المسيح » (أفسس ٤/٤–١٣) .

وان المسيح هو ايضاً الخالق والمصدر الاساس لهذا الكون الفسيح ، المثال الاعلى الذي على صورته تتكون الكائنات ، البيئة الالهية التي فيها يموج ويتحرك كل شيء ، نقطة الدائرة التي تلتف حولها وتتوحد العناصر المتعددة وتقوم دعامتها وبنيتها ؛ وهو الفكرة التي توجد معنىً لهـذه الكائنات ؛ هو الطاقة المحرّكة ؛ هو القطب وهو الغاية التي تصبو اليها الرغائب وتجد فيها مركزها ومنتهاها .

وقد جاء انجيل القديس يوحنا مصدقاً لما قدمه القديس بولس برسالتيه الى أهل كولوسّي وأهل أفسس ولما قدمناه بهذا الصدد . اجل ، لقد استهل انجيله بكشف مخطط الله على الكون والخليقة في المسيح قال :

« في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله . هذا كان في البدء عند الله .
« كلّ به كُوّن وبغيره لم يكوّن شيء ممّا كُوّن . فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس .

« والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه ... والكلمة صار بشراً وسكن ما بيننا وقد ابصرنا مجده « مجد وحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً » (يو ١/١–١٤) .

فلم تكن الغاية من سر التجسد الالهي تحرير البشر وافتداءهم وحسب بل تكملةً لتكوين الخليقة وصلةً حيةً تربط البشر بمصدرهم الاول بغية تجديدهم وتأليههم بنوع ما . كان سر التجسد خدمةً الهية في تاريخ البشر. وان يبدُ سر الصليب والفداء اولاً تكفيراً عن الخطيئة فهو ايضاً انحدار وانغماس للكلمة الالهي في حضن الألم الشامل ، في حضن البطء الكوني الشامل الذي تبناه بملء حريته ليدعو الانسان الى العمل جاهداً لاجل وحدة الكون الشاملة .

اما نهاية العالم فهي الارتكاز النهائي للبشر المُخلّصين بالمسيح ، وتتويج التاريخ الذي وصل بفضله الى نضجه وغايته ، واجتماع الجسد السرّي بكامله بالمجد في نجاح المشروع الالهي ومخططه على الخليقة . واتحاد جميع الضمائر ذات الارادة الصالحة في المحبة والروح . هي نهضة البشرية بأسرها . الله يجمع ويضم اليه كل ما خلقه بحافز حب وجودة . فالزمان متصل بالابدية وما بين الله والانسان رباط واقعي ؛ والانسان اصبح يعمل اعمال الله والارض صارت مسكناً لله . فالتاريخ ليس بعمل اتفاقي انما له غاية ومعنى ، وكما يقول الشاعر الفرنسي شارل پيغي :

« الحياة الفائقة الطبيعة هي في الوقت نفسه جسدية وشجرة النعمة تبقى مغروسة في اعماق الارض . »

تلك مقتطفات من افكار الاب تايار دي شاردان اليسوعي حول نظرته الى الكون والخليقة والمسيح الكلّي تبعاً لما جاء بنوعٍ خاص في كتابيه المأثورَيْن «الظاهرة البشرية والبيئة الالهية».لقد بدأ بنظريته هذه فاتحة عهد جديدٍ في علم الدفاع عن المعتقد المسيحي بحيث أظهر ان معطيات العلوم الطبيعية تنسجم كل الانسجام ومعطيات الوحي الالهي . فالعلوم الطبيعية كشفت عن ظاهرة الوحدة الكونية التاريخية وأبانت ان ثمة محورًا وقطباً لتلك الحركة الوحدوية الكونية الا وهي علامة الياء (الاوماغا) . والمسيحية ترتكز هي ايضاً من جهتها على عقيدة رئيسية ، وحدة البشر الروحية ما بين المسيح واعضائه في الجسد السرّي .

فعلم نواميس الكون العامة يفترض وجود طاقة روحية لا يمكن الاّ ان تكون روحاً شخصانياً منه تصدر تلك الحركة الدائبة نحو التطور والتقدم ، والمسيحية تقول ان هذه الطاقة الروحية موجودة وقد تجسّدت وظهرت يوماً بشكلٍ منظور في تاريخ البشر في شخص يسوع المسيح .

صورة عن المسيح الكلي تبعاً لفكرة الاب تايار دي شاردان كما تراها في الصفحة التالية .



المسيح الكوني (المسيح الكلي) (Le Christ Cosmique) يجمع البشر ويضمهم اليه في وحدة كاملة وشاملة ، كما تصوره الاب تايار دي شاردان اليسوعي .

الفصل السابع

المسيح سيد التاريخ والزمن

(المسيح وشهوده في التاريخ)

١ — الرسل يجددون دعوى المسيح

— دعوى المسيح امام القضاء في التاريخ

٢ — مسيح التاريخ والايمان

— شهادة بطرس

— شهادة بولس

— شهادة الانجيليين الازائيين

— شهادة يوحنا

٣ — شهود المسيح في التاريخ : القديسون

— شهادة الدم

٤ — شهادة العبقرية والنبوغ

— اغسطينوس ومدينة الله

٥ — شهادة النسك والعزلة

— القديس بندكتوس

٦ — شهادة السلام المسيحي

٧ — شهادة الفقر

— فرنسيس الاسيزي وروحانية الفقر

٨ — شهاة الحياة الداخلية

— توما الكمپيسي وروحانية الاقتداء بالمسيح

٩ — شهادة الجهاد الرسولي والعمل

— اغناطيوس دي لويلا والرياضات الروحية

١٠ — شهادة التكفير عن المعاصي

— ترازيا الابيلية

— يوحنا الصليبي

١١ — شهادة المحبة العاملة

— منصور دي پول

١٢ — شهادة القلب

— الفيلسوف پاسكال

١٣ — روحانية الطفولة وشهادتها

— ترازيا الطفل يسوع

١٤ — روحانية الحياة الكادحة

— شارل دي فوكو

الرسل يجددون دعوى المسيح (دعوى المسيح امام القضاء في التاريخ)

ختم يسوع المسيح رسالته على الارض على الشكل التالي : كان قد تراءى اكثر من مرة لرسله واتباعه ، بعد قيامته من بين الأموات، كما جاء في نصوص اسفار العهد الجديد (متى ٢٨؛ مر ١٦ ؛ لو ٢٤ ؛ يو ٢٠ و ٢١ ؛ اعمال ١) . وقبل ان يغادرهم نهائياً ويعود الى الله ابيه ، جمعهم لآخر مرة على جبل في الجليل وقال لهم : « اني قد أعطيت كل سلطان في السماء والارض . فاذهبوا الآن وتلمذوا كل الامم معمّدين اياهم باسم الآب والابن والروح القدس وعلموهم ان يحفظوا جميع ما اوصيتكم به وهأنذا معكم كل الايا م الى منتهى الدهر» (متى ٢٨/١٨—٢٠) .

وذكر ايضاً القديس لوقا الانجيلي في سفر اعمال الرسل بعض فقرات من هذا الخطاب الوداعي الاخير لم يأتِ على ذكرها القديس متى الانجيلي ، منها كلمة « فتكونون لي شهوداً في اورشليم وجميع اليهودية وفي السامرة والى اقصى الارض » (اعمال ١ /٨) .

لقد تخطى المسيح في هذا الخطاب الاخير الآزال والآباد وتناول الخليقة والكون والتاريخ واظهر ذاته فوق الزمن وقبله وبعده معلناً سلطانه الالهي على الخليقة كلّها . اعلن حقيقة الثالوث الاقدس هذه المرّة بوضوح وجلاء واعلن في الوقت نفسه ذاته كما هو ، المسيح الفردي والمسيح الكلي مع كل امتداده واتساعه عبر التاريخ والزمن ، شخصاً ادبياً واحداً مع كنيسته التي لن تكون سوى امتداد له على الارض . تلد له البشر ولادة جديدة روحية وتدخلهم في مملكته الروحية لتؤلف منهم ومنه « الجسد السرّي » . سوف يبقى ابداً معها ليعضدها بسلطانه الالهي ويقيها هجمات الشر ويقودها الى النصر النهائي الاخير . لقد افتتح العالم فأصبح مُلْكاً له بعد ان افتداه بصلبه وموته وقيامته وسيغزو مملكة القلوب عما قليل بما سيبسطه من نفوذ وسلطان بقوة محبته وسيغدو انجيله مُعلّماً ومهذّباً للأمم والشعوب .

تقدم امام تلاميذه شأنه يوم التجلي على الجبل حيث اظهر جلاله الالهي لنفر قليل منهم (متى ١٧) ؛ وظهوره هذا يذكّرنا بظهورات الله تعالى في اهم واخطر حقب التاريخ المقدس. اجل لقد اظهر الله تعالى ذاته ربّاً للاجيال والدهور ومالكاً زمام التاريخ والكون والخليقة مرتين في العهد القديم وها هوذا يظهر مرة ثالثة في العهد الجديد. ظهر مرةً اولى لموسى في العليقة ، إلهاً قديراً ، اختار شعباً خاصاً من بين الشعوب

وعزم على انقاذه وتحريره من دار العبودية بقوة وجبروت ليطلقه في الارض فيخبر بعظائمه ويبشر باسمه وينصرف الى عبادته . فقال الله لموسى : « انا هو الكائن . وقال كذا « قل لبني اسرائيل الكائن ارسلني اليكم . كذا قل لبني اسرائيل ، إله آبائكم ، إله « ابراهيم وإله اسحق وإله يعقوب بعثني اليكم . هذا اسمي الى الدهر وهذا ذكري الى جيل فجيل » (خروج ٣) .

وظهر مرةً ثانيةً منقذاً ومخلصاً لبقايا من شعبه في الأسر والمنفى بجلاء بابل ليحررهم ويقودهم ويمشي في مقدمتهم ويبسط سلطانه الالهي عليهم من جديد ، كما في سفر اشعيا الثاني (اشعيا ٤٣ و ٤٤) .

« والآن هكذا قال الرب خالقك يا يعقوب وجابلك يا اسرائيل . لا تخف فاني « قد افتديتك ودعوتك باسمي . انك لي ... لأني انا الرب إلهك قدوس اسرائيل مخلصك. « لا تخف فاني معك ... انتم شهودي يقول الرب ... انا انا الرب ولا مخلص غيري . « اني اخبرت وخلّصت واسمعت وليس فيكم غريب وانتم شهودي يقول الرب وانا الله لله) . (اشعيا ٤٣) .

وها هوذا الآن يظهر ثالثةً على جبل من الجليل ولكن بصورة بشر ، بشخص ابنه الحبيب يسوع المسيح ، دون سطوة ولا جبروت كما اعتاد ان يفعل بعد تجسده ، يتقدم احد عشر تلميذاً عزّلاً ليخلق منهم وبواسطتهم شعباً جديداً روحياً يتناول العالم اجمع ، فيقول لهم : « لقد أعطيت كل سلطان في السماء وعلى الارض ، اذهبوا وتلمذوا « كل الامم معمدين اياهم باسم الآب والابن والروح القدس وعلموهم ان يحفظوا جميع « ما اوصيتكم به وها انا معكم كل الايام الى منتهى الدهر . (متى ٢٨/١٨—٢٠) .. « ستكونون شهوداً لي في اورشليم وجميع اليهودية وفي السامرة والى اقصى الارض » (اعمال ١/٨) .

هذا ما يذكرنا بكلامه تعالى لاسرائيل بلسان اشعيا الثاني « وانتم شهودي » ! (اشعيا ٤٣/١٠) .

ما اعلن المسيح ذاته إلهاً هكذا وسيداً للتاريخ والزمن وللخليقة برمتها مثله في غير حين . واعلانه هذا إما ان يكون صادراً عن شخص مغترٍّ بنفسه ومختل الشعور وإمّا عن شخص جدير بما يقول . والحال انه برهن بقداسة حياته وحكمته الفائقة وتعاليمه السامية وثباته على التبشير برسالته حتى النهاية انه لم يكن مطبق الجنون . واظهر بسرعة انتشار كنيسته وانجيله، رغم المقاومات والاضطهادات ، انه حريّ بما يقول ، مما حدا

القديس اغسطينوس أن يقول : « لو لم يأت المسيح بمعجزات وبيّنات ليبرهن عن الوهيته لبقي انتشار كنيسته بهذا المقدار من السرعة وبالرغم من المقاومات والاضطهادات اكبر معجزة واقطع برهان عن صحة رسالته . »

أرسل المسيح تلاميذه ليبشروا بانجيله « بالتوبة ومغفرة الخطايا » (لو ٢٤) ويكونوا له شهوداً امام الشعوب قاطبة ، يعلمونهم ما سمعوه من تعاليم ويخبرونهم بما شهدوه من آيات واحداث لا سيما تأسيسه الكنيسة وصلبه وموته وقيامته من بين الاموات لاجل افتداء البشرية وخلاصها . ولما كان عالماً بما ستكبدهم تلك المهمة من متاعب وبما تعرّضهم له من اخطار وما تفترضه في نفوسهم من بأس وعزيمة ، سبق وطمأنهم عن ديمومة حضوره ما بينهم ، مؤكداً لهم انه سيكون دوماً حاضراً في اذهانهم وقلوبهم ونفوسهم « وهأنذا معكم كل الايام الى منتهى الدهر » (متى ٢٨ / ٢٠) .

اجل ، لم تكن تأدية الشهادة يوماً بالامر اليسير . هي عمل قانوني شرعي خطير يجري عادةً في نطاق دعوى امام القضاء حيث يجازف الشاهد بنفسه بما يدلي به من بيان وادعاء ، علماً منه انـــه سينبري لبيانه اشخاص من المستمعين يفنّدون مزاعمه ويكذبونه ان استطاعوا الى ذلك سبيلاً بكل ما لديهم من حجة وبرهان . ثم يصدر القضاء حكمه بعد ذاك ويفضي إمّا الى تكذيب ذلك الشاهد وإما الى اعلان صدقه وتعزيزه وتمجيده . فتلاميذ يسوع المسيح واتباعه كانوا امام اخطر واعظم دعوى عرفها التاريخ ، دعوى المجلس الديني اليهودي الاعلى على يسوع الناصري بانه ليس المسيح ابن الله الحي وانه كاذب ومضلّ ودجّال وقد حكموا عليه بالموت صلباً عقاباً لتدجيله ، وزعموا انهم قضوا عليه قضاء مؤبداً فشهادة اولئك التلاميذ تقوم بتكذيب ذلك المجلس الديني الاعلى(السنهدريم) والسلطات الحكومية الرومانية واليهودية التي نفذت الحكم عليه والمناداة بانه قام من بين الاموات في اليوم الثالث بعد صلبه وموته ودفنه بقوته الالهية ، وانه حي ، جالس عن يمين الآب في السماء وقد سحق الشيطان وحرر البشرية من آثامها ووطد الى الأبد كنيسته التي يحيا بها وبواسطتها دائماً ما بين البشر . ولهذا تراهم يبدأون هم انفسهم اولاً بفتح دعواه من جديد امام الشعب في ساحات المدينة وباحات الهيكل واروقته وسرد حوادثها من بدايتها الى نهايتها دون خوف ولا وجل . وشهادتهم لا تقتصر على المناداة به حياً وقائماً من الموت مظفراً وحسب بل انه يحيا في الكنيسة وفي كل منهم ، يمنحهم نوراً من نوره وقداسة من قداسته لتنوير البشر واصلاح اخلاقهم ولمتابعة رسالته .

شهادة القديس بطرس : مسيح التاريخ

كان من حق سمعان بطرس ، زعيم التلاميذ ورئيس الكنيسة ، ان يبدأ قبل الجميع بتأدية تلك الشهادة لمعلمه الالهي . فلم يتردد ووقف يخطب في ساحة العاصمة اورشليم فور حلول الروح القدس عليه وعلى رفاقه وفتح دعوى يسوع المسيح من جديد قائلاً :
« ايها الرجال الاسرائيليون ، اسمعوا هذه الاقوال . ان يسوع الناصري الانسان الذي
« أشير لكم اليه من الله بالقوات والعجائب والآيات التي صنعها الله على يديه فيما
« بينكم كما انتم تعلمون ، لما أُسلم بحسب مشورة الله المحدودة وعلمه السابق صلبتموه
« وقتلتموه بايدي الأثمة . فاقامه الله ناقضاً آلام الموت إذ لم يكن ممكناً ان يمسكه
« الموت ، لأن داود يقول فيه كنت أبصر الرب امامي في كل حين فانه عن يميني
« لكي لا اتزعزع ... لأنك لا تترك نفسي في الجحيم ولا تجعل قدوسك يرى فساداً ...
« فاذا كان (داود) نبياً وعلم ان الله اقسم له بيمين ان واحداً من نسل صلبه يجلس
« على عرشه ، سبق وتكلم عن قيامة المسيح بانه لم يُترك في الجحيم ولم يرَ جسده
« فساداً . فيسوع هذا قد اقامه الله ونحن كلنا شهود بذلك ... فليعلم يقيناً جميع آل
« اسرائيل ان الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه رباً ومسيحاً » (اعمال ٢/٢٢—٣٢) .

والقى بطرس ايضاً خطاباً آخر اثر شفائه مقعداً من بطن امه ، لما رأى جموع الشعب يكبرون الآية فقال :

« يا رجال اسرائيل ما بالكم متعجبين من هذا ولما تتفرسون فينا كأنّا بقوتنا وتقوانا
« جعلنا هذا يمشي . ان إله إبراهيم واسحق ويعقوب إله آبائنا قد مجّد فتاه يسوع الذي
« أسلمتموه أنتم وانكرتموه امام وجه بيلاطس وقد حكم هو باطلاقـــه . فانكرتم انتم
« القدوس الصدّيق وسألتم ان يوهب لكم رجل قاتل . وقتلتم مُبدئ الحياة الذي أقامه
« الله من بين الاموات ونحن شهود بذلك . وهذا الذي تنظرونه وتعرفونه بالايمان باسمه
« شدّده اسمه والايمان بواسطته هو الذي منحه هذه الصحة التامة امامكم اجمعين .
« والآن ايها الأخوة اني اعلم انكم انما فعلتم ذلك عن جهل وكذلك رؤساؤكم ايضاً .
« أمّا الله فما سبق وانبأ به على أفواه جميع الانبياء ان يتألم مسيحه قد تممه هكذا .
« فتوبوا وارجعوا لتُمحى خطاياكم ... فاليكم اولاً ارسل الله فتاه بعدما أقامه يبارككم
« بان يرد كل واحد منكم عن شروره » (اعمال ٣) .

تكلم بطرس باسم رفاقه الرسل والتلاميذ الذين كانوا يؤلفون الكنيسة وقتئذٍ في طور نشأتها (اعمال ١/١٥) ، معبراً عن افكارهم ولا سيا عن ايمانهم بالمسيح امام

جمهور الشعب . هو الرئيس الاول للكنيسة الذي بدأ يزاول وظيفته كحبر اعظم عليها . وهذا الرجل الأمّي ، الذي كان بالامس صياد سمك على بحيرة طبرية ، ها هوذا الآن يقف لاهوتياً ضليعاً ، معلّم كلام ، يشرح ما تكلم به الانبياء عن المسيح وما جاء عنه في سفر المزامير ...

وفحوى شهادته هي هذه : العهد المسيحاني الذي انتظره اسرائيل طوال الاجيال ، الزمن المثالي ، زمن الاحلام السعيدة والاماني العذاب ، عهد السلام والعدالة والغلبة على الشر والخطيئة وحفظ الشريعة ، عهد الرجاء والوعود وحلول ملكوت الله ، اكرم ما اقر الله وجاد به على شعبه المختار واسعد ما حلم به اسرائيل ليخدم الله خدمة مثالية قد تحقق الآن وبدأ ، لأن المسيح ظهر ما بينكم يصنع الآيات والعجائب ، اما انتم فلم تعرفوه فصلبتموه وقتلتموه عن جهل . غير ان الله اقامه ناقضاً آلام الموت إذ لم يكن ممكناً ان يمسكه الموت . لأن داود اذ كان نبياً تنبأ قائلاً في المزامير : « لأنك لا تترك نفسي في الجحيم ولا تجعل قدوسك يرى فساداً » (مز ١٦) .

فبذكره نبوءة المزامير عن قيامة المسيح ، المع الى القبر الفارغ ، وتحدّى مدوارةً السلطات العسكرية اليهودية والرومانية قائلاً : « هوذا القبر الذي وضعتم فيه جسمان المسيح وخفرتموه بالحرس فارغ ، والمسيح قد قام من الاموات منتصراً ، فأتوا بالجسمان واظهروه واعرضوه امام الملأ وكذّبونا ان كنتم لا تؤمنون . »

وبقوله : « ان يسوع هذا قد اقامه الله ونحن كلنا شهود بذلك » قد ركّز شهادته على دعامتين راسختين قاطعتين : القبر الفارغ ثم شهادة جميع الرسل والتلاميذ .

وعلى أثر خطاب بطرس حلّت نعمة الله على جمهور الشعب وآمنوا بالمسيح وقالوا لبطرس ولسائر الرسل : « ماذا نصنع ايها الرجال الاخوة . فقال لهم بطرس : توبوا وليعتمد كل واحد منكم باسم يسوع لمغفرة الخطايا فتنالوا موهبة الروح القدس » (اعمال ٢/٣٧-٣٨) .

وهنا بدأت بشارة الانجيل بالمعنى الصحيح على يد بطرس زعيم الرسل والتلاميذ ، وبدأت الكنيسة عملها الخلاصي بل بالاحرى بدأ المسيح بعمله الالهي من داخل الكنيسة ، يمنح النفوس نعمة الفداء بواسطة الاسرار الالهية (المعمودية وغيرها لمغفرة الخطايا) . وبرزت المسيحية بكامل رسمها وصورتها : المسيح والانجيل والرسل والكنيسة . فالانجيل لا بدّ لنشره من الرسل ، ولا بدّ للعمل به من الكنيسة ؛ فهي التي تبشّر به « لمغفرة الخطايا » (لو ٢٤) ، وهي التي تصونه من كل تحريف وفساد ، وهي التي تلد النفوس ولادة روحية وتمنحهم الحياة الالهية بالمعمودية والاّ كانت القيامة حدثاً

خاصاً وتعزيةً خاصة لنفر محدود من التلاميذ بينما هي رسالة خلاص لجميع البشر حتى انتهاء العالم .

ومن قول بطرس « توبوا وليعتمد كل منكم باسم يسوع لمغفرة الخطايا » يتضح جلياً ان التوبة وحدها لا تكفي بل لا بد من الايمان بالكنيسة وقبول المعمودية منها . التوبة ثم الايمان بالمسيح وكنيسته وقبول الاسرار الالهية ، هذا ما يؤلف الحياة المسيحية . ولهذا فليس الانجيل قصة ولا سيرة تروى عن المسيح ، انما هو قبل كل شيء وحيٌ وكشفٌ الهي وعقائد ايمانية ثم اخلاقية وشرع وحياة إلهية بولادة روحية جديدة تجري بواسطة اسرار الهية تصل المسيح مباشرة بالنفوس لتؤلف معه جسداً سرياً واحداً : الكنيسة .

شهد بطرس هكذا لمعلمه الالهي وشهد له يسوع أيضاً بدوره إذ انه منحه قداسة من قداسته وبأساً من بأسه جعله يقدّم عنقه للذبح من أجله . صنع الآيات والمعجزات باسمه . وكرز بالانجيل في انطاكية ، وفي روما حاضرة الامبراطورية الرومانية نفسها حيث أسَّس الكنيسة ومات شهيداً على عهد نيرون ، خاتماً شهادته بدمه .

شهادة القديس بولس : مسيح الايمان

هي اولى شهادات الرسل والتلاميذ المدوّنة خطياً اذ ان رسائله قد كتب بعضها على عهد الامبراطور كلوديوس ما بين سنة ٤١ و ٥٤ ، وبعضها على عهد نيرون ما بين سنة ٥٥ و ٦٧ . وتختلف شهادته عن شهادة القديس بطرس وباقي التلاميذ بانها ليست شاهد عيان ، انما هي بالاحرى صورة او تعبير عن ايمان المسيحية وقتئذٍ بقيامة المسيح من بين الاموات وعن معتقدها به ؛ وذلك لأن المسيح الذي بشرَّ به ليس المسيح التاريخي الذي عايشه بطرس وباقي التلاميذ — لأن بولس لم يعرفه ولم يتتلمذ له ، بل بالعكس نشأ وتربى على بغضه وكراهيته في مدرسة الفريسيين اعدائه — انما مسيحه هو مسيح الايمان . وشهادته تقسم الى قسمين : القسم الاول يدور حول قيامة المسيح من بين الاموات وحول ايمان المسيحيين وإيمانه بها ، كما جاء وصفها في الرسالة الاولى الى أهل كورنتس والقسم الثاني ينطوي على معظم الحقائق العقائدية والاخلاقية التي بشر بها المسيح ، كما جاء الكلام عنها في باقي رسائله . واليك اهم ما قاله عن قيامة المسيح من الاموات :

« اذكّركم ايها الأخوة الانجيل الذي بشَّرتكم به وقبلتموه وانتم ثابتون فيه وبه ايضاً

« تخلصون ان حافظتم عليه كما بشّرتكم به...فاني قد سلّمت اليكم اولاً ما قد تسلمتُ
« انا نفسي أن المسيح قد مات من اجل خطايانا ، على ما في الكتب وأنه قُبر وانه
« قام في اليوم الثالث على ما في الكتب . وانه تراءى لكيفا (سمعان بطرس)[١] ثم
« للاثني عشر ، ثم تراءى لاكثر من خمس مائة اخ معاً اكثرهم باقٍ حتى الآن
« وبعضهم رقدوا . ثم تراءى ليعقوب ثم لجميع الرسل . وآخر الكل تراءىً لي انا ايضاً
« كأنما للسّقط . اجل اني لاصغر الرسل ولستُ اهلاً لأن أدعى رسولاً ، بما اني
« اضطهدت كنيسة الله . انما بنعمة الله قد صرت ما انا عليه ... فسواء كنت انا
« ام اولئك فهكذا نكرز وهكذا آمنتم فان كان يُكرز بالمسيح انه قام من بين
« الاموات ، فكيف يقول قوم بينكم بعدم قيامة الاموات ؟ فان لم تكن قيامة اموات
« فالمسيح اذن لم يقم . وان كان المسيح لم يقم فكرازتنا اذن باطلة وايمانكم ايضاً باطل ،
« بل اضحينا شهود زور لله ، لأنـّا شهدنا على الله ، بانه اقام المسيح ، وهو لم يقُمه ،
« ان كان الاموات حقاً لا يقومون. فان كان الاموات لا يقومون فالمسيح ايضاً لم يقم .
« وان كان المسيح لم يقم فايمانكم باطل وانتم بعد في خطاياكم ، ومن ثمّ فالذين رقدوا »
« في المسيح قد هلكوا . ان كان رجاؤنا في المسيح في هذه الحياة فقط فنحن اشقى
« الناس اجمعين . ولكن لا ، فان المسيح قد قام من بين الاموات باكورةً للراقدين ،
« لأنه بما ان الموت كان بانسان (اي بادم الانسان الاول) فبانسان ايضاً قيامة الاموات.
« فكما انه في آدم يموت الجميع ، كذلك ايضاً في المسيح سيحيا الجميع . ولكن كل
« واحد في رتبته . المسيح على انه باكورة ، ثم الذين للمسيح عند مجيئه، ثم المنتهى...»
(كور ١ : ١٥/١ــ٢٤)

وكلمة القديس بولس : « اني قد سلّمت اليكم اولاً ما قد تسلمتُ انا نفسي ان المسيح قد مات من اجل خطايانا على ما في الكتب » .. تلمع الى نبوءة اشعيا الثاني عن المسيح بانه سيحمل خطايا البشر ويفتديهم بموته « جُرح لاجل معاصينا وسُحق لاجل آثامنا فتأديب سلامنا عليه وبشدخه شُفينا (اشعيا ٥٣/٥) ، وتدحض في الوقت نفسه مزاعم المتشدقين المدعين بالتطوير الذي جرى في الكنيسة في مشكلة مغفرة الخطايا تحت تأثير بولس الرسول . فان كانت شهادة بولس الرسول هذه قد دوّنت بعد عشرين سنة من صلب المسيح وقيامته ، وهي على اتم الوفاق مع كرازة الرسل

١) كيفا : كلمة عبرية معناها الصخرة.والسيد المسيح كان قد سبق له ان غير اسم سمعان اول تلاميذه ودعاه بطرس او كيفا اي الصخرة دلالة على وقع اختياره الخالص له ولأنه كان يعتزم ان يبني الكنيسة على ايمانه كما جاء في انجيل متى (١٦ /١٣-١٦) .

والتلاميذ الذين أمرهم المسيح ان يكرزوا بانجيله « بالتوبة لمغفرة الخطايا » (لو ٢٤/٤٧) فاين المجال الى التطوير ؟..

اما الحقائق الكبرى في القسم الثاني من شهادته فهذه اهمها :

١ – ظهور رفق الله ولطفه ومحبته بتجسد ابنه يسوع المسيح ليخلص البشر ويلدهم ولادة حقيقية روحية جديدة لملكوت الله.

٢ – المسيح هو صورة الله ومبدأ كل خليقة « الذي هو صورة الله الغير المنظور. « المولود قبل كل خلق. اذ فيه خلق جميع ما في السماوات وعلى الارض، ما يرى « وما لا يرى، عروشاً كان ام سيادات ام رئاسات ام سلاطين[1] به واليه خُلق كل « شيء وفيه يثبت كل شيء. » (كولسي ١/١٥–١٧).

وهو ابن الله الحبيب (روما ١/١–١٠).

فيه ملء اللاهوت (الالوهية) « اذ في المسيح يحل كل ملء اللاهوت جسدياً » (كولسي ٢/٩).

وهو والاب واحد « لأن ناموس الله هو ناموس المسيح» وانجيل الله وانجيل المسيح واحد وكنيسة الله وكنيسة المسيح واحد، وملكوت الله وملكوت المسيح واحد، وروح المسيح وروح الله واحد، ومنبر الله لدينونة الانسان هو منبر المسيح ولأنه هو ايضاً فوق كل شيء إله مبارك الى الدهور، ومع انه بحسب الجسد من الآباء ومن ذرية داود (كور ١ : ٢١/٩؛ روما ١/١؛ كور ١ : ١٢/٩، ٢/١؛ روما ١٦/١٦؛ افسس ٥/٥؛ روما ٨/٩؛ كور ٥/١٠؛ روما ٩/٥).

هو الرب « نحن انما لنا إله واحد الآب، الذي منه كل شيء ونحن اليه، ورب واحد، يسوع المسيح، الذي به كل شيء ونحن به » (كور ١/٨/٦)؛ ورب المجد (كور ١ : ٢/٧–٦).

٣ – يسوع المسيح والبشر

التنازل الالهي .. لما تم ملء الزمن نزل ابن الله من السماء وصار انساناً وسكن ما بين البشر وصار واحداً منهم كي يحررهم من ربقة الخطيئة والشر ويصالحهم مع الله

١) عروش وسيادات ورئاسات وسلاطين. هي درجات مراتب الملائكة.

ابيه ويرفعهم الى مصاف ابناء الله . وبهذا التنازل الالهي صار اخانا الاول بكر الخليقة المتجددة . « هو القائم في صورة الله ، لم يعتد مساواته لله حالةً مختلسة ، بل لاشى ذاته ، آخذاً صورة عبد ، صائراً شبيهاً بالبشر ، فوجد كانسان في الهيئة ووضع نفسه وأطاع حتى الموت ، بل موت الصليب . لذلك رفعه الله رفعة فائقة وانعم عليه بالاسم الذي يفوق كل اسم ، لكي تجثو لاسم يسوع كل ركبة مما في السماوات وعلى الارض وتحت الارض ويعترف كل لسان بان يسوع المسيح هو رب لمجد الآب » (فيلبي ٢ /٦ — ١١) .

وهنا يلتقي القديس بولس بالقديس يوحنا الانجيلي في مضمار التنازل الالهي .. « في البدء كان الكلمة والكلمة كان لدى الله ، وكان الكلمة الله ، كان ذلك في البدء لدى الله ، به كون كل شيء وبدونه لم يكن شيء واحد مما كوّن ...
« والكلمة صار بشراً وسكن في ما بيننا وقد شاهدنا مجده مجداً من الآب لابنه الوحيد الممتلئ نعمةً وحقاً » (يو ١ /١— ٤ و ١٤) .

اصبح يسوع المسيح بتجسده الوسيط الفرد ما بين الله والبشر ، وصار بموته على الصليب مخلصهم وفاديهم . جمع فيه الالوهية والبشرية واستطاع بذلك ان يصلح بين الله ابيه وبين البشر اخوانه بالجسد ، وقد بذل ذاته ذبيحة فداء وثمناً لتلك المصالحة وحرر البشر من رق الخطيئة (كور ٢ : ٥ /٢١ ؛ ١ ٢ /٥ ؛ غلاطية ٢ /٢٠ ؛ عبر ٩ /١٣ — ١٥) . وهو حي في السماء يشفع فيهم دوماً امام الله ابيه (عبر ٧ /٢٥) .

٤ — الكنيسة والمسيح

فمن افتداهم المسيح من البشر واقتبلوا معموديته ، الولادة الروحية الثانية ، يؤلفون معه جسداً سرّياً واحداً يدعى الكنيسة « انتم جسد المسيح واعضاء كل بمقدار » (كور ١ : ١٢ /٢٧) .

وإنّ للجسد اعضاء كثيرة ولكل عضو وظيفة خاصة والكل يعمل لفائدة الجسد الواحد وكذلك المسيحيون والمسيح في الكنيسة. «فكما ان الجسد واحد وله اعضاء كثيرة « وان جميع اعضاء الجسد ، مع كونها كثيرة ، هي جسد واحد ، كذلك المسيح ايضاً « فانّا جميعاً قد اعتمدنا بروح واحد لجسد واحد، يهوداً كنا ام يونانيين ، عبيداً « ام احراراً ، وسقينا جميعاً من روح واحد » (كور ١ : ١٢ /٤— ٣٠) .

واتحاد المسيح والكنيسة هو نوع من القران الروحي الشبيه بالقران الجسدي الكائن ما بين الرجل والمرأة » (افسس ٥ /٢٥— ٢٧) .

٥ - يسوع المسيح آدم الجديد للبشرية

اصبح المسيح بتجسده وصلبه وقيامته وتأسيسه للكنيسة آدماً جديداً للبشرية محا عنها صك الخطيئة الاصلية التي ورثتها عن آدم الاول، وبعثها وبررها ومنحها ولادة روحية جديدة ، وقلب الحواجز التي تفصل ما بين البشر ، وشدّهم بعضهم الى بعض جاعلاً اياهم اسرة واحدة ، ريثما يدخلهم معه الى ملكوت ابيه السماوي ليكون بكرهم ورأس كل خليقة .

« واما الله فقد برهن عن محبته لنا بان المسيح قد مات عنّا ونحن بعد خطأة ...
« فان كنا ونحن اعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه ، فكم بالاحرى ونحن مصالحون
« نخلص بحياته ... فلذلك كما انها بخطيئة انسان واحـد دخلت الخطيئة الى العالم
وبالخطيئة الموت ، وهكذا اجتاز الموت ، الى جميع الناس لأن جميعهم قد خطئوا ...
« فلئن كان الموت بزلة واحد قد ملك بهذا الواحد ، فكم بالاحرى الذين ينالون وفور
النعمة وموهبة البر ، سيملكون في الحياة بواحد ، وهو يسوع المسيح . فاذن كما انه
« بزلة واحد كان القضاء على جميع الناس ، كذلك ببر واحد يكون لجميع الناس
« تبرير الحياة . لأنه كما جعل الكثيرون خطأة بمعصية انسان واحد ، كذلك بطاعة
« واحد يجعل الكثيرون ابراراً .. ولكن حيث كثرت الخطيئة طفحت النعمة ، حتى
« انه كما ان الخطيئة ملكت للموت ، كذلك النعمة تملك بالبر للحياة الابدية بيسوع
« المسيح ربنا » (روما ٥/٦-٢١) .

وقد اوضح فكرته هذه بنوع اكمل في رسالته إلى أهل أفسس ، قال :

« مبارك الله ابو ربنا يسوع المسيح الذي غمرنا من علياء سمائه بكل بركة روحية
« في المسيح اذ فيه قد اختارنا عن محبة من قبل انشاء العالم ، لنكون قديسين بغير
« عيب امامه ، وسبق فحدد على حسب مرضاته ان نكون له ابناء بيسوع المسيح
« لتمجيد نعمته السنية التي أنعم بها علينا في الحبيب ، فلنا فيه الفداء بدمه ومغفرة الزلاّت
على حسب غنى نعمته التي افاضها علينا بملء الحكمة والفطنة باعلانه لنـا ، على
« حسب مرضاته ، سر مشيئته الذي سبق فقصده في نفسه ليحققه عند تمام الأزمنة ،
« اي ان يجمع تحت رأس واحد في المسيح ، كل شيء ما في السماوات وما على الارض .
« وفيه ايضاً دُعينا وقد اصطُفينا من قبل لنكون تسبحة لمجده » (افسس ١/٣-١١) .

٦ – الأخلاقية

وبما ان المسيح جدّد البشرية وربطها بشخصه في الكنيسة لهذا سيكون الادب المسيحي مبنياً بنوع خاص على الوصية الاولى والعظمى في الناموس ، على محبة الله ومحبة القريب . ومحبة القريب ليست سوى محبة الله بالعمل وهي تحتوي الشريعة والناموس كافةً ، « فمن احب قريبه اتمّ الناموس » . وقد وصف المحبة وصفاً لا ادق ولا اسمى في رسالته الاولى الى أهل كورنتس : « لو كنت انطق بألسنة الناس والملائكة ولم « تكن فيَّ المحبة فانّما انا نحاس يطن او صنج يرن . ولو كانت لي النبوءة وكنت اعلم « جميع الاسرار والعلم كله ولو كان لي الايمان كلّه حتى انقل الجبال ولم تكن فيَّ المحبة « فلست بشيء ... المحبة تتأنى وترفق . المحبة لا تحسد ولا تتباهى ولا تنتفخ ولا تأتي « قباحةً ولا تلتمس ما هو لها ولا تحتدّ ولا تظن السوء ولا تفرح بالظلم بل تفرح بالحق « وتحتمل كل شيء وتصدّق كل شيء وترجو كل شيء وتصبر على كل شيء . « المحبة لا تسقط ابداً ... والذي يثبت الآن هو الايمان والرجاء والمحبة ، هذه الثلاثة واعظمهن المحبة » (كور ١ ١٣) .

والمحبة ستتناول الشرع ايضاً وتكيفه تكييفاً جذرياً . فالزواج مثلاً سيُبنى هو ايضاً لا على الشهوة والمتعة والفائدة بل على الحب الحقيقي ، المنبثق من المسيح ، بحيث يسعى كل من الزوجين ان يرى شخص المسيح في الآخر ويعمل طوال حياته ليدنيه منه ويرفعه اليه ليقدسه ويخلصه ، بائتمار السيد المسيح نفسه الذي رفع الحب الزوجي الى رتبة سر مقدس يمنح الزوجين نعمة خاصة تجعلهما يعيشان لا جسداً واحداً وحسب ، لا يفرق بينهما الاّ الموت ، بل نفساً واحدة ايضاً ، كما يعيش هو نفسه في وحدة تامة مع كنيسته . هذا ما اعلنه في رسالته الى أهل أفسس حيث قال :

« لتخضع النساء لرجالهن كما للرب ، لأن الرجل هو رأس المرأة كما ان المسيح هو « رأس الكنيسة مخلص الجسد. فكما تخضع الكنيسة للمسيح فكذلك تخضع النساء لرجالهن « في كل شيء . ايها الرجال احبوا نساءكم كما احب المسيح كنيسته وبذل نفسه « لاجلها ليقدسها مُطهراً اياها بغسل الماء وكلمة الحياة ، ليهديها لنفسه كنيسةً مجيدةً « لا كلف فيها ولا غضن ولا شيء مثل ذلك بل تكون مقدسة منزهة عن كل عيب . « ولذلك يترك الرجل اباه وامه ويلزم امرأته فيصيران جسداً واحداً . ان هذا لسرٌّ « عظيم اقول ذلك بالنسبة الى المسيح والكنيسة » (افسس ٥/٢٣–٣٣) .

ومن هذا التعليم يتضح جلياً ان الرجل رُفع الى درجة المسيح وان المرأة رُفعت الى درجة الكنيسة وهنا فتح باب الحضارة المسيحية على مصراعيه ..

وقد يتساءل المرء قائلاً : لماذا لم تقتصر كرازة القديس بولس على سرد حوادث الانجيل وخطب السيد المسيح كما سمعها من الشهود العيان ؟ ألم يضف من عنده بعض التعاليم ، كما ادعى بعضهم ، وكيّف بذلك المسيحية تكييفاً جذرياً ؟

لا نكير ان شهادة القديس بولس او كرازته تتسم بسمته الخاصة لأنها تحمل جزءًا من حياته ، من حياة انسان تثقف ثقافة عبرية وهلّينية عالية تغذّى طويلاً من سحر النبوءات والمزامير وتشبع من منطق ارسطو ونظريات افلاطون ثم اهتدى الى معرفة يسوع المسيح بظهور روحي خاص مباشر من قبله فوقف على خدمته نفسه وتجند للكرازة بانجيله تعبيرًا عن حبه له واقرارًا له بصنيعه ، فسبك تعاليمه بأسلوبه وساقها الى النفوس بتفردية الحق فكانت كرازته حياة تنبض بكل ما فيها . الاّ انها ، بالرغم من تفرديتها الخاصة ، جاءت مطابقة كل المطابقة لتعاليم الانجيل لأن القديس بولس كان شديد الحرص على ان يعرض كرازته على الرسل والتلاميذ من وقت الى آخر كي لا يحيد عن تعليمهم قيد الشعرة . وقد اشار الى ذلك في رسالته الى اهل غلاطية حيث قال : « ثم اني بعد اربع عشرة سنة صعدت ايضاً الى اورشليم مع « برنابا واخذت معي تيطس وكان صعودي عن وحي وعرضت عليهم (على التلاميذ) « الانجيل الذي اكرز به بين الامم وعرضته على ذوي الاعتبار على انفراد لئلا اسعى « او اكون قد سعيت باطلاً » (غلاطية ٢/١ــ٣) .

ولو كان الانجيل الذي كرز به مغايرًا للانجيل الذي كرز به التلاميذ لما كانت كنيسة روما المؤسسة على كرازة بطرس قد احتفظت بتلك الرسالة التي وجهها اليها قبل ان يتعرف اليها وهي منطوية على معظم تعاليمه العقائدية .

اما ان يكون تعليمه متأثرًا بالوثنية واديانها وفلسفاتها فهذه ايضاً مزاعم خاطئة لا حقيقة لها . فقد بشر شعوباً كانت وثنية وكان جل همه أن تقطع كل ما يصلها بتلك الديانات . ألم يكتب في رسالته الثانية الى أهل كورنتس :

« لا تكونوا قرناء الكفرة في نير فانها أيّة شركة بين البرّ والاثم وأيّة مخالطة للنور « مع الظلمة واي ائتلاف للمسيح مع بليعال واي حظ للمؤمن مع الكافر واي وفاق « لهيكل الله مع الاوثان . فانكم هيكل الله الحي كما قال الله اني ساسكن فيهم واسير « فيما بينهم ، واكون لهم إلهاً ويكونون لي شعباً » (كور٢ : ٦/١٤ــ١٦) .

فكلمته « اي ائتلاف للمسيح مع بليعال » قاطعة جازمة لا تدع مجالاً للمسيحي ان ينتسب الى ديانة اوزيريس وديونسيوس والى ديانة المسيح في آن واحد .

وكثيراً ما تراه يشدد في رسائله على اظهار المسيح حاملاً فيه ملء اللاهوت كله » فلماذا اذن السعي وراء ديانات اخرى ...

« الذي لنا فيه الفداء بدمه مغفرة الخطايا ، الذي هو صورة الله الغير المنظور ..
« لأن به خُلق جميع ما في السماوات وعلى الارض . وهو قبل الجميع وبه يثبت الجميع
« لأن فيه رضي الآب ان يحل الملء كله » (كولسي ١/١٤—١٩) .

وكان حريصاً على الكرازة « بالمسيح مصلوباً شكاً لليهود وجهالةً للامم » (كور ١ : ٢/٣—١٠) لكي يعلن روحانيته الصرف وقوة نفاذ نعمته في النفوس ويبين ان حكمته قائمة بذاتها وليست بحاجة الى حكمة الفلاسفة ولا الى سيف الدولة ليحميه . فقد شق طريقه الى النفوس رغم مقاومة السلطات الحكومية الرومانية واليهودية (كور ١ : ١/٢٢—٢٤) ورغم سخرية الفلاسفة المعرفيين (gnostiques) . وقد اثنى على شجاعة اهل تسالونيكي لأنهم قطعوا كل اتصال لهم بديانات الاوثان وآمنوا بانجيل المسيح (تسا ١ : ١/٩) . وحذّر اهل كورنتس من اكل لحوم الذبائح المقرَّبة لآلهة الاوثان كور ١ : ١٠/١٤) . فالدين المسيحي لم ينبثق من الوثنية لأنه يؤمن بالاله الواحد بينما هي تؤمن بتعداد الآلهة ؛ ولم ينبثق من اليهودية لانه يفرض الله واحداً في ثلاثـة اقانيم وخاصةً بتجسد الاقنوم الثاني ، المسيح ، وبمساواته بذات الجوهر مع الآب رغم تجسده وتصاغره (كور ١ : ٨/٤—٦ ؛ فيلبي ٢/٥—١٢) . لكنه وحي وكشف خاص به دون سواه وقائم بذاته .

تلك كانت كرازة القديس بولس بخطوطها الكبرى عن المسيح الذي تطوع لخدمته وترك كل شيء لاجله ؛ وقد بلغ به حبه له الى القول : « الآ ان كل ما كان لي ربحاً قد عددته خسراناً لاجل معرفة المسيح ربي ...

« من يفصلني عن محبة المسيح أشدة أم ضيق ام اضطهاد ام الجوع ام العري
« ام الخطر ام السيف الخ ... » (فيلبي ٣/٧ ؛ روما ٨/٣٥) .

لقد داى للمسيح شهادةً لا اجمل ولا اصدق أوصلته الى معرفة الله عن طريقة تفوق كل معرفة فأحبه تعالى حباً ما بعده حب ونال قوة منه لمماثلة المسيح بحبه وبذل الذات لاجل الكنيسة وافتداء النفوس على غراره وهو القائل في رسالته الى اهل كولسي «اني افرح الآن في الآلام لاجلكم وأتم ما ينقص من شدائد المسيح في جسمي لاجل جسده الذي هو الكنيسة » (كولسي ١/٢٤) ، والى اهل كورنتس : « لأنا نحن

الاحياء نُسلَّم دائماً الى الموت من اجل يسوع لتظهر حياة يسوع ايضاً في اجسادنا « المائتة فالموت اذن يجري فينا والحياة فيكم » (كور ٢ : ٤/١١) .

مُنح موهبة صنع العجائب والمعجزات وسفر اعمال الرسل حافل باعماله الخارقة . قرّب عنقه للذبح ليشهد للمسيح اسوةً بالرسل والتلاميذ ، ومات شهيداً في روما على عهد الامبراطور نيرون فنـــال اعجاب المسيحية على ممرّ الدهور واستحق لقب « رسول يسوع المسيح » . والكنيسة تحسبه بعد القديس بطرس اكبر ركن لها وتحتفل بذكرى استشهادهما في عيد واحد .

شهادة الانجيليين الازائيين متى ومرقس ولوقا

هي الشهادة الكلاسيكية القائمة على رواية سيرة يسوع المسيح وما فيها من تعاليم واعمال ومعجزات فأظهروه كما هو دون تعليق . مسيح الرب ، ابن الله الحي ، الذي تنبأ عن مجيئه الانبياء فتمم كل ما كتبوا عنه : تجسد وتألم وصلب ومات وقام من بين الاموات واسس الكنيسة لاجل افتداء البشر وخلاصهم . فشهادتهم تخلو من تلك التفردية التي تسترعي اهتمامنا في هذا الفصل ولهذا لن نتوقف فيها طويلاً لا سيما وقد ذكرنا لكل انجيلي منهم ميزته الفارقة في توطئة هذا الكتاب ولا فائدة من المراجعة .

شهادة القديس يوحنا الانجيلي : مسيح التاريخ والايمان

اما شهادة يوحنا الرسول عن المسيح فهي ، وان اختلفت عن شهادة القديس بولس شكلاً فقد طابقتها جوهراً . هي شهادة شاهد عيان رأى وسمع ووعى ثم استذكر وأطال التأمل والتبحر . ولما ظهرت بدعة العارفين (gnostiques) وانكرت على المسيح الوهيته ، هب يوحنا من سكينته وكان قد طعن في السن واخذ يجمع شتيت ذكرياته فدوّن ما دوّن في انجيله دحضاً لمزاعمهم وشهادة للحق والمحبة . فالمسيح يبدو في انجيله كلمة الله ، وليد فكره ، ابنه ، لكليهما جوهر واحد ، تأنس وصار بشراً وعايش البشر ليكشف لهم رفق الله ابيه بهم ومحبته لهم وليغفر لهم خطاياهم ويصالحهم معه بموته على الصليب وقيامته من بين الاموات ويجعلهم ابناء الله بالتبني ويكون دليلهم الامثل اليه تعالى . هو غير الآب وهو بالوقت ذاته في الآب والآب فيه وكل ما للآب هو له « من رآني رأى الآب .. الآب المقيم فيَّ هو يعمل الأعمال ... (يو ١٤/ ٩—١١) « جميع مـــا للآب هو لي » (يو ١٦/ ١٥) . وهو ايضاً انسان كامل « والكلمة صار بشراً وسكن بيننا وقد شاهدنا مجده » (يو ١/ ١٤) .

وفي سفر الرؤيا الذي كتبه يوحنا في جزيرة بطمس ، يبدو المسيح فيه «الاول والآخر ، الالف والياء ، الحي الى دهر الدهور ، بيده مفاتيح الموت والجحيم» (رؤيا ١/١٧—١٨) ، قطب التاريخ ومحوره ، الديّان العادل الذي لا يخفى عليه عمل من اعمال الانسان اياً كان نوعه وسوف يجازي كلاً على عمله (رؤيا ٢ و ٣) . وهنا يلتقي ايضاً من غير ناحية بالقديس بولس (كولوسي ١/١٥—٢٠ و كور ٢/١/١٩—٢٢) .

اما الكنيسة وان لم يتكلم عنها القديس يوحنا بوضوح كالقديس بولس ، فهي موجودة في كل انجيله . هي حظيرة الخرفان والمسيح هو الراعي الذي ارسله الآب ليرعاها ويدعو اليها شعوب الارض قاطبةً (يو ١٠) . وهي ليست خصيصة بشعب مختار كشعب اسرائيل بل هي لجميع الشعوب دون استثناء . ومهمتها أن تجعلهم عبّاداً لله يعبدونه بالروح والحق في كل مكان (يو ٤) . وهي غير منفصلة عن المسيح لا بالزمن ولا بالابدية ؛ فهو رأسها وهي جسده السري ، منه تستمد الحيوية والنشاط والنعمة والقداسة «انا الكرمة وانتم الاغصان ، من يثبت فيَّ وانا فيه فهو يأتي بثمر كثير ، فانكم بدوني لا تستطيعون ان تفعلوا شيئاً ...» (يو ١٥/١—٩) .

بدأت بدعوة التلاميذ : إذ دعاهم وعنى بتثقيفهم ليكونوا نواتها ، وقلّدهم السلطان ليمنحوا البشر الولادة الروحية بالمعمودية ويدخلوهم فيها (يو ٣) وليغفروا لهم خطاياهم اذا ما زلّوا وعثروا وليغذوهم روحياً بالقربان (يو ٦) . وصلاته الكهنوتية ، التي ختم بها العشاء السري ورفعها لله ابيه ، دلَّلَتْ على ان الكنيسة كانت الهدف الرئيسي من مجيئه على الارض «لست اصلي لاجلهم بل لجميع الذين سيؤمنون عن يدهم» (يو ١٧/٢٠) . وهنا يبدو يوحنا «رجل الكنيسة» على حد قول الاب دي غرانميزون اليسوعي[١] .

ستجاهد الكنيسة لاجل المسيح على الارض وتمر بمرحلة الجهاد والاضطهاد وتدعى عند ذاك الكنيسة المجاهدة ؛ غير انها ستنتصر يوماً وتلتف حوله في السماء فتصبح ساعتئذٍ الكنيسة الظافرة اورشليم الجديدة (رؤيا ٢١) .

اما اخلاقية الانجيل فترتكز ايضاً عند يوحنا على شريعة المحبة «لأن الله محبة» (يوحنا ١/٤/٨) . فان كانت المحبة علة ابوّة الله للبشر وسر افتدائه لهم فمن البديهي

١) Léonce de Grandmaison, *Jésus-Christ*, éd. Beauchesne, 1928, t. 2, p. 614.

ان تكون العروة الوثقى التي تربطهم بالله وتشدهم بعضهم الى بعض والركيزة الاولى التي يركزون عليها ادبهم وسلوكهم ، والمحرك الاول لسائر اعمالهم فردية كانت ام اجتماعية . ذكر وصية يسوع المسيح الجديدة في خطابه الاخير « هذه هي وصيتي ان يُحب بعضكم بعضاً كما احببتكم انا » (يو ١٥/١٣) . وكتب رسالتـــه الاولى للمسيحيين الاولين يذكّرهم فيها بأهمية المحبة والدور الذي يجب ان تمثله في حياتهم المسيحية . ادى شهادته للمسيح كباقي التلاميذ في زمن الاضطهادات الكبرى ضد المسيحية . ذاق آلام الاستشهاد إذ انه ، يقول التقليد ، أُلقي في حلة من الماء الساخن ولكنه أنقذ منها بأعجوبة . وشهد لمعلمه الالهي بانه النور والحياة وشهد له معلمه بان افاض روحه القدوس عليه فكان عقله المفكر وقلبه المحب ، وجاء انجيله ورسائله قطعاً من حياته ونوراً وحياة للبشر على مدى الاجيال والدهور ، فكانت شهادته خاتمة العهد الرسولي لشهود المسيح الاولين .

شهود المسيح في التاريخ : القديسون

لما ارسل يسوع المسيح تلاميذه ليكرزوا بانجيله في العالم قال لهم : « اذهبوا الآن وتلمذوا كل الامم معمدين اياهم « باسم الآب والابن والروح القدس ... ستكونون لي شهوداً ، في اورشليم وجميع اليهودية والسامرة والى اقاصي الارض ... » (متى ٢٨/١٩ ــ اعمال ١/٨) . عنى بذلك ان رسالة كنيسته الخلاصية لن تقتصر على الرسل والتلاميذ ومعاصريهم فقط بل ستتناول الاجيال كافة وانه سيقيم له خلفاء من بعدهم في كل صقع وجيل يزوّدهم بالسلطان عينه ويمدهم بالقوة والنور والقداسة عينها ليستطيعوا ثمت ان يشهدوا له الشهادة ذاتها ويجازفوا بارواحهم في سبيله ، اجل ، ليس المسيح بشخص تاريخي لعب دوره على مسرح الكون شأن الآباء والانبياء وتوارى ما وراء حجب الوجود انما هو شخص حي باقٍ الى الابد في كنيسته ، يقيم بنعمته في كل فرد منها ، ويجابه قوى الشر ، ويعمل بهم على تقويض سلطان ابليس في العالم . ولهذا ستبقى دعواه مفتوحة ابداً وقائمة الى منتهى الدهر ، فتجد من البشر من يناصبه العداء مثل فريسي اسرائيل ويقولون عنه كان مضلاً ومغروراً ادعى الالوهية فمات مصلوباً وكفى الناس شره ، وتجد الكثيرين ينتفضون بعد الرسل والتلاميذ ليكذبوهم قائلين : كلا ! بل انه قام من بين الاموات وهو حي الى الابد ، يحيا في السماء وفي كنيسته ونحن شهود لذلك. وهؤلاء الشهود الجدد تراهم يقفون انفسهم لخدمته ويجازفون بارواحهم لأجله على غرار الرسل والتلاميذ الأولين ؛ بعضهم يشهد له بجهاده واتعابه ، وبعضهم بفقره وتجرده ونزاهته ؛ وغيرهم بتفانيه وخدمته للبؤساء والمعدمين والمعذبين ؛ هذا بنسكه

وصلاته وتقشفه وحرمانه وتبتله وعفافه وذاك بعبقريته ونبوغه وقلمه ؛ وجميعهم يتسابقون الى احياء ولو مظهراً واحداً من مظاهر حياته ، فينالون — وهنا معجزته الكبرى وشهادته الصادقة الامينة لهم — ما يتوقعون من مجازفتهم لأجله ، قداسةً تجعلهم يفوقون مستوى البشر ويظهرون قمماً للانسانية ومعالم نور ، ويطبعون عصورهم بطابعهم الروحاني الخاص يرفعون البشرية دوماً الى الله ويكيّفون مجاري التاريخ . هؤلاء هم القديسون ، الذين صنعتهم الكنيسة وبالاحرى الذين صنعهم يسوع المسيح في داخل كنيسته ، وقد اثبتوا بحياتهم صحة كلامه : « هأنذا معكم كل الايام الى منتهى الدهر » (متى ٢٧/٢٠) ، هؤلاء القديسون الذين قال عنهم الفيلسوف هنري برغسون : « يكفي للقديسين ان يكونوا فان وجودهم دعوة الى الصلاح » .

قال العلامة الاب دي غرانمزون اليسوعي بهذا الصدد[١] .

« القديسون يعيدون ما بيننا حياة يسوع المسيح المعلم المتواضع ، والعفيف والغيور « والمحب ، ويظهرونه لنا غير غريب عن البشر ، ينتصر فيهم على اقوى الاهواء « البشرية وغرائزها من حب وحقد . تخفق قلوبهم نقية لاجله وقد تخلّت عن كل شيء ، « فهم صفوة البشر . يبذلون ارواحهم لاجله ، يسكتون ويصلون ، ينشئون المؤسسات « ويثابرون على الجهاد بنشاط نزيه مُنظَّم لا يعرف الملل . لا يجمح بهم حب الذات « والطموح الاناني ولا يجرفهم تيار الانتهازية . لا يبغون احراز شهادة ولا إكثار عدد « انصار او بناء معبد تقيمه ايدي البشر لتمجيد صانعيه . بل بالاحترام والخضوع « للسلطة الشرعية المتجسمة ببشر ضعفاء ، وبالاتحاد مع تلك السلطة ولقاء تضحيات « جسام هؤلاء الرسل يعملون ويجاهدون ويؤسّسون . فيهم روح الكنيسة «العروس» « والروح القدس المعلم الروحي الداخلي يذكّرهم دوماً بتعاليم المسيح ويشرحها لهم . « ينظرون الى المسيح بعيونهم الروحانية الباطنية فيبصرونه في الكنيسة وفي ممثليها فيخضعون « له ومنه يستمدون الحكمة والنور والقوة . تلك شهادة يؤديها الروح القدس للمسيح « (يو ١٦/٥—١٥) من عصر الى عصر عن طريق اناس بالرغم من تباين البشر « واختلاف اطباعهم وعوائدهم ومشاربهم فتظهر هي نفسها في كل منهم . ليس ثمة « مثل اعلى تصبو اليه البشرية وتعكسه في اشخاص يمثلونها انما المثل الاعلى الدي « يوحيه المسيح لفريدٌ من نوعه ونشيط وجازم وبنّاء . وهو ليس مخلوقاً على صورة « أناس معروفين ومحدّدين على نمط واحد . لكن المسيح يدخل في اناس مختلفي

١) Léonce de Grandmaison, *Jésus-Christ*, Éd. Beuuchesne 1928, t. 2, p. 622-624.

« المشارب والاطباع فيغيّرهم ويوجّه مجرى حياتهم ونشاطهم نحو هدف معلوم . انهم
« لمختلفو الاطباع غير انهم يسيرون تحت الوية القادة انفسهم ووسط المعارك النفسانية
« عينها ، يمشون نحو الهدف الأوحد : نشر ملكوت الله على ارض البشر . ورسل
« المسيح يعرفون بعضهم بعضاً من شعب الى شعب ومن جيل الى جيل . يشعرون
« بالرغبة الملحّة عينها التي كان يشعر بها يسوع المسيح نفسه نحو الله ابيه ونحو البشر
« فيندفعون الى تحقيقها وتظهر من خلالها ثقافة كل منهم وعبقريته وبيئته وطبعه ومشربه
« وعرقه الخاص به .. والشهداء الذين رأيناهم يموتون في سجون الصين في اوائل القرن
« العشرين وفي سجون البلدان الشيوعية ، يشعرون المشاعر عينها التي كانت تملأ صدور
« شهداء المسيحية في اولى اجيالها . والفضائل المسيحية التي مارستها الشعوب اللاتينية
« وشعوب البرابرة في القرون الوسطى تمارسها في هذه الآونة شعوب افريقيا الزنجية الحديثة
« العهد بجمال لا يقلّ عمّا تقدمها . »

وقال ايضاً الفيلسوف الفرنسي جان غيتون في هذا الصدد[١] :

« لو تصفحنا التاريخ منذ عشرين قرناً لوجدنا المسيح في قرارة ضمائر الالوف
« من البشر في كل عصر وفي كل جيل . انك لتحسس وجوده في تفكيرهم ووجدانهم ،
« يستفزهم الى الخير والى المثل العليا ، ويستنفر فيهم اسمى واجمل رغائب ووثبات الى
« الخير والصلاح ؛ هو عقلهم المفكر وعينهم المبصرة ، هؤلاء ندعوهم القديسين .
« والحق يقال اننا ما رأينا قط شخصاً آخر غير المسيح استنفر وجنّد مثل هؤلاء
« القديسين للاقتداء به وتحقيق تعاليمه ورغباته . القداسة غير العبقرية والنبوغ — وقد
« يتفق احياناً للقديس ان يكون عبقرياً — وهي غير الكمال الادبي — وان تلكُ تفترض
« وجوده . والقديس ليس الفيلسوف الحكيم ولا البطل اذ ان للحكيم وللبطل وجداناً
« خاصاً بكل منهما دون سواه . لكنّ القديس هو كالنبي سابقاً في تاريخ اسرائيل ،
« هو « رجل الله » . وهو ليس ذاك الرجل الذي رغماً عن نقائصه حقق فيه الانسان
« المثالي الخالد ، بل هذا الانسان الذي كفر بنفسه وتخلّى عن ذاته كي يكون اداة
« لاغير واداة طيعة بيد العلّة الاولى ، الله سبحانه وتعالى . ولهذا ليس من الغرابة
« بشيء ان نرى من غير ناحية في القديسين اناساً عاديين وفي الوقت ذاته اناساً
« روحانيين يفوقون البشر . اما الصلة التي تشدّ القديس الى يسوع المسيح فمباشرة ؛
« ذلك لأن القديسين لا يلدون القديسين ولا يصنعونهم — القديس لا يأتي عن طريق

---

١) Jean Guiton, *Jésus*, éd. Bernard Grasset, Paris 1956, p. 407-410.

« الولادة – انما صانع القديسين واحد وهو المسيح . لا نكير انه كان للقديسين
« تلامذة واتباع تتلمذوا لهم وتشبهوا بهم ، شأن كل الفنانين والمعلمين ، ولكنهم كانوا
« يدعون تلاميذهم لا غير ، وجميعهم مع سائر اتباعهم كانوا يرتقون الى المصدر الاول ،
« الى الينبوع ، يسوع المسيح ، الذي تأملوا به واقتفوا أثره حسب تقاليد الكنيسة
« فوجدوه وامسكوا به. وهكذا القديسون يؤلفون جسداً ادبياً وان يكن كل منهم من صقع
« وعرق وبلد مختلف عن الآخر . انهم يؤلفون مجتمعاً روحياً ، شركة روحية . حيث
« يتجاوبون ويتناغمون ويتناسقون ويكمّل واحـدهم الآخر . يجب ان ننظر اليهم
« كمجموع ، عند ذاك نعاين فيهم انعكاسات واشعة نور وامتدادات ليسوع المسيح.
« لم يقلّدوه في مسلكه التاريخي كما يقلّد تلامذة القديس فرنسيس الاسيزي معلمهم
« ويلبسون ثوبه ، ولكنهم قلّدوه في داخليته ، ذلك لان المسيح كان له ذاتية محجوبة
« عن اعين الناس ، فيها كان يلتقي بابيه السماوي والتي منها كان ويبقى دوماً انموذجاً
« لكل من يريد ان يبني له علاقة ما مع الله .... والقديسون لا يكتفون بتلك المشابهة
« الخفية ولكن لكل منهم طريقته الخاصة . كل منهم كان يعكس شعاعاً وبالتالي
« مظهراً من ذاك الانموذج الذي استطاع ان ينسخه عن المسيح ، كالفنان الرسام
« الذي لا يستطيع ان يرسم الصورة الاّ تحت نظرة واحدة وبشكل واحد مع بعض
« الالوان وتبعاً لتكنيك تنشّأ عليه . ولئن كان القديسون يشابهون المسيح فالمسيح لا يشابه
« القديسين ، ذلك لأن ليس فيـه حدود ولا اختصاص . فالقديسون اولئك
« المظاهر الجزئية منه يدلّون على انه كان يحيا في كل منهم بمظهر خاص ، فيهم
« « العامل والمعلم والمتعبد والملك والكاهن والناسك والرسول والشهيد والضحية . هذا
« ما يبيّن ما كان خاصاً به وما كان غير قابل التقليد . القديسون هم كالالوان للشبح
« بالنسبة الى النور . انهم لشهود متأخرون يعيدون حياة يسوع المسيح في ظروف
« مختلفة ، يردّدون ويجدّدون تلك اللحظة من تجسده في الزمن . لقد سجّل التاريخ
« اسماء ابطال ومؤسسين ومتصوفين لهم تلامذة واتباع ولكنه لم يسجل امتداد شخص
« بآخر الاّ ليسوع المسيح . فالمسيح لم يوح الكمال للقديسين وحسب بل خلقه فيهم.»

شهود المسيح في القرون الاولى (١٠٠–٣٦٣) : شهادة الدم

مضى عهد الرسل والتلاميذ والمسيحيين الاولين ولم يمض عهد الشهود . وهذه قافلتهم تطل علينا في مستهل القرن الثاني بوجوه مشرقة نيّرة ، حريّة بوجوه التلاميذ، منهم القديس اغناطيوس الشهيد اول اسقف لمدينة انطاكية حكم عليه بالاعدام بصفته

مسيحياً واسقفاً ، ان يُلقى طعاماً للوحوش الضارية بروما سنة ١٠٧ على عهد الامبراطور ترايانوس ، وعلى الارجح في ملعب الكوليزه الذي دُشّن سنة ٨٠ م. اقتاده من انطاكية الى روما عشرة من الجنود بل « عشرة من النمورة » كما يدعوهم في رسالته . فاغتنم فرصة مروره بكنائس آسية الصغرى (تركيا الحالية) ليوجه الى بعضها رسائل خاصة يستحث المسيحيين بها على الصبر والثبات على الايمان بالرغم من اضطهاد الدولة الرومانية للدين الجديد . ثم بعث برسالة الى كنيسة روما قبل وصوله اليها يطلب فيها الى المسيحيين هناك ان لا يسعوا بشيء لانقاذه من الموت كي لا يحولوا دون استشهاده لأنه يرى في الاستشهاد نعمة الهية فائقة تجعله يحظى بالمسيح. ورسالته هذه خليقة برسائل الرسل والتلاميذ لما اسال فيها من الفيض « الميستيكي» الرفيع . وهاكم بعض مقاطع منها :

« اني أُعلم الجميع باني اموت عن طيبة خاطر في سبيل الله اذا لم تحولوا دون موتي.
« فانا أعوذ بكم ان تكلفوني موئنة عطف في غير محله . دعوني اصبح فريسة الضواري
« فهي السبيل لي الى الرب.انا حنطة الرب ستطحنني انياب السباع لأصير خبزاً نقياً،
« خبز الرب...

« منذ الآن بدأت أكون تلميذاً حقيقياً للمسيح . اليّ النار والحديد وعراك
« الضواري . اليّ التقطع إرباً والتمزق . إليّ تفكيك العظام وبتر الاعضاء . اليّ
« طحن الجسم برمته . لتسقط عليّ افظع عذابات الشيطان واحظى اخيراً بيسوع
« المسيح . ما يفيدني ان ملكت العالم اجمع ؟ ما لي وللمالك هذه الدنيا ؟ ان امُت في
« سبيل يسوع المسيح فذلك ارفع مجداً لي من ان امدّ سلطاني حتى أقاصي الارض .
« هو قبلتي وغايتي ذلك الذي مات لاجلنا ... اياه وحده اريد ... لقد دنت ساعة
« ولادتي. بحقي عليكم ايتها الاخوة لا تحولوا دون ولادتي للحياة. اريد ان اكون مُلكاً
« للرب . لا تسلّموني الى العالم ولا الى غوايات المادة . دعوني اصل الى النور المجرّد
« فعندئذ اصبح رجلاً حقاً . اسمحوا لي بان اتمثل بآلام ربي. سيتولى يسوع المسيح
« اظهار صدق قلبي وهو الفم المعصوم الذي به تكلم الآب حقاً . صلوا من اجل
« نجاح غايتي. اذكروا في صلواتكم كنيسة سوريا فهي ، بعد ان غادرتها ، لم يعد
« لها من راع سوى الله ولن يكون لها أسقف غير يسوع المسيح ومحبتكم ... »[١] .

---

١) من ترجمة الأب بولس قوشاقجي لرسالة القديس اغناطيوس اسقف انطاكية : « الحب الالهي امام الآلام والموت » .

وهذا الشاهد الكبير للمسيح في مستهل القرن الثاني هو ايضاً لاهوتي ضليع تكلم عن الكنيسة ووصفها وصفاً دقيقاً لا يقل عن وصف لاهوتي القرن الرابع لها شأن القديس اغسطينوس وغيره ، وهو اول من دعاها « الكنيسة المجيدة » . ووصف مكانة الاسقف منها قال : « حيثما يكن الاسقف تكن جماعة المسيحيين كما انه حيثما يكن المسيح تكن الكنيسة الجامعة » (من رسالته الى اهل ازمير ٧/٢) . فالاسقف يجسّم بشخصه كنيسته المحلية ويمثلها كما تمثل الكنيسة المسيح لانها تجسد وامتداد متواصل له في الزمن .

وفي تلك الحقبة من التاريخ الحافلة بالكثير من الشهداء المسيحيين من كل طبقة وجنس حيث بلغ الاضطهاد اشده ، تم استشهاد القديس ايريناوس اسقف مدينة ليون بغالية (فرنسا) (١٣٥—٢٠٨) وكان قد ولد بازمير باسية الصغرى وتتلمذ للقديس بوليكربوس تلميذ يوحنا الرسول ثم ذهب ليكرز بالانجيل في غالية (فرنسا) باوروبا وصار اسقفاً على مدينة ليون . فخلّف مؤلفات جمة قيّمة ضد البدع والهرطقات . وتعليمه عن المسيح واضح كل الوضوح . ومن اقواله : « لماذا جاء المسيح الى ارض « البشر ؟ إلاّ بداعي حبه غير المتناهي . فصار مثلنا لكي يصيّرنا مثله »[١] . المسيح « هو نفسه الكلمة ، ابن الله ، الحياة والنور ، مسيح الرب وابنه الواحد . هو ذاته « الذي تجسد لاجل خلاصنا والذي عُلّق على خشبة الصليب . فلا نخجلنّ من « اتضاعه لأنه عمل رحمة محض . لقد حصر اللامتناهي فيه وجعله بمتناول عقولنا فكان « ذلك له اقرب وسيلة للوصول الينا وكان لنا اسهل طريق للوصول اليه . ولهذا فخبز « الآب الفريد المُغذّي قد أعطي لنا كاللبن نحن الاطفال الصغار . وصار ابن الله « الكامل طفلاً وجمع في ذاته الرجل والطفل لا لأجله بل ليكون قريباً من حقارة « البشر وليكون الانسان أهلاً له »[٢]

وفي قافلة شهداء ذاك الزمن برز في كنيسة شمالي افريقيا شخص كبير آخر لا يقل عن القديس ايريناوس علماً وفصاحةً ألا وهو القديس قبريانوس اسقف مدينة قرطاجة (تونس) . اعتنق المسيحية سنة ٢٤٦ ثم اختاره الشعب اسقفاً واستشهد سنة ٢٥٨ . كان واعظاً وخطيباً مصقعاً ولاهوتياً لامعاً على شاكلة القديس ايريناوس اسقف مدينة ليون . قال عن الاستشهاد : « انه لمعمودية ثانية تجعلنا نتحد حالاً بالله فور خروجنا « من هذا العالم . وبفضله يصبح المسيحي عضواً في الكنيسة الممجدة السماوية . »

---

١) St. Ireneus: adv. Hœr. I, 9, 3. Patr. grec, VII, col. 544 — V. Patr. grec. VII, col. 1120.

٢) St. Ireneus: adv. Hœr. IV, 38, 1 et 2, Patr. grec VII, col. 1106-1107.

ان اضطهادات الامبراطورية الرومانية المتتالية ، كانت اجمل حقبة في تاريخ المسيحية واخصبها . اذ ان اكثر من نصف قديسيها — ويُعدّون بعشرات الالوف — يرتقون الى ذلك العهد . بدأ الاضطهاد على عهد الامبراطور نيرون سنة ٦٤ م. وانتهى مع ديوكليسانوس سنة ٣٠٥ حيث بلغ اشده الى ان اعتنق الامبراطور قسطنطين الاول المسيحية وأباح الحرية الدينية حرية المعتقد لرعاياه جميعاً بموجب قرار ميلانو سنة ٣١٣ . ففي هذه الفترة عاشت المسيحية حياتها كما هي وفقاً لمبادئ الانجيل وخبرت اتصالها بالمسيح وكان المسيحيون يتسابقون إلى الاقتداء بفضائل معلمهم الالهي ليكونوا صورة حية له وشهوداً حقيقيين له تجاه الامم ، واذا ما انكشف للسلطات الحكومية أمرهم تقدموا للموت طوعاً واختياراً شهادةً عن معتقدهم وايمانهم ، معتبرين استشهادهم منةً من الله الذي اختارهم ليكونوا قرابين حيةً وتكون دماؤهم زرعاً خصباً للمسيحية . لم يكن الشهداء باناس متهوسين يتقدمون للموت تعصباً لعقيدة ، ولم يعتبروا استشهادهم نتيجة حتمية للصراع القائم اوانئذ ما بين مبادئ الانجيل والنظام الروماني السائد ، كما اشار بحق الى ذلك المؤرخ الكنسي الشهير دانيال روبس في كتابه المأثور ، تاريخ الكنيسة في الجزء الاول « كنيسة الرسل الشهداء »[1] — وقد سبق للباباوات والاساقفة ان حذّروا المسيحيين من تقدمة انفسهم للموت قبل ان يُلقى القبض عليهم ويُحاكموا لئلا يُعدّ موتهم نوعاً من الانتحار ويخسروا اكليل الاستشهاد ... انما حسبوا الاستشهاد نعمةً واختياراً لهم من قبل الله الذي دعاهم ليواصلوا آلام المسيح على الارض ويقدموا دماءهم لافتداء البشرية ، وعبارات القديس اغناطيوس اسقف انطاكية في رسالته السابقة الى الرومانيين اكبر دليل على ذهنية اولئك الشهداء: « انا حنطة الرب ستطحنني انياب السباع لاصير خبزاً نقياً ، خبز الرب ....

« منذ الآن بدأت اكون تلميذاً حقيقياً للمسيح ... هو قبلتي وغايتي الذي مات لاجلنا ... اسمحوا لي بان اتمثل « بآلام ربي ... وغيرها .. »

ولقد اعتبرت الكنيسة الشهداء منذ البدء اولياء ووجهاء مكرّمين عند الله وايقنت ان دماءهم الزكية كانت زرعاً خصيباً لها جاءها باشهى ثمار الفضائل التي ادهشت المسكونة وجذبت الشعوب اليها . ولهذا عُنيت بجمع رفاتهم بوقار وجعلته تحت المذابح في الهياكل تكريماً لهم وخصّصت اياماً تحيي فيها على مدار السنة ذكرى استشهاد كل منهم باعياد حافلة حتى اصبحت حياتهم وشهادتهم للمسيح ملتصقة بمعتقداتها وطقوس

١) Daniel-Roops, *L'Eglise des apôtres et des martyrs*, éd. Arthème Fayard 1948, p. 221-223.

عبادتها. فشرعت بتأليف الصلوات ونظم الترانيم لترفعها ال الله في اوقات العبادة عن يدهم كي تستمطر نعمه الالهية على المجاهدين من ابنائها بشفاعتهم[١] .

شهادة القديس اغسطينوس : القرن الرابع والخامس (٣٥٤–٤٣٠) شهادة العبقرية والنبوغ

زال عهد الاضطهاد ونالت المسيحية حرية المعتقد والتبشير فخرجت من الدياميس بعد ان قضت مختبئة ثلاثة قرون روت خلالها الأرض بدماء ابنائها وأدّت للمسيح شهادة الدم . فاخذت تكرز بالانجيل جهرًا وعلانيةً فنشط العقل وتحرك الخيال وراح رجال الفكر يشرحون الانجيل بمنطق ارسطو وميتفيزيقية افلاطون ويبثّون مبادئه السامية في المجتمع ليؤدوا للمسيح شهادة الفكر والقلم بدلاً من شهادة الدم . فكان في طليعتهم القديس اغسطينوس معلّم الكنيسة الكبير . هي العبقرية والنبوغ في خدمة المسيح ، فكأن ثلاثة قرون من مخاض وألم قد اسفرت عن ولادة هذا العبقري العظيم . وُلد في تاغسطا المعروفـــة اليوم « بسوق اخرس » بالجزائر في ١٣ تشرين الثاني سنة ٣٥٤ في بيت شريف من اب وثني من البربر وام مسيحية فوفرا له ثقافة عالية لما توسما فيه من الاهلية ولما كانا يأملان له من الجاه العريض . غير انه ما ان بلغ السادسة عشرة وانهى دراسة الخطابة حتى انقاد لشيطان الرذيلة رغم نصح أمه والحاحها عليه ان يعتنق المسيحية ويقبل سر المعمودية المقدس . ومرت على هذه الحال ست‌عشرة سنة ومونقة الأم القديسة تصلي لاجل اهتداء ابنها الموغل في شروده وضلاله . غير ان اغسطينوس كان قلقاً يعبّ من الرذيلة ما استطاع دون ان يشعر يوماً بسلام النفس وطمأنينة الضمير . وهو الذي سيقول يوماً بعد اهتدائه « خلقتنا لاجلك يا رب ولا ينفك قلبنا قلقاً حتى يستريح بك » .

---

١) صلاة الى الله بشفاعة الشهداء :

« ايها الرب ربنا يا من تسر كل وقت بذكر شهدائك القديسين . فبصلواتهم نبتهل الى مراحمك السرمدية
« ان تقبل منا عرف الطيوب التي قربناها لرضى لاهوتك واكرام جميع قديسيك في هذا الهيكل الموضوعة
« فيه عظام المشرفين . وبما ان تضحياتهم ذبائح مرضية لسيادتك فليكن رفاتهم سوراً واقياً حول رعيتك .
« وبما ان دمهم كان عرفاً ذكياً للغفران فليكن ذكرهم حصناً حصيناً لشعبك ، فتتسلسل تسلسلاً مباركاً
« حفلاتهم المباركة في ازمنة الافراح في كنيستك المقدسة ، وأهلنا يا رب بمراحم نعمتك الفياضة لحظهم
« الذي نالوه في سعادتك التي لا تزول ولا تنحل ، فتخرج معهم الى لقائك بدالة عليك كاملة يوم مجيئك الثاني المجيد من السماء . ونرفع لك وإياهم المجد الآن وكل اوان والى دهر الداهرين . آمين » .

(صلاة مأخوذة من كتاب الفرض للكهنة في الكنيسة المارونية : صلاة الليل ليوم الاربعاء . القومة الثانية ، للشهداء) .

فبحث عن الله طويلاً فلم يجده لا بالفلسفة الافلاطونية التي تتلمذ لها ولا بالمانوية التي اعتنقها ودان بها ، الى أن قادته خطاه الى مدينة ميلانو في ايطاليا حيث تعرف الى القديس امبروسيوس اسقف المدينة فتردد عليه واحبه واصغى الى مواعظه وارشاداته . فانفتحت نفسه القلقة الى النعمة فاعتنق المسيحية وقبل المعمودية من يد القديس امبروسيوس وراح يحيا حياةً جديدة ، حياة توبة وتكفير حملته على الانزواء عن العالم والانصباب على الدراسة والتفكير في وحي الانجيل . وعاد الى افريقيا وانتظم في السلك الاكليريكي ليقف النفس بكاملها على خدمة المسيح . فقد اكتشف ذاك المسيح الذي رفعه عن ادناس الارض واعاد الى ضميره السلام والطمأنينة وسما به الى عالم الروحيات الى اقصى درجات الصوفية و«الميستيكية» . فراح يجدّ ليراه ويحبه كبولس الرسول في شخص كل انسان . كتب كتاب «اعترافاته» الخالد ، ليتغنى بمراحم الرب ويدعو خطأة الأجيال والعصور ليقتدوا به . وشرح المزامير وانجيل القديس يوحنا ورسائله عن المحبة حيث حلل ديالكتيكية المحبة وفلسفتها اجمل تحليل .

سخر الافلاطونية لشرح الثالوث الاقدس كما سيسخر يوماً القديس توما الاكويني منطق ارسطو ليشرح حقائق الانجيل ، فوضع بذلك اسس اللاهوت المسيحي او علم الكلام المسيحي . اديب متشبع من شيشرون وفيرجيليوس وهوميروس وديموستينوس ، وفيلسوف مأخوذ بنظريات وميتفيزيقية افلاطون . رأى في المسيحية وقاية وحصناً منيعاً للعقل البشري من الضلال . ولهذا لما عُيّن اسقفاً على ابرشية هيپونة (بونة الحالية) دعا المسيحيين الى تحصيل اعلى ثقافة ممكنة كي يستطيعوا اكتناه وحي الانجيل والاغتذاء بتعاليمه . فبعرفه يجب ألاّ تفصل القيم العقلية البشرية عن القيم الروحية الفائقة الطبيعة . وكل ما في الانسان من علم وفلسفة وادب وذوق يجب ان يؤول الى منفعة خلاصه وعوناً له على حل مشكلة سعادته الابدية . وهنا نراه يضع الحجر الاساسي للفلسفة المدرسية (السكولاستيكا) التي ستزدهر يوماً في القرون الوسطى.

كان المسيح المتأنس والمتضع والمعلم المثالي المتواضع موضوع تأملاته واعجابه . وكان يردد دائماً في اقواله: «إن الكبرياء البشرية التي اطاحت بالانسان وصرفته عن طريق الهدى لن تتحطّم الاّ امام تواضع المسيح . والفلاسفة الافلاطونيون المستحدثون الذين كنتُ مأخوذاً بهم في سابق عهدي ينقصهم الاتضاع الالهي ولن يستطيعوا ان يوفقوا ما بين سلوكهم وعلومهم ومثلهم الاعلى الاّ بفضل المسيح المتواضع .» وقال ايضاً في كتاب اعترافاته : «صدّقوا خبرتي ، كنتُ اسعى وراء القوة اللازمة ولم

اجدها قط لأني لم اكن وقتئذ حائزاً سيدي يسوع المسيح ولم اكن تلميذاً متواضعاً لمعلم متواضع (اعترافات ٧/١٨، ٢٤).

كان مسحوراً كفيلسوف بعظة المسيح على الجبل (متى ٥-٧) ؛ الاّ انه اصطدم لاول وهلة بقضية صلبه وشقّ عليه ان يراه معلقاً على خشبة الصليب ، خشبة الذل والهوان . لكنّ اغسطينوس التائب والمتصوف رأى في ذلك فيضاً من المراحم الالهية واعترف بان « رفق الله اللامتناهي افضى به الى الصليب ، وان ثمة جمالاً ادبياً « خفيـاً للقلب يفوق الجمال الخارجي الذي يبهر العيون . « الكلمة صار بشراً » « هذا هو الجمال الاكبر . فالانسان غير المسيحي يقف عند الظواهر وبصره لا يخترق « الحجب التي تخفي الجمال الروحاني . أما نحن المسيحيين فالعريس جميل باعيننا اينما « كان . جميل كإله ، كلمة عند الله ؛ جميل في حشى مريم حيث اتخذ طبيعة بشرية « دون ان يخسر طبيعته الالهية ؛ جميل هو الكلمة طفلاً صغيراً لا يتكلم ، وجميل هو « على ذراعي امه يغتذي من لبانها ؛ وجميل وهو محمول على الايدي ؛ وجميل في « السماء وعلى الارض ؛ وجميل اذ كان يأتي بالآيات والمعجزات ؛ وجميل حينما حنى « ظهره لضرب السياط ؛ وجميل لما اسلم روحه على الصليب بين ايدي ابيه ، وجميل « لما استعادها ؛ وجميل على خشبة الصليب وفي القبر وفي السماء . افهموا النشيد بالروح ولا يغشينّ ضعف الجسد ابصاركم ويصدكم عن رؤية بهاء جماله » (من شرح المزامير ٤٥ و ٤٤).

وفي كتابه عن البتولية تذكر توبته وسكب اجمل عاطفة في قلبه نحو المسيح . قال وهو يشرح نصاً من سفر رؤيا يوحنا :

« هوذا الحمل يمشي على درب بتولي . انـّى للذين فقدوا موهبة البتولية التي لن « تـُردّ ان يمشوا وراءه ؟ اما انتن يا عذارى المسيح ، ألا سرن بامان وراءه . سرن « واحفظن بحرص وثبات ما تعهدتن بحفظه بحرارة نفوسكن فان جميع المؤمنين الذين « لا يستطيعون المسير وراء الحمل ينظرون اليكن دون ايما حسد ، ويفرحون معكن « لأنهم يجدون فيكن ما فقدوه »[١].

وهذه العبارة الاخيرة تبيّن عظم محبته للمسيح الذي يقيم في شخص القريب ، الذي يصنع البتولين والبتولات بقوة نعمته كما انها تظهر ايمانه بشركة القديسين التي

---

١) St. Augustin, *P. de virginitate*, *Patr. Lat.* XLII, col. 412.

تجمع المسيحيين بالمسيح وتربطهم به ليستفيدوا ويتقدسوا من استحقاقاته ومن استحقاقات بعضهم من بعض .

اما محبة اغسطينوس للكنيسة فتفوق الوصف . كان اول من دعاها « الكاثوليكية » اي الجامعة . وهي ، بعرفه ، المسيح المنظور على الارض لأنها امتداد لشخصه ، « اذ انها العلة الاولى للايمان بالمسيح الغير المنظور » . وهي ايضاً تجسّد زمني للملكوت السماوي . وان تكن في الواقع تحتوي الأبرار والاشرار ، القديسين والمجرمين ، غير انها ، كمجتمع بشري وروحي معاً ، تتناولهم جميعهم وتحاول ان ترفعهم الى الله باندفاع متواصل . وصفة الانسان فيها كعضو من اسرة وفرد من وطن ومواطن لدولة يجب ألاّ تنسيه دعوته الالهية انه يخص جماعة تفوق ما دونها من جماعات ، اعني بها الكنيسة .

وقال بلسان الكنيسة : « انظروني. انكم تنظروني ولعلكم تودّون ألاّ تنظروني .
« فالذين عاشوا في ذاك الزمن على ارض اليهودية ، منقادين بالايمان ، تعلموا من العذراء
« مريم ولادة المسيح العجيبة وآلامه وقيامته من الاموات وصعوده الى السماء . كانوا
« معاصرين لها ،وكمعاصرين تعلموا ووعوا جميع تلك الاحداث الالهية من اعمال واقوال .
« اما انتم فلا ترونها ولاجل ذلك تأبون ان تؤمنوا بها . فانظروني اذن وصوّبوا انظاركم
« وافكاركم الى ما تنظرون ، الى ما ليس برواية من الماضي او باعلان عن المستقبل ،
« ولكن الى ما هو حاضر »[١] .

كانما هو لاهوتي في القرى العشرين يتكلم عن الكنيسة .

ولم يكن اغسطينوس اسقفاً راعياً وحسب بل كان ايضاً اسقفاً معلماً لابرشيته ولافريقيا وللكنيسة باسرها . جرّد قلمه لدحض الهرطقات وبنوع اخص الهرطقة البيلاجية . فأخرج اجمل مؤلف واعمقه عن النعمة الالهية وطريقة تقديس الله للنفوس . ولما اجتاحت موجة البرابرة الامبراطورية الرومانية في اواخر آب سنة ٤١٠ ودخل ألاريك Alaric مدينة روما واعمل فيها السيف وحرق معالمهـا ودكّ مبانيها هلعت القلوب جزعاً وايقن مسيحيو افريقيا بان سقوط روما ينذر بانهيار المسيحية والحضارة الرومانية معاً . فوقف اغسطينوس الفيلسوف والقديس وراح يستجلي غوامض الاحداث بعين العبقرية والايمان فقال : لا ! ان سقوط روما بايدي البرابرة لا ينذر بنهاية عالم قديم بل يؤذن ويبشر بولادة عالم جديد . هي محنة كباقي المحن شبيهة بمحنة طروادة . فالمدنيات تزول لكنّ الكنيسة تبقى ولسوف تصوغ من هؤلاء البرابرة حضارة جديدة ،

١) St. Augustin, *De fide rerum quae non videntur*; IV, 7. M.L. XL, col. 176.

لأن مخطط الله على الكنيسة ابدي وهو القائل : « هأنذا معكم كل الايام الى منتهى الدهر » (متى ٢٨ / ٢٠) . ومصير الكنيسة ليس منوطاً بحضارة او ثقافة او دولة او امة او شعب . وطفق يتمخض بكتابه المأثور « مدينة الله » الذي قضى في تأليفه ثلاث عشرة سنة وصنّفه باثنين وعشرين مجلداً . وضع فيه اسس فلسفة التاريخ واسس الحضارة الغربية الجديدة . اما الفكرة الرئيسية لكتابه فهي هذه : ان المسيح ركّز اخلاقية انجيله على ركنين خالدين يجعلان كنيسته بمنعة من الهرم والانهيار ويحفظانها ابداً فتية تضفي شبابها الدائم على كل عصر وكل شعب وكل قطر ، وهما محبة القريب وقداسة الزواج . فمحبة القريب التي جعلها الانجيل جزءاً من الوصية الاولى والعظمى في الناموس وصورة لمحبة الله بالعمل تتيح للكنيسة بان تذكر البشر كل حين بقيمة الانسان الفرد المفتدى بالدم الالهي وتهيب بالولاة والحكام ألا يستعبدوا ابناء الله وان يخدموهم خدمتهم لله ويعملوا على ترفيههم وتبليغهم غايتهم القصوى . وقداسة الزواج رفعت الحب الزوجي الى درجة سر مقدس وحررت بمقتضاه المرأة من نير شهوة الرجل بحيث اصبحت رفيقة له وربة بيت نظيره وسيدة المجتمع . فهذا لما يفتح آفاقاً للرقي لا حد لها ويقي الحضارة المسيحية من الانحطاط والانهيار . قد تنهار المدنيات وتثل العروش وينقرض الملوك ، فيكفي ان تُطبَق مبادئ الانجيل على اي شعب كان فيأتي باجمل المدنيات واوسع الحضارات . ذلك لان المسيحية والكنيسة كفيلتان بحفظ التراث الفكري للبشر[1] . ثم ان المسيحية بعرف القديس اغسطينوس اجمل ديانة لتعزية قلب الانسان وراحة عقله وطمأنينة ضميره ، فيها يجد حلاً لجميع مشاكل حياته .

---

١) اليك تصميم كتابه « مدينة الله » .

من سفر ١ الى ١٠ – انتقاد شديد للوثنية لعجزها عن تأمين ازدهار البشرية ولعجزها خاصة عن تهيئة السعادة الابدية .

من سفر ١١ – الى ٢٢ : تبسط وسوق مبادئ المدينتين الارضية والالهية . مبدأهما ثم تقدمهما عبر الزمن وغايتهما .

محبتان صنعتا مدينتين : محبة الانسان ذاته حتى احتقار الله ، صنعت المدينة الارضية . ومحبة الانسان لله حتى احتقاره ذاته صنعت المدينة السماوية . وهكذا نميز ما بين البشر الذين يعيشون لاجل هذا العالم الفاني والذين يعيشون لاجل العالم الآتي . فالتاريخ اذن مأساة يحياها البشر مع نزعتيهم المتناقضين . والمهم ان نرفع مدينة البشر الى اسمى درجة ممكنة لتصبح شبيهة بمدينة الله . وبعبارة اخرى ان الغاية من الحضارة ان تدني الانسان من مصيره الالهي اكثر فاكثر . سوف يقول من بعده بعدة قرون الشاعر الفرنسي بودلير : « ان المدنية الحقة لا تقوم باكتشاف الغاز والبخار ولكن بمحو أثر الخطيئة الاصلية من الكون » . قيل ان كتاب القديس اغسطينوس عن « مدينة الله » لم يكن سوى علم الكلام عن التاريخ الحي الذي تحياه البشرية ضمن إطارها الاجتماعي في الزمن ، كما ان كتاب « اعترافاته » كان علم الكلام

ولما تطرق الى الأسرة ، خلية المجتمع الاولى ، رأى ان هذا المجتمع الصغير هو الإطار الأول الطبيعي والضروري للانسان لتتكون فيه شخصيته وتنمو وتتسع وهو مؤسسة الهية وركن المجتمع الصحيح ؛ لهذا يجب الاّ تبتلع الدولة هذه الاسرة شأنها في الحضارة اليونانية وان تبقى الاسرة مستقلة عنها وعن المجتمع . اما الوطن فهو امتداد للاسرة وجهاز الوطن الاداري الدولة ؛ ولهذا يجب الاّ تتعدى الدولة حدودها وتسيطر على الوطن شأنها في الامبراطورية الرومانية مثلاً . فكأن أغسطينوس رأى عن بعد الاجيال نشوء الاوطان ضمن الدولة حيث يعيش كل منهم مع الآخر ضمن فيدرالية فيها يتعاون الجميع . سوف تتحقق فكرته الف سنة بعد ذلك في فرنسا والمجر وبولونيا وغيرها . فالشعوب المسيحية رأت في داخلها اوطاناً يجب ان تلتف حول فكرة واحدة الا وهي المسيحية . ويجب ان يكون الوطن صورة مُصغّرة « لمدينة الله » حيث يعيش البشر اخواناً . فالدولة لا تشكّل غاية بحد ذاتها انما هي واسطة لا غير لخدمة الوطن وخدمة كل فرد من افراده . اما واجب المَلك فان يُجري العدل . وعندما لا يُطبَّق هذا المبدأ تصبح الدولة غير شرعية . ولهذا فالامبراطورية الرومانية ، بعرف القديس اغسطينوس ، لا تستحق ان تدعى دولة لانها لم تعرف العدل الحقيقي الصحيح الذي انبثق من تعاليم المسيح . يجب على المواطنين ان يخضعوا لصاحب السلطة لكي يستطيع ان يجري سلطان المحبة بين البشر ويعمل لاجل سعادتهم القصوى ويجوز لهم عدم الخضوع للحكّام المستبدين غير العادلين .

ولئن كانت المدينتان الارضية والسماوية تختلفان جوهرًا فهذا لا يمنع الكنيسة والدولة من ان تتفاهما وتتعاونا لاجل خدمة البشر لأنهم مدعوون الى السماء ، الى المدينة السماوية . ولما كانت الكنيسة مكلفة ان تقود البشر الى غايتهم القصوى . الى السعادة الابدية ، الى الله تعالى ، بات من البديهي ان تكتسب حقوقاً وامتيازات لتحقيق اهدافها ولا جدال في ذلك البتة ، وتستطيع ان تطالب دوماً بها . وبما انها مكلفة ايضاً ، بحكم الدعوة ، أن تسهر على اجراء العدالة والمحبة طبقاً لمبادئ الانجيل — وكل

عن التاريخ الذي تحياه النفس الواحدة بمفردها . في هذا القول كثير من الحقيقة . اما منطق الكتاب فهو منطق مأساة الهية وانسانية . في الفصول الخمسة الاولى يظهر الانسان مخلوقاً من الله على صورته ثم متمرداً عليه تعالى بحافز الكبرياء والغرور وساقطاً من موازين البشرية الاولى الى بشرية احط منها . الاّ ان الله رحم الانسان وعنى بتثقيفه وتلقينه المبادئ الصحيحة الصادقة . ثم كان التجسد الالهي وجاء المسيح يعلم الانسان بمثل حياته كيف اصبح لزاماً عليه وممكناً له ان يسترجع مكانته الاولى ويعود ابناً لله وشبيهاً به . واخيراً في نهاية المأساة الاختيار الاخير وفصل الابرار عن الاشرار تبعاً لاختيارهم الشخصي . هو الخلق ثم سقوط الانسان فالوحي والتجسد الالهي والفداء والقيامة من الاموات ما يؤلف المشاهد المسرحية لتلك المأساة .

دولة شرعية ملتزمة بالحفاظ على تلك الواجبات – يحق لها ايضاً ان تراقب اعمال الدولة . ومراقبة اعمال الدولة لا تعني اخضاع الدولة لسلطان الكنيسة انما اعلان حقها وصلاحيتها في البت بصحة او بعدم شرعيتها . ويحق للكنيسة ان تطلب حماية الدولة لصيانة حقوقها . وتعليم القديس اغسطينوس في هذا المضمار سوف يكون عوناً للكنيسة للمطالبة باستقلالها عن الدولة على توالي العصور .

واما قضية التسامح الديني فكانت من اولى القضايا التي شغلت عقل اغسطينوس ايضاً . فكان يطالب بحرية المعتقد لغير المسيحيين ولغير الكاثوليك ، ويقول انه يحق لهم ان يمارسوا وينشروا معتقدهم كما يشاؤون وعلى الكنيسة ان تطالب لهم بحرية المعتقد لكي تظهر للملا انها تعتمد لنشر تعاليم الانجيل ، لا على سيف الدولة بل على قوة الحقيقة الموجودة فيه .

قال المؤرخ الالماني البروتستانتي الشهير فون هرناك عنه : «ان اغسطينوس يملأ الكنيسة الكاثوليكية بحضوره فهي لا تزال اغسطينية بتفكيرها وبتعبيرها . كانت حياته حدثاً لا بل فتحاً جديداً في دنيا الفكر ، فلولاه لما كان پاسكال الفيلسوف ذاك الذي مشى على طريق القلق التي مشى عليها اغسطينوس ووجد في منعطفها المسيح نظيره. وكم من مذاهب فلسفية لم ترَ الوجود لولا عمله العميق والمثمر والمقدس، و«انا افكر اذن انا موجود» للفيلسوف ديكارت ، والفلسفة السپينوزية وحتى فلسفة هيجل نفسها وفلسفة شبنهور تأثرتا به وفلسفة ملبرانش ونيومن لا تبرح مدينة له . »

وكذا قل في عالم اللاهوت او علم الكلام . فالقديس اغسطينوس مهّد السبيل للقديس توما الاكويني وزملائه فلاسفة ولاهوتيي المدرسة (السكولاستيك) في القرون الوسطى .

تلك هي شهادة القديس اغسطينوس للمسيح باعرض خطوطها . لقد وضعناه في قافلة شهود المسيح في التاريخ بعد القديس بولس الرسول والقديس يوحنا الانجيلي ، لا لأنه سخر عبقريته لخدمة المسيح وكنيسته ووضع اسس فلسفة التاريخ ونصّر ميتفيزيقية افلاطون وبنى اول مدماك في علم الكلام المسيحي بتفردية الحق المنقطعة النظير ، بل لأنه عاش في كل ما كتبه . كان يحيا بما يفكر فيه ويفكر فيما يحيا به، فكان ذاك الناغم الجميل ما بين حياته ومؤلفاته . حبّه للمسيح سما به الى اعلى درجات الصوفية « والمستيكية » المسيحية فجاءت شهادته قطعاً من حياته ، قطعاً من صمته وصلاته ، وقطعاً من تأملاته ، ومن توبته الصادقة ومحبته الوفية ، فكانت خليقة

بشهادة الرسل والتلاميذ اذ انها دللت على وجود المسيح فيه وعلى عمله الخلاق الدائم « الى منتهى الدهر » .

القديس بندكتوس وشهادة النسك في الحياة الاجتماعية (٤٨٠-٥٤٧)

هي شهادة الحياة الفردية والاجتماعية من كل نواحيها ، القائمة بتقييم الاعمال العادية وتحويلها الى صلاة صامتة ونشيد صامت امام العزة الالهية . تلك كانت الفكرة الرئيسية المسلطنة التي حدت القديس بندكتوس على هجر العالم وتأسيس دير فرهبانية في اوائل القرن السادس . ولـد في نورسيا (Nursie) بايطاليا ، ذاك البلد الذي قال عن سكانه شيشرون خطيب روما الكبير « انهم يؤلفون ما بين صرامة الاخلاق ودماثتها بشكل غريب » . فتكونت شخصيته من ذاك الهدوء والاتزان وروح الواقعية فالحزم والمراس ودماثة الخلق الحري ببلاده وطيب مناخها . سنّ قوانين لرهبانيته دعيت بالقوانين البندكتية ، سكب فيها روحه وحياته اليومية فجاءت على غاية من البساطة ، خالية من التعقد والمغالاة ، يسودها الاعتدال بالتقشف مع الحكمة والحزم والمراس ، طابعها الانساني يشف عن معرفته العميقة بضعف الطبيعة البشرية يحاول ان يرفعها الى الله ولكن برفق وتؤدة . فمن جملة اقواله :

« الغاية من القوانين الرهبانية ان تساعد الراهب ليكون رجل صلاة وتفكير ، رجل
« عمل وجد ونشاط وثقافة عالية ... يجب ان يعيش الراهب تبعاً لظروف المكان
« والزمان ، غريباً عن العالم متلمساً دوماً السماء ولا يترك امرًا يتقدم خدمة المسيح...
« يجب ان يُطلب من طالب الدخول في الرهبانية ان تكون غايته التماس الله حقيقة...»
« (من القوانين البندكتية) .

لم يخترع القديس بندكتوس شيئاً جديداً من تلك القوانين التي سنّها لرهبانيته ، بل استقى معظمها من المؤسسين الذين تقدموه في هذا المضمار شأن القديس باسيليوس وكاسيانوس والقديس اغسطينوس وغيرهم . الاّ ان ما تفرّد به وظلّ خاصيته الكبرى « هو ذاك التناغم والانسجام والتطبيق العملي الموفق الذي اوجده ما بين قوانينه وطباع الشعوب الغربية وعاداتها (من خطاب البابا بيوس الثاني عشر سنة ١٩٤٧ في ذكرى الالف والاربعمائة سنة لوفاة القديس بندكتوس) .

ومعظم ما تفرد به واحصاه في قافلة الشهود العظام للمسيح عبر الزمن هي الصفات بل الفضائل التي يطلب الى الرؤساء ان يتحلوا بها : « يجب ان تكون افكار الرئيس

« نقية منزهة عن كل عيب وحب للذات ، وتكون اعماله قدوةً او بالاحرى دستوراً
« لمرؤوسيه..يجب ان ينصبّ على التأمل في الروحيات وان يكون رفيقاً ومتواضعاً وفي
« الوقت نفسه حازماً ، ذا سلطان ومراس عند استئصال الرذائل والخطيئة . والاّ يعوقه
« الاهتمام بالماديات عن النشاط في الامور الروحية ، ولا ينسيه حب الحياة الداخلية
واجبات وظيفته . »

فهذا لما يدلنا على انه كان يتوخّى من تأسيس الرهبانية ان يقدم للمسيح شهادة حية عن حياة فردية ومشتركة معاً ، عادية وبعيدة عن خوارق الامور ، يكون الرهبان ورئيسهم فيها صورة حية او بالاحرى امتداداً حياً لحياة يسوع المسيح وتلاميذه ما بين البشر . يسكنون تحت سقف واحد ويقتسمون خبزاً واحداً خبز الفقر والمحبة ، ويتكالمون ويتفاهمون بلغة واحدة لغة المحبة بالرغم من تباين اطباعهم ولغاتهم وعاداتهم ومشاربهم . ولقد كان القديس بنديكتوس موفقاً كل التوفيق بشهادته هذه اذ ان الله تعالى ارتضى بها وشهد له بدوره ومنحه بركة خاصة له ولرهبانيته فاتسعت اديارها وانتشرت في سائر انحاء اوربا فاكبّ رهبانه على حراثة الاراضي البور واستثمار الغابات والاحراج وتنمية الزراعة . ثم نقلوا المخطوطات من المصنفات الفلسفية واللاهوتية والادبية والعلمية حتى غدت اديارة على حد قول الكاتب الفرنسي الشهير شاتوبريان « قلاعاً حصينة تحتمي فيها الحضارة والثقافة العالية » . هذا فضلاً عن رجالات الفكر والاساقفة والباباوات العظام الذين تخرجوا من تلك الاديار وبشّروا ونصّروا معظم الاقطار الاوربية . وستبقى اوربا المسيحية ابداً مدينة لهذا الراهب العظيم الذي صدق المؤرخ الكنسي الكبير دانيال روپس بتسميته « بطريرك الغرب الكبير »[1] .

القرون الوسطى : السلام المسيحي !

تمتاز الحقبة الاولى من القرون الوسطى ما بين القرن السابع والقرن الثاني عشر بالسلام المسيحي السائد في الاديار وبنوع اخص في الاديار البنديكتية وفروعها ، ذاك السلام الذي كان ينشده الرهبان لدى هجرانهم العالم والاعتكاف على الصوم والصلاة . فسلام الروح كان شعار الرهبانيات وقتئذ ، سواء أكان في رهبانيات الرجال ام في رهبانية النساء . كل منهم كان يعمل لاحلال سلام المسيح في نفسه اولاً ثم في نفوس الآخرين كي يستطيعوا جميعاً ان يؤدّوا شهادة جمهورية للمسيح ، إله السلام

١) Daniel-Roops, *L'Eglise des temps barbares*, p. 328.

الذي قال لتلاميذه قبل ان يتركهم : « السلام استودعكم ، سلامي اعطيكم» . « لست كما يعطي العالم اعطيكم انا » (يو ١٤ /٢٧) .

تخرَّج من اولئك الاديار في تلك الحقبة التاريخية رجال روحانيون عظام منهم القديس غريغوريوس الاول الكبير ، بابا روما الممتاز بتقواه وسعة عقله ورحابة صدره (القرن السابع) والقديس بطرس داميانوس المتقشف والصارم بحياته وتعليمه (القرن العاشر والحادي عشر) ، والقديس انسلموس الفيلسوف واللاهوتي الكبير رئيس اساقفة كانتربري في بريطانيا (القرن العاشر والحادي عشر) ؛ وفي الرهبنات النسائية القديسة جرترودا (القرن السابع) .

ثم في الحقبة الثانية من القرون الوسطى ، فلاسفة ولاهوتيو المدرسة (السكولاستيك) منهم القديس برنردوس (القرن الثاني عشر) ، والقديس البرتوس الكبير (القرن الثالث عشر) والقديس توما الأكويني (القرن الثالث عشر) ، والقديس بونونتورا (القرن الثالث عشر) ؛ وفي الرهبنات النسائية ، القديسة كاترينا السيانية (القرن الرابع عشر) التي ضارعت بمؤلفاتها الروحية كبار اللاهوتيين .

القديس فرنسيس الاسيزي وروحانية الفقر (١١٨٢–١٢٢٦)

هو اجمل وجه للسيد المسيح نفسه والطفه واكمله عبر الزمن . وُلد سنة ١١٨٢ في بيت شريف ثري من اسرة برناردونا من اعمال اومبريا في ايطاليا . وعاش في حقبة من التاريخ كان للاقطاعية كل الامتيازات وكل الحقوق ، تستغل الطبقة الكادحة دون ما رادع ولا وازع وتتركها تعاني من فروق اجتماعية ما يستنكره الوجدان الحي ويأباه الضمير السليم . وكان ذاك الانحراف قد تسلل الى صفوف الاكليروس نفسه . فهال هذا الوضع المشين فرنسيس ففكر طويلاً في الطريقة المجدية لمناهضته والقضاء عليه والاخذ بناصر الطبقة الكادحة وتنصير المجتمع الاوربي من جديد . فعمد لا الى تحريض الشعب ودعوته الى الثورة لتحطيم قيوده ، بل الى العودة الى فقر الانجيل واقتفاء اثر السيد المسيح الذي غيَّر اوضاع الكون ومجاري التاريخ بفقره واتضاعه ، فترك المنزل الوالدي وهو ربيب الغنى والترف وطفق يعيش فقيراً ما بين الناس مسوقاً بثلاثة نصوص من الانجيل بنى عليها روحانيته ثم رهبانيته ، وهي ، كلام السيد المسيح للشاب الغني الذي طلب ان يلتحق به ويتتلمذ له : « ان اردت ان تكون كاملاً فاذهب وبع مقتناك واعطه للمساكين وتعال اتبعني » (متى ١٩ /٢١) .

ثم تعليماته لتلاميذه لما ارسلهم يكرزون بالانجيل : « واذا ذهبتم فاكرزوا قائلين قد اقترب ملكوت السماوات ... لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا حذاء ولا عصاً لأن الفاعل مستحق طعامه » (متى ١٠/٧—١٠) .

واخيراً دعوته للكفر بالنفس وايثار الخيرات الأبدية على الزمنية : « من اراد ان « يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني . لأن من أراد ان يخلّص نفسه يهلكها ومن اهلك نفسه من اجلي يجدها . فانه ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كلّه وخسر « نفسه ام ماذا يعطي الانسان فداء عن نفسه » (متى ١٦/٢٤—٢٦) .

لم يكن فرنسيس الاسيزي صوفياً عائشاً بالنظريات ، بعيداً عن الواقع — وان يكُ من غير ناحية من كبار الشعراء الروحيين — او زمّيتاً منعزلاً عن الناس ، قابعاً في قصره العاجي يدعو الى الفقر الانجيلي من بعيد ، بل كان صوفياً مجتمعيّاً لطيفاً جذاباً يعيش بين الناس ، يردد امامهم مشاهد المسيح الفقير ويحيي ذكراه ما استطاع الى ذلك سبيلاً . فالمسيح بعرفه ليس شخصاً تاريخياً انما هو شخص حي « هو اليوم وامس والى الدهور ، (مار بولس) ماثلٌ امامه يدعوه للاقتداء بفقره واصلاح المجتمع الاوربي والقضاء على الاقطاعية عن طريق الفقر . هذا ما حبّبه الى الناس وجعلهم يتقاطرون من كل حدب وصوب بعضهم للاستماع الى تعاليمه وارشاداته الأخـّاذة والاستمتاع بحلاوة لطفه ووداعته وسحر قداسته ، وبعضهم للانضمام اليه والانتظام في رهبانيته . ولما ازداد عدد تلاميذه ورهبانه فكـّر في أن يسنّ لهم قوانين يتمشون عليها . وبعد ان كتبها وسطّرها عرضها على البابا اينوشنسيوس الثالث ثم على البابا اونوريوس للموافقة عليها . وفي وصيته الاخيرة اوصى رهبانه الذين دعاهم « الاخوة الصغار » بان يكونوا خاضعين دوما لخليفة القديس بطرس كي ينالوا نعم الله وبركاته : « ان قانون الاخوة الصغار ان يحفظوا تعاليم الانجيل المقدس ، انجيل سيدنا يسوع المسيح ..... والاخ فرنسيس (هو نفسه) يقُر بالطاعة والاحترام لقداسة البابا اونوريوس وخلفائه المنتخبين شرعاً احباراً اعظمين على الكنيسة الرومانية . واني اوصّي الاخوة الصغار بان لا يكرز احد منهم مطلقاً ضد عوائد او فرائض الكنيسة الرومانية . ويجب على الاخوة الصغار ان يكونوا كاثوليكيين بايمانهم واذا احد منهم علـّم يوماً تعاليم مضادة للايمان الكاثوليكي فليُطرَد من الرهبنة » (من وصيته) .

لقد احب فرنسيس الأسيزي الفقر الانجيلي ومارسه وتغنى به سحابة حياته الى ان عقد قرانه « الميستيكي » عليه ودعاه السيدة الفاقة « Dame pauvreté ».وقد بلغ به

حبه للفقر الانجيلي الى درجة من « الميستيكة » الخارقة يستحيل عندها اكتناه حالته النفسية وتعليلها دون وجود المسيح فيه . فتحققت فيه كلمة القديس بولس الرسول : « لست انا احيا انما المسيح يحيا بي » . اجل لقد اخذ فرنسيس الاسيزي على نفسه ان يكرز بانجيل الفقر في عهد الاقطاعية المشؤومة ويشهد للمسيح بزهده وفقره فايّد المسيح شهادته ومنحه عربوناً لمرضاته سلطاناً روحياً جعله يقضي على تلك الاقطاعية، ثم سما به الى اعلى درجات الصوفية « والميستيكة » ظهر من خلالها لمواطنيه وظهرانيه اجمل وجه واكمل صورة له واكرم شاهد من شهوده على ارض البشر .

توما الكمبيسي وروحانية كتاب الاقتداء بالمسيح : شهادة الحياة الداخلية

ظهر في القرن الخامس عشر كتاب باللغة اللاتينية تحت عنوان : « الاقتداء بالمسيح » لمؤلف مجهول . ولكن بالرغم من تكتمه المقصود قد عُرف فيما بعد ، نظراً الى اسلوبه ، أنه من صنع الراهب توما الكمبيسي (Thomas a Kempis) الروحاني الكبير ، الالماني التبعة . (١٣٧٩–١٤٧١) .

هو أنفس كتاب صُنّف حتى الآن في المصنفات الروحية . ترجم كالكتاب المقدس الى جميع لغات العالم لما فيه من قوة التغذية الروحية للنفس . كان ولا يزال الكتاب المفضّل في المطالعة الروحية . مؤلفه راهب من الرهبان المتوحّدين طوى الحياة على الصمت والصلاة في إطار الحياة المشتركة فخبر جميع الحالات النفسانية التي تمر بها النفس في مسيرها الى الله في تجارب وهواجس ويبوسة وضعف وسقوط ومحن ثم انتعاش واستنارة وألفة ودالة معه تعالى .ووقف على اسرار الحياة المشتركة ومشاكلها ومصاعبها وما يجب على الراهب ان يحتمله من قِبَل الاخوة والزملاء فجمع كل اختباراته وصنفها بثلاثة اسفار كانت قطعاً من حياته، ثم اضاف اليها سفراً رابعاً خصّه بتكريم سر الافخارستيا . اما طريقته الروحية فهي الطريقة الكلاسيكية المألوفة التي نادى بها الآباء الاقدمون منهم القديس باسيليوس والقديس غريغوريوس النيصي والقديس اغسطينوس ، وكاسيانوس وغيرهم ، الطريقة القائمة باجهاد النفس اولا لقمع الميول المنحرفة الواحد تلو الآخر واحتمال الشدائد قبل الوصول الى حال الاستنارة والاتحاد الدائم مع الله . واليك بعض المقتطفات من كتاب الاقتداء بالمسيح » .

من اقواله عن ضرورة قمع الميول المنحرفة : « كلّما اشتهى الانسان شيئاً على خلاف الترتيب ، عاد في الحال قلقاً في نفسه ... من لم يمت بعد لنفسه موتاً كاملاً يُجرَّب سريعاً ويُغلَب في امور زهيدة تافهة . من كان بعد ضعيف الروح غير

مستكمل التحرر من الجسد ، ومائلاً الى المحسوسات فانه لا يستطيع بلا صعوبة ان
« يتسلط على الشهوات الارضية . فلذلك كثيراً ما يغتم عند امتناعه عنها وان قاومه
« احد غضب بسهولة . وان نال بغيته اعنته في الحال توبيخ ضميره لأنه اتّبع هواه فلم
« ينله الهوى ما طلب من السلام . فسلام القلب الحقيقي اذن انمـــا هو في مقاومة
« الشهوات لا في التعبد لها . وليس من سلام في قلب الانسان الشهواني ولا في الانسان
« المُكب على الامور الخارجية بل في الانسان الروحي المضطرم العبادة» (سفر ١ فصل ٦).

وقال في منفعة الشدة : « حسن لنا ان تنتابنا احياناً بعض الشدائد والمعاكسات
« لأنها كثيراً ما تردّ الانسان الى نفسه لكي يعرف انه في المنفى فلا يجعل من بعد
« رجاءه في شيء من العالم . حسن لنا ان يعاكسنا الناس احيانـــاً ويظنوا فينا السوء
« والنقص ــ واذا كانت اعمالنا ونياتنا صالحة ــ فكثيراً ما يعود علينا ذلك بالخير لحفظ
« التواضع والوقاية من المجد الباطل » (سفر ١ فصل ١٢) .

وقال ايضاً في احتمال نقائص الآخرين في الحياة المشتركة : « اجتهدْ ان تحتمل
« بصبر نقائص الآخرين واوهانهم ايًّا كانت . فان فيك انت ايضاً عيوباً كـثيرة
« يجب على الآخرين احتمالها . ان كنت لا تقدر ان تجعل نفسك كما تريد ، فكيف
« يمكنك ان تجعل الآخرين وفق مرامك ؟ ... نُحب ان يكون الآخرون بلا نقص ،
« اما نحن فلا نصلح عيوبنا الخاصة . نريد ان يؤدَّب الآخرون بشدة ، اما نحن فنأبى
« التأديب . يسوءنا ما للآخرين من حرية واسعة اما نحن فنأبى ان يُرفَض لنا ما نطلب
« نريد ان يتقيد الآخرون بالقوانين ، اما نحن فلا نحتمل ان يُضيَّق علينا بشيء البتة .
« وهكذا يتضح جلياً اننا قلّما نكيل بالمكيال عينه لانفسنا وللقريب . لو كان الجميع
« كاملين اذن فأيّ شيء كنا نحتمل من قبَل الآخرين لاجل الله ؟ .. امّا الان
وقد دبّر الله الامور على هذا النحو ، لكي نتعلم « ان نحتمل بعضنا اثقال بعض »
(غلاطية ٦ / ٢) (سفر ١ فصل ١٦) .

ولم تكن صوفية توما الكمبيسي مؤلّف كتاب « الاقتداء بالمسيح » سوى مرحلة
للوصول الى حياة اتحادية بالمسيح نفسه والتنعّم بأنسه منذ هذه الدنيا . فوصل الى هذا
الحال ووصفها وصفاً دقيقاً قال : « طوبى لمن يدرك ما هو حب يسوع واحتقار الذات
« من اجل يسوع . عليك ان تهجر كل حبيب من اجل هذا الحبيب لأن يسوع
يُريد ان يُحَب وحده فوق كل شيء . حب الخليقة خدّاع لا يدوم اما حب يسوع
« فوفيّ ثابت . من علق بخليقة واهية سقط معها ومن اعتنق يسوع يثبت الى الابد .
« احبب وصادق من لا يخذلك اذا ارتدّ عنك الجميع ولا يدعك تهلك عند المنتهى ..

« من طبع حبيبك ان لا يرضى له بشريك بل يريد ان يكون قلبك مُلْكاً له وحده يجلس « فيه كملك على عرشه » (سفر ٢ فصل ٧) ... « اذا كان يسوع حاضراً فكل شيء « مستحب ولا شيء يبدو عسيراً . فاذا تغيَّب يسوع فكل شيء يكون ثقيلاً ... « العيش بدون يسوع جحيم لا تُطاق . اما العيش مع يسوع فنعيم عذب . ان كان « يسوع معك فلا عدو يستطيع مضرتك . من وجد يسوع فقد وجد كنزاً ثميناً بل « خيرا يفوق كل خير . ومن خسر يسوع فخسارته عظيمة بل اعظم بكثير مما لو « خسر العالم بأسره » (سفر ٢ فصل ٨) .

فحبه ليسوع المسيح واتحاده به جعله يتذوق اشهى حلاوة الحب « المستيكي » فوصفه وصفاً لا اجمل ولا اسمى قال : « ان الحب لشيء عظيم جداً ، هو خير كل الخير . وحده يخفف كل ثقيل ويحمل على السواء كل تقلبات الحياة . انه يحمل « العبء بغير تعب ويصيّر كل مُرّ حلواً لذيذاً . حب يسوع كريم يرفع الى عظائم « الفعال ويحث على الرغبة دوماً في الاكمل . الحب يتوق الى العلاء ويأبى ان يعيقه « شيء من امور الدنيا . الحب يودّ ان يكون حراً منزهاً عن كل هوى عالمي ، لئلا « تتعطل بصيرته فيُصطاد بحبائل يُسر زمني او يفشل عند العسر . لا شيء اعذب « من الحب . لا شيء اقوى ولا اسمى ، ولا اوسع ولا اطيب ولا أتم ولا افضل لا في السماء ولا على الارض لأن الحب وليد الله ولا يستطيع ان يستريح الا في الله وحده « فوق جميع الخلائق . المحب يطير ويعدو ويمرح وهو طليق لا يقيده شيء ... الحب « ساهر وان رقد لا ينام ، ان تَعب لم يَـهِـن ، وان ضُيّق عليه لم يتضايق ، وان « رُوّع لا يرتاع ، بل كلهيب مضطرم وكشعلة متقدة يشبّ الى العلاء وينفذ بلا « عائق . من كان محباً فقد عرف ما تجهر به هذه الكلمة ، فانه لصراخٌ عظيم في « أذني الله ، إضطرام الشوق في النفس القائلة : إلهي وحبي ! انت كلك لي وانا كلي لك !.. » (سفر ٣ فصل ٥) .

ان مؤلف كتاب « الاقتداء بالمسيح » ، بوصفه حالات النفس الروحية وتحليله الدقيق لحب يسوع المسيح ، لا يكشف لنا سرّ نفسٍ وصلت الى الله وارتقت الى اسمى درجات « الميستيكة » المسيحية عن طريق التوحد وحسب ، بل يظهر لنا بنوع اخص ان المسيح ذاته كان يحيا فيه وما برح يتابع اويقات الصلاة العذاب التي كان يحييها على قمم الجبال وفي الصحاري والفلوات بالاتحاد مع الله ابيه مدة حياته على الارض ليؤدي ابداً شهادة الابن لابيه من خلال حياة المتوحدين الذين يستنفرهم في كل عصر ومن كل جيل .

شهود المسيح في العصور الحديثة

القديس اغناطيوس دي لويلا وشهادة الجهاد الرسولي والعمل (١٤٩١–١٥٥٦)

هي روحانية الجهاد الروحي واستنفار قوى النفس واطلاقها لخوض المعركة القائمة ما بين المسيح وابليس « رئيس هذا العالم » . لقد استوحى روحانيته من حياته الجندية ومن بيئته وذهنية القرن السادس عشر . كان قائداً ، في الجيش الاسباني المحارب وقتئذ ضد فرنسا . غُلِبَ على امره وسقط جريحاً في معركة پومپلين Pampelune الشهيرة وقضى اشهراً طويلة طريح الفراش فعانى من الآلام ما جعله يزهد بكل شيء ويغير مجرى حياته . اختلى في مغارة منريزا سنةً كاملةً طواها على الصوم والصلاة والتبصر في مخطط الله عليه . وكان عصر النهضة قد احيا الفنون الجميلة القديمة وبعث العادات الوثنية فحدث ما حدث في التفسخ الاخلاقي المشين ، مما افضى الى ثورة لوتيروس ضد الكنيسة والانشقاق البروتستانتي الكبير ... فرأى قوى الشر تزداد يوماً فيوماً ونظر الى المسيح كأنه في نزع دائم يموت لينقذ النفوس من براثن الشر . فخرج من مغارة منريزا ، وبيده كتيّب روحي « كتاب الرياضات الروحية » وفي عينه لهيب تهزه فكرة سامية ومسلطنة اصبحت فيما بعد شعاره وشعار رهبنته « لمجد الله الاعظم » (ad majorem Dei gloriam) . اما كتاب الرياضات الروحية فهو حصيلة تأملاته الطويلة في مغارة منريزا واختباراته للحالات النفسية التي مرَّ بها . صنّفه وصاغه باسلوب شبيه بخطة حربية هجومية – وهنا ذهنية القائد العسكري القديم تنتقل الى عالم الروحيات . جعل النفس تستنفر قواها كافة وقدراتها من عاقلة وحافظة وحساسية للمثول امام الله ، غايتها القصوى ، وامام العالم ثم الوقوف امام ابليس والمسيح المخلص الفادي وحضّها على خوض المعركة القائمة ما بين قوى الخير والشر ، ما بين المسيح وابليس والتي عاقبتها تكون إمّا النعيم وإمّا الجحيم .

هذا الكتاب ما كُتبَ ليُقرأ بل ليُتأمّل فيه ويُعمل به ، وهنا الفائدة الكبرى المتوخاة منه . ينقسم الى اربعة اقسام أو اربعة اسابيع حيث يبقى المرتاض مدة شهر معتكفاً على التأملات الموضوعة فيه ، وقد يُختصر بثمانية ايام وبأربعة ، تبعاً لمتسع الوقت او ضيقه ولرغبة المرتاض وقدرته على اجهاد النفس .

في القسم الاول او الاسبوع الاول يجعل القديس اغناطيوس المرتاض يتأمل في الله غايته القصوى ثم يضعه امام خطاياه التي مالت به عن طريق الحق واقصته عن الله غايته ، ثم يتركه يتأمل في عاقبة الخطيئة ! جهنم وعذابها الأبدي المرير ،

واخيراً يحضه على التوبة والتكفير والعودة الى الله ابي المراحم ويجعله يعترف اعترافاً شاملاً ماضي حياته الاثيم فيخرج من منبر التوبة (كرسي الاعتراف) مرحوضاً نقياً ذا عزم وطيد على قطع كل صلة له بالخطيئة والعادات الرديئة المتأصلة فيه .

ثم يأتي القسم الثاني او المرحلة الثانية حيث يضع المرتاض امام شخص يسوع المسيح ويجعله يتأمل في تواضعه وتصاغره في التجسد والميلاد حباً او رفقاً بالانسان ، في حياته الخفية في الناصرة حيث طوى ثلاثين سنة على الحياة الكادحة . وبعد ذاك ينتقل به الى حياته التبشيرية الرسولية فيسرد امامه افكاره الرئيسية التي جاء يكشفها للبشر من قبل الآب السماوي ويدعوه ثمت الى التذوق باذواقه والتخلق باخلاقه واخيراً يضع المسيح امام المرتاض كقائد جيش يدعو الناس الى الانضواء تحت رايته لمحاربة ابليس والتغلب عليه من أجل نيل الخلاص الابدي . يصف ابليس في تأمل «الرايتين» قائداً ماهراً واقفاً في بابل ، رمز المدينة العاتية المتكبرة ، يسيّر اعوانه وخدامه الى العالم اجمع ليصطادوا النفوس بلطيف الحبائل ومعسول الكلام فيغرّونهم بالمال والمراتب والجاه العريض والملذات والكبرياء كي يوصلوهم اخيراً الى جهنم . اما المسيح فيصفه قائداً مظفراً وحملاً وديعاً ، واقفاً في اورشليم المدينة المقدسة يدعو الناس الى الكفر بالذات وحمل الصليب والاتضاع والزهد بالمال وبالمجد الباطل حتى يحظوا معه بالنعيم الابدي الذي لا يزول . ففي هذا القسم الثاني من الرياضات الروحية — وهـــذا اهمها — يجعل المرتاض يتأمل في ثلاثة مواضيع متتالية على غاية من الاهمية : الرايتان ، طبقات البشر الثلاث . درجات التواضع الثلاث . فيخاطب بالموضوع الاول العقل وبالثاني الارادة وبالثالث القلب ، فيرغم المرتاض بنوع ما على اختيار مخطط عملي لحياته بعد ان يكون قـــد ساعده على اكتشاف موطن الضعف فيه وحمله على اتخاذ الحيطة اللازمة للتخلص منه والقضاء عليه .

وفي القسم الثالث من الرياضات الروحية يأخذ المرتاض ومقاصده الصالحة بيده ويقوده الى امام المسيح المصلوب المعلق على الخشبة حباً بالانسان ، ليجعله يتأمل في مراحل عذابه ويسبر غور آلامه التي قاساها لافتداء النفوس وبنوع خاص لافتداء نفس المرتاض التي يفترض وجودها وحدها في الكون فيجعله يزداد مراساً وثباتاً في مقاصده الصالحة .

واخيراً في القسم الرابع من الرياضيات الروحية يضع المرتاض امام المسيح القائم من الاموات منتصراً على ابليس والخطيئة وقوى الشر والفساد ، هو جالس عن يمين ابيه في السماء بسعادة ابدية لا تزول يُعد اكليلاً من المجد لذاك المرتاض ولجميع الذين

يعقدون النية على الانضواء اليه والجهاد تحت رايته ضد ابليس ويحملون صليبه ويقتفون اثره . ثم ينهي سلسلة هذه التأملات بتأمل جميل للغاية تأمل « الحب الالهي » حيث يجعل المرتاض يستجمع ذكريات حياته ويستعرض مراحم الرب نحوه وحبه له منذ تكوين العالم حتى اللحظة الحاضرة فيحرك فيه عواطف المحبة والسخاء وعرفان الجميل ويطلقه رسولاً جديداً للخير ، وقد الهبه الحماس ، فيندفع لتقويض سلطان ابليس ومحاربة قوى الشر في العالم ونشر راية البرّ والصلاح في بيئته ومعشره .

قوام كتاب الرياضات الروحية وركيزته الكبرى ، هو دون ما ريب فحص الضمير الخاص الذي يجريه المرتاض مرتين في النهار ، حيث يعرّي نفسه امام الله وينظر الى مواطن الضعف فيها ويوطد النية على استئصال شأفة العيوب والنقائص المستحكمة فيه ، الواحدة تلو الاخرى ، فيضع نظاماً في ميوله ويهيئ نفسه لاتباع حركة النعمة فيها . ولم تكن الغاية الاولى من كتاب الرياضيات الروحية اصلاح النفس وحسب ولكن معرفة مخطط الله على الانسان ايضاً ومساعدته على تقرير مستقبله باختيار الحال الموافقة لطبعه ومزاجه وقدراته ونشأته ، وخصوصاً — وهنا الغاية الكبرى والعظمى منه — صنع ونحت الرسول والقديس من ذاك المرتاض . فهذا الكتيّب الصغير صنع القديسين من مختلف الطبقات والشعوب ، صنع المرسلين العظام ، صنع القديس فرنسيس كسفاريوس رسول الهند واليابان ، صنع القديس بطرس كلاڤير رسول العبيد في اميركا الجنوبية ، والقديسين جان دي بربوف (Jean de Brebeuf) واسحق جوغ (Isaac Jogues) ورفاقهما رسل كندا . صنع المرسلين الكبار الذين بشّروا ونصّروا القطر الاميركي وبنوع خاص كندا والمكسيك وكولومبيا والپيرو والبرازيل والپاراغواي . صنع الصوفيين « والميستيكيين » وسما بهم الى ارفع درجات « الميستيكيّة » ، شأن القديس فرانسوا دي بورجيا والقديس الفونس رودريكس والآباء المكرّمين سوران ورودريكوس وبلتزار الڤاريس ولالمان وغيرهم... يمارسه الاكليريكيون والعلمانيون مرة في السنة او اكثر فينقطعون عن اشغالهم ويتفرغون للتأمل بمواضيعه ليدرسوا واجباتهم المسلكية على انواره فيختزنون مؤونة روحية للسنة من غزير فوائده . قال عنه القديس فرنسيس سالس في اوائل القرن السابع عشر :

« ان هذا الكتيّب قد هدى نفوساً الى الله على قدر ما فيه من حروف » .

أسّس رهبانيته عليه ، فكانت الطاعة ، ركنها الاول ، والفضيلة المفضلة ، الواجب على الراهب ان يمارسها ، كي يكون حرّاً طليقاً ، مستعداً للذهاب ، الى اي بلد واي قطر فيه يدعوه خير النفوس ، ومجد الله الاعظم . غير ان هذه الطاعة ، التي شاءها

« سريعة وعمياء » ، حيث يكون الراهب اداة طيّعة بين يدي رئيسه « كالعصا في يد الشيخ العجوز » اراد ان تكون في الوقت ذاته بصيرةً ، واعية ، عند الرئيس الآمر ، والمرؤوس المأمور ، لهذا سنّ قواعد خاصة لاجل معرفة تمييز الارواح ، وادراك ما يأتي من الله ، وما يأتي من ابليس . فالقدرة على تمييز الارواح ، كانت صفة القديس اغناطيوس الكبرى ، وطابع مزاجه الخاص ، الذي تفرّد به . وهي مزيج من الرصانة ، والعمق ، والحذر ، والذوق السليم ، وإصالة الرأي ، والفطنة ، ولا سيما نفاذ البصيرة ، والحدس والفقر الروحي . فان كانت الرياضات الروحية تعين النفس على قمع ميولها المنحرفة ، وتحريرها من انانيتها ، وتوحيد قواها ، فالقدرة على تمييز الارواح ، تمنحها صفاءً من العين يعينها على استجلاء حيل ابليس وتجنبها ، ويمنعها عن التردد والاحجام ، فتتمكن عند ذاك ، من التوفيق ما بين إرادتها الحرّة وإرادة الله ، وتضع سائر مقوماتها تحت اوامر الرئيس للعمل بمشيئة الله ، بغيرة وقّادة ، لا تعرف الملل ، مستهدفةً دائماً ، خلاص النفوس ومجد الله الاعظم . تلك كانت الشهادة الجديدة ، التي أدّاها القديس اغناطيوس دي لويّلا للمسيح ، في منتصف القرن السادس عشر ، شهادة الجهاد الروحي والغيرة الرسولية ، لاجل « مجد الله الاعظم » .

القديسة ترازيا الابيلية وشهادة التكفير عن المعاصي (١٥١٥–١٥٨٢)

وظهرت ايضا باسبانيا ، في القرن السادس عشر ، راهبة كبيرة كانت معاصرة للقديس اغناطيوس دي لويُّلا هي القديسة ترازيا الأبيلية (Ste Thérèse D'Avila) مصلحة الرهبانية الكرملية النسائية ومجددتها . رأت في المسيح الطريق الفريد الأمين المؤدي الى الله . ووثقت كل الثقة بكلامه القائل : « انا الطريق والحق والحياة لا احد يأتي الى الآب الاّ بي ... من رآني فقد رأى الآب » (يوحنا ١٤/٦ و٩).

فكانت هذه الفكرة نقطة انطلاق في حياتها ركّزت عليها فيما بعد كل روحانياتها وشهادتها — الوصول الى الله عن طريق يسوع الانسان — فراحت تحبه بكل قواها لا حباً افلاطونياً كما قال بحق الاب دي غرانمزون اليسوعي[١] بل حباً واقعياً . لا حباً تخنثياً عاطفياً بل حباً رجولياً ان صحّ لنا القول ، عملياً ، قوياً حتى البطولة ، يكاد يخلو من حساسية المرأة ورقة شعورها ، اظهرته بتلك الاعمال الجبارة التي قامت بها وبتلك الاديار المتعددة التي أنشأتها وملأتها من الراهبات الكثيرات اللواتي جذبتهن الى حبه وجنّدتهن

١) L. de Grandmaison, *Jésus-Christ*, Beauchesne 1928, t. 2, p. 652-653.

لخدمته بمثل حياتها الصالح . فحب المسيح النقي والبطولي حملها على التكفير عن خطايا البشر . ذلك لأن المسيح ، بعرفها ، يبقى ابداً فادي البشر كفَّر مرةً في الزمن عن خطاياهم ولكنه يرغب في أن يتابع ذاك التكفير ؛ ولهذا يطلب ابداً متطوعين اختياريين يتجندون للتكفير عن آثام اخوانهم ويقدّمون انفسهم ذبائح تعويض لاجل افتدائهم . هذا ما حداها على اصلاح الرهبنة الكرملية وارجاعها الى صرامتها الاولى يوم كانت الاماتة والتقشف والحرمان والصوم والصلاة الفضائل الاولى المرعية فيها . وقد بيّنت في القوانين الرهبانية التي سنّتها للطالبات اللائي يرغبن في دخول تلك الرهبانية انهن متطوعات للتكفير عن خطايا البشر واستدرار العطف الالهي عليهم . وحبها هذا للمسيح بلغ بها الى اسمى درجات « الميستيكة » اذ انها مرت بحالات من الوجد جعلتها تتذوق حلاوة الله وتنعم بوجوده في نفسها الى درجة كانت تعجز عن وصفها . كلفها مرشدها الروحي أن تكتب اختباراتها الروحية تعميماً للفائدة فوصفت بكل بساطة حالات اليبوسة والجفاف ثم حالات الوجد والحرارة النفسانية التي مرّت بها ، مع طريقة التأمل في الروحيات والصلاة العقلية في كتابيها المأثورين : طريق الكمال ومقصورة النفس ثم في بعض قصائد روحية كانت تنظمها في فترات التعب او بمناسبة الاعياد .

تدعو النفس اولاً الى قمع ميولها المنحرفة الشهوانية كي تستطيع ان تتحد بالمسيح وتحظى بتعزياته وتنعم بأنسه . وتشبه حالة النفس هذه بدودة الحرير التي تنسج كفنها وتسحب خيوطه من داخل جوفها بالمرارة والعذاب الى ان تصنع قبراً لها وتدفن ذاتها فيه فتصبح خادرة وبعد ان تمر بمرحلة الموت هذه لا تلبث ان تثقب فيلجتها وتخرج منه فراشة ذات جناحين وتطير بالاجواء [١] .

ومن اقوالها : « ان ما يُطلَب منا — والامر منوط بنا — ان نخلق جوًّا من العزلة « حوالينا صالحاً للصلاة . عند ذاك يبدأ المسيح يخاطب نفوسنا فالمسيح يكلم القلب « عندما يبدأ القلب يرتفع اليه » (طريق الكمال ف ٢٦) .

وقالت في كتابها « مقصورة النفس » او «قلعة النفس » (Château de l'âme) في المقرّ السادس (او الخدر السادس) ، تصف حالة نفس في الوجد والاتحاد بالله : ان اتحاد النفس بالله يبلغ بها الى ان تصبح واحداً واياه فيقودها الى اخداره السعيدة ويكشف لها اسرار تلك الاخدار . وما يفيض على النفس اذ ذاك من الغبطة بحيازتها

---

١) Ste Thérèse d'Avila, *Château de l'âme*, 5e demeure, ch. 3, no 5.

الله يجعلها تكتفي به وحده . وقد يروقه تعالى احياناً ان يبدد نشوتها ويريها ما في تلك الاخدار . وعندما تعود الى ذاتها تتذكر ما في تلك الاخدار ولكنها تعجز عن وصفها لأن طبيعتها البشرية لا تستطيع ان تدرك منها سوى ما يريد الله ان يكشفه لها روحياً .. واذا كانت النفس لا تقف على البعض من اسرار الله فهذا دليل على انها لم تكن وقتئذ في حال من الوجد بل في حال ضعف طبيعي وانهيار اعصاب ... ان الله تعالى يعتبر النفس مُلكاً له وعروساً له ويكشف لها تدريجياً جزءاً من ملكوته وملكوته انما هو ذاته . ولا يأذن لأحد حتى ولا للحواس ولا للقدرات ان يزعج او يقلق راحة تلك النفس . ثم يغلق كل منافذ الاخدار ما خلا الخدر الذي يريد ان يستقر فيه معها .

« وعندما تعود النفس الى وعيها تخجل من ذاتها لتلك الموهبة التي أعطيت لها . وكم تشعر حينئذ بما يستحثها من الرغبة الشديدة المُلحّة على ان تخدم الله . فتودّ ان يكون لها الف حيّاة لتبذلها في خدمته تعالى وتتمنى لو تستحيل الخلائق بأسرها الى ألسنة حية لتمجّد الله باسمها وعوضاً عنها . ثم انها تشعر ايضاً بتلك الرغبة عينها تحدوها على التقشف والتكفير ويملأها حب الله حتى لا تبالي بالتقشفات التي تمارسها ، وتعلم وقتئذ ان الشهداء كانوا يستسهلون معاناة الآلام لما كان يمدهم به يسوع من العون الالهيّ .

« وتجري في النفس حركة سريعة جري القنبلة تخرجها من ذاتها وتنطلق بها للوقوف على اسرار جميلة عند الله لا قبل لها بها ، تعتبر كل كنوز الارض عندها كالهباء . وبعد ذاك تمسي حياتها على الارض مشقة لأن لا شيء بعد تلك الرؤيا يستطيع ان يشبع رغباتها ... فهذه الامور تغني النفس من حضور الله وتهبها السلام الالهي وادراك عظمته تعالى مع الاتضاع واحتقار خيرات الارض ... تلك هي اللآلئ التي يهبها العريس لعروسه .. انها تعلق بحافظتها فلا تُمحى ذكراها الى الابد . وترغب النفس بعد ذاك في ان تملك من يهبها تلك المواهب رغبةً شديدةً تجعل حياتها على هـذه الارض عذاباً مريراً فتستصرخ الموت وتتوسل الى الرب بدموع حارة أن ينقلها من هذا المنفى .. ويضنيها الشوق الى الله والهيام به . على حين انها من جهة اخرى تعيش بسلام وطمأنينة داخليّين لا سيما عندما تكون مختلية في الصلاة مع الله ... وتشعر ايضاً برغبة قوية تجعلها تصمم النية على ان لا تغيظه تعالى بشيء مطلقاً . وتودّ ان تذهب الى الصحاري بعيداً عن الناس كي تعيش معه وحده لا غير ... ولكن عليهـا ان تمشي دوماً بفطنة خشيةً من عراقيل الشيطان وحبائله .. وتشعر وقتئذ بانسحاق وندم على ما اقترفت من الخطايا ويزداد انسحاقها كلّما اقتربت من الله . وهي لا تخشى

الجحيم بل تخشى ان يتركها الله . فلا النعيم ولا الجحيم يهولها انما الخوف من ان يتركها الله ... وفكرة غفران المسيح لا تعزّيها بل تزيدها رؤيا تلك الجودة المًا مقابل تلك الخيانات التي استحقت بها جهنم ... ان تلك الذكرى كانت في اعتقادي استشهاداً للقديس بطرس ولمريم المجدلية . الاّ ان انسحاقهما كان مقروناً بتعزية عميقة ... »

ومضت القديسة ترازيا الأبيلية تقول في «الخدر السابع» حيث يتم القران الروحي «الميستيكي» ما بين النفس والله :

« واتحاد النفس بالله في القران الروحي شبيه بشمعتين تذوبان معاً حتى يصبح « نوراهما نوراً واحداً ..

« وهل تكون النفس متأكدة من خلاصها ؟ لا استطيع ان اجزم بذلك ولكن « عليها ان تحتاط دوماً وان تخشى السقوط ولو بزلّة خفيفة لئلا تغيظ الله ... تتراكم « المحن على تلك النفس ولكن لن تقلقها لأنها تبقى في سكينة مستمرة مع الله ... « وتكون النفس شبيهة بالهيكل الذي بناه سليمان الحكيم لتكريم الله وتمجيده ولم يكن « يُسمع فيه ادنى حركة .. والغاية من تلك المواهب هي تقوية ضعفنا لاحتمال صليب « المسيح . فالذين كانوا اقرب الناس الى المسيح كأمه وتلاميذه قد تعذبوا اكثر من « سواهم والقديس بولس الذي تعزّى بالرؤيا لم يشعر يوماً بالراحة ... والقديس بطرس « كان هارباً من الاستشهاد فتراءى له يسوع المسيح.فقال : الى اين يارب ؟ فقال : « الى روما لكي أصلَب فيها ففهم بطرس وعاد على اعقابه ليموت في روما شهيداً . « فالنفس يجب ان تنسى كل شيء من المجد والكرامة ولا تبتغي سوى مرضاة المسيح « ومحبته فقط ...

« ومقصورة النفس لا تؤسس على الصلاة والتأمل فحسب بل على الفضائل « ايضاً . واذا كنتن يا اخواتي لا تسعين لاكتساب الفضائل فتبقين قصيرات القامة . « مسيخات ، لأن من لا يتقدم بالفضيلة يتأخر ... »

وقد وصفت القديسة ترازيا الأبيلية الحب الالهي بقصيدة رائعة . قالت : « ايها « الحب الالهي ، يا ايها الجمال الذي يفوق كل جمال . انت تؤلم ولا تجرح ؛ وتعرّي « وتعزل عن حب الخلائق ولا تُضني . ايها الرباط الذي يجمع بين كائنَيْن غير « متساويَيْن . لماذا انفصل عنك وانا مرتبطة بك اشد الارتباط للاستمساك بالخير « وسط العذاب . انت تربط غير الكائن بالكائن الذي لا نهاية له . انت تكمل « ولا تنتهي وتُحب وان لم تجد من هو اهل للمحبة انك لتُكبر وتُعظم ضعفنا الحقير»[١].

١) Poesias III, éd. Silv. pe Sta Teresa, p. 1067.

ما من نفس وقفت ذاتها على خدمة المسيح وتفانت في حبه مثل القديسة ترازيا الأبيلية . وما من نفس خبرت حلاوة الوجد والاختطاف الروحي ونعمت بهما نظيرها . ولكن ما من نفس تاقت الى التكفير عن خطايا البشر وآثامهم بالصوم والصلاة والتقشف والحرمان شبهها . هل رأت أنها الطريقة المثلى للتشبه بالحبيب في عذابه واظهرت شهادة الحب الوفي باراقة العمر سكيباً على مذبح الحب والتضحية لأجله ؟ أم بالاحرى هو المسيح ما زال يحيا في الكنيسة ويستنفر له دوماً شهوداً يسكب قطرةً من دمائه السخية في عروقهم فيندفعون الى التضحية على مثاله ويقرّبون نفوسهم ذبـــائح حب وتكفير عن خطايا العالم ليكونوا امتداداً متواصلاً لذبيحته على الصليب الى منتهى الدهر ؟

القديس يوحنا الصليبي (Saint Jean de la Croix) (١٥٤٢–١٥٩١)

وجاء القديس يوحنا الصليبي الراهب الكرملي الشاب وتتلمذ للقديسة ترازيا الابيلية فاستفاد من خبرتها الواسعة في طريق الحياة الروحية ونهج نهجها في اصلاح الرهبانية الكرملية للرجال ، فكانت له خير الدليل . اتخذته مرشداً روحياً لما توسمت فيه من الاهلية والفضيلة وكانت تعرض عليه مشاكل حياتها الروحية وطريقة تدبيرها للاديار بصفتها رئيسة عامة ولكنها افادته اكثر مما استفادت منه .

اما روحانيته فمتجهة كروحانيتها نحو المسيح الانسان الكامل والاله الكامل القائل : « من رآني رأى الآب » (يو ١٤/٩) .

كتب اختباراته الصوفية « والميستيكية » في كتبه المأثورة « طلعة الكرمل » (La montée du Carmel) و « ليالي الحواسّ » (La nuit des sens) او مرحلة الظلمة التي تمر بها النفس قبل بلوغها مرحلة الاستنارة او الاتحاد بالله ، « والنشيد الروحاني » (Le cantique spirituel) شبّه حال النفس في مرحلة الظلمة بعود الحطب الاخضر الذي يوضع على النار فيأخذ بالاسوداد ثم بالجفاف فتنعصر مائيته وتتقاطر دموعه دمعة دمعة ثم لا يلبث ان يشتعل ويستحيل الى نارٍ متأججة كالنار التي وُضعَ عليها منذ حين[١] .

ثم في كتابه « النشيد الروحاني » المنظوم شعراً اسال فيه اسمى وادق العواطف « الميستيكية » التي تستطيع النفس البشرية ان تشعر بها وقت اتحادها بالله . قال يخاطب

١) St. Jean de la Croix, *La nuit des sens*, ch. XII, nº 4.

الله في احدى قصائده : « ربي انك لن تنزع مني ما اعطيتنيه مرةً في الزمن ابنك
« الوحيد ، يسوع المسيح ، من وهبتني به كل شيء . فالسماوات اصبحت مُلكاً
« لي ، والارض صارت لي والبشر اصبحوا لي والصدّيقون الابرار أصبحوا جزءًا مني ،
« وصرت مسؤولاً عن الخطأة ، وصار الملائكة وكل الخلائق لي . وانت ، انت يا رب
« ذاتك اصبحت مُلكي وخاصتي ، لأن المسيح لي وهو كل شيء لي ... وماذاتطلب
« وعمَّ تفتش ؟ أتطلب نفسي ؟ .. كل هذه المخلوقات مُلكُك وكل شيء لك[١] . »

مرَّ يوحنا الصليبي كترازيا الأبيلية في عداد الذين أُخذوا بمظهر حياة المسيح رجل الصوم والصلاة والتكفير لاجل خلاص العالم ، وبالاحرى استُنفرَ ودُعيَ ليحيا تلك الحياة فلبى الطلب وادّى شهادته للمسيح على غرارهم ومثالهم .

القديس منصور دي پول وشهادة المحبة العاملة (١٥٨١–١٦٦٠)

وظهر في القرن السابع عشر القديس منصور دي پول فجاء بدوره يؤدي للمسيح شهادة المحبة المتفانية في خدمة القريب . كان معاصراً وصديقاً للاب دي برول (الكردينال دي برول العتيد) المفكر الروحاني الكبير في فرنسا في ذاك العهد . فتأثر بروحانيته ذات الطابع «الميستيكي» الحماسي الرفيـــع . ثم عايش القديس فرنسيس دي سالس مطران جنيف الاديب المتأنسن والروحاني العظيم فتكيّف بتأنسنه ايضاً فجاءت روحانيته مزيجاً من روحانية الاثنين ، روحانية الواقعية والاتزان التي يؤخذ صاحبها بالعقل اكثر منه بالعاطفة . ألَم يقل يوماً تلك الكلمة الخليقة بالفيلسوف ديكارت معاصره الكبير : « ان الله لا يطلب منا شيئاً مضاداً للعقل »[٢] . عاش كاهناً مثالياً يحيا كهنوته بصدق وخلوص نية حتى الخمسين من سنيه دون ان يأتي بعمل او بمؤسسة ذات اهمية . خدم رعية بلدة شاتيون ورعية كليشي في حي الفقراء بباريس ورأى وتأمل طويلاً ما يعانيه الفقراء من ظلم المجتمع ، وكانت تراوده كلمات السيد المسيح التي سيجري عليها الحكم في الدينونة الاخيرة : « كنت جائعاً فاطعمتموني وعطشانَ فسقيتموني وكنت غريبـــاً فآويتموني وعرياناً فكسوتموني ومريضاً فعدتموني ومحبوساً فأتيتم اليَّ .. (للابرار) .. « لأني جعت فلم تطعموني وعطشت فلم تسقوني .. (للاشرار) » (متى ٢٥/٣٥–٤٥) .

فقال : « كيف نستطيع ان نُحب المسيح دون ان نُحب الانسان المخلوق على

---

١) *Aphorisme de St. Jean de la Croix*, Bordeaux 1924, p. 12, 15.

٢) Daniel-Roops, *L'Eglise des temps classiques*, p. 22.

على صورته والمفتدى بدمه؟ كيف نترك المسيح يعاني البؤس والظلم في داخل قلب الانسان؟ المسيحي الحقيقي هو من يحيا من حب المسيح ويجهد ذاته لكي يبادله ذاك الحب بالعمل. وبنيان ملكوت الله مفاده ان نضع في العالم عدالة اجتماعية اوفر ومحبة مسيحية اكثر ؛ تلك هي لعمري واجبات انسان اليوم. » ثم اخذ ينظّم ويُنشئ مؤسسات لاعانة البؤساء والمعدمين. وكانت شهرة قداسته المنتشرة في سائر أنحاء فرنسا قد جذبت اليه كبار الأسر (الارستقراطية والبورجوازية) الذين اتخذوه مرشداً لهم ووضعوا تحت تصرفه قسماً كبيراً من ثرواتهم لتحقيق مشاريعه الخيرية. فبدأ اولاً بتأسيس جمعية « بنات المحبة » التي اصبحت فيما بعد « جمعية راهبات المحبة » ليؤازرنه في العمل. وبعد ان عُني طويلاً بتثقيفهن الروحي اطلقهن في احياء باريس الفقيرة يساعدن البؤساء والمرضى والمعذّبين فأسّس المستشفيات والمياتم ودور العجزة ثم المآوي لتربية الاطفال اللقطاء الذين كان يلمهم القديس منصور بنفسه من زوايا الشوارع وينشلهم من سلال النفايات والاقذار ويسترهم تحت معطفه ويأتي بهم الى مآوي المحبة التي انشأها خصيصاً لهم. وما عتمت جمعية بنات المحبة هذه ان نمت وانتشرت في انحاء فرنسا واوربا والعالم اجمع — وقد بلغ الآن عدد راهباتها الخمسة والاربعين الفاً — فرحن يحملن رفق الانجيل وهداه الى جميع المعذبين والمرهقين في الحياة.

قال الكاتب اللبناني المعروف السيد ميلاد رزق‌الله عن الراهبة : « اهملَتْ نفسها « لتعتني بالناس وهجرت بيتها وذوي قرابتها لتجتمع بذوي البؤس، تعينهم في بؤسهم. واقصت ذاتها عن خَدَمها لتكون خادمة للبشر وكفرت بذاتها وبالعالم « وبملذاته لتحظى بالآخرة وتسعى اليها بكل ما اوحت به التعاليم المسيحية. لم تنقطع « عن الناس الاّ لتنصرف الى خدمتهم بقوة مجموعة، تعينهم على مصائب الحياة وتمهد « لهم سبيل الآخرة. تسهر ليلها وتجدّ نهارها لتصلح للانسانية ما افسد الناس. تلك « هي الراهبة .. بينما نكون باميالنا البشرية واطماعنا الدنيوية وطبائعنا الضعيفة، قدوة « سيئة تطبع في نفوس صغارنا اللطخات السود تكون الراهبة ساهرة على جلاء تلك « اللطخات ومعتنية بازالة آثارها بالتربية المسيحية الصالحة ... وبينما يكون اغنياؤنا « في لهوهم بغناهم وملذاتهم، ذاهلين عن اصحاب البؤس والشقاء، تكون الراهبة في « فقرها ساهرةً على نور السراج، تحوك لليتيم قميصاً يستر العري. فاذا اعوزتها « الخيوط مدت يد السؤال امام الاغنياء تستجديهم فتنال ما تنال، وتحمل بذلك « عن الفقراء شيئاً من مذلة فقرهم ... وبينا يكون الموبوء طريحاً في فراشه، مهجوراً « من انسبائه، مقطوع الامل من كل ما في الحياة، حتى من الحياة نفسها، تكون

« الراهبة الى جانب السرير ، تلطف بيدها البيضاء ، خشونة علته السوداء ، غير « خائفة على نفسها خوف امه واخوته ، ومتى سقط الجندي في حومة الوغى ، نزيع « الموت والحياة ، حيث لا أم ولا أخوات ولا زوج ولا قريبات ، تكون الراهبة ضماد « الجريح وسلواه . ومتى جاز الانسان مرحلة الحياة ، تكون الراهبة اول الجاثين عند « النعش ، تستمطر عليه مراحم السماء ... »

ان كل ما اشاد به السيد ميلاد رزق‌الله من مناقب الراهبة لعين الحقيقة . ولكن لا ننس ان اول راهبة من هذا الطراز تخرجت من مدرسة القديس منصور دي پول واخذت ثقافتها الروحية عنه . قال عنه الكاتب الفرنسي الشهير هنري بريمون: «ليست اعمال المحبة التي جعلته قديساً بل هي قداسته جعلته رجل محبة » . ان في هذا القول كثيرًا من الحقيقة . اجل ، هو المسيح الراعي الصالح الذي لم يقف يوماً على الألم دون ان يرحم ، الذي فتح ذراعيه لجميع المعذبين وقال : « تعالوا اليّ يا جميع المتعبين والمُعذَّبين وانا اريحكم » (متى ١١/٢٨) . هو المسيح الذي اكثر الخبز في البرية ليطعم الجائعين لما قال : « انني اتحنن على الجمع لأن لهم معي ثلاثة ايام وليس لهم ما يأكلون ولا أريد ان اصرفهم صائمين لئلا يخوروا في الطريق » (متى ١٥/٣٢) .

هو المسيح ينبوع القداسة وصانع القديسين ، ما انفكّ يحيا في كنيسته ، يدعو في كل عصر اناساً ليجدّدوا مظاهر حياته على الارض ؛ وهو الذي دعا منصور دي پول ليكون اداة عنايته ورجل كنيسته الاكبر وشاهد محبته المُفضَّل في عصر كان احوج العصور الى تفهم حقيقة الكنيسة ، جسد المسيح السرّي وتفهمّ واجبات المسيحي كعضو من هذا الجسد وكفرد من الأسرة البشرية الكبرى المدعوة للدخول في تلك الكنيسة .

الفيلسوف بلاذپاسكال وشهادة القلب (١٦٢٣-١٦٦٣)

وها نحن أولاء نضيف اسم الفيلسوف بلاذ باسكال الى قافلة شهود المسيح في التاريخ ، لأنه ما من انسان شغلت فكره مشكلة المسيح وفتش عنه طويلاً بقلق واجتهاد بعد القديس اغسطينوس نظيره ، وما من انسان ارتاح الى معرفته بعد ان وجده ووقف على سرّه واكتنه دخلته مثله . وشهادته هي شهادة الضمير الحي الذي فتش طويلاً عن الحقيقة ووجدها واذعن لها . آمن كفيلسوف بوجود الله علّة العلل وواجد الكون والخليقة ، غير ان ذاك الايمان النظري لم يكن ليروي غليله لأنه لم يأخذ

بمجامع قلبه التائق الى الحب ولم يساعده على تحقيق مثله الأعلى . ونفسه العبقرية الطموح ، تأبى قبول الحياة كعامة الناس. يريد ان يقوم بشيء عظيم من حياته يفوق به من تقدمه . ففكّر طويلاً في إله الفلاسفة فلم يلبّ رغباته وفكّر ملياً في إله الوحي ، إله الآباء والأنبياء ويسوع المسيح ، فصدمته فكرة تجسد الكلمة الالهي وتصاغره واتضاعه ، شأن القديس اغسطينوس . ولما كان يحمل في صدره ضميرًا حياً مستقيماً لا يعرف الالتواء ، وجد ضالته المنشودة في ليلة جلّلته فيها غمرة نور ذاب على ذكراها السنين ، دعاها « ليلة الذكرى » فخط على رقعة الرق رقيماً وُجد فيما بعد في بطانة ردائه على صدره بعد وفاته ما نصه : « إله ابراهيم واسحق ويعقوب ويسوع المسيح ،
« لا إله الفلاسفة والعلماء ...

« تأكيد . حقيقة ، معرفة ، يقين ، قرار ، فرح ، سلام ، طمأنينة ...
« إلهك سيكون إلهي ....

« اهمال ما في العالم ما خلا الله وحده .. الله موجود في سبل الانجيل فقط ...
« عظمة النفس البشرية ...

« فرح ، فرح ، فرح ، دموع من الفرح ... وهذه هي الحياة الابدية
« ان يعرفوك انت الإله الحقيقي وحدك والذي ارسلته يسوع المسيح » (يوحنا ١٧ / ١٣) .

« يسوع المسيح !. يسوع المسيح !. لقد ابتعدت عنه واهملته .. صلبته بيدي ...
« لن ابتعد عنه فيما بعد .. هو موجود في مبادئ الانجيل وسبله .. خضوع كامل ليسوع
« المسيح ولمرشدي ... سأكون في فرح دائم على الارض . لن انسى تعاليمك.آمين ! »

لقد وجد الله ، إله ابراهيم وإله اسحق وإله يعقوب وإله يسوع المسيح ، في ليل الاثنين الواقع في الثالث والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٦٥٤ عند منتصف الليل ، فكان منتهى العراك النفساني الذي كان يتنازعه وحدث حينئذ تحول جديد في مجرى حياته ، لقد اكتشف يسوع المسيح وبدأ يحيا به ومنه ومعه وكتب عنه اروع صفحة خطّتها انامل صوفي ميستيكي . ولربما كانت اجمل شهادة أدّتها روح مُخلصة عن اكتشاف الحقيقة والاقرار بها . قال في تأمله عن يسوع : « اذا عرف الانسان الله
« دون ان يعرف حقارة نفسه قادته معرفته هذه الى كبرياء جموح لا حد لها وان عرف
« حقارته دون ان يعرف الله جرّته معرفته هذه الى اليأس والقنوط . اما معرفة يسوع
« المسيح فتمنحنا الحل الوسط لأننا به نكتنه الله ونكتنه حقارتنا . لن نكتنه الله كما هو
« بدون يسوع المسيح . وقد يتعذر علينا كل اتصال به تعالى بدون هذا الوسيط .

« فبواسطته نستدل على معرفة الله . ولن نستدل على معرفة الله بدونه فحسب بل لن
« نستطيع الى معرفة نفوسنا سبيلاً بدونه ايضاً . لن نسبر غور الحياة والموت الاّ بيسوع
« المسيح وخارجاً عنه لن نعرف كنه الحياة ولا كنه الموت ولا كنه الله ولا كنه نفوسنا...»

ثم يذكر الفيلسوف كلمات يسوع للتائب :

« تعزَّ ، انك لم تطلبني الاّ لكونك وجدتني من قبل . فكَّرتُ فيك في نزعي
« (ببستان الزيتون) وقد أرقت تلك النقطة من دمي لأجلك. دع نفسك تخضع لشريعتي
« وانظرْ الى ما وصلت اليه العذراء مريم والقديسون الذين استسلموا لفعلي. فالآب
« السماوي يرتضي بكل ما اصنعه . وانا ماثل امامك بكلمتي في الكتاب المقدس
« وبروحي في الكنيسة وبالالهامات الخفية ، وبقدرتي في الكهنة وبصلاتي في المؤمنين.
« فالأطباء لن يشفوك لأنك ستموت عند النهاية . اما انا فاشفي واحفظ الجسد من
« الموت .. وأنا صديق وفيّ ، أفي بكل وعودي لأني تعبت في سبيلك اكثر منهم ؛ فهم
« لم يقاسوا لأجلك ما قاسيت من الآلام، ولم يموتوا في الزمن من اجل خياناتك
« وقساوة قلبك ... لو كنت تدرك شناعة خطاياك لكان يُغمَى عليك ...

« الانسان : نعم يا رب ، انه ليُغمَى عليَّ لأني أؤمن بشناعتها من كلامك .

« المسيح : لا ، بل انا الذي اكشفها لك عندما اشفيك منها . وما اقوله لك
« برهان واضح عن قصدي ان اشفيك منها .. وبقدر ما تكفّر عنها تستدلّ على
« ادراك شناعتها ، ولسوف يُقال لك: انظُرْ الى الخطايا التي غُفرت لك .

« الانسان : يا إلهي اني اهبك كل شي »[١] .

القديسة ترازيا الطفل يسوع وروحانية الطفولة : شهادة البنين للآب (١٨٧٣–١٨٩٧)

هي زهرة ربيعية فوّاحة تفتحت في ساعة مبكرة وذبلت على مذبح الحب والتضحية والعبادة في لحظة خاطفة . دخلت دير الكرمل في مدينة ليزيو (Lisieux) بفرنسا حيث كان قد سبقها اليه ثلاث من شقيقاتها ، وهي في الخامسة عشرة من سنيها ، وراحت تهيم بحب يسوع المسيح الذي انتزعها من حضن والدها ، وتجدّ في طلبه وتنقاد اليه بكل عمل من اعمالها . نضجت باكرًا وغيرها لا يزال حصرماً وانشأت روحانية جديدة في الكنيسة شأن كبار المتصوفين « والميستيكيين » وماتت وهي في

١) Pascal, *Pensées*, éd. L. Brunschvig Major, II, nº 527, 547, 553.

الرابعة والعشرين من سنيها . ففاح شذا فضائلها وعطّر الآفاق ، واكتسبت شعبية نادرة عند شعوب الارض كافةً لما نالوه من النعم والعطايا بفضل شفاعتها ووجاهتها عند الله . فقد أخذت بكلمة السيد المسيح الى تلاميذه : « ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الاطفال فلن تدخلوا ملكوت السماوات . فمن وضع نفسه مثل هذا الطفل فذاك هو العظيم في ملكوت السماوات » (متى ١٨ / ٣) . فاصبحت الطفولة الانجيلية ثمت في عينيها فضيلةً وحكمةً « وميستيكة » وروحانية كاملة تناولت حياتها من جميع نواحيها. فقالت : « بما أن يسوع المسيح قد كشف لنا ان الله هو أب حنون يعتني بنا عناية خاصةً اكثر من اعتنائه بطيور السماء وزنابق الحقل (متى ٦ / ٢٦—٣٣) ، فلماذا لا نبقى دائماً اطفالاً امامه ، نؤمن بحبه الوالدي لنا ، فنترك له مجالاً ليتذوق حلاوة الابوّة ونتنعم نحن بدلال البنوّة . ولذا فسوف ابقى ابداً طفلةً ابنة سنتين امامه تعالى كي يضاعف اهتمامه بي .. فالطفل يرتضي بصغره وضعفه ويقبل ان يكون بحاجة الى معونة والديه في لبسه واكله وشربه وجميع لزوميات معيشته . وهو مطمئن كل الاطمئنان الى مستقبله وغده ، علماً منه بان والديه يهتمان دوماً به ولن ينسياه . وانا ساتوكل على الله ابي في كل شيء واطلب منه كل شيء وارجو منه كل شيء . ساترك له الماضي مع ما فيه من المتاعب والمآثم ليغفرها ويمحوها واي ابٍ لا ينسى ماضي وليده؟ وساقبل الحاضر والمستقبل منه مسبقاً كما تشاء يده الحنون ان تنسجهما لي . فلا ضير ان نسجتهما من خيوط حمراء او بيضاء او سوداء . اذ ان كل شيء يؤول عند النهاية الى خلاصي وسعادتي ومجده تعالى .. الله يعلم كل شيء وهو قادر على كل شيء ويحبني ... »

ومن اقوالها ايضاً : « اني اتصور القداسة سلّماً تحاول طفلة بنت سنتين ان « تتسلقه ، فتضع رجلها الصغيرة على الدرجة الاولى ثم على الثانية ولكنها تسقط على « الارض لضعفها وتعود من حيث اتت . فتعيد الكرّة ثانيةً وثالثةً دون جدوى « وابوها ينظر اليها بشغف من علُ ويرمقها بدافق العطف والحنان وهو مسرور جداً « بدرجانها وبمحاولاتها الفاشلة للصعود اليه . ولكن ما تراه يفعل عند النهاية ؟ فهل « يتركها وحدها عند أسفل السلّم ؟ كلا ! بل ينزل اليها ويحملها على ذراعيه ويرتقي « بها الى حيث هو .. وانا سوف ابقى ابداً طفلةً امامه تعالى واحاول دوماً ان ارتفع « اليه بالرغم من ضعفي ووهني علماً مني بانه سينزل يوماً عيد نهاية حياتي ويحملني « اليه ويأخذني الى جواره ... »

ومنها ايضاً : « اذا ما انتابتني المصاعب يوماً وعجزت عن اجتيازها أصغّر ذاتي

« وامرّ من تحتها . فالطفل الصغير يستطيع المرور بكل مكان لصغره ...» (مقتطفات من « تاريخ نفس » او كتاب سيرتها بيدها) .

تلك كانت روحانية القديسة ترازيا الطفل يسوع التي كانت تنظر دوماً الى المسيح طفلاً لتحيا معه طفلةً امام الله الآب السماوي .. وقد يتساءل المرء لماذا اختار المسيح تلك الراهبة لتؤدي له شهادة من هذا النوع عن الطفولة الانجيلية ، في اواخر القرن التاسع عشر ، عصر الاختراعات الكبرى ، عصر البخار والغاز والكهرباء عصر الميكنيك والتصنيع والتكنيك ، عصر التيارات الفلسفية الكبرى ، الكنتية والهيجليانية والماركسية وغيرها ، حيث بلغت البشرية عهد الكهولة والنضج ، فهل كان ذلك العصر بحاجة الى روحانية وشهادة روحية كهذه ترجع البشر الى الطفولة ومن ثمّ الى الوراء ؟.. اجل كان القرن التاسع عشر ، عصر الاختراعات الكبرى والفلسفات الوضعية والتجريبية والماركسية المادية ، قد افضى بالانسان أن لا يعتمد إلاّ على قدرات عقله وقواه المادية ، وان ينكر وجود كل ما لايقع تحت الحواس ، ويخضع لقانون التجربة والخبرة ، وان يعتقد أن ليس ثمة سعادة الاّ سعادة الارض وانه سوف يصنع الفردوس الارضي بيده . فكانت موجة الالحاد الهائلة التي اجتاحت عقول الكثيرين . ولكن لمّا لم يكن بمقدور البشر ، رغم اختراعاتهم الكبرى ووفرة وسائل الدعة والرفاهية ، ان يأتوا بحلول مجدية لمشاكل الحياة الكبرى ، لا سيما مشكلة الشر والألم والسعادة ، ويزيلوا البؤس والشقاء عن الارض ، كان لا بدّ لهم من روحانية القديسة ترازيا الطفل يسوع وشهادتها للمسيح من هذا النوع امام الله ابيه حتى تجعلهم يعودون اطفالاً الى الله ويرتمون في احضانه الوالدية مؤمنين بحبه الابوي لهم ، ليعيشوا ابناءً بررة له وينعموا بدلال البنوة ودالة البنين ريثما يرفعهم اليه « ليرثوا المجد الذي أعدّه لهم منذ انشا« العالم » (متى ٢٥/٣٤) . »

شارل دي فوكو وروحانية الفقر والحياة الكادحة (١٨٥٣–١٩١٦)

هو الفيكونت شارل دي فوكو من كبار الأسر الفرنسية . انتظم في سلك الجندية ودخل المعهد الحربي العالي « سان سير » (St. Cyr) وخرج منه ضابطاً لامعاً . وكان من رفاقه اللامعين وقتئذ الضابط فيليب پتان الذي سيصبح فيما بعد المرشال پتان احد قواد الجيش الفرنسي المظفرين في الحرب الكونية الاولى (١٩١٤–١٩١٨) . أرسل في فرقة القنّاصة الافريقية الى الجزائر ومنها الى الصحراء الكبرى حيث قضى بضع سنين . طوى الشباب على القصف والفجور شأن القديس اغسطينوس في شبابه ،

غير انه كان مثله يفتش عن الحقيقة بقلب قلق ومستقيم ، وهو القائل : « كنت ابتعد « ثم ابتعد دائماً عنك يا الهي وحياة نفسي وكنت اصنع الشر ولكني كنت استنكره في داخل نفسي ولم اكن يوماً لأحبه . وكنتَ انت تخلق فيَّ وقتئذ فراغاً مريراً وحزناً « عميقاً لم اشعر به الاّ في ذاك الحين ، من (مذكراته) .

تعرَّف ، اثناء عطلة قضاها في فرنسا ، الى كاهن بار يدعى الاب «هوڤلين» وكان ذاك التعارف فاتحة عهد جديد ، عهد توبة وتكفير احاله من ضابط خليع الى ناسك شريد. اما روحانيته فمرتكزة على المسيح الانسان «المثال الاوحد» Le monde unique كما يدعوه في تأملاته ومؤلفاته الروحية : « المسيح بين البشر معناه تجسد « ابن الله وحضوره بينهم ليكون قدوةً لهم ويرفعهم دوماً عن المادية والحيوانية ويمنحهم قوةً ليعيشوا عيشة ابناء الله ...

« محبة المسيح تستلزم ضرورةً الاقتداء به ومساعدته في اقتداء البشر . لهذا يجب « على المسيحي الاّ يفكّر في خلاصه الفردي فقط بل ان يجنّد قواه ويقفها على « خدمة الآخرين ويعمل جاهداً لاجل خلاصهم واسعادهم ، وان يوحي حضوره « بحضور المسيح بينهم . ولن نكون اعضاء جسد المسيح السرّي ما لم نفكّر في ان « نكون فُداةً للبشر معه . فالذي يحيا منه ومعه ، يتبنى بحكم الطبيعة والدعوة افكاره « ومصالحه ...

« السر الخفي » الذي تكلم عنه القديس بولس الرسول في رسائله ، القائم بتدبير « الله الخلاصي للبشر دون تمييز عرق ولا شعب ولا جنس ، جاء حدثاً الى العالم ، « كان شخصاً وحضوراً وهو الاله الانسان ... لقد أُعطي لنا مرة في الزمن ولن يُنزع « منا ، لأننا بحاجة مستمرة الى الفداء والخلاص ، والمهم ان نجعله حاضراً دوماً « ما بيننا ...

« كما انه يوجد المسيح التاريخي ، المخلص الفادي ، كذلك يوجد المسيح « « الميستيكي » ، السرّي ، له في النفوس ولادة روحية وحياة خفية وحياة علنية « رسولية وميتة وقيامة ، وذلك بواسطة الكنيسة ، فالكنيسة من دأبها ان تؤمّن دوماً « حضور المسيح المتأنس والفادي وتجعله حقيقة راهنة ودائمة ما بين البشر . فلا يبقى « للمسيحيين الحقيقيين سوى ان يتركوا المسيح يدخل حياتهم ويُحيي من داخلهم « المظهر الذي يشاؤه ويرتئيه من مظاهر حياته التاريخية على الارض ، حتى تغدو « حياتهم انجيلاً حياً امام البشر» (مقتطفات من كتاباته الروحية » .

لكنّ أهمّ ما استرعى التفاته في سيرة يسوع المسيح ، وقد أخذ بمجامع قلبه ، مظهر حياته الكادحة العاملة في الناصرة حيث مكث الى الثلاثين من عمره، عاملاً كادحاً ما بين العمّال الكادحين ، يحترف النجارة ، يأكل خبزه بعرق جبينه ، قبل ان يبدأ بكرازة الانجيل ، وذلك ليكون قدوةً صالحة للقوم في حياتهم البيتية والمهنية على كرور الزمن ، خاضعاً مثلهم لسنّة الشقاء التي فرضها الله على الانسان الاول بعد سقوطه في الخطيئة اذ قال له : « ملعونة الارض بسببك بمشقة تأكل منها طول ايام « حياتك ... بعرق وجهك تأكل خبزًا حتى تعود الى الارض التي أُخذت منها لأنك « تراب والى التراب تعود » (تك ٣/١٧-١٩) . فوطد شارل دي فوكو النفس على ان يقضي ما يتبقى له من العمر في صفوف الطبقة الكادحة ، فقيرًا مع الفقراء ، على غرار يسوع المسيح « المثال الاوحد » ليكون صديقاً مخلصاً لهم ، يُظهر لهم بحضوره ما بينهم حضور السيد المسيح نفسه فيحملهم على تقديس اشغالهم واتعابهم وتغدو ثمت حياتهم الكادحة ، مدعاة خلاص لهم . ولهذا ذهب الى جنوبي الجزائر حيث كان قد قضى شطرًا كبيرًا من شبابه ، ليتنسك هناك ويكفّر ويعوّض عن ماضيه . فابتنى له بيتاً فقرياً في قرية « بني عباس » حيث كان يقضي قسماً من وقته في الخلوة والصلاة وقسماً يصرفه في خدمة الفقراء والمعوزين . كتب في مذكراته يقول : « أريد ان اعوّد جميع المواطنين ، مسيحيين ومسلمين ويهود ووثنيين ان يروا في شخصي « اخاً لهم ، اخاً للجميع على السواء » .

وقال في تأمل له عن يسوع الفقير ، حيث أذاب عصارة حبه وابدى عمق روحانيته وكشف عن الفكرة المسلطنة عليه والتي كانت تسوقه في الحياة :

« يا إلهي لا استطيع ان اتصور نفوساً تراك فقيرًا وتبقى متنعّمة بالغنى ورغد « العيش وترضى ان تكون اعلى من معلمهــا وحبيبها وتأبى ان تجاريك في كل « شيء لا سيما في فقرك واتضاعك . هب انها ترغب في أن تحبك . ولكن ينقص حبها شيء هام ، الا وهو مماثلتك في فقرك . ومهما يكن فانا لا استطيع ان اتصور الحب « خارجاً عن ذاك الشعور المُلحّ الذي يدفع المحب الى مجاراة حبيبه في معيشته وخاصة « في اتعابه وحرمانه وسائر متاعب حياته . أمّا ان اكون غنياً اطوي الحياة على الدعة والرفاهية بينما تكون انت عاملاً فقيرًا تأكل خبزك بعرق جبينك ، فهذا امر لن يكون مطلقاً في حياتي ولا طاقة لي على احتماله . انا لا اعرف ان أحب على هذا المنوال . فلا « يجوز للعبد ان يكون اعظم من سيده ــ « حسب العبد ان يكون مثل سيده والتلميذ « مثل معلمه » ــ ولا يحق للعروس ان تكون غنية عندما يكون عريسها فقيرًا وخصوصاً

« اذا كان ذاك العريس من اتبع طريق الفقر بملء اختياره وهو انسان كامل » (من كتاباته الروحية) .

وهنا نراه يلتقي على صعيد الصوفية مع الفيلسوف پاسكال الذي قال : « اني احب الفقر لأن يسوع احبه » .

ولم يكتف ان عاش فقيراً مع الفقراء وفرداً من افراد الطبقة الكادحة بل كان يتوق الى تأسيس جمعية رهبانية للرجال وجمعية رهبانية للبنات ، يعيش كل منهم من جهته عاملاً مع العمّال ويدخلون في الطبقة العاملة دخول الخمير في العجين ، ليجعلوها تختمر بروح الانجيل . وقد سنّ لهم قوانين وخط لهم نهجاً في الحياة ينهجونه ويقضون بموجبه ايامهم ما بين العمل الكادح والصلاة والاعتكاف . لم يُكتب له ان يحقق فكرته هذا اذ إنه قُتلَ غدراً في ١ كانون الاول سنة ١٩١٦ ، ابّان الحرب الكونية الاولى . غير ان دماءه الزكية كانت زرعاً خصباً في أتلام البشريــة . فما ان وضعت الحرب اوزارها حتى اخذت افكاره وكتاباته الروحية تغزو العقول النيّرة والقلوب الوثابة فاستنفرت سخاء الكثيرين وتأسست هاتان الرهبانيتان اللتان كان يحلم بهما باسم « اخوة يسوع الصغار » « وأخيات يسوع الصغيرات » . ولم يمض وقت وجيز على تأسيسهما حتى بلغ عدد الراهبات في هذه الآونة ما يناهز الالف وعدد الاخوة الرهبان ما يفوق الثلاثمائة ، يعيشون جميعهم في « اخوانيات » صغيرة مؤلفة من ثلاثة او اربعة اشخاص او من شخصين على الاقل ، منتشرين في سائر انحاء الأرض. تراهم يسكنون بيوتاً فقرية مصنوعة من التنك احياناً في المدن الكبرى « كطوكيو » في اليابان وريودي جنيرو في البرازيل وبونيس ايرس في الارجنتين ، واكواخاً من ورق الموز وغيره في بعض البلدان الافريقية او في غرفة صغيرة في القرى والمزارع بلبنان وغيره ؛ يعملون عمالاً في المصانع وفلاحين في الحقول وخدماً في المستشفيات والمنازل ؛ يريقون العمر سكيباً في حياة خفية ، يصعدونها صلاة صامتة الى الله مع يسوع المسيح العامل ، نجّار الناصرة لاقتداء البشرية . كتب رئيسهم العام حضرة الأب رينه ڤوايوم (R.P. René Voillaume) وشرح منهاج دعوتهم في كتابه المأثور « بين معترك جمهور الشعب »[1] ثم في رسائله القيّمة الى « الاخوانيات » المنتميات الى هاتين الرهبانيتين المنتشرات في العالم . اليك بعض ما قاله : « ان اخوة يسوع الصغــار « لمدعوون ان يحيوا حياة صلاة وايمان تتفجر احياناً في حياتهم المتألمة نفسها ، واحسن

١) René Voillaume, *Au cœur des masses*, éd. du Cerf, 1950 et 1959; *Lettres aux fraternités*, éd. du Cerf, 1960.

« من ذلك من مشاركتهم للناس ، الذين يجاورونهم ، في آلامهم الجسدية والادبية .
« ودخولهم صميم البشرية المتألمة منوط دون ما ريب بحيوية صلاتهم ، وليس لدخولهم هذا
« حدود ومقاييس . على الراهب الشارترو او الترابيستي ان يفضل حياة الصلاة على
« كل شيء كي تصبح مشاهدةً او هزيزًا بحتاً . اما اخو يسوع الصغير فلا يُطلب
« منه ان يفصل صلاته عن عذاب البشرية الذي يحمله فيه . هي صلاة البشرية
« الكادحة ، المكدونة تحت نير الواجب اليومي الثقيل التي يجب ان يدخلها
« في حياته حتى تغدو جزءاً منه . ولذلك يجب الاّ تتعجبوا ايها الاخوة الصغار ،
« عندما تلحظون ان صلاتكم تكون احياناً صراخاً اليماً او انتظارًا خفيفاً ومُملاً
او عطشاً لاهباً لا ينطفي سعيره ، متجهاً نحو يسوع الفادي ، ... لا اظن ان دعوتكم
« تتيح لكم ان تجدوا نوعاً من الصلاة يكون لكم فيه بعض الراحة . لقد ربطنا مصيرنا
« عن حب اختياري بمصير أناسٍ يسيرون بتعب وارهاق نحو النور . فبممارستكم صلاة
« الايمان تستمدون لهم القليل من الايمان الضروري لتوجيه حياتهم نحو الله . وبمجهود
« الرجاء الذي يرفع بمشقة بعض الاحيان قلوبكم الى الله تفرّجون الهموم عن اليائسين في
« الحياة وبحُب يكون خاصةً عطشاً لاهباً الى المسيح والى الحصول عليه بنوع اكثر ،
« بهذا الحب الذي هو توق اكثر مما هو ارتياح لامتلاك الله ، تستمدون لاولئك المكبّين
« على الارض ان يرغبوا في طلب الحب الاسمى . فبهذا المعنى يعمل الروح القدس
« في نفوسكم . وانه ليجدرُ بكم ان تعلموا من اية جهة سوف يقودكم كي لا تعرقلوا
« مسعاه وعمله فيكم ولترتاحوا كل الارتياح لهذا النوع من الصلاة. وكالمعتاد سيكون
« يسوع « مثالكم الاوحد » . لا جرم اننا مدعوون لنُحيي ذكرى او بالاحرى لنُعيد
« صلاته التي كانت تصعد من فؤاده نحو الله ابيه لما كانت جماهير المرضى والمعذّبين
« والفقراء تزحمه ، وقد كان تعباً وقتئذ من المسير في غبار الطريق ، حين كان الجميع
« يلحّون في السؤال عليه ليلبي مطالبهم ويجيب عن سؤالهم الى درجة كان يتعذر
« عليه عندها ان يجد متسعاً من الوقت ليأكل ويسترجع قواه . اجل هذه هي الصيغة
« من الصلاة التي يطلب الينا يسوع ان نشترك فيها ، تلك التي كانت تجعله يصعد
« هذه الزفرة من صدره الى شفتيه قائلاً : « انني اتحنن على الجموع ، لأن ليس لهم
« ما يأكلون ... » (مر ٨ / ٢) .

« وقد رفق بهم وتحنن عليهم لأنهم كانوا « كالخراف التي لا راعي لها » (مر ٦ / ٣٤) .. « الآن نفسي قلقة ماذا اقول . يا ابت نجّني من هذه الساعة . ولكن لاجل
« هذا بلغت الى هذه الساعة . يا ابت مجّد اسمك ...(يو ١٢ / ٢٧) .

« وهي تلك الصلاة المرهقة والدامية في نزاعه ببستان الزيتون ، صلاة تقدمة نفسه ، « المنضمة الى تلك الرؤيا التي كان يرى من خلالها بؤس البشرية ، ذاك البؤس الذي « تحاذونه والذي يجب الاّ ينسيكموه شيء مطلقاً ، تلك الصلاة التي مكثت كشعلة « القنديل المرتجفة والمشرفة على الانطفاء ، التي كان يسترها تحت جسمه المنهوك « القوى ، الجريح ، لما كان ينوء بحمل الصليب ، مسحوناً تحت عبئه وفي ساعات « العراك الاخير من نزاعه ... ان اعظم عمل في حياة يسوع المسيح واكبر برهان « اظهره عن حبه للبشر ، هو العمل الذي به خلّص العالم، وهو لم يجر في وقت من « الراحة وفي ساعة هزيز وذكر من الصلاة التوحدية ، كما كان بمقدوره ان يفعل ، « بل في ساعة صلاة جاهدة ومُضنية لم تجد لها منفذًا في صعودها الى الله الاّ من جسمه المُسخَن جراحاً والمنسحق تحت ثقل الألم والتعب ...

« تلك مرحلة مرّ بها يسوع المسيح المعلم الالهي ، فلماذا ، والحال هذه ، لا « تُكرّس حياة رهبانية بكاملها وتوقَف رهبانية باسرها خصيصاً لهذا الغرض ، لتتيح « للسيد المسيح ان يُحيي ويردد صلاته على هذا المنواع من داخل نفوسنا ؟ لقد « كلمتكم عن تلك التعزية التي يجب ان يجدها بجوار حياتنا المتفانية وقرب اخوانياتنا « العمال الفقراء المرهقون بالهموم والاحزان .. ولهذا يجب ان يشغل سر الفداء والصليب « مركزًا هاماً في حياتنا . واني لاشعر بذلك ، يا اخوتي الصغار الاعزاء ، كلما ساقتني « الظروف الى المرور باورشليم (القدس) وبالطرق الصاعدة من بيت لحم والجسمانية « اليها ، حيث عاش يسوع وتألم . ينبغي ان تكونوا اخوة صغارًا ليسوع على هذا « الشكل . ان صلاتكم غير منفصلة عن حياة المحبة والتفاني والانقياد ومشاطرة « الفقراء همومهم ومشاغلهم التي تحيونها . فقرنا وعذابنا مع فقر الآخرين وعذابهم « يؤلّفان مع محبتنا ليسوع القربان الوسائل البشرية التي تساعدنا لكي نُصعد « صلاة ايمان الى الله من اعماق نفوسنا ... ان سعيَنا المتواصل بالتماس المسيح يرتكز « على « التطويبات » التي يجب ان تكون حقائق مجسّمة لاصقة بكياننا . ولسوف « ننقسم على انفسنا ، وحياتنا تصبح مجازفة صعبة التحقيق يوم نميل الى صلاة « التوحد المريحة كصلاة رهبان الشارترو او النسّاك . لقد حرّمنا على نفوسنا « الصلاة الهادئة الشيّقة في التأمل والمشاهدة والهزيز وقدّمناها تضحية للرب ولم يعد يسوع يطلبها منا . اما ما يطلبه منا فهو الثبات والمثابرة على الصلاة العاملة والجاهدة « المتواصلة وسط الحياة الكادحة . ان عمل الروح القدس في النفوس لمختلف الانواع « وقادر ان يخلق فينا روحاً من صلاة لا انقطاع لها ، تلك الصلاة التي دعا اليها يسوع

« جميع البشر لما قال : « صلوا ولا تملّوا » ، وهي تلك الصلاة التي عاهدنا الله على
« إتباعها يوم انتظمنا في جمعية « اخوة يسوع الصغار » . صلاتنا هي من نوع الصلاة
« التي يطلبها يسوع من عامة الناس ، من جمهور الفقراء والخطأة والتي يجب ان نرمي
« الى تحقيقها وان نؤمن بها بكل ايماننا . ان يسوع لا يستطيع ان يهزأ بالفقراء وان
« كان قد طلب شيئاً من هذا النوع فلأنه رآه ممكناً بمعونة نعمته ... يجب ان نألف
« صلاة العشار والخاطئة وجميع المرضى والعميان الذين كانوا يحيطون بيسوع ليل نهار ،
« حتى نصل الى الحب الكامل ، هي النعمة الكبرى التي تصبو اليها نفوسنا » (رينه فوايوم) ، ١٩ حزيران ١٩٥٠[١] .

تلك كانت رسالة شارل دي فوكو وشهادته للمسيح في مستهل القرن العشرين ؛ وهذه هي شهادة الرهبانية المنتمية اليه ، « الاخوة الصغار » و« الأخيّات الصغيرات » التي يواصلونها من بعده دون كلل ولا ملل في صميم القرن العشرين . فان كان المسيح ما انفكَّ يحيا في كنيسته ويجدد مظاهر حياته في كل عصروجيل من خلال اشخاص يدعوهم دعوة خاصة ليحيوا هذا او ذاك المظهر من حياته ، ويمدهم بعونه وقداسته ليكونوا اعلاماً وقنناً للبشرية تهتدي بهم في ظلماتها وتقتدي بمثلهم في مسيرها الى الله ، فما هو سر شهادة شارل دي فوكوواتباعه اذن ؟ ولماذا دعاهم ليحيوا هذه الحياة الكادحة في صميم القرن العشرين ؟ يقيننا ان ضلال القرن العشرين الاكبر الذي بدأ يذر قرنه منذ اواخر القرن التاسع عشر ، هو تحكم الرأسمالية في الطبقة الكادحة دون رادع ولا وازع وانانية الرعيل الاول واهماله العمال والبؤساء رغم ما اوصى به السيد المسيح بصددهم ، حيث دعاهم « اخوته الصغار » (متى ٢٥/٤٠) ، ووعد بان يكافئ حتى كأس ماء بارد يُعطى باسمه لواحد منهم (متى ١٠/٤٢) . ذاك الضلال قد شهـّره على اعين الملإ السعيد الذكر البابا لاون الثالث عشر في منشوره الخالد «الاشياء الجديدة » (rerum novarum) الصادر عن حاضرة الفاتيكان في ١٥ ايار سنة ١٨٩١ ، وحذّر الحاكمين المسؤولين في العالم من وخيم عقباه وحضّهم على الأخذ بناصر الطبقة الكادحة وعلى المسارعة الى انصاف العمال البؤساء . فلما لم يجد نداؤه آذاناً صاغية لدى الحكومات تفاقم شر ذاك الضلال وجاءت الثورة الماركسية الشيوعية بعد ربع قرن وزعزعت اركان المجتمع وقلبت اوضاعه رأساً على عقب فنفثت سمّ النضال الطبقي واضرمت نيران الحسد والنقمة والبغضاء في قلوب العمال الكادحين ضد الرعيل

---

١) Cité par Denise et Robert Barrat, *Charles de Foucauld et la fraternité*, dans collection « *Maîtres spirituels* » (éd. du Seuil, p. 167-170).

الاول وارباب العمل. فامتد سعيرها من بلد الى آخر حتى اجتاحت المعمور ولم يعد بمقدور مُضرميها ان يُطفئوا او يخمدوا نارها . اجل كان عمل الثورة الشيوعية سلبياً اكثر منه بنّائياً وتعميرياً. كانت نيراناً ملتهمة من البغضاء والحسد والانتقام والنضال مستعرة في قلوب اخوة انقسموا على انفسهم واصبحوا ذئاباً خاطفة بعضهم لبعض . حكّمت المحكومين بالحاكمين بعد ان سلبتهم نعمتهم وساوت الجميع بالفقر والحرمان لا بالتي هي احسن، إذ انها جعلت الجميع عبيداً ارقاء للدولة حيث يحكم البلاد نفر قليل باسم الطبقة الكادحة ، لا دأب له سوى تغذية ذاك النضال الطبقي وجلب وقيد البغضاء دوماً الى الموقد لحفظ السعير واستنهاض الهمم وديمومة الحكم . فما قيمة مجتمع يُبنى على البغضاء بدلاً من ان يُبنى على المحبة ؟ ويسوع المسيح جاء يدعو البشر ليعيشوا ابناء لله واخوة فيما بينهم واستحق لهم بموته على الصليب النعمة المبررة التي تجعلهم ابناء لله واخوةً فيما بينهم ، شبيهين بالله ابيهم ، ولهذا كان من الضروري ان يقيم المسيح له شخصاً كالڤيكونت شارل دي فوكو ، يخلع عنه حلة الرعيل الاول وينزل الى طبقة العمال الكادحين يشاطرهم فقرهم وهمومهم واتعابهم ويكون اخاً لهم بالصداقة المخلصة والمحبة المُجرّدة، يصب على جراحاتهم النفسية بلسم التعزيـة والمؤاساة ويُخمد في قلوبهم نيران الحسد والحقد والبغضاء. ثم جاء رهبانه وراهباته « اخوته الصغار » « وأخيّاته الصغيرات » من بعده واعتنقوا حياة الطبقة الكادحة، آخذين على نفوسهم ان يعيشوا فقراء وعمالاً ما بين الفقراء ، يأكلون خبزهم بعرق جبينهم يعيدون ويجددون مظهر حياة يسوع المسيح العامل ، نجّار الناصرة ، معلنين بحياتهم الفقرية انهم ليسوا بحاجة الى سكنى العلالي والقصور — وقد تركوها بملء اختيارهم — وانهم ليسوا بحاجة الى وسائل الدعة والترفيه ، اختراعات القرن العشرين ولزومياته ، مثار الخلاف والحسد والنزاع الطبقي . كل شيء ينقصهم وليسوا بحاجة الى شيء ؛ كل شيء يعوزهم ، ولا يعوزهم شيء؛ ذاك هو تناقض الفقر الانجيلي وكماله معاً وسلامه الذي يملأ قلوبهم والذي يحملونه الى اخوانهم العمال الكادحين ويشيعونه في العالم اجمع حيث أخذ وجودهم يخلق مشكلة ضمير شغلت ضمير الانسانية بأسرها . انهم بشهادة حياتهم الكادحة الاختيارية التي يؤدونها للمسيح في القرن العشرين على اثر شارل دي فوكو معلمهم، يعملون على ازالة النضال الطبقي في العالم واحلال المحبة والاخاء مكانه اكثر مما تبذله الحكومات من الدولارات لمكافحته . اجل ان النضال الطبقي لقوة ثائرة فجّرتها المعصية، معصية الانانية والطمع والجشع عند البشر. والمعصية لا تكافح ولا تُسحق بمعصية اخرى . فالنار لا تُطفأ بنار اشد منها والمسيح لم يغلب المعصية الا بالمحبة ، بموته على صليب المحبة . هي المحبة الانجيلية وحدها تستطيع ان

تزيل النضال الطبقي من العالم وتنشر سلام المسيح ما بين البشر بحيث تجعلهم يتفاهمون ويتكالمون بلغة واحدة ، لغة المحبة ، ويتعايشون ويتقاسمون خبزًا واحدًا ، خبز الاخوّة والمحبة . فاخوانيات شارل دي فوكو المؤسَّسة على المحبة الانجيلية والفقر الانجيلي الاختياري هي وحدها تستطيع أن تأتي بتلك الثمار الخيّرة المرجوّة .

اجل ، هو المسيح سيد التاريخ وقطبه ومحوره ، ما انفك يعمل من داخل كنيسته على مكافحة قوى الشر والمعصية في العالم وتوحيد البشرية في اسرة واحدة . فيستنفر ويجنّد لخدمته اناساً في كل عصرٍ وجيل ، يمنحهم قوة من قوته ومحبة من محبته وغيرةً من غيرته وقداسةً من قداسته ليُحيوا بعض المظاهر من حياته تكون البشرية آنئذ باشد حاجة اليها ، فيندفعون بقوى خارقة لتقويم انحرافها وتسديد خطاها في سبيل البرّ والاستقامة . كان عقلهم المفكر وضميرهم الوثّاب للخير والصلاح ولسانهم المتكلم الداعي الى الاصلاح والمحبة والاخاء ، يردّد ابدًا على مسامع البشر ما قاله سابقاً لتلاميذه على الجبل : « هأنذا معكم كل الايام الى منتهى الدهر » (متى ٢٨/٢٠) .

الجزء الثاني

تعاليم يسوع المسيح

الفصل الاول

مشاكل الحياة الكبرى

١ – مشكلة الله

– الله سيد الكائنات
– الله اب رحيم
– الله عناية

٢ – مشكلة الالم

– الألم على نور العقل
– الألم على نور الايمان

٣ – مشكلة الشر

– الشر على نور العقل
– الشر على نور الايمان

٤ – مشكلة الموت

– الموت على نور العقل
– الموت على نور الايمان

٥ – مشكلة الحياة الأخرى

– وسائل خلاص النفس في بعض الاديان
– وسائل خلاص النفس في اليهودية
– وسائل خلاص النفس في المسيحية

طلع السيد المسيح على العالم بتعاليم لا عهد للعالم بها من قبل ، تمكّن الانسان على ضوئها من ان يحلّ ما تخبّط فيه من مشاكل وقف امامها حائراً : كالألم والموت والمصير الأخير. ولكن ما استجدّ من تعاليم المسيح يبقى حديثه عن الله تعالى وعنايته بخلائقه وابوّته . لقد كشف في هذا المجال آفاقاً جديدة استشعر الانسان معها كثيراً من الثقة والطمأنينة ، عندما تأكد له ان الله ما كان يوماً سيّداً ظلوماً كما صوّرته له الديانات القديمة ، انما هو أب رحيم يحبه ويحنو عليه . وهذه هي نقطة الدائرة من تعاليم المسيح السامية .

١ – مشكلة الله

الله سيد الكائنات

ليس الله في تعليم السيد المسيح ، على مثال ما توهّمته الديانات الصينيّة والبابلية والفارسية ، سيّداً يسترضيه الانسان بتقادمه وذبائحه ، وما يحوطه به من اكرام ، فيأمن شرّه ويضمن لنفسه خيوره وهباته ؛ حتى كأن بين الله والانسان عقداً تجارياً قوامه المبدأ القائل : « اعطيك لتعطيني » ؛ او كأن مهمة الله تنحصر في تحقيق رغائب الانسان وارضاء انانيته . وقد رسخ هذا الاعتقاد في الاذهان حتى لدى الاسرائيليين انفسهم ، لاحتكاكهم بالوثنيين ، فلم يترفّعوا عن الاتّجار مع الله . فبالغوا في المحافظة على نصوص الشرائع وتبجّحوا بالقيام بالفرائض الخارجية استرضاء لله ، ليظفروا بخيوره الزمنية من صحة واموال وبنين صالحين . وغاب عن بالهم ان الله انما هو رب النيات وان خير جزاء يعطاه الانسان انما هو في العالم الثاني ، وأنه لم ينفع الفريسي قولُه : « اني اصوم في الاسبوع مرتين واعشّر كل ما هو لي » (لو ١٨/١٢) ، لأن الحرف يقتل والروح وحده يحيي .

لكن الله في تعليم السيد المسيح سيّد مطلق قائم بذاته منذ الازل ، كليّ القدرة والصلاح ، ولا صالح سواه (مر ١٠/١٨) ، مصدر الكائنات ومرجعها ، تجب له العبادة والاكرام . ولهذا جعل السيد المسيح عبادة الله اولى الوصايا فقال : «احبب الرب الهك بكل قلبك وكل نفسك وكل ذهنك وكل قدرتك . هذه هي الوصية الاولى ... » (مر ١٢/٢٩) . والناس ابناؤه يأمرهم باصطناع السلام : « طوبى لفاعلي السلام فانهم ابناء الله يدعون » (متى ٥) . ما الله اذن في خدمة الانسان ولا هو في حاجة

اليه ، على ما زعم الوثنيون ، انما الانسان في خدمة الله وهو بأمسّ الحاجة اليه ، يرجو منه الثواب في دار الخلود لأنه اب له رحيم .

الله اب رحيم

ليس الله في تعاليم السيد المسيح كما رآه آباء التوراة والاسرائيليون . فهو عندهم إله عظيم ، قدّوس ، ربّ الصباووت ، تنخلع القلوب لمرآه رهبة ، وترتعد الفرائص فرقاً . فلا يذكر الاسرائيليون من يهوه الاّ يداً شقّت لهم طريقاً في بحر القلزم واطبقت بعدهم الامواه على مراكب فرعون ورجاله ؛ ولا يرون منه الاّ وجهاً تحجبه البروق والرعود يوم انزل الوصايا العشر على موسى في سينا ؛ ولا يعرفون فيه الاّ قاضياً جلس على منصّة القضاء لينزل في الخارجين على القوانين اقسى العقوبات . ويتناسون ان يهوه عينه هو الذي امطرهم المنّ والسلوى في صحراء سينا اربعين سنة ، وهو الذي آثرهم ، هم الرعاة ، على فراعنة مصر .

ليس الله في تعاليم المسيح سيداً رهيباً لكنه اب رحيم ، اوجد الانسان بدافع من محبة ويحفظه في الوجود بدافع من حنان . كوّنه على صورته ومثاله ، فحباه العقل والنطق وتبنّاه ليشركه في نعيمه الخالد في السماء. انه اب والانسان ابن الله على اختلاف اللون والجنس والنزعة . لهذا نسمع المسيح يقول : « لا تخف ايها القطيع الصغير لأنه قد حسن لدى ابيكم ان يعطيكم الملكوت » (لو ١٢/٣٢) . وهو لا يتنكّر لأحد من ابنائه حتى لأولئك الذين ضلّوا سواء السبيل فداسوا شرائعه وانتهكوا حرمات اقداسه ، لأنه يعرف ان السلماء لا يحتاجون الى طبيب لكن ذوو الاسقام (لو ٥/١٣) . وهو يفرغ كنانة الجهد في سبيل ارجاع الغويّ عن غوايته ، ويفرح بعودته اكثر مما يفرح بتسعة وتسعين صدّيقاً لا يحتاجون الى توبة (لو ١٥) . ومحبة الله للانسان اين منها محبة الوالدين اولادهم ! هو المسيح يحدّث عنها حديث خبير : « لأن الذي اتى من السماء هو فوق الكل وبما عاين وسمع يشهد ... لأن الذي أرسله الله يتكلّم بكلام الله » (يو ٣/٣٢ — ٣٤) . لنسمعه يقول : « من منكم يسأل أباه خبزاً فيعطيه حجراً او سمكة فيعطيه حية بدل السمكة ، واذا سأل بيضة يعطيه عقرباً . فاذا كنتم انتم الاشرار تعرفون ان تعطوا بنيكم العطايا الصالحة فما أحرى أباكم السماوي أن يمنح الروح القدس من يسأله » (لو ١١/١١—١٤) .

أحبّ الله الناس فمدّهم بالوحي الإلهي وسنّ لهم الشرائع فما جعلها حواجز يعثرون بها في طريقهم اليه بل طرقاً معبّدة يسيرون عليها لينتهوا اليه ؛ وأفهمهم انه لم يجعلهم

للشريعة انما جعل الشريعة لهم ونقضها مراراً رحمة بهم . فشفى المرضى يوم السبت وانهض المخلّعين ووهب العميان النور رغم دمدمة الفريسيين ، وتذمر المتذمّرين (لو ١٣/١٠ — ١٨ و١٤/١ — ٦) . أحبّ اللهُ الناس حباً لا اثرة فيه ولا انانيـة ودعاهم الى التشبه به بالسعي باعمال الرحمة: «كونوا رحماء كما ان اباكم السماوي هو رحيم» (لو ٦/٢٧) ، وبمحاولة الدنو من الكمال : « كونوا كاملين كما ان اباكم السماوي هو كامل» (متى ٥/٤٤) .

فبات من ثمّ لزاماً على الانسان ان يبادل الله حباً بحب ، ويعامله معاملة الابن اباه ، فلا يماري ولا يرائي ، ولا ينافق في دينه ، وما جلد المسيح نقيصة كالرياء ؛ بات لزاماً عليه الاّ يجعل متّكله على الخلائق ولا سعادته في الاموال . بات عليه ان يجبه المصاعب برباطة جأش وألاّ ييئس من رحمة الله لعلمه ان له وراء السماء الزرقاء أباً له عين ساهرة ترعاه ، أباً عليه ان يخشع امامه فلا يتملّقه بعطاياه وقرابينه ، انما عليه ان يخلص له في سرّه وظاهره ويؤدي له واجب الشكر العميق لما يتعهّده به من عناية .

الله عناية

اظهر الله ابوّته لخلائقه بعنايته بها . فهو يهتم بطيور السماء وازهار الحقول . أفتراه لا يهتم بالانسان وهو يحصي له شعر رأسه ؟ « اقول لكم لا تهتموا لأنفسكم بما تأكلون ولا لأجسادكم بما تلبسون . أليست النفس أفضل من الطعام والجسد افضل من اللباس ؟ انظروا الى طيور السماء : فانها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن في الاهراء وابوكم السماوي يقوتها . افلستم انتم افضل منها؟ ومن منكم اذا همّ يقدر ان يزيد على قامته ذراعاً واحدة ؟ ولماذا تهتمون باللباس : اعتبروا زنابق الحقل كيف تنمو . انها لا تتعب ولا تغزل وانا اقول لكم ان سليمان في كل مجده لم يلبس كواحدة منها . فاذا كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم وفي غد يطرح في التنور يلبسه الله هكذا ، أفلا يلبسكم بالاحرى انتم يا قليلي الايمان ؟ فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل او ماذا نشرب او ماذا نلبس . لأن هذا كله تطلبه الامم وابوكم السماوي يعلم انكم تحتاجون الى هذا كله . فاطلبوا اولاً ملكوت الله وبرّه وهذا كلّه يزاد لكم . فلا تهتموا بشأن الغد ، فالغد يهتمّ بشأنه . ويكفي كل يوم شرّه » (متى ٦/٢٥ — ٣٤) . ما احوج الانسان الى سماع امثال هذه الاقوال المطمئنة في عالم يقلقه الخوف ويرعده الظلم !

وليست عناية الله بخلائقه ضرباً من الخيال انما هي واقع راهن نلمسه لمس اليد ؛

ليست ضرباً من الخيال ولو لم يجنّب الله اصفياءه المصائب ولو لم يقهم الشقاء في هذه الدنيا ، وما يجرّه عليهم من وبال عنتُ المعنتين وكيد الظالمين . لهذا نسمع السيد المسيح يوصي بالتواضع ونكران الذات فيقول : « من اراد ان يكون عظيماً فيكم يكن لكم خادمـاً ، ومن اراد ان يصير فيكم الاول فليكن عبداً للجميع . فإن ابن البشر لم يأت ليُخدَم بل ليَخدُم وليبذل نفسه فداءً عن الكثيرين » (مر ١٠/٢٤ — ٤٥) . ما المصيبة فقدان الدنيا وملاذّها انما المصيبة فقدان السعادة المقبلة. لهذا يقول المسيح : « لا تخافوا من يقتل الجسد بل خافوا من يقتل النفس » (متى ١٠ /٢٨) . ولهذا نتحقّق ان الله لم يعف الناس من استطعام مرارة نكران الجميل وغمط النعمة وقد عرف المسيح ما يحدثه نكران الجميل من جراح في القلوب فسأل عن البرص العشرة الذين طهّرهم ولم يؤدِ له فريضة الشكر سوى واحد منهم فقط وكان هذا سامرياً غير اسرائيلي (لو ١٧/١١ — ٢٠) . وعناية الله لا تتنافى وما تنفتح العيون عليه من شكوك تهدم الثقة وتزعزع الايمان وقد جلد المسيح المشككين بقوله : « الويل للعالم من الشكوك . لا بدّ ان تقع الشكوك ولكن الويل للانسان الذي تقع الشكوك على يده ... من شكّك احد هؤلاء الصغار المؤمنين بي فأجدر به لو علّق في عنقه حجر الرحى وزجّ في لجّة البحر » (متى ١٨/٦ — ٨) . وعنايته لا تردّ الاضطهاد عمّن سمح بانزال الاضطهاد بهم وقد انذر بذلك تلاميذه فحذّرهم من الخطأة والاشرار وولاة هذا العالم (متى ١٠) ، وقطّاع الطرق وما ينزلونه بالكثيرين من امثال جريح اريحا (لو ١٠/٣٠ — ٣٧) ؛ وكثيراً ما تسمح عنايته بانزال الخطوب بالناس لا عقاباً لهم ولا وفاءً للعدل الإلهي انما نتيجة لحادثة طبيعية تظهر قدرة الله : « لمَ تظنون ان اولئك الثمانية عشر الذين سقط عليهم البرج بجانب سلوام وقتلهم كانوا اكثر استئهالاً من سائر الناس الساكنين في اورشليم ؟ اقول لكم لا بل ان لم تتوبوا تهلكوا جميعاً كذلك» (لو ١٣/٤ — ٥) .

واذا كانت عناية الله لا تجنّب الناس المكاره في هذه الدنيا ، فهذا برهان على ان الله يحترم حرية الانسان . فهو يترك العلل الثانوية تعمل عملها وان اساءت . لأن الناس احرار في اتباع الطريق التي يريدون ، وهم احرار في الاسترسال الى نزوات الشرّ فيهم ، لكنهم لن يقووا على حجب عناية الله عن ابنائه الذين يستخرج لهم الخير من الشرّ ويحوّل المصيبة التي تنزل بهم ، الى مورد خير وبركة .

قد يظن الانسان ان السماء صارت فوقه من حديد والارض تحته من نحاس ، يوم تتجهّمه الدنيا وتحطّمه المصيبة ، وحين يطمو الشرّ وينتصر الظالمون . وهذا ما حدا

ارميا الى التساؤل عن عناية الله فخاطبه بقوله : « عادل انت يا رب وان حاججتك ، لكني اتكلّم معك بما هو حق . لماذا ينجح طريق المنافقين ويسعد جميع المعاملين بالغدر ؟ غرستهم فتأصلوا فأثمروا . انت قريب من افواههم وبعيد عن كلامهم . وانت قد علّمتني ورأيتني وامتحنت قلبي لديك » (ارميا ١٢/١—٢) .

امّا جواب الانجيل فهو : أن سعادة الدنيا ليست بالسعادة ولو كان الله يسمح باذيتنا ولا يتعمّدها ، وأن السعادة الحقة هي السعادة الآتية . لهذا يمكننا القول ان الانجيل قلَبَ مفاهيم الحياة عندما جعل من خطـــاب المسيح على الجبل دستورًا للمسيحي ،فطوّب الفقراء ، والمضطهدين ، والحزانى ، والمعذّبين ، لأن أجرهم عظيم في السماء (متى ٥) . وهكذا على ضوء الابدية تنجلي حقيقة عناية الله ، وينحل ما استعصى على الناس من مشاكل كالألم والموت .

٢ – مشكلة الالم

كانت مشكلة الألم منذ القديم حجر عثرة في وجه كثير من الفلاسفة حملتهم على الشك بابوّة الله وعنايته . لقد اعتقدوا ان الله لو كان اباً رحيماً لما كان يرضى بأن يقاسي الابرياء من العذاب ما يقاسون ولا ان يعاني اصفياؤه من الآلام ما يعانون لكن الألم اذا تبيّناه على نور العقل والايمان لا يؤثر في ابوّة الله في شيء انما هو برهان على عنايته وأبوّته .

الألم على نور العقل

ان الألم شعور بالوجع تختلف مدته طولاً وقصرًا باختلاف اسبابه . فهو ربما اشتدّ على من يقاسيه بحيث يخرجه عن الصواب . على ان الألم لا كيان له مستقلاً خارجاً عن طبيعة خيّرة . فهو نقصان في طبيعة الخير ، او انعدام لواحد من مستلزماتها . فالعمى مثلاً والصمم يولدان في نفس صاحبهما شعورًا بالألم ، لكنهما لا كيان لهما خارجاً عن عين عمياء واذن صماء . وفقدان الرجل واليـــد يحدث في الانسان شعورًا بالألم ، لكنه ألم لا وجود له خارجاً عن طبيعة الاقطع او الاعرج . وهل هذا الالم يتنافى وأبوّة الله ؟

يتضح لنا الجواب عن هذا السؤال اذا نحن تفهّمنا حقيقة الألم على نور العقل . ما خلق الله الانسان عقاباً له. ولا اوجده ليكون غاية ذاته.انما خلقه ليجعل منه موضوعاً لمحبته جلّ وتعالى وليدفق عليه فيض عطفه.ولا يكون الانسان اهلاً لمحبة الله الاّ اذا حاول

التشبّه بكمالاته وتجهّد في تنزيه نفسه عن نقائصها ، فقمع اهواءها شيئاً فشيئاً ليصبح صالحاً لأن يكون موضوعاً لمحبة الله الكليّ الصلاح .

ولما كان الله يرغب في مساعدة الانسان على صقل نفسه، فما وجد خيراً من الألم اداة تشذّب النواتئ وتقضي على النشاز ، وتؤهب الانسان للتقرّب منـــه . وهكذا يكون الألم مهمازًا يستحثّ الانسان على تنقية نفسه من ادرانها ، ونارًا تطهّرها من نزواتها وازميلاً يحفر في صدره وجه الله ، ويستثير همته للقيام بجلائل الأعمال ويكشف له مدى قواه على حدّ ما قال الشاعر الافرنسي موسه : « الانسان تلميذ استاذه الألم . وما من احد يعرف نفسه ما لم يتألم » . فالألم اذن مظهر من مظاهر ابوّة الله وعنايته .

الألم على نور الايمان

ويبدو الألم على نور الايمان طريقاً واضح المعالم يقود حتماً الى الله . لقد تأنّس ابن الله وسار في الدنيا على طريق الآلام . « تألم وكأنه ، كما يقول سرتيلنج ، يستغفرنا لتركه ايانا عرضة للالم . افتدانا وكأنه يستميحنا عذرًا لخلقه ايانا ضعفاء سرعان ما نسقط في الخطيئة . وغاص في لجة الألم يبحث عنا . نحن اخطأنا وهو يحتمل تبعة خطايانا . آثامنا اصبحت آثامه ، ولهذا جاء يكفّر عنها . تأنّس ومات بسبب تلك الخطايا ... جلس منهوك القوى على طرق حياتنا ... خالجته عواطف الحنان امام قبورنا (يو ١١) ، ولكنه سلّم طائعاً جثمانه للقبر » (سرتيلنج : مشكلة الشرّ ص ٨٧) . تألّم المسيح فتبدّل مفهوم الألم في نظر المسيحيين. فبات اداة خلاص ومدعاة خير ومصدر تعزية وينبوع بركة . فهو يفتح على الانسان بعضاً ممّا أغلق عليه من اسرار وما تعذّر عليه فهمه من حقائق لا يتمكّن من رؤيتها الاّ من خلال الدموع .

وكثيرًا ما يستخدم الله الألم وسبله لارجاع الانسان الى سواء السبيل واداة يهتك بها عن عينيه ما يغطّيهما من غشاوة ، ويكنس ما ملأ قلبه ويديه من ترهات . وقد اشار القديس اغوسطينوس الى هذا الواقع فقال : « كثيرًا ما يأتي الله الينا حامـــلاً بيديه وفرة عطاياه ليهبناها فيجد ايدينا ملأى بخيور الارض ، لا تتسع لنعمه تعالى ، فتحلّ بنا اذ ذاك المحن والخطوب ويأتي الصليب والألم فتتساقط خيور الارض من ايدينا فنتأهب اذ ذاك لقبول نعمه وعطاياه » . وهذا ممّا يدلّ على حنان الله وابوّته . فهو يرضى بعودنا اليه بعد ان نكون قد فقدنا خيور الارض وفارقتنا كل تعزية بشرية . ولو كان الله انانياً حقودًا لأشاح بوجهه عنّا كبرًا وجفاء على مـــا يقول الكاتب الانكليزي الشهير لويس Lewis : « نبتعد عن الله ما دمنا في بحبوحة من العيش ،

ولا ندنو منه الاّ بعد ان نحرم عزاء الارض ... نحن لا نبحث عنه الاّ خوفاً من جهنم . وهو يرضى ذلك منا ويرضى ان نفضّله على جهنم فقط. وهنا يظهر في اكمل مظهر من التواضع والرفق والسماح » (لويس : مشكلة الألم وجه ١٣٥) .

وكثيراً ما يعتمد الله على الألم ليشحذ منّا الهمم ويوطّد ما تهدّم فينا من ايمان فيسمح بأن نقاسي الآلام المبرّحة ليزداد اجرنا لديه ، وهذا ما اشار اليه السيد المسيح في اكثر من موضع من انجيله المقدّس وقد جعل احتمال الآلام شرطاً لا محيدَ عنه للحاق به واقتفاء اثاره في الصلاح فقال : « من اراد ان يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني » (لو ٩/٢٣) ، واضاف قوله : « من لا يحمل صليبه ويتبعني فلا يستطيع ان يكون لي تلميذاً » (لو ١٤/٢٧) . وقد فهم الرسل خير فهم كلام المسيح فقال يعقوب الرسول : « طوبى للرجل الذي يصبر على التجربة لأنه اذا زُكي ينال اكليل الحياة الذي وعد به الله الذين يحبّونه » (يعقوب ١/١٢) . وقد طبّق المسيحيون اقوال المسيح على اعمالهم فحملوا الصليب ودعوه الطريق الملوكية المؤدية الى السعادة الاخيرة . وقد تعوّد القديسون ان يدعوا الصليب سلّم السماء واعتدّوا التجربة علامة رضى من الله على ما اوضح الملاك رفائيل لطوبيا البار عندما افضى اليه من قبل الله بقوله : « واذ كنت مقبولاً امام الله كان لا بدّ ان تمتحن بتجربة » (طوبيا ١٢/١٣) .

وربما استعمل الله الألم عصا تأديب ينبّهنا بها الى ما ارتكبناه من اخطاء ويشعرنا بوجوب التكفير ، وهكذا يكون قد اظهر لنا حبه الأبوي على ما اشار اليه بولس الرسول في رسالته الى العبرانيين حيث يقول : « يا بنيّ لا تحتقر تأديب الربّ ولا تخُرْ ، فان الذي يحبه الربّ يؤدبه ويجلد كل ابنٍ يتخذه » (عبر ١٢/٥) .

ويستعمل الله الألم اخيرًا واسطة لاشراك ابنائه الناس في عمل الفداء وللمساهمة في تكفير بعضهم عن خطايا البعض أملاً ان يشركهم في نعيمه الخالد في السماء .

ما الألم اذن غير عنوان لرضى الله على الانسان . فهو يرغمه على التنبّه لحالة نفسه فيرعوي عن الغواية اذا كان غوياً ، ويكفّر عن خطاياه اذا كان خاطئاً بما يقاسيه من اوجاع الأمراض ، نتيجة لانغماسه في المنكرات واستسلامه للموبقات ، ويكون مثله موعظة لسواه من الخلعاء المستهترين ؛ ويفرح اذا تألم بريئاً لكونه يشاطر المسيح آلامه ويعمل معه يداً بيد في سبيل فداء البشر . وهكذا يصبح الألم مدعاة سرور روحي ومجلبة افراح سامية تقرأها على وجوه من سمّرتهم الامراض على اسرّة

الأوجاع ، وتلمحها في عيون من يسيرون الى مناقع العذاب اصرارًا على الاعتراف بالدين ، وتتبينها في ملامح من ناكدتهم الدنيا وخانتهم الحظوظ لعلمهم « ان ليس تلميذ خيرًا من معلمه ولا عبد من سيّده » . يتألمون فرحين لا حباً بالألم بل تشبهاً بذاك الذي تألم ومات على الصليب . وليس في ذلك اي انتقاص لابوّة الله الذي ساوانا بابنه وجعل مصيرنا مصيره في الدنيا والآخرة .

٣ – مشكلة الشر (١)

الشرّ نوعان : مادي حسّي وهو في الظاهر شر اما في الواقع فهو خير ؛ وشرّ ادبي وهو خروج على ارادة الله وهو الشرّ الحقيقي لكنه لا تأثير له في ابوّة الله وعنايته .

الشر على نور العقل

ان الشرّ المادي هو في الواقع خير . ان قطع اليد شرّ لكن اذا أمر الطبيب بقطعها ليسلم الجسم بكامله فهو كل الخير ، واتلاف الاعشاب شرّ نسبي لكنها اذا كانت معدّة لغذاء الاغنام فاتلافها خير . وهكذا يبدو لنا الشرّ المادي خيرًا في واقعه . وقد رتّب الله الكائنات في تسلسل عجيب بحيث سخّر بعضها لخدمة البعض . فالعشب يتلف لاطعام الحيوان والحيوان يتلف لاطعام الانسان الذي هو سيّد المخلوقات على الارض وسلطانها . وما في ذلك ايّ شرّ . ان القتل شرّ لكنه ليس بقائم على ضربة سكين وكم من ضربة سكين افادت في اجراء عملية او بضع دمل ، والسرقة شرّ لكنها ليست بقائمة على فتح صندوق وكم من فتح صندوق تعذّر فتحه دلّ على مهارة فاتحه وليس في ذلك شر . امّا الشرّ الحقيقي فهو قائم على خروج الانسان باعماله على الانظمة والقوانين وهذا هو الشرّ الأدبي .

---

١) حاول بعض من الفلاسفة تعليل وجود الشر بقولهم ان هناك الهين : اله خير واله شر . وعرف هذا المذهب بالثانوية او المانوية نسبة الى مؤسسه ماني . ولكنه مذهب فاسد لاستحالة وجود الهين كل منهما متناهي الكمال لأن احدهما يحد حتماً من سلطان الآخر وينفي عنه صفة الكمال التي هي من مستلزمات الالوهة .

وعزا غيرهم وجود الشر الى القضاء والقدر فنفوا عن الانسان الحرية وعرف هذا المذهب بالجبرية لزعمهم ان الانسان مجبر على اعماله . وهذا المذهب باطل ايضاً . ذلك اما ان يكون القضاء والقدر كائناً قائماً بذاته ذا سلطان الهي وهذا الزعم يقود الى المانوية واما ان يكون قوة غاشمة عمياء مصدرها الله الذي يستخدمها في ارضاء اهوائه؛ تعالى الله عن هذا النقص الذي يعطل الالوهة .

الشرّ الأدبي كالألم لا وجود له خارجاً عن طبيعة خيّرة فهو نقصان في طبيعة الخير أو اهمال لأحد موجباتها . ولو كان الشرّ كائناً قائماً بذاته لكان مصدره الله الذي هو مصدر الكائنات ؛ نزّه الله عن ان يكون مصدر شر . ان القتل والسرقة والزنى والانتقام كلها شر لانتفاء عناصر الخير فيها ، فالقاتل والسارق والزاني والمنتقم يستبيحون حرمات النظم الاجتماعية التي تكفل للفرد حياته وماله وعرضه . واستباحة النظم وهي تعبير عن ارادة الله تلك هي الخطيئة . فالخطيئة شر وشرّها لا يقوم على العمل المادي بل على سوء النية التي يعبّر عنها هذا العمل . والخطيئة في آخر الأمر ، تفضيل للخلائق على الخالق وايثار لخير فان على خير باق . ولا وجود للخطيئة خارجاً عن الخاطئ كما انه لا وجود للشرّ خارجاً عن الشرّير . وكلما اتقد الانسان ذكاء اشتدّ شرّه — اذا كان شريراً — والشيطان شر الخلائق لكونه اذكاها .

ولكن لِمَ ترى الله يسمح بحدوث الشرّ وهو لو اراد لكان باستطاعته ان يجنّبه عباده ! نعم . ان الله كليّ القدرة وباستطاعته ان يأتي المعجزات ، لكنه لا يأتي من المعجزات ما ينافي حكمته الأزلية او ما يُعد مثاراً للهزء والسخرية . فهو مثلاً لا يربّع الدائرة ولا يعدم الانسان حريته . لقد اوجد الدائرة في طبعها مستديرة وأوجد الانسان في طبعه حراً . واذا ربّع الدائرة وعطّل على الانسان حرّيته — وهذا مستحيل — اتى ما يثير الهزء وما يناقض به نفسه بنفسه ؛ تعالى الله عن امثال هذه الحماقات. فالحرية للانسان هبة سامية لكنها خطرة وباستطاعة الانسان ان يستعملها للخير مثله للشر . هو حرّ في اتباع الطريق التي يريد : طريق التضحية والتجرّد والكفران بالذات ؛ او طريق الاستسلام للأهواء والأنانية والاستئثار بخيور الدنيا مشروعة كانت أم غير مشروعة . هو حرّ والله يحترم حرّيته . وبما انه حرّ كثيراً ما ينقاد لأهوائه فيستعمل السوط والسيف والحربة والبندقية والمدفع والقنبلة وسائر ادوات التخريب والتدمير ، احياناً دفاعاً عن النفس وصدّاً لهجوم عدوّ ، وغالباً ايقاعاً بأخيه الانسان وانتقاماً لا يبرّره عدوان .

الشر على نور الايمان

وكذلك الشرّ في عين الايمان لا يؤثّر في ابوّة الله . لأن الله لا يريد الشرّ وان سمح بوجوده احتراماً لحرية الانسان ، والله لا يريد اهلاك الشرّير انما خلاصه . فاذا ارتدّ الشرير عن ضلاله كان ارتداده دليلاً على رحمة الله له اذ جعلت منه قديساً مختاراً (روما ٢) . واذا اصرّ الشرير على غوايته كان ذلك دليلاً على احترام الله

حريته لأن الله على ما يقول القديس اغوسطينوس : « قد خلقنا بدون ارادتنا لكنه لا يخلّصنا بدون ارادتنا » . والشرّير المصرّ على موقفه يحمل وحده تبعة عمله ، ولا يد لله في ما سيناله من عقاب . وترك الأثيم يتمادى في اثمه لا يدلّ على كره الله له بل على حبه اياه لأنه يحتمله ويطيل أناته عليه ولا يحطمه املاً منه أنه سيهتدي الى طريق العودة . لهذا نرى المسيح يشبّه الخطأة بالزوأن والابرار بالحنطة . ويأبى ان يستأصل الزوأن قبيل وقت الحصاد طمعاً بأمل التوبة . فيقول : « لا تقلعوا الزوأن لئلا تقلعوا الحنطة مع الزوأن عند جمعكم له . دعوهما ينبتان جميعاً الى الحصاد. وفي الحصاد اقول للحصّادين : اجمعوا اولاً الزوأن واربطوه حزماً ليحرق وأمّا القمح فاجمعوه الى اهرائي » (متى ١٣/٢٤—٣٠) .

وكثيرًا ما يستخدم الله شرّ الأشرار للخير . فما نراه شرًا يكون في الواقع خيرًا في عين الله . ان اضطهاد المضطهدين شرّ في عين الناس لكنه خير في عين الله لأن الاضطهاد يرسّخ الايمان في النفوس ويجعل من اصفياء الله قديسين ويقوّي الضعفاء على ما قال ترتليانوس : « دم الشهداء زرع المسيحيين » . واستبداد المستبدين شرّ في عين الناس لكنه امثولة للمختارين تحملهم على الاتعاظ بمثل الطغاة ومجانبة ماينتظرهم من مصير . وهكذا يكون الأشرار على غير علم منهم اداة خير في يد الله . حاك الفرّيسيّون المؤامرات للايقاع بالمسيح وافلحوا ، وكان ما عملوه شرًا لكنه كان خيرًا للبشرية فأتاح للمسيح ان يتمّ سرّ الفداء . فخدم الفرّيسيّون مصالح الله من حيث لا يدرون . لهذا قالت الكتب الطقسية في خطيئة آدم التي استوجبت سرّ الفداء : « سقياً لخطيئة آدم التي أنالتنا مخلصاً وفادياً » . وانتصار الظالم ساعة وتنقضي وانتصار المظلوم ابديّة لا تزول . وهذا ما عبّر عنه سفر الحكمة بقوله : « حينئذ يقوم الصدّيق بجرأة عظيمة في وجوه الذين ضايقوه وجعلوا اتعابه باطلة . فاذا رأوه يضطربون من شدّة الجزع وينذهلون من خلاص لم يكونوا يظنونه ، ويقولون في انفسهم نادمين وهم ينوحون من ضيق صدورهم : هذا الذي كنّا حيناً نتّخذه سخرةً ومثلاً للعار . وكنّا نحن الجهّال نحسب حياته جنوناً وموته هواناً . فكيف اصبح معدودًا في بني الله وحظّه بين القدّيسين . لقد ضللنا عن طريق الحق ... فماذا نفعتنا الكبرياء وماذا أفادنا افتخارنا بالأموال . قد مضى ذلك كله كالظلّ وكالخبر السائر » (سفر الحكمة ٥/١ —١٠) . وما كان يوحنا سوى صدى لأقوال الحكمة في سفر الرؤيا (١٤ و ٢٠ و٢١) .

وقد عبّر القديس بولس عن جزاء المظلومين في اليوم الاخير فقال : « ان كان

انساننا الظاهر ينهدم فانساننا الباطن يتجدّد يوماً فيوماً ، لأن ضيقنا الحالي الخفيف ينشئ لنا ثقل مجد أبدياً لا حدّ لسموّه » كور ٢ : ٤/١٦) . وهكذا الشرّ لا يبدو على وضحه الاّ اذا رأيناه على نور الايمان والأبدية . وقد ترك الأب A. Eymieux في هذا المجال صفحة رائعة لا بأس من ايراد ملخصها قال : « ما هذا الكون بنهاية انما هو بداية . وهو واسطة لا غاية . ليس في نيّة الله ان يُنزل السماء على الارض، انما في نيّته ان يمكّن سكان الأرض من الوصول الى السماء . ولا سبيل لنا الى تفهّم شيء من تدابير الله اذا نحن لم ننظر اليها بهذا المنظار . قد يعتاص علينا فهم مشكلة الألم والشر اذا نحن نظرنا في دقائقها التي تحجب عنا الآفاق البعيدة فيكون مثلنا مثل من يحدّق الى شجرة قامت قربه ، فحجبت عن نظره الغابة بكاملها ؛ هذا اذا توقفنا من الأمور على مساوئها فقط فنكون كمن ينظر الى سجّادة من قفاها . وهذا العالم يصبح لغزاً اذا نحن قطعنا ما يربطه من اسباب بالعالم الآتي . ان الجنين لن يفهم سرّ وجوده في حشى امه — لو كان يعقل — اذا هو لم يعرف انه معدّ يوماً للخروج الى عالم فسيح. خروجه يوماً الى النور يشرح له سرّ وجوده في الظلام . ولا معنى لاقامته في حشى امه اذا هو حُكم عليه بالبقاء هناك . هكذا الانسان لن يفهم اسرار الأرض الاّ اذا عرف انه معدّ لمغادرتها الى السماء . فالله يبتغي ايصالنا الى السماء اذا لم تقف حريتنا حاجزاً دون تحقيق هذا المبتغى . واما ما يقوم في هذا السبيل من صعاب فهي وسائل بنظر الله ناجعة لبلوغ الهدف . وخير مثل على ذلك مثل الفقير والغني (لو ١٦). ذاك عاش شقياً في الدنيا فجوزي بالسعادة في الآخرة ، وهذا عاش منعّماً في الدنيا فنال الشقاء في الآخرة » (راجع كتاب الأب اميو : العناية الالهية والحرب ص ٣١—٣٢) .

انهم مخطئون اذن اولئك الذين يتخذون من وجود الشر في الدنيا حجّة على نكران وجود الله والكفران بأبوّته . كثيراً ما يسمح الله باعتزاز الأشرار في الدنيا فنراه يدفق عليهم الخيور ويفتح لهم اسباب الرخاء ويدعهم يتقلّبون في بحبوحة وطمأنينة ؛ ولكن لا تلبث ان تنقلب الادوار فيكون مصيرهم في الآخرة مصير غنيّ الانجيل المستهتر . وما ضرّ الله اذا هو القى للمستهترين الحبل على الغارب ما دام يعتمد على الأبدية .

٤ – مشكلة الموت

ان الموت كالألم والشرّ لا يمكن اتخاذه حجة على نكران وجود الله او الشك في أبوّته وعنايته . وما حكم الله تعالى بالموت على الانسان قصاصاً له على خطيئته حتى اتاح له سبل الافادة منه فجعله طريقاً يقوده الى الحياة الأبدية .

الموت على نور العقل

ان الموت على نور العقل ضرورة من ضرورات البقاء ، وهو وحده يضمن للحياة مفهومها ولولاه لكانت الحياة لغزًا لا سبيل الى النفاذ الى اغواره . لولا الموت لما كان يتيسّر حفظ النسل في الدنيا وفقاً لسنّة النشوء والتطوّر والهرم والانحلال ، ولما تهيأت مقوّمات البقاء والاستمرار للعناصر الجديدة . وهذه حقيقة بادية للعيان نراها في عالم النبات والحيوان والانسان .

تهرم النبتة وتتناثر اوراقها وتذبل شيئاً فشيئاً الى ان تجفّ مائيتها فتيبس وتموت ولكنها تكون قد اودعت بذارها جوف الأرض ، فلا تلبث هذه ان تنبت وتنمو وتزهر وهكذا تؤمن للنوع حفظه في الحياة بما ينبت على جذعها من فروع . ويشيخ الحيوان وتخور قواه ولا يلبث ان ينحلّ ؛ لكنه يكون قد أمّن بقاء الجنس في ما ولّده من صغار . وهكذا القول عن الانسان . فهو يولد ويشبّ ويكدّ ويجني ويؤسّس عائلة وينجب البنين يحبس عليهم نشاطه وحنانه ويؤمن لهم سبل البقاء . لكنه لا يلبث ان يعود الى التراب الذي أخذ منه . سنّة الله في خلقه ! يتفكك الغلاف الذي يحمل بذار الحياة ويتحوّل الى رماد ؛ امّا الحياة فتنتقل الى سواه فوّارة نبّاضة . يهمل الوعاء بعد الاستعمال اما مضمونه فيستمرّ على البقاء عبر الزمن . وكأن الطبيعة بحاجة الى مادّة هذا الغلاف او الوعاء لتصوغ منها غلافات وأوعية جديدة على ما المع اليه الخطيب الكنسي الفرنسي الشهير بوسويت حيث قال : «كأن اولادنا يذكروننا بحقيقة الموت وهم كأنهم يدفعوننا بالمناكب قائلين : تقدّموا ، تقدّموا . قد مثّلتم دوركم على مسرح الحياة وآن دورنا او كأن الطبيعة بحاجة الى هذه المادة التي كوّنتنا منها فتستعيدها منا بالموت لتصوغ بها غيرنا من الناس» . ومتى عرفنا ان الموت مفيد لحفظ الجنس فلا سبيل الى الشك في أبوّة الله اذا هو اخضع الانسان له . لكن افادة الموت تقدّس هذا النطاق .

الموت على نور الايمان

الموت في نظر الايمان بركة . فهو طريق يؤدّي الى الراحة الخالدة (متى ٢٥) وهو وسيلة لانقاذ الانسان من شقاء هذه الحياة (متى ٥ ولو ١٦) . وهو انعتاق وانطلاق في الأجواء الفسيحة حتى الوصول الى الله ليتقاضى العامل اجرته لقاء ما تحمّل في نهاره من حرّ وتعب ، على ما اشار بولس الرسول في رسالته الثانية الى تلميذه تيموتاوس حيث يقول : « امّا انا فقد اريق السكيب عليّ واقترب وقت انحلالي وقد جاهدت الجهاد الجميل وأتممت شوطي وحفظت الايمان . انما يبقى اكليل العدل المحفوظ لي الذي يجزيني به في ذلك اليوم الرب الديان العادل لا انا فقط بل جميع الذين يحبون تجلّيه ايضاً » (تيم ٢ : ٤/٦) . والموت هو العودة الى بيت الآب السماوي ، الى البيت الوالدي الذي تعدّدت فيه المنازل على ما قال السيد المسيح : « لا تضطرب قلوبكم انتم تؤمنون بالله فآمنوا بي ايضاً . ان في بيت ابي منازل كثيرة والاّ لقلت لكم . اني منطلق لأعدّ لكم مكاناً ، واذا انطلقت واعددت لكم مكاناً آتي وآخذكم اليّ فتكونون انتم حيث اكون انا » (يو ١٤ /١—٣) . وهو اخيرًا انشودة الظفر والغلبة امام ما ينفسح في وجوهنا من نعيم « لم ترَه عين ولم تسمع به اذن ولم يخطر على قلب بشر » . وهكذا بدّل الانجيل مفهوم الموت ، فحمل المسيحيين على استقباله — اذا هم تفهّموا روح الانجيل — برباطة جأش واطمئنان بال ، خلافاً للوثنيين والكفرة الماديين الذين يستسلمون لليأس والقنوط لأنه قام في وهمهم ان الموت انما هو نهاية الحياة ، وفاتهم انه بدء حياة سعادة لن تنطفئ انوارها . ومتى عرفنا الموت على نور الايمان فكيف نشك في أبوّة الله ان هو أخضع الناس لسلطانه ؟ وكيف نعجب بعد هذا اذا رأينا الشهداء يغتبطون بلقيا العذاب والموت ؟

٥ — مشكلة الحياة الاخرى

وبعد الألم والشرّ والموت تبرز مشكلة الحياة الأخرى وهذه قد حلّها السيد المسيح بما افضى به الينا من تعاليم طمأنتنا الى حسن المصير ان نحن وضعناها موضع العمل . وحلّ السيد المسيح يختلف عن حلول سواه من مؤسّسي الأديان لأنه هو يختلف عن سواه بكونه الهاً وانساناً معاً خبر الطبيعتين الإلهية والانسانية .

لقد قالت جميع الأديان بحياة اخرى تعقب هذه الحياة . لكنها خلّت في تحديد ماهيتها . فمن الأديان ما جعل السعادة في العالم الآتي في الاستمتاع بأطايب الطعام

والشراب وبلذات الحواس . فاذاً سعادة الآخرة في زعمها صورة مكبّرة لسعادة الدنيا . ومنها ما جعلها في لذّة عقلية روحية لا أثر للحسّ فيها .

وكان الصدوقيون ، عهد المسيح ، ممن يقولون بالسعادة الحسيّة في الآخرة وقد أفصحوا عن معتقدهم عندما سألوا المعلم الإلهي عن مصير احدى الأرامل بعد الموت فقالوا : « يا معلم ، قال موسى ان مات احد وليس له ولد ، فليتزوّج اخوه امرأته ويقيم نسلاً لأخيه . وكان عندنا سبعة اخوة تزوّج أوّلهم امرأة ومات ولم يكن له نسل فترك امرأته لأخيه ، وكذلك الثاني والثالث الى السابع . وفي آخر الكل ماتت المرأة . ففي القيامة لمن من السبعة تكون المرأة لأن الجميع اتخذوها ؟ فاجاب يسوع وقال لهم : قد ضللتم لأنكم لم تعرفوا الكتب ولا قوّة الله . لأنهم في القيامة لا يزوّجون ولا يتزوّجون ولكن يكونون كملائكة الله في السماوات » (متى ٢٢/٢٤—٣١) . فأفهمهم المعلّم ان سعادة الآخرة غير سعادة الدنيا . فتلك سعادة روحية تصيب النفس منها ولا حق للانسان بأن يطالب بها لو لم يجد الله عليه بأن يصبو اليها وهي تقوم أولا وآخراً بمشاهدة الله مصدر الحق والخير والجمال .

ولا يمكن ان تكون السعادة الأخيرة الاّ روحية . ولو كانت مادية لأصبح الله واسطة للحصول عليها ؛ وبطل أن يكون غاية خلائقه ، ولأضحت عبادته تجارة قوامها الأخذ والعطاء : يأخذ الأكرام ليعطي الخيور . تنزّهت عبادة الله عن امثال هذه الحقارات !

أمّا الحجّة الدامغة على بطلان زعم من يقولون بالسعادة المادية في العالم الآتي فتقوم على طبيعة الانسان عينه . والانسان مركّب من نفس وجسد وللنفس فيه الأفضلية على الجسد لأن هذا يعود الى التراب وتلك تعود الى باريها . هذا زائل وتلك خالدة . ولو كانت السعادة مادية في السماء لاستمتع بها الجسد لأنها من طبيعته ولحرمتها النفس لأنها تنافي طبيعتها . وهكذا تصبح النفس خاضعة للجسد وهو دونها مقاماً وهذا هو منتهى الظلم والجهالة ! هذا ظلم لانقلاب القيم وقد اظهر السيد المسيح فضل النفس على الجسد وضرورة المحافظة عليها فقال : « ماذا يفيد الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ، او ماذا يعطي الانسان فداء نفسه » (متى ١٦/٢٦) . وهذه جهالة لأن الجسد زائل ولا يمكنه دخول السماء الاّ بعد القيامة الكبرى ويدخلها جسداً روحياً على ما اشار اليه بولس الرسول عندما قال : « يزرع جسد حيواني فيقوم جسد روحاني » (كور ١ : ١٥/٤٤) . وقد أسهب القديس توما الأكويني في تبيان فساد

رأي القائلين بقيام سعادة الآخرة على الملذات الحسيّة وأبطل حجتهم بصورة قاطعة جازمة(١) . ولكن ما هي الوسائل التي يجب اعتمادها للحصول على هذه السعادة ؟

١) « ان الجسد وجد لأجل النفس كوجود المادة لأجل الصورة والآلات لأجل المحرك ليزاول بها افعاله... فاللذة البدنية مهما تنوعت لا تقدر ان تكون موضوع سعادة الانسان لأن ما كان من ماهية الشيء غير وعرضه الخاص غير كما ان كون الانسان حيواناً ناطقاً مائتاً غير (هذا من ماهية الانسان) وكونه ضاحكاً غير (هذا عرض بالنسبة الى الانسان) . فاذا لا بد من اعتبار ان كل لذة عرض خاص لاحق للسعادة او لشيء منها ، اذ انما يلتذ ملتذ بحصوله على خير ملائم له اما فعلاً او رجاء او تذكاراً في الاقل . والخير الملائم ان كان كاملاً فهو سعادة الانسان او ناقصاً فهو سعادة بالمشاركة (جزئية) قريبة او بعيدة او ظاهرية على الاقل . ومن ذلك يتضح ان اللذة اللاحقة للخير الكامل ايضاً ليست ذات السعادة بل شيئاً لاحقاً لها كعرض ذاتي .

« على ان اللذة البدنية لا يتأتى ايضاً لحاقها الخير الكامل لأنها لاحقة للخير المدرك بالحس الذي هو قوة نفسانية مستعينة بالبدن ، والخير البدني المدرك بالحس لا يجوز ان يكون خير الانسان الكامل لانه لما كانت النفس الناطقة مجاوزة لحد الهيولى الجسمانية كان جزء النفس المجرد عن الآلات الجسمانية غير متناه على نحو ما ، بالقياس الى البدن والى الأجزاء النفسانية المقارنة البدن ، كما ان المجردات غير متناهية على نحو ما بالنسبة الى الهيولانيات . كما ان الصورة تنحصر وتتناهى بالهيولى على نحو ما ، فكانت الصورة المجردة عن الهيولى غير متناهية على نحو ما ، ولهذا فالحس الذي هو قوة جسمانية يدرك الجزئي المحدود بالمادة ، والعقل الذي هو قوة مجردة عن المادة يدرك الكلي المجرد المندرج تحته افراد غير متناهية ومن ذلك يتضح ان الخير الملائم للبدن والصادر عن اللذة البدنية بادراك الحس ليس بخير الانسان الكامل ، لكنه شيء يسير بالقياس الى خير النفس . ومن ثمة قيل في سفر الحكمة « جميع الذهب بازاء الحكمة قليل من الرمل » (الحكمة ٧ / ٩) . فاذاً ليست اللذة البدنية هي السعادة ولا عرضاً ذاتياً لها » (الخلاصة اللاهوتية : الجزء الاول من القسم الثاني البحث الثالث ، الفصل الثامن) .

«ثم يتابع القديس توما فيظهر ان سعادة الانسان ليست في الخلائق انما في الخالق فيقول : « ثم انه يستحيل ان تكون سعادة الانسان قائمة بخير مخلوق . فالسعادة هي الخير الكامل الذي تسكن عنده الشهوة بالكلية والا لم يكن هو الغاية القصوى ان بقي وراءه مطمح للشهوة . وموضوع الارادة التي هي الشهوة الانسانية هو الخير الكلي كما ان موضوع العقل هو الحق الكلي . ومن ذلك يتضح ان ارادة الانسان لا يمكن ان تسكن الاّ عند الخير الكلي ، وهذا ليس يوجد في مخلوق ، بل في الله وحده لأن كل مخلوق خير بالمشاركة (أي جزئياً) فاذاً ليس يقدر ان يشبع ارادة الانسان الاّ الله وحده . فاذاً سعادة الانسان قائمة بالله وحده » (الخلاصة اللاهوتية : الجزء الأول من القسم الثاني ، البحث الأول ، الفصل الثاني) . ثم يستطرد قائلاً :

« لا يمكن قيام السعادة القصوى والكاملة الاّ برؤية الذات الالهية ولا بد لبيان ذلك من اعتبار امرين : الاول ان الانسان لا تحصل له السعادة الكاملة ما دام يشتهي شيئاً يطلبه . والثاني ان كمال كل قوة يعتبر بحسب حقيقة موضوعها ، وموضوع العقل هو « ما هو أي ماهية الشيء » ، كما في كتاب النفس (٣ م ٢٦) . فكمال العقل اذن على قدر ادراكه ماهية الشيء . فان ادرك عقل ماهية معلول ولم يستطع ان يدرك بها ماهية العلة اي ان يعلم ان العلة ما هي ، لا يقال ان ذلك العقل قد ادرك العلة مطلقاً ، وان استطاع ان يدرك بالمعلول انية العلة . ولذلك متى عرف الانسان المعلول وعلم ان له علة بقي متشوقاً طبعاً الى ان يعلم ايضاً ماهية العلة . وهذا التشوق يبعث على العجب ويدعو الى البحث كما في الالهيات . كما لو عرف عارف كسوف الشمس فاعتبر انه صادر عن علة . فانه لجهله ماهية تلك العلة يعجب

وسائل خلاص النفس في بعض الأديان

من الأديان ما يتوقّف خلاص النفس فيها على القيام ببعض فرائض خارجية كالصلاة والأصوام والصدقات وزيارة بعض الأماكن المقدّسة والاحتفاء ببعض المراسيم الدينية ، يضاف اليها اجتناب المنكر كالسرقة والقتل والزنى وغيرها من القبائح. ومن الأديان ايضاً كالبوذية ما يوجب على من يعتنقه المبالغة في سوم النفس ما يرهق من التضحيات والتقشفات كتجريح الجسم وتشويه الوجه حتى اسالة الدماء كما يفعل كهنة الأوثان في الشرق الأقصى ، وقد قام في وهمهم انهم يسترضون الله بذلك . وهناك من البوذيين من يظنون انهم يضمنون أمر خلاصهم اذا ما هم وطّدوا رجاءهم بجودة « اميدا » ليس الاّ ... ويستبيحون بعد ذلك كل محرّم .

وهكذا تحاول هذه الأديان تجنيب أتباعها أيّ جهد أدبي أو كفاح باطني . تنصح بانهاك الجسد ولكنّها لا تنظّف النفس ممّا تأتكل من أحقاد ولا تحاول تهدئة مـا يعصف فيها من أهواء . حتى ليصحّ فيها قول السيد المسيح في الفرّيسيين : « تنظّفون خارج الكأس والاناء وباطنكم مملوء خطفاً وشرًا » (متى ٢٣/٢٥) .

والشعب الذي يعتنق ديناً يقرُّه على منكراته ويتملّق أهواءه فلا يلزمه بطهارة أو عدالة أو محبة ، ينتهي بأن يتّخذ له كهنة يخادعونه ويلهونه بالتعاويذ والأكاذيب. وهذا ما أشار اليه اشيعا النبي عندما خاطب كهنة الأوثان بلسان الشعب فقال : « يقولون للرائين لا تروا وللانبياء لا تتنبأوا لنا بما هو الحق بل كلّمونا كلاماً ملقاً وانبئونا بالغوايات » . وهكذا كان الكهنة المصريون في القديم يبيعون المؤمنين شهادات يوقّعونها ويثبتون فيها ان حاملها هو الإله « أوزريس » تضليلاً في زعمهم لقضـاة الدينونة الذين يسمحون لحاملها عند رؤيتها بدخول جنات النعيم . وهل بعد هذه البلاهة من بلاهة ؟ !

منها فيأخذ في البحث عنها ولا يزال يبحث حتى يتوصل الى ادراك ماهية تلك العلة . فاذاً اذا ادرك العقل الانساني ماهية معلول مخلوق ولم يدرك من الله الاّ انيته فقط لم يتصل كماله بالعلة الاولى مطلقاً بل لا يزال فيه شوق طبيعي الى البحث عن العلة ، فلا يكون سعيداً بسعادة كاملة ، فلا بد اذن للسعادة الكاملة من اتصال العقل بماهية العلة الاولى (الله) وهكذا يحصل له الكمال بالاتصال بالله على انه موضوعه الذي به وحده تقوم سعادة الانسان » (الخلاصة اللاهوتية : الجزء الاول من القسم الثاني ، البحث الثالث ، الفصل الثامن) .

وسائل خلاص النفس في اليهودية

قام في وهم اليهود ولا سيّما الفرّيسيين منهم ان الخلاص جمهوري لا فردي وان مجرّد الانتساب الى ذرّية ابراهيم يضمن لصاحبه الخلاص الأبدي . وراحوا يبالغون في العناية بالشريعة الموسوية فتناولوها بالشرح والتفسير والتعليق حتى أماتوا فيها الروح ولم يبقوا الاّ على الحرف . لكن يوحنا المعمدان نبّههم لخطإهم ونصحهم بوجوب اصطناع الخير لتحقيق عمل الخلاص فقال : ا ثمروا ثمرًا يليق بالتوبة ولا تأخذوا في القول ان أبانا ابراهيم لاني اقول لكم ان الله قادر ان يقيم من هذه الحجارة اولاداً لابراهيم » (لو ٣/٨) . وما كان المسيح أقل وضوحاً من يوحنا المعمدان عندما قال لهم : « لا تقولوا ان ابانا ابراهيم . الحق أقول لكم ان الله قادر أن يخلق من هذه الحجارة اولاداً لابراهيم ... »

وما التفاف اليهود اولا حول المسيح سوى دليل على انهم كانوا يمنون النفس برؤيته يؤسس مملكة عالمية تطرد الرومان من أراضيهم وتبسط سلطانها على العالم وتضمن لهم السعادة في الدنيا والسعادة في الآخرة . لكن المسيح اماط اللثام عن عيونهم عندما أفهمهم ان مملكته روحية تبتدئ « كحبّة خردل » في ثنايا النفس ثم تنمو وتتسع وتبسط سلطانها على الكائنات . فالشريعة اذن ليست أساساً للخلاص بما تأمر به من اعمال لا تعبّر عن النيات ؛ انما نقاء الضمائر وطيب السرائر هو الأساس في مملكة المسيح الروحية . وما كان الخلاص الاّ عملاً فردياً لا شأن للجماعة كجماعة فيه . وقد أبان السيد المسيح فضل النيات في الشريعة الجديدة على الأعمال في الشريعة القديمة يوم سلّم المسيحيين دستورهم الذي أعلنه في خطابه على الجبل (متى ٦) .

وسائل خلاص النفس في المسيحية

أما وسائل الخلاص في المسيحية فلا تقتصر على الاعمال انما تتعداها الى القلوب التي تصدر عنها النيات الموجّهة للأعمال . وقد سبر السيد المسيح أغوار القلوب وعرف ما تصبو اليه من أمان أبى الاّ ان يحققها لها . وخبر الطبيعة البشرية واختلج قلبه بما تختلج به قلوب الناس من عواطف ما عدا السيء منها ، واشفق على ما يعانونه من ضعف ووهن فقال : « اني اتحنن على الجمع » (متى ١٥/٣٢ ومر ٨/٣) .

واولى وسائل الخلاص في الدين المسيحي هي المحبة . محبة الله ومحبـــة القريب كالنفس ، بدليل ما جاء في جواب السيد المسيح عن سؤال ذاك العالم الذي استوضحه

عن هذا الأمر حيث قال : « يا معلّم ما الذي يجب أن أصنعه لأرث الحياة الابدية؟ فقال له: ماذا كُتب في الناموس ؛ كيف تقرأ ؟ فقال: أحبب الرب الهك بكل قلبك وكل نفسك وكل قدرتك وكل ذهنك وقريبك كنفسك . فقال له: أصبت اعمل ذلك فتحيا » (لو ١٠/٢٧) . يأمر المسيح بالمحبة وما يستتبعها من تطهير القلب من الأحقاد والضغائن والاعجاب بالنفس والكبرياء وما اليها من نقائص . والمحبة وما توحي به من أعمال ان لم تكن صادقة فليست بمحبة.وأكره ما كره المسيح ويكره في تلاميذه الرياء (متى ٢٣).وما قبّح نقيصة تقبيحه التملّق وتشويه الحقائق والمواطأة على حساب الدين. وقد اورد مثل وكيل الظلم (لو ١٦) تقبيحاً لمن يسيئون الائتمان والتصرّف بالمقدّسات . أغرى وكيل الظلم مديوني سيّده بالسرقة فترك لهم بعض دينهم رجاء ان يعتمد عليهم في ايام البؤس . ويعمد من يشبهون وكيل الظلم من رجال الدين الى الاغراء ــ طمعاً بفائدة او جرًّا لمغنم ــ كلّما ساوموا على واجب ديني أو فريضة أو أغمضوا العين عن التنديد بمنكر أو عن التنبيه لاهمال . والخيانة في الدين شرّ الخيانات .

ان الخلاص لا يرتكز فقط على الأعمال وما كانت طريق السماء يوماً غسل يد او تقدمة قربان أو تمتمة تعويذة او ايقاد شمعة ، انما طريق السماء ندامة على منكر ، وانسحاق القلب على مأثم وثقة وطيدة بنيل الغفران ورجاء لا يخيب بأبوّة الله . ولا تنفع الفرائض والنوافل اذا خلت القلوب من عواطف العدل والمحبة والطهارة . وما كان الله بتاجر ببيع خيوره بركعات ويجود بعطاياه لقاء بضع قرعات صدور ، انما الله قدوس، تجب له العبادة تحوطها هالة من قداسته .

وقد شدّد السيد المسيح على وجوب تطهير القلب واماتة الأهواء فاذا بنا نراه يقارن بين الشريعة القديمة والشريعة الجديدة ، ويظهر فضل هذه على تلك فيقول : « قد سمعتم انه قيل للاولين لا تزنَ . أمّا أنا فأقول لكم ان كل من نظر الى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه (متى ٥/٧) ... وقد قيل للاولين لا تقتل فان من قتل يستوجب الدينونة. أمّا أنا فأقول لكم ا ن كل من غضب على أخيه يستوجب الدينونة (متى ٥/٢١) ... قد قيل للاولين لا تحنث بل اوفِ للرب باقسامك . أمّا أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة ... فليكن كلامكم لا لا ونعم نعم وما زاد على ذلك فهو من الشرير» (متى ٥/٣٣ــ٣٧) . فضل شريعة المسيح على الشريعة اليهودية يقوم بأن شريعة المسيح تنفذ الى القلب بحيث يكون العمل تعبيراً صادقاً عن الحالة النفسية . فلا رياء ولا خداع ولا أكاذيب . فالزنى والقتل والحنث كل هذه نقائص تبدأ أولا في طوايا النفس .

وتبقى نقائص أتحققت بالأعمال ام لم تتحقّق ويكفي ان تكون قد مرّت في خيال انسان رضي بها لتُحسب عليه آثاماً في سجلّ العدالة الإلهية .

وقد شامَ الفلاسفة القدماء من بعيد جمال العقيدة المسيحية وكأنهم عبّروا عن عن توق البشرية اليها عندما أعربوا عن زيف العبادة الخارجية التي لا تعبّر عن خلجات القلب . فقد قال شيشرون : ان اعظم اكرام وأطهره وأقدسه يمكننا أن نقدمه للآلهة ، هو ان نكرمهم دائماً بقلب نقي وضمير مستقيم ... » (في الطبيعة الإلهية : الجزء الأول ف ٢٨ نمرو ٧١) . وقال سنيكا : « أية لذة يستطيع الآلهة ان يشعروا بهـا عندما تقدّم لهم الذبائح البشرية ؟ ... فليس بالذبائح ولا بمجاري الدماء ينبغي أن نظهر عبادتنا لهم ، لكن بالخضوع ونقاوة القلب واستقامة الضمير . ان كنتم تودّون ان تنالوا رضى الآلهة فاصنعوا الخير . اذ ذاك لشرف عظيم يفاخرون به عندما يرونكم تقتفون أثرهم » (كتابه عن الخرافات ، وقد ذكره المؤرخ لكتانس في كتابه : الشرائع السماوية ، الجزء الاول الفصل السادس نمرو ٢٥) .

واذا شدّدنا على طابع المسيحية الروحي ، فهذا لا يعني ان المؤمن معفىً من الاعمال الصالحة ليظفر بالسعادة الأبدية . وقد الزم السيد المسيح بالشريعة وشدّد على وجوب التقيّد بها عندما قال : « تزول السماء والأرض وحرف واحد من الناموس لا يزول » (لو ١٦/١٧) . والايمان دون اعمال باطل عقيم وهذا ما عبّر عنه السيد المسيح بقوله : « ليس من يقول يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات ولكن الذي يعمل ارادة أبي الذي في السماوات هو يدخل ملكوت السماوات » (متى ٧/٢١) . وهذا ما أوضحه أيضاً القديس يعقوب حين قال : « الايمان ان كان بغير أعمال فهو ميّت في ذاته . ويقول قائل : لك الايمان ولي الأعمال فأرني ايمانك بغير الأعمال أما أنا فأريك ايماني بالأعمال . أنت تؤمن ان الله واحد ، حسن . والشياطين أيضاً يؤمنون ويرتعدون . هل تحب ان تفهم أيها الانسان الباطل الرأي ان الايمان بغير الأعمال ميّت ... ترون اذن ان الانسان بالأعمال يبرّر لا بالايمان وحده » (رسالة القديس يعقوب ١/١٨ — ٢٥) . وما كان الدين المسيحي ديناً نظرياً وحسب ، انما هو عملي مثمر وثمرته الأعمال الصالحة .

واذا شدّدنا على طابع الخلاص الفردي في المسيحية فهذا لا يعني ان الانسان معفى من الانتساب الى أيّة جماعة . والمسيح يجبر على الانتساب الى الكنيسة التي هي جسده السرّي فيقول : « أنا الكرمة وأنتم الأغصان ... كل غصن يثبت في الكرمة يأتي بثمار . من ثبت فيّ وأنا فيه يأتي بثمار كثيرة » (يو ١٥/٥) . وقد جرى

مجرى المثل قول الآباء القديسين : « لا خلاص خارج الكنيسة » وهذا طبيعي لأن المسيح زوّد كنيسته بجميع أسباب الخلاص لتوزّعها على أبنائه المؤمنين وما رسم الأسرار السبعة وجعلها أقنية للنعم باطلاً وعبثاً . لكن مجرد الانتساب الى الكنيسة لا يكفي للخلاص ويبقى على الانسان أن يسعى فردياً للافادة ممّا تضعه الكنيسة من وسائل تحت تصرفه .

ومتى عرفنا ان قضية خلاص النفس هي قضية فردية تستند قبل كل الى الايمان الذي تحييه الأعمال نأتيها ضمن نطاق الكنيسة المقدسة وطبقاً لارشاداتها يتبيّن لنا :

اولاً : ضلال اولئك المبتدعة الذين يوهمون الناس انهم يضمنون لهم خلاص نفوسهم ان هم انتسبوا الى هذه أو تلك من الشيع — وما مروّجو شيعة شهود يهوه ببعيدين عن الأسماع والانظار — ولا يطلبون منهم مقابل ذلك أيّ جهد . وأمثال هذه البدع لا يحتاج الى دحض ، لظهور ضلالها للعيان .

ثانياً : ضلال السلطات المدنيّة التي تجبر رعاياها على القيام بالواجب الديني تحت طائلة العقاب ، متجاوزة صلاحياتها التي تخوّلها حق النظر في الأمور المدنية لا الدينيّة . واكراه الناس على القيام بالواجب الديني يحملهم على النفاق في دينهم ، وآفة الآفات في الدين النفاق .

ثالثاً : ضلال مثيري الحروب الدينيّة قياماً بفتوح وايهاماً للمقاتلة بانهم يدخلون النعيم ان هم ماتوا في ساحات القتال . وفاتهم ان ديناً يفرض بالسيف لا يفيد من يفرضه ولا من يفرض عليه . ولا يفيد المجاهد باسم الدين لأن هذا لا يتورّع عادة عن استباحة ما يستباح في الحروب من قتل وسلب ونهب ، وهذا ينافي مبادئ الدين ؛ ولا يفيد من يُفرض عليه لأن هذا يعتنق قسرًا ديناً لا يؤمن بتعاليمه ولا يثق بجدواه ولا يخفى ما في هذا الامر من اغضاب الله الذي خلق الانسان حرًا في اعتناق ما يريد من الأديان تحقيقاً لأمر خلاص نفسه . وهكذا يتضح لنا ان الحروب المقدسة انما هي شذوذ في الدين .

وكأن بعضاً من الناس يردّدون هذا السؤال الذي ردّده بعضهم على مسامع المسيح عندما أبان لهم أخطار الغنى على الخلاص فقالوا : « من يمكنه اذن ان يخلص» (مر ١٠/٢٦) ، من يمكنه أن يخلص اذا كان عليه أن يتقيّد بما ألمعنا اليه من واجبات ؟ وجوابنا لهم جواب السيد المسيح لمحدثيه : « أمّا عند الناس فلا يستطاع وأمّا عند الله فكل شيء مستطاع » (مر ١٠/٢٧) . يلزم الله بالشريعة لكنه لا يبخل

بالنعمة على المتقيّد بها . وقد قال : « أنا معكم الى الأبد لا تخافوا » . وعرف القديسون مدى طاقتهم واعترفوا بعجزهم عن اتمام ما تفرضه عليهم الشريعة ان هم اعتمدوا على قواهم فقط . لذلك كان بولس الرسول يقول : « أنا ضعيف انما أنا قويّ بقوّة من يقوّيني ... » . وخير برهان على ان الانسان، رغم ضعفه، يبلغ ما تبلغه اياه نعمة الله ، هو مثل هذا الجيش من القديسين ، الذين طبعوا عصوراً عاشوا فيها بطابع خاص ، ما تزال تحمل سماته الأجيال من بعدهم . ولا نخطئ اذا قلنا ان بعضهم غيّروا بعض الشيء مجرى التاريخ بما قاموا به من أعمال بطولة وما أتوه من آيات معجزات . ولنكتفِ بذكر القديس عبد الأحد وفرنسيس الأسيزي ، وتوما الأكويني ، وتريزيا الكبرى ،والصغرى ، واغناطيوس دي لويولا ومنصور دي پول وغيرهم كثيرون... ولهذا قال برغسون : « ان مجرّد وجود القديسين دعوة ملحاح الى البرّ والصلاح » .

فما لا يستطيعه الناس يستطيعه الله ومن هاله ثقل الواجب وأيأسته صعوبة الخلاص ، فعليه باستمطار نعم الله والاستنجاد به . فهو بالغ معه ما يعجز عنه بدونه ، ولو حمي وطيس المعركة بينه وبين قوى الشر . وقد أفهم المسيح الناس انه لا سبيل الى القاء السلاح والكفّ عن العراك الباطني المرير ما دامت العيون منهم مفتّحة . وسيفوزون بالغلبة ان هم عملوا بوحي عقيدته المقدسة . وهكذا حلّ للناس مشاكلهم الكبرى .

الفصل الثاني

الانسان والله

١ - الانسان

– في نظر العالم القديم
– في نظر المسيح
– ماهية الخطيئة
– تبعة الخطيئة
– الناس اجمع خطأة
– الشيطان

٢ – الله

– المخلص

ا – الانتصار على الخطيئة

– اشفق المسيح على الخطأة
– غفر الخطايا

ب – مثل الابن الشاطر

– الراعي الصالح

ج – الانتصار على الشيطان

من تصفّح الانجيل يرى ان السيد المسيح اوضح علاقة الانسان بالله. فالانسان ولو خاطئاً له قيمة شخصية مردّها الى النفس التي افتداها المسيح بدمه على الصليب. والله اشفق على الانسان الخاطئ وأحبه وغفر له خطاياه وعاونه على اتمام عمل خلاصه فمكّنه من ان يتغلّب على الخطيئة وعلى الشياطين.

١ – الانسان

في نظر العالم القديم

كان الانسان في العالم الوثني القديم اشبه بسلعة تباع وتشرى، لسيّده عليه حقّ الموت والحياة؛ وكان في عهد اثينا وروما، ولو منحته القوانين بعض الحقوق، ملكاً للدولة تصنع به ما تريد وتستخدمه في ما تشاء.

وما تمتّع الانسان في ظلّ الشريعة الاسرائيلية التي تفرّد اتباعها عمّن حولهم بعبادة «يهوه» الاله الحق، من الحقوق الاّ بالنزر اليسير. فقد كان لرئيس القبيلة على افرادها سلطان مطلق. وجاء العهد الملوكي. بعد العهد القبلي، فما رفق الملوك برعاياهم وما اصاخوا الى انذار الانبياء وتنبيهاتهم المتواترة. وكان الناس في عهد المسيح طبقات منهم الصدوقيون والفريسيون والكتبة يتمتّعون بجميع الحقوق، بيد ان الشعب من فقراء وجهلة «ومرهقين» لم يكن لهم من الوسائل ومن الوقت ما يمكّنهم من اتمام ما يتمّه الفريسيون من فرائض، فحسب افراد الشعب احطّ مقاماً من رؤسائهم وما تمتّعوا بما تمتّع به هؤلاء من حقوق.

في نظر المسيح

اما الانسان في تعليم المسيح، فقيراً كان ام غنياً، وضيعاً أم عظيماً، فهو ملك ربه. فلا هو ملك اسياده، ولا هو ملك الدولة، ولا هو ملك نفسه، ولاسلطان لبشر عليه، سيّده الأوحد بارئه من العدم: الله. والناس امام خالقهم سواء، لا فضل لأحد على أحد الا بالتقوى والخير والصلاح؛ فلا طبقات ولا مراتب في عين الله تأتي عن طريق الوراثة والجاه والمال. قياس العظمة لدى الناس غيره لدى الله. ورب فقراء بررة في نظره هم ارفع مقاماً من اغنياء انغمسوا في حمأة المآثم والمخازي. وقد آثر المسيح الضعفاء والمكروبين والمضطهدين، وخصّهم بكثير من العطف والعناية،

واظهر لهم ان اباه السماوي لا يأنف من ان يجلسهم على مائدته السماوية عندما شبهه برب البيت يأمر عبده بقوله : « اخرج الى شوارع المدينة وازقتها وآتِ بالمساكين والجدع والعميان والعرج الى هنا»(متى ٢٢/١–١٥ولو ١٤/٢٢–٢٥).وحطّم المسيح قيود البيئة وافهم الانسان ان له حقاً شخصياً يتمتع به كانسان اياً كان نوع الحكم الذي يخضع له ، وافهمه ان الشريعة وضعت له ولم يوضع هو لها فقال : « ان السبت جعل لأجل الانسان لا الانسان لأجل السبت » (مر ٢/٢٧) .

مقام الانسان رفيع في عين الله وقد استنزل ابنه من السماء ليفتديه من عبودية الخطيئة ويماشيه في طريقه الى السماء . وان ما يجعل للانسان هذا المقام السامي انما هو نفسه الخالدة التي اوجدها الله على صورته ومثاله والتي لا توازيها كنوز الارض وخيورها جمعاء . « وماذا يفيد الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه أم ماذا يعطي الانسان فداء نفسه » (متى ١٦/٢٥) . ومقام الانسان هذا يؤهّله ليكون يوماً في عداد المباركين من ورثة الملكوت الذين يتوجه اليهم الله بقوله : « تعالوا يا مباركي ابي ورثوا الملك المعدّ لكم منذ انشاء العالم » (متى ٢٥/٣٤) . وما دام الانسان مخلوقاً على صورة الله فالمسيح يرجو له الكمال على مثال الله . لهذا فهو يقول : « ان لم يزد برّكم على الكتبة والفريسيين فلن تدخلوا ملكوت السماوات (متى ٥/٢٠) . وكونوا كاملين كما ان اباكم السماوي هو كامل » (متى ٥/٤٨) .

وفي تعليم المسيح ان الانسان خاطئ ، يدفعه الى ارتكاب الخطيئة ما يشعر به من ميل اليها تركته في طبيعته معصية ابيه الأول آدم ، ويغريه بارتكابها عدوّه الالد الشيطان . لكن المسيح سلّحه بما يمكنه من الانتصار والغلبة .

ماهية الخطيئة

اما الخطيئة في مفهوم الانجيل فخروج على نواميس الله وتمرّد عليه . وهي لا تحسب على مرتكبها الاّ اذا رافقها رضى . اما مجرد الشعور بالخطيئة دون الرضى فلا يعدّ خطيئة خلافاً لما يتوهم بعض من الناس . وقد شدّد المسيح على طابع الخطيئة الداخلي حين دعا الجمع كله وقال لهم : « اسمعوا اليّ جميعكم وافهموا . لا شيء مما هو خارج عن الانسان اذا دخله يمكن ان ينجّسه ، بل ما يخرج من الانسان هو الذي ينجّس الانسان ... لأنها من الداخل ، من قلوب الناس تنبعث الافكار الرديئة : الزنى ، الفجور ، القتل ، السرقة ، الحرص ، الخبث ، الغش ، العهارة ، العين الشريرة ، التجديف ، الكبرياء ، الجهل » (مر ٧/١٤–٢٣) . وعدّد المسيح

في انجيله بعضاً من انواع الخطايا التي يتعرّض الانسان للوقوع فيها : كالغضب والحقد والشتيمة ، والحنث بالمواعيد ، والحلف بالباطل والطلاق (متى ٥/٢١–٤٤) ، وتوقّف على الرياء والخبث (متى ٢٣) والاعجاب بالنفس (متى ٦/١) والدينونة الباطلة (متى ٧/١) . وندّد بالمتكلمين بالباطل (متى ١٢/٣٦) والمتعامين عن الحق (مر ٣/٥) . وخشي على الانسان من سلطان المال والطمع بالخيور الزائلة (مر ٤/١٩) ؛ وهالته الشكوك (مر ٧) . والاتّجار في هيكل الرب (مر ١١/١٧) ، وشجب احتقار الوالدين (مر ٧/٦) والسكر والشراهة (لو ٢١/٢٤) ، وضامه ان يطمع طامع بمال الارامل والايتام وآلمه ان يرتاب المرتابون برسالته (متى ٢٣ ومر ١٢/٤٠). عدّد المسيح بعضاً من الخطايا وما استنفد النوع . وهل بعد هذه اللوحة القاتمة من سبيل الى القول مع بعض من الماجنين الشاكين : وهل هناك خطايا ؟

لكن الخطيئة تثقل كاهل مرتكبها بمسؤولية جسيمة امام نفسه وامام الله .

تبعة الخطيئة

تخرج الخطيئة الانسان عن طاعة الله ابيه ، وتجعله عدوًا له . يتوهم الانسان ان وصايا الله وشرائعه قامت حواجز في وجهه تحول دون تحقيق رغباته . فيحطّم هذه الحواجز ، ولا يبالي . يحقر واضعها ولو قيّض له لوجه الله الطعنة النجلاء وراح يهتف مع نيتشه : « مات الالهة واقفرت السماء » . وما اشدّ ضلال الانسان ، وما ابعد الوصايا عن ان تكون حواجز ، وقد ارادها الله طرقاً معبّدة تسهّل على السائر مهمّة الوصول اليه .

وتحمل الخطيئة الموت الى النفس ، فتقطع عنها ما يجري اليها من مائية يمدها بها جذع الشجرة الكبرى الذي هو المسيح . وقد اوضح ذلك حين قال : « الحق الحق اقول لكم ان كان احد يحفظ كلامي فلن يرى الموت الى الأبد » (يو ٨/٥١، و ٥/٢٤، و ١١/٢٥) . وكل غصن يقطع من الشجرة ييبس ويلقى في النار .

والخطيئة دَين يبهظ كاهل الانسان (متى ٦/١٢) ، وعبودية تقيّد عنقه : « الحق الحق اقول لكم ان كل من يعمل الخطيئة هو عبد للخطيئة » (يو ٨/٣٤) .

ومن مات وهو في حال العداوة معه ظلّ في هذه الحال طوال الأبدية . وهذا هو الهلاك .

الناس اجمع خطأة

والناس اجمع خطأة تسلسلت اليهم الخطيئة عن ابيهم الأول . لذلك علّمهم المسيح ان يقولوا مع النبيّ داود في مزموره الخمسين « هأنذا بالآثام حُبل بي وبالخطايا ولدتني امي » ، وان يرددوا كل يوم في اجمل صلاة فاهت بها شفتا بشر : « اغفر لنا ذنوبنا وخطايانا » .

وإذا كان بعض الناس قد تعاموا عن هذه الحقيقة ، فهناك غيرهم ممن صفت منهم النيات قد دعوها في واقعها المرير ، فلم يخشوا الجهر بها واقرّوا انهم خطأة . ومن هؤلاء بطرس رئيس الكنيسة الذي خرّ على قدمي يسوع بعد الصيد العجيب وابتدره ، وقد اخذه الذهول ، بقوله : « ابتعد عني يا معلم ، فاني رجل خاطئ » . ومن هؤلاء ايضاً ذاك العشّار الذي نفذ بصره الى قرارة نفسه فعرف انه خاطئ وقال : « ارحمني اللهم انا الخاطئ » (لو ١٨/١٤—٢٩) .

وقد شهد السيد المسيح على العالم بانه خاطئ اثيم ، فاستجلب بذلك عليه سخطه . لهذا نسمعه يعلن تلاميذه قوله : « لا يقدر العالم ان يبغضكم ، اما انا فيبغضني لأني اشهد عليه بأن اعماله شريرة » (يو ٧/٧ و٨/٤٠ و٣/١٨—١٩) . ولا يقصد السيد المسيح بالعالم الناس وقد احبهم حباً دفعه الى بذل نفسه دونهم ، انما هو يقصد روح العالم وما فيه من انانية وابّهة فارغة وحب ذات ينسي الانسان الله . وهذه الروح هي التي جعلته يتفجّر حمماً كاوية يقذف بها « الجيل الشرير الفاسق » ويقول وهو الوديع المتواضع القلب في ثورة غضب عارم : « يا اولاد الأفاعي ، كيف تقدرون ان تتكلموا بالصالحات ، انتم اشرار ، وانما يتكلّم الفم من فضل ما في القلب » (متى ١٢/٣٤—٣٩ ولو ١١/٢٩) .

وما فاته ان يصارح رسله بالحقيقة المؤلمة ، فلم يخدعهم لكنه افهمهم انه يرسلهم للتبشير « كالخراف بين الذئاب » (متى ١٠/١٦) ، كما صارح من اتوه يشكون اليه تلك الزانية مطالبين برجمها ، فجبههم بقوله : « من كان منكم بلا خطيئة ، فليبدأ ويرمها بحجر » (يو ٨) . ولم يجرؤ احد على رفع التحدي لأنهم كانوا جميعاً خطأة ...

الناس اجمع خطأة ويغريهم بارتكاب الخطيئة الشيطان .

الشيطان

من الناس مَن ينكرون وجود الشيطان ومنهم من يبالغون في وصف ما له من سلطان على الانسان وكلتا الفئتين في ضلال . ان الشيطان موجود ولا سبيل الى انكار وجوده ، ولكن سلطانه محدود فهو لا يقوى على الانسان واخضاعه له قسراً .

وليس الشيطان قوّة ازلية تضاد الخير ، على ما زعم اتباع الثانوية ، انما هو خليقة روحية ذات عقل نيّر ، وقدرة خارقة ، وهذا ما دفعه الى التمرّد على الله الذي اسقطه عن مقامه . وسقوطه هو ما يحدوه على استدراج الناس الى الثورة على الله ، فيُغريهم بالخروج على ارادته تعالى بارتكاب الخطايا .

ويدعو المسيح الشيطان « قتّال الناس وابا الكذب » حين صفع اليهود بقوله لهم : « لو كان الله اباكم ، لكنتم تحبوني ، لأني خرجت من الله واتيت ، ولم آت من نفسي بل هو ارسلني . انتم من ابٍ هو ابليس ، وشهوات ابيكم تبتغون ان تعملوها . هو من البدء قتّال الناس ولم يثبتً على الحق لأنه لا حقّ فيه . اذا تكلّم بالكذب فانما يتكلم بما هو له لأنه كذوب وابو الكـــذب » (يو ٨/٤٢—٤٤) . ويصف المسيح الشيطان بأنه يبذر في الناس بذار الشرّ على ما اوضح في مثل زوءان الحقل ، عندما فسّر هذا المثل لتلاميذه وقال لهم : « الذي زرع الزرع الجيّد هو ابن البشر (اي المسيح) ، والحقل هو العالم ، والزرع الجيّد هو بنو الملـــكوت ، والزوءان هو بنو الشرير ، والعدو الذي زرعه هو ابليس » (متى ١٣/٣٦—٣٩) . ويعمل ابليس على استئصال بذار الخير من قلوب الناس ، على ما اوضح المسيح في مثل الزارع حيث قال : « الزرع هو كلمة الله ، والذين على الطريق هم الذين يسمعون ثم يأتي ابليس ويذهب بالكلمة من قلوبهم لئلا يؤمنوا فيخلصوا » . (لو ٨/١٢) . وقد حذّر المسيح تلاميذه من حيل الشيطان ، فتوجه الى بطرس وصارحه بقوله : « هوذا الشيطان سأل ان يغربلكم مثل الحنطة ، لكني صلّيت من اجلك لئلا ينقص ايمانك ، وانت متى رجعت فثبّت اخوتك » (لو ٢٢/٣١) . لكن المسيح افسد على الشيطان خططه واحبط مساعيه وهذا دليل على حبّ الله للانسان .

٢ — الله

وما اكتفى السيد المسيح بأن تحدّث في انجيله عن الانسان وعمّا يقاسيه من صراع ضدّ الخطيئة والشيطان ، لكنه تحدّث عن الله وعمّا يمدّ به الانسان من قوّة لينتصر في هذا الصراع .

ما الله في تعاليم المسيح اب رحيم وسيّد قدير وحسب ، انما هو قبل كل شيء « محبة » على ما حدّد كنهه يوحنا الرسول في رسالته الأولى (٤/٨) . وقد احب الله الانسان فأوجده من العدم ، وانقذه بعد المعصية ، واشركه في حياته الالهية ، وأهـّبه لميراثه الخالد ، وتجلت محبة الله للانسان في ما قام به ليحقق له سبل الخلاص . فالله مخلّص للانسان .

المخلص

قد اطلق الشعب الاسرائيلي على الله لقب « مخلّص » بعد ان انقذه على يد موسى من عبودية المصريين ، وعرفه الصدّيقون بهذا اللقب لكونه انقذهم من ظلم مضطهديهم .

لكن لفظة « مخلّص » و « خلاص » ، تتخذ في العهد الجديد معنى جديداً . فهي ترادف لفظة « محيي » و « حياة » . والخلاص معناه الحياة الابدية . وقد اشار السيد المسيح الى ذلك عندما اجاب ذاك الشاب الغنيّ الذي سأله عمّا يجب عليه ان يعمل ليرث الحياة الابدية ، فقال له : « احفظ الوصايا » ... ثم تابع قوله : « ما اعسر على المتّكلين على الاموال ، ان يدخلوا ملكوت الله ، فازدادوا دهشاً قائلين فيما بينهم : من يستطيع اذن ان يخلص » .

والخلاص نعمة باستطاعة الانسان ان يبدأ بالحصول عليها منذ هذه الحياة . وهذا ما المح اليه السيد المسيح يوم دخل بيت زكّا العشّار فقال : « اليوم قد حصل الخلاص لهذا البيت لأنه هو ايضاً ابن ابراهيم لأن ابن البشر انما اتى ليطلب ويخلّص ما قد هلك » (لو ١٩/٩—١٠) . ويبتدئ الخلاص في هذه الدنيا بالايمان . فلا خلاص دون ايمان . ولهـــذا يجهد ابليس في انتزاع كلمة الله من قلوب الناس « لئلا يؤمنوا فيخلصوا » (لو ٨/١٢) .

وقد ارسل الله ابنه الوحيد الى العالم لكي يعاون الانسان على تحقيق أمر خلاصه . وهذا ما صرّح به السيد المسيح لنيقوديموس يوم جاءه ليلاً يستوضحه أمر رسالته ، فقال له : « هكذا احب الله العالم حتى انه بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الابدية » (يو ٣/١٦) ؛ فالمسيح اذن هو رسول الله وابنه وترجمان محبته البشر ، اتى لينقذهم من عدوّيهم : الخطيئة والشيطان . ولهذا تدعوه الكتب الطقسية : « حمل الله الحامل خطايا العالم » .

ا – الانتصار على الخطيئة

حض المسيح على التوبة

من اولى واجبات الانسان ، في تعليم المسيح ، التوبة الى الله عن المآثم . وقد استهل السيد مواعظه بالدعوة الى التوبة فقال : « توبوا فقد اقترب ملكوت الله » (متى ٤/١٧) ؛ ثم عاد فأفضى الى تلاميذه ، بعد القيامة ، بما يجب ان يعتمدوه من رسالة يجب نشرها فقال لهم : « هوذا كلامي الذي كلّمتكم به اذ كنت معكم . انه ينبغي ان يتم كل ما كتب عني في ناموس موسى وفي الأنبياء والمزامير . حينئذ فتح اذهانهم ليفهموا الكتب وقال لهم : « هكذا كتب وهكذا كان ينبغي للمسيح ان يتألم وان يقوم في اليوم الثالث من بين الاموات ، وان يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا في جميع الأمم ابتداء من اورشليم ، وانتم شهود لذلك » (لو ٢٤/٢٥–٤٩) .

واولى درجات التوبة الاقرار بالخطأ ، ثم الندم عليه واصلاح السيرة والسعي في التمرّس بالفضائل المسيحية تقرباً من الكمال . وما منع الفريسيين من دخول ملكوت الله الاّ اصرارهم على عدم الاقرار بخطإهم ، والاصرار على عدم الاقرار بالخطأ هو التجديف على الروح القدس وهو الخطيئة التي لا تغتفر ، لاعتداد الانسان ببرّه واعتقاده بأنه في غنى عن معونة الله ورحمته . وهذا الاعتقاد هو ما حدا الفريسيين على رفض معمودية يوحنا ، بيد ان المسيح ما رأى في قبولها غضاضة عليه فاختلط في صفوف الخطأة والعشّارين « ليتم كل بر » (متى ٣/١٥) .

اشفق المسيح على الخطأة

لقد خصّ المسيح المرضى ، مرضى النفوس بعطف فائق . لم يقسُ عليهم كما يقسو الناس ولم ينبذهم بكبر وانفة لكنه ادناهم منه برفق ، وضمد جراحهم بما عرف به من عطف ، ونفذ الى اعماق قلوبهم فرأى فيها ما رأى من شوق الى الخير والجمال ، وتوق الى عالم اسمى ؛ فجالسهم وقاسمهم الخبز على موائدهم رغم لوم اللائمين . فأعلن دون خشية موقفه منهم فقال : « لا يحتاج الاصحاء الى طبيب ، لكن ذوو الاسقام . فاذهبوا واعلموا ما هو اني اريد رحمة لا ذبيحة ، لأني لم آت لأدعو صدّيقين بل خطأة » (متى ٩/١٢–١٤) . وما استصعب صعباً في بلوغ غايته وهي نشر الرحمة فكان « يطوف المدن كلها والقرى يعلّم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت ويشفي كل مرض وكل ضعف » (متى ٩/٣٥) ، وتألم لمرأى الجموع تتبعه ولا راعي لها :

« ولما رأى الجموع تحنن عليهم لأنهم كانوا معذبين منطرحين مثل الخراف التي لا راعي لها » (مر ٦/٣٤) . وكثيراً ما استعمل سلطانه في مغفرة الخطايا . وما اشفق على الخطأة ليطمعهم بالبقاء على خطأهم انما رغبة منه في استدراجهم الى التوبة وهذا ما اشار اليه بولس الرسول حين قال : « ان اناة الله لتقبل بكم الى التوبة » .

غفر الخطايا

أثبت المسيح سلطانه على مغفرة الخطايا يوم شفى المخلّع (راجع الجزء الأول الفصل الثالث وجه ٦٩) . فما شفاه من مرض الجسد الاّ بعـــد ان شفاه من مرض النفس . فلم ينسَ هذه الخطيئة او يمحُها وحسبُ ، كما جاء في اشعيا النبي حيث يقول : « انا انا الماحي معاصيك لأجلي وخطاياك لا اذكرها » (٤٣/٢٥ و ٤٤/٢٢) ولم يجعلها بيضاء كالثلج على ما قال اشعيا ايضاً : « انه ولو كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج ولو كانت حمراء كصبغ الدود تصير كالصوف » (اشعيا ١/١٨) ، وثم يغيّبها في لجّة البحر كما يقول ميخا (٧/١٩) .

لكنه ذهب الى ابعد من ذلك فقد ولد الانسان ميلاداً جديداً بالماء والروح (يو ٣/٣) ، فوهبه حياة جديدة (يو ١٥/١—٩) وحوّلـــه من خاطئ اثيم الى تقي قديس . وما مثل مريم المجدلية(لو ٧/٣٦) ومتّى وزكّا العشّارين سوى أمثلة راهنة لما تقوى عليه نعمة الله ، في من لا يقابلها بالرفض .

وقد منح المسيح رسله السلطان على مغفرة الخطايا تخليداً لرحمته بالخطأة فقال لهم : « خذوا الروح القدس . من غفرتم خطاياهم تُغفر لهم ومن أمسكتم خطاياهم تمسك لهم » (يو ٢٠/٢٢) وقد تساهل مع الخطأة الضعفاء الذين يسقطون بدافع من مرض ووراثة ، لكنه تصلّب مع المتصلبين على الشر ؛ لهذا قال للفريسيين : « انا ذاهب وستطلبونني وتموتون في خطيئتكم » (يو ٨/٢١) . وحذّر المصريّن على الاثم بقوله لهم ان الزناة والفجّار سيسبقونهم الى ملكوت السماء ، يوم خاطب الكتبة والفريسين فقال : « ان العشّارين والزناة يسبقونكم الى ملكوت الله . فأنه قد جاءكم يوحنا بطريق البرّ فلم تؤمنوا به والعشّارون والزناة آمنوا به . وأنتم رأيتم ذلك ولم تندموا اخيراً لتؤمنوا به » (متى ٢١/٣١) . ليس الخاطئ في نظر المسيح من سقط في الخطيئة وندم ، انما الخاطئ من أصرّ على الخطأ واوهم نفسه بأنه بارّ . لهذا نسمعه يقول للزانية : « لا انا احكم عليك ، اذهبي ولا تعودي تخطئين » (يو ٨/١١) .

وتحدّث المسيح عن رغبة الله في عودة الخاطئ عن ضلاله في مثل هو اروع ما جاء من امثلة في الانجيل وهو مثل الابن الشاطر .

ب – الابن الشاطر[1]

ضرب السيد المسيح هذا المثل ليبيّين رفق الله بالخاطئ التائب وقد ضمّنه عالماً من الحكمة والمحبة فجاء صفحةً رائعة قد لا تجد في آداب العالم جمعاء قطعة تفوقها روعة وجمالا . وقال الكاتب الفرنسي دانيال روبس في معرض كلامه عن هذا المثل : « من يقرأه ولا يشعر بالدمع يرطب عينيه وبالشفقة تعصر قلبه ؟ » ولا عجب اذا ما تأثرنا جميعاً بهذه القصة فهي قصة كل منا ، قصة كل خاطئ يترك البيت الوالدي ويأخذ قسطه من ثروة ابيه السماوي ليبددها في الملاهي .

رسم السيد المسيح في هذا المثل مشهداً وفيه ثلاثة اشخاص : والد وولداه .

الابن الاصغر (الابن الشاطر)

ان اخص ما يتصف به هذا الفتى هو : ثورته ونكرانه الجميل واحتقاره لوالده .

ان اول كلمة وجهها الى والده هي كلمة الثورة والعصيان : « اعطني نصيبي من بيتك » . طلب مطلباً لا حقّ له به ، طلب ميراثه من والده قبل موته ولم يبال بما يسبب له هذا الطلب من الكدر والغم . وبعد ايام قلائل باع ميراثه وسافر الى بلد بعيد وفاته أنّ مـــا تركه من حب ابيه أغلى قيمة ممَّا اخذه من مالٍ فانٍ ومادة خسيسة .

سافر لأنه سئم الحياة العائلية وحسب الطاعة لوالده مذلة فاستثقل نيرها وبات يخشى عين والده مذ عششت في قلبه اسرار مخجلة هي اسرار الخطيئة . وراح يبغي الحرية بمعزل عن عيون الرقباء . وقد فاته ان اكبر ضمانة لحريته حفظ وصايا والده والعمل بمشورته .

ثار على والده وانكر جميله لأنه كفر بمحبته ، وبقسطه من محبة والده ، وهو صغير البيت ، ذلك ليس بالشيء القليل . ؟

---

١) « رجل كان له ابنان . فقال اصغرهما لابيه يا ابت اعطني النصيب الذي يخصني من المال . فقسم لكل منهما معيشته . وبعد ايام غير كثيرة جمع الابن الاصغر كل شيء له وسافر الى بلد بعيد وبذر ماله هناك عائشاً في الخلاعة الخ ... » (لو ١٥ /١١–٣٢) .

سافر الى مكان بعيد لا لتجارة او لصناعة بل ليبذر ماله في الخلاعة والتهتك طاعناً بذلك شرف ابيه الشيخ وممتهناً كرامته ...

ثار على والده وانكر جميله واحتقره لأنه فضّل معاشرة الزواني والفجّار على رفقته؛ فضّل اللذة الحرام والمنكرات على العيش الهادئ الناعم والطمأنينة والسلام في ظـل العائلة .

احتقر والده ، ولما انفق كل ماله حدثت في ذلك البلد مجاعة فأخذ في العوز . ثار على والده طلباً للغنى ؛ وإذا به فقير يجوع . ظن ان البذخ والتهتك ينيلانه الحرية والسعادة واذا به مستعبد لرجل ظالم يبخل عليه حتى بما يعلف به الخنازير ، والخنازير تـُعلـَف لتباع ، اما هو فلا خير منه يرجى . ورضي بالاستعباد ليشبع واذا به يجوع ويزاحم الخنازير على علفها . تعرف الى الشقاء بوجهه الاسود البغيض ، واول صرخة ارسلها هي صرخة حيوان عضّه الجوع بنابه الاليم : « اني اموت جوعاً ههنا ! » ورجع الى نفسه ، والرجوع الى النفس كان دوماً خشبة الخلاص . جاع فرجع الى نفسه وذكر الايام الخوالي والعيش الرغيد ، ورأى نفسه عريانـــاً فذكر ذاك الشيخ الذي طعنه في صميم كرامته واستفاق ماضيه البعيد في نفسه وشعر بوخز الضمير وبالندم . ندم على ما انزله بأبيه من ويلات وقال في نفسه « اقوم وامضي الى ابي واقول له : يا ابت قد اخطأت الى السماء وامامك ولست مستحقاً ان ادعى لك ابناً ، فاجعلني كأحد اجرائك » . قال هذا وقام وقام به الرجاء ومضى يعدو به الأمل وتحمله حلاوة الغفران . ولم يدر الشقي ان اباه كان في تلك اللحظة عينها يبحث عنه في الافق البعيد وينتظر رجوعه الى البيت بفارغ الصبر .

من منا لم يكتشف هذا الولد في قرارة نفسه ، من منا لم يعلن الثورة على الله لما طلب منه نصيبه من العافية والصحة ، والمقومات والمذاهب وذهب فبدّدها في اهانة الله وتحقيره ؟ من منا لم ينكر جميل الله ويغمطه نعمته ويبخسه حقه ؟ ..

رجع الابن الشاطر الى نفسه عندما احس بالفاقة والجوع . ونحن أفترانا نرجع الى الله وقد احسسنا بالجوع الى السلام العائلي ، الى راحة البال واطمئنان الضمير ؟ . ان الله يبحث عنا أفترانا نبحث عنه ؟ .. هو يبحث عنا وان رأى احدنا في البعيد اسرع اليه والقى بنفسه على عنقه وقبّله ...

الوالد

ان اخصّ ما يتصف به هذا الوالد المحبة والمحبة فقط . طلب منه ابنه نصيباً من المال لا حقّ له به ، فاعطاه نصيبه صامتاً غير حاقد . ثار عليه فلم يسأل عن سبب ثورته ، ولم يمانع في اعطائه ما طلب ، وما قيمة المال لديه ما دام قد فقد ابنه . باع ابنه ارضاً كانت قد اصبحت قطعة من حياته ، فحزّ الألم في صدره واخفى الألم وما شكا . سافر ابنه الى البعيد فرآه يسافر والدمعة ترتجف بين جفنيه ، والغصة تخنق حلقه ، وتركه ، ولم يحاول ارجاعه لأنه لا يريد ان يحدّ من حريّة ابنه . سافر فرآه يتوارى وراء عطفة الطريق فأتبعه ناظريه ورافقه حنانه وبكى لكنّه اخفى بكاءه طيّ صدره . سافر لكنه ما برح يذكي في البيت شعلة الحنان الوالدي لعلّه يجذب يوماً فتاه العقوق عن بعد بعيد ببريق حنانه . وذات يوم بينما كان الفتى عائدًا على طريق البيت متسحباً تحت نير شقائه واذا بالوالد الشيخ يوسع الخطى لملاقاة ولده . « ولما رآه في البعيد تحنن عليه واسرع والقى بنفسه على عنقه وقبّله» . وبدلاً من ان يأمر الخدم بطرد هذا الولد الناكر الجميل ، تحنن عليه ؛ وبدلاً من ان يتخفى في غرفته هرباً منه ليذيقه ذلّ الانتظار ، اسرع اليه ؛ وبدلاً من ان يقف مكانه ريثما يصل اليه ويرتمي على قدميه مستغفرًا ، القى بنفسه على عنقه ؛ وبدلاً من ان ينهال عليه توبيخاً وتأنيباً ، قبّله طويلاً . فلا فاقة الابن واطماره ولا نكرانه الجميل ولا امتهانه شرف الابوّة منعت الوالد عن تفجير ينابيع حنانه : « القى بنفسه على عنقه وقبله » . هو الحنان يعانق البؤس والشقاء ، هو الغنى يحدب على الفاقة ، هو الرفق يحنو على الهوان ، هو الغفران يحلّ عقال الإثم ويحرر الاثيم ويعلي شأنه ومقامه ...

ثم تمتم الابن ما بين قبلات الاب قائلاً : « يا ابت قد خطئت الى السماء وامامك ولست مستحقاً بعد ان أدعى لك ابناً فأجعلني كأحد اجرائك » . فقطع عليه ابوه الكلام وقال لعبيده : « هاتوا الحلّة الاولى وألبسوه واجعلوا في يده خاتماً وفي رجليه حذاء ، وأتوا بالعجل المسمّن واذبحوه فنأكل ونفرح لأن ابني هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوجد . فطفقوا يفرحون » .

هذا الوالد عرفناه ، هو الله عزّ وجلّ . هو يبحث عنا اذا ما نحن تركناه . هو الله يبحث عن الخاطئ ويود لو يراه في البعيد « ليُسرع اليه ويلقي بنفسه على عنقه ويقبّله » . فمهما اوغل الانسان في الإثم فلا ييأسنّ لأن الله يغفر له لا بل هو نفسه يبحث عنه . هو يتساهل لأنه محبة والمحبة اقوى من البغضاء والانتقام ، اقوى من

الموت . لكننا اذا اصررنا على العناد والبقاء في الخطيئة نكون قد ادّخرنا لنفوسنا غضباً ليوم الغضب .

الولد الاكبر

اما الولد الاكبر فيتصف بالكبرياء والانانية وتحجر القلب . لا يهمه في دنياه الاّ مصلحته . طاعته لابيه كانت طاعت عبد لسيد واجير لمخدومه . غضب لرأفة ابيه باخيه الضال التائب لأنه لا يفهم معنى الرحمة . فريسيّ يتكل على صلاحه وبرارته الخارجية المتخذة من حفظ الطقوس لا على رحمة الله . لم يدخل البيت ليشاطر اباه الافراح فيطبع على يده قبلة التهنئة وعلى خد اخيه قبلة البهجة بلقياه ... غضب وبدأ يمتنّ على ابيه بما ادّاه له من خدمات قائلاً : « كم لي من السنين اخدمك ولم اتعدّ وصيتك قط وانت لم تعطني جدياً لأتنعَّم مع اصدقائي . ولما جاء ابنك هذا الذي أكل معيشتك مع الزواني ذبحت له العجل المسمّن » . اما ابوه فأجابه بلطف وعذوبة وكان جواباً تأنيبياً لو يدري : « يا ابني انت معي في كل حين . وكل ما هو لي فهو لك . ولكن ينبغي ان نتنعّم ونفرح لأن اخاك هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوجد ».

كلّ منا يحمل في شقوق ذاته فريسياً شبيهاً بهذا الولد الاكبر ، يقسو على اخيه عندما تزلّ قدمه ويسقط في المعثرة . نحن نقسو ونحكم مسبقاً على الآخرين حكماً صارماً ونود ان تقتص منهم العدالة بينما الله يرحم ويشفق ويظهر لنا ان العدالة دون المحبة والشفقة تمسي ظلماً . ولئن كان الاقتداء بالولد الاصغر امرًا سيئاً ، فاسوأ منه الاقتداء بالولد الاكبر . ذاك ضلّ الطريق ثم اهتدى . اما هذا فضلّ وعمه في ضلاله .

الراعي الصالح

اظهر السيد المسيح في مثل الابن الشاطر ان الله ينتظر بفارغ الصبر عود الخاطئ ولكنه كثيرًا ما تحدث عن ذهابه للبحث عنه . وقد اورد مثل الراعي الصالح ليظهر هذه الحقيقة . ذاك الراعي الذي اذا ما فقَدَ نعجة واحدة ، ترك قطيعاً فيه تسع وتسعون نعجة ، ليذهب فيعيد النعجة الشرود الى الحظيرة .

« وخاطبهم بهذا المثل قائلاً اي رجل منكم اذا كان له مئة خروف فأضاع واحدًا منها لا يترك التسعة والتسعين في البرية ويمضي في طلب الضال حتى يجده ، فاذا وجده يحمله على منكبيه فرحاً ويأتي الى البيت ويدعو الاصدقاء والجيران ويقول لهم : افرحوا معي فاني وجدت خروفي الضال . اقول لكم انه هكذا يكون في السماء فرح

بخاطئ واحد يتوب اكثر مما يكون بتسعة وتسعين صدّيقاً لا يحتاجون الى توبة » (لو ١٥/٣—٨) .

ج – الانتصار على الشيطان[١]

وما خشي المسيح الشيطان يوم جرّبه ثلاثاً في البرية (متى ٤/١—١١) (راجع الجزء الاول ف . ١ صفحة ٤٨) وطرده اكثر من مرّة ممّن بسط سلطانه عليهم من الناس . وقد توقف الانجيليون على وصف بعض من هذه المشاهد وصفاً ممتعاً منها مشهد شفاء مجنون الجراسيين :

« وقد كان ، كما يقول القديس لوقا ، مجنون يأوي الى المقابر ويهشّم جسده بالحجارة ويقطع السلاسل » (لو ٨) . وكان يلقي الذعر في قلوب سكان البقعة . وكانت جوقة من الشياطين مسيطرة عليه وساكنة فيه . فلما احضروه امام يسوع خاف الشياطين وطلبوا اليه ان يأذن لهم بان يدخلوا في قطيع الخنازير ، فأذن لهم فدخلوا ، فوثب القطيع عن الجرف وارتمى في البحيرة واختنق .

واثبت المسيح ان سلطان الشيطان لا يثبت امام سلطانه الالهي عندما شفى مريضاً في كفرناحوم .

ودخل يسوع المجمع في (كفرناحوم) في السبت وكان يعلمهم ... وكان في مجمعهم رجل فيه روح نجس . فصاح قائلاً : ما لنا ولك يا يسوع الناصري . اتيت لتهلكنا . قد عرفتك من انت . انت قدوس الله . فانتهره يسوع قائلاً : اخرس واخرج من الرجل . فخبطه الروح النجس وصاح بصوت عظيم وخرج منه فدهش جميعهم وجعلوا يتساءلون قائلين : ما هذا الامر وما هذا التعليم الجديد . فانه يأمر الأرواح النجسة فتطيعه ... ولما كان المساء عند غروب الشمس احضروا اليه كل من كان به سوء وجميع الذين بهم شياطين . وكانت المدينة كلها مجتمعة على الباب . فأبرأ كثيرين من المعذبين بامراض مختلفة واخرج شياطين كثيرين ولم يدعهم يتكلمون لأنهم عرفوه » (مر ١/٢١—٣٥) .

---

١) زعم بعض النقاد ان شفاء السيد المسيح للمجانين انما هو في الحقيقة شفاء من مرض عصبي وان الامراض العصبية كانت مجهولة في ذاك العهد ، فكان الناس يعزونها الى الشيطان . غير ان هذا القول لا تدعمه حجة . ويبقى ان الشياطين كانت — وهي تخرج مكرهة من المرضى — تعترف بسلطان المسيح عليها وتسترحمه لئلا يطردها بعنف (لو ٨/٣١ ؛ مر ١/٢١—٣٥) .

اما الفريسيون وقد اعمتهم كبرياؤهم ، فقد نسبوا هذه العجائب التي صنعها السيد المسيح الى رئيس الشياطين ؛ الاّ ان السيد المسيح ابكمهم بقوله لهم : « كل مملكة تنقسم على نفسها تخرب وكل بيت ينقسم على ذاته يسقط . فان انقسم الشيطان على نفسه فكيف تثبت مملكته ، لأنكم تقولون اني ببعل زبوب اخرج الشياطين . وان كنت انا ببعل زبوب اخرج الشياطين فابناؤكم بمن يخرجونهم ؟ فمن اجل هذا هم يحكمون عليكم . وان كنت انا باصبع الله اخرج الشياطين فقد اقترب منكم ملكوت الله » (لو ١١/١٥–٢١) .

وما استأثر السيد المسيح بهذا السلطان على الشيطان لكنه خوّله تلاميذه وقد مارسه هؤلاء . وعادوا ذات يوم فرحين واخبروه كيف ان الارواح النجسة كانت تخضع لهم باسمه . فاجابهم وقال : « اني رأيت الشيطان ساقطاً من السماء كالبرق » (لو ١٠/١٨) .

وهكذا راح ظلّ ابليس يتقلص شيئاً فشيئاً عن العالم امام اندفاق النعمة الالهية التي فجّرها يسوع المسيح على الناس بصلبه واجراها اليهم باقنية الاسرار التي زوّد بها الكنيسة .

الفصل الثالث

الكنيسة

١ – الكنيسة اسرائيل الجديد

٢ – الكنيسة مملكة الله الروحية

٣ – الكنيسة جسد المسيح السري

– السلطة في الكنيسة
– نشأتها
– رئاسة بطرس
– خليفة بطرس : البابا
– انواع السلطة في الكنيسة
– اخطاؤها
– سلطان التشريع
– سلطان التشريع وحرية الفكر

٤ – الكنيسة سر المسيح

– علامات الكنيسة الحقة

٥ – الكنيسة حواء الجديدة

٦ – الاسرار

– سر المعمودية
– سر التثبيت
– سر القربان الاقدس
– سر التوبة
– سر مسحة المرضى
– سر الزواج
– سر الكهنوت

بعد ان نشر السيد المسيح تعاليمه في حياته ؛ كان لا بد له ان يضمن لها الذيوع بعد عودته الى ابيه السماوي ، فأنشأ لهذه الغاية كنيسته المقدسة ووكل اليها أمر مواصلة رسالته ، وارادها مؤسسة روحية تحيا بحياته ، وزمنية تخضع للواقع التاريخي. فالكنيسة اذن هي :

١ً – اسرائيل الروحي الجديد لأنها اتمّت عهد الله القديم مع شعبه الخاص .

٢ً – مملكة الله الروحية على الأرض لأنها المرحلة الاولى من مراحل الطريق المؤدية الى ملكوت السماء .

٣ً – جسد المسيح السرّي لانها العلامة الحسّية لاتحاد المسيح باعضائه ، وقد خوّلها من السلطات ما يتيح لها تحقيق غايتها .

٤ً – سرّ المسيح لانها تمثله بين الناس وتدبرهم باسمه وتوزع عليهم نعمه .

٥ً – حواء الجديدة لانها تلد البشر لحياة روحية جديدة .

وقد حددها الآباء ومن بعدهم المجمع الفاتيكاني الثاني بقولهم : الكنيسة هي شعب الله المختار المكون من اعضاء تجمعهم بالمسيح رأس الكنيسة الاوحد صلات العماد والايمان وتجعل منهم جماعة منظورة يرعاها الحبر الاعظم اسقف روما خليفة القديس بطرس والجماعية الاسقفية خلفاء الرسل ، المتحدون به اتحاداً وثيقاً والخاضعون له كرئيسهم الاعلى . وهذه الجماعة ، اي الكنيسة ، تدعى ايضاً جسد المسيح السري لما بين الرأس والأعضاء من صلات عميقة ، صلات حياة وعمل صلات تفكير وقداسة.

– هي شعب الله الذي تم تكوينه في مراحل عديدة ، باختيار ابراهيم في العهد القديم ثم بتجسد ابن الله يسوع المسيح ، ثم بحلول الروح القدس على الكنيسة يوم العنصرة ، وينتهي في اورشليم السماوية كما جاء في سفر رؤيا يوحنا (٢١) .

١ – الكنيسة اسرائيل الجديد

تحتل الكنيسة في تصميم الله على خلاص البشر المحلّ الاول ؛ لان الله ما كان ليرى البشر الا في ابنه الوحيد يسوع المسيح الذي تأنس ليفتدي الناس ويجمعهم في شخصه ويجعلهم وحدة روحية تامّة . وقد حقق هذه الوحدة في الكنيسة التي هي

« سرّ مشيئة الله » ، على ما يقول بولس الرسول : « مبارك الله ابو ربنا يسوع المسيح الذي غمرنا من علياء سمائه بكل بركة روحية في المسيح اذ فيه قد اختارنا عن محبة من قبل انشاء العالم ، لنكون قديسين وبغير عيب امامه . وسبق فحدّد على حسب مرضاته ان نكون له ابناء بيسوع المسيح لتمجيد نعمته السنيّة التي انعم بها علينا في الحبيب ، وفيه لنا الفداء بدمه ومغفرة الزلاّت على حسب غنى نعمته التي افاضها علينا بملء الحكمة والفطنة باعلانه لنا على حسب مرضاته ، سرّ مشيئته ، الذي سبق فقصده في نفسه ليحققه عند تمام الازمنة ، اي ان يجمع تحت رأس واحد في المسيح كل شيء ما في السماوات وما على الارض » (افسس ١ /٣–١٠) . فالمسيح اذن هو حجر الزاوية من بناء الكنيسة وهو رأس الجسد (كولسي ١ /١٥) ، لأنه « بكر كل خلق » .

لذلك يمكننا ان نقول ان الله كان يفكّر في تأسيس كنيسته منذ الازل، لأنه منذ الأزل يفكّر في ابنه الذي تجسّد ، يسوع المسيح . وقد فكّر في الكنيسة يوم اختار ابراهيم وقطع معه عهداً بأن يجعله امة مقدسة وشعباً مختاراً ، بعد ان وعده بابن يولد له في شيخوخته وهو اسحق الذي ولد يعقوب المسمّى اسرائيل وذرّيته (تك ١٢ /٢ و١٣ /١٤) . وقد وعد الله ابراهيم ونسله بارض كنعان (تثنية الاشتراع ١ /٨ ملوك ١ : ٨ /٣١) ، وجعل الختان علامة لذاك العهد (تك ١٧ /٦) . وهكذا اصبح ابراهيم شعباً هو الشعب الاسرائيلي .

وجدّد الله عهده مع اسرائيل مرة اولى على يد موسى يوم تعهّد باتخاذه اسرائيل شعباً له خاصاً يحامي عنه ويسكن فيه (احبار ٢٦ /١٢) ، ويجعله مملكة له على ما جاء في سفر الخروج : « وانتم تكونون لي مملكة احبار وشعباً مقدساً » (١٩ /٦) ؛ وتعهّد شعب اسرائيل مقابل ذلك بحفظ رسوم الله ونواميسه .

وجدّد الله عهده ثانية على يد داود ملك اسرائيل ، حين وعده بان يقيم لنسله عرشاً ابدياً (ملوك ٢ ٧ /١٢) . لكن هذا العهد الذي قطعه الله لابراهيم ونسله ما كان ليبقى مقصوراً على اسرائيل في إطاره الضيق من المكان والزمان ، انما كان مُعدّاً لاسرائيل روحي يضم الناس اجمع . وهذا ما نادى به الانبياء اشعيا وعاموس وارميا ، فاستجلبوا عليهم نقمة الشعب الذي لم يفهم نيات الله الاّ بعد ان محّصته التجربة في سبي بابل . فعرف حينذاك الشعب الاسرائيلي ان الله لم يقصهم عن ارض الميعاد الا لأنهم تمادوا في الغطرسة والاستعلاء على غيرهم من الناس ، وفهموا ان في

مقدور الله ان يستغني عنهم وان يستبدل بهم شعباً آخر ، فاقلعوا عن التطرف الذميم في الوطنية المزيفة وفتحوا حدودهم في وجه من جاورهم من الشعوب ليؤلفوا معهم اسرائيل روحياً جديداً ، يرث مواعيد ابراهيم .

وقد بشّر زكرياّ النبي بهذا العهد الجديد الذي ينتقل فيه الارث من اسرائيل الزمني الى اسرائيل الروحي ، وما هذا العهد الا عهد المسيح ، بدأ بالدعوة الى «ملكوت الله» حين قال : « توبوا فقد اقترب منكم ملكوت الله » (لو ٤ / ٢١) . وحذا حذوه رسله لا سيّما بطرس يوم عيد العنصرة حين ردّد عبارة يوئيل النبي حيث يقول : «وسيكون في الايام الاخيرة ، يقول الله ، اني افيض من روحي على كل بشر فيتنبأ بنوكم وبناتكم ... » (اعمال ٢ / ١٦) .

واذا كان السيد المسيح قد اختار اثني عشر رسولاً ليعاونوه في تأسيس الكنيسة فانما فعل ذلك اشارة الى اسباط اسرائيل الاثني عشر ليكون اولئك كهؤلاء آباء روحيين لشعب الله . لهذا قال مخاطباً تلاميذه : « انتم الذين تبعتموني في عهد التجديد ، متى جلس ابن البشر على عرش مجده ، تجلسون انتم ايضاً على اثني عشر كرسياً لتدينوا اسباط اسرائيل الاثني عشر» (متى ١٩ / ٢٨) . وقد صدّق السيد المسيح هذا العهد الجديد بدمه المسفوح على الصليب . وقد اشار الى هذه الحقيقة يوم رسم سرّ القربان المقدس فقال : « اشربوا (من هذه الكأس) كلكم . فان هذا هو دمي العهد الجديد الذي يهراق عن كثيرين لمغفرة الخطايا » (متى ٢٦ / ٢٧) ؛ وهكذا تبدّل العهد القديم فأصبح عهداً جديداً روحياً : كان الوارث ابراهيم فاصبح السيد المسيح المتحدّر من سلالة ابراهيم بامه العذراء والذي هو ابن الله ورأس الكنيسة شعب الله المختار . وكان الميراث ارض الميعاد ، فأصبح الحياة الالهية التي هي المسيح عينه والتي تؤهلنا الى « ملكوت الله » (عبر ٩ / ١٥) ، الميراث الذي لا يفسد ولا يتدنس ولا يذوي (بطرس ١ : ١ / ٤) ، ميراث الملكوت (افسس ٥ / ٥) ، ميراث الحياة الابدية (تيطس ٣ / ٧) ، مدينة الله اي اورشليم السماوية (عبر ١٢ / ٢٢) ، موطن القديسين (افسس ٢ / ١٩) . وقد اشار دانيال الى هذه الحقائق حيث قال : « ويأتي على السحب كابن البشر » (٧ / ١٣) ملمعاً الى المسيح ، و « يعطي الملك والسلطان وعظمة الملك تحت السماء باسرها لشعب قدّيسي العلي وسيكون ملكه أبدياً » (دانيال ٧ / ٢٧) . وهكذا اصبح الرمز واقعاً تاريخياً[١] .

---

١) قد اثبت « كتاب الاسرار » المنشور في مجموعة التعليم المسيحي « ابناء النور » وجه ٣٦ ، جدولاً

٢ – الكنيسة مملكة الله الروحية

لقد بدأ السيد المسيح رسالته بان اعلن على الناس اقتراب ملكوت الله منهم ، فكان يردد على مسامع الجماهير قوله : « لقد تم الزمان واقترب ملكوت الله ، فتوبوا وآمنوا بالانجيل » (مر ١٥/١) . وعندما حاولت الجموع اقناعه بالبقاء في ما بينهم اعتذر بقوله : « لا بد لي من ان أبشّر المدن الاخرى ايضاً بملكوت الله لأني لهذا قد ارسلت » (لو ٤٣/٤) . وقد أمر تلاميذه بالنسج على منواله ؛ فاوعز اليهم في أن يعلنوا على الناس هذه الحقيقة التي كان يبشّر بها (لو ٩/١٠) . وطلب الى المؤمنين بتعاليمه ان يسألوا الله في الصلاة الربية مجيء ملكوته فعلـّمهم ان يقولوا «ليأت ملكوتك» (متى ١٠/٦) . وكثيراً ما توقّف في امثاله على توضيح صفات ملكوت الله . وقد اورد القديس متى في الفصل الثالث عشر من انجيله خمسة امثلة تحدّث فيها عن حقيقة ملكوت الله ليقرّبه من الافهام . فأورد اولاً مثل الزارع وقد اوضح فيه ان قبول ملكوت الله موقوف على السخاء والجهاد والثبات على طاعة الله ؛ ثم اورد ثانياً مثل حبة الخردل وقد اظهر فيه ان ملكوت الله انما ينمو نمواً بطيئاً في سكينة وهدوء ، في اعماق النفوس بلا ابهة ولا فخفخة ؛ ثم اتبع ثالثاً مثل الخميرة في العجين فأفهم قارئيه

يقارن بين نشأة الشعب الاسرائيلي وتطوره وبين نشأة الكنيسة اسرائيل الجديد وتطورها واليك اهم مراحل هذا التطور :

العهد القديم	العهد الجديد
اسرائيل شعب الله المختار	الكنيسة اسرائيل الجديد
١ – دعوة ابراهيم الذي ترك بلاده مغامراً في سبيل الخلاص .	١ – دعوة ابن الله منذ الازل الى ترك السماء والتأنس في سبيل خلاص البشر .
٢ – انقاذ الاسرائيليين بدم الحمل تلطخ به اعتاب الابواب .	٢ – انقاذ البشر بدم الحمل الالهي : المسيح يسقط على النفوس .
٣ – الفصح الاول : خلاص اسرائيل من عبودية المصريين على يد موسى .	٣ – الفصح المسيحي : خلاص البشر من عبودية الخطيئة والشيطان .
٤ – سيناء ولوحا الوصايا .	٤ – حلول الروح القدس وترسيخ شريعة المحبة في القلوب : العنصرة الحقيقية .
٥ – نشأة شعب اسرائيل .	٥ – نشأة الكنيسة .
٦ – نمو اسرائيل بالتناسل .	٦ – نمو الكنيسة بالولادة الروحية في المعمودية .
٧ – تقديس اسرائيل بالصلاة وممارسة الطقوس وحفظ الوصايا .	٧ – تقديس اعضاء الكنيسة بممارسة الاسرار التي تجري اليهم النعمة الالهية .

ان فعل ملكوت الله في النفوس وفي الجماهير فعل الخميرة في العجين فيه من الزخم ما يغيّر وجه الارض ؛ واردف مثل الشبكة وقد ألمع فيه الى ان الشر لن يستأصل من الارض قبل اليوم الاخير ، فسيخالط الاشرار الابرار في ملكوت الله على الارض الى ان يحين يوم الحساب . وانهى الفصل بمثل الكنز والجوهرة الثمينة فاكد فيه ان الارض وما فيها من كنوز لا توازي قيمتها قيمة ملكوت الله .

وقد عاد القديس متى عينه الى التحدث عن هذه الحقيقة في الفصل الحادي والعشرين فأورد مثل الكرّامين المجرمين ليرسّخ في الاذهان ان الله بامكانه ان يستبدل آخرين من الناس بمن اتخذهم شعباً خاصاً اذا هم اساؤوا التصرّف ولم يحسنوا الصنيع. واخيراً اورد مثل المدعوين الى العرس في الفصل الثاني والعشرين تدليلاً على وجوب تلبية دعوة الله دون ان نتعثّر بهموم الارض ، لأن دعوة الله لا تحتمل التسويف والمماطلة .

تحدث المسيح عن ملكوت الله ولكننا حتى الآن لم نكوّن لنا فكرة واضحة عن هذه الحقيقة . فما هي اذن ؟

لقد عنى المسيح بملكوت الله اولا حالة البرارة التي تمكّن البشر من التمتّع بنعيم الله الابدي منذ هذه الدنيا . وهذه الحالة هي حالة النعمة. وهذا ما اوضحه السيد المسيح للفريسيّين عندما قال : « ان ملكوت الله يأتي بدون ترقب ، ولا يقال انه هنا او هناك لأن ملكوت الله في داخلكم » (لو ١٧ / ٢٠) .

وعنى كذلك بملكوت الله الكنيسة المقدسة التي هي مملكته والتي يعيش في ظلها شعبه المختار اسرائيل الجديد .. والكنيسة هي التي تؤهّب البشر لدخول السماء باعطائهم النعمة الالهية عربون النعيم . لذلك نستطيع ان نقول ، ونحن على يقين مما نقول ، ان نعيم المؤمن يبدأ في هذه الدنيا باقتباله النعمة في الكنيسة بواسطة الاسرار ، ويتكامل في السماء . ان نعيم المؤمن الحاصل على النعمة الالهية يكمن في نفسه كمون السنديانة في البلوطة والزهرة الفواحة في البذرة الحقيرة . ولا فاصل بين نعيم المسيحي على الارض ونعيمه في السماء . فنعيمه حقيقة واحدة ستتفتح عليها العيون في وهجها في العالم الآتي. ولهذا نؤكد ان الكنيسة تضمّ في احضانها من هم على الارض ومن في المطهر وفي السماء . نحن الكنيسة المجاهدة وهم الكنيسة المتألمة والظافرة . ونؤلف جميعاً ملكوت الله ، الذي ندخله بالعماد المقدس . وما علينا الا ان نفيد من خيرات الكنيسة لنتأهب لدخول السماء . وقد اشار الى ذلك الاب دي مونشوي اليسوعي في كتابه « وجه الكنيسة »

في صفحة ٣ حيث قال : « ان خيرات الله لأشبه بجهاز العروس يهديه اليها عريسها . لقد حمل المسيح ذاك الجهاز من لدن ابيه السماوي واهداه الى الكنيسة عروسه . ولا يستفيد الانسان من تلك الخيرات السماوية الا على قدر تفهمه الكنيسة وانتظامه فيها » . وهذا يدلّ على ان الكنيسة ليست وسيلة وحسب لبلوغ الهدف انمـا هي الهدف لكونها تملّكنا على الارض ما سيكون لنا نعيماً ابدياً في السماء وهي النعمة الالهية .

فليس ملكوت الله اذن حزباً سياسياً ومؤسسة اجتماعية انما هو حالة نفسية، حالة برارة ؛ تقوم على نبذ الانانية وعلى الاعتصام بطاعة الله ونواميسه وعلى العودة الى البساطة او الطفولة المسيحية وما في الطفولة من صفاء نيات ونقاء سرائر . وهذا ما المع اليه السيد المسيح عندما قال : « ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الاطفال فلن تدخلوا ملكوت السماوات » (متى ١٨/١—١٠) . وبكلمة واحدة ان ملكوت الله يقوم على ممارسة المحبة بالفعل والعمل لا بالقول فقط على ما قال السيد المسيح : « ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات بل من يعمل مشيئة ابي الذي في السماوات» (متى ٧/ ٢١) .

وملكوت الله جامع شامل يضمّ في جسد واحد جسد المسيح السرّي جميع ابناء الله المشتّتين (يو ١١/ ٥٢) ، من ذوي الارادة الصالحة (متى ٢١/ ٤٣) ، على اختلاف النزعات والشعوب والاجناس واللغات : « فليس بعد يهودي ولا يوناني ، ليس عبدٌ ولا حرٌّ ، ليس ذكر ولا انثى ، لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع » (غلاطية ٣/ ٢٨) .

٣ – الكنيسة جسد المسيح السري

يؤلّف المسيح مع النفوس المفتداة بدمه ، والمولودة في العماد ، وحدة تامة حقيقية ولو سرّية . وهذه الوحدة السرّية تسمى « جسد المسيح السرّي » تمييزاً له عن جسده البشري المتّخذ من العذراء مريم . وقد تحدّث السيد المسيح عن هذه الوحدة يوم شبّه نفسه بالكرمة والمؤمنين به بالاغصان : « انا الكرمة وانتم الاغصان » (يو ١٥)، ويوم شبّه وجوده في النفوس بوجود الخميرة في العجين فيه ما فيها من عناصر الاصلاح والتوحيد . امّا بولس الرسول فقد شبّه جسد المسيح السرّي بجسد الانسان ، فعبّر عن هذه الحقيقة بقوله : « كما ان الجسد واحد ، وله اعضاء كثيرة ، وان جميع اعضاء الجسد ، مع كونها كثيرة ، هي جسد واحد كذلك المسيح ايضاً . فإنا

جميعاً قد اعتمدنا بروح واحد لجسد واحد ، يهوداً كنا ام يونانيين ، عبيداً ام احراراً ، وسُقينا جميعاً من روح واحد » (كور ١ : ١٢/١٢) . ولربما اهتدى بولس الرسول الى هذا التشبيه من قول المسيح يوم ظهر له على طريق دمشق وابتدره بقوله : « شاول ، شاول لماذا تضطهدني ؛ فاجابه شاول من انت يا رب ؟ قال له انا المسيح الذي تضطهده » (اعمال ٩) ؛ وكان شاول يذهب الى دمشق للتنكيل بالمسيحيين الذين يؤلّفون مع المسيح جسداً واحداً .

المسيحيون والمسيح جسد واحد سرّي ؛ وهذا يعني ان بينهم وبين المسيح من جهة وبين بعضهم البعض من جهة ثانية وحدة لا تنفصم اجزاؤها . فالمسيح ابن الله الذي تأنس وولد ومات على الصليب وقام من بين الاموات وارسل روحه القدوس ليحلّ نعمته على المؤمنين به ، هو عينه ما يزال يقيم في نفوس من يقبلون العماد ، ويحيا فيهم بحيث يؤلّف معهم جسداً واحداً هو الكنيسة . فالكنيسة اذن ليست سوى امتداد لتجسد المسيح الذي يتجدد في كلٍ من المؤمنين ، ولن يزال في تجدد مستمر حتى يشمل شعوب الارض جمعاء .

وهذه الحقيقة هي التي دفعت الخطيب الكنسي الفرنسي الشهير بوسويت الى تحديد الكنيسة بقوله : « ان الكنيسة هي يسوع المسيح المنتشر في الكون » . وكل ما اوردناه من اقوال ليست سوى تعليق على اقوال بولس الرسول المتكرّرة في رسائله الى أهل كورنتس وغلاطية وأفسس (غلاطية ٧/٣ ؛ وافسس ١٣/٢) . وكل هذه الاقوال تدور حول فكرة وحدة المؤمنين بالمسيح . ولهذا يمكننا ان نؤكد ان الكنيسة تحيا بحياة المسيح التي هي حياة الله ، وان المؤمنين يشاطرون المسيح معرفته لأبيه ومحبته له ولروحه القدوس وللبشر .

وينجم عن هذه الوحدة بين المسيح والمؤمنين به وحدة تقوم فيما بينهم ، مردّها لا الى الاشتراك في الطبيعة البشرية والمعتقد المسيحي ، بل الى الحياة الالهية التي أُعطوها بفضل اتحادهم بالمسيح رأسهم . وهذا ما يعرف « بشركة القديسين » ، التي ينتشر اعضاؤها على الارض وهم الكنيسة المجاهدة ، وفي المطهر وهم الكنيسة المتألمة ، وفي السماء وهم الكنيسة الظافرة . وهذه الكنائس الثلاث ليست سوى كنيسة واحدة وثّق المسيح بين اعضائها . وشركة القديسين هذه تشمل حتى الخطأة وتمدّهم من النعم بما يسعفهم على النهوض من كبوتهم ؛ وتضمّ حتى غير المؤمنين فتمدّهم بالانوار العلوية ليقبلوا الى المسيح ينبوع الخلاص الابدي . ويقبلوا سرّ العماد الذي يجعل منهم اعضاء

لكنيسة المسيح. وينشأ بين المسيحيين، عن انتسابهم الى الكنيسة جسد المسيح السرّي، روابط روحية وثقى شبيهة بتلك التي تنشأ عن القربى الدموية بين أفراد العائلة الواحدة. فالمسيحيون اسرة واحدة كبرى يفيد فيها الجميع مما يفيد منه الفرد ويتأذّى الجميع ممّا يتأذّى منه الفرد. الاّ ان لكل عضو من اعضاء هذه الاسرة الكبرى دوراً خصّه الله به عليه ان يحسن تمثيله، فان فعل استرضى الله واستدرّ نعمه وبركاته على اخوانه البشر واستحق لنفسه حسن الثواب. ولهذا قيل عن صواب: «ما ارتفعت نفس الى الله الاّ رفعت العالم معها». وهذا ما يفهمنا ما للقديسين من اياد بيضاء على اخوانهم البشر. فهم لم يتركوا لهم مثلاً يحتذى وحسب، لكنهم ما يزالون يمدّونهم بما ينالونه بفضل صلواتهم وتقشفاتهم من نعم تمكّنهم من الثبات حتى الظفر في المعركة التي يخوضونها ضد الخطيئة والشيطان. هذا فضلاً عمّا يجرونه من عجائب في جانب الناس تدليلاً على رضى، او تخفيفاً من ألم، او حملاً على تبديل مسلك وتقويم اعوجاج. وفي هذا خير مبرّر لما يجب ان يقدّم للقديسين من اكرام.

ولكن هناك من يقولون: أما كان باستطاعة المسيح ان يكوّن جسده السرّي دون اللجوء الى الكنيسة؟ نعم كان بمقدور السيد المسيح ان يلجأ الى وسائل روحية محضة ليجمع البشر حوله في جسده السرّي، لكنه أبى الا ان يتّخذ وسائل حسّية يجعل منها روابط توثق ما بينه وبين الناس وهذه الوسائل الحسية هي الاسرار. وقد عهد في توزيعها الى الكنيسة. فالكنيسة تلد المؤمنين بالعماد فتوحّد بينهم وبين المسيح. وتغذوهم بالقربان المقدس، فتوثّق عرى هذا الاتحاد. فللأسرار في الكنيسة اذن اهمية كبرى. فهي تجعل المؤمن عضواً في جسد المسيح السري، وفي سبيل تعميم الاسرار تؤسس الرسالات للتبشير، ولاجل توزيعها يخوّل الرعاة السلطان على النفوس[1].

اما دور المسيح فيبقى الدور الأهم، ويليه دور الروح القدس، امّا المسيح فهو رأس الجسد يسيّره بايحاءاته والهاماته، ويبعث في اعضائه النشاط والحيوية ويؤلف بينهم على اختلاف الاجناس والاطباع، ويمدّهم بالحياة الالهية بواسطة الاسرار التي رسمها لهذه الغاية.

---

١) ان من يعيشون خارجاً عن الكنيسة يتحدون بجسد المسيح السري بفضل ما يشعرون به من شوق يدفعهم الى قبول الاسرار. اما خدمة الاسرار في الكنائس الغير الكاثوليكية فهم يمنحونها صحيحة على شريطة ان يكون في نيتهم ان يعملوا ما تعمله الكنيسة الكاثوليكية.

اما الروح القدس فهو الروح المحيي في الكنيسة . وقد استشهده السيد المسيح على صدق رسالته ، فاحلّه على تلاميذه في شكل ريح عاصفة رمزًا للقوّة ، وفي شكل ألسنة نارية اشارة الى الغيرة اللاهبة التي اندفقت بحلوله في المؤمنين . ولهذا قال المسيح لتلاميذه : « ومتى جاء المعزّي — اي الروح القدس — الذي ارسله اليكم من لدن الآب ... فهو يشهد لي » (يو ١٥/٢٦) . والروح القدس هو من رسّخ المحبة في قلوب الرسل وجرّأهم على التبشير حتى ما وراء اليهودية والسامرة . وقد اورد كتاب اعمال الرسل ما ألهم الروح القدس الرسل القيام به حتى دعي هذا الكتاب « كتاب اعمال الروح القدس » . فالروح القدس هو من أمر فيلبس بالذهاب في طريق غزة ، جنوبي فلسطين ، ليبشر قيّم ملكة الحبشة (اعمال ٨/٢٧) ، وهو من افهم بطرس ان الوثنيين مدعوون للانضمام الى الكنيسة (اعمال ١٠/١٩) ، واوحى الى الرسل بأن يفرزوا بولس وبرنابا ويرسلوهما للتبشير بالانجيل في بلاد اليونان والرومان ، وحضّ التلاميذ على نقل بشرى الخلاص الى سائر انحاء البلاد القائمة على حوض المتوسط ، فحقّقوا نبوءة معلمهم عندما قال لهم : « ستنالون قوة الروح القدس وتكونون لي شهودًا باورشليم وسائر اليهودية والسامرة والى اقصى حدود الارض » (اعمال ١/٨) . والروح القدس هو من يسهر على مقدرات الكنيسة ويقيها هجمات المضطهدين ، وهو الذي لا يزال يثير الحمية في القلوب ، لاصلاح ما يفسد المفسدون من اصحاب البدع ، ويظهر في القديسين قداسة المسيح في شكل لا ابدع ولا اروع ، ويستحث الهمم للسعي في طريق الاقتداء بهم .

السلطة في الكنيسة

لما كان السيد المسيح قد اسس الكنيسة لتكون جماعة حقيقية كان لا بد له من اقامة سلطة تتولى ادارتها اذ ان وجود كل جماعة يفترض رؤساء ومرؤوسين . وقد تكون ضرورة الرئاسة في الجماعة بمقدار كثرة عدد المرؤوسين واختلاف اجناسهم واعراقهم وعاداتهم وتضارب افكارهم وآرائهم ونزعاتهم وبمقدار صعوبة الغاية التي تهدف اليها تلك الجماعة التي تضمهم . ولهذا اقام السيد المسيح سلطة روحية في الكنيسة لتقوم مقامه وتجعل الوحدة في الافكار والآراء والاعمال ما بين المؤمنين وتفرض عليهم الوسائل الواجب اتخاذها للوصول الى الخلاص .

ولما كان المسيح قد اناط أمر الانضمام الى جسده السرّي بعلامات حسيّة وجب على المؤمن ان يقبلها وهي الاسرار ، كان لا بدّ له من اقامة كهنة يسند اليهم أمر

توزيع هذه الاسرار فيقبلون المؤمنين في حضن الكنيسة ، وهكذا زوّد الكنيسة بسلطان الكهنوت .

ولمّا كان لا بدّ من انظمة وقوانين ترعى علاقات اعضاء هذا الجسد السرّي بالله وببعضهم البعض ، كان لا بدّ من سلطة قضائية تسنّ الانظمة وتسهر على تطبيق القوانين وهكذا زوّد المسيح الكنيسة بسلطة قضائية .

ولمّا كان التبشير واسطة لنشر الايمان ، لان الايمان بالسماع ، يقول بولس الرسول ، وكان تفسير العقائد والسهر على سلامتها واجباً لا محيد عنه لصونها ممّا يتسرّب اليها من ضلال ، كان لا بدّ من سلطة تعليمية تشرح وتفسّر هذه العقائد ، وهكذا زوّد المسيح الكنيسة بسلطان التعليم .

ولهذا نجد في الكنيسة سلطاناً مثلثاً هو سلطان الكهنوت والقضاء والتعليم ، وهو السلطان الذي قلّده المسيح رسله وخلفاءهم ، بعد ان تقبّله هو من الآب ومارسه بنفسه ، فكان كاهناً يقدّس النفوس ، وراعياً يديرها بحكمة ودراية ، ونبيّاً يهدي الناس الى سبل الحياة .

ليست الكنيسة اذن ، على ما يزعم بعض المبتدعة ، منظمة روحية ، يتّصل كل من اعضائها بالله مباشرة ، ونحن نعرف ان ما نظنّه اتصالاً بالله مباشرًا لا يكون في اغلب الاحيان ، سوى صدى لاهوائنا وميولنا ، لذلك نعترف ، حذر العثار ، للكنيسة بالسلطة على التمييز ، في مثل هذه الاحوال ، بين ما يتأتى من الله وما يتأتى من الاهواء . هذا فضلاً عن ان الكنيسة تعمل لخلاص البشر . وما كان البشر ارواحاً محضة انما هم ارواح واجساد .

وليست الكنيسة منظمة ادارية وحسب ، على ما يريدها بعض الساسة من الذين يزعمون ان المسيح اسّسها وتركها تتدبر شأنها بذاتها .

لكن الكنيسة منظمة روحية وادارية معاً فيها ما في المسيح ، عنصران : عنصر منظور وعنصر غير منظور . فيها عنصر الهي وفيها عنصر بشري ؛ وفيها ما في الانسان جسد وروح . وكما ان الجسد يعبّر عن عواطف النفس وخلجاتها هكذا الطقوس والسلطة القضائية والتعليمية تعبّر في الكنيسة عن وجود المسيح فيها وعن رغباته المقدّسة . ويعمل العنصر المنظور الخارجي في الكنيسة على نشر القوى الروحية فيها بما يأتيه من اعمال برّ وخير وصلاح . والكنيسة المنظورة لا معنى لها الاّ بالنسبة الى المسيح غير

المنظور وهي ليست سوى مرحلة تحضيرية لاورشليم العليا ، الكنيسة الظافرة التي تحدّث عنها سفر الرؤيا في الفصل الحادي والعشرين .

وقد يجد بعض مَن فرغت قلوبهم من الايمان صعوبة في الطاعة لسلطة الكنيسة ولما تصدره من اوامر . لكن المؤمن الواعي ايمانه يعرف ان صوت السلطة الكنسية هو صوت المسيح المقيم في كنيسته واوامرها اوامره ، ورغباتها رغباته ؛ فهو يطيع ولو كلّفته الطاعة بعض المشقّة ، ولا عجب في ذلك لأن الشعور بهذه المشقّة دليل على ان المسيح ، على ما يقول الاب دي مونشوي ، دخل بصليبه حياة المؤمن ، ولا يدخل المسيح نفساً الاّ امات ما فيها من انانية ، وخنق « الانسان الحيواني » على حد ما يقول بولس الرسول . وهذا الخضوع ، على ما فيه من مشقة ، يصبح ينبوع فرح روحي لمن يعرف كيف يتبيّن في وجه السلطة وجه المسيح .

نشأتها

نشأت السلطة الكنسية يوم انتقى السيد المسيح من بين تلاميذه اثني عشر رسولاً جعلهم رؤساء على كنيسته وجعل القديس بطرس رئيساً اعلى عليهم وعليها . وقد اشار الانجيل الى رئاسة الرسل على الكنيسة والى رئاسة بطرس عليهم وعليها بوضوح تنتفي معه الريبة . وأعدّ المسيح رسله للاضطلاع بالمهمة التي وكلها اليهم فمرّسهم على طريقته في التبشير فاصطحبهم في اسفاره فاذا بنا نراهم يعاونونه يوم تكثير الخبز على اجلاس الجماهير على العشب ، وعلى توزيع الطعام عليهم ، ويهيئون له السفينة لمخاطبة الجماهير من على متنها ، ويسبقونه الى اورشليم لاعداد العدة للفصح ، ويقفون ذواتهم ومـــا ملكت ايديهم على خدمته . لذلك استحقوا ان يسمعوا من فم الالهي قوله : « الحق اقول لكم انكم انتم الذين تبعتموني في جيل التجديد متى جلس ابن البشر على كرسي مجده تجلسون انتم ايضاً على اثني عشر كرسياً وتدينون اسباط اسرائيل الاثني عشر . وكل من ترك بيتاً او اخوة او اخوات او اباً او اماً او امرأة لاجل اسمي يأخذ مئـــة ضعف ويرث الحياة الابدية » (متى ١٩ / ٢٧) .

وقد خوّلهم سلطان شفاء المرضى واخراج الشياطين (مر ٣ / ١٥) ؛ وارسلهم امامه الى المدن والقرى لينوبوا عنه في التبشير بملكوت الله (لو ٩ / ١ــ٦) وليهيئوا الشعب لاستقباله ؛ واخيرًا وكل اليهم رسالته وقلّدهم سلطته الالهية فقال : « قد أعطيت كل سلطان في السماء والارض . اذهبوا الآن وتلمذوا كل الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس » (متى ٢٨ / ١٨) . واضاف في محل آخر : « كما ارسلني الآب كذلك انا

ارسلكم. خذوا الروح القدس: من غفرتم خطاياهم تغفر لهم ومن امسكتم خطاياهم تمسك لهم» (يو ٢٠/٢١). وأمر بوجوب اكرامهم واحترامهم لأن من اكرمهم اكرمه فقال: «من سمع منكم سمع مني، ومن احتقركم احتقرني، ومن احتقرني احتقر الذي ارسلني» (لو ١٠/١٦).

ومن دعا قبضة من الرجال ورسم لهم خطة واضحة، وافهمهم غاية دعوته اياهم وهي خلاص النفوس، وزوّدهم بما ينبغي من الوسائل بلوغاً لهذه الغاية — وهذه الوسائل هي العقائد الايمانية والشرائع والاسرار —، ووحّدهم تحت رئاسة رئيس فرد، فقد انشأ مجتمعاً روحياً منظوراً ذا هيئة حاكمة. وهذا ما صنعه المسيح يوم اسس الكنيسة وزوّدها بهيئة حاكمة القى بين يديها كل سلطان.

رئاسة بطرس

ولما كانت الكنيسة جمعية منظورة ذات هيئة حاكمة كان لا بد لها من رئيس منظور يقوم مقام المسيح، ويتولّى تدبير شؤونها، ويحل ما يعرض لها من معضلات. ولهذا اختار السيد المسيح سمعان بن يونا المدعو بطرس احد رسله وقلّده السلطة العليا في الكنيسة، وقد وعده قبل آلامه وموته وانجز وعده له قبل صعوده الى السماء. وهناك نصوص ثلاثة في الانجيل تثبت هذه الحقيقة.

النص الاول (متى ١٦ /١٣—٢٠) في قيصرية فيلبس

«لما جاء يسوع الى نواحي قيصرية فيلبّس سأل تلاميذه قائلاً من تقول الناس ان ابن البشر هو؟ اجاب سمعان بطرس قائلاً: «انت المسيح ابن الله الحي. فاجاب «يسوع وقال له طوبى لك يا سمعان بن يونا فإنه ليس لحم ولا دم كشف لك هذا، «لكن ابي الذي في السماوات. وانا اقول لك: انت الصفاة وعلى هذه الصفاة ابني «كنيستي وابواب الجحيم لن تقوى عليها. وسأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات فكل «ما ربطته على الارض يكون مربوطاً في السماوات وكل ما حللته على الارض يكون «محلولاً في السماوات».

يتّضح من هذا النص اولاً: ان بطرس لن يكون الحجر الاساسي في بنيان الكنيسة وحسب، لكنه سيكون الصفاة اي الصخرة التي يقوم عليها البناء بكامله. فبناء الكنيسة ثابت ما ثبت بطرس وسلطانه، وان هو تداعى تداعى البناء. وعلى

بطرس تقع مسؤولية الكنيسة جمعاء وما تستند اليه من عقائد وتعاليم فعليه ان يتولّى اذاعتها وتفسيرها . لهذا قال له : « انت الصفاة وعلى هذه الصفاة ابني كنيستي » .

ويتّضح منه ثانياً ان بطرس سيجمع في شخصه كل سلطة في الكنيسة. فهو ربّ البيت ، مفاتيحه بيده يُدخل من يشاء ويمنع من يشاء . ولهذا قال له السيد المسيح : « اني اعطيك مفاتيح ملكوت السماء » . وما كان تسلّم المفاتيح سوى رمز الى السيادة المطلقة على البيت ومحتوياته . من تسلّمها اصبح سيّداً فيه يأمر وينهي كيف يشاء . « هو يعطي او لا يعطي الطعام في حينه » ، على ما اشار اليه السيد المسيح في مثل الامين العام الذي ولّاه سيده على بني بيته (متى ٢٤/٤٥) .

ويتضح منه اخيرًا ان كل تعليم او اجراء يقرّه او يرذله بطرس ، يقرّه او يرذله الله . لهذا قال له السيد المسيح : « مهما تحلّه على الارض يكن محلولاً في السماء » . وما سلطان الحلّ والربط ، في لغة الاسرائيليين عامة والتلمود خاصة ، سوى دليل على ملء السلطان . وهذا معناه ان السيد المسيح القى الى بطرس بملء سُلطانه على الكنيسة بما في هذا السلطان من حق في التعليم والقضاء والتدبير كما رسم المجمع الڤاتيكاني .

النص الثاني (لوقا ٢٢/٣١) قبيل الآلام والموت

« سمعان سمعان . (بطرس) ، هوذا الشيطان سأل ان يغربلكم مثل الحنطة ، « لكني صلّيت من اجلك لئلا ينقص ايمانك . وانت متى رجعت فثبّت اخوتك » .

لقد أنبأ السيد المسيح قبيل صلبه بان ما سيحلّ به من آلام واهوال سيدفع بطرس ورسله الى الشك فيه وفي رسالته. لكنه عاد فنبّه بطرس الى انه سينهض من كبوته وان عليه متى نهض ان يرسّخ اقدام اخوته الرسل في الايمان فقال له : « وانت متى رجعت فثبّت اخوتك» . و« ثبّت اخوتك » ترشد الى ما ترشد اليه الصخرة من ثبات ورسوخ يرتكز على بطرس ، ركن الكنيسة المكين عليه يشمخ البناء ، وبه تتحقق وحدة الايمان وعنه تصدر القوة والحيوية . وليس متى الاسرائيلي النزعة وحده من اورد هذا النص لكن لوقا صديق بولس الرسول ورفيقه في الجهاد قد اورده رغم نزعته اليونانية .

النص الثالث « نهاية انجيل يوحنا » . بعد القيامة

« فبعد ما تغدّوا قال يسوع لسمعان بطرس : يا سمعان بن يونا اتحبّني اكثر « من هؤلاء . قال له : نعم يا رب انت تعلم اني أحبك . قال له : ارعَ خرافي . قال « له ثانية : يا سمعان بن يونا اتحبني أكثر من هؤلاء . قال له : نعم يا رب انت تعلم « اني احبك : قال له : ارعَ خرافي. قال له ثالثة : يا سمعان بو يونا أتحبني أكثر « من هؤلاء . فحزن بطرس لأنه قال له ثالثة أتحبني . فقال : يا رب انت تعلم كل « شيء وأنت تعلم اني احبك . فقال له : ارعَ غنمي » .

وعد السيد المسيح بطرس بتقليده سلطانه المطلق على الكنيسة وحقّق وعده بعد القيامة يوم تراءى لتلاميذه قرب بحيرة الجليل ، فأقام بطرس راعياً أعلى للكنيسة بقوله له : « ارعَ خرافي ارعَ غنمي . » ويقول شراح الكتاب المقدس ان المسيح عنى بلفظة خراف جماعة المؤمنين ، وبلفظة غنم التلاميذ والرسل . والكنيسة هي خراف المسيح وغنمه ، أي قطيعه الصغير على ما لقّبها به حين قال : « لا تخف ايها القطيع الصغير لأنه قد حسن لدى أبيكم أن يعطيكم الملكوت » (لو ١٢/٣٢) .

واضطلع بطرس بمسؤولياته بعد صعود المسيح الى السماء واحلاله روحه القدوس على تلاميذه ، فمارس سلطته كاملة ، فتكلّم باسم الرسل واقترح عليهم أن ينتخبوا رسولاً بدلاً من يهوذا الاسخريوطي الذي انتحر شنقاً بعد أن خان سيّده ، وترأس عملية الانتخاب فوقعت القرعة على متيا (اعمال ١/٢٥–٢٦) ؛ وبتّ في قضية قبول الوثنيين في حضن الكنيسة ، فقبل كورنيليوس قائد المئة في قيصريّة وعمّده ، بيد ان الرسل كانوا يقصرون رسالتهم على تبشير اليهود فقط (أعمال ١٠) .

ويتّضح من جميع هذه النصوص ان المسيح اولى بطرس سلطة خاصة على الكنيسة ، فأقامه راعياً للرعاة ومدبراً وجعله صخرة منيعة شاد عليها بناء كنيسته التي وعده بان هجمات الأبالس لن تقوى عليها ولهذا قال له : « وأبوب الجحيم لن تقوى عليها » . واذا كان بطرس صخرة يحمل بناء الكنيسة ، واذا كانت قد القيت اليه مفاتيح ملكوت السماء ، واذا كان يملك سلطان الحلّ والربط في الكنيسة الخالدة ، فهذا دليل على ان سلطانه لن ينتهي بموته ، لكنه سيتخطّاه الى خلفائه في مركز الرئاسة الى الذين تقع عليهم تبعة تثبيت اخوانهم في الايمان . ومن السخف ان نفكّر في ان المسيح أسس كنيسة تدوم بدوام شخص بطرس حتى اذا مات انهارت ، لكنه أسس كنيسة تعايش البشر ما دام على الارض بشر ، وتظل بحاجة الى هيئة حاكمة لهـط رئيس

يخلف بطرس ويطبّق ، على ممر الايام ، رغبات المسيح مؤسّسها ، وخليفة بطرس هو البابا .

خليفة بطرس : البابا

تثبت الوثائق التاريخية ان القديس بطرس بشّر بالانجيل في روما عاصمة الامبراطورية الرومانية يومذاك واستشهد فيها ، فخلفه في رئاسة الكنيسة احبار روما على التوالي . فكان كل منهم يعتبر نفسه راعي الرعاة في الكنيسة ورأساً لاحبار المسيحية جمعاء ، يدبر شؤونها ولا يحدّ من سلطانه زمان او مكان . ولقّب اسقف روما بابا اي أباً للمسيحيين اجمعين . ولنا في تصرفات الاحبار الاعظمين منذ فجر المسيحية ، وشهادات الاساقفة المخلصين الأولين المنتشرين في جميع بقاع الارض خير برهان على شمول سلطان البابا الكنيسة جمعاء .

تصرفات الباباوات

لقد حسم البابا اكليمنضوس الاول ، وهو الثالث بعد القديس بطرس ، خلافاً نشب في كنيسة كورنتس من بلاد اليونان بين الكهنة والشعب أدّى الى طرد الشعب كهنته . فكتب اكليمنضوس سنة ٩٦ يعنّف المؤمنين على فعلتهم وأمرهم باستعادة رؤسائهم واسترضائهم ، وتهدّدهم بالعقاب ان لم يفعلوا . وقد عمد الى اتخاذ هذا الاجراء الحازم . ويوحنا الانجيلي تلميذ المسيح كان وما يزال في قيد الحياة يقضي أواخر أيامه في احدى جزر اليونان ، ولم يعرض وساطته لعلمه ان ليس له ما ينبغي من السلطان لحلّ المعضلة ، ولم يلجأ الشعب اليه ، لكنه أطاع أوامر البابا اكليمنضوس ، واسترضى كهنته .

وفي سنة ١٩٣ رأى البابا فيكتور الأول ان يوحّد الاحتفال بعيد الفصح في كنائس العالم اجمع وكان بعض منها يحتفل به في ١٤ نيسان وفقاً لعادة اليهود ، فأطاعته الكنائس كلها ما خلا كنيسة ازمير في اسيا الصغرى ، مدّعية بانها تتبع تقاليد القديس يوحنا الانجيلي مؤسسها . فتهدّدها البابا بالحرم فانقادت لأوامره واحتفلت بالفصح ، مثل باقي الكنائس ، في الموعد الذي حدّده له البابا .

وشعر الباباوات بمسؤولياتهم تجاه نشر الانجيل ، بعد انتصار الكنيسة على الامبراطورية الرومانية فراحوا يوجّهون الرسائل ويبعثون المبشّرين الى رؤساء الشعوب

في كل قطر يمكن الوصول اليه حملاً لهم على اعتناق الدين المسيحي ، ولا سيّما في عهد القديسَين لاون وغريغوريوس الأولين في القرنين الخامس والسادس .

وقد رأس كلاًّ من المجامع المسكونية السبعة التي تعترف بها الكنائس الأرثوذكسية حبر او كاهن موفد من قبل البابا خصيصاً لهذه الغاية .

شهادات اساقفة الكنائس المحلية

لقد أقرّ القديس اغناطيوس ، اسقف انطاكية الاول ، لكنيسة روما بالأولية وبحق الصدارة . فكتب ، وهو في طريقه الى الاستشهاد في روما سنة ١٠٧ حيث القي فريسة للوحوش ، يقول : « الى الكنيسة المترئّسة على الاخوة ، انت علّمت باقي الكنائس وأنا أريد أن تبقى ثابتة تلك الاشياء التي أمرتِ بها في تعليمكِ . »

وجاهر القديس ايريناوس اسقف ليون في فرنسا سنة ١٦٠ في كتابه « ضد الهرطقات » بقوله « ان خير طريقة لدحض اضاليل الهراطقة هو الاعتماد على تعليم كنيسة روما » . واضاف : « هذه الكنيسة اي كنيسة روما يتحتّم على كل كنيسة في اي بلد كان ان تشترك معها لما لها من رئاسة وسلطان ، وقد حُفظ فيها بلا انقطاع التعليم الذي تسلسل الينا عن الرسل » (مجموعة مين للآباء اليونان ٧/٨٤٨ وما يلي) .

برهان عقلي

ان الكنيسة منظّمة تهدف الى توحيد البشر حول شخص يسوع المسيح تحقيقاً لعمل خلاص نفوسهم . فهي تحتاج ، بعد صعود المسيح ، الى رئيس أعلى منظور يربط بين اعضائها ويسيّرهم بسلطانه نحو الهدف المنشود . والبابا هو هذا الرئيس المنظور الذي يقوم مقام المسيح ويوحّد ما بين جميع المؤمنين المنتشرين في العالم قاطبةً . فالبابا اذن ، في نظر المؤمن ، ليس شخصية بارزة وحسب كأحد اباء التوراة يتمتع بسلطان روحي وزمني شامل ، لكنه صورة حيّة متجسّدة لوحدة الكنيسة او هو القطب الذي تدور حوله القلوب تستجديه دفء الايمان ، وتتجه اليه العقول تستنير بنور تعاليمه . فلا نقائصه ولا سوء استعماله لسلطانه ولا عدم اهليته تمنع المؤمن من ان يرى فيه مبدأ هذه الوحدة التي تضم جميع اخوانه وابنائه الكاثوليك على اختلاف اجناسهم وميولهم .

وعندما يتخذ البابا اجراءً او يعلن عقيدة جديدة ، فانما هو يتكلّم باسم الكنيسة

جمعاء ، وذلك بعد ان يقف على آراء الاساقفة واللاهوتيين ورغبة الشعب في اعلان تلك العقيدة . وهذا لا يعني انه يستوحي الشعب المسيحي ما يعلن اليه من عقائد ، لكنه يستخرج العقيدة الجديدة من خزانة الوحي الالهي تلبية لرغبة الشعب التوّاق الى الاستنارة بانوار هذه العقيدة .

وكما انه لا يستمدّ العقيدة من الشعب فهو كذلك لا يستمدّ سلطانه منه على طريقة التمثيل الشعبي ؛ لكن سلطانه يأتيه مباشرة من المسيح الذي قلّده اياه بشخص بطرس ، ولا يستعمله الاّ في سبيل خدمة المسيحيين . هو عظيم الاحبار في المسيحية ، لكنه خادم خدام الله[١] عملاً بقول السيد المسيح لتلاميذه : « من أراد ان يكون فيكم كبيراً فليكن خادماً ، ومن أراد ان يكون فيكم أوّل فليكن لكم عبداً ، كما ان ابن البشر لم يأتِ ليُخدم بل ليَخدم ويبذل نفسه عن الكثيرين » (متى ٢٠ /٢٥—٢٧). وقد ألمع البابا بيوس الحادي عشر المتوفّى سنة ١٩٣٩ في منشوره Arcanum Dei الى ان الذين يتولّون السلطان انما يتولّونه خدمة للآخرين .

ويبقى البابا ، على ما يتمتع به من سلطان ، وعلى عصمته من الخطأ في مجال تحديد العقائد الايمانية بطريقة رسمية ، عرضة للسقوط في مهاوي الخطأ . فهو يحتاط لنفسه خوف السقوط بما يحتاط له اصغر المؤمنين فيتخذ له معرِّفاً يكشف له ضميره ومرشداً يسترشده خير السبل الى خلاص نفسه ويسأل المؤمنين ان يمدّوه بما يقدّمون عن نيّته من صلوات وتضحيات[٢] .

ومن نعم الله على الكنيسة ، لا سيما في هذه العصور المتأخرة ، ان يكون قد تعاقب على رئاستها أحبار اعظمون خطّوا في تاريخ القداسة والأمجاد الكنسية والعالمية صفحات مشرقة خالدة ممّا حمل المؤرخ النـــير الكاثوليكي كيلير (Walter Kœhler) ان

---

١) كان البابا القديس غريغوريوس الاول يوقع رسائله هكذا : « عبد عبيد الله » ، وقد قفا أثره الاحبار الاعظمون من بعده فاتخذوا لهم هذا اللقب .

٢) لقد جار بعض المؤرخين على بعض الباباوات فألصقوا بهم من التهم ما هم براء منه ، فزعموا انهم كانوا يبيعون الناس غفارين تحجز لهم بيوتاً في السماء ! وهل يستطيع من لا يضمن لنفسه السماء ان يضمنها لسواه من الناس ؟ واذا كان تدخل السلطات المدنية قد فرض على الكنيسة بعضاً من روئسائها ممن لم يكونوا في مستوى السلطان الذين قلدوه كبندكتوس التاسع الذي جعله بابا ابوه اوتون الثاني امبراطور المانيا بالقوة المسلحة في القرن العاشر ، والكسندروس بورجيا السادس الذي فرضته اسبانيا ، فهذا أمر لا يعتد به والمسؤول عنه هو السلطات المدنية . واعتلاء باباوات سدة بطرس وهم غير اهل لها ، لا يحط من نور الكنيسة في شيء ، لكنه يدل على انها موئسسة الهية لم تتداع رغم نكبتها باعظم روئسائها .

يقول في أحدهم وهو البابا بيوس العاشر القديس : « ان بسط النفوذ السياسي على المجتمع الحاضر لم يكن ليهمّ البابا بيوس العاشر ؛ بل كان كاهناً بحصر المعنى ، كان ذاك الكاهن الحامل القربانة عالياً دون ان يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا دأب له الاّ حمل مخلّصه للعالم » . وليس من يجهل مواقف البابا بيوس الثاني عشر من النازية والشيوعية وسائر الضلالات العصرية التي تحاول سحق الشخص البشري وخنق الحرية ، وليس من يمكنه ان يتعامى عن جهوده في سبيل تيسير حياة فضلى للشعوب ولا سيّما للطبقات الكادحة ، في عالم ترفرف فيه الوية العدالة والسلام .

انواع السلطة في الكنيسة

لقد خوّل السيد المسيح كنيسته عين السلطان الذي تلقّاه من ابيه السماوي ، عندما قال لتلاميذه : « كما أرسلني الآب ، هكذا أنا أرسلكم » (يو ٢٠/٢١) ، وهو يشمل سلطان الكهنوت والتدبير والتعليم .

خوّل المسيح كنيسته سلطان الكهنوت عندما أمر تلاميذه بتجديد ذبيحته ، بقوله : « خذوا كلوا هذا هو جسدي ... اشربوا من هذا كلكم ، هذا هو دمي العهد الجديد الذي يهراق عنكم وعن الكثيرين لمغفرة الخطايا . اصنعوا ذلك لذكري حتى مجيئي » (لو ٢٢/١٩) . ووهبهم ما يرافق سلطان الكهنوت من امتيازات عندما قلّد بطرس اولاً ثم سائر الرسل سلطان الحلّ والربط ، لمغفرة الخطايا (متى ١٦/١٩ ويو ٢٠/٢٢) ، ليتيح لهم افادة الناس من نعم الفداء باعادتهم الى حال البرارة . وتسلسل سلطان الكهنوت بعد الرسل الى الاساقفة والكهنة يمارسونه في جانب النفوس بغية تقديسها بدم الفادي الالهي الذي يجدّد الكاهن ذبيحته في القداس . وهكذا تبقى وساطة المسيح سارية المفعول بين الناس ، بفضل الكهنوت ، حتى انقضاء الزمن .

وخوّل المسيح كنيسته سلطان التدبير يوم قال لتلاميذه : « من سمع منكم فقد سمع مني ومن احتقركم فقد احتقرني ومن احتقرني احتقر الذي ارسلني » (لو ١٠/١٦) وقد أمر تلاميذه بالسهر على ما سلّمهم من تعاليم وتقاليد حرصاً على سلامتها من التحريف ، لذلك قال لهم : « وعلّموهم ان يحفظوا جميع ما اوصيتكم به » (متى ٢٨/ ٢٠) . وقد تلقى المسيح سلطان التدبير من ابيه السماوي الذي مسحه ملكاً ووكل اليه رعاية الناس وتسييرهم الى الوطن السماوي . ويشمل سلطان التدبير سلطان التشريع والقضاء والتنفيذ وتستحيل بدون هذه السلطات ممارسة السلطة الراعوية .

وقد طالب الرسل بحقهم في سلطان التدبير فقال بولس الرسول . « ليحسبنا الانسان « كخدّام المسيح ووكلاء اسرار الله » (كور ١ : ٤ / ١)، « ونحن سفراء المسيح كأن الله يعظ على السنتنا » (كور ٢ : ٥ / ٢٠). ومارس الرسل هذا السلطان فتفرغوا بعد حلول الروح القدس عليهم لادارة شؤون الكنيسة ، فسنّوا الشرائع والقوانين وقضوا ما بين المسيحيين فوبّخوا وعاقبوا، وعقدوا مجمعاً في اورشليم اتخذوا فيه مقررات الزموا بالتقيد بها جميع المؤمنين ، واعلنوا اخيرًا ان سلطانهم انما هو سلطان الروح القدس فقالوا : « لقد رأى الروح القدس ونحن الاّ نضع عليكم ثقلاً فوق هذه الاشياء التي لا بد منها وهي ان تمتنعوا مما ذُبح للاصنام ومن الدم والمخنوق والزنى» (اعمال ٢٥ / ٢٨).

ومن البديهي ان يتمتع البابا، اسقف الكنيسة جمعاء ، بسلطان التدبير في الكنيسة جمعاء ، وان يتّخذ له من الاساقفة معاونين لادارة الكنيسة فيعيّن لكل منهم ابرشية يسوسها تحت اشرافه . لكن هذا لا يعني ان البابا يمنح الاساقفة سلطاناً جديدًا عندما يكل اليهم أمر رعاية احدى الابرشيات ، لأن الاساقفة يتلقّون هذا السلطان عندما يقبلون الدرجة الاسقفية ، لكنهم لا يستطيعون ان يزاولوه الاّ باذن البابا وأمره وهم متّحدون به ، خاضعون لتوجيهاته وتدابيره .

وخوّل المسيح اخيرًا كنيسته سلطان التعليم يوم قال لتلاميذه : « لقد اعطيت كل سلطان في السماء وعلى الارض فاذهبوا وتلمذوا جميع الامم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس ... » (متى ٢٨ / ١٨) . وسلطان التعليم نتيجة حتمية لسلطان الكهنوت والتدبير ، لولاه لما تيسر للناس التعرف الى المسيح « الطريق والحق والحياة » (يو ١٤ / ١٦) ، ولما تمكنوا من الاستنارة بنور تعاليمه على ما اوضح بولس الرسول حين قال : « كيف يدعون الله ولم يؤمنوا به ؟ وكيف يؤمنون ولم يسمعوا به ، وكيف يسمعون به بلا مبشّر ، وكيف يبشّرون ان لم يرسلوا ؟ (روما ١٠ / ١٣) . وسلطان التعليم مقصور على البابا والاساقفة دون الكهنة والشعب . فهؤلاء يؤلفون الكنيسة المتعلّمة بيد ان اولئك يؤلفون الكنيسة المعلّمة ومهمتها نشر تعاليم المسيح والسهر على سلامتها من التحريف ، وقد خصّ المسيح كنيسته بالعصمة عن الخطأ والضلال ، في كل ما يمتّ بصلة الى العقائد والآداب المسيحية ، يوم قال لتلاميذه : « علّموهم جميع ما اوصيتكم به وهاءنذا معكم منذ الآن الى منتهى الدهر » (متى ٢٨ / ٢٠) . وهذا يعني ان المسيح باقٍ ابدًا في كنيسته فهو لا يتركها تعلّم تعاليم تنافي قواعد الايمان والآداب . وعصمةً الكنيسة هذه امتياز تنعم به هي والبابا رأسها ونائب المسيح المنظور . ولا يعتبر البابا معصوماً عن الضلال الاّ عندما يعلن او يرذل بطريقة احتفالية عقيدة من عقائد الايمان او تعليماً له مساس بالاداب المسيحية .

اخطاؤها

لكن هذه الكنيسة رغم تنوّع السلطات التي تسلّمتها من السيد المسيح ، ورغم العصمة التي تتمتع بها تبقى ناقصة ولن تتكامل الاّ في السماء . وقد اشار السيد المسيح في مثل الزوءان[١] يخالطه القمح (متى ١٣ / ٢٤—٤٣) وفي مثل الشبكة جمعت كل جنسٍ من السمك (متى ١٣/ ٤٧—٥٠) الى ان الاشرار سيخالطون الابرار في الكنيسة حتى اليوم الاخير.

ولهذا ليس لنا ان نعجب اذا ما رأينا بعضاً من رجال الكنيسة يقعون في اخطاء ثقيلة تثير العثار والشكوك ، ذلك ان المسيح منح الكنيسة عصمة في مجال التعليم ولم يمنح رجالها العصمة من الانزلاق في مهاوي الخطيئة ، وكثيراً مـــا يسمح بسقوطهم ليفهمهم ان عليهم ان يجاهدوا انفسهم ، مثلهم في ذلك مثل باقي الناس ، لاجتناب الوقوع ، وان يرقّوا لمن غرّرت بهم نفوسهم في لجج الجهالة .

وقد بالغ كثير من المؤرخين في اظهار معايب الكنيسة ورجالها فعابوا عليها اضرامها نار الحروب الصليبية وغيرها من الحروب الدينية ، وانشاءها محكمة التفتيش وما سوى ذلك من الاخطاء[٢] .

---

١) « وسأل التلاميذ معلمهم يسوع تفسير « مثل الزوءان » فأجابهم وقال : الذي زرع الزرع الجيد هو ابن البشر (المسيح) والحقل هو العالم ، والزرع الجيد هم بنو الملكوت . والزوءان هم بنو البشر . والعدو الذي زرعه هو ابليس . والحصاد هو منتهى الدهر . والحصادون هم الملائكة . وكما ان الزوءان يجمع ويحرق بالنار هكذا يكون في منتهى الدهر . يرسل ابن البشر ملائكته فيجمعون من مملكته كل الشكوك وفاعلي الاثم ويلقونهم في اتون النار . حينئذ يضيء الصديقون مثل الشمس في ملكوت ابيهم .

٢) مما يؤسف له ان يكون المؤرخون شوهوا حقيقة الحروب الصليبية ومحكمة التفتيش فاتخذوا ذلك حجة للطعن على الكنيسة ، وقد القى المؤرخون المسيحيون تبعة الحروب الصليبية على الحاكم بامر الله الفاطمي الذي نقض معاهدة الصداقة القائمة بين هارون الرشيد وكارلوس الاكبر فاضطهد الحجاج المسيحيين وهدم نيفاً وثلاثين الف كنيسة بين مصر وسوريا (المقريزي)، بيد ان المؤرخين المسلمين يحملون تبعتها ملوك الغرب الذين اطمعتهم بالشرق شهوة الاستعمار . ولكن هذا الزعم لا يبرره الواقع الذي يدل على ان الاستعمار ما بدأ الاّ في اوائل القرن السادس عشر عندما ابتدأت الدول تقوى وتتسع ... واذا كانت هذه الحروب اتخذت طابعاً دينياً فلأنه كان من العسير فصل الدين عن الدولة .
واما محكمة التفتيش فلا تقع مسؤوليتها على الكنيسة بقدر ما تقع على السلطة المدنية . وقد شاءت الدول الاوروبية في الاجيال الوسطى ان تحذو حذو بيزنطيا في معاقبة المبتدعة الذين كانوا يؤلفون احزاباً دينية تشتغل بالسياسة وتسعى الى اقلاق الأمن في البلاد . فأنشأت بعض من هذه الدول محكمة تنظر في هذا النوع من الدعاوي ، ووكل القيمون عليها بأمر القضاء فيها الى بعض من علماء رجال الدين الذين يسهل عليهم تضلعهم من العلوم اللاهوتية النظر فيها . فكان رجال الدين يصدرون احكامهم وكانت السلطة المدنية تتولى أمر تنفيذ هذه الاحكام . وما كان باستطاعة الكنيسة ان تحول دون قيام محكمة التفتيش التي فرضها واقع الحال ، لأن الاحزاب كانت ، كما اشرنا اليه ، احزاباً دينية وسياسية معاً ، ولم يكن ثمة من سبيل الى فصل الدين عن الدولة . وكان الناس احد اثنين ... إما مؤمناً آمناً وإما مبتدعاً يلقى اشد عقاب ولا رحمة في معاقبة الكفرة ولا تسامح في مناوأة دعاة الزندقة .

ومهما يكن من امرٍ فالذين يتلقون هذا السلطان العجيب هم اناس ضعفاء ، عليهم ان يجاهدوا النفس ليجتّنبوا السقوط . اما ما يعانونه من بؤس وضعف ، فلا شأن للكنيسة به . وخطيئتهم ، كخطيئة غيرهم من المسيحيين ، مرجوع بها الى العالم . واذا كانت خطاياهم تجرح جسد المسيح ، فهم ، رغم ذلك ، يظلون دائماً وابداً اعضاء سامية القدر في هذا الجسد الذي ينتسبون اليه بالعماد والايمان والاسرار والسلطات الالهية التي تلقوها . ومهما ثقلت آثامهم ، فالكنيسة في حدّ ذاتها ، تبقى على ما هي عليه من النصاعة والقداسة ، كجسد المسيح يبقى وهو الصليب رغم جراحه وأوصابه ، حريّاً باحترام غير متناه.ومن فهم على ضوء الايمان هذه الحقيقة ليألم — كما لوشُتِم — ان يسمع بعضاً من الناس يتّهمون الكنيسة بكونها « ستاراً » للايمان « وجسد خطيئة » ومن يعاملونها على هذا الشكل لا يعرفون ما هي ولا ما يصنعون . فهم يجهلون العمل الالهي الذي تقوم به ، في النفوس التي تنتزعها من حقارتها ، وفي العالم الذي تفتّحه على العدالة والمحبة ، وفي كل انسان تقوده بحنان والدي شطر مصيره الابدي . وما اكثرِ الذين كاليهود في الغابر ، وقد شاقهم قيام مملكة مسيحية زمنية ، يسألونها قبل كل تنظيم الارض على هواهم ، ويظن بعضهم ان هذه هي خير طريقة للحصول على ملكوت الله مستزاداً .

سلطان التشريع

ربّ سائل يسأل : أما كان بامكان المسيح أن يوفّر على كنيسته عناء التشريع فيسلّمها شريعة مكتوبة مفصّلة ، كما فعل حمورابي وموسى وسولون وليكورغ وغيرهم من المشترعين ؟ وجوابنا ان المسيح لم يفعل لأسباب ثلاثة هي :

١ً — انه اراد الشريعة روحاً محيياً لا حرفاً مميتاً .

٢ً — انه اراد تجنيب هذه الشريعة ما تفرضه عليها احوال الزمان والمكان من تحوير .

٣ً — انه اراد ان يحترم حرية الانسان فلا يسوقه مكرهاً الى الخضوع للشريعة فيحرمه جزاء اعماله .

وهذا ما سنلمّ به في ما يلي :

١ — الشريعة روح يحيي لا حرف يميت . وقد اتى المسيح الى العالم لينفحه بهذا الروح المحيي الجديد ، روح التبني الذي يفهم الانسان انه ابن الله والله ابوه .

ولو كان على الانسان ان يتقيّد بحرف الشريعة لأمات روحها كما فعل الإسرائيليون الذين عبدوا نصها ، ظناً منهم انهم خلقوا لها ولم تخلق لهم ، وقد لاموا السيد المسيح على كونه لم يتقيد بها ، فنقض السبت وشفى فيه من اتوه بهم من المرضى . أما هو فأفهمهم ان السبت « جُعل لاجل الانسان لا الانسان لأجل السبت . فإن ابن البشر اذن هو رب السبت » (لو ٦؛ مر ٢؛ متى ١٢) .

هذا الروح الجديد ، روح الحرية ، حرية ابناء الله ، هو ما عهد فيه السيد المسيح الى كنيسته فخوّلها حق التشريع لتفرغ في ما تسنّه من انظمة وقوانين هذا الروح المحيي الذي يعصم من الموت ويضمن للشرائع البقاء على اختلاف الاحوال والعصور . وهكذا نرى الكنيسة تسعى لدى المشترعين فتحيي بروح الانجيل ما يخضعون له الشعوب من قوانين . ولنا على ذلك اكثر من مثل .

لقد اشار المسيح في انجيله الى مبدأ المساواة بين الناس فقال : « جميعكم اخوة .. والكبير فيكم فليكن خادماً للآخرين » (متى ٢٠/٢٥) ، لكنه لم يشر الى الطرق العملية التي تكفل تحقيق هذه المساواة فترك للكنيسة امر ايجاد الوسائل للحصول على الغاية المبتغاة ، فسعت الكنيسة اولاً لدى الرومان ، ثم لدى غيرهم من الشعوب الى تحرير العبيد والقضاء على الرقيق . وما زال الاحبار الاعظمون يهيبون برؤساء الدول الى وجوب احترام الشخص البشري اياً كان لونه . وصيحات الكسندروس الثالث في القرون الوسطى ، ولاون العاشر في القرن السادس عشر ، ولاون الثالث عشر في القرن التاسع عشر ، وبيوس الثاني عشر في ايامنا ، ما تزال مدوّية في الاذان[1] .

وأشار المسيح من جهة الى واجب الغني نحو الفقير بقوله : « من سألك فأعطه ومن طلب ان يقترض منك فلا تمنعه (متى ٥) ... كنت عرياناً فكسوتموني ، وجائعاً فاطعمتموني » (متى ٢٥) في مثل الغني ولعازر الفقير (لو ١٦) ؛ وأشار من جهة ثانية الى حق الانسان بالملكية في مثل العملة في الكرم (متى ٢٠) ، لكنه لم يشر الى كيفية تطبيق هذا المبدأ ، فترك الكنيسة تسعى لدى ارباب السلطان الى تطبيقه عملياً بالطرق المشروعة ، فطالبت في العصور الأولى للمسيحية باسعاف الفقراء ،

١) استحصلت الكنيسة على تشريع خاص يخول العبيد بعض الامتيازات في الامبراطورية الرومانية ، ثم ما لبثت ان قبلت عدداً منهم في مصاف الا كليروس وأسندت اليهم بعض الوظائف الكبرى ، خملاً للناس على احترامهم ؛ ولم تخش اخيراً ان ترفع احدهم الى سدة بطرس وهو البابا اكليمنضوس الاول ، الخليفة الثالث للقديس بطرس وقد ادار دفة الكنيسة من سنة ٨٨ الى سنة ٩٧ م .

فبنت دوراً للعجزة والايتام والمرضى ، وطالبت اخيراً بحق العامل في امتلاك دار للسكن وقطعة ارض صغيرة يتمكن معها من عيش لائق هو وعائلته ، فترتفع نفسه الى الله . وهذا ما ذكّر به الاحبار الاعظمون : لاون الثالث عشر وبيوس الحادي عشر ، وهذا ما شدّد عليه البابا بيوس الثاني عشر .

وأشار المسيح الى حق الراعي على الرعية فقال : « اعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ، والى حق الرعية على الراعي فقال : «الكبير فيكم فليكن لكم خادماً » . وما حدّد الواجبات والحقوق بل ترك للكنيسة أمر الحصر والتحديد ، فذكرت الحكّام بأنهم خول لدى الله في الرعية ، ودعتهم الى احترام حق الله وحريات الناس ، وما خشيت ان ترفع الصوت عالياً في وجه العاتي المستبد سواء أكان اسمه تيودوس الكبير أم هنري الرابع أم فريدريك الثاني أم نابوليون[١] .

وأشار المسيح اخيراً الى واجب الصوم والصلاة وعهد الى الكنيسة العناية بتطبيق هذا الواجب وفقاً لأحوال المكان والزمان. هكذا نرى صوم اللاتين يختلف عن صوم الشرقيين وصوم الاصحاء والبالغين أصرم من صوم الشيوخ والصغار . وقد راعت الكنيسة في تطبيق قانون الصوم السن والمهنة والمناخ والبلاد وما سوى ذلك من الاعتبارات. ولو كان المسيح حدّد بذاته طريقة الصوم لكان اصبح هذا الواجب حجر عثرة في سبيل المؤمنين وكثير منهم لا يقومون على النهوض به ، وانما اريد به في الاساس اداة تكفير وخلاص .

٢ — واراد المسيح تجنيب الشريعة الوضعية[٢] التعرّض للتحويل والتغيير ، فأبى ان يسلّم كنيسته شريعة مكتوبة . وليس في ذلك اية غرابة . فالشريعة الوضعية ، روحية كانت ام زمنية ، تهدف الى تنظيم الحياة الاجتماعية . وهذه قابلة ابداً للتطوّر والتحوّل . ولنأخذ مثلاً شريعة الأرث التي تطورت وتغيّرت بتطوّر البيئة التي تعمل بها ، نصّت هذه الشريعة اولاً في بعض البلدان على حرمان الابنة من ميراث ابويها ثم عُدّلت فمنحتها نصف ميراث الذكر ، ثم حوّرت فساوت بين الاناث والذكور .

١) في القرن الرابع منع القديس امبروسيوس رئيس اساقفة ميلانو الامبراطور تيودوس من دخول الكنيسة لأمره بقتل خمسة آلاف نسمة في تسالونيك ، وما سمح له بدخولها الاّ بعد ان تاب وقام بكفارة علنية . وقاوم البابا غريغوريوس السابع ، هنري الرابع ، ملك المانيا وارغمه على الخضوع للسلطة الروحية في قصر كانوسا لكونه قد ادعى لنفسه من السلطات الكنسية ما جرؤ معه على تعيين اساقفة جدد ينتمون اليه . وقاوم بيوس السابع نابليون وكان هذا الأخير قد اسر البابا في قصر فونتنبلو وأذله .

٢) أما الشريعة الطبيعية ، خلافاً للشريعة الوضعية ، فلاصقة للانسان ولا سبيل الى تبديلها او تغييرها .

وكذلك القول عن قانون العقوبات ، وكان يقضي مثلاً على السارق بقطع اليد ، وقد عُدّل في كثير من البلدان فالغيت هذه العقوبة ... وهكذا يبقى هذا النوع من الشرائع ، معرّضاً للتبديل ، كما اشار اليه الفيلسوف الافرنسي مونتسكيو ، لأنه يستلهم غالباً البيئة والمناخ والعادات المحلية فيختلف باختلافها ويتغيّر بتغيّر البلدان والشعوب[1] . وتعديل شريعة الصوم القرباني عند المسيحيين اسطع دليل على ذلك .

ولئلا يعرض المسيح ما يسنّه من شرائع للتبديل ، وليقي ما يرسمه من سنن آفة التحجّر والجمود ، آثر ان يعهد الى كنيسته في أمر سنّ أمثال هذه الشرائع الوضعية وفقاً لاحوال الزمان والمكان ، على ان تستلهم في كل ذلك روح الانجيل . ولهذا نراه يصدّ من اتاه قائلاً : « ايها المعلّم قل لأخي يقاسمني الميراث » فيقول له : « من اقامني عليكم والياً ومقسّماً ؟ » . وهكذا كفى المسيح القيّمين على شرح تعاليمه شرَّ اختلاق الاحاديث تبريرًا لنص شريعة بالية لم تعد تنطبق على مشاكل العصر . وكان لنا ان نرى في اكتفاء الانجيل بالروح يحيي ما يستجدّ من شرائع ، مكمن قوّة ، وفي افتقاره الى شرائع وضعية جامدة تعوق الانسان عن التطلّع الى الامام وتحدّ من نزعته الى الانطلاق ، مبعث حياة . وهكذا يسقط زعم الزاعمين بأن خلو الانجيل من تشريع مدني نقص وتقصير ، بيد انه في الحقيقة باب ابداً مفتوح للتمشي مع مقتضيات العصر ، فيقي الاذهان الجمود ، ويتيح للشريعة الاندفاع مع حاجات الانسان والمجتمع الذي يعيش فيه .

٣ — واراد المسيح ان يحترم حرية الانسان فاشاح النظر عن سنّ شرائع وضعية . ولو انه فعل لكان قد خلط بين الشرائع المدنية والشرائع الدينية ودمج السلطة الروحية بالسلطة الزمنية ، فقيّد حرية الانسان ودفعه الى عبادة ربه عبادة العبيد لا الأحرار ، فيروح يصوم مثلاً خوف السجن لا تقرّباً من الله ، ويصبح يصلّي اتقاء السوط ، لا تلبية لحاجة في النفس ملحّة ، فيفسد مفهوم الدين وتضيع المثابة .

واذا كانت الشعوب الواعية تطالب بفصل السلطة التشريعية عن السلطة القضائية والتنفيذية ، ضماناً لحريات الافراد ، فما القول عن وجوب المطالبة بفصل السلطة الروحية عن السلطة الزمنية ، ابقاء على حرية المعتقد والعبادة .

---

١) مزاج الشعب الانكليزي وبيئته ومناخه فرض عليه الملكية ، بيد ان بيئة الشعب الافرنسي ومناخه ومزاجه انتهى به الى اعلان الجمهورية ، ومع ان البلدين محاذيان بعضهما لبعض .

سلطان التشريع وحرية الفكر

لقد قام من عاب على الكنيسة حدّها الفكر عن الانطلاق باستعمالها سلطة التشريع وعرقلتها سيره في معارج التقدّم[١] ولكن الحقيقة هي خلاف ما يزعمون. ما حدّت الكنيسة يوماً الفكر البشري عن الانطلاق ولا قيّدت حرية التفكير، لكنها ما تقاعست عن القيام بواجبها في رذل العقائد المفسدة الهدّامة التي تناقض تعاليم الانجيل. وما كلا الأمرين سواء. لقد احترمت الكنيسة الانسان في جسده ونفسه اعمق احترام، فعلّمت ان جسده «هيكل الروح القدس» يجب ان يحاط بالعناية والاكرام، ورذلت المانوية والالبيجوازية القائلتين بتحريم الزواج احتقاراً للجسد، كما رذلت بدعة الصوفيين المتطرفين الذين قالوا بعدم اباحة رسم الاجساد ونقشها في الحجارة. وعملت على تشجيع فنّي النحت والتصوير، فمنحت اكابر الرسامين والنحاتين الجوائز المغرية، وطلبت اليهم وضع لوحات وتماثيل عن اولياء الله وقديسيه زيّنت بها صدور المعابد؛ ومتاحف روما ولا سيما الفاتيكان، والعالم المسيحي اجمع خير مصداق على ما نقول.

وسهرت الكنيسة في كل عصر على انتاج العقل البشري، اياً كان نوعه ومصدره فحضّت رجال الدين على تعهّد آداب الاغريق والرومان بالعناية، فقضى معظم الرهبان حياتهم، قبل عهد الناس بالطباعة، في نسخ الملاحم والمسرحيات والخطب والتواريخ التي وضعها الاقدمون، ولولا الكنيسة لكان هذا التراث الثقافي القيّم اصبح اثراً بعد عين.

واحترمت الكنيسة المذاهب الفلسفية فتدارس طلاب الكهنوت في مدرستي انطاكية والاسكندرية اولاً، كتب الوحي وكشفوا عن مضامينها وشرحوا على نورها الافلاطونية المستحدثة التي اخذ عنها اوريجانوس وتأثر بها الى حدّ بعيد فيلسوف الكنيسة الاكبر القديس اغوسطينوس. وافرغ اساتذة اللاهوت زبدة الوحي في قوالب يونانية؛ وايقظ توما الاكويني ارسطو من رقاده، «فنصّره» وشرح تعاليمه وجعلها قاعدة لمذهبه الفلسفي اللاهوتي النيّر.

---

١) وصم بعض المؤرخين الكنيسة بالرجعية لرفضها بداءة ذي بدء نظرية غليله في دوران الارض. وليس موقف الكنيسة من هذه النظرية مرده الى الجهل او كره العلم، انما الى التحفظ ازاء مذهب جديد لم يتسن لرجالها درسه وتمحيصه بدقة وروية. فكان موقف الكنيسة من غليله موقفها من ارسطو. حاذرته اولاً ثم اقرته وعملت على نشره بعد ان اطلع علماؤها على دقائقه.

وانشأت الكنيسة الجامعات في جميع انحـاء اوربا ، ثم على جنبات المعمور قاطبة . فكان لنا جامعة السوربون في فرنسا ، وجامعة كولونيا في المانيا ، وجامعة اكسفورد في بريطانيا ، وسلمنكا في اسبانيا . وقد عُنيت كل منهـا بجميع العلوم المعروفة ، ومنحت طلابها ارقى الشهادات في ارقى العلوم . ومـا تزال الكنيسة حتى اليوم تتّبع النهج الذي سارت عليه منذ القديم ، فيكبّ رجالها على نهل العلوم من مظّانها ، ويعملون على نشرها في ثبات ونشاط . وحسبها فخرًا انها اسهمت الى حدّ بعيد في تكوين الحضارة التي ننعم بخيراتها اليوم .

لقد وقت التراث الفكري من الضياع ، بعد انهيار الامبراطورية الرومانية تحت ضربات البرابرة ، ولقّحت الفكر الوثني بالفكر المسيحي ، فحمل مرسلوها الى اليونان حكمة التوراة وآداب الانجيل ، واخذوا عنهم وضوح التعبير ودقة التفكير ، فنتج عن هذا التلاقح تراث جديد نقلوه الى روما ومنها حملوا الى برابرة اوروبا الحق الروماني وصرامة تفكيره ومنطق الاغريق ، بعد ان وشّوهما بسحر الاسفار الالهية ، فكان نتاج خصب من فكر مشرقٍ تجلّى في الفلسفة المدرسية والادب المدرسي . وأطلّ رجال الكنيسة على العالم الجديد من ارض كولومبوس ، وفي ايديهم مشاعل العلم والثقافة فنوّرت بمقدمهم هاتيك البقاع ، وجعلوها ارض الحرية والتسامح والتفتوا صوب شطئان المحيطين الهندي والهادئ فسلّطوا انوار الهدي السماوي على صوفية الهندوس ، فانهضوها من سباتها ، وعلى حكمة الصين فتململت في اكفانها ، وعلى حذاقـة اليابانيين فدفعوها في اتجاه يبشر باطيب المجاني ؛ واشرق سواد الوجوه في افريقيا بما ادخلوه على الطباع الزنجية الساذجة المرحة من اسباب جديدة للعلم والحضارة والدين ، وهكذا لا تزال الكنيسة تعمل على صهر المدنيات وبلورتها وإغنائها بما تمدّها به من نعمة الوحي ونتاج العقول .

فلا سبيل بعد هذا الى القول ان الكنيسة عرقلة سير الفكر ، وقد تركت لارباب البصيرة من المؤمنين حرية الدرس والتمحيص ، وافسحت لهم مجال التبحّر والتعمّق وشجّعتهم على الخوض في كل مبحث في شتى مناحي الفكر البشري وساعدتهم على ابرازها في حلل جديدة قشيبة . واحترمت تقاليد الشعوب[1] ، وحافظت على تنوّع

١) في مفتتح القرن السابع للمسيح كتب البابا غريغوريوس الاول الكبير الى القديس اغسطينوس اسقف كانتربري يقول : « دع البريطانيين وعاداتهم وأبق لهم اعيادهم الوثنية ، واكتف « بتنصير » تلك الاعياد والعوائد ، واضعاً إله المسيحيين موضع آلهة الوثنيين » .

الطقوس في مختلف الطوائف فما فرضت صيغة موحّدة لصلاة ، وان فرضت قانون ايمان موحّد ، هكذا رفعت بيمناها انجيلاً ظلّ ، على قدمه ، دائم الجدّة ، أبدي الاشعاع ، وحملت بيسراها مدنيات الاجيال السحيقة ، بعد ان جلتها وقدمتها هديّة لا أغلى ولا أثمن ، لمن تعاقب ويتعاقب على وجه الارض من روّاد معرفة وطلاب نور .

٤ – الكنيسة سر المسيح

« من الناس من يعجبون بصمود الكنيسة ، عبر العصور ، في وجه الاعاصير ، ومنهم من يكبرون فيها الحكمة والرشاد في التنظيم والتدبير ، ومنهم من يعظون ما بذلته من جهود في سبيل البقاء على التراث الثقافي اليوناني الروماني الجليل ، وإغنائه بما مدته به من آثار خالدة ، وغيرهم يطرون في رجالها الغيرة والتفاني في سبيل نشر العدالة والمحبة ، وتشييد دور الرحمة والاحسان ، وسواهم يمتدحون ما خصّت به رجال الفن من تشجيع ، ويثنون على ما تحوط به من الأخلاق والآداب المسيحية ، في المعاهد والمعابد والبيوت ، من سهر وعناية . اما نحن المسيحيين فاننا ، وإن كنّا نشاطر هؤلاء المعجبين اعجابهم ، لا نتوقف من الكنيسة عند مظاهرها الخارجية بل ننظر اليها في جوهرها ، فنمحضها خالص المحبة والشكر على كونها جعلتنا في العماد ابناء الله ، ووضعت في نفوسنا ، بفضل استحقاقات الفادي الالهي ، النعمة الالهية ، جرثومة النعيم الابدي[١] فهي لنا علّة الخلاص » . اجل ان مهمتها الأولى تقوم على التبشير بتعاليم المسيح وجعل الناس اعضاء حية في جسده السرّي الحيّ . وما تبقّى فثانوي لا يجب التوقف عليه الاّ بنسبة ما يساعد على تبيّن وجه الكنيسة الحقيقي . لذلك جاز لنا القول « ان الكنيسة ، سر المسيح »[٢] .

اي علامة حسيّة تشير الى وجود المسيح ، بعد صعوده الى السماء ، في ما بين البشر . فعندما نراها نرى المسيح . كما أن طبيعة المسيح البشرية كانت علامة حسية

---

١) من اقوال الاب دي لوباك اليسوعي : « تأملات في الكنيسة » .

٢) ان لفظة سر تعني حقيقة يعجز العقل عن ادراكها بقواه الطبيعية ، كسر التجسد ، والفداء ، والثالوث الاقدس .

وتعني ثانياً علامة حسية تمنح النعمة الالهية . فهي ترمز الى النعمة وتحدثها ، فتفعل ما تمثل وتمثل ما تفعل ، كسر العماد وغيره من اسرار البيعة السبعة ، فالسر هنا علامة ترمز الى حقيقة خفية كالدخان يرمز الى النار والعلم الى الوطن والمصافحة الى الصداقة وهلم جراً . وبهذا المعنى نقول ان الكنيسة سر المسيح اي هي علامة حسية ترمز اليه .

تشير الى محبة الله للبشر ، وعلامة فعّالة تهبهم النعمة الالهية . وقد اشار السيد المسيح في انجيله الى هذه الحقيقة فخاطب ، ليلة العشاء السريّ ، فيليبوس بقوله : « يافيليبوس من رآني فقد رأى الآب ... أفلا تؤمن اني انا في الآب وان الآب فيَّ ؟ الاقوال التي اكلّمكم بها لا اتكلّم بها من نفسي . بل الآب المقيم فيَّ هو يعمل اعماله » (يو ١٤/ ٩) . وهكذا يمكننا القول ان المسيح سرّ الآب والكنيسة سرّ المسيح اي ان كلاً منهما يشير الى حقيقة خفية ترشد اليها العلامة الحسية الظاهرة .

ويوم أعلن السيد المسيح لتلاميذه الوهته في قيصرية فيليبوس كشف لهم عن حقائق ثلاث : « الوهته ، وسرّ الفداء ، والكنيسة ، لما بين هذه الحقائق الثلاث من روابط وثيقة » . « فلم يكتف السيد المسيح — كما يقول الاب كونغار في كتابه «محاولة في رسم سر الكنيسة» ؛ وجه ٣٥ — باستخدام « الاسرار — الاشياء » ليقدّس البشر ويخلّصهم ويؤلّف معهم جسده السري ، لكنه اراد استخدام « الاسرار — الاشخاص» علامات حسيّة حيّة للغرض عينه » . فجاز القول ان السلطة الكنسية القائمة على توزيع الاسرار وخدمتها يصح ان تسمّى « سرّاً — شخصاً » لكونها علامة يسوع المسيح الحسيّة التي تمنح للبشر النعمة . وكما يستخدم الله المادة في الاسرار من خمر وخبز وزيت اداة لمنح النعمة ، يستخدم كذلك الاشخاص على ضعفهم وشقائهم ، من كهنة واساقفة ، ادوات لمنح النعمة بواسطة توزيع الاسرار . وهكذا لا يبقى من ثمّ سبيل الى نسبة المعجزات الروحية الى الخلائق بل الى الخالق وحده الذي يفعل ، بواسطة الخليقة ، فعله في النفوس .

وقد اعتمد السيد المسيح في تحقيق خلاص البشر عاملين : عاملاً روحياً هو الروح القدس ، وعاملاً خارجياً هو الكنيسة ورجال السلطان فيها . وهؤلاء يعبّرون في القيام بوظيفتهم الروحية عن ارادة ذاك . وأدرك الرسل الذين أسس المسيح عليهم كنيسته بعد ان سلّمهم سلطان الحل والربط والتدبير ان لهم رسالة عليهم ان يؤدوها معتمدين على ذاك الذي قال لهم : « هاءنذا معكم كل الايام الى منتهى الدهر » (متى ٢٨/ ٢٠) وعلى ادائهم الشهادة، وعلى توزيع الاسرار وتدبير المؤمنين .

وعرف الرسل ، بعد ان حلّ عليهم الروح القدس انهم شهود المسيح . فاضطلع بطرس بمهام وظيفته بجرأة واقدام فقال ، وهو يعبّر عن ارادة الروح القدس : «فلقد رأى الروح القدس ونحن الاّ نضع عليكم ثقلاً فوق هذه » (اعمال ١٥/ ٢٨) . وشهد الرسل جميعاً بما تلقوه من تعاليم عن معلّمهم الالهي ، وبما رأوه في حياته من معجزات ، ولا سيما صلبه وقيامته فأقرّوا بأفعالهم قوله لهم : « ستنالون قوّة بحلول الروح القدس

عليكم فتكونون لي شهوداً في اورشليم وفي جميع اليهودية والسامرة والى اقاصي الارض» (اعمال ١/٨) . وقد قام ايمان المؤمنين على شهادة الرسل .

وعرف الرسل انهم خدمة اسرار المسيح فوزعوها على الناس وعلّموهم ان الايمان وحده لا يكفي لدخول ملكوت الله ، بل ينبغي للانسان ان يولد ميلاداً جديداً بالماء والروح عملاً بقول المسيح : « الحق اقول لكم : ليس احد يقدر ان يعاين ملكوت الله ما لم يولد من فوق ... ما لم يولد من الماء والروح » (يو ٣/٣) . ولهذا منحوا سرّ المعمودية وقسموا جسد ابن الله غذاء للنفوس ، ووضعوا ايديهم على بعض الاتقياء فرقّوهم الى درجة الكهنوت المقدس ، ومسحوا المرضى بالزيت لمغفرة الخطايا (اعمال ٨/١٤ و١٨/٢٤ و١٩ ؛ يعقوب ٥/١٤) .

وعرف الرسل ان سلطان الكهنوت الذي قلّدوه يجعلهم رؤساء للشعب روحيين فيلقي على عاتقهم مسؤولية التعليم والتدبير (عبر ١٣/٧) ، وقد مارسوا هذا السلطان . وكثيراً ما تدخّل بولس في ادارة الكنائس ففرض رأيه بقوله : « اني اوصي لا انا بل الرب ... اقول انا لا الرب » (كور ١ : ٧/١٠ــ١٢) . وعاقبوا المذنبين بالفصل عن جسم الكنيسة ومنعوا عنهم الاسرار تأديباً لهم وعبرة لغيرهم ، واعتبروا اتخاذ هذه الاجراءات واجباً مقدساً تفرضه عليهم وظيفتهم (كور ١ : ٥/٤ــ١٢) .

وهكذا كان الرسل شهوداً وموزعي اسرار ورجال ادارة ، فكوّنوا مع المؤمنين جسد المسيح السرّي (افسس ٤/١٢) ، ونهجوا للناس سبيل الخلاص (اعمال ٢٠/٣٢ ؛ روما ١٠/١٤ ؛ كور ١ : ٣/٢٥) فصالحوا البشر مع الله (كور ٢ : ٥/١٨ و٣/٩) وخدموا عهد الروح (كور ٢ : ٣/٦) فكانوا عمد الكنيسة واساطينها ، كما رآهم يوحنا في رؤياه عندما تحدّث عن الكنيسة اورشليم السماوية ولها اثنا عشر باباً وسور مبني على اثني عشر حجراً مكتوب على كل منها اسم احد الرسل الاثني عشر . وتسلّم الرسل من المسيح « الراعي الصالح » حق الرعاية « ليجمعوا القطيع في حظيرة واحدة » (يو ١٠) هي الكنيسة . وهكذا كانت الكنيسة وما تزال سرّ المسيح ترمز اليه وتوالي عمله بين الناس . ويقول الاب دي لوباك اليسوعي في كتابه « تأمّل في الكنيسة » (صفحة ١٨٨) : « ان الكنيسة بفضل وجودها على الارض كسرّ يسوع المسيح ، لن تسمح بان يخلط الناس فيما بعد بين الظلمة والنور . بين الأثم والبرارة ، بين باعال والمسيح ، لكنها تحمل المؤمنين بالله الأحـد على رذل كل ما ومن ليس بإله ... وان خيّل لنا يوماً انها تعبة جافة الرحم ، فهذا دليل على انها تتمخّض بعهد جديد مخصب زاهر ، تلد فيه ، رغم ما يعترضها من عقبات ، جيوشاً من قديسين » .

علامات الكنيسة الحقة

لقد أقرّ المجمع النيقاوي وهو المسكوني الاول ، سنة **٣٢٥** ، علامات اربعاً تميّز الكنيسة الحقة ، وقد اجملها في قانون الايمان الذي اصدره بقوله عنها انها « كنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية » . واثبت المجمع الفاتيكاني المسكوني الاول ، سنة ١٨٧٠ ، ضرورة هذه العلامات لتسعف على الاهتداء من لا يهتدي الى وجه الكنيسة الصحيح .

وما تعليم هذين المجمعين سوى شرح لقول المسيح الذي جعل المحبة علامة مميّزة للكنيسة عندما قال : « بهذا يعرف الناس انكم تلاميذي اذا احببتم بعضكم بعضاً» ... فالمحبة وحدها هي التي تظهر وجه الكنيسة الصحيح . لأن المحبة وحدها كفيلة بتحقيق — (وحدة) — القلوب ، تدفع الانسان الى حب الله وحب القريب — (وهذه هي طريق القداسة) — ، فلا يقصر حبه على جنس او نوع — (وهذا هو الشمول) — فيتشبّه في ذلك بالكنيسة التي ما توانت منذ نشأتها في عهد الرسل — (وهي رسولية) — عن دفع الناس في طريق السماء .

العلامة الاولى : الوحدة

الكنيسة واحدة كالمسيح الواحد الذي وحّد بطريقة غير منظورة بين البشر ، وهو على الصليب ، في جسده السرّي . وما تمنّى في صلاته الكهنوتية التي صعّدها الى ابيه قبيل صلبه كأحرّ ما تصعّد صلاة ، الاّ تحقيق هذه الوحدة بطريقة منظورة فقال : « ولست لأجلهم فقط أصلّي ، بل لأجل الذين يؤمنون بي عن كلامهم ايضاً ، لكي يكونوا باجمعهم واحداً . فكما انك انت ايها الاب فيّ ، وانا فيك ، فليكونوا هم ايضاً فينا ، حتى يؤمن العالم انك ارسلتني . لقد اعطيتني لكي يكونوا واحداً كما نحن واحد . انا فيهم وانت فيّ ، لكي يكونوا مكمّلين في الوحدة ، ويعلم العالم انك انت ارسلتني » (يو ١٧ / ٢٠) . وتتجلّى هذه الوحدة :

اولاً في وحدة الايمان الذي اوجز عقائده القانون النيقاوي ، وما تبدّل حرف من حروفه منذ ان وضع حتى اليوم ، ولن يتبدّل . وقد دافع عنه جيوش من شهداء وملافنة علّموا تعليماً واحداً نهلوا قواعده من بحر الانجيل الزاخر .

ثانياً في وحدة السلطة وقوامها رئيس واحد منظور هو الحبر الروماني الاعظم ،

يمثّل رئيسها الواحد غير المنظور وهو السيد المسيح مؤسسها . وما التفاف المؤمنين حول البابا سوى تعبير لالتفافهم حول المسيح ، عن محبة وخضوع .

ثالثاً في وحدة العبادة وهي قائمة على الاسرار السبعة التي ، وان اختلف توزيعها لغة وطقساً ، يبقى جوهر كل منها واحداً لا يعروه تغيير .

العلامة الثانية : القداسة

والكنيسة مقدّسة كالمسيح مؤسسها الذي قدّس لاهوتُه ناسوتَه . فهو القديس المثالي الذي يفيض قداسته على اعضاء جسده السرّي ابناء الكنيسة الهادفين الى القداسة ، وان كان منهم من هم بعيدون كل البعد عنها . والكنيسة مقدّسة :

اولاً لأنها تنتصب مثالا حياً للقداسة فتدعو الناس بمثلها الى قمع الانانية والانفتاح في سخاء على حياة النعمة .

ثانياً لأنها توفّر للناس وسائل تقديس نفوسهم ، فتلدهم لحياة النعمة وتفيض عليهم بواسطة الاسرار وابل الخيور الروحية .

ثالثاً لأنها جعلت بعض الناس من ابنائها ، في الواقع ، قديسين على اختلاف المقام والجنس والسنّ والعصر . واسماء افرام السرياني ، ويوحنا فم الذهب وخوري ارس ، ودون بوسكو ، وترازيا الطفل يسوع وغيرهم كثير ، ما تزال تتألق في سماء الكنيسة على أبهى ما تكون القداسة .

العلامة الثالثة : الشمول

والكنيسة شاملة جامعة اي كاثوليكية كالمسيح الذي شمل سرّ فدائه جميع الناس[1] . وهي جامعة ، لا لأن ابناءها انتشروا في كل صقع وتحت كل سماء ، انما هي جامعة :

١) لا مشاحة ان السيد المسيح خلص جميع البشر بدون استثناء بموته على الصليب حيث استحق لهم نعمة الفداء والخلاص وقد اقام الكنيسة الجامعة قيمة على استحقاقاته توزعها على ابنائها المنتظمين فيها ، بحيث يجب القول : ان لا خلاص خارجاً عن الكنيسة . ولكن هذا لا يعني انه لا خلاص ولا نعيم الاّ للمسيحيين. وجوابنا : ان غير المسيحيين الذين يدينون بدين ما او يتبعون السنة الطبيعية ويهتدون بهدى الضمير وبوحي تقاليد الآباء والاجداد فيصطنعون الخير ويجتنبون الشر ، فهؤلاء يمكننا القول عنهم انهم يفيدون من نعم الفداء ويخلصون اذ انهم عندما يفعلون فعل محبة كاملة لنيل الخلاص الابدي ، يكون فعلهم هذا مشتملاً بذات الحال على الايمان بيسوع المسيح وبكنيسته الجامعة علة الخلاص الوحيدة لعموم البشر

اولاً لأنها تهدف الى جمع البشر حول المسيح ، لتدخلهم في جسده السري . واذا كان الروح القدس قد وهب الرسل ، يوم العنصرة ، هبة اللغات ، فلكي يسهّل عليهم دعوة الناس على اختلاف لغاتهم الى دخول حضن الكنيسة للافادة من نعمة الفداء الذي حقّقه المسيح .

ثانياً لأنها تقدر كالمسيح على توفير سبل الخلاص لجميع الناس اياً كانت اجناسهم والوانهم ونزعاتهم بما تقدّم لهم من غذاء روحي لا يتنافى وتراثهم الحضاري

بحيث انهم يؤمنون بهما وينضمون اليهما فيما لو عرفوهما . اما اذا شكوا في صحة معتقدهم ولم يبحثوا للخروج عن شكوكهم فقد عرضوا بنفوسهم للهلاك .

« مظاهر الكنيسة ص ١٣٤ » .

ويقول الاب دي مونشوي اليسوعي بهذا الصدد :

« لقد افتدى السيد المسيح البشرية كأسرة وهو يتعامل معها كجماعة متماسكة الاجزاء فاذا اتفق لأحد « افرادها ان ينفصل عنها بخطإ منه ويهلك فالبشرية تبقى مفتداة بالرغم من ذلك . الآ ان ثمار ذبيحة « الصليب تصل الى البشر ، حسب تصميم الله ، عن طريق الكنيسة بواسطة ذبائح القداس المقامة فيها « وبها والتي ليست سوى تجديد رمزي وسري لذبيحة الصليب . ولما كانت ذبيحة القداس منوطة بذبيحة « الصليب بحيث ان الاولى تكون جوفاء لا معنى لها دون الثانية وهذه تكون شبيهة بينبوع مقفل ومختوم « لا سبيل للوصول اليه والافادة منه دون تلك ، بات من الواضح ان نعم الفداء والخلاص تصل الى البشر « على مختلف نحلهم ومعتقداتهم بواسطة ذبائح القداس التي هي ذبائح الكنيسة والتي بفضلها تصبح الكنيسة « علة خلاص لهم » .

ويستطرد قائلاً :

« ثم ان الكنيسة ليست بكائن جامد مكتمل الصنع والبنيان ، بل هي كائن حي قابل النمو والاتساع ، « فيها من الزخم الروحي ما يخولها ان تتناول البشرية بأسرها لا من الوجهة الجغرافية بل من وجهة الكيف « والنوع ايضاً بحيث يجب عليها ان تستسيغ كل ما يحدث من خير وصلاح في الكون على الصعيد الانساني « لتصلحه وتحيله الى شيء روحاني . فلا شيء صالح يحدث اذاً في النطاق البشري غريب عنها لأنها مكلفة « بحكم دعوتها بتكريس كل شيء وتقديس كل شيء وتحويله الى درجة اسمى ثم بتقديمه الى الله عز وجل . « ولهذا كل الذين يعملون جاهدين بحافز النعمة الالهية لصنع اي شيء صالح كان ، يعملون بذات الفعل « لصالح الكنيسة ، اي لبنيانها ونموها واتساعها من حيث لا يعلمون ، بحيث يقدمون لها المواد الاولية ، « بنوع ما ، لتصنع منها شيئاً ذا قيمة واستحقاق بعين الله ، يعينها على بلوغ غايتها . فيوجد ثمة رابطة « حقيقية ما بين عملهم والكنيسة . فهم وان لم يكونوا من ابنائها بشكل منظور يبقون مع ذلك على اتصال « بها ، والنعمة الخلاصية التي تعمل فيهم هي نفسها التي تعمل وتدير حركة النمو والاتساع فيها ، « وبذلك يستفيدون من نعم الفداء بواسطة الكنيسة من حيث لا يعلمون . فالخلاص لا يتم اذاً الآ بنعمة « خاصة من لدن الله . وهذه النعمة منوطة بوجود الكنيسة ، بحيث ان الجميع يحيون منها ويعملون لاجلها « دون علم منهم . ولهذا جميع الذين يعملون بنية مستقيمة لاجل خلاصهم يكونون بذات الفعل ضمن « الكنيسة بالرغبة والشوق من حيث لا يعلمون إذ انهم كانوا ينضمون اليها لو عرفوها » .

وغني عن التنبيه ان تلك القاعدة لا تجري الآ على الذين يعيشون خارجاً عن الكنيسة . اما الذين ينتمون اليها فيشملهم التدبير الالهي القاضي بالحصول على نعمة الفداء في داخل الكنيسة عن طريق الاسرار الالهية .

قديماً كان او حديثاً . وقد رأيناها تغذو روما واليونان بخبز الروح والحياة كما نراها تغذو اليوم اميركا وآسيا ...

وكما ان المسيح ، آدم الجديد ، قد تعهّد مصير البشرية منذ ان اتخذ جسداً بشرياً فرفع معه على الصليب القيم الطبيعية الى مستوى الحياة الفائقة الطبيعة ، هكذا منح الكنيسة من الحيوية ما يمكّنها من التسامي بالأفراد الى ما فوق الطبيعة ، ومن القوة ما تقوى معه على صهر الناس اجمعين في بوتقة واحدة هي جسده السري . وهكذا تكون شاملة جامعة اي كاثوليكية[1] .

العلامة الرابعة : رسولية

عهد المسيح قبل مغادرته الارض الى السماء ، بادارة شؤون كنيسته الى الرسل ووضع على رأسهم بطرس . فكانوا السلطة التي تضطلع بمسؤولية التدبير والتعليم وتقديس الناس بالاسرار . وحافظت الكنيسة على هذا النظام ، فخلف بطرسَ بابا روما وخلف الرسلَ اساقفةٌ انتشروا في العالم اجمع . وما زال الرؤساء في الكنيسة يخلف احدهم الآخر حتى يومنا هذا . ولو حاولنا ان نستعرض الاحبار الاعظمين والاساقفة في الكنيسة الكاثوليكية ابتداءً من المتأخرين منهم حتى الأولين ، لانتهينا حتماً الى الرسل دون ان نفقد أية حلقة من حلقات السلسلة . وليس أحرص من الكنيسة الكاثوليكية على التقاليد بحيث يمكننا ارجاع معظم التعاليم وبعض الطقوس ، في جوهرها ، الى تقليد رسولي .

هذه هي العلامات الأربع التي تميّز الكنيسة الحقة ، ونحن وان وجدنا بعضها في هذه او تلك من الكنائس . لكننا لا نجدها كلها مجموعة الاّ في الكنيسة

---

١) لقد اقام السيد المسيح الكنيسة الجامعة قيمة على استحقاقاته توزعها على ابنائها المنتظمين فيها ؛ بحيث يجب القول : ان لا خلاص خارج الكنيسة الكاثوليكية . ولكن هل هذا يعني انه لا خلاص ولا نعيم الاّ للكاثوليك ؟ — جوابنا :

ان المسيحيين من غير الكاثوليك الذين يعتقدون راسخ الاعتقاد ان كنيستهم هي الكنيسة الحقة وقد انضموا اليها بفضل الوراثة دون معرفة او ذنب منهم ، لا سبيل الى القول بأنهم هالكون ، لأنهم يعتبرون من روح الكنيسة وان لم يكونوا من جسدها. اما اذا ساورتهم الشكوك حول صحة معتقد كنيستهم ولم يبحثوا عن الكنيسة الحقة لينضموا اليها ، فلا بد من القول اذ ذاك انهم يعرضون نفوسهم للهلاك . اما الذين ينفصلون عن الكنيسة الكاثوليكية عن معرفة وارادة وحرية احتقاراً لها ، فهؤلاء انما هم يجدفون على النور ، ومن جدف على النور ، فأنى له الخلاص !

في خصوص غير المسيحيين راجع ما قلناه في حاشية الصفحة ٣٠٠ و ٣٠١.

الكاثوليكية ، التي ما برحت تكرز ببشارة الانجيل بجد ونشاط وحيوية واندفاع كما كانت في وقت نشأتها والتي ما زالت تصنع القديسين على شبه معلمها ومنشئها الالهي يسوع المسيح . وما وجود القديسين فيها في كل عصر وصقع الآ دليل على وجوده فيها.

٥ – الكنيسة حواء الجديد

« قد شبّه القديس اغسطينوس الكنيسة بحواء الجديدة ، فقال : « ان حواء الاولى قد اتخذت من جنب آدم الأول لتكون زوجة له في ولادة الجنس البشري ، لكنها ما عتمت ان اسقطته معها في الخطيئة فولدت له البنين في الاثم والمعصية . اما الكنيسة فكانت حواء الجديدة ، خرجت من جنب المسيح الذي فتحته الحربة ، لتشاركه في ولادة الجنس البشري ميلاداً جديداً لحياة النعمة التي استحقها للناس بموته وقيامته » (من عظة في الكنيسة) .

وتلد الكنيسة الناس لحياة النعمة بواسطة الاسرار الالهية التي جعلها السيد المسيح وسائل للخلاص وزوّد الكنيسة بها .

الاسرار

والاسرار اشارات حسية او اعمال تُرى ، لها معنى وفعل لا يُرى ، وضعها السيد المسيح لاجل تقديس النفوس . اقول اشارات حسية لأنها تقع تحت الحواس كالنظر والسمع واللمس وترمز الى حقيقة باطنية راهنة يستدل العقل الى معرفتها . هكذا يدل الدخان مثلاً على وجود النار ويرمز العَلَم الى الدولة التي يمثلها ، وتدل المصافحة على الصداقة واحناء الرأس على الاحترام والدموع على شدة الانفعال وهلمّ جرّاً . فالإشارات المحسوسة التي نراها في الاسرار ، تبيّن لنا ان نعمة الله الداخلية، تحل في النفس وتستقر فيها . هكذا يرمز الماء في المعمودية الى النظافة والتطهير من الاوساخ ، وهو يبيّن لنا ان المسيح يغسل نفس الأنسان المعمّد من خطيئته ويحل فيه بنعمته .

لقد استخدم السيد المسيح مثل تلك الاشارات والعلامات الحسية ، وقد وزّع نعمَ ابيه السماوي وبركاته على البشر بكلمة او باشارة في حين انه كان بمستطاعه انّ يوزّعها بفكرة فقط . فالانجيل يذكر لنا انه لمس الابرص فطهر من برصه (متى ٨ ولو ٥) ؛ وضع يده على المرضى فمنحهم العافية (متى ٨ ولو ٦) ؛ اعلن للمخلع بكلمة ان خطاياه قد غُفرت (متى ٩ ومر ٢) ؛ نفخ في التلاميذ فوهبهم السلطان

لمغفرة الخطايا (يو ٢٠) ؛ واما اعمى منذ ولادته تفل في الارض وصنع من تفلته طيناً وطلى به عيني الاعمى ثم امره بان يذهب ويغتسل ببركة سلوام لكي يحصل على البصر (يو ٩) ؛ ولأخرس أبكم نراه يضع قليلاً من ريقه في اذنيه ويقول : « إتفتح اي إنفتح » فيعيد له سمعه ونطقه على الفور (مر ٧) . وهكذا كان يضع البشر باتصال مع الله ابيه بواسطة تلك الإشارات والعلامات الحسية . هذا وقد كان المسيح نفسه إشارة وعلامة حسية لوجود الله بين البشر . وقد دُعي بحق سِرّ الله الكبير لأنه كان يدل على وجود الله بين البشر وكان يمنحهم اياه وهو القائل : « من رآني رأى الآب » (يو ١٤ /٩) . وقد دُعيت الكنيسة ايضاً من بعده سرّ المسيح ، اي العلامة او الإشارة الحسية التي تدل على وجوده والتي تمنحه للبشر ، ذلك لأن المسيح قلّدها ذاك السلطان لما قال لتلاميذه : « إذهبوا وتلمذوا الامم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس (متى ٢٨ /١٩) .

فالاسرار هي اذن بمثابة قنوات تأتينا بواسطتها نعم الفداء التي استحقها لنا المسيح بموته على الصليب . والاسرار سبعة : المعمودية ، التثبيت ، القربان المقدس ، التوبة ، مسحة المرضى ، الكهنوت ، الزواج .

وقد حدّد المسيح هذا العدد السبعة ، لأن حياة الانسان الروحية كحياته الجسدية تتطلب هذا العدد لا اكثر ولا أقل . اجل ، سبعة اشياء هي ضرورية لحياة الجسد : الولادة ، النمو ، الغذاء ، مكافحة المرض والشفاء منه ، حسن التدبير من قبل السلطة ، الزواج لتناسل البشر ، والتعزية والمساعدة عند الموت . وسبعة اشياء ضرورية ايضاً لحياة النفس : الولادة الروحية (المعمودية) ، النمو (التثبيت) ، الغذاء (القربان المقدس) ، التنقية والشفاء من الخطيئة (التوبة) ، القوة والامانة على احتمال الحياة الزوجية (الزواج) ، الالتجاء الى وسيط يدني النفس من الله ويمنحها نعم الفداء (الكهنوت) ، تعزية النفس وانعاشها في المرض وتأهيبها للمثول امام الله عند الموت (مسحة المرضى) .

١ – سر المعمودية

سر المعمودية هو سر يمحو الخطيئة الاصلية في الانسان ويمنحه الولا دة الروحية الثانية الجديدة من العلاء التي تكلم عليها السيد المسيح في حديثه مع نيقودومس احد علماء الناموس في اسرائيل بقوله له : « ان لم يُولَد احد ثانية فلا يقدر ان يعاين

ملكوت الله ... ان لم يولد احد من الماء والروح فلا يقدر ان يدخل ملكوت الله» (يو ٣) .

اما قدرة الولادة الروحية الجديدة من العلاء فمن دأبها :

١ ــ ان تجدّد الانسان ثانية فتنقله من الموت الى الحياة بحيث يفيض الله عليه نعمته الالهية فيغيره ويحييه ويُلقي فيه بذور الفضائل الالهية الثلاث ، الايمان والرجاء والمحبة ، التي تساعده على النمو المتواصل في الحياة الالهية كلما اتى بعمل ثوابي .

٢ ــ ان تحرره من مخالب ابليس ومن نير الخطيئة . وان كان راشداً فالمعمودية تمحو له جميع الخطايا التي اقترفها مدة حياته قبل اعتماده .

٣ ــ ان تدخله في حظيرة الكنيسة فيصبح ابناً لله بالتبني واخاً للمسيح وعضواً عاملاً في جسده السرّي قابلاً ان يستفيد من استحقاقات شركة القديسين .

يجري سر المعمودية على الشكل الآتي : يأخذ الكاهن الماء بيديه ويصبه على رأس المُعمَّد قائلاً : « انا أعمّدك يا فلان باسم + الآب + والابن + والروح القدس » عملاً بكلام السيد المسيح القائل لتلاميذه حين قلَّدهم سلطانه الالهي واطلقهم يكرزون بالانجيل للخليقة كلها : « اني قد اعطيت كل سلطان في السماء والارض فاذهبوا وتلمذوا كل الامم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس» متى ٢٨/١٨) .

اما رموز الماء في الكتاب المقدس فهي :

ا ــ الماء يُحيي بحيث يمنح الخصب للارض ويفجّر الينابيع وسط الصحراء فيروي وينعش كل ما كان جافاً .

ب ــ والماء يميت ويبيد ايضاً كما حدث ذلك في الطوفان على ايام نوح .

فالماء مرغوب عندما يمنح الحياة ، ومخوف عندما يُميت ويُبيد . ففي العهد القديم خلق الله كل حياة ، كما جاء في نصوص التوراة ، ابتداءً من الماء ، وارسل الطوفان على ايام نوح ليبيد البشرية الاثيمة بسبب كثرة خطاياها ولم ينج من الطوفان سوى نوح البار وعائلته . وتطهر نعمان السرياني من برصه باغتساله في مياه الاردن على طلب وضراعة اليشع النبي (ملوك ٤ : ٥) . وفي العهد الجديد تعمَّد السيد المسيح نفسه من يوحنا المعمدان في الاردن حاملاً البشرية الأثيمة في شخصه لكي يطهرها من آثامها

بمعمودية التوبة والتكفير ، وهناك حلّ الروح القدس عليه بشكل حمامة ليصنع بواسطته خلقة جديدة ويدخل معها في عهد جديد «العهد المسيحاني» الذي تكلم عليه الانبياء ؛ فكان الماء في كل هذه المشاهد اداةً لإبادة الخطيئة ومنح النعمة الالهية . وقد شبه السيد المسيح موته وقيامته ايضاً بمعمودية لما قال : « ولي صبغة اصطبغ بها وما اشد تضايقي حتى تتمّ » (لو ١٢/٥٠) اي لي معمودية يجب ان اتعمد بها وهي معمودية الدم . ومن المعلوم انه حرّر البشرية باجمعها من نير الخطيئة الاصلية ومن مخالب ابليس في هذه المعمودية ومنحها قدرة على ان تحيا حياة ابناء الله . وتكون المعمودية على ثلاثة انواع : معمودية الماء (وتكون بالتغطيس او بالغسل او بالرش) ومعمودية الشوق ومعمودية الدم . اما معمودية الشوق فتقوم باشتياق شديد الى قبول المعمودية التي تكلم عليها السيد المسيح حينما يتعذر على الانسان قبولها . ومعمودية الدم هي تقدمة الانسان نفسه للاستشهاد حباً بايمانه المسيحي . فالمسيحي الذي قبل سر المعمودية عليه ان يكون اميناً على نعمة الله التي اقتبلها وان يقوم بموجبات المعمودية ومقتضياتها ، وان يكون رسولاً في المجتمع الانساني يقيه الفساد ويبث فيه ذوق وطعم الحياة الابدية .

٢ – سر التثبيت

هو سرٌ يرسخ اقدام المؤمن في الايمان ليمنحه مواهب الروح القدس فيجعله جندياً يذود عن حرمات الله ، ومقدسات الدين . والميرون ، وهو زيت وبلسم ، رمز النشاط بدليل استعماله في ذلك اجسام من يتأهبون للمصارعة ، يشير في هذا السر الى ما يشيع في نفس المؤمن من قوة ونشاط للثبات في الدين وللدفاع عنه .

٣ – سر القربان الاقدس (الافخارستيا)

هو سر حضور ربنا يسوع المسيح حضورًا حقيقياً بجسده ودمه ونفسه ولاهوته تحت اعراض الخبز والخمر . انشأه السيد المسيح ليلة موته على الصليب لما اخذ خبزًا وباركه واعطاه للرسل قائلاً : « خذوا وكلوا هذا هو جسدي الذي يُبذل لأجلكم » ثم اخذ كأساً فيها خمر واعطاهم قائلاً : « خذوا واشربوا من هذا كلكم ، هذا هو دمي العهد الجديد الذي يُهراق عنكم وعن كثيرين لمغفرة الخطايا . اصنعوا هذا لذكري (متى ٢٦/٢٦ ؛ لو ٢٢/١٩ ؛ كور ١ : ١١/٢٣ وما يليه) .

وقد احال الخبز بهذه الكلمات الى جسده والخمر الى دمه . وبكلمته هذه « اصنعوا ذلك لذكري » اعطى الرسل والاساقفة والكهنة من بعدهم سلطاناً ليحوّلوا مثله الخبز

الى جسده والخمر الى دمه . لقد ادّخر المسيح تأسيس هذا السر الى ليلة صلبه كي يربطه بسر الفداء ويجعله يتخذ نفاذه وفاعليته من آلامه وموته ، فيكون فيما بعد تجديداً رمزياً لذبيحته على الصليب ثم لكي يمنح صلبه طابع الذبيحة الاختيارية المقدسة بدلا من طابع الجريمة اللاحقة به من قبَل اليهود . وغاية المسيح من تأسيس سر القربان او الافخارستيا ثلاث : تجديد ذبيحة الصليب بشكل رمزي ، تقوية النفوس من حياته الالهية وتسهيل عمل الخلاص لها ، والمكوث الدائم بين البشر بحضوره السرّي في الكنائس .

اما تجديد ذبيحة الصليب بشكل رمزي فيجري في القداس الالهي حيث يتيح المسيح لجميع مسيحيي الاجيال والعصور ان يشركوا ذبيحتهم في ذبيحته ويستفيدوا عملياً من استحقاقات صلبه وقيامته .

فالقداس هو ذبيحة الكنيسة باجمعها . وهو ذبيحة بالشكل التالي : كان المسيح كاهناً وذبيحة معاً على الصليب ؛ قرّب ذاته قرباناً لله ابيه وقرّب معه البشرية فغسلها من ادرانها بدمه الذكي وكانت البشرية تقدمه هي ايضاً بدورها في الوقت نفسه لله ابيه كباكورة ثمارها المتجددة . وفي القداس ، هي الكنيسة ، البشرية المتجددة ، تنضم الى المسيح لتقرّبه لله ابيه وتقرّب ذاتها معه ، ذبيحة تكفير ورضى وخلاص . هذا ما ترمز اليه نقطة الماء التي يمزجها الكاهن بالخمر . وغني عن البيان ان رتبة القداس لا تمثل ذبيحة الصليب تمثيلاً دراماتيكياً ، بل بالشكل الرمزي الذي اراده السيد المسيح نفسه ، اعني به تكريس الخبز والخمر . فالكاهن المنحني على الخبز وعلى الكأس يلفظ كلمات السيد المسيح ويردد العمل الذي عمله لاول مرة ليرمز عن آلامه المزمعة . فالخبز والخمر يمثلان ، كما في العشاء السري سابقاً ، جسد المخلص المبذول ودمه المسفوك على الصليب ، المنفصلين بعضهما عن بعض والمتحدين معاً . ولقد اختار المسيح الخبز في الافخارستيا لأنه يمثل الانسان بالاكثر فهو ثمرة تعبه وجهاده خبز الشقاء الذي فرضه الله على آدم بعد سقوطه في الخطيئة لما قال له : « بعرق وجهك تأكل خبزك » (تك ٣/٩) ؛ خبز الظلم الذي يتزاحم عليه البشر ويتخاصمون ، والذي يستحيل الى خبز المحبة والاخاء اذا ما اراده البشر رابطة ما بينهم عندما يكون ما بينهم « اكل خبز وملح » . فهذا الخبز المؤلف من حبات حنطة كثيرة ، قد اختاره المسيح وكرّسه واحاله في الافخارستيا الى جسده ودمه ونفسه ولاهوته في العشاء الاخير من حياته على الارض ، على مائدة ضمت اليها جميع رسله ، فجعله خبز المحبة يتقاسمه البشر مدى الدهر ، على المائدة المقدسة في الكنائس ،

مائدة الاسرة البشرية الكبرى ، التي تضم اليها جميع ابناء آدم المتشتتين في العالم ، لتحيلهم الى اخوة بالمسيح ، رغم تباين اللون والعرق والجنس والمرتبة ، وخبز العدالة الذي يرغم الكبير ليحدب على الصغير والغني ليحنو على الفقير ، وينظر فيه اخاً مفتدىً مثله بدم المسيح الفادي . واختار المسيح الخمر في الافخارستيا لأنه يمثّل عذاب الانسان ومحنه – والخمر عصير الكرمة التي كانت تُداس سابقاً في الأرجل – وقد جاء ليقدّس عذاب الانسان ويجعله اداة تكفير وخلاص بيده . فمنذ تأسيس الافخارستيا اصبح بمقدور الانسان ان يمزج كل يوم في القداس الالهي ، مع نقطة الماء ، في كأس الخمر ليس فقط نقطة عذابه وآلامه بل حياته اليومية بكاملها مع كل ما فيها من الاعمال التافهة الرتيبة والمضنية لتتخذ استحقاقات ابدية لا حدّ لها . فالافخارستيا تهيّء البشر للملكوت الله منذ هذه الدنيا إذ إنّها توفر لهم نعم الفداء والخلاص بغزارة وتعينهم على تغيير حياتهم اليومية وتأليهها بنوع ما .

يقسم القداس الالهي ثلاثة اقسام :

ا – تقدمة الخبز والخمر بعد التهاليل والتسابيح وقراءات الاسفار المقدسة من العهدين القديم والجديد .

ب – تكريس الخبز والخمر .

ت – المناولة .

وافضل اسلوب لحضور ذبيحة القداس هو الاشتراك فيها مع الكاهن والمتابعة بتقوى حركاته وصلواته . ويكمل اشتراك المؤمنين في الذبيحة بتناولهم القربان المقدس .

٤ – سر التوبة

وهو يعيد الى المؤمن ما فقده بالخطيئة من نعمة التبرير . فالمؤمن يشكو نفسه في السر ، نادماً خاشعاً وهو راكع في كرسي الاعتراف ، مستهلاً بقوله : « باركني يا ابتَ لأني اخطأت الى الرب ! » ويروح يعدد خطاياه بانواعها وظروفها . والكاهن يستمع اليه كأب يشعر بما يشعر به الناس من ضعف ويرشده الى ما يمكّنه من تحطيم ما كبّلته به الآثام من قيود ، وكطبيب يعاونه بما يسديه اليه من نصح وما يصفه له من دواء على استعادة ما فقده من برارة ، وكقاضٍ ينظر في دعواه ، فيصدر الحكم ويفرض العقاب : فيحكم مثلاً على السارق بالرد وعلى القاتل بالتكفير وعلى النمّام بالتعويض وهلمّ جرّا . وما العقاب الا صلوات وتضحيات واعمال مبرات . واذا أنس

من التائب توبة حلّه من قيود آثامه ، ويغادر التائب منبر التوبة مرتاح البال ، بادي النشاط وقد تزوّد سلاحاً جديداً لخوض معركة جديدة .

ولا سبيل الى الاخذ بقول المبتدعين الذين يدّعون ان الاعتراف امام الله بالخطايا دون الكاهن ، كافٍ لمغفرة هذه الخطايا ، وذلك للاسباب التالية :

١ً — ان الاعتراف امام الكاهن — والكاهن معرّض للخطأ كالتائب — فيه تذليل للكبرياء ، مصدر الخطيئة ، وتذليل الكبرياء علامةُ صادقة من علامات التوبة الحقة .

٢ً — ان الاعتراف امام الكاهن ضروري ؛ لأن الخطيئة ظلمة ، على ما اشار اليه السيد المسيح ، والتوبة نور ، والانتقال من الظلمة الى النور لا يكون الاّ على يد دليل يؤمن معه العثار ؛ وهذا الدليل هو الكاهن .

٣ً — ان الاعتراف امام الكاهن ضروري ، لأن الخطيئة معناها وثنية تقوم على عبادة آلهة هي صنع ايدي الانسان . والكاهن يساعد التائب على تحطيم آلهته الكاذبة .

٤ً — والاعتراف امام الكاهن ضروري لأنه ما من انسان يصلح للنظر في دعواه الشخصية والكاهن هو القاضي النزيه الذي يصلح للنظر في دعوى التائب .

٥ً — والاعتراف امام الكاهن ضروري اخيرًا لأنه يتيح للتائب ان يتيقن صدق توبته . اذ ان الانسان كما انه لا يمكنه ان يتيقّن محبته لله الاّ اذا احب القريب ، كذلك لا يمكنه ان يتيقّن صدق توبته الاّ اذا اعترف بخطاياه امام كاهن المسيح .

ومن المعلوم ان الكاهن ملزم بحفظ السر ، ولو كلفه حفظه الحياة ، ولربما حمل الدية لذوي القتيل والرد لمن أصيب بماله ، يلزم بهما قاتلاً او سارقاً لا تناله يد العدالة ، والجاني يعرف ان سرّه دفين وانه لأهون على صاحبة نزول القبر من افشائه .

٥ — سر مسحة المرضى

وهو يمدّ المحتضر بالشجاعة لاحتمال الآلام ، فيمحو ما تبقّى عليه من خطايا ويمسح على جراحه بالتعزيات المسيحية ، فيجبه المؤمن الموت واثقاً من رحمة ربه ،

مطمئناً الى حسن المصير ، والزيت في هذا السر ، يدهن به الكاهن حواس المريض يشير مثله في سر التثبيت الى الشجاعة والعافية الروحية . وقد اوضح ذلك يعقوب الرسول بقوله : « هل فيكم مريض ، فليستدع كهنة الكنيسة وليصلّوا عليه ويمسحوه بالزيت باسم الرب . فان صلاة الايمان تخلّص المريض والرب ينهضه . وان كان ارتكب خطايا تغفر له » (٥/١٤) .

٦ — سر الزواج

وهو يقدّس قران الزوجين ويمنحهما من النعم ما يمكّنهما من النهوض باعباء الحياة الزوجية ، ويرمز الى اتحاد المسيح بالكنيسة على ما اعلن بولس الرسول حيث قال : « ايها الرجال أحبوا نساءكم كما احبّ المسيح كنيسته وبذل نفسه لأجلها ليقدّسها مطهّرًا اياها بغسل الماء وكلمة الحياة ، ليهديها لنفسه كنيسة مجيدة لا كَلَفَ فيها ولا غضن ولا شيء مثل ذلك ، بل تكون مقدّسة منزّهة عن كل عيب ، فكذلك يجب على الرجال ان يحبوا نساءهم كاجسادهم . من أحبّ امرأته احب نفسه . فانه لم يبغض احد جسده قط بل يغذيه ويربيه كما يعامل الرب الكنيسة . فاننا اعضاء جسده ومن لحمه وعظامه ، ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته فيصيران كلاهما جسدًا واحدً . ان هذا لسرّ عظيم » (أفسس ٥/٢٥—٣٣) .

٧ — سر الكهنوت

وهو يخوّل من يقتبله السلطان لمنح الاسرار وتوزيعها على المؤمنين ارشادًا للنفوس الى طريق السماء ، ويجعل من الكاهن وكيلاً للمسيح ؛ فيكفر بالحياة الزوجية ، ويقف نفسه على نشر رسالة المسيح والعناية بالنفوس يرافقها من المهد الى اللحد .

فهو باسم المسيح والكنيسة يتلقى المؤمن طفلاً على حوض العماد فيلده لحياة النعمة ، وهو يفتح عقله صغيرًا على نور المبادىء المسيحية وهو يغذو نفسه حدثاً بخبز السماء بعد ان يغسل له آثامه في منبر التوبة بدم المسيح ، وهو يبارك افراحه شاباً عندما يهب قلبه من انتقاها شريكة لحياته ، وهو اخيرًا يكون بجانبه في ساعات النزع فيغمض عينيه وشفتيه على رسم الصليب ويشيّع جثمانه الى مقرّه الاخير على الحان الصلوات الطقسية .

ويبقى الكاهن كالمسيح الذي يمثله لغزاً في عين الناس ، يخوض معركة الحياة وحيداً ، سلاحه ايمان بالله وطيد ، وثقة تحاول ان تكون عمياء بذاك الذي قال : « لستم انتم اخترتموني بل انا اخترتكم » ؛ وعزاوه ، رغم ما يعترضه قياماً بموجبات دعوته ، من صعوبات ، انه يجتهد ابداً في ان يكون كما اراده المسيح « سراجاً على منارة يضيء من في البيت » .

وهكذا نرى الكنيسة بواسطة الاسرار ترافق المؤمن وتتعهده منذ ان تلده بالعماد حتى تواريه التراب المصلّى عليه ، ولا تنفض يدها من ترابه الاّ بعد ان تركز على مثواه ، بيد والدية ، صليب الفداء والخلاص ، مطمئنةً الى أنها عملت ما بوسعها لإيصاله الى عتبة مقرّ العائلة الكبرى المؤلفة من اولياء الله واحبائه في السماء .

ويقول پول كلوديل بهذا الصدد : « هي تضع تحت تصرفنا ، بلوغاً لهذا الغرض النبيل ، كل ما تملكه من قوى وامكانات ، من محبة العذراء مريم الكلية الطوبى التي يفوق سموها السماوات ، الى محبة ذاك الابرص الافريقي التاعس يحمل بأحدى يديه جريساً ، ويردّد بفم ذهب الألم بنصفه ، الاجوبة من خدمة القداس : كل الخلائق منظورة كانت أم غير منظورة ، والتاريخ الماضي والآتي ، وجميع كنوز القديسين الملأى بالنعم الالهية ، كل هذا تضعه الكنيسة تحت تصرفنا ، فيصبح ملكاً لنا ، وفي قبضة يدنا ، وجزءاً منا . فالقديسون والملائكة اجمع هم لنا ... ونستطيع اذ ذاك ان نستعين بنبوغ مار توما الاكويني ، وبساعد القديس ميخائيل رئيس الملائكة ، وبقلب القديسة جان دارك والقديسة كاترين السيانيّة لنحب الله ونمجّده » .

واذا كانت الكنيسة تخصنا بهذا الحنان الوالدي فعلينا مقابل ذلك :

١ ــ ان نعترف لها بالجميل فنفيد من تعاليمها التي تقدّمها لنا سالمة من أية شائبة ، ونعمل بنصائحها ، ونُسهم بما نقوم به من صلوات وما نأتيه من صلاح ، في انماء كنزها الروحي افادةً لاخواننا ابنائها كما استفدنا باستحقاقات القديسين الذين سبقونا .

٢ ــ ان نخضع لأوامرها وننفذها دونما تذمر لا سيما عندما تأتي مضادة لرغباتنا وأمانينا . ولو كنا على اليقين من ان الكنيسة في غير مجال العقائد والاخلاق لا تنعم بعصمة في ما تتخذه من اجراءات ادارية ، ولكننا رغم هذا اليقين نأبى الانتقاد ونطيع لأن في أنتقاد الأم غضاً من شأن البنين وفي الطاعة لها اعظاماً لهم .

٣ ـ ان نخلص لها المحبة فنشيد بمآثرها مرددين مع الشاعر الفرنسي پول كلوديل : « لتكن مباركة تلك الام التي تعلّمت كل شيء على ركبتيها » .

هذه الكنيسة امنا .

« هي أم طهور تنفحنا بايمان حي تحافظ ابداً على طهارته فلا ينال من صلابته ضلال ولا يؤثر فيه انهيار اخلاق .

« هي أم ولود ما تزال تتحفنا باخوة جدد بالنعمة والروح والحق ...

« هي ام عطوف يساوي عطفها بين جميع ابنائها صغاراً ، وضعاء وعظماء ، جهالاً وعلماء ، فقراء واغنياء .

« هي ام وقور تسهر على تراث الاجيال وتخرج من ذخائرها جدداً وقدما ...

« هي ام جلود تعمل في صبر واناة على جمع شمل بنيها من الاربعة الاقطار في عائلة واحدة ...

« هي ام يقظة تدفع عنا هجمات العدو الجهنمي الذي يطوف بنا ليفترسنا .

« هي ام محبة تأبى علينا الانكماش فتدفعنا الى ملاقاة اله المحبة .

« هي ام سخية تضرم في قلوبنا غيرة وقّادة وتطلقنا في العالم رسلاً للمسيح يسوع .

« هي ام حكيمة تهيب بنا الى تلافي الانقسام واتقاء الحماس والغرور .

« هي ام تلهمنا حب الصلاح والحق والعدل ونبذ ما يراد بنا من شر .

« هي الام الحزينة ذات القلب الجريح التي تحيا جيلاً فجيلاً آلام المسيح لتساعده على افتداء العالم .

« هي الأم القديرة التي تحضنا على مقاومة الشرّ والفساد وتحثنا على ان نكون شهوداً لابنها يسوع المسيح . (« تأمل في الكنيسة » للاب دي لوبـــاك اليسوعي صفحة ٢٣٨) .

الفصل الرابع

شرعة الإنجيل في الحياة العامّة

عظة الجبل

- المقدمة
- مقابلة بين الشرعة القديمة والشرعة الجديدة
- وجوه الشبه
- الفوارق
- روح الشرعة الجديدة
- صدق النيات
- الانفتاح على الجميع
- الصلاة الواثقة
- رفع العقول نحو الخيور الروحية
- الصبر على المكاره
- الاتكال على عناية الآب السماوي
- وعلى نعمته
- المحبة
- نطاق المحبة
- أثر المحبة

في كل من الاديان ناحيتان : ناحية نظرية وتتناول مجموعة العقائد ، موضوع الايمان ، وناحية عملية وتتناول مجموعة الشرائع التي يسير المؤمن على هديها . والشرائع عادة مستوحاة من العقائد فهي كالثمرة من الشجرة ، وتستقيم الشريعة ما استقامت العقيدة ، وتلتوي ، اذا التوت .

ويرتكز اساس الناحية النظرية في المسيحية على تدخّل المسيح في حياة الانسان ليعاونه على تقرير مصيره . لقد أحب الله الانسان منذ البدء فرفعه الى مقام خطير ، وجعله ابناً له بالتبنّي . وكانت المعصية فخسر الانسان مقامه . واشفق الله عليه فأرسل اليه ابنه الوحيد لاقالته من عثاره واعادته الى سابق حاله من الرفعة . وهذا ما عبّر عنه السيد المسيح في حديثه الى نيقودمس حيث قال : « هكذا احب الله العالم حتى انه بذل ابنه الوحيد ، لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الابدية » (يو ١٦/٣) . فالمسيح اذن أتى ال العالم منقذاً ، ولهذا سمّاه الملاك مخلّصاً عندما بشّر أمه العذراء بمولده فقال : « انك ستحبلين وتلدين ابناً وتسمّينه يسوع » (لو ١ /٣١) اي المخلّص؛ ليس المسيح مصلحاً وهادياً او مشترعاً كغيره من كبار الهداة والمصلحين والمشترعين وحسب انما هو قبل كل شيء فادٍ ومنقذ ومخلّص . وجوهر عقيدته قائم على التبشير بأبوّة الله التي أوحت بسرّ الفداء. لقد كشف للناس عن سرّ ابيه وأرشدهم الى عبادته عبادة البنين ، والى محبة القريب محبة النفس ، وعبادة البنين تجهل الثرثرة والتبجّح بصالح الاعمال ، ومحبة القريب الحقة لا ترضى له الاّ ما ترضاه لنفسها من الخير والصلاح .

قد لا يكون ما تأمر به شرعة الانجيل من فرائض كالصوم والصلاة والتقشّف ، من الجدّة بحيث لا نجد لها ما يماثلها في غير المسيحية من الاديان . قد لا تكون جديدة والبوذية والبرهمية وغيرهما من الاديان تأمر بهذه الفرائض. ولا عجب فالصلاة والصوم والتقشّف هي من صميم الطبيعة البشرية اتخذها الانسان دائماً وسيلة لاسترضاء الله والتقرّب اليه . انما الجديد في شرعة الانجيل هذه الروح السمحاء ، روح المحبة التي أفرغت في هذه الفرائض ، فنسّقتها وصقلتها فأتت نابضة بالحياة . وكأن المسيح في شرعته مهندس يبني رائعات القصور بالحجارة التي يبني بها غيره الاكواخ .

عظة الجبل[١]

لقد أوجز السيد السيد المسيح شرعة الانجيل في عظة الجبل وهي تقع في ثلاثة فصول من انجيل متى هي الخامس والسادس والسابع ، اودعها منهجاً اخلاقياً . على من يبغي دخول ملكوت الله أن يتمشى عليه . وفي العظة مقدمة هي التطويبات الثماني وقسمان : قسم اول قارن بين شريعة موسى وشريعة المسيح وقسم ثان أبان روح الشرعة الجديدة التي هي روح المحبة .

---

١) فلما رأى يسوع الجموع صعد الى الجبل . ولما جلس دنا اليه تلاميذه ففتح فاه يعلمهم قائلاً : طوبى للمساكين بالروح فان لهم ملكوت السماوات . طوبى للودعاء فانهم يرثون الارض . طوبى للحزان فانهم يعزون . طوبى للجياع والعطاش الى البر فانهم يشبعون . طوبى للرحماء فانهم يرحمون . طوبى للانقياء القلوب فانهم يعاينون الله . طوبى لفاعلي السلامة فانهم بني الله يدعون . طوبى للمضطهدين من اجل البر فان لهم ملكوت السماوات . طوبى لكم اذا عيروكم واضطهدوكم وقالوا عليكم كل كلمة سوء من اجلي كاذبين . افرحوا وابتهجوا فان أجركم عظيم في السماوات لانهم هكذا اضطهدوا الانبياء من قبلكم . انتم ملح الارض فاذا فسد الملح فماذا يملح . انه لا يصلح لشيء الاّ لان يطرح خارجاً وتدوسه الناس . انتم نور العالم . لا يمكن ان تخفى مدينة مبنية على جبل . ولا يوقد سراج ويوضع تحت المكيال لكن على المنارة لينير على كل من في البيت . هكذا فليضئ نوركم قدام الناس ليروا اعمالكم الصالحة ويمجدوا اباكم الذي في السماوات . لا تظنوا اني أتيت لأحل الناموس والانبياء اني لم آت لأحل لكن لأتمم . الحق اقول لكم انه الى ان تزول السماء والارض لا تزول ياء او نقطة واحدة من الناموس حتى يتم الكل . فكل من يحل واحدة من تلك الوصايا الصغار ويعلم الناس هكذا فانه يدعى صغيراً في ملكوت السماوات . وأما الذي يعمل ويعلم فهذا يدعى عظيماً في ملكوت السماوات . فاني اقول لكم ان لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين فلن تدخلوا ملكوت السماوات . قد سمعتم انه قيل للاولين لا تقتل فان من قتل يستوجب الدينونة . اما انا فاقول لكم ان كل من غضب على اخيه يستوجب الدينونة . ومن قال لاخيه راقا يستوجب حكم المحفل . ومن قال يا احمق يستوجب نار جهنم . فاذا قدمت قربانك الى المذبح وذكرت هناك ان لاخيك عليك شيئاً فدع قربانك هناك امام المذبح وامض اولاً فصالح اخاك وحينئذٍ ائت وقدّم قربانك. بادر الى موافقة خصمك ما دمت معه في الطريق لئلا يسلمك الخصم الى القاضي ويسلمك القاضي الى الشرطي فتلقى في السجن . الحق اقول لك انك لا تخرج من هناك حتى توفي آخر فلس . قد سمعتم انه قيل للاولين لا تزنِ . أما انا فاقول لكم ان كل من نظر الى امرأةٍ لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه. فان شككتك عينك اليمنى فاقلعها وألقها عنك فانه خير لك ان يهلك احد اعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم . وان شككتك يدك اليمنى فاقطعها وألقها عنك فانه خير لك ان يهلك احد اعضاءك ولا يذهب جسدك كله الى جهنم . قد قيل من طلق امرأته فليدفع اليها كتاب طلاقٍ . أما انا فاقول لكم من طلق امرأته إلاّ لعلة زنى فقد جعلها زانية ومن تزوج مطلقة فقد زنى . قد سمعتم ايضاً انه قيل للاولين لا تحنث بل أوف للرب باقسامك . أما انا فاقول لكم لا تحلفوا البتة لا بالسماء فانها عرش الله. ولا بالارض فانها موطئ قدميه . ولا بأورشليم فانها مدينة الملك الاعظم. ولا تحلف برأسك لانك لا تقدر ان تجعل شعرةً منه بيضاء او سوداء . ولكن ليكن كلامكم نعم نعم ولا لا وما زاد على ذلك فهو من الشرير . قد سمعتم انه قيل العين بالعين والسن بالسن . أما انا فاقول لكم لا تقاوموا الشرير بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر . ومن أراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فخل له رداءك ايضاً . ومن سخرك ميلاً فامش معه اثنين . من سألك فاعطه . ومن اراد ان يقترض منك فلا تمنعه . قد سمعتم انه قيل احبب قريبك وابغض عدوك . أما انا فاقول لكم أحبوا اعداءكم وأحسنوا الى من يبغضكم وصلوا لاجل من يعنتكم ويضطهدكم لتكونوا بني أبيكم الذي في السماوات

المقدمة

عقيدة المقدّمة في عظة الجبل تقوم على تفهّم قيم الحياة حق التفهّم . وقيم الحياة في نظر الله هي على غير ما رسخ في مفهوم الناس . لكن بذار الحقيقة لا ينمو في النفوس الاّ اذا استعدت لاقتباله القلوب فاستأصلت ما يعشش فيها من حب البهارج والترهّات . وما السعيد ، في نظر المسيح ، من رغد عيشه ووفرت اسباب لهوه ولا من اعتمد على ماله وعلى ما أوتيه من سطوة ونفوذ ، انما السعيد من جعل متّكله على الله ولو شقي في الدنيا وسيم الهوان . ان اجره في السماء لجزيل . ولهذا غبط المسيح الفقر والفقراء بالروح وهم الحزان والودعاء والجياع والعطاش الى البرّ والانقياء القلوب . فقال :

لانه يطلع شمسه على الاشرار والصالحين ويمطر على الابرار والظالمين . فانكم ان احببتم من يحبكم فأي اجر لكم اليس العشارون يفعلون ذلك . وان سلمتم على اخوانكم فقط فأي فضل عملتم اليس الوثنيون يفعلون ذلك . فكونوا كاملين كما ان أباكم السماوي هو كامل .

احترزوا الاّ تصنعوا بركم قدام الناس لكي ينظروكم والاّ فليس لكم اجر عند ابيكم الذي في السماوات. فاذا صنعت صدقة فلا تهتف قدامك بالبوق كما يفعل المراءون في المجامع والازقة لكي يمجدهم الناس . الحق اقول لكم إنهم قد اخذوا أجرهم . أما انت فاذا صنعت صدقة فلا تعلم شمالك ما تصنع يمينك لتكون صدقتك في خفية وابوك الذي يرى في الخفية هو يجازيك . واذا صليتم فلا تكونوا كالمرائين فانهم يحبون القيام في المجامع وفي زوايا الشوارع يصلون ليظهروا للناس . الحق اقول لكم انهم قد اخذوا اجرهم . أما انت فاذا صليت فادخل مخدعك وأغلق بابك وصل الى ابيك في الخفية وابوك الذي يرى في الخفية هو يجازيك . واذا صليتم فلا تكثروا الكلام مثل الوثنيين فانهم يظنون انه بكثرة كلامهم يستجاب لهم . فلا تتشبهوا بهم لان أباكم عالم بما تحتاجون اليه قبل ان تسألوه . وانتم فصلوا هكذا . أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك . ليأت ملكوتك . لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الارض . خبزنا كفافنا أعطنا اليوم. واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن لمن اساء الينا . ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير . آمين . فانكم ان غفرتم للناس زلاّتهم يغفر لكم ابوكم السماوي زلاّتكم . وإن لم تغفروا للناس فأبوكم ايضاً لا يغفر لكم زلاّتكم . واذا صمتم فلا تكونوا معبسين كالمرائين فانهم ينكرون وجوههم ليظهروا للناس صائمين . الحق أقول لكم انهم قد أخذوا أجرهم . أما انت فاذا صمت فادهن رأسك واغسل وجهك لئلا تظهر للناس صائماً بل لابيك الذي في الخفية وابوك الذي ينظر في الخفية هو يجازيك . لا تكنزوا لكم كنوزاً على الارض حيث يفسد السوس والآكلة وينقب السارقون ويسرقون . لكن اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا آكلة ولا ينقب السارقون ولا يسرقون . لانه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك . سراج الجسد العين فان كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيراً . وان كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً. واذا كان النور الذي فيك ظلاماً فالظلام كيف يكون . لا يستطيع أحدٌ ان يعبد ربين لانه إما ان يبغض الواحد ويحب الآخر او يلازم الواحد ويرذل الآخر . لا تقدرون ان تعبدوا الله والمال . فلهذا اقول لكم لا تهتموا لانفسكم بما تأكلون ولا لاجسادكم بما تلبسون . أليست النفس أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس . أنظروا الى طيور السماء فانها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن في الاهراء وابوكم السماوي يقوتها. أفلستم انتم افضل منها. ومن منكم اذا همّ يقدر ان يزيد على قامته ذراعاً واحدة . ولماذا تهتمون باللباس . إعتبروا زنابق الحقل كيف تنمو . انها لا تتعب ولا تغزل وانا اقول لكم ان سليمان في كل مجده لم يلبس كواحدة منها . فاذا كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم وفي غد يطرح في التنور يلبسه الله هكذا افلا يلبسكم بالاحرى انتم يا

« طوبى للمساكين بالروح فان لهم ملكوت السماوات » . والمساكين بالروح هم الذين يتجرّدون من أنانيتهم فلا يتّكلون على ما تكدّس في صناديقهم من اموال، ولا على ما ينعمون به من بسطة عيش وزعامة ، فيستكفون بذلك عن الله مصدر كل خير . نعم هؤلاء المساكين يؤتون ملكوت الله .

« طوبى للودعاء فانهم يرثون الارض » . والودعاء هم الذين لا يستعلون على بشر ولا يستكبرون . فهم يدركون ان كل ما يملك الانسان من عافية وذكاء ونسب وخيور انما هو منّة من الله . اما الانسان فليس له من نفسه الاّ صغاره وحقارته ، فلا سبيل اذن الى نفخ الاوداج ، وتصعير الخدود دليل العظمة والمجد الفارغ ، وهؤلاء الودعاء يرثون الارض .

« طوبى للحزان فانهم يعزّون » . والحزان هم الذين لا مستقر لراحتهم الاّ بالله ،

قليلي الايمان . فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل او ماذا نشرب او ماذا نلبس لان هذا كله تطلبه الأمم وابوكم السماوي يعلم انكم تحتاجون الى هذا كله . فاطلبوا اولاً ملكوت الله وبره وهذا كله يزاد لكم . فلا تهتموا بشأن الغد فالغد يهتم بشانه . يكفي كل يوم شره .

لا تدينوا لئلا تدانوا . فانكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم . ما بالك تنظر القذى الذي في عين أخيك ولا تفطن للخشبة التي في عينك . ام كيف تقول لاخيك دعني أخرج القذى من عينك وها ان الخشبة في عينك . يا مرائي اخرج اولاً الخشبة من عينك وحينئذٍ تنظر كيف تخرج القذى من عين اخيك . لا تعطوا القدس للكلاب ولا تلقوا جواهركم قدام الخنازير لئلا تدوسها بأرجلها وترجع فتمزقكم . اسألوا فتعطوا . أطلبوا فتجدوا . إقرعوا فيفتح لكم . لان كل من يسأل يعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له . ايّ انسان منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً . او اذا سأله سمكة يعطيه حية . فاذا كنتم انتم الاشرار تعرفون ان تمنحوا العطايا الصالحة لابنائكم فكم بالحريّ ابوكم الذي في السماوات يمنح الصالحات لمن يسأله . فكل ما تريدون ان يفعل الناس بكم فافعلوه انتم بهم . فان هذا هو الناموس والانبياء . أدخلوا من الباب الضيق لانه واسع الباب ورحب الطريق الذي يؤدي الى الهلاك والداخلون فيه كثيرون . ما أضيق الباب وأحرج الطريق الذي يؤدي الى الحياة وقليلون الذين يجدونه . إحذروا من الانبياء الكذبة الذين يأتونكم بلباس الحملان وهم في الباطن ذئاب خاطفة . من ثمارهم تعرفونهم . هل يجتنى من الشوك عنب او من العوسج تين . هكذا كل شجرةٍ صالحة تثمر ثمراً جيداً والشجرة الفاسدة تثمر ثمراً رديئاً . لا تستطيع شجرة صالحة ان تثمر ثمراً رديئاً ولا شجرة فاسدة ان تثمر ثمراً جيداً . كلُّ شجرة لا تثمر ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار . فمن ثمارهم تعرفونهم . ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات لكن الذي يعمل ارادة أبي الذي في السماوات هو يدخل ملكوت السماوات . فان كثيرين سيقولون لي في ذلك اليوم يا رب يا رب ألم نكن باسمك تنبأنا وباسمك اخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة . فحينئذٍ أعلن لهم اني لم اعرفكم قط فاذهبوا عني يا فاعلي الاثم . فكل من يسمع كلامي هذا ويعمل به يشبه رجلاً حكيماً بنى بيته على الصخر . فنزل المطر وجرت الانهار وهبت الرياح واندفعت على ذلك البيت فلم يسقط لان اساسه كان على الصخر وكل من يسمع كلامي هذا ولا يعمل به يشبه رجلاً جاهلاً بنى بيته على الرمل . فنزل المطر وجرت الانهار وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت فسقط وكان سقوطه عظيماً . ولما أتم يسوع هذا الكلام كله بهت الجموع من تعليمه لانه كان يعلمهم كمن له سلطان لا ككتبتهم والفريسيين .

لأنهم يعرفون ان لا مخلوق على وجه الارض يشبع رغباتهم ويرضي اميالهم، فيفتحون قلوبهم آنية فارغة يملأها الله بتعزياته العلوية .

« طوبى للجياع والعطاش الى البرّ فانهم يشبعون » . والجياع والعطاش هم الذين تعجز اطايب الدنيا عن سدّ جوعهم ولذاذاتها عن ريّ عطشهم ، فلا تبترد قلوبهم الاّ بامواه النعمة .

« طوبى للرحماء فانهم يرحمون ». والرحماء هم الذين يشاطرون الناس آلامهم ومصائبهم ، ويكبّون على جراحهم يضمدونها وعلى دموعهم يمسحونها بمحبة وحنان . فالرحمة ستغمرهم في عالم الخلود .

« طوبى للانقياء القلوب ، فانهم يعاينون الله » . والانقياء القلوب هم الذين يعيشون وابواب ضمائرهم مشرعة على الله والناس. لهم نفوس في نقاء الثلوج لا تلطّخها وحول الاهواء ، ولهم سرائر مفتّحة ابداً على النور .

هذه هي المسكنة . هذا هو الفقر بالروح شرحه السيد المسيح في ست تطويبات ، اما الاثنتان الباقيتان فتتناولان فاعلي السلام ويدعون ابناء الله ، والمضطهدين من اجل البرّ ولهم ملكوت السماوات ، وليستا سوى نتيجة للفقر الروحي .

لقد قلب السيد المسيح مفاهيم الحياة فهو يغبط الفقراء والناس يغبطون الاغنياء ، هو يغبط الودعاء والناس يغبطون الاقوياء المستبدين ، هو يغبط الحزان والناس يغبطون الفرحين الضاحكين ؛ هو يغبط الجياع والعطاش والناس يغبطون الشباع المرتوين ؛ هو يغبط الرحماء والناس يغبطون صلاب القلب والعود ؛ هو يهنئ المضطهدين والمظلومين ويدعوهم الى الفرح والسرور اما الناس فيشفقون عليهم وينوحون . ما هذا الاّ لأن شقاء الدنيا سعادة الآخرة في تعليم المسيح ؛ لذلك يعود ، حسب ما ورد في انجيل لوقا ، لينذر بالويل الاغنياء والشباع والضاحكين الذين يحوطهم الناس بهالات الاكبار والاعجاب . لقد عكس معاني الحياة فاذا ملكوت الله ، معكوس على حد تعبير احد حكماء اسرائيل .

وبعد ان رفع السيد المسيح عقول سامعيه الى ما فوق هذا العالم الزائل افضى اليهم بصلب شرعته الجديدة ، بعد ان قارن بينها وبين الشرعة القديمة . وشرعته هذه التي ترمي الى اصلاح الافراد والجماعات احدثت اخطر انقلاب عرفته البشرية منذ ان كانت حتى اليوم . لقد وسّع السيد المسيح حدود مطامح البشر فجعل الله مقياس صلاح

الانسان : « كونوا كاملين كما ان اباكم السماوي هو كامل » (متى ٥/٢٨) . وهذا مطمح لم يخطر على بال الحكماء والمشترعين من قبل .

لقد سعى كثير من المصلحين قبل المسيح ، وكثير من المشترعين من امثال حمورابي وموسى وليكورغ وصولون في سنّ شرائع للناس تساعدهم على اصلاح نفوسهم ، وسعى مثلهم كثير من الفلاسفة والحكماء من امثال كونفوشيوس وبوذا وفيثاغور ومرقيون ممن اسسوا الديانات واقاموا لها الانظمة والقوانين وجعلوا لها الكهنة والمرشدين ، لكن جل ما طمحوا اليه انهم حاولوا ان يضعوا الانسان أمام نفسه فاتخذوا مقياساً لحياته الادبية والاخلاقية من نفسه . وكأنهم قد جعلوا قاعدة عملهم شعار سقراط : « اعرف نفسك وكنها » . مدى تعليمهم مدى الانسان ليس الاّ لذلك ما وجد البوذيون سبيلاً للتخلّص من الآلام وشقاء الحياة الاّ بالفناء بالنرفانا . وما افلحت الديانات بغية ارضاء نزعة الانسان الى الخلاص ، الاّ في ان ترهقه بالفرائض والمراسيم وتملأ قلبه من الرعب والخوف في حضرة الله . اما المسيح فخرج بالانسان عن هذا النطاق الضيّق فجعل الله عينه مقياساً لحياته الادبية فسلّمه شرعته الجديدة دون ان ينقض القديمة وهو من قال : « لا تظنّوا اني أتيت لأحل الناموس والانبياء . اني لم آتِ لأحل بل لأتمم » (متى ٥/١٧) ، سلّمه شرعة المحبة .

مقابلة بين الشرعة الجديدة والشرعة القديمة

وينتقل السيد المسيح بعد هذه المقدمة الى القسم الأول من خطابه ، فيعلن موقفه من الشريعة القديمة . ويصرّح بانه ما اتى ليحلّها بل ليتمّها : « ان كل من يحلّ واحدة من تلك الوصايا الصغار ويعلّم الناس هكذا ، يدعى صغيرًا في ملكوت السماوات ، وكل من يعمل ويعلّم فهذا الذي يدعى عظيماً في ملكوت السماوات » (متى ٥/١٧–١٩).ولكن هذا لا يعني انه لن يسمح بأن يسقط منها بعض ما تأمر به من فرائض . فهو سيعيد النظر في موجباتها بحيث تصبح ملائمة لواقع الحال . وهذا ما افهمه الرسل وعملوا به فألغوا الختان رمز العهد الموثّق بين الله وشعبه الخاص . اما قول المسيح بأنه لا يسمح بأن تزول « ياء او نقطة واحدة من هذا الناموس الى ان تزول الارض والسماء » (متى ٥/١٨) ؛ فهذا معناه ان الله يحرص على روح هذا الناموس القديم حرص الناسخ على ألاّ يسقط نقطة او حرف واحد يحسبها ضروريين لاحسان قراءة النص . وهذا القول لا ينفي التحوير . ولن يكون الناموس الجديد سوى تكملة للناموس القديم وبينهما وجوه شبه ونقاط مشتركة .

وجوه الشبه

اولاً : كلا الناموسين صادر عن الله . لقد اشترع موسى باسم الله فمهّد السبيل للمسيح الذي اشترع باسم نفسه وهو إله . وما يزال يتابع عمل التشريع بواسطة رسله وممثليه الذين وعدهم بمعونة الروح القدس (اعمال ١٥/٢٨) .

ثانياً : كلا الناموسين يأمر بوجوب حفظ الوصايا القديمة التي تسلمها موسى من الله على الجبل . وهذا ما ذكّر به السيد المسيح الشاب الغني عندما سأله عن خير وسيلة لدخول الحياة الابدية فقال : « ان كنت تريد ان تدخل الحياة فاحفظ الوصايا : لا تقتل ، لا تزنِ ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، اكرم اباك وامك ، احبب قريبك كنفسك » (متى ١٩/١٨ ؛ مر ١٠/١٩) .

ثالثاً : كلا الناموسين يجعل محبة الله والقريب رأس الوصايا . وهذا ما ارشد السيد المسيح اليه عندما اجاب أحد علماء الناموس وقد سأله عن اعظم الوصايا ليجرّبه ، فقال : « أحبب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل ذهنك . هذه هي الوصية الاولى والعظمى ، والثانية التي تشبهها احبب قريبك كنفسك . بهاتين الوصيتين يتعلّق الناموس كله والانبياء » (متى ٢٢/٣٧ـ٤٠ ؛ ومر ١٢/٢٩) .

لكن السيد المسيح ارجع الناموس القديم الى سابق صفائه فأزال عنه ما وشّاه به الفريسيون من شروح ونوافل اثقلوا بها كاهل الناس . لذلك قال لهم : « رفضتم وصية الله تماماً لتحفظوا سنّتكم . فقد قال موسى : أكرم اباك وأمك ، وكذا من لعن اباه وامه فليقتل قتلاً . وانتم تقولون ان قال انسان لأبيه او امه كل قربان اي هدية مني تنتفع به ، فلا تدعونه يصنع لأبيه وامه شيئاً البتة ، مبطلين كلام الله بسنّتكم التي سننتم واشياء اخرى كثيرة امثال هذه تفعلونها » (مر ٧/٩ـ١٣) . وهكذا وبّخ السيد المسيح الفريسيين على قسوتهم وارهاقهم والديهم بحجة استرضاء الله ، فيحرمونهم ما كان عليهم ان يقدّموه لهم من مساعدات ، فيخصّون بها الله من دونهم . كأن الله يرضيه ارهاق ابنائه وحرمانهم حقهم بالحياة .

وشدّد السيد المسيح على طهارة القلب والنيّة لا على نظافة الايدي والقصاع فلام الفريسيين على تشويه الناموس بقوله : « لا شيء مما هو خارج عن الانسان اذا دخله يمكن ان ينجّسه بل ما يخرج من الانسان هو الذي ينجّس الانسان . لأن من الداخل من قلوب الناس تنبعث الافكار الرديئة : الزنى ، الفجور ، القتل ،

السرقة ، الحرص ، الخبث ، الغش ، العهارة ، العين الشريرة ، التجديف ، الكبرياء الجهل ، جميع هذه الشرور تنبعث من الداخل ، فتنجّس الانسان » (مر ٧/ ١٥ —٢٣) .

ورذل الخبث والرياء والعظمة الفارغة التي تعشّقها الفريسيون ، ونصح بالصراحة والامانة والتواضع في خدمة الله وعبادته فقال لتلاميذه : « احذروا من الكتبة الذين يحبون المشي بالحلل والتحيات في الاسواق وصدور المجالس في المجامع واول المتكآت في العشاء ، الذين يأكلون بيوت الارامل بعلّة تطويل صلواتهم ، فهؤلاء تنالهم دينونة اعظم » (لوقا ١١/٣٧—٥٤ و ٢٠/٤٥—٤٧) .

وعلى الجملة ان المسيح ينصح بالمحافظة على روح الشريعة لا على الحرف منها . لذلك رذل طريقة الفريسيين في فهمها فقال : « ان لم يزد برّكم على الكتبة والفريسيين فلن تدخلوا ملكوت السماوات » (متى ٥/ ٢٠). ومن هنا نشأت الفوارق بين الشريعتين.

الفوارق

أما الفوارق بين الشريعتين فتتأتى عن ان القديمة كانت موقتة لا يُعمل بها الاّ الى حين . اما الجديدة فأبدية ، مدى ديمومتها مدى ديمومة العالم . ولقد احتفظ السيد المسيح بخطوط الشريعة القديمة الرئيسية ، لكنه صقلها واكملها بحيث لا تنصل جدّتها على الأيام .

نهت شريعة موسى عن القتل ، أما المسيح فقد ذهب الى ابعد من ذلك ، فنهى حتى عن مجرّد التفكّر في الاساءة الى القريب ، فرذل الغضب والبغض واحتقار الغير فقال : « قد سمعتم انه قيل للاولين لا تقتل فأن من قتل يستوجب الدينونة » (متى ٥/ ٢١) .

ونهت شريعة موسى عن الزنى ، أما المسيح فقد نهى عن كل فكرة دنس تداعب الحس والخيال فقال : « قد سمعتم أنه قيل للأولين لا تزنِ . أما أنا فأقول لكم . ان كل من نظر الى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه » (متى ٥/ ٢٧) .

واباحت شريعة موسى الطلاق ، أما المسيح فأرجع الزواج الى صرامته الاولى ونقائه الاول ، فألغى الطلاق الذي ما سمح به موسى الاّ لقساوة قلوب قومه ، وما سمح المسيح الاّ بالهجر شرط ألاّ يعقبه زواج جديد : « ودنا اليه الفريسيون ليجربوه قائلين : هل

يحلّ للانسان ان يطلّق زوجته لأجل كل علّة ؟ فاجابهم قائلاً : أما قرأتم ان الذي خلق الانسان في البدء ، ذكرًا وانثى خلقهم وقال لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته ، فيصيران جسدًا واحدًا ، فليسا هما اثنين بعد ، ولكنهما جسد واحد . وما جمعه الله لا يفرّقه انسان ؟ فقالوا له : فلماذا أوصى موسى ان تعطى كتاب طلاق وتخلّى؟ فقال لهم : ان موسى لاجل قساوة قلوبكم اذن لكم ان تطلّقوا نساءكم ولم يكن من البدء هكذا . وانا اقول لكم : من طلّق امرأته الاّ لعلة زنى وأخذ أخرى فقد زنى » (متى ١٩/٢—١٠) .

ونهت شريعة موسى عن الحنث بالعهود والحلف بالله . أما المسيح فقد نهى عن الحلف على الاطلاق أياً كان نوعه . فقال : « قد سمعتم ايضاً انه قيل للاولين لا تحنث بل اوف للرب باقسامك . أما انا فأقول لكم لا تحلفوا البتة لا بالسماء فأنها عرش الله ، ولا بالارض فأنها موطىء قدميه ، ولا بأورشليم فانها مدينة الملك الاعظم . ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر ان تجعل شعرة منه بيضاء او سوداء . ولكن ليكن كلامكم نعم نعم ، ولا لا ، وما زاد على ذلك فهو من الشرير » (متى ٥/٣٣—٣٧) .

وتساهلت شريعة موسى فغضّت النظر عن الانتقام وسلّمت بسنّة العين بالعين ، أما المسيح فنصح باقتبال الاهانة برباطة جأش ، فمن الحمق أن نرد الكيل كيلين والضربة ضربتين ؛ انما الحكمة كل الحكمة اذ نبادل الشرّ بالخير فأن فعلنا فقد ركمنا جمر نار على هامة المعتدي المسيئ . فقال : « قد سمعتم انه قيل العين بالعين والسن بالسن . اما انا فأقول لكم : « لا تقاوموا الشرير بل من لطمك على خدك الايمن فحوّل له الايسر » (متى ٥/٣٩) .

ونصّت شريعة موسى على محبة الاحباء وبغضة الاعداء ؛ أما المسيح فقد قال بمحبة الاحباء والاعداء على حد سواء فأضاف إلى قوله : « قد سمعتم انه قيل : احبب قريبك وابغض عدوك . أما أنا فأقول لكم أحبوا اعداءكم واحسنوا الى من يبغضكم وصلوا لأجل من يعنتكم ويضطهدكم . لتكونوا بني ابيكم الذي في السماوات ، لأنه يطلع شمسه على الاشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين» (متى ٥/٤٣—٤٤) .

وحصرت شريعة موسى بالاسرائيلي دون سواه ، اما المسيح فالقريب لديه ولدى المؤمنين بتعاليمه ، مطلق انسان ، دونما نظر الى لونه ومشربه وقوميّته (لو ١٠/٣٥ — ٣٧) .

واكتفى الاسرائيليون باتمام واجبات العدل وسيلة للخلاص . أما المسيح فافهم الناس ان العدل وحده يحجّر القلوب ان لم تمازجه دفقة من محبـــة واورد مثل الغني ولعازار الفقير (لو ١٦/١٩—٣١) فالمحبة ضرورية للخلاص .

لكن السيد المسيح وان عدّل الشريعة القديمة فهو لم يهملها . لقد عني بها « وولُد تحت الناموس ، يقول بولس الرسول ، ليفتدي الذين تحت الناموس » (غلاطية ٤/٥) . وقد قام بما يفرضه هذا الناموس من واجبات ، وما تردد في اتيان اعجوبة قياماً برسومه ، عندما امر بطرس بأن يدفع الجزية عن نفسه وعنه ، استاراً انتزعه من فم سمكة (متى ١٧/٢٤—٢٦) . حافظ السيد المسيح على شريعة موسى وأوضح في الوقت نفسه ان جانباً منها سيسقط لعدم الحاجة اليه ، فتنبأ بانهيار الهيكل (متى ٢٣/٣٨ ؛ مر ١٣/٢ ؛ لو ٢١/٦) ، لأن العبادة لم تعد محصورة فيه على ما قال للسامرية : « ستأتي ساعة تسجدون لله بالروح والحق وليس في اورشليم فقط » (يو ٤) . وأعلن عن نفسه انه رب السبت يستبدل به غيره من الايام ولا لوم عليه وكأنه قد هيأ بذلك استبدال يوم الأحد به في العهد الجديد . وانقذ الزانية من حكم الرجم الذي انزله بها الفريسيون باسم الشريعة فقال لهم : « من منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر » فانسلّوا خجلاً واحداً واحداً يتقدمهم الشيوخ (يو ٨/٥—١١) . واخيراً أبان ان هذه الشريعة في بعض نواحيها ، ثوب بال لا يقوى على ان ترقع به رقعة جديدة (متى ٩/١٦—١٧ ؛ مر ٢/٢١—٢٢ ؛ لو ٥/٣٦—٣٩) . وقد حذا حذوه رسلُه في تطبيق الشريعة القديمة ، فأهملوا منها ما لا حاجة اليه وأبقوا منها على ما يتّفق وروح الشريعة الجديدة .

روح الشرعة الجديدة[1]

وبعد ان قارن السيد المسيح بين الشريعة القديمة والشريعة الجديدة انتقل الى القسم الثاني من خطابه وقد ضمّنه موجبات الشريعة الجديدة وما تنصح به من نوافل تجلّت

١) ان الدين والآداب اللذين كانا في الوثنية مستقلين احدهما عن الآخر تمام الاستقلال لا يربط بينهما في اليهودية الاّ اسباب خارجية ، انصهرا (لدى بولس) في مبدأ موحد قوامه تفهم الحياة تفهماً صوفياً عميقاً . وان ما يميز « الخليقة الجديدة » انما هو تركيز مبدأ الآداب على مبدأ الحياة الدينية وروح المسيح والاتحاد به بالنعمة .

فالروح القدس المقيم فينا يصبح قوة باطنية تعمل على صوغ الاخلاق المسيحية من الداخل ، على صورة المسيح ، وتهيئها للتقيد بشرعة جديدة هي بما تأمر به اشد صرامة من الشريعة ؛ ويبعث الروح القدس قوة تعبئ كل ما يمت في كياننا بصلة الى الله ، وتجدد الضمير الادبي ، وتطهر القلب ، وتحدث تأثيراً عميقاً في افكارنا وعواطفنا وارادتنا . وهذه القوة ، يدعوها بولس الرسول ، النعمة . وثمرة هـــذا

فيها روح المحبة ، محبة الله للانسان ، ومحبة الانسان لله ولأخيه الانسان ، بحيث وضح ان علاقة الانسان بربه وبالانسان ، انما هي علاقة الابن بأبيه وبأخيه . وأنك لتجد روح المحبة هذه ، التي هي روح الشرعة الجديدة ، في كل ما نصّت عليه هذه الشرعة من رسوم . وقد نصّت في خطوطها الكبرى على وجوب الاعتماد بالماء والروح (يو ٣ ٣—٥) والايمان بتعاليم الانجيل (مر ١٦/١٦) والاعتراف بالخطايا حصولاً على نعمة الغفران (يو ٢٠/٢٣) والاغتذاء بالقربـــان المقدس ، جسد المسيح (يوحنا ٦/٥٥) والانضواء الى قطيـــع المسيح راعي الخراف (يو ١٠/١٤—١٦) والخضوع للكنيسة ورؤسائها (يو ٢١/١٥—١٧) ، والدأب على الصلاة في ثقة وخشوع (متى ٦/٩—١٣) وغير ذلك من النصائح التي خصّ بها من تطوّع لنشر كلمة الله كالاقلاع عن التزود بالذهب والفضة (متى ١٠/٥—٤٢) ، ليكون اعتماد رجل الله على الله وحسب .

وتتجلّى روح المحبة خاصة في ما تتوقّف عليه هذه الشرعة الجديدة من توجيه العناية الى صفاء القلوب والنيات ، لا الى بريق المظاهر الخدّاعة . فالمهم ان يعبدالانسان ربه عن طهارة قلب عبادة بنوية يعبّر عنها بصلاة واثقة ترفع عقله فوق الخيور الزائلة الى الخيور الباقية . وتستنزل عليه القوة للصبر على مكاره الحياة ، متّكلاً في كل ما يلقاه من صعاب على عناية ابيه السماوي . لهذا بات على من يبغي ان يتشرّب روح الشرعة الجديدة ان يسعى وراء صدق النيات .

صدق النيات

لقد وجّه الاسرائيليون جلّ اهتمامهم الى العناية بالمظاهر الخارجية فأفرغوا الشريعة من معانيها ، وقصروها على بعض مراسيم لا تعبّر عن عاطفة ولا تعرب عن شعور ، لذلك انبّهم الله بلسان نبيّه اشعيا فقال : « عندما يدنو مني هذا الشعب يكرمني

الاتحاد ، هذه المزاوجة بين روح الله وروح الانسان ، هي حياة روحية جديدة ، وفيض من الهامات واستعدادات وعواطف ، وتشوق الى العلاء ، ونشاطات دينية وادبية : « محبة ، فرح ، سلام ، أناة ، لطف ، صلاح ، ايمان ، وداعة ، عفاف » (غلاطية ٥/٢٢) .

انما اشهى ثمار هذا الاتحاد هي المحبة ، وهي اسمى بما لا يحد من الحب الافلاطوني ، لأنها ليست تعبيراً عن روح الانسان وحسب ، لكنها اختلاج الحياة الالهية فينا . ويصف بولس أسمى درجات هذه المحبة التي قد تتناقض او تتكامل حتى تفضي الى هذا الزواج الروحي الذي يعرف كيف يوفق بين الانخطاف في الله وما فيه من عذوبة وبين النشاط الخارجي وما يقتضيه من حركة ، كما برهن بالمثل كل من اغوسطينوس وبرنردوس وكاترينا السيانية ولا سيما بولس (من كتاب حول القديس بولس وجه ١٣٧ لجوزف هلزنر)

بشفاهه ، لكنّ قلبه بعيد عنّي » (اشعيا ٢٩/١٣) . فباتت الشريعة حرفاً ميتاً لا روحاً محيياً ، واضحت علاقة الانسان بربه علاقة خارجية جافة قوامها بعض طقوس يتمّمها من يتمّمها كسباً لمديح اعتقاداً منه ان شهادة الناس تؤمن له رضى الله . لذلك راح الفريسيون يقيمون الصلوات في زوايا الازقة ويقطبون وجوههم اشعاراً للناس بأنهم صائمون ، ويطولون اهداب ارديتهم ، اعظاماً لنفوسهم ، مما استجلب عليهم نقمة المسيح فحذّرهم من هذا الغرور بالنفس فقال : « احذروا من ان تصنعوا برّكم امام الناس لكي ينظروكم ، والاّ فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السماوات . فاذا صنعت صدقة فلا تهتف امامك بالبوق كما يفعل المراؤون في المجامع والازقة ، لكي يمجّدهم الناس . الحق اقول لكم انهم قد اخذوا اجرهم . اما انت فاذا صنعت صدقة فلا تعلم شمالك ما تصنع يمينك ، لتكون صدقتك في خفية وابوك الذي يرى في الخفية هو يجازيك » (متى ٦/١—٥) .

وقام في وهم الفريسيين ان نظافة القلب من نظافة الجسم ، فراحوا يغسلون اطرافهم وهم يعتقدون انهم بذلك ينظّفون قلوبهم ، وقد رسخ هذا الوهم في عقولهم حتى عابوا على تلاميذ السيد المسيح وبحضرته ، اغفالهم هذا الواجب ، فانفجر المسيح اذ ذاك في وجههم بقوله : « ايها المراؤون ، حسناً تنبأ عليكم اشعيا القائل : هذا الشعب يكرمني بشفتيه واما قلوبهم فبعيدة مني ! ... أما تفهمون ان كل ما يدخل الفم ينزل الى الجوف ويدفع الى المخرج . واما الذي يخرج من الفم ، فمن القلب يصدر وهو الذي ينجّس الانسان » (متى ١٥/١٧—١٩) . وما نفع غسل اليدين والوجه ما دامت القلوب مشحونة احقاداً وبغضاء ؛ واذا لم يعبّر الظاهر عن الباطن ، كان هذا هو الرياء بعينه . وقد جلد السيد المسيح هذا الرياء جلداً موجعاً عندما قال : «الويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون . فانكم تنقّون خارج الكأس والجام وداخلها مملوء خطفاً ودعارة ... الويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون فانكم تشبهون القبور المجصّصة التي يراها الناس من خارجها حسنة وهي من داخلها مملوءة عظام اموات » (متى ٢٣/٢٥—٢٨) . إن احب شيءٍ الى الله صفاء النيات وصدقها . فهو لا تبهره كبار الاعمال التي تؤتى في صخب وضجيج ، لكنه يرضى عن صغارها اذا خرجت عن قلب غمرته الثقة والمحبة . لذلك أطرى السيد المسيح عمل الارملة الفقيرة وقد جادت بفلسين هما كل ثروتها في سبيل الله (لو ٢١/١—٤)، فألقت اكثر من جميع الاغنياء ؛ كما اطرى العشار الذي اقرّ في تواضع بخطائه والابن الشاطر الذي سحقت قلبه الندامة . وهؤلاء جميعاً فعلوا ما فعلوه عن صدق نيّة وثقة بابوّة الله . وخير تعبير عن صدق النيات نجده في الصلاة الواثقة .

الانفتاح على الجميع

وجنّب السيد المسيح البشرية خطر الاخلاقية المقفلة ، المحصورة بأُمة او بعرق او بمعتقد او ببيئة، فاراد ان تكون شرعة الانجيل منفتحة على عموم البشر وعلى مدى الاجيال دون ايّما استثناء . كان البشر قبل مجيئه يركزون شرعة اخلاقيتهم على المعتقد والعرق والبيئة فيعاملون بالحسنى من يدين بدينهم او يتكلم بلغتهم ويغلظون في المعاملة لكل من كان غريباً عنهم . اما هو فاصلح هذا الخلل . شهّر انانية الانسان مصدر تلك الفوضى وحدد ان تُبنى المعاطاة الاجتماعية القائمة ما بين البشر لا على المعتقد والعرق واللغة بل على وحدة اصلهم ولزوم ارتباطهم بالله خالقهم وغايتهم القصوى . ذلك لأن المعاطاة الاجتماعية المرتكزة على الدين والعرق وغيره ليست سوى ضروب من الانانية المبطنة وعبادة المرء ذاته مما يجعل الاخلاقية مقفلة فتنشأ عنها العنهجية الزائفة والوطنية المتطرفة والتعصب الديني الغاشم واضطهاد الآخرين وما الى ذلك ... فالمسيح بتركيزه شرعة الانجيل على المحبة والاخاء والمساواة ما بين البشر جعل اخلاقيته منفتحة على عموم البشر بدون اي استثناء .

الصلاة الواثقة

وهي التي يقدّم فيها الانسان قلبه لله يوم يدعوه قائلاً : « يا بنيّ اعطني قلبك ». ما أحب قلوب البنين الى الآباء . فالصلاة الواثقة هي حديث بين الخليقة والخالق ، بين الابن وابيه ، لا لائحة حاجات وعريضة مظالم تعرض على اله عات لا سبيل الى استمالته الا بالتملّق والمداهنة ... وهي ملخّص عقيدة وموجز منهج أدبي ، وتعبير صادق عن ايمان راسخ . وهذه الصلاة هي ما علّم السيد المسيح تلاميذه تلاوتها يوم قال لهم : « أمّا انتم فصلوا هكذا : ابانا الذي في السماوات... » (متى ٦/٩–١٤) .

هذه الصلاة الربيّة هي انجيل مصغّر ضمّنها السيد المسيح جوهر رسالته . فهي تحدّث عن حب الله للانسان وثقة الانسان بالله ، ومحبته لأخيه الانسان ، ورغبته في الصفح عن اساءاته . واذا الصلاة مؤانسة بين شخصين توثقت بينهما روابط المحبة ، فلا يطلب كل منهما الاّ ما هو خير صاحبه . فيتنازل الله عن عظمته ليغُمر بحنانه الانسان الذي رفعه الى مصاف الابناء ورثة النعيم الخالد ، ويترفّع الانسان في تواضع فيرمق الله اباه بعين الثقة لعلمه ان خير الله هو خيره وقد خُلق هو لله ، لا الله لاجله فيطلب اول ما يطلب ، مجد الله ابيه ، وبعدئذ يطلب ما يحتاج اليه من خبز وغفران وقوّة على تذليل الصعاب وقهر التجارب ، وفقاً لارادته تعالى التي يستسلم لها في طاعة

عمياء . واذا الصلاة اخيرًا ذبيحة شكران ومحرقة كبشها الارادة الشخصية تضحّى على مذبح الطاعة لله . لذلك قال السيد المسيح اذا صلّيتم فقولوا هكذا : « ابانا الذي في السماوات » .

ابانا الذي في السماوات

وما اشبه هذا النداءبنداء المسيح في مفتتح صلاته الشخصية عندما قال : « اعترف لك يا أبتِ ، ربّ السماوات والارض ، لأنك اخفيت هذه عن الحكماء والعقلاء وكشفتها للاطفال » (متى ١١/٢٧) . هو نداء فيه عاطفتان من حب واحترام . ويتجلّى الحب والاحترام في دعوة الله رب السماء والارض اباً ، فلن ندعوه بعدُ : رب صباووت ، قديرًا ، رهيباً ، كما تعوّد اليهود ان يدعوه . هو اب يجب له ، ككل اب ، حب واحترام ؛ وهو اب مشترك لجميع الناس على السواء ، لذلك نحن نقول : ابانا ، ونلحق به ضمير الجمع تذكرةً بأننا جميعاً اخوة ندعو الله عندما ندعوه باسم اخواننا البشر اجمعين . ويعقب هذا النداء ثلاث طلبات تتناول تمجيد الله وثلاث طلبات تتناول حاجة الانسان .

ليتقدس اسمك

وفي الطلب الأول تذكير بوجوب تقديس اسم الله ، وكثير من ابنائه الناس يتناسون هذه الحقيقة فيقدّسون ما لا يستأهل التقديس ويحقرون اسم الله الواجب القداسة .

ليأت ملكوتك

وفي الطلب الثاني تمنّ لبسط ملك الله على القلوب ، فتخضع الارادات — رغم ما تقيمه الحرية في سبيل الانسان من عقبات تحول دون اخضاع ارادته — لارادة الله تعالى . فيتبنى الانسان رغبات ابيه السماوي ولو معاكسة لرغباته الشخصية ، ويعمل الانسان مع باريه على نشر ملك الله شيئاً فشيئاً على الارض الى ان يتكامل في العالم الآتي ، عالم الازل .

لتكن مشيئتك

وفي الطلب الثالث تعبير عن رغبة ملحة في ان يعمل الناس بارادة الله كما يعمل الملائكة بهـــا في السماء . فيكرم الله على الارض كما يكرم في السماء . لكن العمل

بارادة الله يوجب إماتة الارادة الشخصية . وكل موت يخيف ولو عقبته حياة . لكنّ الحياة لا تكون الاّ بعد الموت . « ان حبة الحنطة ان لم تمت لا تعش » (يو ١٢ / ٢٤ ٢٥) . فيُميت الانسان ارادته ليحيي فيه ارادة الله فلا يعود يرى امور الدنيا الاّ على ضوء التعاليم الالهية . فيفطن لما هو لله لا لما هو للناس (متى ١٦ / ٢٣) ، وهكذا يتمجد الله فتتمّ ارادته في السماء وعلى الارض .

وبعد ان يعبّر الانسان لربه عن اخلاصه في تمجيده ، يعرض عليه في ثقة بعض مطالبه وأول مطلب له انما هو الكفاف من الخبز .

اعطنا خبزنا كفاف يومنا

من الخبز الكفاف وحسب . والخبز يشمل ما هو ضروري لقيام الجسد وصحة النفس . فلا عافية الجسد دون النفس عافية ، ولا عافية النفس دون الجسد عافية . وعلينا ان نعرض الحاجة ، فلا ثرثرة ولا سيول كلام . لذلك قال : « اذا صلّيتم فلا تكونوا مثل الوثنيين ، فانهم يظنون انه بكثرة كلامهم يستجاب لهم . فلا تتشبّهوا بهم ، لأن اباكم عالم بما تحتاجون اليه قبل ان تسألوه » (متى ٦ / ٧) . ان من نخاطب عالم بما نحتاج اليه قبل ان نعرضه عليه . فالصلاة تذكرة لنا بحاجتنا اليه اكثر مما هي تذكرة له بما نحتاج اليه . وبعد الخبز يأتي ما هو في مقام الخبز للنفس وهو راحتها وطمأنينتها لذلك نقول : اغفر لنا . . .

اغفر لنا ذنوبنا كما نحن نغفر لمن اساء الينا

وكيف السبيل الى راحة النفس والبال اذا كانت الصدور تأتكل بالاحقاد . وهل تُزال الاحقاد الاّ بالصفح عن الاساءة ، ولا صفح عن اساءاتنا الاّ اذا صفحنا عن اساءات الناس الينا . ان غفران الاساءات اصدق دليل على محبة القريب التي جعل السيد المسيح منها وصيته الكبرى . وهل من عجب اذا جاءت الصلاة التي علّمها المسيح تلاميذه تحمل طابع محبة الله والقريب ؟ فلنبدأ بالاقرار باخطائنا امام الله . فالاقرار بالخطإ فضيلة . ولنلتمس الغفران بعد ان نكون غفرنا للناس ما لنا عليهم . لذلك قال : « ان غفرتم للناس زلاّتهم ، يغفر لكم ابوكم السماوي زلاّتكم . وان لم تغفروا للناس فابوكم ايضاً لا يغفر لكم زلاّتكم » (متى ٦ / ١٤) . وعبثاً نطمع بغفران ان نحن اضمرنا حقداً للقريب . لذلك اردف السيد المسيح قوله : « متى قمتم لتصلوا ، فان كان لكم على احد شيء فاغفروا له لكي يغفر لكم ابوكم الذي في السماوات زلاّتكم »

(مر ١١/٢٥) . والسلبية لا تكفي . انما يجب ان نذهب الى ابعد من ذلك ، ان نحب الاعداء ونباركهم . « أحبوا اعداءكم ، باركوا من يلعنكم » (متى ٥) . وقد نصب ذاته مثلاً أعلى في محبة الاعداء فغفر لصالبيه وباركهم (لو ٢٣/٣٤). ومن ثم يجوز لنا ان نؤمّل الغلبة وقت التجربة فلذلك علمنا ان نقول :

ولا تدخلنا في التجربة ، لكن نجنا من الشرير آمين

والتجربة ما اكثرها ولا سيما في هذه الايام . فهي وكأنها ترفّ ابدًا في الهواء . ولا منجى منها ما دام « الشيطان ، كما يقول بطرس الرسول ، يدور حولكم كالأسد حول الفريسة ليبتلعها » (بطرس ١ : ٥/٨) . انما يمكن التغلب عليها بقوة الله . لذلك علّم السيد المسيح المؤمنين به ان يقولوا : « لاتدخلنا في التجربة » ولا : نجّنا من التجربة . فالتجربة محك الفضيلة ، وهي بوتقة تخرج منها الارادة مصفّاة ، مضرّاة على الكفاح . وبمقدور الانسان ان يخرج منها ظافرًا اذا هو اعطي القوّة من علُ ، وكيف يعطاها ان لم يلتمسها في خشوع ؟ لذلك نصلّي . ويقول ألكسي كاريل : « ولو عرف الناس نفع الصلاة ، لعاشوا راكعين » .

جوّ الصلاة الواثقة جوّ عائلي يجمع بين الخليقة والخالق ، ويتيح للابناء ان يتقدّموا برغباتهم من ابيهم ضمن نطاق ارادته ورغباته الابوية ، تحقيقاً لأمر خلاصهم ، والصلاة الربية تخلق هذا الجوّ العائلي ، وترفع العقول نحو خيور السماء .

رفع العقول نحو الخيور الروحية

لا تتوقف شرعة الانجيل ، كالشرعة القديمة ، على خيور الارض بقدر ما تتوقف على خيور السماء . كان حفظ الشريعة في نظر الاسرائيليين مجلبة خير وخصب وبركة ، والتقيد بالمراسيم وسيلة لاستدرار الرزق (احبار ٢٦/٣–١٢ ، وتثنية الاشتراع ١١/١٣–١٥) . واما خيور الدنيا في نظر المسيح والمسيحيين ، وان ضرورية لقيام الجسم ، فهي زائلة لا يعوّل عليها ، وما الدنيا بدار قرار . وعلامَ اذن التكالب على المال ونحر الكرامة والعافية على مذابحه . ان المال خادم مطيع ، لكنه سيّد ظلوم. فكيف بمن يتخذه الهاً يعبده . لذلك قال السيد المسيح : « لايمكنكم ان تعبدوا ربين : الله والمال » (متى ٦/٢٤) . « فاطلبوا اولاً ملكوت الله وبره ، وهذا كله يزاد لكم » (متى ٦/٣٣) . لكن المسيح رذل التواكل والتواني . فالعمل سنّة مقدّسة . وعار على الانسان ان يكون عالة . لذلك قرّع العبد الكسلان الذي لم يتاجر بوزنته (متى ٢٥/

٢٤—٢٨) ، واطرى جهود الزارع يبكّر الى حقله (متى ١٣/١—٩) ، واستشهد بمشاهد وصف فيها العمل المنتج كصيد السمك (متى ١٣/٤٧) والعمل المنزلي (لو ١٥/٨) والتجارة (متى ١٣/٤٥) . وبين عبادة المال والتكاسل المذلّ ، مكان يحتلّه المسيحي فيتمكّن فيه من ان يعيش موفور الكرامة ، في رضا الله وضميره ، بعيداً عن الامجاد الفارغة عملاً بقول المسيح : « ليكن الاكبر فيكم كالأصغر والذي يتقدّم كالذي يخدم » (لو ٢٢/٢٦) ؛ وهكذا يجتاز الحياة ، وقدماه راسختان في الارض وعيناه شاخصتان الى السماء .

الصبر على المكاره

والمكاره لا بد منها ، لأن ابليس عدو الناس لن يهادن . فقد ناصب المسيح العداء وما يزال يناصب العداء تلاميذه من بعده (يو ٧/٧ ؛ و ١٥/١٨)، ومتى ٥/١١) . وما اكثر الذين يستهويهم اغراؤه (يوحنا ١ : ٢/١٦ و ٥/١٩) . لذلك كان على السيد المسيح ان يصدق تلاميذه الخبر . فصارحهم بالحقيقة دون مواربة . هو يرسلهم خرافاً بين ذئاب ، فسلاحهم يجب ان يكون جرأة في فطنة ووداعة، وصبراً على المكاره (متى ١٠/٢٥—٣١) ؛ وعينه ابداً عليهم تكلأهم في حنان ، « وشعرة واحدة من رؤوسهم لا تسقط على الارض الاّ بارادته » ، والجزاء ينتظرهم في آخر الطريق : «حياة ابدية ونعيم لا يزول » (متى ١٠/٤٢) .

الاتكال على عناية الآب السماوي

ولِمَ الخشية من صعاب ، ما دام ذاك الذي يكسو الزنابق زاهي الألوان ، ويطعم العصافير ثمار الحقول ، يقول لابنائه الناس : « لا تهتموا لأنفسكم بما تأكلون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون ... فأبوكم السماوي عالم بكل ما تحتاجون اليه » (متى ٦/٣٢ و ١٠/٣٠) . وقد حرص السيد المسيح على ترداد لفظة : « الآب السماوي » في خطابه على الجبل سبع عشرة مرّة، ترسيخاً لابوّة الله في الأذهان.ومتى رسخ في الاذهان ان الله أب ، أفما ينبغي ان نستسلم له مطلق الاستسلام.فنشكره على ماضٍ اذا كان فيه بعض صلاح يكون منه ، ونسترحمه على ماضٍ اذا كان فيه بعض طلاّح منا . فهو يعطي القوّة على تحطيم قيوده ، ونقف على مرضاته حاضراً نحن فيه ، ونمشي صوب المستقبل يدنا بيده لا نبالي بما يُخبأ لنا فيه من افراح واحزان ما دمنا نعرف انها هبات من يده الالهية تعود علينا ، في آخر المطاف ، بالنفع والفائدة . وهكذا تتشبّع النفس

من روح البساطة المسيحية في حضرة الخالق ، روح المحبة ، روح الشرعة الجديدة ، شرعة الانجيل .

وعلى نعمته

ولربَّ قائل : من تراه يقوى على التقيّد بمراسيم هذه الشرعة ، وهي على ما هي من الصعوبة ؟ وجوابنا قول السيد المسيح : «بدوني لا تستطيعون ان تعملوا شيئاً» (يو ١٥/٥) . فالاتكال على نعمته لا على القوّة الذاتية ، لأنه « لا أحد يذهب (الى المسيح) ما لم يجذبه الآب » (يو ٦/٤٤) . وهو لن يبخل بهذه النعمة « لأننا ، على ما يوضح يوحنا الرسول ، من امتلائه ، نحن كلنا أخذنا نعمة مكان نعمة » (يو ١/١٦) . ولهذا عرفت شرعة الانجيل بشرعة النعمة او عهد النعمة . وكثيراً ما شدّد المسيح عينه على هذه الناحية فقال بلسان يوحنا : « لأن الناموس أعطي بموسى ، واما النعمة والحق فبيسوع المسيح حصلا » (يو ١/١٧) . وبهذه النعمة يصدّ الانسان هجمات العدو والخطيئة فلا تسود عليه . « فإن الخطيئة لا تسود عليكم لأنكم لستم تحت الناموس بل تحت النعمة » (روما ٦/١٤) . وقد استحق المسيح بدمه المهراق على الصليب هذه النعمة لجميع الناس ، بحيث دعا دمه ، دم العهد الجديد « المهراق عن كثيرين لمغفرة الخطايا » (متى ٢٦/٢٧) . ان دم المسيح هذا هو ما يؤتي المؤمن القوّة على التقيّد بمراسيم الشرعة الجديدة . وهذا ما عبّر عنه بولس الرسول بقوله : « فكم بالأحرى ، دم المسيح الذي بالروح الازلي قرّب نفسه لله بلا عيب ، يطهّر ضمائركم من الاعمال الميّتة لتخدموا الله الحي . ولذلك هو وسيط لوصية جديدة حتى انه بواسطة الموت لفداء المعاصي التي جرت في عهد الوصية الاولى ، ينال المدعوون موعد الميراث الابدي » (عبر ٩/١٤) . وهذا الدم عينه هو ما جعل من هذه الشرعة عهداً ابدياً موثّقاً بين الله والبشر ولن تقوم مقامه اية شرعة ، بينهم وبين « اله السلام الذي اعاد من بين الاموات راعي الخراف العظيم بدم العهد الأبدي ، ربنا يسوع المسيح» (عبر ١٣/٢٠) .

لكن نعمة الله لا تعفي المؤمن من مجاهدة النفس لتطبيق شرعة الانجيل عملياً على حياته . انما يجب ان تلتقي النعمة والارادةالشخصية على فعل الخير . فلا يكفي سماع كلمة الله ان لم يُعمل بها (لو ١١/٢٨) . فالمسيحي شجرة ، اذا صح التعبير ، ثمرتها صالح الاعمال (متى ٧/١٧—١٩) ، وعبدٌ امين يحرص على اتقان واجبه اليومي (لو ١٢/٤٣) ، وعامل نشيط يسقي كرم سيده بعرق الجبين (متى ٢٠/١—٦) ، ووكيل موثمن على فضة سيده وعليه ان يتاجر بها (متى ٢٥/١٥—١٩) .

وقوام الصالح من الاعمال التوبة (مر ١/١٥) والتمرس بالمحبة (متى ٢٥/٣٦—٤٥) وحمل الصليب (لو ٩/٢٣) . وهكذا يتمكّن المؤمن بفضل النعمة وبارادته من ان يكنز له في السماء كنوزًا لا تفنى (متى ٦/١٩) ومن ان يغتصب ملكوت الله ، هدف الانسان الاخير (متى ٧/١٣) .

المحبة

ابرز ما في شرعة الانجيل وصية المحبة . فهي الوصية الاولى والكبرى والعظمى . وقد ارادها السيد المسيح علامة فارقة لتلاميذه واتباعه . ولا عجب فمن كشف في الله عن وجه اب ، لا بد له من ان يكشف في الناس عن وجوه اخوة ابوهم واحد هو الله . لذلك اوضح السيد المسيح عندما سئل عن اعظم الوصايا بقوله : « ان محبة الله ومحبة القريب هما الوصيّتان اللتان يتعلّق بهما الناموس كله والانبياء » (متى ٢٢/٣٥) ، فهما المحور الذي تدور حوله جميع الوصايا .

ومحبة الانسان لله واجب لا نصيحة . وما ذلك الاّ لأن الله خلق الكون لا رغبة في منفعة ، واية منفعة يجنيها مما هو دونه كمالاً ، انما حباً للانسان ، لأن الله محبة ، ومن طبع المحبة الافاضة بذاتها . وباطلاً يدّعي محبة الله مَن لا يحب القريب لأن « من لا يحب اخاه الذي يراه ، كيف يستطيع ان يحب الله الذي لا يراه » (يو ١ : ٤/٢٠) . فلا سبيل الى الفصل ، في مجال المحبة ، بين الله والقريب ومن أحبّ الله أحبه أباً . ومن أحب أباً أحب ابناءه . ومحبة الناس ، ابناء الله ، هي الطريق القويم الى محبة الله وما أعطي الانسان ما أعطيه من مواهب روحية وعقلية ومادية الاّ ليضعها في خدمة اخوانه . فهي ديون سيناقشه الله عليها الحساب يوم الحساب . وسيكون الحساب على المحبة . ويقول الملك للذين عن يمينه : « تعالوا يا مباركي ابي رثوا الملك المعدّ لكم منذ انشاء العالم ، لأني جعت فاطعمتموني ، وعطشت فسقيتموني ، وكنت غريباً فاويتموني وعرياناً فكسوتموني ومريضاً ومحبوساً فأتيتم اليّ . حينئذ يجيبه الصديقون قائلين : يا رب ، متى رأيناك جائعاً فاطعمناك ... فيجيب الملك ويقول لهم : الحق اقول لكم انكم كلما فعلتم ذلك باحد اخوتي هؤلاء الصغار ، فبي فعلتموه » (متى ٢٥/٣١—٤٦) .

وطريقة محبة الانسان للانسان طريقة محبه الله للانسان : « أحبوا بعضكم بعضاً كما انا احببتكم » (يو ١٣/٣٤) ، هذا هو المقياس الصحيح . رفق المسيح بالناس لضعفهم فأحبهم ، وفهم المحبة بذلا سخياً الى آخر نقطة من دمائه ، وهكذا فهم القديسون

محبة القريب ، فخدموه عن تجرّد وتضحية . فصاروا منبوذين مع المنبوذين كالقديس فرنسيس كسفاريوس ، وعبيداً مع العبيد كبطرس كلاڤير ، وبرصاً مع البرص كالاب داميان ؛ وفهموا المحبة ترفعاً عن دينونة (لو ٣٧/٦) وحباً لاعداء وصلاة لظالمين (متى ٤٤/٥) وغفراناً وسماحاً لا يعرف حدًّا (متى ٢٧/٨) . والتقادم والذبائح لا تغني ولا تفيد ان هي لم تكن مطبوعة بطابع المحبة (متى ٣٦/٥) . ورب خدمة تؤدى الى قريب احب الى الله من اتمام وصية يكون اتمامها سبباً للاغضاء عنه ، « وخلق السبت للانسان ، وليس الانسان للسبت » (مر ٢٧/٢) . ولهذا احاط من تفهّم من المسيحيين روح الانجيل ، الضعفاء والفقراء والبائسين والمهملين ، بضروب العناية ، واتخذوا من محبتهم للقريب دليلاً على مقدار محبتهم لله . ولا سبيل هنا الى الخطأ ، ما دام المقياس في مجال المحبة قول المسيح « احبب قريبك كنفسك » (متى ٣٧/٢٢) . وقد اتخذ القديس فرنسيس سالوس القول المأثور قاعدة لصدق المحبة فقال : « ان كنت بائعاً فاحسب نفسك شارياً ؛ او شارياً فاحسب نفسك بائعاً تضمن الربح في تجارتك» تجارة المحبة .

نطاق المحبة : تسامح الانجيل

والمحبة لا نطاق لها . فهي لا تعرف حدًّا او لوناً او جنساً او طبقة من الناس . وما اورد السيد المسيح مثل السامري الاّ ليرسّخ هذه الحقيقة في الاذهان[1] . والسامريون عرفاً وتقليداً ، اعداء اليهود ، لا يخالطونهم حتى في اماكن العبادة ، وقد بنوا لهم هيكلاً مستقلاً على جبل غريزيم مقابل هيكل سليمان . لكن السامري خرج على تقاليد قومه ، وقلب العادات المتّبعة ، ولم يتوقف على اي اعتبار يخنق فيه عاطفة المحبة

١) مثل السامري : « واذا واحد من علماء الناموس قام وقال مجرباً له (يسوع) : يا معلم ماذا اعمل لأرث الحياة الابدية ؟ فقال له : ماذا كتب في الناموس ؟ كيف تقرأ ؟ فأجاب وقال : احبب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل قدرتك وكل ذهنك ، وقريبك كنفسك . فقال له : اجبت بالصواب. اعمل ذلك فتحيا . فأراد ان يزكي نفسه . فقال ليسوع : ومن قريبي ؟ فعاد يسوع وقال : كان رجل منحدراً من اورشليم الى اريحا فوقع بين لصوص فعروه وجرحوه ثم مضوا وقد تركوه بين حي وميت. فاتفق ان كاهناً كان منحدراً في ذلك الطريق فأبصره وجاز . وكذلك لاوي وافى المكان فأبصره وجاز. ثم ان سامرياً مسافراً مر به . فلما رآه تحنن عليه ، فدنا منه ، وضمد جراحاته وصب عليها زيتاً وخمراً وحمله على دابته واتى به الى فندق واعتنى بأمره . وفي الغد اخرج دينارين واعطاهما صاحب الفندق وقال : اعتن بأمره ومهما تنفق فوق هذا فأنا أدفعه لك عند عودي . فأي هؤلاء الثلاثة تحسبه صار قريباً للذي وقع بين اللصوص ؟ قال : الذي صنع اليه الرحمة . فقال له يسوع : امض فاصنع انت كذلك » (لو ١٠ /٢٥-٣٧) .

المجرّدة . فهو لم يأسف على وقت اضاعه في تضميد جراح الجريح ، ولم يبال بما سيتّهمه به ابناء جلدته من خيانة للقضية القومية ، ولم يرَ في هذا الجريح عدوًا يجب سحقه ، انما رأى فيه انساناً يتألم وحسب ، فسارع الى نجدته وصبّ على جراحه زيتاً وخمرًا ونقله على دابته الى اقرب نزل اليه وانفق في سبيل تأمين ما ينبغي له من العناية . وهكذا تسامى السامري في محبته فوق الجنس والمذهب والطائفة والتقليد ، وما استلهم الاّ الشعور الانساني النبيل .

وقد اطرى السيد المسيح عمل هذا السامري الذي يحقره اليهود ، وأبان ان محبة القريب خير من صوم وصلاة ؛ فأنكر اعراض الكاهن واللاوي — وهما من رجال الشريعة والهيكل والصوم والصلاة — عن الجريح وآثر عليهما السامري عدو اليهود ، الذي اهتدى في وجه جريحه الى وجه اخٍ ابوه الله ، ومكّن الجريح من ان يكتشف في وجهه هو السامري وجه المحبة الحقة التي تقود الى الله . فاراد المسيح هذا المثل صفحة مشرقة نابضة بمعاني التسامح الديني الذي جعله سنة انجيله المقدّس . لذلك سمعناه يشير على سائله باتباع مثل السامري بقوله : « اما انت فامضِ واصنع كذلك » .

وهكذا اوضح السيد المسيح انه ، اذا كان التديّن الواعي محبّباً الى الله ، فالتعصب الديني الضيّق ممقوت لديه ، لأنه وليد الجهل ، بغيض الى عباده ، لأنه ينمّ عن سوء نيّة وحقد كمين يريد الظهور بمظهر غيرة مزيّفة . وما كان اضطهاد الناس في دينهم الاّ تنكرًا سافرًا للدين القويم ، وتسفيهاً فاضحاً لتعاليم الانجيل القائل بحريّة المعتقد والضمير . وما ضرّ الدين كمهوّس متطرّف يتلمّس مرضاة الله في فرض دينه ، قسرًا ، على الناس . ومتى كان الدين حزباً سياسياً يعمد الى التهويل والاغراء والدعايات بغية اقتناص الاشياع والانصار والمؤيدين ؟ ما الدين الاّ شهادة حق في إله حق يؤدّيها من يؤدّيها عن اعتقاد راسخ وايمان واعٍ حرّ . ولولا الحرية في الدين فاين الطريق الى المثابة ؟ واين الفضل والمكرمة لدى الله ؟ لذلك أنّب السيد المسيح تلاميذه على تصلّبهم وقسوتهم يوم اقترحوا عليه ان يمطر السامريين نارًا وكبريتاً لتصامّهم عن سماع كلامه وافهمهم انه ما اتى ليهلك النفوس بل ليخلّصها (لو ٩/ ٥٥) . وما دان المسيح احدًا من الناس على معتقده في هذه الدنيا . لذلك قال : « كل من يعترف بي قدام الناس ، اعترف انا به قدام ابي الذي في السماوات . ومن ينكرني قدام الناس انكره انا قدام ابي الذي في السماوات » (متى ٣٢/٧٠) . وأرجأ الدينونة ليوم الدينونة ليحاسب كلاً من الناس على معتقده . وما ترك فرصة الاّ اعطى فيها الفريسيين امثولة في التسامح لا سيما مع الضعفاء والخطأة ، استدراجاً لهم الى توبة

نصوح ، وان لم يرعووا فله الابدية يدّخرها للعقاب . لذلك أبى ان تُرجم الزانية التي اتوه بها وقد القي عليها القبض متلبّسة بالجريمة (يو ٨/٢–١٥) ، ليفهمهم أنه يود عودة الخاطئ ، وان الخطايا الخفية مرذولة لديه كالظاهرة منها ، فمزّق الاقنعة التي كانوا يتسترون بها وقال : « من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر » . وقد ذهبت المسيحية في مجال التسامح الديني الى حيث تجير الزواج بين مسيحي وغير مسيحي شرط ان يأمن الفريق المسيحي الكاثوليكي خطر الضلال وتترك له الحرية في ممارسة واجبات دينه .

اثر المحبة

وما أبعد اثر المحبة في الافراد والجماعات وما أفعلها في تطوير المبادئ والمفاهيم ! وعندما تخلو منها القلوب ، فلا تعود تستقر عذوبة في الوجوه ، واذ ذاك تصبح الحياة صحراء قاحلة لا خضرة فيها تريح العين ولا أمل بالعثور فيها على ماء يرطب الاحلاق.

وكانت المحبة فرطّبت من جفاف القوانين ، وقد كانت هذه تجيز انزال عقوبة الموت بالمديون ان هو رفض وفاء دينه او عجز عنه ، واستبدل بعقوبة الموت في شرعة موسى ما هو دونها صرامة ، وتطوّرت القوانين ، فما عاد عقاب الدين يتناول الشخص بعينه بل ممتلكاته وارزاقه وامواله ، الاّ ما كان منها ضرورياً للعيش .

وكانت القوانين تعتبر العقود نافذة ان هي حملت توقيع المتعاقدين ، دون نظر الى ما قد يشوب هذه العقود من شوائب قد تفسدها . وكانت شرعة المحبة فقالت بفساد كل عقد ابرم تحت الخوف والضغط والاكراه، ولو حمل تواقيع المتعاقدين ، وهكذ تجرّأ المظلوم على بث ظلامته .

وأثّرت المحبة في علاقات الجماعات ، فكانت رابطة لتوثيق الوفاء والتفاهم وينبوعاً لا ينضب للرقي والعمران ، فحفزت الانسان الى اصطناع الخير ، فكانت دور الاحسان والمياتم والمؤسسات الخيرية في خدمة المنكوب واليتيم والعاجز ، وانبرى ، بدافع من محبة ، رجال العلم من امثال باستور ، وامبير ، وماركوني ، يعملون الفكر لاستنباط الوسائل الناجعة للتخفيف من آلام البشرية ، ودفعها في طرق الحضارة .

وكانت العلاقات بين الناس تقوم على أساس عدل صارم جاف ، فعادى الانسان من عاداه وصافى من صافاه . وأبى العدل الاّ معاقبة الجاني بما جنت يداه ، واستتبع الصرامة في العقوبة حقد مكبوت في نفس من عوقب ، وتشفٍ وكيد في نفس من عاقب ، وهكذا كان العدل مدرجة للظلم على حدّ ما قال المبدأ اللاتيني : «الغلوّ

في العدل ، غلوّ في الظلم ، وما استولد الظلم الاّ الظلم » ؛ حلقة مفرغة لا نجاة منها الاّ بالمحبة . وقد جلا السيد المسيح هذه الحقيقة في مثل الابن الشاطر فأظهر ما تأويله : لو ان والده أصغى الى عدل اخيه الاكبر لانقلب العدل ظلماً على الجميع ففقد الوالد ولده وعاد الولد الى سيرته الاولى وقد ايأسه تصلب ابيه وأخرجه عن طاعته ، ولكن الوالد تسامى في معاملة ابنه الاصغر فوق موجبات العدالة الصارمة ، فأحيا ابنه وقرّت عينه به . وكل عدالة ان لم يُوشّ جوانبها شعاع محبة انقلبت ظلماً بغيضاً . وكم من مجرم لا تقع عليه تبعة اجرامه بقدر ما تقع على والدين اورثاه جهازاً عصبياً مريضاً ، او على مجتمع قسا عليه فدفعه بما اوقعه فيه من بؤس وشقاء دفعاً الى الاجرام .

وتجاهل المجتمع القديم العدالة الاجتماعية ، وكانت شرعة المحبة فأسهمت في خلق هذه العدالة ، فدفعت الى التحسس بآلام المتألم وساعدت على اصلاح حال العامل وانتشاله مما اوقعته فيه النظم الاجتماعية من بؤس . وباطلاً تعالج القضايا الاجتماعية التي تتناول علاقات العامل بصاحب العمل ، ان لم تعالج على ضوء المحبة ، وفقاً لروح الانجيل ، لأن المحبة وحدها هي التي تعمل على تطوير العدالة وفقاً لمقتضيات التقدم والرقي ، ورب صدقة بالأمس هي عدالة اليوم ، ورب صدقة اليوم تكون عدالة في الغد ، ولا غرابة ما دام العالم في تطوّر مستمر . وان ما نصح به لاون الثالث عشر من اجور عائلية من باب المحبة ، طالب به بيوس الحادي عشر من باب العدل وتطوّرت مفاهيم العدالة الاجتماعية فاذا البابا بيوس الثاني عشر يطالب باشراك العامل في ارباح العمل ، وبحقه بالملكية التي تقيه شرّ الاستعباد للدولة والرأسمالية . وهكذا ما تزال المحبة تمهّد السبيل لتوطيد العدالة والسلام بين الناس .

وهل من حاجة الى القول ان كل نشاط قامت به الكنيسة كان مصدره المحبة ؟ لقد جمعت تحت رايتها شعوب الارض على اختلاف الألوان ، وتسامت فوق العنصريات والحزبية والنظم والبست كلاً من ابنائها ثوباً جديداً بحيث لم يبق «يوناني ولا يهودي ولا ختان ولا قلف ولا اعجمي ولا إسكوتي ولا عبد ولا حرّ ، بل المسيح هو كل شيء وفي الجميع » (كولوسي ٣ / ١٠).والمحبة هي التي تلهم من يزهدون، من رجال الكنيسة، في افراح الحياة المشروعة ، فيؤثرون التعب والجهاد على العيش الرخيّ ، فيقضون العمر استشهاداً متواصلاً في تفتيح الناشئين على كنوز المعرفة ، وفي حمل انوار الانجيل الى من لا يزالون يتسكعون في ديجور الوثنية . والمحبة هي التي تلهم هذا الجيش من القتيات اللواتي نذرن ذواتهن في الرهبانيات لخدمة المنبوذين البائسين . وهكذا كان تاريخ الكنيسة تاريخ المحبة على الارض .

الفصل الخامس

شرعة الانجيل في الحياة الخاصة

١ – العالم القديم والشخص البشري

٢ – الانجيل والشخص البشري

٣ – الانجيل والسياسة والدولة

٤ – الانجيل والمرأة

– اثر العذراء في اعلاء شأن المرأة

٥ – الانجيل والزواج

– ماهية الزواج
– وحدته
– ثباته
– مضار الطلاق

٦ – الانجيل والحياة الرهبانية

٧ – الانجيل والاخلاق

٨ – الانجيل وطاقة الانسان على التقيد باخلاقيته الصارمة

– الانجيل للعامة والخاصة على السواء
– الانجيل ورغبة الطبيعة

خاتمة – هل اخفق الانجيل ؟

اذا القينا نظرة على العالم القديم وقارنا بينه وبين عالم ما بعد المسيح ، تبيّن لنا مدى تأثير الانجيل في تهذيب الاخلاق وصقل الآداب ، وما احدثه من تطوّر حضاري تناول جميع مرافق الحياة ، فكان حقاً الخميرة في العجين .

١ – العالم القديم والشخص البشري

لقد حقر العالم القديم الشخص البشري ، فحيثما أدرت اللحظات عثرت على مظالم تثور لها النفوس سواء أدرت وجهك شطر نينوى الاشوريين ، ام التفت الى بابل الكلدانيين ، أم توقّفت في مصر ، أم ذهبت الى الشرق الاقصى ، أم يمّمت روما بعد ان تمرّ ببلاد اليونان ، عالم طبعته القسوة وضجّت فيه المظالم وماج بالمرهقين .

وهذه اشور تحدثك حفرياتها عن مليك يعتزّ بأنه كسا جدران قصره جلود اعدائه الذين سلخهم احياء ، بعد ان مثّل بهم شرّ تمثيل ؛ وتقضي قوانينها بالموت على من آوى عبدًا آبقاً ، وتبيح بيع العبيد مع نسائهم واولادهم بيع السلع ، وهذه بابل يعيب النبي باروك اهليها على أنهم يأكلون لحوم القرابين فلا يوزعونه على الفقراء (باروك ٦). وها هي الهند ما يزال الناس فيها طبقات بينها فواصل لا سبيل الى اجتيازها ، واحط طبقاتها المنبوذون ، يعيشون عيشاً هو اقرب الى الحيوان منه الى الانسان . والصين أجاز كونفوشيوس فيها قتل الجنين وبيع الأولاد ووأد البنات ، ليولدوا ذكورًا فيما بعد في زعمه ، رغم انه أمر كبوذا بالرفق بالبائس وبالاحسان الى المعدم ، وبتحريم صناعة الاسلحة ، ابقاءً على حياة العباد . وادعت الدولة في اسبارطة ما منحت اثينا وروما الوالد من حق على بنيه في الموت والحياة . فللوالد ان يبقي على اولاده اذا شاء ، واذا شاء فله ان يلقيهم طعاماً للطيور او فرائس للوحوش . وله أن يتاجر بهم وبأعراضهم او ان يقرّبهم ضحايا للآلهة ، ولا خوف من عقاب ولا رهبة لقانون . ومصر واهرامها شاهدة على ارهاق العبيد ، رغم ما جاء في كتبها الطقسية من صلوات تدلّ على رغبة في الرفق بالمظلوم والفقير[١] . وكان الاجهاض عادة مألوفة في المجتمع الروماني مما حمل بلينوس الشيخ على استنكار هذه الجريمة فقال : « لقد اصبحنا اكثر اجراماً من الحيوانات » . وما كان العبيد في روما اسعد حظاً من الاولاد ، ومن الاسياد من كان

---

١) وردت في كتب المصريين الطقسية صلاة تدعي النفس فيها البرارة امام الاله اوزيريس بقولها : « لقد اعطيت خبزاً للجائع وماء للعطشان ولباساً للعريان » .

يملك منهم الآلاف يبيعها في اسواق النخاسة او هو يلقيها فريسة للوحوش الضارية ترويحاً لنفوس النظارة في المسارح الكبرى . وقد افتى ارسطو الفيلسوف الأكبر بأن العبيد لا نفوس لهم وما خلقوا الاّ ليكونوا في خدمة الاحرار ، كما أفتى بدخول الاجنبي في عداد العبيد اذا هو وقع اسيراً في قبضة الاعداء . وما كان من أثر لما نعرفه اليوم من دور الاحسان . واذا بدرت من احد الأباطرة يومذاك بادرة اسعاف ، كانت تبذل تحقيقاً لغاية سياسية لا حباً لضعيف ، كما فعل تراجانوس . وكانت الشفقة تعد ضعفاً في نظر أسياد روما . وهذا ما أشار اليه سانالك حيث قال : « يستطيع الانسان الحكيم أن يمسح دمعة البائس ، ويمدّ يد الاغاثة الى الغريق ويفتح كفّه للمعوز ، ويقاسم رغيفه نداًّ له ؛ انما ينبغي له في مثل هذه الظروف ألا يتألم لألمه ، وألاّ يظهر أي حزنٍ على شقائه ، ذلك ان الشفقة ضعف في النفس وبالتالي مرض . »

وما حدّ سلطان الدولة في العالم القديم سلطان . فادعى الملوك والاباطرة حق العبادة واحراق البخور أمام صورهم وتماثيلهم . فقال فوستيل دي كولانج في كتابه « الدولة القديمة » : « ان افراد العالم القديم لم يعرفوا الحرية الشخصية ولم ينعموا بها » ، وأردف قائلاً : « كانت اسس الدولة مبنيّة على الدين فكانت تشكّل هيئة هي « كنيسة ـ دولة » ، ومن هنا نشأ سلطان الدولة المطلق على افراد الشعب . فكان المواطن في قبضة يدها ، وكان الدين يدعم الدولة لبسط نفوذها والدولة تدعم الدين ، وهكذا كانا متحدين يخضعان الانسان لها نفساً وجسداً » . واعتبر الانسان خادماً للدولة تجبره روما على الخدمة العسكرية الى سن السادس والاربعين ، وتجبره اسبرطة عليها حتى الممات ، وتفرض الدولة فيها الزواج على الشبان بغية ايجاد جنود يحمون حماها ، واعترف افلاطون للدولة بحق فرض المدرسة على الولد دون ما نظر الى ارادة والديه ، وبحق فرض عبادة الاله الذي تريد ؛ وما حُكم على سقراط بالموت الاّ لخروجه على هذا القانون .

وما كانت الدولة في اثينا لتعترف للمرأة بحقوقها المدنية ، لكنها اعتبرتها أبداً تحت وصاية والدها لا تخرج منها الاّ لتدخل في وصاية زوجها او وريثها الشرعي . وكانت القوانين تقضي بالحجر عليها بعد زواجها فلا تجيز لها الخروج من بيتها الاّ في حالات نصّ عليها الشرع المدني ، ولا تسمح لها بان تستقبل في دارها الاّ ذوي قرباها بالدرجة الاولى كاخوتها واخواتها ، فلا تجلس على مائدة بعلها لتؤاكله في وليمة على ما ذكر كورنيليوس نيپوس في مقدمته وپول جيد في كتابه في « مسلك المرأة الشخصي » . وكانت الشرائع تجيز مساكنة السرّيات لانجاب اولاد يعدّون شرعيين

في نظر الدولة . وما كانت حال المرأة في أثينا لتختلف عنها في روما ، حيث كانت المرأة اداة متعة وظيفتها خدمة الرجل وانجاب البنين . وكان الحق الروماني يجيز نوعين من الزواج يقصر اولها حق الرجل على زوجته في تهذيب أخلاقها وفرض بعض عقوبات عليها ، على ان يبقى ملء السلطة عليها لوالدها ؛ وينقل ثانيهما سلطة والدها المطلقة عليها الى زوجها فيحقّ لهذا الاخير الاحتفاظ بها وبممتلكاتها وادارتها على هواه . لكن اغوسطوس قيصر ألغى سلطة الوالد على ابنته المتزوجة واسندها الى بعلها ، كما اجازت القوانين في روما للمرأة بالخروج من بيتها الى الساحات العامة ؛ الاّ ان الطلاق كان معترفاً به قانونياً ، ويجوز لاتفه الاسباب كالمرض والشيخوخة والعاهة[1] . وهكذا انّى سرّحت البصر ، القيت ان الحرية الشخصية كانت مجهولة ، وما نال المسيحية ما نالها من اضطهاد في طور نشأتها الاّ لأنها دافعت عن قدسية الشخص البشري وحريته .

٢ – الانجيل والشخص البشري

ما من مشترع احترم الشخص البشري كالمسيح ، فأوضح ان نفسه خالدة لا توازيها كنوز الارض جمعاء (متى ١٦/٢٦) ، وانه مدعو ليكون ابناً لله بالتبنّي ووريثاً لنعيمه الخالد . وهذا ما اشار اليه بولس الرسول في رسائله الى أهل أفسس وغلاطية وكورنتس واجمل فكرته هذه بقوله : « مبارك الله ابو ربنا يسوع المسيح الذي باركنا بكل بركة روحية في السماوات . كما اختارنا فيه من قبل انشاء العالم لنكون قديسين وبغير عيب أمامه بالمحبة ، سابقاً فحدّداً ايّانا للتبنّي له بيسوع المسيح على حسب رضى مشيئته » (افسس ١/٣–٦) . وهذا ما يضفي على الشخص البشري طابعاً مقدساً ، دفع الكنيسة الى الدفاع عنه ، ولا سيّما عن الضعيف والمظلوم[2] ، فقالت باحترام الجنين وحرمت الاجهاض تحت طائلة العقوبات ، وأخذت بناصر المرهق ،

---

١) لقد طلق شيشرون الخطيب الروماني الشهير امرأته ترانسيا وهي في السابعة والخمسين ليتزوج من فتاة. وكان زواج المتعة شائعاً لدى الرومان كأن يهب الرجل امرأته لصديقه مدة فتنجب له خلالها بعض اولاد ثم يستردها من بعدها . وهذا ما فعله كاتون المؤدب بامرأته مع صديقه اورتانيس . وهذا الفساد كان من اقوى العوامل على انهيار الدولة الرومانية .

٢) رشق البابا زخيا الثالث سنة ١١٩٩ ملك فرنسا فيليب اوغست بالحرم ، رغم قيامه بكثير من الخدم في جانب الكنيسة ، لاقدامه على طلاق امرأته دون ذنب منها ، وناصرت الكنيسة ارثور الوريث الشرعي لعرش بريطانيا على عمه جان سان تير المغتصب ؛ وجبه بيوس السابع نابليون لاقدامه على طلاق امرأته دون مسوغ ؛ ورذل بيوس الحادي عشر النازية لسحقها الشخص البشري كما رذل البابا بيوس الثاني عشر الشيوعية للغاية نفسها وهي تضحي بالانسان على مذبح الديكتاتورية العمالية .

والمريض ، وأنشأت لهذه الغاية المؤسسات الخيرية ودور الاحسان والمياتم والمستشفيات وعملت على تحرير العبيد وعلى احترام المرأة أعمق احترام . ودوت أصوات رجالها «تقبّح مظالم العالم القديم وتحضّ الاغنياء على البذل للفقراء بلهجة تنمّ عن جرأة وايمان » . خاطب القديس يوحنا فم الذهب رعاياه في القسطنطينية في احدى مواعظه، فقال : « انكم تنفقون الاموال الطائلة لتلبسوا الخزّ والارجوان . بيد ان اخوانكم الفقراء يتضوّرون جوعاً ...خلائق بشرية مخلوقة على صورة الله ومثاله تتألم وينال منها الضعف والهزال وانتم تزيّنون خيولكم بالذهب المرصّع » . وما كان باسيليوس الكبير ، رئيس اساقفة قيصرية ، بأقل جرأة عندما قال للاثرياء : « كيف تطاوعكم نفوسكم ، أيها المسيحيون ، أن تقتنوا أسرّة من الفضة ، ومناضد وكراسي من العاج بينما تعجّ قاعات الانتظار في قصوركم بالفقراء والمعوزين ! ان خزانة واحدة من ملابسكم الفاخرة تكفي لكساء وتدفئة اولئك الالوف من الفقراء الذين يرتجفون برداً ... » . وقد لبّى النداء كثير من الموسرين فأنفقوا أموالهم على الفقراء[1] ، مما حدا الدولة الرومانية أخيراً على تقليد الكنيسة ، من بعيد ، فأنشأت بعض مؤسسات خيرية كالمياتم ودور العجزة والمستشفيات وفنادق للمسافرين ، ومآوي للاطفال ، لكنها لم تتسم بما تتسم به المؤسسات المسيحية من محبة تستقيها من ينابيع نعمة المسيح الدفّاقة .

٣ – الانجيل والسياسة (والدولة)

جاء علماء الناموس في اسرائيل يوماً وسألوا السيد المسيح مجرّبين : « يا معلم ايجوز ان ندفع الجزية لقيصر ؟ فقال لهم اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » (متى ٢٢/١٩) .

فميّز بجوابه هذا ما بين الدين والسياسة (الدولة) وحدّد لكل حقه وعيّن له الدور الذي يجب ان يقوم به في المجتمع الانساني ولا يتعداه لئلا يتطاول على الفريق الآخر. وهذه اول مرة يحدث فيها هذا التمييز في تاريخ البشر ، وقد كانت الديانة تتناول حياة الانسان في جميع نواحيها ، الفردية والاجتماعية ، والدولية ؛ وكثيراً ما كان رجال الدين يتدخلون حتى في الناحية الصحية والاقتصادية ، وقد فاتهم ان ثمة مؤسسات كثيرة

١) انفق المثري الكبير باماخيوس صديق القديس ايرونيموس كل ثروته في القرن الرابع على دور الاحسان . وانفقت في القرن نفسه كثيرات من النساء المثريات ثرواتهن للغاية نفسها واشتهرت بينهن القديسة ميلاني الفتية (٣٨٣–٤٣٩) وقد انفقت ثروتها ، وكان يقدر ريعها سنوياً بمائة مليون ليرة ، على الاحسان . وقد أنشأ باسيليوس الكبير مستشفى للبرص . وما قام به الأب دميان من عمل جبار في سبيل البرص ، وما قامت به الراهبات اللعازاريات ، ومؤسسات مار يوحنا بوسكو ، وكوتولنغو وغيرها ، ليس سوى تجسيد لفكرة الانجيل بوجوب الشفقة والرحمة واحترام الشخص البشري.

تقوم بذلك خارجاً عن نطاق الدين . وان كان المسيح قد ميّز ما بين الدين والسياسة فهو لم يقطع ما بينهما من الاواصر والصلات التي تشد أحدهما الى الآخر . انه لم يفصل ولم يقطع ولكنه ميّز ؛ وان ثمة فارقاً كبيرًا ما بين الفصل والتمييز . فالدين له حق الكلام وابداء الرأي في المجتمع ولكن بدون إمرة ولا سلطان وذلك كي لا يستبدل رجاله برجال الحكم ، ويفرض حكم القلنسوة على الدولة والشعب . فمن خاصيّات الدين تثقيف ، ضمائر الشعب وتجهيز رجال مخلصين وخدام امناء صالحين للمؤسسات الطبيعية القائمة في المجتمع : الاسرة ، المهنة ، الأمّة ، الوطن ، الدولة ، والسهر على تأمين حرية المعتقد والضمير والفكر للمواطنين والاهلين . غير انه لا يحق لرجال الدين ان يتدخلوا في الشؤون السياسية والاقتصادية ويناصروا فريقاً على آخر او يتحيّزوا لحزب سياسي دون آخر كما انه لا يسوغ لهم ان يُنحوا باللائمة جهرًا على القائمين بالحكم ما لم تكن حريات المواطنين الفردية والاجتماعية والدينية والفكرية مفقودة ، وحقوقهم مهضومة ، وكرامتهم الانسانية ممتهنة ، فيكون تدخلهم ساعتئذ تذكيرًا لرجال الحكم بحقوق الله والبشر وانتصاراً للضعيف .

وما خلا ذلك فعلى رجال الدين انفسهم ان يخضعوا لكل حكومة شرعية قائمة في البلاد لأنها تستمد سلطانها من الله وتمثله ما بين البشر . هذا ما علّمه بولس الرسول موضحاً فكرة معلمه الالهي حيث قال : « لتخضع كل نفس للسلاطين العالية فانه لا سلطان الاّ من الله . والسلاطين القائمون انما رتّبهم الله . فمن يقاوم السلطان فانما يعاند ترتيب الله والمعاندون يجلبون دينونة على انفسهم ... فلذلك يلزمكم الخضوع له ، لا من اجل الغضب فقط ، بل من اجل الضمير ايضاً . فانكم لاجل هذا توفون الجزية ايضاً إذ هم خدّام الله المواظبون على ذلك بعينه . أدّوا لكلٍّ حقّه ، الجزيةَ لمن له الجزية ، والجباية لمن له الجباية ، والمهابة لمن له المهابة ، والكرامة لمن له الكرامة » (روما ١٣/١—٧) .

اما رجال الحكم فعليهم ان يحترموا شعائر الاديان التي يدين بها المواطنون ولا يتدخلوا في شؤونها ولا يناصروا ديناً على آخر ، بل يتركوا لكل انسان حرية المعتقد والضمير ، اي الحق بان يمارس الدين الذي يشاؤه ، ويختار الدين الذي يبتغيه ويرتاح اليه ضميره ، علماً منهم بان الدين لله وحده فقط ، وبانه تعالى لمحاسب كل انسان بحسب معتقده وضميره .

٤ – الانجيل والمرأة

لقد عمل الانجيل على تحرير المرأة فأبان انها في مقام الرجل من حيث المصير الابدي ، نفسها كنفسه وغايتها كغايته ، وان اختلفا رسالة في الحياة ، لذلك أحاطها السيد المسيح بكثير من العطف والشفقة ، ونصب أمه العذراء مريم ، مثالاً اعلى لها تقتدي به .

لقد انحنى السيد المسيح على شقاء المرأة فأوضح انه اتى ليفتديها كالرجل ، فساوى بين خطيئة الزانية وخطيئة من أغووها فأبى ان ترجم وربما كانوا أثقل جرماً منها . وعلّم انها ليست سلعة تباع وتشرى ولا هي اداة متعة انما شريكة للرجل وهو مدين لها ، بما انه ابنها ، بكيانه وبمناحي تفكيره ، يذلّ اذا ذلّت ويسمو اذا سمت .

واعاد المسيح بهجة الحياة الى ارملة نائين فأقام وحيدها من الموت (لو ٧/ ١١)، وخرق حرمة السبت فشفى فيه امرأة مقوّسة الظهر (لو ١٣/ ١٠) . واستعان بخدمات المرأة فسمح لبعض النسوة بمرافقته في تجواله للتبشير فأنفقن عليه وعلى تلاميذه من اموالهن (لو ٨) وعملن ، احياناً ، على اذاعة بشرى الخلاص ، هذه البشرى التي افضى بها اول ما افضى الى السامرية (يو ٤) . ورافقته النسوة الى اقدام الصليب وانزلنه عنه ولففنه بالاكفان عن محبة واخلاص وكنّ اول من عرفن بقيامته ، فظهر لهن قبل التلاميذ (متى ٢٨/ ٦) .

ونهج بولس الرسول نهج المسيح فأبان ما للمرأة من حقوق وواجبات ، وافهم الرجل انه ، وان كان رأس المرأة ، فعليه ان يحترم امرأته ويحبها كجسده (افسس ٥/ ٢٢– ٣٣) ؛ واستعان كالسيد المسيح بخدمات المرأة للتبشير ، وخصّها بالشكر ، في رسالته الى اهل رومية ، على تفانيها في سبيل العمل على نشر الدين ، واعترف لها بحق النبوءة ، على ألاّ تمارسها الاّ في الكنيسة وهي مغطّاة الرأس (كور ١: ١١/ ٤ و ١٤/ ٣٤) .

وناصرت الكنيسة المرأة عملاً بتعاليم السيد المسيح ، فعملت على انالتها حقوقها فاستعانت بها في الرهبانيات النسائية ، وعهدت اليها في تهذيب النشء وفي التخفيف من آلام البشرية في المستشفيات والمياتم والمآوي ودور العجزة . واعتمدت عليها رسول نور وحق ومحبة ، وهي لها ما لها من الطاقة على العمل ونكران الذات ، فكانت ملاك رحمة ، تحمل الى الناس قبساً من دفء المحبة ومن اشعاع الصليب[١] . وقد لمع في سماء

١) قد تحدث قداسة البابا بيوس الثاني عشر في خطاب له القاه في ٢٩ ايلول سنة ١٩٥٧ عن رسالة

الكنيسة قديسات كثيرات حسبنا أن نذكر منهن : كاترينا السيناوية ، وكاترينا الجنوية ، وبريجيتا ، وجرترودا ، ومرغريت مريم ، وتريزيا الكبرى ، وغيرهن ممّن تعمّقن في العلوم اللاهوتية ، وساعدن على اذاعة تعاليم المسيح وحمل النور إلى من يتسكّعون في دياجير الظلام .

أثر مريم العذراء في اعلاء شأن المرأة

ومقام المرأة هذا يأتيها من انتسابها الى السيد المسيح ومن مثالها الاعلى السيدة العذراء . لقد أبان الانجيل ما تحتله السيدة العذراء من مقام رفيع في الدين المسيحي . فكانت حواء جديدة ازاء المسيح آدم الجديد . وكما انفتحت اولى صفحات العهد

المرأة الكاثوليكية ومما جاء فيه : « ان المرأة تأتي من الله ، فهي مدينة له بوجودها ، بمميزات كيانها « ومهمتها على الارض ، وبمصيرها الابدي الذي يتوج اتمامها رسالتها باخلاص . ان هذه الحقيقة « التي يرشد اليها العقل ، تتوضح على نور الايمان وتنجلي فتساعد (المرأة) مساعدة لا غنى عنها ، « عندما تتعرض لما تبثه الروايات والسينما والمسرح من اضاليل في صفوف الشعب ، فتعطي عن المرأة « فكرة هي أبعد ما تكون عن الحقيقة . لقد خلق الله الرجل والمرأة على صورته ومثاله ، اعني كائنين « عاقلين حرين ، باستطاعتهما ان يعرفاه ويحباه ، وباستطاعتهما ان يتناسلا ويسودا الخليقة، ويستعملاها « لصالحهما ولخدمته تعالى ...

« وتبدو فكرة الله نافلة في عالم وقع بين يدي الانسان . تحت سلطان العلم والتكنية، فنبذ العقائد « المزعجة والخرافات ، ويهدد هذا الجو الالحادي ، سافراً كان ام مستتراً ، المرأة اكثر من الرجل « في حياتها الشخصية والاجتماعية : لأن المرأة ، نظراً الى استعداداتها الاصيلة والى الدور الذي تلقيه « الطبيعة على عاتقها، تنسجم مع الوقائع الروحية اكثر من الرجل. فهي تتفهمها بأكثر سهولة، وتحياها « بوعي ، فتشرحها وتلقنها غيرها من الناس ولا سيما اولئك الذين تتحمل تبعاتهم كزوجة ووالدة ، وان « رسالتها الروحية ، اي قربها من الله ، تضفي عليها ما يجب لها من اكرام واحترام . ان احترام « المرأة والاعتراف بدورها الحقيقي مرتبطان بالمفاهيم الدينية في المجتمع الذي تعيش فيه ... لم يهب « الله تعالى المرأة هبة الوجود وحسب ، لكن شخصية المرأة في تكوينها الطبيعي والنفساني تعبر عن « غاية الخالق الخاصة . ان الرجل والمرأة هما صورة الله ، شخصان متساويان ، كل على طريقته « الخاصة ، في الكرامة ، لهما ذات الحقوق دون ان يكون هناك سبيل الى القول ان المرأة هي دون « الرجل . نعم انها مدعوة لتعاون الرجل على حفظ النسل وانمائه ، وهي تقوم ، لذلك ، بدور الأمومة « وما في الأمومة من افراح وأتراح تفوق حد المعتاد ، لأنها تنطوي على مسؤولية جسيمة هي ايلاد « الولد ، وحمايته، وتغذيته ، والسهر على نموه ، وتثقيفه التثقيف البدائي ، ورعايته في طور المراهقة « العسير ، واعداده لمجابهة مسؤولياته عندما يبلغ طور الرجولة . وهكذا وهب الله المرأة هبات لا تثمن، « تتيح لها اعطاء الحياة الطبيعية حتى نزعات النفس واميالها الخفية ، وصفاتها الروحية والادبية التي « تكون الاخلاق ... ويكفي ان نتصفح الانجيل وتاريخ الكنيسة لندرك حالاً ان المرأة يمكنها بلوغ « جميع انواع البطولة والقداسة ، وانها قامت وتقوم في جميع ميادين الرسالات بمهمات عديدة لا سبيل « الى الاستعاضة فيها منها بغيرها » .

القديم على ذكر سقوط المرأة والبشرية ، هكذا انفتحت اولى صفحات العهد الجديد على ذكر ما قامت به المرأة العذراء في سبيل تحرير البشر (لو ١/٢٦) فدعاها الله مليئة نعمة ، وقد بدأ عهد النعمة بها .

ومقام العذراء يأتيها من أمومتها للسيد المسيح ، ومن مساهمتها في خلاص البشر . لقد قدمت هي ذاتها كابنها بقولها للملاك : « هأنذا أمة الرب» (لو ١/٣٨) . فقرنت تقدمتها نفسها بتقدمة ابنها فكانت ذبيحة الام والابن ذبيحة واحدة ، ولا عجب فجسده من جسدها ودماؤه من دمائها ، وعواطفه عواطفها ، وغايته غايتها ، وهكذا ولدت الناس معه ثانية وهي واقفة ازاءه عند الصليب (يو ١٨/٢٥) .

واذا أكرم المسيحيون العذراء فلانها رفعت بني قومها ولا سيما بني جنسها من قعر وهدة الذل الى اعلى قمة المجد . وهكذا اعتدت نسيبتها اليصابات زيارتها لها فخراً عظيماً فبادرتها ما أن رأتها بقولها : « مباركة انت في النساء » (لو ١/٤١) ، وراجعت العذراء الثناء والمديح الى مصدره الاصيل الى الله فقالت : « تعظم نفسي الرب ... لأنه نظر الى تواضع أمته » (لو ١/٤٦) .

وكثيراً ما توقف اللاهوتيون والفلاسفة والكتاب والشعراء على اظهار ما للعذراء من أثر في اعلاء شأن المرأة . فقال جان غيتون في مقال له نشرته المجلة الفكرية (تموز ١٩٣٨) ما معناه :

لقد راود خيال بعض من الفلاسفة والشعراء الذين لم يعرفوا بحرصهم الشديد على الدين ، من امثال غوته ، وكونت ، ورينان ، طيف كائن بشري تمنّوه مثالاً يستلهمونه بنات افكارهم ، وأرادوه قمّة في الكائنات يحمل في جسده ونفسه كل ما يقدر شخص بشري ان يتحلّى به من طهر وخصب .

ولما كان لا يتأتى للطهر والخصب ان يتجليا معاً في هذا العالم الاّ في طبيعة امرأة ، اتجهت افكارهم شطر امرأة اضفى عليها خيالهم كل ما يمكن ان يقيّض لشخص بشري من كمال وجمال واغراء . ولا شك في ان الطهر والخصب وما ينطويان عليه من بتولية وزواج وامومة ، هما مفهومان يتنافيان عادة . ولكن أليس بالامكان ان تجتمع هاتان الصفتان ولو مرة في التاريخ او على الاقل في نهاية هذا العالم ؟ ان كائناً بشرياً هذه حاله ليكون ــ تحت ستار الضعف في امرأة ــ اقرب ما تكون خليقة شبهاً بالله . ولئن لم يكن موجوداً ، فكل شيء يجري وكأنه موجود ، فيضحي من ثم واجب الوجود ، ومن الثابت ان التقليد المسيحي هو ما اوصى بهذه الخواطر السامية ؛ وهكذا تكون المسيحية قد أعانت هؤلاء المفكّرين الافذاذ على التعبير عن امنية يستحيل تقريباً

التعبير عنها او البوح بها ولو بصوت خافت . وهكذا يبقى ان الذين لا يؤمنون بالعذراء يضفرون لها اجمل تاج يعصب جبينها ، فيقولون بوجوب وجودها اتماماً لنظام فلسفي استنبطوه وطمأنة لخواطرهم التي يشفقون عليها من القلق والاضطراب .

ومما لا شك فيه ان هذه الاعتبارات في العذراء والمرأة الكاملة ترفع من شأن المرأة اجمالاً . ذلك ان العذراء من الناحية البشرية الصرف لها حق الصدارة على السيد المسيح اذا صحّ التعبير . ان بشرية المسيح يستحيل فصلها عن لاهوته ، فاللاهوت هو ما ارفع هذه البشرية . اما العذراء فهي بشر وحسب ... فلذلك هي تأتي اولا في سلّم الكمالات البشرية . وقد المع الى هذه الحقيقة الواعظ الشهير بيرول في القرن السادس عشر قال :

« ان الطبيعة البشرية وحدها في المسيح هي التي تمجّدت ، بيد ان الشخصية البشرية فيها لم تتمجّد لكونها متوارية . اما في العذراء فالشخصية البشرية قد تمجّدت على قدر ما يتاح لها من تمجّد . وكانت العذراء حرّة على قدر ما يتاح لانسان ان يكون حرًا .

« ويمكننا ان نضيف ان الشخصية التي تمجّدت على هذا النحو هي شخصية امرأة وهكذا يكون الشخص الأكمل في عالمنا الادبي البشري قد اختير من الجنس الاضعف ، لأن طبيعة المسيح البشرية كانت طبيعة رجل ، وشخصيته فوق خوارق الجنس .

لكن شخصية مريم كانت شخصية مؤنثة ، فنجد مظهر الجنسين في الأم والابن. فالطبيعة المذكّرة رُفعت الى امجاد التجسد ، والطبيعة المؤنّثة رُفعت الى مقام مكّنها من ان تكون شخصية في حالة هي ابدًا كاملة ، وهكذا يمكن القول انه لن يكون في هذا العالم الادبي شخصية مذكّرة تامة نالت ، امّا جهدًا وامّا هبة ، هذا السناء ، بيد ان المرأة الأبدية قد تحقّقت الآن . »

ويذهب جان غيتون الى ان عاطفة الحب الشريف لم تصفّ الاّ تحت تأثير فكرة العذراء . وهذه العاطفة عاطفة الحب الصافي ترجع الى الاجيال الوسطى، عهد كان الفرسان يكرّسون سيوفهم للعذراء وعواطفهم لسيدة يجعلون منها عروساً لاحلامهم . فقال : « لقد عرف الاقدمون الصداقة ، والشهوة ، والانخطاف الصوفي ، والزواج والامومة والابوّة ، والبنوّة ، لكنهم لم يعرفوا الاّ نادرًا ما نسمّيه الحب . فالحب كان يفرض نوعاً من العبادة للمرأة التي كانت تعتبر كائناً لا سبيل الى الوصول اليه . وهذا ما لم يكن بوسع الديانات القديمة ان تأتي به ، لأن الاسرار الوثنية كانت تتجه نحو الشهوة الجنسية

والديانـــة اليهودية لم تكن تسمح باشراك المرأة في العبادة فلا حور ولا كاهنات . وكذلك قل عن غيرها من الديانات القديمة .

« ولاحاطة كل ما يمتّ الى المرأة بصلة ، بجوّ ديني ، وجب ان ترفع المرأة – على ما هي عليه من مساواة للرجل – الى مقام بعيد رفيع سامٍ يحلم به الانسان ولا يعرفه .

« واذ ذاك اي في الاجيال الوسطى ، تركّزت في بلدان الغرب ، عاطفة الشعب المسيحي تجاه العذراء ، السيدة ، وما يزال يحافظ على مثال هذه العاطفة ، لأن العواطف يمكن كذلك تحديد تاريخ نشأتها » (راجع كتابه : « للعذراء مريم » صفحة ١٥٧) . وليست العذراء لدى المسيحيين شخصاً تاريخياً وحسب انما هي شخص يحيا فيما بينهم ، فيكرمون فيها الأم الرؤوم وملجأ الخطأة ، ومحامية العاثرين ، تشفع بهم وتلهمهم سواء السبيل .

وامتيازات العذراء هذه ، وما يجب ان يحاط به مقامها السامي من اكرام هو ما يدفع المسيحيين الى اكرام المرأة ، لأن كل امرأة مدعوّة للتمرّس بفضائل العذراء مثالها الاعلى ، من تضحية ونكران ذات ، ومحبة مجرّدة وطهارة وتواضع وايمان . وهكذا احاط الانجيل المرأة بهالة من احترام[1] .

١) لقد كان حب العذراء باعثاً لدى الكثيرين من الفنانين في المسيحية على تفجير ينابيع الالهام في جميع الفنون من هندسة ورسم وموسيقى وشعر وادب . وهكذا نهضت على اسم العذراء اروع كاتدرائيات في جميع نواحي العالم المسيحي من باريس وشارتر وروما وميلانو ، الى مونيخ وكولونيا وبورغوس وقرطبا ، والهمت العذراء جيشاً من النحاتين والرسامين فأخرجوا لوحات ساحرة تمثل جميع مراحل حياتها من مولدها الى بشارتها ، حتى صعودها بالنفس والجسد الى السماء ، فكانت بدائع رفائيل وميكال انجلو وليوناردو دا فنسي ، وبوتيشللي ، ورمبران ، وفلاسكاس ، وموريللو ، وكثير غيرهم . وأوحت الى ارباب الموسيقى اجمل مقطوعاتهم ، فناحوا لنواح مريم ، وزغردوا لزغرداتها وهكذا ما تزال الترانيم تتغنى بامجاد مريم تنتقل من شفة الى شفة عبر العصور تحمل الينا عبقاً عن ايمان الأقدمين وحبهم للعذراء . وما وجه الأدب اخصب من حياة العذراء ارضاً يودعها أروع ما تفتقت عنه مخيلة الادباء والشعراء ، وقد بكوا على اقدامها وصعدوا امام رسمها اجمل ما همست به شفاه بشر من صلاة في كل لغة من لغات الارض . وما قولك في ما قاله فيها ادباء الالمان من غوته الى ايشندروف والبير لورنز وفيلكس برون ، وادباء الانكليز كسبللي وبرون وفيلسيا هامنس ، والاسبان امثال لوبه دي‌فاغا ، والايطاليون من مثل دانتي وبترارك والكسندر ومانزوني وفانسانزو مونتي ، والمجريون مع كولومان روشي وجول رودنياسكي ، والفرنسيس الذين تنافسوا في مديح مريم فأتى أدبهم اغنى الآداب المريمية مع ريتبوف ، وفيلون ، وكورنايل ، ولافونتان ، ودي بانفيل ، وفرلين ، وهنري دي بورنيه ، وبيغي ، وكلوديل ، ومرسيه ، وفرنسيس جام ، ناهيك عن اوزنام وبلوا ، وادولف رته ، وميشال دي سان بير ، والدكتور الكسيس كاريل ، وبازان ، وبورجه ، وبوردو ، وبرتران ، وموررياك وكثير غيرهم ؛ وقد وجدوا لدى العذراء عزاءهم على ما عبر عنه جام بقوله : « يعصر المسيحيون حبات سبحة العذراء الخشبية فتقطر عليهم بلسماً زكياً شافياً لكلوم قلوبهم » .

وهكذا يحترم المسيحيون المرأة لأنهم يحترمون العذراء ، وهم يعتقدون ان كل امرأة مدعوة للتحلّي بما تحلّت به العذراء من فضائل فتكون عنوان كرامة وموضع هيبة ووقار عميق[١] .

---

١) ولسائل يقول : ما صلة مريم العذراء بالثالوث الاقدس ؟ اقول ان لا صلة لها به البتة سوى صلة الخليقة بخالقها وباريها . فالثالوث الاقدس هو الله الواحد الخالق ومريم العذراء هي احدى خلائقه غير انها تمتاز عن باقي الخلائق بان الله اصطفاها وطهرها مسبقاً من وصمة الخطيئة الاصلية وفضلها على نساء العالمين لتحبل بالمسيح ، كلمة الله المتجسد ، بدون زرع بشري . وقد مكثت بكراً عذراء حتى بعد ولادة ابنها يسوع المسيح ولم تلد اولاداً آخرين من يوسف لأنها ساكنته مساكنة الاخت لأخيها بتدبير الهي ليكون ستاراً لها في عرف المجتمع الاسرائيلي ومعيناً لها على كسب معيشتها . ومن المعلوم ان الشريعة والسنة والعادات اليهودية تقضي برجم المرأة التي تضع طفلاً مجهول الاب لأنها تحسبها زانية . (تثنية الاشتراع ٢٢ /٢٠ —٢٥) ؛ التاموِد (النسخة البابلية ٦٦ ب السنهدريم – (حجارة) والتلمود (الميشنة ٧ —٩)

ولكن كلمة « اخوة يسوع » التي وردت في الانجيل (متى ١٢ /٤٦ و١٣ /٥٥) مفادها هنا اقاربه وانسباؤه ، ذلك لأن كلمة « أخا » بالعبرية وفي عادات الشرقيين والساميين بنوع خاص ، تعني الاخ وابن الاخ وابن الاخت وابن العم وابن الخال وابن العمة وابن الخالة ، وما الى ذلك من القرابة الدموية كما تدل لفظة Oncle او لفظة Cousin عند الفرنسيين مثلاً على كل نسيب تشده الى الانسان وشائج دموية ، ولنا دليل على ذلك نص من الكتاب المقدس نفسه ورد بهذا المعنى في سفر اخبار الايام الاول في الفصل الثالث والعشرين ، عدد ٢٢ حيث نقرأ : « ومات لعازر ولم يكن له بنون بل بنات فاخذهن اخوتهن بنو قيش » ؛ فلفظة « اخوتهن بنو قيش » لا تدل الاّ على نوع من القرابة فقط . وانك لتعاين عادة من هذا النوع متبعة في الهند حتى في ايامنا هذه . فيسأل الاستاذ مثلاً طالباً في المدرسة عن نوع القرابة التي تربطه بالطالب الآخر بقوله : « هل هذا الطالب اخوك لابيك او اخوك لعمك او لخالك ؟ فيجيب الطالب قائلاً : « هو اخي لأبي ان كان ابن ابيه وامه والاّ لأجاب « هو اخي لعمي او لخالي او لعمتي او لخالتي وما الى ذلك ...»

ثم ان السيد المسيح ، لما كان معلقاً على الصليب يجرع كأس الموت ، اوصى تلميذه يوحنا بأمه مريم العذراء ، بقوله : « يا يوحنا هذه أمك » لكي ينوب عنه بامر معيشتها . وفي الواقع اخذها التلميذ يوحنا الى بيته ليعنى بامرها كما جاء في انجيل يوحنا « ومن تلك الساعة اخذها التلميذ الى خاصته » (يو ١٩ /٢٧) .

فلو كان لمريم العذراء اربعة اولاد غير المسيح ، فهل من المعقول ان تكون قد تركتهم جميعهم والتحقت بالتلميذ يوحنا لتقضي سنيها الاخيرة على الارض عنده ؟ وهل يعقل بأن يرضى اربعة رجال ان تذهب قديسة وكاملة كأمهم مريم العذراء وتلتحق بيوحنا التلميذ ليقوم بأودها وهم في قيد الوجود ؟

فيبقى ان كلمة « إخوة يسوع » الواردة في الانجيل معناها اقاربه وانسباؤه لأمه او لمربيه يوسف النجار لا غير .

٥ – الانجيل والزواج

وعمل الإنجيل على احاطة الزواج بهالة من الاحترام والقداسة . فرفعه السيد المسيح الى مقام سرٍ وردّه الى سابق عهده من الوحدة والثبات وعدم الانفصام .

ماهية الزواج

الزواج عقد يقوم بمبادلة الرضى بالحقوق الزوجية بين رجل وامرأة . وغاية الزواج مثلّثة : ولادة البنين وتربيتهم ، واخماد نار الشهوة ، ومبادلة المساعدة لتذليل صعاب الحياة . ويُبرم هذا العقد ابراماً صحيحاً اذا لم يكن بين المتعاقدين موانع تبطله كالقرابة الدموية او الاهلية او سواها ، اواذا لم يجرِ تحت الضغط والاكراه . وقد رفع السيد المسيح هذا العقد الى مقام سرّ يوم بارك العرس في قانا الجليل (يو ٢) . وذكّر بطابع الزواج المقدّس يوم اعاد على مسامع الفريسيين الذين أتوه ليجرّبوه ، كلام سفر التكوين ، فقال : « أما قرأتم ان الذي خلق الانسان في البدء ذكراً وانثى خلقهم وقال لذلك يترك الرجل اباه وامه ويلزم امرأته فيصيران كلاهما جسداً واحداً . فليس هما اثنين بعد ، لكنهما جسد واحد . وما جمعه الله ، لا يفرّقه انسان » (متى ١٩ /٣—٩) . ويعتبر الزوجان خادمي السر ، لا الكاهن الذي يقتصر دوره على تمثيل الكنيسة والشهادة بصحة الزواج . ولا يصحّ الزواج في الكنيسة الاّ بين معمّدين ، ولو اختلفا مقاماً اجتماعياً او جنسيةً او شعباً . ويمنح سرّ الزواج مقتبليه نعمة تعينهما على القيام بما تفرضه عليهما الحالة الزوجية من واجبات ، وتسعفهما على العيش بالالفة والمحبة والسلام .

ولما كان السيد المسيح قد رفع الزواج الى مقام سرّ ، كان حق النظر في صحة عقده او عدمها وما يتفرّع عنه من مشاكل تمتّ الى السرّ بصلة جوهرية ، يعود الى السلطة الكنسية وحدها لا سواها .

قلنا ان غاية الزواج الاولية هي حفظ النسل ، وهذه الغاية ترتكز على طبيعة الانسان الذي خلقه الله ذكراً وانثى ، ولا يجوز تقديم سواها عليها ، أخذاً بنظرية بعض المجددين المتطرّفين ، والعمل على افساد هذه الغاية بوسائل تقرّها الآداب المسيحية مرذول ، وقد ردّ قداسة الحبر الاعظم البابا بيوس الثاني عشر على مزاعم القائلين بحدّ النسل في خطاب القاه في ٢٠ ك٢ سنة ١٩٥٨ في الاتحاد الايطالي لجمعيات العائلات الكثيرة العدد ، فقال : « ان خصب الزواج شرط لسلامة الشعوب

المسيحية من الناحيتين الجسدية والادبية ، ودليل على الايمان بالله والثقة بعنايته الالهية، ومجلبة للافراح العائلية البريئة »[١] .

وغاية الزواج الثانية والثالثة ترتكز على طبيعة الانسان . فالرجل والمرأة يتكاملان في الزواج ، لذلك : « قال الرب الاله لا يحسن ان يكون الانسان وحده فأصنع له عوناً بازائه ... فاوقع الرب الاله سباتاً على آدم فنام ، فاستلّ احدى اضلاعه وسدّ مكانها بلحم ، وبنى الرب الاله الضلع التي اخذها من آدم امرأة فأتى بها آدم . فقال : آدم هذه المرأة عظم من عظامي ولحم من لحمي . هذه تسمّى امرأة لأنها من امرىءٍ اخذت . ولذلك يترك الرجل اياه وامّه ويلزم امرأته، فيصيران جسداً واحداً » (تك ٢/١٨—٢٤) . وليس ادل على حاجة الرجل الى المرأة والمرأة الى الرجل ليتكاملا جسداً وعاطفة وروحاً من هذه الغريزة الجنسية التي اوجدها الله في اعماقهما والتي تميل باحدهما الى الآخر . فالمرأة تصبو من طبعها الى رجل ، قويّ الساعد ، بادي الرجولة ، تلقي همّها عليه ، وتفخر بما يقوم به من سعي وجهد في سبيل راحتها وهنائها ، وراحة وهناءة من ترغب في ان ترزقهم من اولاد ، كما تفخر بزوج تريده اكمل الرجال لتكون اكمل النساء ؛ وتريده زوجاً يتمّ تثقيفها وصقل اخلاقها فيتابع تجاهها عمل والدها الذي تركته لتلتصق بزوجها . ولا يهدف الرجل من وراء الزواج الى ارضاء شهوة ولو مشروعة ، فتضحي المرأة بين يديه زهرة يفركها ثم يلقيها جانباً ، انما هو يبغي من الزواج الاستئناس بلطف شريكة حياته ، وحنانها وصبرها على المكاره ، فيعتاض بهذه الصفات في زوجته مما فقده من حنان الوالدين ، « لذلك يترك الرجل اباه وامه » . ولذلك هو يطمع في الاستقلال بمحبة شريكة حياته لا يقاسمه قلبها أحد سواه ، راجياً ان يرزقه الله منها اولاداً يكونون امتداداً لشخصيته ؛ وهكذا يحيا الزوجان في جوّ من الطمأنينة والغبطة والسعادة متساندين متعاضدين ترفرف فوقهما راية المحبة الطاهرة ، المبنية على التضحية والكفران بالذات ، فيكافح كل منهما في سبيل ارضاء صاحبه ، فيستسلم له في ثقة وحنان . ولا يتيسّر هذا الجو من الغبطة والسعادة الاّ اذا اتّحدا القلبان على حبّ الله وخشيته . وهذا ما عبّر عنه ترتليانوس عندما وصف جمال اتحاد قلبي الزوجين في الله فقال : « اي خاتم هذا الذي يجمع ، مدى الحياة ، بين موءمنين في رجاء واحد ورغبة واحدة ، ونظام حياة واحد ، وخدمة واحدة ... يخدم كلاهما سيداً واحداً ، فيصليان معاً ، ويركعان معاً ، ويصومان معاً ، فيتدارسان ويتحاثّان ، ويتساندان ، ويذهبان معاً الى بيت الله والى مائدة الرب . فلا يخفي احدهما شيئاً عن الآخر ، ولا

١) راجع مجلة الوثائق الكاثوليكية ، عدد ١٢٧١ ، ١٦ شباط سنة ١٩٥٨ ، عمود ١٩٩–٢٠٦

يحاذره ، ولا يستثقله . فلا اشارة الصليب تصنع خفية ، ولا المائدة تبارك سرًا ، ولا خجل من صلاة . وتتعالى في البيت الحان المزامير والتراتيل ، فيتنافسان في ايّهما يجيد مدائح الرب ، ويراهما المسيح ويسمعهما ويفرح ، ويعطيهما سلامه . وحيثما يكونا معاً يكن المسيح معهما ، وحيثما يكن المسيح فلا محل للخبيث » .

وحدته

والزواج عقد يقوم بين رجل واحد وامرأة واحدة . فلا تعدّد ازواج في المسيحية ولا ضرائر . وخلق الله منذ البدء امرأة واحدة لرجل واحد نما بهما الجنس البشري . وطبيعة الزواج تفرض الوحدة وتنفي تعدّد الازواج . فالمتعاقدان يهب كل منهما صاحبه الحق الزوجي هبة لا رجعة عنها . وهذا ما عبّر عنه بولس الرسول بقوله : « ان المرأة لا تتسلّط على جسدها بل رجلها وكذلك الرجل لا يتسلّط على جسده بل امرأته » (كور ١ : ٧ / ٤). فلا الرجل يملك بعد حق التصرّف بجسده وقلبه ولا المرأة . ومن فعل نقض العهد وخان .

وتعدّد الازواج تجديف على مفهوم الحب الصافي . يقسم الرجل بالانجيل، على أن يحبس قلبه على شريكة حياته ، ثم يقاسمه سواها فيشركها فيه ، فيحنث بالقسم ويخون العهود . وما يقال في الرجل يصح قوله في المرأة . والقلب لا تجزئة فيه ولا تقسيم . ولا يوهب مرات في الزواج بل مرة واحدة ، تتجدد كل يوم ، وكل ساعة، ويكافح الزوجان في سبيل الدفاع عن سعادتهما ، فيضحّي كل منهما بالنزوات العارضة ، والمغريات الفاتنة ، ليبقيا على عهد الوفاء والاخلاص .

وما من غاية أياً كانت ، شخصية ام اجتماعية ام سياسية ، تجيز خرق وحدة الزواج واتخاذ ضرائر : فلا يبرّر خرق وحدة الزواج غاية شخصية تقوم على اشباع الشهوة وما كان الانسان يوماً حيواناً جلّ همه ارضاء الغريزة ، ولا يبرّره غاية اجتماعية تقوم على مساعدة المرأة على توفير اسباب العيش وارضاء الاميال، واذا رضي الجسد فما السبيل الى ارضاء القلب بالحب الشريف ؛ ولا يبرّره غاية سياسية تقوم على الرغبة في تكثير المواطنين ، اعلاءً لشأن الوطن ، وما كانت المرأة يوماً وسيلة تستخدم بلوغاً لمأرب زمني ، وهي انسان خلقه الله على صورته ومثاله، وهي عِدْل الرجل من حيث المصير الاخير.

ثباته

والزواج عقد يملك الزوجان حق عقده ، لكنهما لا يملكان حق نقضه . وما ازوجه الله لا يفرّقه انسان . فلا طلاق في المسيحية . ويستمد الزواج المسيحي صفة الثبات وعدم الانفصام من مشابهته باتحاد المسيح بالكنيسة . « فكما اتحد المسيح بكنيسته هكذا يكون اتحاد الرجل بالمرأة » ، يقول بولس الرسول في رسالته الى اهل افسس (٥/ ٢٥ــ ٣٢) . وعاد الى الفكرة عينها فأوضحها بقوله : « اما المتزوجون فاوصيهم لا انا بل الرب بأن لا تفارق المرأة رجلها ، وان فارقته فلتبق غير متزوجة او فلتصالح رجلها ، ولا يترك الرجل امرأته » (كور ١ : ٧/ ١٠)[١] . وما كان بولس سوى صدى للسيد المسيح الذي قال : « من طلّق امرأته وتزوّج اخرى فقد زنى وان طلّقت امرأة بعلها وتزوّجت آخر فقد زنت » (مر ١٠/ ١١ ولو ١٦/ ١٨) . وشدّد السيد المسيح على هذه الحقيقة فقال ايضاً بلسان متى الانجيلي : « من طلّق امرأته الاّ لعلّة زني فقد جعلها زانية ومن تزوّج مطلّقة فقد زنى » (متى ٥/ ٣٢)[٢] . وخلاصة معنى هذا الآيات من اقوال

---

١) راجع رسائل بولس الرسول في هذا الصدد (روما ٧/ ٢) حيث يقول : ان المرأة التي تحت رجل هي مرتبطة برجلها ما دام حياً . فان مات الرجل برئت من ناموس الرجل . فمن ثم ما دام رجلها حياً ان صارت لرجل آخر فانها تدعى زانية ، وان مات رجلها فهي امرأة حرة من ناموس الرجل ، حتى انها وان صارت لرجل آخر فليست بزانية .

١) ذهب شراح الكتاب المقدس مذاهب شتى في تأويل عبارة (« الاّ لعلة زنى» في آيتي القديس متى حيث يقول : من طلق امرأته « الاّ لعلة زنى » فقد جعلها زانية ومن تزوج مطلقة فقد زنى (متى ٥/ ٣٢) ، ومن طلق امرأته « الاّ لعلة زنى » واخذ اخرى فقد زنى (متى ١٩/ ٩) .

منهم من قال ان العبارة « الاّ لعلة زنى » مدسوسة . ولكنه قول ضعيف .

ومنهم من فهم بعبارة زنى ، الخيانة الزوجية القائمة على فعل الزنى لا على حالة التسري ، فقال بجواز الهجر لا الطلاق . وتعتمد الكنيسة اليونانية على هذا التأويل لتقول بجواز فسخ الزواج .

ومنهم من قال كالقديس اغوسطينوس ان السيد المسيح يستعمل اداة الحصر للامتناع عن البحث في حال الزنى ولكن القديس اغوسطينوس لا يقر الطلاق .

واخيراً يقول الاب بونسيرفن اليسوعي في شرح هذه العبارة ما مؤداه : ان لفظة زنى يراد بها هنا التسري لا فعل الزنى ، فيكون معنى الآية ما يلي : « من طلق امرأته ـــ الاّ لعلة التسري وفي هذه الحال يجب الطلاق ، ـــ واخذ أخرى فقد زنى . وقد استند في هذا التأويل الى معاني الالفاظ التي استعملها متى الانجيلي والى عادات اليهود ، ومتى كتب انجيله لهم .وكان الزواج لدى اليهود نوعين : شرعياً ويدعى بالعبرية « ايشوت » ، وغير شرعي ويدعى « زينوت » وهو التسري . والسرية تدعى « زونا » تمييزاً لها عن المومس « قداشا » . ثم اطلقت لفظة « زينوت » على كل زواج غير شرعي اياً كان سبب عدم شرعيته ، مع قرابة كان ام غيرها من الموانع . وكذلك ميزت اللغة اليونانية كالعبرية بين التسري وسمته πορνεια وفعل الزنى Μοιχεια . فيكون تأويل الآية على ما قلنا سابقاً : ان الرجل اذا كان متسرياً عليه ان يطلق سريته ، وفي هذه الحال لا يزني طبعاً ،

السيد المسيح وبولس الرسول ان الزواج عقد ثابت لا سبيل الى نقضه ، وبالتالي ان لا طلاق . وهذا ما اوضحه السيد المسيح للفريسيين يوم أتوه يذكّرونه بعادة اليهود على الطلاق ، فاجابهم ان موسى ما سمح بالطلاق الاّ لقساوة قلوبهم ، « ولم يكن من البدء هكذا » . واستصعب التلاميذ قول المسيح فقالوا : « ان كانت هذه حال الرجل مع امرأته فأجدر به ألاّ يتزوّج » ، فلم يتراجع ولم يصحّح لكنه أصرّ على رأيه ومضى يقول : « ما كل احد يحتمل هذا الكلام الاّ الذين وهب لهم » (متى ١٩/٣—١١) . وهكذا اثبت ابدية العقد وعدم انفصامه . ولهذا يقول اللاهوتيون ان سرّ الزواج يطبع في من يقتبله شبه رسم يحمله مدى الأبد ، ولا يفصل بين الزوجين الاّ الموت فقط .

مضار الطلاق

ان يقين الزوجين باستحالة نقض عهد الزواج بينهما يساعدهما على توطيد الألفة والمحبة . فمتى رسخ في ذهنها ان لا خلاص لأحدهما من الآخر ، عمل كلٌّ منهما على ترويض ارادته وتذليل ما يعترضه من صعاب ، فخنق روح الشهوة وتسامى فوق اسباب الاغراء ، وجهد في صدّ التجربة ، وصبر على مشاق الحياة ، وقاسم شريك حياته افراحه واتراحه ، وهكذا تشيع الألفة بين الزوجين ويسود السلام .

ولكن متى شام الزوجان منفذاً للخلاص ، وعرف كلّ منهما أن بامكانه ان

لكنه اذا كان متزوجاً زواجاً صحيحاً وطلق امرأته وأخذ اخرى ، في هــذه الحال يكون قد زنى . ويستند صاحب هذا التأويل الى ما ورد من نصوص بهذا الصدد في العهدين القديم والجديد . واليك اهمها :

١ — قول طوبيا الذي اراد ان يكون زواجه شرعياً لا تسرياً مبنياً على الشهوة فعبر عن ذلك بقوله : « والآن يا رب انت تعلم اني لا لسبب الشهوة اتخذ اختي زوجة وانما رغبة في النسل الذي يبارك فيه اسمك الى دهر الدهور» (طوبيا ٨/٩) . وقد استعمل « زينوت » للتعبير عن زواج الشهوة ، وعنى بأخته ابنة من ذوي قرباه .

٢ — تسمية عيسو بن يعقوب « زانياً » لكونه تزوج من نساء غير اسرائيليات ، خلافاً لعادة اليهود ، ولم يذكر انه خان ازواجه فاقترف ذنب زنى .

٣ — قول بولس الرسول : « لقد شاع بين الجميع ان بينكم « زنى » وان هذا الزنى لا نظير له ولا بين الأمم ، حتى ان رجلاً يحوز امرأة ابيه » (كور ١ : ٥/١) . وعنى بلفظة زنى πορνεια زواجاً غير شرعي قام بين رجل وامرأة ابيه .

٤ — تحريم الرسل في مجمع اورشليم المنعقد سنة ٥٠ الذبح للاصنام ، والدم المخنوق و « الزني » . واريد بلفظة زنى لا الفعل الذي تحرمه الوصية السادسة انما التسري وكان التسري والزواج بين الاقارب الادنين مألوفاً لدى المسيحيين المهتدين حديثاً الى المسيحية .

ينقض عهد الزواج ، راح يبحث عن باب يمكّنه من التملّص من ربقته ، ولا يلبث ان يجده . فيكون له ما يريد . وهكذا تنعدم الثقة بين الزوجين ويسود العائلة جوّ من الحذر والريبة فتروح المرأة تتأهب ليوم الطلاق العصيب ، فلا تستسلم لزوجها بثقة ، وربما احتفظت بمالها الشخصي ، او ادّخرت ما تختلسه من مال زوجها ، وربما تمنّت له فقرًا يحول دون اتيانها بضرّة ؛ وكذلك الرجل يروح يراقب زوجته مراقبة صارمة فتتكوّن في الزوجين نفسية هي ابعد ما تكون عمّا يكوّن جوًا عائلياً عامرًا بالمحبة والسعادة .

وكم من رجل طلّق امرأته في ساعة غيظ ونزق ، ثم ندم حين لا ينفع الندم . وكم من زوجة تعرّضت بعد الطلاق لأوهى المصائب ، فالفت نفسها شريدة طريدة تلجئها الحاجة اما الى المتاجرة بشرفها لكسب العيش واما الى الارتماء في احضان البؤس والشقاء وهكذا يهدم الطلاق بناء سعادة الزوجين .

وما القول على اثر الطلاق في اخلاق الاولاد . فهو يقضي على سعادتهم بعد فصلهم عن والدهم او والدتهم ؛ فينشأون اما لا والدة تلطّف من قسوة السلطان الوالدي وترطّب من جفاف حزمه ، واما لا والد يدخل على حنان الوالدة بعضاً من حزمه ، فتفقد نفسية الاولاد بعضاً من عناصر اتزانها ، فتسوء اخلاقهم ، وتشرس طباعهم ، فيشبّون وفي قلبهم نقمة على الحياة ، وايجاس من الناس يطبعهم مدى العمر . وانّى لاخلاقهم ان تستقيم ما داموا يعيشون في جوّ عائلي لا اثر فيه لما تتوطد عليه اسس العائلة من صدق واخلاص وتفان وتضحية وثقة ومحبة متبادلة ، وما اصح ما قيل : يأكل الأباء الحصرم والاولاد يضرسون .

وهكذا يعمل الطلاق على تقويض اركان العائلة والمجتمع .

ورب قائل يقول : وما الحيلة بزوجة مستهترة او زوج خليع ؟ وهل من العدل ان يقضي على الزواج البار ، مدى الحياة ، بالعيش في جحيم مقيم ؟ أفلا يكون الطلاق في هذه الحال خير وسيلة للنجاة ؟

ليس من ينكر انه قد يصدف ان تقع حوادث زواج لا يكون التوفيق فيها حليف الزوجين فيستحيل الانسجام بينهما وتتعذّر المساكنة . انما تبقى هذه الحوادث شواذّ تثبت القاعدة . فالشمس ، ولو حدث ان احرقت نبتة او أودت حرارتها بحيوان ، تبقى عنصرًا جوهرياً من عناصر الحياة للنبات والحيوان . والطائرة ، ولو حدث ان انفجرت مرّة بركابها واحدثت ضحايا ، تبقى اختراعاً له خير الفوائد . وكذا الزواج الثابت الوثاق ،

ولو تعذّر فيه احياناً التفاهم بين الزوجين ، يبقى مدرسة لترويض الارادة وصقل الاخلاق وتلقين مبادئ التضحية والكفران بالذات .

واذا استعصى التوفيق بين الزوجين واستحكم الخلاف ، فلا يبقى الاّ الهجر ، والكنيسة تحكم به ، اما الى حين ، ريثما تهدأ العاصفة وتتبدّد الغيوم ، واما الى الأبد ، على ان لا يعقبه زواج جديد ما دام الزوج المهجور حياً . وهذا ما يجب ان يدفع طالبي الزواج الى التروّي والتبصّر فلا يُقدمون على عقده عن خفّة وطيش . واذا كانت الكنيسة تنصح بالخطبة ، تأهباً للزواج ، فلكي تتيح لكلا الطالبين ان يتعرّف كل منهما الى صاحبه ، فيدرس اخلاقه ، ويراقب أمياله ، ويطّلع على أحواله ، فاذا كان هناك من وحدة في التفكير والايمان والاهداف اقدم والاّ أحجم . وشرط التوفيق في كل زواج هو الاقدام عليه لا بدافع من شهوة بل بحافز من احترام ، وخشية الله في قلب طالبيه ، وبريق النعمة يشعّ في عيونهما ، فيسهل التعاضد اذ ذاك وتحلو الحياة .

٦ – الانجيل والحياة الرهبانية

ان اجمل هدية نفح بها الانجيل العالم انما هي الحياة الرهبانية . لقد رفع الانجيل حياة العفّة والفقر والطاعة الى مقام سام لا عهد للوثنية ولا لليهودية به .

قد اعجب الوثنيون – على انغماسهم في حمأة الفجور – بحياة التبتّل والطهارة فأحاطوا من مارسها بكثير من الاحترام . فكانوا لا يقيمون على حراسة النار المقدّسة في هياكل الآلهة الاّ العذارى ينتقونهنّ من بين الآلاف ويعطونهنّ حق الصدارة في المجالس والحفلات .

وكانت الشريعة الاسرائيلية تلزم الكهنة بالحفاظ على الطهارة ، اثناء قيامهم بوظيفتهم الكهنوتية المقدّسة . ويثني الكتاب المقدس اطيب ثناء على الارامل المتصوّنات ، المتعفّفات . كما يطري جرأة يهوديت وعفتها ، وقد نسب الكاهن الاعظم ظفرها بعدوها الى محافظتها على فضيلة الطهارة فقال الكتاب : « وأتى يواقيم الكاهن العظيم من اورشليم الى بيت فلوى مع جميع شيوخه ليرى يهوديت . فلما خرجت اليه باركوها كلّهم بصوت واحد قائلين : انت مجد اورشليم وفرح اسرائيل وفخر شعبنا فانك قد صنعت ببأس وثبت قلبك فأحببت العفاف ولم تعرفي رجلاً بعد رجلك فلهذا أيّدتك يد الرب ، فكوني مباركة الى الأبد » (يهوديت ١٥/٦–١١) .

أفمن عجب ان يرفع الانجيل قدر البتولية وقد مارسها السيد المسيح ونصح بممارستها ؟ لكن الحياة الرهبانية لا تقتصر على ممارسة العفّة ، لكنها تقوم بممارسة الفقر والطاعة ، وهذه الفضائل الثلاث يلتزم كل راهب وراهبة بممارستها تحت طائلة الخطأ الثقيل . وهي موضوع النذور الرهبانية الثلاثة .

وقد استلهم منشئو الرهبانيات هذه النذور الثلاثة من حياة السيد المسيح وتعاليمه : فاستلهموا العفّة من حياته ، ومن كلامه في ما يجب ان يتّصف به كل زواج مسيحي من وحدة وثبات ، عندما اضاف قائلاً : « ما كل احد يحتمل هذا الكلام الاّ الذين وُهب لهم . لأن من الخصيان من ولدوا كذلك من بطون امهاتهم ، ومنهم من خصاهم الناس ومنهم من خصوا نفوسهم ، من اجل ملكوت السماوات . فمن استطاع ان يحتمل فليحتمل » (متى ١٩/١١–١٣) . وقد عنى بقوله : « الذين خصوا نفوسهم » اولئك الذين يمتنعون عن الزواج مختارين ، فيزهدون في ملذات الحياة الزوجية المشروعة ، انقطاعاً الى خدمة الله والقريب . وقد اوضح بولس الرسول كلام السيد المسيح في هذا الصدد فقال : « اما البتولية فليس عندي فيها وصية من الرب ، لكنني افيدكم فيها مشورة بما ان الرب رحمني ان اكون اميناً ، فأظن ان هـذا حسن لأجل الضرورة الحاضرة : انه حسن للانسان ان يكون هكذا . أأنت مقيّد بامرأة فلا تطلب الطلاق . أأنت مطلّق من امرأة فلا تطلب امرأة . لكنك ان تزوجت لم تخطأ ، وان تزوجت العذراء لم تخطأ . ولكن تكون لمثل هؤلاء مشقة في الجسد . واما أنا فإني اشفق عليكم فأقول هذا ايها الاخوة : ان الزمان قصير ، فبقي ان يكون الذين لهم نساء كأنهم لا نساء لهم ، والباكون كأنهم لا يبكون والفرحون كأنهم لا يفرحون والمشترون كأنهم لا يملكون... اني اريد ان تكونوا بلا همّ . فان الغير المتزوّج يهتمّ في ما للرب كيف يرضي الرب . واما المتزوّج فيهتمّ في ما للعالم كيف يرضي امرأته ، فهو منقسم . والمرأة الغير المتزوجة والعذراء تهتمّ في ما للرب لتكون مقدسة في الجسد وفي الروح ، واما المتزوجة فتهتمّ في ما للعالم كيف ترضي بعلها ... اذن من زوّج عذراءه يفعل حسناً ومن لم يزوّجها يفعل احسن » (كور ١ : ٧/٢٥–٣٨) . فالحياة الرهبانية هي اذن افضل من الزواج وتقوم على كبح جماح الاهواء .

واستلهموا الفقر من حياة المسيح وتعاليمه وقد نصح بالفقر الاختياري ذاك الشاب الغني الذي أتاه يسأله ما ينبغي له فعله ليرث الحياة الابدية ، فنصحه بحفظ الوصايا ثم اضاف : « ان كنت تريد ان تكون كاملاً ، فاذهب وبع كل شيء واعطـه المساكين ، وتعال اتبعني » (متى ١٩/١٦–٢١) . ان الوصايا ملزم بها جميع الناس ،

لكن الفقر الاختياري لا يلتزم به الاّ من اتخذ الحياة الرهبانية طريقاً للكمال والسعادة الاخيرة . وليس الفقر ضرورة من ضرورات الحياة لنيل السعادة انما هو من المشورات الانجيلية المستحبة ، لكن روح الفقر لا بدّ منها للخلاص . وقد قال السيد المسيح : « لا تهتمّوا لانفسكم بما تأكلون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون » (متى ٦ / ٢٥) .

واستلهموا اخيراً الطاعة من حياة السيد المسيح وقد قضى حياته طائعاً لله ولأمه العذراء وابيه بالتربية . وهو من قال : « ما اتيت لاصنع مشيئتي بل مشيئة من ارسلني » (يو ٦ / ٣٨) . والطاعة فضيلة كانت في اساس تاريخ خلاص البشر بدأت بإطاعة ابراهيم صوت الله القائل له : « انطلق من ارضك وعشيرتك وبيت ابيك الى الارض التي اريك » (تك ١٢ / ١) . وتمت بإطاعة المسيح اباه حتى الموت ، موت الصليب . ويسهم الراهب بممارسته فضيلة الطاعة في افتداء البشر ، فيقدّم ارادته ضحية على مذبح الطاعة ، فيتخلّى عن امياله الذاتية مختاراً ليعمل برغبة رئيسه ؛ ويرى في رغبة الرئيس تعبيراً عن ارادة الله ، لأنه لا سلطان الاّ من الله . ويعرف الرئيس نفسه خادماً لمرؤوسيه فلا يستكبر ولا يستعلي ، عملاً بقول السيد المسيح : « الكبير فيكم فليكن لكم خادماً لأن ابن البشر (اي المسيح) ما اتى ليُخدم بل ليَخدم ويبذل نفسه عن الكثيرين » (متى ٢٠ / ٢٦) . وهكذا تكون الطاعة اثمن ما يقرّب انسان لله .

لذلك باركت الكنيسة الحياة الرهبانية وشجّعتها واحاطت من يعتنقها بالمحبة والعطف والاحترام ؛ لأن الحياة الرهبانية صورة مصغّرة للبشرية المثالية المفتداة بدم المسيح وموته على الصليب ، كما ألمع الى ذلك الأب موجنه في كتابه (« الدعوة الرهبانية في الكنيسة » وجه ٢٤) . وهي صورة لملكوت الله الذي يرمي الى جمع الناس تحت طاعة الله . فلا حواجز بينهم من جنس او لغة او عادات . وهذا ما يحدث في الرهبانيات ، فيجلس ربيب القصور الى وليد الاكواخ والشريف الى الوضيع . يشدّ بعضهم الى البعض هدف واحد وقانون واحد ، فيعيشون تحت سقف دير واحد عيشة الاخوّة الصادقة .

ولكن هذا لا يعني ان الحياة الرهبانية تخلو من صعوبة . فهي دعوة من الله لا يعتنقها الاّ من دُعي اليها . وعندما يدعو الله انساناً الى حياة الكمال ، فلا يبخل عليه بنعمته الالهية للقيام بمقتضياتها . ان كبح جماح الاهواء يقتضي له جهاد عنيف طويل شاق ، لا يقوى عليه الاّ من راح ينهل القوة يوماً فيوماً من معين الاسرار التي هي اقنية النعمة . الحياة الرهبانية جهاد لكنها ليست شذوذاً او نفاقاً على الله والناس ولا تنكّراً للطبيعة البشرية ، على ما قام في زعم بعض الناس .

ليست الحياة الرهبانية شذوذاً . وما عدم المتبتّلون الى الله يوماً الغريزة الجنسية . ولا هم ابتغوا ارضاء هذه الغريزة من وراء حبهم لله حباً حسياً ، على الطريقة الصوفية ؛ لكنهم قمعوا هذه الغريزة وتساموا بها فوق ملاذ الحس" تقرباً من الله وارتجاء خدمة الناس اخوانهم في مؤسسة او منظّمة رهبانية .

وليست الحياة الرهبانية نفاقاً على الله والناس ومن اعتنقها يعرف « ان الله لا يضحك منه » ، على ما يقول بولس الرسول ؛ ولا على الناس وهو يعرف انه كان بامكانه ان يعيش في العالم كغيره من الناس دون ان يعرّض نفسه لخطر الهلاك .

وليست الحياة الرهبانية تنكّراً للطبيعة البشرية او كبتاً للغريزة الجنسية . وما كان الاقلاع عن الزواج وعن ارضاء الغريزة الجنسية مجلبة لضرر او سبباً لآفة او مرض . ومن يعتنق حياة الطهارة في الرهبانية يطهّر عاطفته بما يبقى عالقاً بها من انانية لاصقة في الحياة الزوجية فيحوّل الراهب عاطفة الابوّة فيه شطر التفاني في سبيل جميع الناس على السواء، وتوجّه الراهبة عاطفة الامومة فيها صوب المنبوذين والمحقورين على اختلاف مذاهبهم ويكفيها ان تعرف انهم بشر يتألمون . وهكذا تكون الحياة الرهبانية زهداً في العالم وترّهاته وما في العالم من استمتاع بملاه وجاه وعظمة هي صائرة حتماً الى الزوال ، على ما قال بولس الرسول : « لأن هيئة هذا العالم في زوال » (كور ١ : ٧/ ٩) . وقد خبر كثير من مؤسسي الرهبانيات بذواتهم ، حقيقة زوال العالم ، فأعرضوا عنه بعد ان اخذوا بقسط وافر من ملذاته ، واقبلوا على عبادة الله بالتقشّف وشظف العيش ، ويبقى القديس اغوسطينوس كالقديس اغناطيوس خير مثل في هذا المضمار .

وهكذا تنقضي حياة الراهب والراهبة في كفاح وجهاد وصلاة غايتها خدمة الله من وراء خدمة ابنائه البشر ، فلا يجفّ لهما قلب ولا تموت عاطفة ، لكنهما يغمران بالمحبة الصادقة عالماً فسيحاً ، مداه مدى الله .

٦ — الانجيل والاخلاق

وقد ساعد الانجيل على صقل الأخلاق وتقويم ما اعوجّ من العادات . فأوجد بين من اعتنقوا تعاليمه عقلية جديدة ، وترك لهم مُثلاً عليا يصبون الى تحقيقها وتطبيقها ، فأزهرت في العالم فضائل ما كان لها ، لولاه ، ان تزهر ، فكان التواضع والصفح عن الاساءة والنزاهة ، ونبذ الانانية ، والطهارة وغيرها مما كان مجهولاً في العالم القديم، وقد ميّز الاخلاقية المسيحية . وهذا ما جعل الانجيل مدرسة اخلاق .

التواضع

جهل العالم القديم هذه الفضيلة وقد كان التواضع في نظره حطّة وذلّة . وكانت القوة مصدر الحق ، فألّهها الناس وقدّسوا العنف والظلم ، فغلاظت الأخلاق وساءت العادات وباتت الانانية الطريق الهادي الى العظمة ، تدفع الانسان الى المغامرة والغطرسة واحتقار الضعيف .

واطل نور الانجيل فمارس السيد المسيح فضيلة التواضع واتخذها طريقاً الى العظمة الحقة ، ونصح اتباعه بممارستها . تواضع يوم تخلّى ، وهو ابن الله ، عن عرشه السماوي وعاش انساناً بين الناس ليُغنى بهم فأنزل لهم الوحي ومدّهم بتعاليمه الالهية ، وبذل نفسه في سبيل افتدائهم على الصليب . وقضى حياته بينهم في قشف وضعة . وانهى ايامه بين تلاميذه بفعل تواضع عميق ، فغسل ارجلهم ، ليلقي عليهم درساً في التواضع لا تأتي عليه الايام فقال : « انتم تدعوني معلّماً ورباً وحسناً تقولون لأني كذلك ، فاذا كنت انا الرب والمعلّم قد غسلت ارجلكم فيجب عليكم انتم ان يغسل بعضكم ارجل بعض » (يو ١٣/١٣ــ١٤) .

وعلّم السيد المسيح فضيلة التواضع باقواله . فأطرى المتواضعين حين قال : « من رفع نفسه اتضع ومن وضع نفسه ارتفع » (متى ٢٣/١١) . واوضح ان الكبير عليه ان يكون خادماً للصغير ، ليكون حقاً كبيرًا ، وأبدى رضى الله عن صلاة المتواضع في مثل العشّار (لو ١٨/١٠ــ١٤) . ونصح الأغنياء بدعوة الفقراء الى موائدهم ليكونوا اشباهاً بالله الذي يسكب غيثه على الأخيار والفجار ، ويشرق شمسه على الابرار والاشرار ولا يرجوا أجرًا فقال : « اذا صنعت غداء او عشاء فلا تدعُ احباءك ولا اخوانك ولا اقرباءك ولا الجيران الاغنياء ، لئلا يدعوك هم ايضاً فتكون لك منهم المكافأة . ولكن اذا صنعت مأدبة فادعُ المساكين والجدع والعرج والعميان ، فتكون مباركاً اذ ليس لهم ما يكافئونك به فتكون مكافأتك في قيامة الصديقين » (لو ١٤/١٢ ــ١٤) .

وعمل من تشرّبوا روح الانجيل بوحي تعليمه فراح العظماء يخدمون الفقراء ، فكان لويس التاسع القديس ملك فرنسا يغسل ارجل العميان والفقراء ويجلسهم الى مائدته اقتداء بمثل المسيح ، وكان اسطفانوس الاول ملك المجر يفعل فعله . وهكذا تأمر الكنيسة الاساقفة باقامة حفلة الغسل يوم خميس الأسرار ، فيغسل الاسقف أقدام اثني عشر تلميذًا ، تذكيرًا بما قام به المسيح نحو تلاميذه . وهكذا احدث الانجيل

ثورة اخلاقية ما كان للعالم ان يحلم بها . فعلّم ان الرفعة الحقة تقوم على التصاغر والتواضع ، فهو لا يطلب من الصغير ان يكرم الكبير بل من الكبير ان يكرم الصغير على ما قال رومانو غوارديني في كتابه « السيد » (جزء ٢ ص ٢٥) وافهم ان الكبرياء تخفض اصحابها ، ولا ترفعهم ، فبات احترام الضعيف واجباً على من يستهدي بنور الانجيل .

النزاهة

وبعد التواضع النزاهة ، وقد مارسها السيد المسيح ، فحقر المال والمصلحة الشخصية وهو القائل : « ما اتيت لأصنع ارادتي بل ارادة من ارسلني » (يو ٦/٣٨) . فما كانت علاقة السيد المسيح بالله وبالناس تجارة غايتها جني مكسب او جرّ مغنم وانتزاع اعجاب . وهكذا اراد ان تكون علاقة الانسان بالله وبأخيه الانسان ؛ فيعبد الله عبادة حقة لا تجارة فيها ولا رياء ولا نفاق ولذلك قال : « احترزوا ألاّ تصنعوا برّكم امام الناس لكي ينظروكم والاّ فلا اجرَ لكم عند ابيكم الذي في السماوات ... » (متى ٦/١—٣) . فلا نحب الله اذن لما يجود به من خير انما نحبه لأنه الله وحسب . اما الذين يحبونه ايام الرخاء ويتنكّرون له ايام البؤس والشقاء ، فهم تجّار مرتزقون .

وكذلك تدفع النزاهة الى حب الانسان حباً لله لا لما يُجنى منه من نفع وارباح ؛ ولذا رذل الانجيل الرشوة وشراء الضمائر مهما شرفت الغاية ، وما كانت الغاية يوماً لتبرّر الواسطة ، وما كانت النزاهة الاّ مجلبة احترام واكرام .

غفران الاساءة

لأول مرة سمع العالم لفظة « غفران الاساءة » من فم المسيح يوم قال عن صالبيه : « اغفر لهم يا ابتِ لأنهم لا يدرون ما يعملون » (لو ٢٣/٣٤) . وقد جعل المسيح عينه غفران الانسان لقريبه اساءاته ، شرطاً لغفران الله اساءات الانسان فقال : « ان غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم ابوكم السماوي زلاّتكم . وان لم تغفروا للناس فأبوكم ايضاً لا يغفر لكم زلاّتكم » (متى ٦/١٤) . وليس غفران الاساءة بالهيّن الميسور على الطبيعة البشرية وقد اشار الى ذلك القديس توما الاكويني حيث قال : « محبة العدو كعدو شعور يضاد طبيعة الانسان ، وهو على هذه الصفة شرّ ، ومحبة العدو ، على هذا النمط ، ليست من الالزاميات على الانسان بل من المشورات . اما محبة العدو كإنسان يرتدي الطبيعة البشرية المخلوقة من الله الذي يروم خلاصه ، فهي ضرورية للانسان

اذا اراد ان يتقيّد بسنّة المحبة . اذا احببنا انساناً ، بات علينا ان نحب اولاده حباً له ولو اساؤوا الينا . وان حبسنا علامات المحبة عن انسان فرد في جماعة امامنا ، نكون قد خالفنا سنة المحبة » (« الخلاصة اللاهوتية » ، القسم الثاني ، القضية ٢٨ فصل ٨)[1] .

واذا كان الانجيل قد علّم الغفران عن الاساءة ، فهذا لا يعني انه علّم التخاذل والاستضعاف . وليس الانجيل – على ما زعم قوم – مدرسة للجبن والمهانة ، وان هو الا مدرسة للشرف والكرامة . وما استضعف السيد المسيح أمام تجار الهيكل ، لكنه الهب ظهورهم بالسوط ، وما ذلّ امام خادم رئيس الكهنة يلطم وجهه ، لكنه انتفض لكرامته وجبه المعتدي المتجرّئ بقوله : « ان كنت تكلّمت بسوء فاشهد عليّ بالسوء وان بخير فلماذا تضربني » (يو ١٨/٢٣) ، واجبره على التزام جانب التأدّب . وما نصح الانجيل بالتخلّي عن الحق المشروع ، لكنه ارشد الى ما في الاقلاع عن طلب الثأر والانتقام من كبر نفس ونبل اخلاق فقال : « لا تقاوموا الشرير ، بل من لطمك على خدك الايمن فحوّل له الآخر» (متى ٥/٣٨) . ولا يعني قوله انه يأمر بالانسياق وراء الشرّ مع الاشرار ، انما يعني التسامي فوق نزوات النفس من غضب ، وتشفٍ ، وحقد . وهكذا علّم الجرأة ، لا الجرأة الزائفة القائمة على الاندفاع وراء الاهواء الآمرة بالسوء ، بل الجرأة الصادقة القائمة على خنق ثورة النفس ، وقمع الشرّ بالخير ، والاذى بالصفح ، والحقد بالمحبة . وهذا ما يصنعه الله مع الخاطئ الذي يهينه ، فيصفح عنه « ويشرق شمسه على الابرار والاشرار» (متى ٥/٤٣) . وان من يقول « لا » عندما يشعر ان كل ما فيه من قوى شر تقول « نعم » ، لا يجوز ان يدعى جباناً . ومن قهر نفسه خير ممن يفتح الممالك والحصون .

الطهارة

ورفع الانجيل الطهارة الى مقام سام ، وقد كانت مجهولة ، يوم أطلق انواره على عالم انغمس في حمأة الادناس واقام للرذيلة هياكل ومعابد وتماثيل . ومارس السيد المسيح هذه الفضيلة ، فسمح بان يقال عنه انه أكول ، شرّيب ، مشاغب ، مجنون ، لكنه لم يسمح بان تحوم الشبهات حول شرفه واخلاقه وطهارته ، وامتدح انقياء القلوب بقوله : « طوبى للنقيّة قلوبهم ، فانهم يعاينون الله » (متى ٥/٨) ، ونصب الاطفال مثالاً

١) قال العلاّمة غوارديني في كتابه « السيد » ، الجزء الأول ، ص ١٠٣ : « لا يستطيع الانسان ان يحب عدوه ، لكنه يستطيع الاّ يبغضه وينتقم منه ، وهذا اول المحبة وبدؤها » .

لطهارة القلب والعين والجسد فقال : « ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الاطفال ، فلن تدخلوا ملكوت السماوات » (متى ١٨ / ٣) . ورفع الزواج الى مقامه الأول من الوحدة والثبات ، ونهى حتى عن الرغبة القلبية الخفيّة في اللذة الحرام فقال : « من نظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه » (متى ٥/٢٨) . وأبان ان الجسد هيكل مقدّس لله ، انتهاك حرمته ، انتهاك لحرمة الله . وارتفع بالانسان الى اجواء صافية ينشق فيها اريج الطهر والنقاء ، فيعيش ، في جسد بشر ، عيش الملائكة ، فلا يسجد لصنم ، نحتته يداه ، ولا يهدر في بوئرة الملذات المحرّمة ، كنوز الشرف والكرامة والاخلاق .

وهكذا علّم الانجيل الانسان السيطرة على امياله الحيوانية ، وأتاح له تذوّق افراح تتعالى عن الحواس ، هي افراح روحية قوامها التضحية وقهر الجسد ، تعبّر عن نشاط يظهر في بريق العيون ، وصباحة الوجوه ، وانفتال العضلات ، وقوّة العزيمة ، وصفاءً الذهن ، ودماثة الاخلاق . وهذا ما اشار اليه الاب بوسيل في كتابه « دفاع عن عن الجسد » حيث قال : « انما الوجه شجرة لمعرفة الخير والشر فمرآه ينبئ عنهما » (ص ٤٠) . ومكّن الانجيل الانسان من التمرّد على عبودية الخطيئة ومكّنه من اخضاع القوى الحيوانية فيه للقوى الروحية ، بفضل الطهارة . وقد فهم الشاعر الالماني غوته قيمة هذه الفضيلة فكان يردّد قوله : « ان ما ينبغي ان نطلبه دوماً من الله في صلواتنا هو افكار سامية ، رفيعة ، وقلب نقي ... وما كنا لنستطيع ان نعاين الشمس لو لم يكن في عيوننا بعض لمعانها » (« دفاع عن الجسد » ص ٤٠) . وقد عنى بقوله انه يستحيل علينا ان نسمو بأخلاقنا الى الله ، مصدر الطهر ، ما لم نكن اطهاراً .

وما كانت الطهارة للمجتمع باقل فائدة منها للفرد . فهي تسهم في ايجاد انسان مروّض على الكفاح ، سليم العقل ، سليم الجسم ، يقوى على الصمود في وجه التجربة ، والتفسّخ الاخلاقي . وكم من فتى بارك ابويه لكونهما ، بتمرّسهما بفضيلة الطهارة ، اورثاه جسداً بريئاً من جراثيم الفساد ، منيعاً على ثورة الاهواء ؛ وكم من فتاة هي مدينة بسهولة محافظتها على فضيلة الطهارة ، لترفّع والديها عن الانزلاق في مهاوي الاباحية والتهتك . وما أثقل مسؤولية الوالدين في مجال تربية البنين تربية اخلاقية صحيحة ، ينمو معها فيهم ، حب الطهارة ، ونبل الاخلاق ، فيعملون على تجنيبهم رفاق السوء ، والاباحية في المطالعة والمشاهد ، ولا يرضون أن يعهدوا في تهذيبهم الاّ الى مدارس تضمن لهم تلقّي مبادئ الدين القويم والآداب المسيحية السليمة .

٧ – الانجيل وطاقة الانسان على التقيد باخلاقيته الصارمة

قد احدثت تعاليم الانجيل ثورة فكرية بعيدة الاصداء نفذت الى قرارات النفوس، وما اقتصرت على ما تقتصر عليه الثورات العسكرية المسلّحة من تنظيم خارجي، لا يجدي في طمأنة ضمير، ولا يفيد في تبديد قلق، او تهدئة خاطر؛ وخلقت روحاً جديدة سمحاء، من تشرّب منها عاش مطمئن الجنان، خليّ البال؛ ورفع الانجيل الانسان، بما أذاعه من آداب سامية، الى الله الذي جعله دون المال واللذة والعظمة الفارغة، المعبود الأوحد؛ واحاط الشخص البشري بهالة من الاحترام بعد ان علّم ان جميع اعمال الانسان ترتدي، في هذه الدنيا، طابع الابد، لعلاقتها بسرّ الفداء وبالمصير الأخير. وقد علّم ان اتعاب المسيحي تشركه في اتعاب المسيح وآلامه في آلامه، وجهاده في جهاده، فيتأثر خطى المسيح ويعمل بما يقوم به، على غرار الفادي، من تضحيات، لها أثرها في المساهمة في افتداء اخوانه الناس، وتسامى الانجيل بمن اخذ بتعاليمه فوق عالم المادة والحقارات بما أمر بالتمرّس به من فضائل سامية كالتواضع والنزاهة والطهارة والمحبة الصادقة التي تأبى ان تردّ الاساءة اساءة مثلها، وبما يلزم به من محاسبة النفس، حتى على خاطرة سوء تنزوي في قعر الضمير، محاسبة صارمة. وهذه الصرامة في الاخلاقية المسيحية هي ما حدا بعض الناس على الزعم بان تعاليم الانجيل لا تلائم الجماهير انما طبقة من الناس اوتيت من صلابة العزيمة ما يجيز تسميتها «ابطال البشرية».

الانجيل للعامة والخاصة على السواء

ما خصّ السيد المسيح انجيله بنفر من الناس أوتوا ما لم يؤتَ غيرهم من مضاء العزيمة في مجاهدة النفس، لكنه أتحف الناس به اجمعين على اختلاف مواهبهم والوانهم وهو يعرف انهم، رغم ضعفهم، قادرون على الاسترشاد بتعاليمه والتأدب بآدابه رغم ما فيها من صرامة. وكيف لا يعرف السيد المسيح ضعف الطبيعة البشرية وهو إله ابن الله الذي خلق الانسان من العدم؟ واذا كان قد أسّس الكنيسة وزوّدها بالأسرار، فلكي يسعف الانسان على النهوض من كبواته، ويسدّد خطاه في طريق الكمال وهو من قال: «انه اتى ليدعو الخطأة الى التوبة لا الكاملين، وليخلص ما قد هلك» (متى ٩/١١–١٤؛ لو ١٩/١٠). ولن يبلغ الكمال بشر على الارض. وما الكمال الاّ لله القدّوس. وبعدُ فما كان الرسل بالفلاسفة ولا كان المسيحيون في كل عصر ومكان «بابطال البشرية»، وبينهم كثير من السذج.

وما التاريخ الاّ شاهد صدق على ان الانجيل ما وجد للخاصة فقط . وكم هذّب من شعوب بدائية ، وكم صقل من اخلاق لجّج اصحابها في بحور الهمجية . ويكفي ان نذكر روما وما استشرى فيها من فساد، لنوقن ان تعاليمه الالهية كانت افعل في عامة الشعب منها في الخاصة ، وما زالت تنتشر حتى قضت على الوثنية في الدولة الرومانية ونصّرتها رسمياً مع قسطنطين سنة ٣١٣ . وقد المع ترتليانوس ، في كتاب وجّهه الى الامبراطور ، الى أثر الانجيل البعيد في المجتمع الروماني فقال : « نحن المسيحيين ، حديثي العهد ، نملأ الآن ، بالرغم من اضطهادكم ايانا ، نواديكم ومحافلكم ومدنكم وقصوركم ولم نترك شيئاً سوى معابدكم » .

وما فعله الانجيل في روما فعله في اميركا وافريقيا . فرسّخ المرسلون ، رغم ما اصابهم من نكال ، تعاليمه في قلوب من كانوا ابعد الناس عن المدنية ، واذا بهم وقد اصبحوا بفضل تعاليمه في طليعة بناة المدنية الحديثة[1] .

الانجيل ورغبة الطبيعة

ويعيب بعض من الناس تعاليم الانجيل وبالتالي الدين المسيحي على أنه يكبت رغبات الانسان ويضاد الطبيعة البشرية التي خلقها الله . فلا يمكن القول من ثم ان هذا الدين أنزله الله ما دام يضاد الطبيعة التي خلقها . فيصبح ، والحالة هذه ، من الافضل للانسان ان يعتنق ديناً يقرّ بوجود الله وخلود النفس والعقاب والثواب ، ولا يتنكّر لرغبات الانسان ولا يضاد امياله .

---

١) لقد غير الانجيل وجه كندا ، بعد ان استشهد في ارضها جيش من المرسلين في سبيل التبشير بتعاليمه. وما يزال يعمل على تغيير وجه افريقيا ، رغم زعم القائلين إن تعاليمه لا تلائم الاّ امزجة الشعوب التي تسكن البلاد الباردة . ويكفينا لابطال هذا الزعم ان نذكر ان كنيسة افريقيا كانت في بدء النصرانية من اكثر الكنائس نشاطاً وحيوية . وقد قامت في الاسكندرية اشهر مدرسة للعلوم الفلسفية الدينية، ونبغ فيها اساتذة عظام من امثال كليمنضوس الاسكندري ، واوريجانوس ، وكيرلس . واشتهرت قرطاجة بما انعقد فيها من مجامع اولها انعقد سنة ٢٢٠ ضم ٧٠ اسقفاً برئاسة المطران اغريبينوس ، وثانيها سنة ٢٣٦ ضم ٩٠ اسقفاً برئاسة المطران دوناتوس ، وثالثها سنة ٢٥٦ ضم ٩٠ اسقفاً برئاسة القديس قبريانوس . وقد اشتهرت «هيپون» بمطرانها العظيم وملفان المسيحية الاكبر القديس اغوسطينوس وفي طيبه ووادي النيل نشأت الحياة النسكية ونهضت الرهبانية على يـد بولا وانطونيوس الكبير وباخوميوس ، وعنهم اخذ نساك الغرب ومؤسسو الرهبانيات الانظمة والقوانين الرهبانية . ومـا تزال الكنيسة في افريقيا آخذة بالازدهار في اوغاندا وكامرون وروندا والكونغو مثلاً وقد اصبح لهـا اكليروسها الوطني ، ومؤسساتها الدينية الوطنية . وهذا خير دليل على إبطال مزاعم القائلين إن الانجيل لا يلائم مزاج الشعوب في الاصقاع الحارة .

اما جوابنا على هذا القول فنوجزه بما يلي :

١ – ان الدين المسيحي يُصلح في الطبيعة البشرية ما أفسدته الخطيئة الاصلية ولا يضاد هذه الطبيعة او يكبتها . ذلك ان المعصية الأولى التي ارتكبها الانسان الأول آدم بملء حريته وتسلسلت عنه الى ابنائه من بعده ، تركت في الطبيعة البشرية آثار جراح لم تشفَ بعد . وهذه الجراح هي التي تنشأ عنها هذه النزوات والاهواء والاميال المعوجّة . لذلك نقول ان في الطبيعة البشرية ما هو غير صالح يشعر به الانسان ويرذله في سرّه عندما يعود الى رشده . وهذه النزوات الملتوية هي التي تدفع الى اعمال يقبّحها العقل وتعاقبها السلطة . ولو كانت هذه الاعمال وهذه النزوات حسنة لما قبّحها العقل ولا عاقبتها السلطة . فهي قبيحة ومع ذلك فهي صادرة عن الطبيعة البشرية . ولو كانت كل رغبات الانسان حسنة ، لما كان من حاجة الى ارسال انبياء ، وانزال اديان ، وسن شرائع وقوانين .

٢ – ان الانجيل لم يأمر باعتناق الحياة الرهبانية التي يزعمون انها تضاد الطبيعة البشرية ، لكنه نصح بها . ومن اعتنقها حراً عاهد ربه على الاقلاع عن ارضاء الرغبات الحسية . والحال ان ازدهار الحياة الرهبانية في المسيحية واقبال الفتيان والفتيات بملء رضاهم على التقيّد بضروراتها لبرهان مقنع على ان الدين المسيحي يحاول اصلاح الطبيعة البشرية وان الانسان يمكنه ان يقمع اهواءه ويكفُر بملذات الحواس ، بطيبة خاطر ، وبقوّة الله . واذا كانت الحياة الرهبانية على ما هي عليه من صرامة ميسورة على معتنقيها ، فكم تسهل ممارسة الواجبات المسيحية العادية على من يرغبون في التقيّد بها ؟ وليس في ذلك ايّ كبت لرغبات الطبيعة .

٣ – ان الدين المسيحي طبيعي وسماوي معاً . هو طبيعي لأنه يحترم ما في الطبيعة من صلاح ولا يصلح الاّ ما فسد فيها من نزوات واميال . وهو سماوي لأن الله انزله ، ليرفع الانسان اليه تعالى بما يطلبه اليه من سعي وراء الكمال عملاً بقول السيد المسيح : « كونوا كاملين كما ان اباكم السماوي هو كامل » (متى ٥/٤٨) . لذلك بات باستطاعتنا ان نقول : « ان ديناً يدّعي انه سماوي ، ويتساهل مع الانسان في اشباع ملذات الحواس ، ولا يطلب منه كل ما يستطيعه في مجال الكمال لا يستحقّ ان يدعى سماوياً ، وكيف يُقرّ الله الكامل القدّوس – دون ان يعطّل كماله وقداسته وبالتالي الوهته – ديناً يتساهل مع الانسان فيبيح له ارضاء امياله المعوجّة ، ولا يطلب منه الاّ قليلاً من جهد في مجال الادبيات ، في حين هو يقوى على الكثير ؟ كيف يقرّ الله

ديناً يرضى من الانسان التخاذل ، في حين هو يقوى على السير قدماً في طريق الكمال ، وقد قال احد المهتدين الى النصرانية في القرون الاولى ما معناه : « اني تركت ديني لأنه لا يأمرني بكل ما استطيع عمله في مجال الكمال . فأنا استطيع ان اعمل في هذا المضمار اكثر بكثير ممّا يفرضه عليّ ديني . لذلك تركته واعتنقت الدين المسيحي ، لأنه يفتح لي منفذًا أطلّ منه على الكمال الذي هو الله » . وان ديناً يعمل على تحرير الانسان من الماديّة وشهوة الحس ليرتفع به الى الله الذي كشف له عن اسراره لهو دين حق . ولا يرتفع الى الله الذي جوهره روح الاّ من يحيا حياة الروح في الدين الحق .

خاتمة

هل أخفق الإنجيل

ان كتيّباً باح الى الناس بابوّة الله ونادى بعنايته بمخلوقاته وبالوهة السيد المسيح الذي هو ابنه الفادي ، وبعث في النفوس الرجاء بعالم افضل ، وهوّن على المتعبين اتعابهم وبشّر بالاخوّة والتسامح والرفق والتواضع ، وحرّر الضمائر من سلطان الظلم وانتاش الضعيف من براثن القوي المستبدّ .

ان كتيّباً هدمت تعاليمه كبرياء الانسان ، وقمعت شهواته ، وحطّمت غطرسته وسارت شعاعاً مطمئناً يعمل في قرارة كل نفس ، فيصقل الخلق وينشئ المدنيات .

ان كتيّباً استنفرت تعاليمه جيوشاً من المتصوّفين والفتيان والعذارى والشيوخ بفنون الحياة في خدمة الناس اخوانهم فيضمّدون جراح الجرحى ويمسحون دموع البائسين .

ان كتيّباً فاقت تعاليمه تعاليم البشر ، وحكمته حكمتهم ، فقدّسه الناس وتناقلته الشعوب واستنارت بهديه الأمم ، واضاءت انواره كل بقعة من بقاع الارض رغم ما اصاب ويصيب المبشّرين به من ضروب العسف والتنكيل .

ان كتيّباً تنطبق مبادئه على كل عصر ومصر ومدنية . فيبقى على جدّته ، رغم جلال القدم يلبّي حاجة النفوس ، ويفي بماتطلبه الجماعات من نظم ودساتير .

ان كتيّباً يفيض العزاء على قلوب سحقتها المصيبة ، ويذكّر بالحساب من أبطرتهم النعمة ويبعث على استطابة العيش من خنقتهم يد الظلم واليأس .

ان كتيّباً صارع الفلسفات والمبادئ الفكرية من كل لون ، وخرج منها ظافراً فبادت وظلّ على اشراقه ولمعانه .

ان كتيّباً قامت عليه مدارس فلسفية ولاهوتية في الشرق والغرب ، وتناوله النقّاد والشرّاح بالتحليل والتمحيص ، فاذا هو براء من ايّة شائبة تناقض او خطل .

ان كتيّباً استهدى السذّج وغذّى عقول الفلاسفة واثار اعجاب رجال الفكر والفن ، وقاوم القوّة الغاشمة فقوي عليها ولم تقوَ عليه ، وأوجد «هداة الكون وقادته» ، على ما قال برغسون .

ان كتيّباً كان حبة خردل ما لبثت ان نمت وسمقت اغصانها وتشعّبت فأتت طير السماء تتفيأ ظلها ، وينبوعاً ثرًا يُقبل على الارتواء من زلال تعاليمه كل سنة ما يقارب المليون من العطاش الى المعرفة والنور .

ان كتيّباً هذا شأنه ، ليس من صنع بشر ، ان هو الاّ وحي من الله ، خالداً بخلوده ، ما اخفق ولن يخفق لأنه صنع إله . فهو يحمل طابع الحقيقة المجرّدة ، طابع السماء .

« والذي ارسلني هو حق والذي سمعته منه به اتكلم في العالم ... لأن الاعمال التي اعطاني الآب ان اتممها هي تشهد لي بان الآب قد ارسلني » (يو ٨/٢٦ ، ٥/٣٦) .

مآخذ ومصادر

الأب انطون رباط اليسوعي : الانجيل الشريف (المشرق ١٩١١) .

القديس توما الاكويني : الخلاصة اللاهوتية ، ترجمة الخوري بولس عواد المطبعة الادبية ، بيروت ١٨٨٩) .

الأب جبرائيل عقيقي اليسوعي : ايماننا المسيحي (المطبعة الكاثوليكية ١٩٥٥) .

الخوري الياس الجميل : اللاهوت النظري (الطبعة الثانية ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٤) .

Blaise PASCAL : *Pensées.* (Éd. complète, Montréal, Variété, 1944).

Léonce DE GRANDMAISON, S.J., *Jésus-Christ.* (Beauchesne, 2e éd. 1929).

Karl ADAM : *Jésus le Christ.* (Trad. Ricard. Grasset, édit. 1934).

» » *Le Christ notre frère.* (Trad. Ricard. Grasset, édit. 1932).

» » *Le vrai visage du catholicisme.* (Trad. Ricard. Grasset, édit. 1932).

Romano GUARDINI : *Le Seigneur.* (Trad. Lorson, S.J., Alsatia, 1re éd. 1945).

Joseph BONSIRVEN, S.J.: *Les Enseignements de Jésus-Christ.* (Beauchesne, 1re éd. 1946).

Henri MORICE, *L'âme de Jésus.* (Aubanel père, Avignon, 2e éd. 1945).

Gaston SALET, S.J. : *Trouver le Christ.* (Casterman, 1955).

Henri DE LUBAC, S.J. : *Catholicisme.* (Le Cerf, 4e édit. 1947).

» » » *Méditation sur l'Eglise.* (Aubier, 3e éd. 1953).

A. D. SERTILLANGES : *La philosophie morale de St. Thomas.* (Aubier, 2e éd. 1942).

A. D. SERTILLANGES : *Le problème du mal.* (Aubier, 4e éd. 1949).

A. D. SERTILLANGES : *Catéchisme des incroyants.* (Flammarion, 1930).

C. S. LEWIS : *Le problème de la souffrance.* (Traduction de Marguerite Faguer. Desclée, 1950).

Jacques LECLERCQ : *Leçons de droit naturel,* t. I, II, III, IV. (Bruxelles, Dewit, 1927, 1929, 1933).

Gustave NEYRON, S.J. : *Histoire de la charité.* (Spes, 1927).

Emile CHENON : *Le rôle social de l'Eglise.* (Bloud et Gay, 1922).

Jean MOUROUX : *Le sens chrétien de l'homme.* (Aubier, 1945).

Jean GUITTON : *La Vierge Marie.* (Aubier, 1949).

Yves CONGAR : *Esquisse du mystère de l'Eglise.* (Le Cerf, 1941).

Mgr Joseph HOLZNER : *Autour de St. Paul.* (Alsatia, 1953).

Emmanuel MOUNIER : *L'affrontement chrétien.* (Ed. du Seuil, 1948).

A. d'ALÈS, S.J. : *Dictionnaire apologétique de la foi catholique,* t. II. (Beauchesne, 1911).

F. VIGOUROUX : *Dictionnaire de la Bible,* t. IV. (Letouzey et Ané, 1908).

Yves DE MONTCHEUIL : *Aspects de l'Eglise.* (Le Cerf, 1945).

B. HARING : *La loi du Christ,* t. 1 et 2. (Desclée, 1956).

J. DANIÉLOU, S.J. : *Approches du Christ.* (Grasset).

Dom Charles MASSABKI : *Le Christ rencontre de deux amours.* (Édit. de la Source).

J. JOMIER, O. P. : *Mideo* no 6.

» » : *La vie du Messie.*

فهرس الكتاب

الجزء الاول

شخصية يسوع المسيح

الفصل الاول

طبيعة يسوع المسيح وفضائله

الفصل الثاني

صحة رسالة يسوع المسيح

رسول السماء

الفصل الثالث

الوهة يسوع المسيح

الفصل الرابع

غاية تجسد ابن الله

الفصل الخامس

يسوع المسيح فادي البشر

صفحة

الفصل السادس

قيامة يسوع المسيح

صفحة

الفصل السابع

المسيح سيد التاريخ والزمن

(المسيح وشهوده في التاريخ)

صفحة

الجزء الثاني

تعاليم يسوع المسيح

الفصل الاول

مشاكل الحياة الكبرى

صفحة

الفصل الثاني

الانسان والله

صفحة

الفصل الثالث

الكنيسة

صفحة

الفصل الرابع

شرعة الانجيل في الحياة العامة

الفصل الخامس

شرعة الانجيل في الحياة الخاصة

صفحة

ل.ل. ١٠